AL-ITHNAINYA
الاثنينية

منتدى أدبي ثقافي أسس بجدة عام ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م

الأعمال الكاملة

للأديب الأستاذ

عبد الله عبد الرحمن الجفري

الجزء الثالث

الروايات

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الاثنينية
(٣٢)

الأعمال الكاملة

للأديب الأستاذ
عبد الله عبد الرحمن الجفري

الجزء الثالث

الروايات

الناشر
عبد المقصود محمد سعيد خوجه
جدة

ⓒ عبدالمقصود خوجه ، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجفري ، عبد الله عبد الرحمن

الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الله عبد الرحمن الجفري ./ عبد الله عبد الرحمن الجفري .- جدة ١٤٢٦هـ

(٦ مج ٤٢٢٠ ص) الجزء الثالث ٨٤٤ ص ؛ ١٧×٢٤سم (كتاب الاثنينية ٣٢)

ردمك ٠-٨٢٧-٤٧-٩٩٦٠ (مجموعة)

٠-٨٣٠-٤٧-٩٩٦٠ (ج٣)

١ - الأدب العربي - مجموعات ٢ - الجفري ، عبد الله عبد الرحمن

٣- الأدباء السعوديون أ- العنوان

ديوي ٨١٠,٩٥٣١ ١٤٢٦/٢٣٨١

رقم الإيداع : ١٤٢٦/٢٣٨١

ردمك : ٠-٨٢٧-٤٧-٩٩٦٠ (مجموعة)

٠-٨٣٠-٤٧-٩٩٦٠ (ج٣)

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

صدرت هذه الأعمال بمناسبة "مكة المكرمة" عاصمة الثقافة الإسلامية

حقوق الطبع محفوظة

الناشر

عبد المقصود محمد سعيد خوجه

جدة

فهرس المحتويات

الروايات ....
الحلم المطعون ....
الفصل الأول ....
الفصل الثاني ....
الفصل الثالث ....
الفصل الرابع ....
تلك الليلة ....
الفصل الأول ....
الفصل الثاني ....
الفصل الثالث ....
الفصل الرابع ....
أيام. . . معها ....
هي. . . وهو ....
الفصل الأول: عودة الحلم! ....
الفصل الثاني: المثقفة ....
الفصل الثالث: العودة المفاجئة ....

الفصل الرابع: قمة المعاناة ....
الفصل الخامس: السلام مع النفس ....
الفصل السادس: لؤلؤة القلب! ....
الفصل السابع: تفجيرات الإرهاب! ....
الفصل الثامن: إغماءة.. وتقاعد عاطفي! ....
الفصل التاسع: يعيش ولا يحيا ....
الفصل العاشر: مواجهة ما سيأتي! ....
الفصل الحادي عشر: غريب رغم القرب! ....
الفصل الثاني عشر: انفلونزا أمريكية استعمارية! ....
الفصل الثالث عشر: اللحظة التي تبكينا! ....
الفصل الرابع عشر: القرفانة! ....
الفصل الخامس عشر: أجراس في حياتها! ....
الفصل السادس عشر: التأمل جُوَّانياً! ....
العاشقان ....
الفصل الأول: ....
الفصل الثاني: الإستراحة / التعب ....
الفصل الثالث: عبث الجمال ....
الفصل الرابع: السلطانة المعشوقة؟! ....
الفصل الخامس: طرقات الهجر ....
فهرس المحتويات ....

الـــروايات

الحلم المطعون

الفصل الأول

(١)

هذا المساء.. متى أطلَّ؟!

ـ حين هبطت الطائرة في المطار الذي يمّم وجهته نحو عاصمته.. كان صدره: حقيبة مغلقة على «قلبه»... وكان قلبه غافياً يستريح من الأوجاع التي أحدثها فيه الناس!

أمام موظف الجوازات، سأله: كم ستبقى بيننا؟!

ـ كأنه لم يسمع سؤاله المحدد.. لكنه أجابه: أنا تعبان أبحث عن الراحة!

ـ ابتسم في وجهه: ساخراً، أو مشفقاً، أو متعاطفاً مع تعبه.. وناوله جواز السفر، وهو يقول له:

«إقامة سعيدة.. إرتح حتى تسأم من الراحة»!

ـ وتناوله من بعده موظف الجمارك، ليحاصره بأسئلته المعتادة:

ـ هل في حقائبك أشياء ممنوعة... أجهزة كهربائية؟!

قال ضاحكاً أو مستظرفاً: نعم.. في حقائبي أدوية ممنوعة على الأصحاء والأطفال!

ـ قال عابساً: الله يشفيك!

ـ وفي ساحة الاستقبال الداخلية من المطار.. لاحقه العشرات من سائقي وأصحاب سيارات الأجرة، وكان يريد أن يقذف بجسده في أي مقعد وعربة تحمله إلى الفندق.

ـ وأول ما «استقر»، جسمه داخل العربة.. التفت السائق إليه، وأخبره بالأجرة ـ تحسس جيوبه، وفتح حقيبة يده.. وقال له مازحاً:

هل تأخذ ريالات سعودية؟!

ـ قال متحمساً: «ومالو.. ما دامت عملة صعبة» ولو أني أفضل الدولار!

قال: أشكرك.. أحياناً أحتاج أن أحدث نفسي، و.. ياليتها تتحملني!

ـ وبدأ حديث السائق من المطار إلى الفندق... بدءاً من الطقس والحرارة، والصيف، والزحام، وتدفق السُّواح.. وإنتهاء بقيمة «الدولار»/ الأمبراطوري الذي صار يتحكم حتى في أخلاق الناس ومبادئهم!

ـ ترك السائق يثرثر طوال الطريق.. وهو يحلم بسرير وثير، وحمّام دافئ.. واسترخاء.

ـ واختفت الشمس، وبدأت مواكب الليل تتوالى.

ـ موظفو الاستقبال في الفندق يعرفونه جيداً، فهو كثير التردد والإقامة في هذا الفندق الذي يمنحه الشعور بالهدوء والراحة.. ربما لأنه خرج من دائرة الصخب، وازدحام السياح من منطقته.

ـ خفُّوا لاستقباله والترحيب به.. فهو نزيل لا ينقطع حضوره!

ـ فجأة.. وجد أمامه فتاة مليحة، شقراء الشعر، وقد أرسلته من فوق كتفيها ليغطي ظهرها.. ورسمت ابتسامة: لا تضحك بمقدارها تهمس.. كأن لابتسامتها صوتاً نغوماً.

قال له موظف الاستقبال: الآنسة في خدمتك، ستدلك على مكان إقامتك.

ـ قالت له بضحكتها ويدها ممدودة إليه: تفضل من هنا.

ـ في المصعد الذي حملهما وحامل الحقائب إلى الدور الخامس والعشرين.. سألها وهو مُغض ناظريه، يتحاشى النظر إلى ابتسامتها الهامسة:

ـ لم أحظ من قبل برؤيتك في هذا الفندق الذي أقصده كلما جئت إلى هنا منذ عشر سنوات؟!

قالت: ما زلت جديدة.. لم أكمل ستة أشهر بعد... فهل تجيء دائماً إلى هنا؟!

ـ قال: دائماً بمعنى الشوق وكل شهرين بحساب الأيام.

قالت: جوابك جميل.

ـ قال مبتسماً: ليس أجمل من ابتسامتك!

قالت له وهي تودعه عند مدخل «السويت»: لو احتجت لأي شيء.. أرجوك لا تتردد في الإتصال بي، وهذا رقم مكتبي.

ـ وتركها تمشي وهو يتأمل خطواتها وليست خطواتها.. حتى صارت في منتصف الممر، فناداها:

ـ يا آنسة. . . عفواً، لم أتشرف باسمك؟

قالت بتلك الابتسامة الهامسة: إسمي «نَوار». . . الكثير سألوني بعد سماعهم عن معنى الاسم!

ـ قال ضاحكاً: اسم كنغم موسيقى. . . كنبع الكوثر. . نادر، وملفت و. . متموج!

رمى «جاكتته» على الكنبة، ورمى جسده على السرير. . عاقداً يديه تحت رأسه، وهو يهمس بينه ونفسه:

ـ نَوار. . اسم لم أسمع به كثيراً، مثلما أنا لم أشاهد ـ من قبل أيضاً.

ـ ابتسامة تهمس، فكيف إذا همس صوتها. . . لا بد أنه هَمْس مبتسم؟!

ـ غفا بضع دقائق كأنه يحلم. . وليس غير وجهها: حلم ماتع. . فقد أغمض عينيه في اليقظة، واختلط وجهها بماء عينيه.

ـ رفع سماعة الهاتف ليطلب بلده، فلم يستطع بسبب التشويش في جهاز الهاتف. . ابتسم فقد وجد حُجَّة. . وطلب رقمها، فجاءه صوتها كعصفور ينطلق في الفجر. قال لها:

ـ أنا عادل!

قالت: عرفت صوتك. . ولكني أسألك: هل أنت عادل بالفعل أم ظالم؟!

ـ قال: أتمنى أن تمنحيني فرصة إثبات عدلي دائماً.

قالت: وكيف أمنحك هذه. الفرصة؟!

ـ قال: بنَفْي ظلمك لي!

قالت: ياه.. أنت خطير، وأنا لست قدّك.. فهل تأمرني بخدمة؟!

ـ قال: نعم... هذا الهاتف غير صالح ويحتاج لمهندس.

قالت: حالاً.. المهندس وأنا.

ـ ولم يستطع الثبات، ولا الجلوس، ولا البقاء على حالة واحدة.. يقف ويتجه إلى الشرفة.. يعود ويجلس على حافة السرير.. يقفز يركض إلى الباب.

ـ كانت أمامه من جديد بنفس الابتسامة الهامسة، ومعها عامل الهاتف.

سألته: هل أنت شاعر؟!

ـ قال: مَنْ يراك لا بد أن يتحول إلى شاعر، حتى لو كان يعمل في الحديد والصلب.

قالت: ما هي مهنتك بجد؟!

ـ قال: فنان.

قالت: تُغنِّي، أو ترسم؟!

ـ قال: أُغني، وأرسم، وألحنّ، وأصور، وألوِّن..

قالت: ياه.. كل ده؟!

ـ قال: نعم... كل ده، بالكلمة!

قالت: شاعر يعني؟!

ـ قال: أعتز بهذا الوسام منك... خلاص: شاعر.

قالت: هل تأمرني بخدمة أخرى؟!

ـ قال: نعم.. تسمحين لي بصوتك المغْرى، يُفتِّح ورودي وفرحي كل صباح.

ـ نظرت إليه جانبياً، وما زالت ابتسامتها مرسومة على شفتيها الصغيرتين كحبَّتي كرز، وأقفلت بابه خلفها وقد تركته للصمت، وللأصداء، و... لهذه الليلة الأولى!

ـ الآن.. أطلَّ المساء الموحش، وكان يحلم بمساء منعش.

ـ وسرقته لحظات من التأمل، واسترجاع صوتها وضحكتها وأسئلتها... وما لبث أن قفز من فوق سريره، وقد صمم أن يأخذ حمّاماً بارداً ليفيق.

قال يحادث ذاته: «إيه يا ولد شغل المراهقة؟!.. صحيح البنت حلوة، ولكن: العقل زينة»!

ـ إذن... قرر أن يلوذ إلى العقل، ويكتفي بلحظاتٍ سرقها من الفرح الغائب عنه منذ فترة بعيدة!!

* * *

(٢)

كانت الإغفاءة تداعب عينيه من تعب السفر، حين رنَّ جرس الهاتف.

ـ تمنى وهو يضع السماعة على أذنه أن يسمع صوتها المغري، وأراد أن يلصق أذنه.. فما لبث أن أبعد السماعة قليلاً، وهو يفرّ من صوت موظف الاستقبال الذي قال له: إنه يطمئن على راحته لا أكثر!

ـ تحدث بالهاتف إلى صديقه الحميم منذ أكثر من عشرين عاماً «سيف»، معلناً بقدومه.. ويستطرد في مزاحه معه:

ـ إسمع.. لديك ساعة واحدة لتكون أمامي، مشتاق لك جداً.

سأله سيف ساخراً: مشتاق لي.. أم لهذا الليل المنعكسة أضواؤه النشوى على صفحة نهرنا الخالد؟!

ـ قال عادل: والله العظيم.. لكما معاً، ولذلك الرجل الطيب الذي فاض بياض قلبه حتى بلغ شعر رأسه: «عم أحمد».. أرجوك أن تصطحبه معك.

قال سيف: عجيبة والله... تتبادلان الإعجاب في أذني، كل واحد منكما من وراء الآخر.. وأنا «ياخويا.. مين يسِّمعني كلمة حلوة»؟!

ـ قال عادل: أنت بذاتك.. الكلمة الحلوة.

ضحك سيف يقول: «إنت بكّاش.. بس باحبك»!

ـ وأراد أن يفوق من خدر تلك الإغفاءة، فطلب فنجان قهوة ـ على الريحة ـ كما يحبها دائماً، ليصُكَّ دماغه.. واستعد للقاء صديقيه الحميمين... في أول ليلة له في مدينة النهر، بعد غياب عنها «طال» أكثر من شهر،... وعام!!

وكعاده صديقه «سيف» في مواعيده معه.. فقد وصل إليه بعد ساعتين بدلاً من ساعة، لكنّ الغبطة تشيع في أرجاء نفسه، وابتسامته عريضة.

ـ وكان وجهه السعيد: أول ملاحظات صديقيه/ سيف وأحمد.. حين قالا معاً:

ـ «إيه الحكاية... إنت بتحب جديد... مالك مش على بعضك وفرحان»؟!

قال لهما: حقاً.... الناس لا يعجبهم العجب.. إن عبس الواحد، سألوه: مالك.. وإن ضحك أيضاً سألوه مالك؟!

ـ قال سيف: لأ... وضعك غير طبيعى، نحن أصدقاؤك ونعرفك يا عادل... ياللى بتبقى ظالم أحياناً!

قال: ربما أصبح ظالماً لنفسي.. لكنَّ ظلمي للناس، مجرد الخوف منه: يرعبنى.

ـ قال أحمد: من فضلك.. لا تقلبها دراما، اعترف... إنت بتحب جديد، ومين؟!

* * *

علت قهقهاتهم... منبعثة من أرجاء المطعم المطل على «النيل» ـ مطعم عادل المفضل الذي يهرع إليه أحياناً في شمس الصيف الحارة ـ والحديث بينهم يتنوع، ويزهر بمشاعر الود التي غرست صداقتهم الطويلة في عمق الأيام.. فتحولت إلى جذورٍ لشجرة وِدًّ لا يباع ببخس.. كما يحدث في أيامنا هذه!

ـ ويشرد ببصره وخواطره على امتداد صفحة لنيل، والأضواء المنعكسة عليه: متراقصة... وفي صدره شجون من الصداقات التي كانت ثم بادت كالحضارات.. وأحدثت في إثرها: جروحاً، وارتطامات نفسية، بل وفجيعة في من تمنحهم الثقة والصفاء، فيطعنون أنقى المشاعر في الإنسان!.

ـ لكزه «سيف» في خاصرته.. يشاكسه:

ـ «هيه.. إللى أخد بالك»؟!

قال: ليس وراء ما ظننت، وان كان قلبى انشغل بها... لكن عقلى كان يطرد وراء مواقف ردئية لبعض الذين كنت أظنهم: أصدقاء!

ـ قال أحمد: «ياه أيها الرجل الشاعر.. لقد وطّنا نفوسنا على ما تظنه شيئاً غريباً أو مفجعاً، وقد صار سلوكاً في وقتنا الحاضر.. اعقلها وتوكل ياعم عادل».

قال: عقلناها... هى لمحة من الشرود في القرود!

ـ قال سيف: لقد رويت لنا حكاية ست الحُسن «نَوار».. ولكنى أقول لك: لا تنزلق.. لا تندفع.. لا تغرق.

قاطعه أحمد مكملاً: «انها اللاءات الثلاثة.. فاكر، ولابد أن تُنجيك من المهالك النسائية،! إغراءات الجمال الذي يبدو والله أعلم أنه لا قيمة له من داخله... بُتيتاً»!

ـ قال عادل: «يا جماعة... البنت رقيقة جداً كالنسمة... شفافة جداً كالزجاج.. ناعمة جداً كالحرير».

قال أحمد: «لا حول إلا بالله... الواد... إيه، إيه... بتقولوا إيه في لهجتكم»؟!

قال عادل: نقول «أتهبل» خلاص.

قال سيف: «واتهبل عندنا برضه.. والهبال واحد، إنما أحمد خايف عليك أيها الرومانسي من كيدهن.. وأنت و... حرارة حبك، أو لهبه الذي لم يخمد بعد... فاكر»؟!

ـ تواصل الحوار بين هذا الثلاثى المتجانس، كأنهم شخص واحد.

ـ وتواصل الليل بالسهر في أصداء «مينا» وظلال الكرنك.

ـ وطرأ سؤال ليس في الموضوع على ذهن «عادل» فقال لصديقيه:

ـ «صحيح.. ليه السياح العرب لا تشدُّ أكثرهم: المواقع التاريخية والآثار القديمة العظيمة.. وقد سألت البعض عن الاهرام، فأكتشفت أنه لم يذهب إليها (بعد!).. وهؤلاء يركضون إلى المسارح، والمطاعم، والنوادي الليلية»؟!

قال سيف: «ربما... لأن كل شعب لديه مواقع وآثار تاريخية..، ولكن ليس لديه: مسرح، مثلا»!

ـ قال عادل: تبرير مثقفين ومنحازين إلى المسرح باعتبارك من نجوم كتّاب المسرح.

قال أحمد: «لأ.. لأ.. اسمعوا، السبب يعود ياحبايبي إلى الزهق.. الناس زهقانه من الحجارة، والزلط، والأتربة التاريخية، والأطلال... الدنيا مليانة حجارة وزلط وتراب... والنفوس عطشانه سهر زي الغنِّيوه ما بتقول.. إفهموها يابجم»!

ـ قال عادل ضاحكاً: «تقصد إن حرارة الصيف تعمل في الناس كل هذا التعرِّي لرغباتهم في المرح والسهر»؟!

قال سيف: ويمكن.. رغباتهم في الضحك من خلال مسرحية.

ـ قاطعه عادل: «إوعى تقول.. مسرحية هادفة»!

قال سيف: عارف رأيك والله العظيم، ومعك حق في بعض المسرحيات وليست كلها!!

ـ قال احمد: «وبعدين بقى... صارت سهرة ثقافية، فنية، مسرحية، نقدية خلونا نعرف التفاصيل الدقيقة لشخصية ست الحُسْن/ نَوار»!

صرخ سيف: «تانى يابو حميد.. ما صدقّنا الراجل اتلهى شوية.. تذكّره ليه»؟!

ـ امتدت نظرات «عادل» إلى فتاة شقراء الشعر، مياسة القد، مربوعة القوام... وأخذ يردد كأنه يهدرش:

ـ «شوف ـ شوف.. سبحان الله كأنها هي، لو فَردَت شعرها على ظهرها»!

ـ ضحك الصديقان، وقال له أحمد:

ـ «يابنى روح للطبيب... حالتك صعبة»!

قال سيف: «هِيّا حلوة كده»؟!

ـ نظر «عادل» إلى صديقه سيف شذراً وهو يقول له:

ـ «إبعد.. أعرفك ذئب».

وطافت النسمة المنعشة بضحكات الثلاثى الحميم.. كأن الضحكات تصدرمن صوت واحد... وقد شارف الليل على الرحيل إلاّ قليلاً.

قال عادل: أريد أن أعود إلى الفندق لأنام.. أنا تعبان.

ـ قال أحمد: تنام من أجل أن تستعجل الصبح. فتراها، وانَّ الصبح لقريب!

قال سيف «يا أخي. . أنت بتقرأ أفكاري، وبتقرأ نفسية هذا الرجل الذي تحول كله إلى قلب»!

* * *

أفاق. . حين كانت الشمس تتوسط مساحة شرفة غرفته، رغم الستارة التي أسدلها.

ـ الساعة العاشرة صباحاً، لم يرن جرس الهاتف. . فهل يطلبها ليسمع صوتها؟!

ـ قال لنفسه: «لا. . . اتقل يا ولد. ، الركاده زينه»!

ـ أمسك سماعة الهاتف، ومازال على سريره، ولكنه تراجع.

ـ وقام من سريره بعد أن طلب فطاره. . .

ـ لا أحد. . . لا أحد، مادامت أنها لم تطلبه!

ـ ولكن. . لماذا تطلبه وهو مجرد نزيل مثل غيره؟!

ـ عصفت به الحيرة. . . لا يدرى: هل هو في انتظار الفطار، أم الهاتف؟!!

* * *

(٣)

«نوار»: ليست أنثى أخرى. .

ـ المساء الذي أضاء فيه وجهها فغمر ظلال نفسه: لم يكن مساء آخر كالأمسيات التي تتكرر، ثم تتلاشى.

ـ هذا الفندق الذي يقصده في كل رحلة له إلى «القاهرة» يختلف تماماً في بهائه وراحته عن كل المرات السابقة التي ارتاح فيها داخله.

ـ في كل زيارة له.. كان يحاول أن يُجمِّع نثار نفسه، ويغتسل من قلقه وأوضار الهموم.. فيختفي في جوف الفندق أياماً: يسترخي، ويتأمل، ويقيم حواراً مع نفسه ما بين عقله ووجدانه.. فكأنه يضع فلتراً يُصفِّي به الكدر، ويفتت الصدمات.

مرة واحدة: قست عليه هذه المدينة التي تفيض بالبَشَر فوق احتمالها.

ـ كانت.. يوم جاء ليواجه «أنثى رافضة» بلورها عشقه في عطاء وقيمة: المرأة/ القرار، التي كان يعتقد أنه لن يحب غيرها، ولا يرتبط من بعدها بامرأة يجد فيها: شموسها، وأقمارها، ونجومها، وعشبها، وأنهارها.

ـ لكنها أجهزت على حلمه، ومزقت قلبه حتى حولته إلى ما يشبه نشارة الخشب.

ـ يومها ـ أيضاً ـ اكتشف أنها: امرأة تعاني من رغبة الانتقام من كل رجل.. يعشقها، وتطعن في صدقه لها.

ـ وهجر هذه المدينة... غاب مع انطفاء شموس الأنثى الرافضة، وانحسار أقمارها، وجفاف عشبها، وغيض أنهارها... وطال غيابه وقتاً أكثر من العام، حتى تغلّب على صدمته، وعاد إلى هذه المدينة التي تمنحه دائماً: «التجدد، والصفاء».

ـ وضع ثلجا في كأسه، مختلطاً مع الليمون الذي يشربه كل صباح.

ـ كم تتحول الوجوه في مرآة أصحابها إلى ملامح غريبة عندما تحتشد علامات الاستفهام!

ـ استيقظت معه علامة الاستفهام الأولى التي تخمّرت في ذهنه منذ مطلع المساء الآفل:

ـ هل ستطلبني بالهاتف. . أم أطلبها ولا أنتظر؟!

ـ هذه أنثى أخرى. . . . مختلفة، غامضة. . . مظهرها براق، وعيناها تومضان بوعد تملكه هي وحدها.

ـ بدأ طقوس صباحه بعد عصير الليمون: حلق ذقنه، وكوى قميصه بالمكواة التي يودعها في حقيبة سفره مع ملابسه دائماً. . وعاد إلى الطاولة وأكمل تناول إفطاره.

ـ رن جرس الهاتف. . . أخيراً!!

ـ قفز من مقعده إلى جانب السرير في خطوة واحدة:

ـ ألو. . . نعم، سكون في «الهول» بعد ربع ساعة!

ـ سائق السيارة التي استأجرها لمشاويره اليومية.

ـ أكمل ارتداء ملابسه، و. . . عاد جرس الهاتف:

ـ ألو. . أهلاً «نوار»!

قالت له: هل شربت قهوة صباحك!

ـ تلجلج. . . تعثرت الكلمات وهي تتلكأ بين شفتيه. . قال لها:

ـ هل لديك بُنْ «محوجّ»؟!

قالت ضاحكة: «نجيبه لو كان مفيش».

ـ قال: خمس دقائق، و. . . وينجلى نظرى بوجهك!

* * *

ينطلق نحو المصعد، بعد أن انتقى ألوان بذلته وقميصه وربطة عنقه.

ـ حين فتح باب المصعد، كانت أمامه. . . وجهها كله تحول إلى تلك الابتسامة التي تهمس:

ـ صباح الخير.

أنت الخير، والفرح.

ـ حاول كفه الأيمن أن يحتوى كفها الأيسر. . لكنّ كفها راوغ حتى أفلت من الأسر، أو لعله خاف من الدفء.

ـ قالت: «عملت القهوة بإيديّه».

قال: يسلمولي أرقّ، و. . . أذكى إيدين!

ـ ضحكت كأنها تهمس، فصوتها لا يرتفع فوق الإصغاء القريب منها.

قال: انتظرت أن تُصبّحي علي يوم أمس، وراهنت نفسي وخسرت الرهان.

ـ قالت: ولماذا لم تفعل أنت؟!

قال: حتى لا أزعجك. . والاّ لكانت المبادرة منك.

ـ قالت: يبدو أن كل واحد منا يظن أنه مزعج للآخر؟!

قال: في حين أن «المحسوس» ـ فيما يلوح لي ـ غير ذلك.

ـ تركت نظراتها ترد على إجابته، وتواصل الحوار الصامت، الهامس بالنظرات.

ـ وساد الثوانى: سكوت لم يحتملاه.. فمدَّ «عادل» يده إلى «نوار» بظرف مغلق، وقال:

ـ إئتلقت خواطري بجمال ومعاني اسمك، فكتبت كلمات من وحيه، ومن رعشة أضلعي به.

قالت: «ياه.. أنت شاعر بالفعل لكن المظروف تخين.. كل ده كلام»؟!

ـ فقال: ستفتحينه بعد أن أذهب.. لتجدي بداخله الكلام المكتوب، و... المجسد!

قالت: ولماذا لا أفتحه الآن؟!

ـ قال: لا أريد ـ من المرة الأولى ـ أن أقرأ تعابير وجهك مما ينعكس عليه من معانى الكلام والمضمون.. أفضلّ أن تصفيها وتحكيها لي أنت.

قالت: أنت غريب.

ـ وركض من أمامها... أحس أنه يجلد ساقيه كظهر الحصان لتنطلقا به إلى بعيد، وهو يغيب في جوف المصعد هابطاً إلى الصالة الرئيسية للفندق.

كانت أحلامه في أكثرها: تخضع لليقظة لا للنوم... في نومه لا يحلم كثيراً، بل نادراً، لكنه يمتلك القدرة على إغماض عينيه، والسفر بخيالاته، وأحلامه على أجنحة نورسية بيضاء... بمقدار ما تفيض بالحزن، بمقدار ما هي مشبعة بمتعة الخيال، ورسم صورة للحياة الخالية من الكدر، وصورة للأحياء الأصحاء المعافين من البغضاء.

ـ وتمنى ـ وهو في جو المصعد ـ أن يعود إلى غرفته، ويسدل ستائرها،

ويغمض عينيه. . . فيراها أكثر، ويستمتع بتجسيدها في خياله وحلمه.

ـ وتذكر أنه مرتبط بموعد مع دار النشر التي ستطبع له كتابه الجديد، والسائق الذي تركه ينتظر، ونسيه!

* * *

ـ احتضن كفها الصغير مظروف «عادل». . وسارعت إلى مكتبها ـ وحدها ـ لتفضّه وترضى فضولها بمحتواه ، وربما ترغد نفسها.

ـ مع الرسالة وجدت علبة صغيرة بداخلها «بروش» ثمين.

ـ إبتسمت. . . وهمست: «أنت عفريت يا هذا الرجل المجرّب»!

ـ وعثرت مع الرسالة على «وردة» حمراء يفوح أريجها رغم أنها قطفت ربما البارحة.

ـ اتسعت ابتسامتها، وهمست ثانية: «أنت مراهق. . . يا هذا الرجل العاشق»!

ـ وبسطت الرسالة أمامها. . تقرأ:

«نَوار: حيّرتني كثرة المعاني والصور في اسمك. . فهل اسمك يعني النَوَّار: شديد النور، أم هو اسم شهر أيار. . أم هو النُّوار: المانح للزهر نوراً؟!

ـ في كل المعاني. . اسمك يفتتح حلمى، وبوحي، وخفقة قلبي.

ـ مهلاً. . . لا أقول إنني أحببتك من أول نظرة أو لمسة يد، ولكنك أنثى ملفتة تحفلين بمظاهرات عديدة تتفجرّ منك: ملاحة وجهك، ونقاء ابتسامتك، وغموض نظرتك، وميزان كلمتك. . فمن أين جمعت كل هذه الملاحة التي

يتظاهر بها جمالك ضد القبح، في ميادين الجمال؟!

ـ تُرى... كيف فسَّرت دخولي إلى أيامك ـ لا أقول حياتك ـ بعد أن اقتحمتني كل مظاهراتك هذه، وخلخلتني، وأحدثت الفوضى في المسافة ما بين عقلي وقلبي»؟!

ـ طوت الرسالة، وهمست ثالثة: «أنت قادر على التعبير... ياهذا الرجل الكاتب»!

ـ وأعادت محتويات المظروف، ورتّبتها بداخله، وأودعتهم جميعاً في حقيبة يدها.

ـ حرصت أن تدخل في دوامة العمل، حتى يحين موعد انصرافها.

ـ تتوق الآن إلى البيت، لتعيد قراءة الرسالة، وكل رموزها!

* * *

(٤)

صالة الفندق/ المدخل: تعج بزحام بشرى، على غير ما تعودّه نزلاء هذا الفندق الدائمون من هدوء يصل أحياناً إلى حد الهمس، ولكن... ما الخبر؟!

ـ إنه موسم الزحمة التي تبلغ زحمة الصيف التي يحدثها المصطافون «الأشقاء»!

ـ وجال بنظره في أرجاء الصالة، أو بهو المدخل... وفي تجوال عينيه:

حط نظره على سيدة فارعة الطول، جمالها ملفت، وابتسامتها حافلة بالشوق، ونظراتها هي الأخرى لا تستقر.. بل تشبه كاميرا المراقبة التلفازية.. وكانت الكاتبة (سارة) من بلده!

ـ التقت نظراتهما، وابتسامتاهما... لوح ذراع كل منهما للآخر سألته:

ـ أنت تقيم هنا؟!

قال: وأنت أيضاً.. أم زائرة؟!

ـ قالت: معك... ما هذه المصادفة العجيبة.. هل جئت لمعرض الكتاب؟!

قال: للكتاب.. معرضاً، وطباعة، وقراءة... أشاهد المعرض، وأطبع كتاباً جديداً لي، وأتزود بأحدث الكتب الصادرة من عم مدبولي!

ـ سألته: «شكلك يدل على خروجك»؟!

قال: عندي موعد طباعى.. سأراك في «الكوفي شوب، حين تجمعنا المصادفة أيضاً.. لندردش.

ـ قالت ضاحكة: مواعيد النهار.. حرارة!

قال وهو يلوح لها منطلقا: حرارة النهار، ورعشة الليل!

* * *

ارتفعت شمس القاهرة في كبد السماء.

ـ نهار آخر.. لا يعرف فيه مفاجآته، ولا جنون الإنسان فيه.

ـ القاهرة: مزدحمة في النهار، صاخبة بسياراتها، ومشَاتها، والمتدفقين عليها.

ـ حرارة في الصيف... ورغم هذه الحرارة، فالعرب يتزاحمون على مقاعد الخطوط الجوية لأقطارهم، ويموجون في شوارعها كأيام الفيضان.

ـ القاهرة: معتّقة في الليل كزجاجة نبيذ محفوظة مختومة من القرن التاسع عشر... لم يهرب الزمان منها، بل هي التي حاولت أن تهرب من الزمان... تبدو كأنثى تضع المكياج على وجهها لتحتفظ بشبابها وأنوثتها!

ـ ومن خلال نافذة السيارة التي تعبر به الشوارع والميادين.. كان يراها:

ـ القاهرة... بلا مكياج اليوم، لكنها تحتفظ في لياليها بضمخة الحب والألفة.. لا يشعر مرتادها بالوحشة في الليل، حتى وإن كان وحده.

ـ في النهار... يستطيع المتجول فيها، والزائر: أن يعرف كل الناس في خلال دقائق... فهم يتمتعون بالود، لكنّ الواقع الاقتصادي، وقسوة العيش: انعكسا بتأثيراتهما على طريقة تعامل الناس فيما بينهم وبين زوّار مدينتهم!

ـ كأن القاهرة ـ في لوحتها التشكيلية الجديدة ـ تحاول القفز فوق واقعها إلى تنسم عبق ما فيها من تاريخ حافل... وأقل ذلك التاريخ:

أنهم كانوا يغسلون شوارع فؤاد وأمثاله بالصابون مع مطلع كل فجر!

* تساءل «عادل» وهو يهبط أمام الدار الطباعية لإنجاز مهمته:

ـ ترى.. هل يعرف هذا الجيل الجديد الذى انحرفت قلة منه إلى الإرهاب، والعنف، ربما بدوافع الفقر والبطالة: ما معنى شهادة التاريخ التي تشقى الشعوب، وتكدّ، وتعرق، لتجددها وتحفظها من التداعي؟!

ـ التاريخ: يشهد لماضي مصر.

ـ والتاريخ: ينتظر من يكتب واقع مصر بأمانة وإنصاف وشجاعة.

* يذكر «عادل»... يوم ذهب إلى القاهرة بعد انتصار أكتوبر/ رمضان، ليكتب شيئا عن ملحمة النصر مما سيشاهده ويستخلصه من الحوار مع رجال مصر.. فأخذوه إلى ما وراء خط بارليف المنهار بسواعد محاربى مصر.. وشاهد المخابىء التي أقامها اليهود، وكيف كان الجندي المصري يوزع ألوان اللوحة التشكيلية لمصر على فرحة النصر، فوق خارطة مصر، بل وفي صدور أهلها.. يومها: كان يسجل أقوال الجيش الثالث في حواره معه، وهو يقول:

ـ لا ندرى بعد ثلاثين عاماً.. ماذا تصبح هذه الصحراء والرمال.. لكنها كلها مصر، وستبقى لمصر!!

* * *

*مال النهار إلى الغروب... بعد أن عاد «عادل» إلى الفندق من جولته خارجه، وإنهاء بعض أعماله... وكان يتأمل وهو يحدق في سقف غرفته حين استلقى راغباً في استرخاءة وغفوة يجدد بهما نشاطه، ويُقَشِّر تعب النهار.

ـ وجه «نوار» يفترش سواد عينيه.

ـ لم يعد يدري: أتميل إليه، أم هو مجرد فضول أنثوي منها لاكتشاف أسرار رجل مجرّب عركته الحياة؟!

ـ لكنه يدري أنه: يفكر فيها بلهفة وبتواصل.. وهو يتحاشى أن تتحوّل بين أضلعه إلى: نزيف، وانتحاب.

ـ هل هو خائف من مصادرتها لخفقاته وحدها؟!

ـ لكنها تلوح كالحلم. . كالطيف. . كنسمة منعشة. . كجناح نورس قد لا يحط على صدره، إنما يواصل تحليقه ثم ابتعاده. . أي ابتعادها عنه.

ـ أحس بكابح في صدره، وسؤال يتقهقر به:

ـ «كيف أندفع بهواجسى، حتى تنحدر بي إلى هذا القلق»؟!

ـ لكنها تبلورت في حياته كالحلم. . يطارده في المنام، وفي اليقظة. . . تتجسد أمامه وهي غائبة، ويكاد يحس برقة يدها وبدفء أنفاسها!

ـ هي التفاحة. . . وهو: أدم!

ـ هي المشرط. . وهو: الجرح الجديد والنزف!

ـ وأيقظه رنين الهاتف من هواجسه وشروده:

ـ ألو. . . أنا نوار!

معقول. . . عملك ينتهى بعد الظهر.

ـ صح. . . بأكلمك من البيت.

وأخبارك إيه؟!

ـ أخباري؟!. . . إنت خلخلتنى من الداخل!

أنا. . . كيف؟!. . بالعكس، أتمنى لك الأمان، وراحة النفس.

ـ رسالتك قرأتها أكثرمن خمس مرات، وسأقرؤها بالليل قبل ما أنام.

تعرف: مفيش راجل كتب لي قبلك، وبالذات هذا الكلام الجميل.

تقصدين: ما عندك تجارب؟!

ـ تجارب أيه... ولا تجربة، انا عمري (٢٥) سنة.

لكن.. ما أصدقّ أنك ما دخلت في تجربة إلى الآن.

ـ انت ليه تصر إنك تعرف كل شيء وبسرعة؟!

أسف، لا أقصد... ولكن فرحت بإعجابك برسالتي.

ـ أطلب منّك طلبْ؟!

إنت تأمرين ولا تطلبين... وأنا أنفِّذ فوراً.

ـ لأ.. فوراً صعب، لكني أتمنى أستلم في الصباح رسالة أخرى!!

* * *

الآن بعد أن وضع سماعة الهاتف: لابد أن قلبه قد أكتشف قارّته!

ـ أكثر المراحل التي عبرها عمره... كانت: موانىء ومحطات... وهناك ثلاث مراحل فقط كانت أكبر، وأعمق، وأبقى من العبور.. حفَرَتْ وشماً في صدره لم تُزل معالمه، وإن اندثرت تلك الأحاسيس القديمة!

ـ «نوار»... تبدو ـ باقتحامها لوجدانه ـ كأنها قارة.. أكبر من حجم أنثى، فهي تحترف الشروق بابتسامتها، وتعلن فجراً جديداً بطلوع وجهها!

ـ في نبرة صوتها المعبّرة عن فرحتها ببوح الرسالة... تنهض من داخلها: طفولتها النقية وعفوية طبيعة النساء «اللواتى يغرّهن الثناء».

ـ عاد الهاتف إلى رنينه.. تثاقلت يده في رفع السماعة، فهو سابح في ملكوت «نوار».. عالم من السحر، ولكنه صمم ألا، وقال لنفسه:

ـ لابد من حمام بارد حتى أفيق من أشياء كثيرة... لابد أن «الكوفي

شوب» يموج بالناس، ممن نعرفهم، وممن لا نعرفهم، أو ربما... نحاول التعرف بهم!

ـ في المصعد وهو يهبط بركابه إلى الصالة الرئيسية.. لاحظ سيدة وقوراً، تطلعت اليه بنظرة أشعرته أنها تعرفه، ثم أشاحت عنه.. وفوجئ بها تتقدمه إلى «الكوفي شوب»... عادي، الناس يدخلون إلى هذا المكان، ولكنها اتجهت إلى طاولة الكاتبة «سارة»، و...... جلست!

ـ اقترب من الجالسين في زفة ترحيب الكاتبة بقدومه.. وبدأ تعارف جديد، وحوار ساخن!!

* * *

(٥)

أخذت الكاتبة «سارة» زمام الكلام في ما يشبه المنتدى الثقافي الصغير، حول طاولتين داخل «الكوفي شوب».. ووجهت كلامها في البدء إلى «عادل» تحاول أن تقيم جسر التعارف بين بعض المتحلقين حول الطاولتين.. فقالت:

ـ طبعاً أقدم لكم الكاتب العروف «عادل» ومتأكدة أن الجميع يعرف من خلال قلمه، وها هي المصادفة الطيبة قد جمعتنا بدون ميعاد. التفتت إليه السيدة الوقور التي «شالته وحطته» في المصعد، وقالت مبتسمة:

ـ «عرفت هالحين.. وانا أقول: وين شفت ها الوجه يا حافظ»؟

انحنى «عادل» أمامها، وقال لها: سيدتي.. سماعك بالمعيدى خير من أن تراه!

أكملت «سارة» تعريفها للجالسين، بدءاً بالسيدة الوقور، فقالت:

ـ السيدة «هلالة» أكاديمية، وصاحبة دور تربوي مميز..

الفنانة الصاعدة «إلهام» ذات الصوت القوي.

الاستاذ الناشر «حسين»، والدكتور الاكاديمي/ صديقك بالطبع «غنام»!

قال عادل يُشاكس هذه الصحبة: مثل ما يقول إخواننا في مصر هنا: (متجمّعين عند النبى صحبة).. تُرى ما هو محور حديثكم؟ أو حواركم يا أهلي، ياصْحابي، يا حبايبى؟!

ـ قالت سارة: «لسه بنقول يا هادي».

قال عادل: هدانا الله جميعاً لكلمة الحق.

وامسك الدكتور «غنام» بزمام الكلام، واضطر الجميع إلى السكوت، ولا يظنون أنه إصغاء.. فمن «ركائز» شخصية هذا الاكاديمي: أنه لا يفسح المجال لآخر بالحديث والحوار.. عنده قدرة عجيبة على «ارتكاب» هذه الأشياء في وقت واحد، وهي: الكلام المتواصل، وقطع حديث متكلم آخر، والقفز في حلق ثالث، و«مداخله» حوار رابع بطريقة إجباره على السكوت.

وأراد «عادل» أن يحاول الكلام، ولو مع مَنْ بجانبه بدون حرص على «توحيد المجلس» وكل في ركنه «يوْدود»... ووجد الدكتورة «هلالة» بجانبه، وأخذ يهمس لها، وطال حوارهما الجانبي، وأصداء صوت «غنام» تلاحقهما.

فجأة... قالت الدكتورة «هلالة» لصديقتها الكاتبة، مشيرة إلى «عادل»

ـ وين يا أختي ها الرجَّال من أول ما تعرفنا عليه... والله العظيم أنه عسل»!

حبكت النكتة مع «عادل». . فقال لها:

ـ إذن سيدتي. تفضلي، و. . . تذوّقيني مادمت أنني عسل!!

وضج المكان بقهقهات الجميع. . فتنبه الدكتور «غنام» لحظتها أنه لا أحد يصغي اليه، ! ولكنه لم يسكت، بل تساءل: ما هو الموضوع. . أشركونا؟!

قالت «سارة»: نريد أن نصمت جميعاً الآن لنستمع إلى حلاوة صوت الفنانة «إلهام»

ـ قال «عادل»: «فين. . هنا في الكوفي شوب، حتى ما هي حلوة للفنانة، بعدين يسموها: مطربة الكوفي شوب»!

قالت «سارة» تزجر صديقها المشاكس: من فضلك. . لا مداخلات ساخرة ولاضاحكة، نحن نريد أن نسمعها تتكلم عن رحلتها الفنية.

ـ قالت هلالة: «ياخْتى خلّيه يتداخل، يمكن يغني هو»!!

وتحرّجت الفنانة من رفع صوتها، حتى لا يتراكض نزلاء وزوار الفندق إلى «الكوفي شوب». . وتواصل الحوار بين هذه الصحبة عن: هموم الكاتب ومشكلته المزمنة مع دور النشر والتوزيع اللتين تمتصان عرقة وإبداعه، وتمنحه الفتات من حصيلة بيع كتبه.

قال الناشر حسين: لا نظلم دور النشر والتوزيع. . فالتكلفة ارتفعت: الحبر والورق، والعامل. . إلى آخر ما يمر به طبع الكتاب حتى تسليمه للتوزيع.

ـ قال عادل: هذه مشكلة دار النشر والتوزيع، وليست مشكلة الكاتب،

وأنت كناشر وموزع من أين لك الربح والنجاح في عملك. . لو لم تجد كتباً ومؤلفين لها؟!

قالت سارة تحسم الحوار: أرى أن النقاش في هذه النقطة بالذات يؤدي إلى جدلية (البيضة أم الدجاجة) !

ـ قال عادل: المشكلة أن البيضة والدجاجة صارتا من أملاك الناشر والموزع.

قالت الدكتورة هلالة: «انتم ياهلكتاب. . ليه ما تنشئوا داراً للنشر بجهودكم وبمساهماتكم المالية؟!

ـ عاد صوت الدكتور غنَّام يصهلل: الموضوع يا جماعة يحتاج إلى دراسة الجدوى الاقتصادية لمشروع دار النشر والتوزيع، وفي عالم الطباعة هناك أسباب لابد من دراستها.

قالت سارة: «أنا لازم أطلع إلى غرفتي لأبدل ملابسي. . . الليلة مدعوة على فرح»!

ـ سألها عادل: «فين الفرح»؟!

قالت ضاحكة: «وانت مالك. حتروح معايا يعنى»؟!

ـ قال: «ظلّ راجل ولا ظلّ حيطة. . اعتبرينى حيطة يا ستي»؟!

وفرت «سارة» بصديقتها الفنانة الصاعدة، والتفت «عادل» إلى «هلالة» يقول لها:

ـ سيدتى الوقور. . مرتبطة بدعوة أخرى؟!

قالت مبتسمة: لا يمكن أن تدعوني إلا على الفطار فقط و... هنافقط أيضاً!

قال لها: «ما لك نصيب في الطيبات»!

* * *

* ودّع «عادل» صديقه الدكتور «غنام» بعد أن اعتذر له عن قضاء السهرة معه، فقد كان مرتبطاً مع صديقيه الحميمين اللدودين/ سيف وأحمد.. حين تلمع أضواء القاهرة منعكسة على صفحة النهر الخالد: الجاري ليلاً ونهاراً في عمق وجدان أهله، ومن يزوره!

وصعد إلى غرفته ينتظر هاتفاً أو حضور صديقه.

أراد أن يليِّن ظهره المتعب من صلب جلسة «الكوفي شوب» أكثر من ثلاث ساعات.. تداخلت خلالها (أصوات) صديقيه غنام.

(الليل، والنيل، وشعرك الذهبي المسدل على ظهرك، وتغريدة صوتك، وإضاءة ابتسامتك.. وأنت يانوار: أسئلة عواطفي المميّزة)!

ـ يبدو أنه لم يعد حوله ما يثيره غيرها.. برغم الزُّرافات/ الزَّرافات، والوحداناً من النساء الأجمل.

ـ استرجع كلمة قالتها له صديقته الكاتبة سارة، وهو يُسرِّ إليها بشبكته، ويغني في أذنها لنوار: «اللي شبكنا يخلصنا»... فقد قالت «سارة» في الصباح الثالث له في القاهرة:

ـ أنت عاطفي رومانسي، يسهل على أية امرأة أن «تُطبِّك» في حبها!

* قال لها: البحث عن الحنان، والصدق معاً.. فالحياة في تجربتي:

حنان/ حلم، وصدق مزَّور.. لقد كانت آخر تجربة لي تمثل أعنف، وأقوى، وأصدق حب في حياتي لكنها... قتلتني!

ـ قالت له: ألا يمكن أن تكون مبالغاً؟!

* قال: ربما أبالغ في منح من أحب أكثر مما يستحق، لكنْ صدقيني.. لم أندم يوماً على ما أعطيت أو منحت، فكل ذلك يعود إليّ كما قال الشاعر:

ـ مُنىً إن تكن.. تكُنْ أعذب المنى

والاّ فقد عشنا بها زمناً رغداً!

قالت: عش حياتك.. أنت فنان ومرهف.

ـ سألها: وأنت.. ألست مجنونة في عاطفتك وحُبُّك؟!

تنهدت وقالت: ياه يا عادل.. جنوني هو وضوحي.. ليست عندي منطقة وسطى، أو كما قيل: يا أبيض يا أسود، لأنني لا أعرف الكذب، ولا التزوير.. وإن كنت غضوبة أنفعل بسرعة!

ـ سألها: وهل تندمين بعد الغضب والانفعال؟!

قالت: الندم أرفضه... لكني أحزن كثيراً على الذي لا «يفهم» نقاء غضبى!

* * *

أفاق من خواطره وشروده على صوت الهاتف:

ألو.. أيها الرجل المُتعَب والمتْعب لغيرك.. نحن سيف بن ذي يزن،

وأحمد بن طولون ننتظر نيافتَك في الصالة الرئيسية... فانطلق مأذوناً أو عريساً إلينا على وجة السرعة!!

سأله ضاحكاً: وأين سيكون الزفاف الليلة، و... مَنْ هي العروس؟!

«يا أخي إنزل بقى.. دا أنت غلس»!!

* * *

(٦)

أزاح ستارة غرفته، ووقف في الشرفة.. يتأمل، ثم يتابع حركة هذا الموج البشري المتلاطم، وهذا التراكم العجيب في السيارات التي تصب في الشوارع والميادين، وفوق كوبري يجري النيل من تحته.

ملكوت عجيب... وقد بدت عيناه شاردة النظرات إلى درجة البلاهة.

لا شيء في هذه الحياة.. غير هذا الركض أو التسابق على لقمة العيش: أولاً، ومائة... ثم على الطموح، والأحلام، والأماني، والحب.

الكثير يتحدث عن الحرية... فهل الحرية هي في الكلام فقط، والتعبير عن الرأى؟!

هناك حرية أهم في: إيجاد مجالات واسعة لاختيار مصدر الرزق، وفنون الإبداع التي يخدم بها الإنسان مجتمعه ووطنه.

في العالم المتحضر... حدَّدوا مجالات الحرية التي يريدونها أو يحتاجونها، ومارسوها إلى درجة التسيب، والفوضى، والانحلال!

وفي العالم الثالث.. حدّد الفقر معنى ومساحة الحرية في قدرات الإنسان وعطائه.

وأحس أن نظراته تاهت منه في هذا الزحام المختلط بين الإنسان ومادياته.

أحزان تراكمت وتقَّطرت في النفس.. منذ افتتح الاستعمار عهود الظلم في هذه المنطقة.

لوحات من البطولة: كتبها هذا الشعب بدماء أبنائه، في اقتداره بخطوات العلم والتقدم التي سبق بها جيرانه من حوله.. لتكون مصر بوّابة مهمة يقتحم منها الاستعمار أرض العرب، وكانت مصر حارساً... فماذا حدث اليوم للناس، وللبلد، وللنفوس... وما هي الأسباب؟!

صفحات من الكفاح الوطني ضد الطغيان من الداخل.

ويواصل هذا الشعب تحدِّيه لأزماته الاقتصادية والعددية في هذا الانفجار السكاني المرهق لكل خطط التنمية.

ـ أتعبته الوقفة في الشرفة المطلة من الدور الخامس والعشرين على الميادين والشوارع... على النيل العظيم الذي شهد ملاحم بطولة، وارتكاسات ظلام وظلم.

ـ امتد بصره إلى عمارة مواجهة لارتفاع مبنى الفندق الشاهق... هناك في شرفاتها ونوافذها: تناثر الناس... الزحمة حتى في داخل البيوت، وليست في الشوارع فقط.. أو أن الزحمة تنطلق من جوف البيوت إلى الشوارع كل صباح.

ـ سمع قرعاً على الباب، وحين فتحه وجد أمامه عاملة النظافة تقول له الكلمات المتداولة كل يوم، ولكل نزيل.

ـ «كل سنة وأنت طيب يا بيه»!

أذن لها بالدخول مع زميل لها يساعدها، وسألها: هل لديك أولاد؟!

قالت: أربعة يا بيه.. وزوجي طلقني وترك لي الأطفال.

ـ إرتدى جاكتته وخرج مسرعاً من الغرفة، قبل أن يرى دمعة هذه الأم المطلقة.

لماذا سأل المرأة؟!

ـ اتجه مباشرة إلى «الكوفي شوب» لم يتناول إفطاره بعد، ولا نفس له.

ـ في أقصى المكان.. شاهد الدكتورة «هلالة» تقرأ في صحيفة.

ـ من قراءته لنفسية هذه السيدة الوقور.. استخلص من أعماقها «بذرة» حزن، تحاول هي ان تواريها تحت تربة نفسها التي شغلتها بنشاطات وعلاقات اجتماعية وتربوية وعلمية كثيرة.

ـ شخصية هذه السيدة قوية في تعاملها مع الآخرين.. وبسيطة في نفس الوقت حين تضحك وتبتسم.. ومُقْنعة حين تحاور مَن أمامها حتى لمجرد الجدل.

ـ استشف، من خلال حواره معها: أنها امرأة أنتجت في مجالها العلمي والأكاديمي ما يفيد الجيل بالنسبة للفتيات في وطنها... وهي حازمة في إدارتها لعملها، بعكس ما تبدو منسابة ورقيقة جداً كلما أرادت أن تمتح من أعماقها بذرة الحزن تلك، وتشارك الآخرين اللحظة، والرؤية، والمرح الذي

تضع له كوابح إلى حد معين !!

ـ دكتورة «هلالة». . سيدتى، وسيدة هذا الصباح النقي.

* أهلاً أستاذ «عادل». . أفْطرت أم تشاركنى؟!

ـ حتى لو أفطرت. فإن جوعي يتجدد أمامك.

* يا أيها الكاتب الشاعر. . «اتلملم»!

ـ عفواً. . . جوعي إلى حديثك وعلمك، وآرائك التي أفرح بها وأعتز.

* يسلّمك. . . وش لونك، وسهرتك البارح. . . هل التقيت بساره؟!

ـ «واحدة. . واحدة، وقبل ذلك ـ ليدز فرست ـ أنت الأول اللي تحكي، وتذيعي نشرة أخبارك!

* تعرف إنك إنت مشكلة جذابة؟!

ـ «ايه. . . كيف؟. . يُعاد هذا التوصيف الذي أسمعه للمرة الأولى».

* صحيح. . . لست غامضاً بل كالكتاب المفتوح. ، لا تخاف منك المرأة. . لكنك قد تفعل شيئاً غير متوقع بعد ثانية واحدة. . . لذلك فأنت: مشكلة جذابة.

ـ إن شاء الله «مِرْسى». . . لا تهربي، أخبارك المسائية والصباحية.

* تعرف. . . لأول مرة أعيش مناخاً من الحرية التي أتحكم فيها أنا، ولا تتحكم هي في تعاملي وتصرفاتي: أن أجلس مع رجل وكاتب مشهور مثلك ونتبادل المرح، والضحك، ونتحاور حتى نختلف في الرأي وتشتعل بيننا، ونتمازج. . . هذا مناخ صحي فيه كل الأمان يمنحني ـ كامرأة ـ الثقة بنفسي إلى درجة الإعتزاز، ويمنحك ـ كرجل ـ الإلتزام والمسؤولية إلى درجة

الرجولة والفروسية. . . فكأنني الآن أجلس مع أخي، وفي الوقت نفسه أمارس حريتي بحضارة!

ـ دكتورة. . . لم تطلبي لي شيئاً، ولا حتى كوب شاي!

أوه «سوري» أي أم فري سوري»!

ـ ياخْتى اتكلمي بدوى أحلى!

يا شقي. . . واصل كلامك.

ـ معليش. . أنحني لذكائك ورفضك أن تحكي لي جدول «أعمال» مسائك بالأمس. شوفي يا ستي، أنا أقول. . صريح حتى الوجع أحياناً. . ذهبت في المساء مع صديقيّ الحميمين اللدودين/ سيف وأحمد الى: ندوة ثقافية عن المسرح ـ والله العظيم ـ وبعدها انطلقنا نأكل، ونشرب، وراسنا أد المشرب. . خلاص؟!

يعنى ما علقت على كلامي عن هذا المناخ الصحي، أنت تختزن؟ خلاص اسمع:

أنا أخذت الأولاد، ورحنا مسرحية «ماتينيه»

ـ جميل. . . يعنى ما افطر؟!

«يا خويا هذا الجرسون بلشه. . . أظنه ما يبغاك تأكل ولا تشرب».

ـ «إيه رأي سعادتك ـ بأسلوب أشقّائنا المصريين ـ نروح خان الخليلي، نتبضع من هناك، ونريّح في «قهوة عمنا نجيب محفوظ»؟!

بعد العصر. . سآخذ الأولاد إلى خان الخليلي، فإذا رغبت الحضور. . أنا هناك!

* * *

أمام مدخل «الكوفي شوب» صدمه كتف صديقه الدكتور «غنام»:

ـ أهلاً. . . صباح الليل.

يا أخى دوّختني عليك. . إنت فين، ما ترد في الغرفة، ولا حتى في الإذاعة؟!

ـ أنا هنا. . . هروح فين يعني؟!

والله إنت غويط ومريب. . . يكون عندك «جو»؟ !!

ـ يا شيخ استحي. . أنا رجل متزوج !!

علت قهقهات «غنام» المميّزة، بأعلى «تون» في «الكونترباس».

وعقديده في يد صديقه «غنام» في اتجاه السيارة.

وأمام عمارة طويلة جداً، مما يسمونه في القاهرة «الأبراج» قال غنام للسائق:

ـ من فضلك. . إركن هنا.

سأله عادل: يركن هنا ليه. . ولمين. . ومين هنا؟!

ـ يا أخي أسئلتك ما تنتهى. . تعال بس.

أدخله إلى بهو العمارة، وهو ينادي على الحارس الذي ركض إليهما. . وتقدمهما يتقافز وهما مثله فوق سلالم حجرية لم يكتمل تشطيبها.

فين يا دكتور غنام. . والله أتوب وأخليك تتكلم وتضحك براحتك.

ـ إمشي. . ولا تفتح فمك بكلمة.

في الطابق الثالث. . تجولا مع الحارس في شقة ما زالت بتعبير

المقاولين والبنّائين (عظم)... وعادا أدراجهما وقد لزم «عادل» الصمت.. فيكفي أن «غنام» متتواصل الكلام متواصل القهقهات... جل عجزه الصمت!

في السيارة.. قال «غنام» لصديقه:

ـ ما رأيك؟!

ما رأيي في إيه.. الشقة؟. حلوة، أول مرة أشوف شيء حلو وهوّ عظم!

ـ بلا سخرية... سأشتري هذه الشقة بمبلغ (٢٨٠) ألف جنيه.. إذا رغبت في شقة مثلها، مالك شغل اترك الموضوع لي.

قال له ضاحكاً: وكم عمولتك؟!

ـ يا شيخ استحي!

* إسمع يا عم غنام.. أولاً لم أفكر في ما استخرت الله وأقدمت عليه، وإذا فكرت فليس في حوزتي هذا المبلغ، ألا تعرف أني مجرد (كاتب مشهور) على باب الله؟!.. واذا كانت عندي فلوس لا أختار شقة جانبك لأسباب تعرفها!

ـ الله يكافيك يا شيخ.. تخلط المزاح بالجد.

* هكذا الحياة يا صديقي.. إضحك وما زلت أضحك وأتذكّر بيت شعر لشاعر الحجاز الكبير «حسين سرحان»، قال فيه:

عشتُ حتى رأيت كل حمار   راكباً في وغى الحياة حصاناً!!

من فضلك يا أسطى..، عد بنا إلى الفندق.. دوّختني يا غنام ربنا يدوّخ حبيبتك!!

* وركض إلى غرفته متعباً. . مشتاقاً إلى «ألو» أو وجهها: نوار!!

* * *

(٧)

كان لابد لـ «عادل» أن يفيق من كمية التشويش التي أحدثها: صوت وثرثرة «غنام» في سمعه ورأسه. . . ووجد فكرة الحمّام البارد خير علاج وضمان له أن يفيق، ويتلاشى صوت «غنام»!

يريد ان يفيق بالفعل لهذا المساء، الذى يلبى فيه دعوة للعشاء من صديقته في مصر: الكاتبة «غالية». . يرتاح إلى حديثها في قالب الرزانة الذي تضع نفسها فيه. . . لكنه أحياناً يهاجم هذه الرزانة بتعليقاته ومزاجه، ويقول لها: أفتقد «غالية» الأنثى، العاشقة!!

«غالية» بالنسبة له: أصبحت الآن صديقة يرتبط معنى اسمها بتقديره لها. . جمعت بينهما قماشة حزن، ومسافات غربة في حياة كل منهما. . مثلما قاربت بينهما متناقضات في شخصية كل منهما لا تنسجم مع الآخر. . . منذ تلك اللحظة التي «حلم» بها: أنثى، وامرأة، ورفيقة، وصديقة. . . حتى اللحظة التي حددّت فيها «قيمته» هو في نفسها!

لكن «الآخر» بمعناه الحضوري في ذاتها وذاته. . يتشكل من «المعنى» أكثر من هذا الذي تشكله العلاقات الخاصة من «المادة».

* تشكل هو أيضاً فوق مقعد سيارتها بجانبها وهي تقودها منطلقة إلى مطعم هادئ كثيراً ما كانت تأخذه إليه كلما جاء إلى مصر، ليحدث التشكيل

الثالث في التفوق للأكل، وللحوار، و. . . لتلك النظرة الدافئة التي «يسربها» في غفلة إلى عينيها الحزينتين.

كانت إضاءة المطعم من الشموع فقط.

* سألها وهما يتقابلان وبينهما الطاولة: هل نحن ما زلنا عاشقين؟!

ـ إبتسمت وقالت: هل الشموع رمز العشق؟!

* قال: بل الليل الهامس والشموع معاً، وارتفاع وجيب القلب.

وخيل إليه أن خواطرها شردت بها بعيداً جداً. . ربما آلاف الأميال والفراسخ، وربما هروباً من الأميال والفراسخ والخطوات!

* سألها هامساً: لا يريحنى هذا التشكيل الحزين على وجهك. . . تبقين في إحساسي بك: أكثر ملاحة وجمالاً من «الجيوكندا»، ولكنك تبدين الآن مثل لوحة تشكيلية سريالية!

ـ قالت: لقد اختلطت الألوان في حياتنا بغير تناسق ولا توحّد!

* قال: هل تمنحيني خصوصية أن أعرف؟!

ـ قالت: «طهقانة، زهقانة». . أشعر بتبلد وبشيء من الضياع والوحدة.

* قال: عجيب. . . لعلنا نغبطكم هنا في توظيف الوقت للحوار، وللندوات الثقافية، والفنية. . ونقول عن مناخكم: إنه مشبع بالحركة وبالنشاط.

ـ قالت: لو تعمقت قليلاً لاكتشفت أن الأمور تتدهور في مجتمع المثقفين، من كتّاب وفنانين، ومبدعين. . صرنا نتعطش للقاءات التي كانت

تجمع هذا الوسط، ونفتقد الاجتماعات التي تسخن بالحوار، وبالمشاكسة وباختلاف الرأي الذي لم يكن يفسد للود قضية.

الآن ـ صدقني ـ كل إنسان من هذا المجتمع يعيش الوحدة، بمعنى: العزلة الفردية التي تزيد وتتراكم داخل نفوسنا.

تصور... أفكر أن أخرج من بلدي إلى أي مكان في أوروبا، لمدة عام عامين... المهم ان أنقذ نفسي، وأفكاري من هذه العزلة!

* قال: في رأيك... ما هي أسباب هذا الواقع؟!

ـ قالت: الطموح مقتول، الفرص شحيحة إن لم تكن منعدمة، الأحلام تفسد ولا يتحقق منها شيء ولو ضئيل.

* قال: وهل هذا الواقع.. في مجتمع المثقفين والفنانين فقط؟!

ـ قالت: على كل المستويات... تسرق الناس همومهم، وذلك الطموح المقتول، وتلك الفرص المنعدمة، الأحلام الفاسدة.. تكاد تكون في كل شيء: الفلوس، والحب، والعمل، وحتى العلاقات الاجتماعية والإنسانية!

ـ الواحد مننا لم يعد يلاقى نفسه... كل شوية الناس تتهاوى، تسقط، ويتمحور سؤال يطرحه أي إنسان هنا: إلى متى نقدر أن نتماسك قبل أن ننتهى؟!

* قال: المتغيرات شملت العالم، وجانب منها تسبب في هذا التقهقر!

ـ قالت: الكارثة أن ينال التقهقر من نفس الإنسان.. من طموحه.. من عواطفه.

ـ عارف... هؤلاء الناس ليس عندهم استعداد لتعطيهم أملاً مغشوشاً،

ولا ان تكلمهم في الأحزان والمشكلات فيقولون لك: «إحنا ناقصين».. ولا تكلمهم في الحب فيقولون لك: «يعمِّي حِل همّي.. حب إيه»؟! أحيانًا يرعبني التفكير، عندما أحاول استطلاع حالنا بعد أربع سنوات. ما هو مصير ووضع كل إنسان هنا؟!

ـ تصور... اكتشفت هنا شباباً صغاراً في عمر الورد يعانون من السُّكر.. وأسباب ذلك: ان الواحد منهم صار يشعر بالعجز.. لا هو قادر أن يصلح، ولا هو قادر أن يغير، ولا حتى قادر أن يعيش مستقراً آمناً بدخل مضمون، أو دخل يكفي الاحتياج!

ـ ولفهما صمت... وهو يرى دمعة تنزلق على وجنتيها.

ـ وحاولت «غالية» أن تقفز فوق الألم.. فقالت لصديقها «عادل»:

ـ أسفة جداً.. لكنك مرآتي، أرتاح أن أبوح أمامك بما لا أقدر أن أبوح به لكل إنسان.

* قال: أشكرك على هذه الثقة، على الأقل: نتشارك في هذا الإحساس العظيم بالحزن.

ـ قالت: «وأنت ذنبك إيه... المفروض نتناول عشاءنا في هذا الجو: الشموع، والموسيقى الناعمة، والهمس، وأنت رجل رومانسي»!

قال: بالعكس... ما كان يمكن أن نتحدث بصدق في غير الموضوع الذي ترزح تحت ثقله وضغطه النفوس/ عقولاً وعواطف.. ولكني أندهش بكل هذا العدد الهائل لديكم من المثقفين، والعلماء، والمتخصصين.. كيف لم يدرسوا هذا التقهقر ويحاولون إيقافه؟!

ـ قالت: «بيدرسوا يا سيدي... والإعلام فيه الخير»!

ـ أمام مصعد العمارة التي تضم هذا المطعم.. وقفا صامتين، في انتظار طلوعه.

ـ لم يفكر في خطوة، ولا كلمة.. لكن يده فكرت بدلاً منه، وخطت.. فامتدت إلى يد «غالية»، تحضنها.

ـ تطلعت «غالية» في وجه «عادل»، وابتسمت ويدها في حضن يده... ثم همست بنبرة الحزن نفسها:

ـ أقصى، وأقسى، وأعظم ما يكون!!

ـ إتخده مقعده بجانبها في سيارتها لتعيده إلى فندقه، وتذهب إلى بيتها الذي تحرص أن تدخله مبكرة.

ـ لم يكن ينظر إلى وجهها في ظلال أضواء الشوارع.. ولكن وجهها بأدق ملامحه: محفور في رؤيته ورؤاه!

الوقت يمر، والليل ينهب الإنسان عمره وخلوته مع نفسه.

ـ أمام باب الفندق ودعته قائلة:

ـ دعنا نلتقى ثانية قبل سفرك، فأنت رجل زئبقي!!

ـ رفع يدها إلى شفتيه وقبلهما، وهمس:

أشكرك على هذه السهرة التي أعتز أن لا أحد يحظى بها مثلي!

ـ وتركت له ابتسامتها... وهو يدخل إلى بهو الفندق.

عبر الصالة الرئيسية دون أن يمر «الكوفي شوب»... كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة ليلاً، والطيور/ البشر تفرقت وتناثرت، لا أحد بكل تأكيد سيجده ممن يريدهم.

ـ سأل موظف الإستقبال: إن كانت له رسائل هاتفية، وأودعها يده متجهاً إلى المصعد.

ـ شعر برغبة شديدة للنوم فوراً.

ـ لا يدري كيف يصف كل هذا الذي تجيش به نفسه بعد سهرة العشاء على الشموع، وكلمات الحزن والقهر مع «غالية»؟!

ـ نعم... إن «غالية» هي تلك الأنثى الرافضة، التي عبثت بحلمه وكسرت قلبه، وجعلت هذه المدينة قاسية في إحساسه، مما اضطره إلى هجرها عاماً كاملاً!

ـ ربما حين عاد.. أراد أن يثبت لنفسه أنه قد شفي من «غالية» تماماً!!!

ـ وربما أيضاً وجد في «نوار» ضالته التي ينشدها، فتُبلسم له جرحه الغائر الذي أحدثته «غالية» في صدره... أو لعله تمنى أن تصبح «نوار» هي دواءه الذي يمحو آلام «غالية» من أعماق صدره... فهل ما زالت «غالية» أغلى، وأعمق، وأثمن في صدره؟!

يتذكر الآن... اللحظة ـ التي رأى فيها غالية للمرة الأولى ولم يدر حينذاك: لماذا شعر أن تلك اللحظة الأخيرة؟!

شريط طويل.. تتراقص من خلاله ألوان العشق، والحزن.. الأمل، والارتطام.. الارتياح، والتعب.. السنين، والصبر.. ويؤطر كل هذه المشاعر، والانفعالات والمعاناة: وجهها المحفور بين أضلعه!

ـ بعض الأشياء الأغلى.. تضيع عندما تولد.

ـ تلك الأشياء المولودة في الخوف، أو في عجز القدرة، أو في رغبة

الاكتشاف والفضول فقط من طرف واحد، في حين أن الطرف الآخر منشغل بالوهم!

ـ يتطلع الإنسان نحو: الأغلى... مثل اللوحة فوق جدار الأيام:

ـ مثبتة دائماً هناك.. لا يلمسها، ولا يملك أبعادها، ولا ألوانها!

ـ وقد كان هو الإنسان.. وكانت غالية: هي اللوحة الأغلى والأجمل.

ـ أراد أن يرتوى بصوتها قبل أن ينام.. حادثها بكلمات قليلة:

ـ «سيدتي... أشكرك على إيقاظ الشجون من جديد في صدري».

* قالت: انتبه لنفسك.. أكتب كلما وجدت لديك الدوافع والتفاعل.. لابد أن تكتب للناس.

ـ قال ضاحكاً: حتى عنك أنت؟!

* قالت: عني وعنك!!

ـ وضع سماعة الهاتف، وضغط على زر الإضاءة فأطفأها، و..... نام بعمق!

* * *

(٨)

منذ أيقظ الهاتف برنينه المتواصل «عادل» من نومه.. وهو مستلقي كأنه بلا حراك، يحدق في سقف الغرفة.. ويقول لنفسه:

ـ عجيب.. كيف لم أحاول أن أعقد مقارنة فورية بين «نوار» و«غالية».. حين رأيت «نوار، لأول مرة، وشعرت بجاذبيتها لي، وحيوية شبابها

الغض.. وحين عاد وجه «غالية» يلوح ثانية بعد قطيعة؟!

ـ أي الإثنتين أروع؟!

ـ الصبا والجمال، والحيوية، وطفولة التجارب: عند «نوار»؟!

أم الجمال المعتّق بنكهة السنين، وفيض التجارب: عند «غالية»؟!

كيف سمح لنفسه أن يقارن بينهما؟!

تلك «الأغلى» في امتداد السنين، وكثافة البقاء في التغيير الزمني، والفكري، والعاطفي... هي «غالية»!

وهذه «الأدفأ» في انطلاقة شبابها إلى الاكتشاف قبل التجربة، وإلى خيلاء جمالها في عيون المعجبين المتلفّتين إليها من الرجال بمختلف أعمارهم... هي «نوار»!

تلك المتمرّدة على اعتيادية العمر، وركون الطموح في تموّه التعب النفسي، والفكري... وليست تعاني في عاطفتها من تعب يوازي النفسي والفكري، ربما لأنها أدخلت عواطفها كأنثى في قمقم والقت به في المحيط. لحدّة تجربتها مع الرجل، وقد تكون الحدة حصيلة الصدمة... فالعاطفة عندها: قد تلمع أو تومض كالفلاش فقط!

وأقسى ما يكون على امرأة: أن تحوِّل عاطفتها بكل دفئها إلى رغبة في لحظة، أو في يوم، أو شهر!

لكن «غالية» حتى في إمكانة سقوط عاطفتها في الرغبة... قاومت وكبُرت بخفقتها، واستعلت على الرغبة... فهي كثيرة العاطفة، قليلة العطاء من عاطفتها!

وهذه السندريللا الصغيرة: تُبهر بجمالها، ولعل الإبهار كان في عينى «عادل» فقط. . . فهناك نساء أجمل، وأكثر جاذبية وسحر أنثوي!

ولعل «عادل» ـ في تأمله لهذا الاندفاع منه نحو «نوار» ـ يندهش من استغراق وجدانه المفاجئ والعنيف في هذه الفتاة السندريللا. . وهو لم يعاشرها، ولم يكتشف الجوانب الأساسية من شخصيتها، بكل ما في عينيها من سر وغموض، يخاف أن يصفها بالخبث فيظلمها.

لكنها فتاة تعرف أن هذا المندفع إليها: رجل متمرس عركته تجارب الحياة، وربما فكّرت بذكائها أن «توظف» لمصالحها: اندفاعه غير العادي نحوها. . إن جاز لها أن تدخله إلى هذه المرحلة من العمر، وتلغى تجاربه، ومحطاته، وثقافته، وذكاءه!

لاحظ أن «نوار» عصبية انفعالية. . من الصعب الفصل بين رقتها وعنفها. . كأنها: أكذوبة عاطفيّة.

خيّل إليه أنها: نصف أنثى ناعمة، ونصف امرأة تبحث لنفسها عن بوابة تدخل من ثقبها إلى الدنيا الأكثر فرصاً. . . وهي القادرة على إخفاء أنوثتها عندما تحتد مطالبها.

الآن. . يتساءل:

الحب الأصيل المتجذر/ سنوات في الفؤاد. . ذلك الذي منحه لـ «غالية» دون أن تعطي؟!

أم التجرية الجديدة. . التي اندفعت فيها عواطفه نحو الشباب، وطلاوة العمر، ورغبة «نوار» في الاكتشاف؟!

ـ الآن. . . تتكثف أسئلته:

هل يمكن المقارنة بين امرأتين بكل هذه المتناقضات، أو الفوارق، أو «العلامات» الإنسانية؟!

ـ ربما يجنّ الرجل لو خضع لهاجس مقارنة كهذه بين إحساس معتَّق، وإحساس فجائي نشوان بعبق عطر جديد!

* * *

يكاد رأسه أن ينفجر. تملّكه صداع شديد بعد إقامة هذه المقارنة/ المحاكمة للإنسان في داخله: عاطفة، ورغبة، وجنون فنَّان يصعب إلجامه كحصان جامح!

ـ إتصل بـ «الروم سيرفس»:

ـ أريد عصير برتقال، وشاي بالنعناع.... فقط لا غير!

ـ وبتثاقل قام إلى حقيبة يده وأخرج حبّتيّ «بنادول» ابتلعهما، وعاد إلى فراشه: متراخياً، كسولاً، متبلداً.

ـ ترى مَنْ تسبق الأخرى منهما.. فيدفىء صوتُها سمعه بتحية الصباح؟!

ـ يا «عادل»!!!.. مَنْ تريد أنت؟!

ـ الأقرب في التوقع لتتصل هي «نوار»... فهو يعرف أن «غالية» تُشكل لجنة مكونة من عقلها وقلبها لتقرر لها: هل تفتح عليه تليفوناً وتقرئه السلام/ تحية الصباح... أم تنتظر هي منه ـ باستعلائها ـ أن يبادر هو بهذه الخطوة؟!

ـ رنّ جرس الهاتف حين كانت هذه الأسئلة/ الأفكار تحاصره.

ـ التفت إلى الهاتف.. وببطء مد يده إلى السماعة:

ـ ألو.... أهلاً بسندرلّتى الجميلة كالشروق والعطر!

ظننت انك رحلت، ولم تسأل عني.

ـ رحلت مع نفسي إليك... وخفت أن أهاتفك فأثقل عليك.

* أين ما طلبته منك... هديتى؟!

ـ أية هدية... هل طلبت مني حقاً؟!

* نسيت؟.. رسالتك الثانية لم تصلني.

ـ لا... أيتها السندريللا، لم أنس بل كتبت لك.

* «صحيح... طيب هيا فين الرسالة»؟!

ـ أعتذر... لقد مزقتها.

* «معقولة؟!... بهذه السرعة عبرت في حياتك»؟!

ـ بالعكس... بهذه السرعة نغلت في شراييني، ولكن....

* أكمل... أنا أحب الصراحة.

ـ هل لديك بُنْ محوّج؟!

* لا تتأخر... ومعك الرسالة!

* * *

* أمام ملاحة وجهها وابتسامة شبابها المدلّه.. وفنجان القهوة في يده، سمعها تقول له:

ـ إنت شفتنى ملهوفة على رسائلك.. إتعزّزت»؟!

* إتعزّزت بك لا عليك، وإعتزّيت.. أحب أن أسمعك وتسمعيني، لماذا لا تكتبين لي، تردّين على رسالتي أولاً؟!

ـ «أتمنى.. لكن معرفش أكتب، ومين يكتب زيّك يا سيدي»؟!

* لا تكتبي مثلي... كوني عفوية أتركي القلم يمشى على الورق بحريته، بما يمليه عليك قلبك، أو عقلك.

ـ «مش دلوقت... خلّيني أستمتع بكلامك الحلو، قلت لك: مفيش حد كتب لي رسالة قبلك».

«نوار... دعينى ألملم ملامحك الآن في نن عيني.. دعي ابتسامتك تسقي جفاف روحي.. دعي نظرتك الغامضة تبعثر أسئلتي.. دعي لهفتك الطفولية على رسالة مني تجعلني أحظى باستفتاء قلبك، وأخاف ـ صدقيني ـ أن رسائلي إليك تصبح لعبة طفولتك الكامنة في أعماقك»!

ـ ولكن... كيف تفلسف. شخصيتي بهذه النظرة.. أنت لم تعرفني بعد؟!

* حسناً... دعينا نتعارف أكثر وتقبلين دعوتي على الغداء أو العشاء حسب ظروفك، في أي مطعم تختارينه ويريحك ليقترب فهم كل منا من الآخر.

ـ لأ.... (قالتها بقسوة)، ثم تراجعت، وقالت:

ـ عفواً.. لا أستطيع، ولكن في إمكانك أن تأتي إلى هنا كل يوم، ونتحدث.

* ليست عندي مشكلة في الحضور، ولكنها مشكلتك أنت، فمنذ جلسنا معاً قمت وعدت أكثر من عشر مرات بضرورة عملك.

ـ هذه إمكاناتي!!

* * *

* يتذكر ـ في طريقه إلى خارج الفندق ـ عبارة صديقه «غنام»:

ـ الحب بين رجل وإمرأة في أيامنا هذه: لا أكثر من ترف عاطفي، مؤقت، مرهون بتفريغ الرغبة، ثم يمضى كل إلى سبيله.. أو ترهنه مصلحة مادية بحتة!

قال لصديقه «غنام»: «يا شيخ أسكت، لا تفلسف الحب كنظرية نقدية، وتدخل إلى ـ البرجماتية ـ بتاعتك... الحب يا دكتور: مشاعر إنسانية أسمى، وأعنف، وتقتل أحياناً»!

ـ قال «غنام»: أنت رومانسي، عقلك «طاقق».. مجنون تظن الناس مثلك.. يا ابنى مفيش حب صدقني... إللى فيه شيء اسمه: علاقة بين رجل وإمرأة.... فقط!

* قال «عادل»: يا نسيب أبو مُرّة... تسمح لا تدخّل نفسك في الحب.. كده أرْيح لك ولي.

ـ قال «غنام»: آه.. يا ولدى هادى الصلعة اللامعة: نتيجة الحب والله!

ـ خاف «عادل»، وفزع... خاف على ذاكرته أن تُفقد منه، فلا يبقى فيها سوى «إمرأة» يكون هو لعبتها!

ـ من زمن بعيد.. أصدر المفكر المصري «سلامة موسى» كتابة الشهير الذي سمّاه «المرأة.. لعبة الرجل»... يومها: كان «عادل» مراهقاً عندما قرأه، ففرح بهذه اللعبة.. واليوم: صار الرجل هو لعبة المرأة!!

ـ لفح وجهه هواء حار وهو يخرج من باب الفندق، فجرى إلى السيارة، وقال للسائق:

ـ من فضلك إلى «خان الخليلي»!

* * *

(٩)

بعد عودته إلى الفندق.. وجد ضمن الرسائل الهاتفية ممن اتصلوا به: رسالة من صديقته «سارة»/ الكاتبة من بلده.. كتبت له فيها:

ـ «يا أستاذ.. أنت مدعوٌّ قبل غروب هذا اليوم إلى الطابق الثالث والعشرين، في «الإستراحة» والدعوة منى بمناسبة صدور كتابى الجديد، واحتفالاً به.. وسوف يشرفنا في هذا الحفل المحدود والصغير: أصدقاء من كتّاب ونقَّاد مصر... فلا تتأخر، حتى تراني أضيء شمعة ميلاد الكتاب.. أقصد: شمعة تضيء شمعة»!

ـ ابتسم وهمس: يا غرور جمالك يا سارة... عفواً يا شمعة تضيء دائماً إن شاء الله!

ـ إذن... لابد أن يصعد إلى غرفته ويرتاح ليستعد لجدل ـ عفواً ـ لحوار المثقفين قبل الغروب.

ـ «سارة» هذه. حكاية متعددة الفصول، شخصيتها تغذت كثيراً مما قرأته بنهم، ومما صادفته من مواقف: أهمها حزين وحافل بالشجون، وأقلُّها: تشيع ذاتها ونفسها بوضوح العاطفة إلى درجة الإنفعال والغضب أحياناً على من تحب.

ـ كان قد عرف «سارة» كاسم وإبداع من خلال ما تنشره في الصحف والمجلات، وما أصدرته من كتب ولكنه لم يكن قد رآها، ولا تخيّل ملامح وجهها وتكوينها الأنثوي... ما يعرف فقط قد تحدد في: فكرها، وإبداعها، ومشاكساتها.

ـ لكنهما كانا يتحدثان بالهاتف.. يتحاوران.. يتفقان في الرأي ويختلفان.. وموضوع العلاقة بينهما: واضحة غير خائفة.. فهي لا أكثر من صداقة تنمَّى من خلالها ودّ أو تعاطف، تلوذ إلى «عادل» أحياناً في بعض مواقف معاناتها لمجرد الحوار، أو التنفيس.

ـ قالت له مرة: لا أشعر بك إلاّ هذا الأخ الذي أركن إليه في حيرتي، وقلقي، وحزني... بعكس الكثيرات اللواتي أعرفهن، ويردن الإتصال بك وبثك مشاعرهن نحوك!

أجابها: العقول عند بعضها يا سارة، وليس القلوب، فقلبك لرجل آخر، وقلبي لامرأة أخرى.. وأحسب أن صداقة العقل ستبقى، ولكن... ما هو شكلك، حتى أقدر أن أتخيلك مجرد تخيل فقط؟!

ـ قالت: تأدب.. مالك ومال شكلي، ألا يهمك عقلى ومودّتي لك؟!

قال ضاحكاً: «عقلك فطس أحياناً، يتبعنى... وأعرف ملامحه جيداً».

ـ وحين رآها في بهو الفندق، وجلسا بعد ذلك في «الكوفي شوب».. قالت له ضاحكة:

ـ هذا أنا.. بوجهي، كلي.... ارتحت؟!

قال: لأ... ربما بدأت متاعبى.

ـ قالت: هل أنت جاد؟!

قال ضاحكاً: «لا تفرحي كده.. أنا لا أحب إمراة تحب رجلاً آخر غيري»!

* * *

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيه، وهو يتذكر الحوار والموقف مع صديقته الكاتبة «سارة»!

ـ هذه «الإزدواجية» العجيبة. . . تجعلهما يلتقيان هنا ـ خارج البلد ـ في فندق واحد، ويتحادثان مع جمع من أصدقائهما أو من رواد «الكوفي شوب» ويضحكان ويتمازحان. . . وكل ذلك في إطار اللقاء النظيف، والحوار الموضوعى، والعلاقة الإنسانية الواضحة تحت الشمس.

ـ إذن. . . إثبات الهوية، والمجتمع لابد أن يتحمل حضور الإنسان (كإنسان)، وليس كجنس، وأن يثق في سلوكيات هذا الإنسان فلا يحصره في الرغبة أو الشهوة. . وكأن التعارف بين رجل وإمرأة لابد ـ برأيهم ـ يحكمه الجنس فقط!

ـ تعارفاً ـ عادل وسارة ـ بوجهيهما في النور، وبكل إلتزاماتهما الأخلاقية، والعقائدية، والاجتماعية، والتربوية، والفكرية أيضاً.

* * *

حان الوقت الذي حددته «سارة» لما قبل الغروب.

ـ لم يحاول أن يتأنق في ملابسه التي ارتداها. . . بدون أن يعرف سبب هذا القرار في حينه!

ضغط على زر الدور الثالث والعشرين/ هناك. . حيث مكتب «نوار» أيضاً، وحيث الإستراحة التي التقى فيها بهذه السندريللا، وصنعت له بيديها فنجان قهوته، وحيث مكان الحفل الآن.

ـ كانت تدير عملها بالهاتف، ولما رأته أنهت المحادثة بسرعة، وأقبلت عليه ضاحكة:

ـ «أشوف في يدك مغلف.. هل هو لي»؟!

من فضلك أنا مدعو إلى حفل شاي هنا في الاستراحة.. فهل وصل الناس؟!

ـ «آه.. حفل الأديبة بتاعتكم»؟

* أيوه.. ممكن أدخل؟

ـ «ممكن.. لكن مش قبل ما أستلم المغلف».

«كتب لها.. وقرأتْ أيتها الأنثى الشاسعة.. أشتاقك، وأعاني من خوف الاغتيال»!

ـ نظرت إليه بدهشة، وقالت:

ـ إغتيال؟!... إغتيال إيه؟!

* قال: إغتيال شوقى إليك، وحبي لك!

ـ و... مشى، تركها في دهشتها ملوحاً بيده، وهو يلج بوابة الإستراحة.. حيث وجد صديقته الكاتبة «سارة»، تضع ابتسامتها الترحيبية بكلماتها:

ـ أهلاً بصديقي الرومانسي الكبير.

أين ضيوفك، و«تورتة» كتابك؟!

ـ كلهم سيصلون تباعاً.

يعنى. . أنا «شريف أول»؟!

ـ وأنا «عمتّى العزيزة»!!

الله يعين على الجلوس عند عمتى!

ـ ما هو أنت حتجلس مؤدب.

هيه. . . ربنا يسهِّل. . إطمئنى فأنا رومانسي بتقديرك.

ـ صحيح. . كيف نعطى الهالة لمن نحب؟!

لا أدري. .! أسألك بالرومانسية/ الطبع في النفس، وإلاّ بخفقة الحب. . طيب واللى ما هو رومانسي ما يحب يعني؟!

ـ ما أقصد. . . المجرم بيحب.

تعرفي؟!. . . أنت أيضاً رومانسية، وتطلبين ممن تحبينهم أن يكونوا رومانسيين!

ـ يِهدك. . . من أحبهم. كام واحد يا مفترى؟!

ما هو «الواحد الصحيح» في حسابات الحب. . يصبح كل العالم، وعُدِّي واغلطي، ولكن. . . . ماذا عني أنا من وجهة نظرك، ومن ورا قلبك. . أقصد بعقلك؟!

ـ أنت من تجاريك ـ وعيني باردة! ـ تأخذ من كل إمرأة ميزة وتضعها في المرأة الحاضرة التي أمامك والتى تشاغل قلبك. . وبالتالي: تصبح هذه الحاضرة كاملة في عينيك، تُخرج منها الشوائب، وتضيف المناقب. . . فهي لا تستحقك لأنك تضعها أو تشكلها بالصورة التي تريدها، وليست كما هي

حقيقتها ولا دوافعها، وبالتالي.. تصبح قادراً على إبعادها، والتفكير بأخرى بسهولة!

ياه.. انا كل هذا الرجل (العظيم)؟!

ـ لو كانت عندي هذه القدرات يا سيدتي، كنت ملكت نساء العالم، وصرت راسبوتين، أو فالنتينوولد عم جنّتينو!!

* لا تحول الحوار من فضلك إلى مزاح وسخرية!

ـ حسناً... وسيدتي الجميلة كيف تصنف نفسها أو تصفها؟!

«أنا سأظل على «حلم» من أحببت... بخيالي وإخلاصي، لذلك عجزت أن أتغلب على اكتشافي للحقيقة في شخص من أحببت»!

ـ تعرفي... من أنت؟!

ـ أنت التعب النفسى، والشوق يربض بين أضلعك وربما يغزو عقلك!

* نعم... لكني لست مستعدة أبداً أن أغفر خيانة من أحب لي.. مساحة الغفران عندي ترفض أن تغفر للرجل... أما أنت، فمثلي لا تغفر للمرأة التي تخونك ولكنك تعذبها ببندولين يضربان رأسها: بندول يُظهرك أمامها ساذجاً غافلاً، لا تعلم أي شيء.. وبندول توجس في نفسها: أنك عرفت كل شيء ولم تفاتحها.. إحتقاراً لفعلتها، وطعنها لك!

ـ أنت مرعبة!

* المراة التي تحبها يا عادل.. إنها من صنعك أنت، تضع لها كلمات على شفتيها، ولكنها لم تقلها.. تبلور شخصية حبيبتك بأحلامك وتصوراتك!

ـ أنت تنجح في العلاقة لنفسك، بعد أن تصنع تلك المرأة بمنظارك!

* * *

بدأ المدعوون يهلون فرادى، و. . . إثنين إثنين، ولا يدري «عادل» كيف استطاعت هذه المرأة «سارة»: أن تقنع اثنين ـ رجلاً وامرأة ـ بالحضور معاً!

وجاءت «التورتة»: جميلة، ملفتة في تصميمها، على شكل كتاب، كتب عليها عنوان الكتاب، وفي آخر الصفحة وضعت وردة حمراء من الحلوى أيضاً. . فبادر «عادل» إلى الوردة الحمراء واقتطفها، وقال ضاحكاً للحضور:

ـ كلوا أنتم عنوان الكتاب، والمضمون. . واتركوا لي هذه الوردة الحمراء، فلابد أنها تعبير عن الكاتبة نفسها!

وضج المكان بالضحك والتصفيق. . وقالت «سارة» معلّقة:

ـ يهدّك. . . إنت مسحوب من لسانك. . . .

* قال عادل: ها. . . . إكملي من فضلك، وإلاّ أزعل!

ـ قالت: لكنك ـ بأمانة قريب من القلب!

ـ فجأة. . وهو يلتهم الحلوى/ الوردة. . صافحه وجه صدى قديم يدخل إلى الاستراحة بحقيبة يده، بغبار السفر. . . فركض إليه!

* * *

(١٠)

قبل أن يركض إلى صاحبه.. التفت إلى صديقته «سارة» قائلاً لها:

ـ من فضلك ياسيدتي الجميلة.. تُهدي نسخة من كتابك إلى فتاة مليحة، تقف خارج هذه الاستراحة، وتؤدي عملها الذي تبدؤه بابتسامة وتنهيه بابتسامة.../ اسمها: «نوار»، بدون بوار، يا سيدة القرار!

قالت سارة: لم تفتنى هذه اللفتة من أجلك... فقد قمت بنفسي وذهبت إليها في مكتبها... بنسخة عليها إهداء مني لها، وبقطعة من التورتة!

ـ ووقف أمام صاحبه: الدكتور «فلاح» يسلم عليه مهنئاً بالقدوم، ويحتضنه بعد غياب لم يلتقيا فيه داخل بلدهما، ربما من سنوات.

ـ قال «عادل»: تعرف يا صديقي أننا لم نلتق منذ أكثر من خمس سنوات.. فهل بلغت الغربة في داخلنا إلى هذا الحد؟!

قال «فلاح»: المشاغل ياصديقي، والتشاغل، والانشغال.. إلى آخر التاء، والشين، والغين واللام.. إنما أنت: ما هي أخبارك.. ما هذه «الهيصة» في الجانب الآخر من الاستراحة؟!

ـ قال «عادل»: كاتبتنا الجميلة «سارة» تحتفل بصدور كتاب جديد لها. قال فلاح: تلك المرأة الجميلة؟! لم أرها من قبل، ولم أتخيلها بهذا الجمال.. فهل أنت هنا العرّاب؟!

ـ قال «عادل»: عرّاب إيه يا فلاح.. يمكن تكون كلمة «عزّاب» تليق.. تعال أعرفكما ببعض، فلابد أنها تفرح بك!

سارة.. أخيراً، هذا هو الدكتور، الكاتب الفنان «فلاح».. فهل رأيته من قبل؟!

ـ قالت: بالطبع.. رأيته في الصور، وهو لا يعرفني.. لأن صوري لا تنشر مع كتاباتي مثله، ومثلك.. أليست قضية يا دكتورنا «فلاح»؟!

ـ قال: عرفت من قراءتي لمقالاتك أنك مشاكسة إلى حد العنف أحياناً.
ـ قالت: عنف إيه يادكتور.. نحن ـ في نظر الرجل العربي ـ ما زلنا القوارير، والجناح المكسور!

قال «عادل»: بعدين.. أجّلوا هذه المناظرة الممتعة إلى وقت آخر، والآن .. أسلِّمك هذا «الدختور» يا سارة لأن ورائي ارتباطاً، وسأراك في وقت آخر.

قال «فلاح»: لحظة.. أنا واصل من دقائق، وسيعرفّوني بغرفتي، أعطني رقم غرفتك.

قالت «سارة»: خذ مفتاح غرفتك، وشارك معنا في الحوار الممتع.

ـ قال عادل: يفوتك يادكتور فلاح.. حوار ثقافي، النسبة الأكبر من المشاركين فيه: مشاركات، تبغى إيه أحلى من كده؟!

قالت سارة: مافيش فايده.

واختفى «عادل» من الاستراحة، ومن أمام «نوار»... غاب في المصعد عائداً إلى غرفته.

ـ وهو يقفل الباب وراءه كان هاتفه يرن:

ـ أنت مشيت من الحفلة ليه؟!

أهلا «نوار».. لأنك مشغولة!

ـ بس أنا مش في الحفلة، وعلى فكرة.. أنا بدأت أقرأ في كتاب «سارة» يجنن، متعاطفة جداً مع مشكلات المرأة.

طبعا... لأنها إمرأة!

ـ وأنت متعاطف مع مين؟!

مع المرأة أيضاً.. أنتو الخير والبركة.

ـ أنت شخص مثير... أحياناً مخيف!

الله يسامحك... امرأة تقول: أني رومانسي، والمرأة تأكل بعقلي حلاوة.. وامرأة أخرى تقول عنى أني: مثير، ومخيف!

ـ ما أقصد ما فهمته... لكن شخصيتك تحتاج لتأمل في وقت طويل!

جميل... حددي من فضلك ذلك الوقت الطويل، وأنا جاهز للتأمل!

ضحكاً معاً.. وانتهت المحادثة بالضحك!!

ـ همس لنفسه: ياسلام.. الضحك يفتح القلب، لكن المشكلة: منْ يضحك على مَنْ!

ـ أنا لا يمكن أن أضحك عليها «نوار» وليس عندي دافع للضحك عليها سوى ما قاله الأطرش فريد: (ساعة بقرب الحبيب).. وهي ـ مؤكد ـ لا تملك عاطفة فورية جاهزة تحب بها رجلاً يكبرها.. وإن كانت الخبرة: سبباً وجيهاً!

ـ ولكن... لماذا يفكر «عادل» الآن في: احتمال أن تكون «نوار» تضحك عليه؟!

ـ لا يدري. . حاول أن يخرج من هذا «الجو» فبادر بالاتصال هاتفياً بصديقه «سيف»، أيقظه من نوم كان يغط فيه:

ـ «حيْهلا» يا سيف. . يا ابنى قوم وحدّ الدائم، بعدين نوم بعد المغرب مثل ما قالت جدتي/ إنتى: بطّال، ولابد أنك نائم كالعادة، والساعة الآن العاشرة مساء، وبصراحة عندي رغبة انتقامية منك علشان تسهرني، وآكل لأني جوعان.

خلاص. . . خلاص، يا باى إنت بالع راديو، استحم وأجيلك.

ـ «فري نايس». . . يعنى أنتظرك إن شاء الله مع أذان الفجر الأول؟!

ـ اتصل بأحمد علشان يجهز، وبعد ساعة أكون عندك. . . قول إن شاء الله.

شرد ذهنه بخواطره بعيداً. . ونظراته تتراقص على صفحة النيل، تشارك الأضواء المنعكسة عليه: رقصة الليل، والسهر.

ـ حاول «سيف» أن ينقذه من الشرود والاستغراق. . سأله:

ـ ما هي أخبار السندريللا. . نوارتك؟!

ـ قال: الحالة هادئة، والأمن مستتب.

سأله «أحمد»: والأمن بيعمل إيه؟!

ـ قال: والله محتار. . يحرس الحالة، والاّ يخاف من هدوء الأمن ومفاجآته؟!

قال «أحمد» ضاحكاً: عال. . كأنك تصف الحالة العامة!

ـ قال سيف: سيبك منه. . ده لسّه سرحان!

قال «عادل»: ربما، ويمكن... لكن تعرف بأفكر في إيه؟!

ـ قال «أحمد»: أكيد في «نوار»!

قال «عادل»: تذكرت بيت شعر لشاعر الغزل القديم والأنيق «عمر بن أبى ربيعة».. هو:

كُتب الطعن والقتال علينا وعلى الغانيات: جر الذويل!!

ـ قال «سيف»: تقصد الطعن والقتال على الرجال عموماً أما، على المثقفين العرب، الذين تسميهم أحياناً بسخريتك: الكتبة؟!

قال «عادل» : والله تصح كده وكده.. لكنى (لا أتهم) الرجال اليوم بالطعن والقتال.. فيكفيهم انشغالهم بلقمة العيش، أو بالركض نحو الثراء الفاحش، أو الاستغراق في العبث والتهويم، والانفصام!

أما المثقفون العرب... فإن وصفت بعضهم من الأكثرية «بالكتبة».. فذلك لأنهم أيضاً قد استغرقوا في الواقع، أو في الخوف، أو على الأقل في تدجين بعض الأنظمة لهم.

قال «سيف»: المثقف طليعة، أو من المفروض أن يكون طليعة.. والمثقف يمنح الحلم والرؤية، يُعبّر عنهما ويحياهما... والحلم والرؤية عكس الواقع ولذلك هما ضده، وبالتالى فإن المثقف المشبّع بالحلم والرؤية لابد أن يكون معارضاً شديداً للواقع.

ـ قال أحمد: وهل تعتقد أن هذا المثقف العربي لا يعاني من أزمة؟!

قال «سيف»: بل من أزمات.. الواقع صار يركض أمام المثقف الذي

يعجز أن يلحق به. . . وهذا هو سبب الخلخلة في مقومات، أو عطاء المثقف العربي.

ـ قال «عادل»: المثقف العربي. . . أخذ يبشر ويدعو إلى الديمقراطية ويتفاءل بقدومها. . . وقد كان يعتقد: أن تحقيقها يعيد إليه اتزانه من الخلخلة، وركائزة من الشروخ الكثيرة التي حدثت في تاريخ الأمة العربية الحديث. . . ولكن الديمقراطية جاءت بشكل آخر!

أقصد يا سادة: أن ما يسميها المثقفون «ليبرالية» واجهت فشلاً ذريعاً. . لسببين مهمين:

السبب الأول: أن هذه الأمة العربية فقدت ذاكرتها التي كانت تحفل بعبر تاريخها.

والسبب الآخر: أن من كانوا قادرين في هذه الأمة. . من قيادات، وطلائع، ومثقفين: قذف بهم الإحباط الشديد إلى العجز التام. . . ولم يعد هناك درب إلى ترسُّم منهج، ولم تعد هناك قدرة أيضا على: تجربة التطبيق. . فالنظريات كثيرة في واقع المثقف والقيادى العربي. . لكنهما يعجزان عن التطبيق، ربما لأن من الأسباب أيضاً: وجود خصومة بين القيادي والمثقف. . ونظرة القيادي إلى المثقف على أنه: عجينة من الصلصال تتشكل حسب ما يريده النظام!

ـ قال «أحمد»: لقد أرغمتنى على الصمت الحزين.

قال «سيف»: الجرسون لم يحضر العشاء. . هوّا بيعمل إيه؟!

ـ قال «عادل»: ولكنه أحضر الشيشة. . ،. وهذا يكفي: دخِّن عليها تنجلي، حتى لوكنت جائعاً يافلان!

وامتد الليل الصديق بهذا الثلاثي المتآلف، المتجانس، المشاكس.

طلب «عادل» من صديقيه الحميمين أن يقلبا الصفحة.. وقال:

ـ ناقصين غم.. بدّنا نضحك... أرجوكم. ها.. ما هي آخر نكتة؟!

ـ قال «عادل»: واحد صعيدى.. حب يعمل لمرأته مفاجأة، قام قتلها!!

* جلجلت ضحكة «أحمد»، وقال: هذا هو مجتمع المثقفين اليوم.. التباري على إلقاء النكت الجديدة!

* * *

(١١)

افتتحت «نوار» صباحه الجديد بصوتها.. طلبت منه أن يتناول فنجان قهوة الصباح أمامها في الاستراحة.

شعُر من نبرة صوتها: أنها ستتحدث معه في موضوع محدد، وربما كان مباشراً منها إليه!

أزاح ستار الشرفة، وترك نظراته تمسح كيد حانية على صفحة النيل.. كل من كان هنا في القاهرة، يحرص أن "يتصبَّح"، بوجه النيل، ويختتم يومه وليله بالهمس إليه.

يذكر من وصف أصدقائه وأترابه للقاهرة، ممن كانوا يتلقون تعليمهم في جامعاتها: أن هذا «النيل نجاشى»، كان صافياً رقراقاً، نظيفاً.. ولذلك شاعت عبارة: «كل من شرب من ماء النيل لابد أن يرجع إليه»!

لكن الناس اليوم يخافون الشرب من نيلهم الحبيب بسبب ما يعكره من

أوساخ، ونفايات، وما يُسمى «ورد النيل» الذي يتراكم كالطحالب، وقد تربّت من تلك القاذورات، فصارت تهدد سكان مصر، وتُشوه جمال هذا النهر العظيم الخالد.

حتى الناس اليوم ـ بحكم المتغيرات الاقتصادية والسياسية والسلوكية ـ لم يعودوا هم أولئك الناس الذين عاشرهم أترابه في الخمسينيات وحتى أوائل الستينيات، وكانوا يتصفون بالود، وبالألفة، وبالثقة.. غيرهم تماماً اليوم!

لعل ضغط الفقر، والركض إلى الفلوس.. قد أثّرا في نفوس الكثير من الذين صاروا يضيقون حتى بزوار وطنهم، ومنعشي اقتصادهم

بالسياحة.. وقد تغيّر أيضاً القادمون إليهم من الزوار والسيّاح ليسوا مثل أولئك من الجيل السابق بكل المثاليات، والإلتزام، والمسؤولية، والخوف على مصر.. باعتبارها: منارة ثقافة وعلم، وفنون، وقسط من الحرية!

ـ أكمل ارتداء ملابسه، وشرب عصيره الصباحي.. وطلب صديقته «سارة»:

ـ صباح الحرية يا سيدتي.. هل أتشرف فتوافقين مشكورة، مأجورة مبرورة.. أن أرافق «ليادتك» ـ من كلمة ليدي ـ إلى معرض الكتاب.. نتجول على الكتب، ونقتبس رؤية عقلية مما نسمعه من محاضرات، وندوات؟!

قالت: والله... أفكر، انت يا شيخ تُهمة، وسيرانا الكثير هناك.

ـ قال لها: المثل الشعبى لدينا يقول «اللى ما هو أكل لحمة نية..، كمّلي.

قالت: أحب صحبتك.. لكن توعدنى أن تكون ملتزماً.

ـ قال مقهقهاً: عجيب ياليدي.. يعنى حأعمل أيه أمام الناس من «جموع» زوار المعرض.. ياشيخة خلّي ثقة في شخصي الضعيف، وأيضاً في شخصك المستقوي... الله يهدك!

قالت: يا حليلك.. في انتظارك بعد ساعة.

ـ قال: «أوكيّ»!

قالت مستدركة: إسمع.. موعدنا في الصالة الرئيسية.

قال متخابثاً: طبعاً.. يعني حيكون في غرفتك؟!

ـ قالت ضاحكة: وجع.. يهدّك!

* * *

كان لفنجان قهوة الصباح من بن «نوار» المحوّج أمام بهاء وجهها: نكهة مختلفة، ولذة لا يشعر بها إلاّ «المجاهدون في الحب».

ـ قالت: فين رسالة اليوم؟!

قال «عادل»: فكّرت أن أبلغك الرسالة شفهياً، أو بنظراتي.

ـ قالت: ولكن.. كيف أعيد قراءتها في غرفتي وحدي؟!

قال: فأغمضي عينيك حتى تريني.. وغنّيها.

ـ قالت: أنت تلاوعني.

قال: شعرت من نبرة صوتك في الهاتف أن لديك موضوعاً ترغبين في الحوار معي فيه.. فهل تمنحينني هذه الخصوصية «اللي تتّاكل»؟!

ـ قالت: قبل كل شيء.. لا تفسر ما سأقوله على أنه استغلالك، ولكني

أراها فرصة تخدمني فيها، وتسعدني.

قال خذي راحتك.. تربّعي في عينىّ وقولي.

ـ قالت: عرفت أن لك صداقات كثيرة هنا في الوسط الإعلامي، والصحافي.

قال: يعني.. أعرف أسماء مشهورة بعدد شعر رأسي بعد تشذيبه، أما صداقاتي فتأكدي أنها محدودة ومحصورة في عدد أصابع يدي اليمنى، وأشد عليهم حباً.. أنما أؤمرى، أطلبي.. شبيك لبيك!

ـ قالت: دخلت مسابقة قبل عدة شهور لاختيار «فتاة إعلانات» في التليفزيون، وأظن أنني لاقيت القبول من اللجنة، ولكن.. حصلت لي ظروف وما تابعت النتيجة ولا راجعت. الآن أسألك: تقدر تعمل لي خدمة.. أتمكن بها من تحقيق هذه الرغبة؟!.

قال: ولماذا لا تعودين إليهم بطلب جديد، ما دام أن اللجنة أقرّت بصلاحيتك.. لابد أن يقبلوك ثانية؟!!

ـ قالت: اللجنة تغيّرت.

قال: آه.. ما تعرفي أحد من اللجنة؟!

ـ صمتت، وظلّت نظراتها معلقة بشفتيه. قال بعد الصمت:

ـ ربنا يسهل.. أسأل وأستقصي، ويمكن أعرِّفك على مخرج متخصص في الإعلانات.

قالت: ساعتها..

ـ قاطعها قائلاً: ساعتها أفرح لك، وهذه هي هديتك لي أو حلاوتك.. مش كنت عاوزه تقولي كده؟!

* * *

رأى «سارة» في الصالة الرئيسية ـ تضرب بولطه! ـ رايحه جايّه ـ رايحه..... ناداها:

ـ يا أستاذة.. مملوكك لكني سلطان العشاق، على رأي الفيتوري. قالت: أهلاً أيها الدرويش المتجوِّل.. صاحب المواعيد العربية وأكاد أخمن أسبابها.. جاهز للجولة؟!

ـ قال: جاهز لكُلّه.

ـ في الطريق إلى مصر الجديدة حي موقع المعرض.. كان يشاكسها تارة، ويستفزها تارة أخرى... والحوار بينهما لا ينقطع إلاّ ثوان، تشرد فيها «سارة» بذهنها، حتى كأن «عادل» لا يشاركها المقعد الخلفي من السيارة.

فجأة سألها وهو يوقظها من الشرود: سارة.. من هو الرجل الذي يثيرك أو يجذبك؟!

ـ قالت: وهي ترسم جدية على ملامحها: لا يثيرني ولا يجذبني الرجل المتأنق أكثر من اللازم.. لا أحبه.

قال ضاحكاً ومقاطعاً لها: عسى عمرك ما حبيّتيه!

ـ قالت مستطردة: أحب الرجل بصفات الرجولة، بمواقفه، بفروسيته باخلاصه بشجاعته.. أنا كالشمعة: أحب للرجل الذي يسهّرني.. لوحدي، أناجي طيفه.

ـ أحب الرجل الذي يمنحني الأمان، ويعطيني فرصة إرضاء غروري فيه وبه.

قال عادل: شدتني رواية لكاتبة يابانية لا يحضرنى اسمها الآن لصعوبة نطقه ولكنّ عنوان الرواية كان: «يلاحقني ضوء الليل».

ـ قالت: إلاّ... أعرف اسمها «يوكوتسوشيما»!

قال ضاحكاً: يابنت.. ياثقافة، حتى بالياباني ما شاء الله، و... «ياباني في غير بلده»!

ـ قالت: يا شيخ.. نفسي تتكلم جد بدون مزاح رغم أن من أجمل ما فيك: مزاحك، وتهريجنا هذا على أحزاننا يعني أننا: نحاول الابتعاد عن الدخول في جدية الحزن.. أكمل.

قال: الأخت الكاتبة هذه كانت تكتب وتنادي بتحرير اليابانيات من التقاليد التي أكل عليها الدهر، وشرب، و... بال ـ مع عدم المؤاخذة ـ مما لا ينسجم وطبيعة العصر واحتياجاته.

ـ قالت ضاحكة: في الهوا سوا!

قال: أحد الذين كتبوا عنها وعن روايتها من العرب.. أشار إلى: «مدى قدرة المرأة المعاصرة، بحركاتها النسوية، وبتعليمها، وبتخصصاتها العلمية ـ كقوة ذاتية من داخلها ـ على الانتصار».

ـ قالت فزعة: انتصار على إيه؟!

قال لها: الانتصار على معاناة المرأة في الأجيال التي سبقت/ جدّات وأمهات، والتى لابد أنها تركت آثاراً، أو أطلالاً.. هذه المرأة الكاتبة التي

تقيم دعوى شديدة اللهجة ضد الأجيال السابقة، تحب ـ هي الأخرى ـ الرجل القوي الذي تنضوي تحت جنحه، وتقرّ كقطة في ليلة شتائية. . . ولا تقول في روايتها: أن العلاقة بين الرجل والمرأة تتحول إلى حرب، لينتصر الأقوى، أو الأعند، أو الأشرس.

ـ قالت: يا صديقي. . . لابد من هذا الخيط الرفيع: ألا يتحول الرجل إلى حاكم بأمره للمرأة، وأن لا تكون المرأة: شجرة الدر مع أيبك!

قال: وصلنا يا. . . شجرة الدر!

ـ قالت: معك يا. . . «أيبك»!

قال: واحدة مثل شجرة الدر، رسمت غدر المرأة بالرجل الذي أحبها!

ـ قالت بل الذي خدعها. . . فقد كان متزوجاً ولديه طفل، وأخفى عنها حقيقته من أجل الحكم.

* قال: الأثنان بصفاتهما ودوافعهما تشابها في النهاية.

ـ قالت ضاحكة: لن أقتلك. . اطمئن.

قال: لأن أولادي أكثر من واحد. . . انتبهي!

ـ وجدا أمام المدخل إلى داخل معرض الكتاب: زحاماً، وتدافعاً بالمناكب.

ـ تقدمت «سارة» من رجال الأمن وقالت له:

ـ نحن ضيوف المهرجان وليست معنا بطاقات.

ـ افتحوا الباب لها، و «للبودي جارد» الخاص: عادل!

ـ تلفّتا. . . يبحثان بعد المدخل عن البداية، والعلامات الإرشادية في

هذه المساحة الشاسعة من أرض المعارض.. لم يجدا، واعتمدا على أقدامهما: تدبّ حتى تجد ما تحب.

ـ وبدأت جولتهما.

* * *

(١٢)

كانت المساحة المخصصة لمعرض الكتاب، ولفعالياته، ولفروعه: مترامية، وخيّل إلى «سارة» و«عادل» أن الجولة ستكون مرهقة لأنها تعتمد على أقدامهما.. وهما لم يكونا أبداً من المنضمِّين إلى رياضة المشي، ولا الماراثون.. عطلت السيارة أقدامهما، بل وأقدام أكثر الناس في بلدهما.

ـ ولعل البعض يخرج من الإقليم إلى أوربا للاستمتاع بالمشي/ رياضة تمنع «بلاوي» كثيرة.

ـ الناس في مساحات معرض الكتاب: تتدفق بلا توقف، من الصباح حتى المساء.

ـ قالت «سارة»: تفتكر ياعادل وقتنا يسمح من الآن إلى الغروب لتمشيط كل سرايات المعرض، كما يسمونها؟!

قال «عادل»: لو ما سمح الوقت.. يمكنك أن تمشّطي شعرك، أو أنا امشّطه لك.

ـ إلتفت إليه وقالت: يا أخي.. لله، لدقائق فقط خليك جاد، ولكن.. ما رأيك في تفْلية شعرك؟!

قال: جاد المولى بن خلاويه.. حاضر، يعنى ما نضحك في عَزق رياضة المشي؟!

ـ دلفا إلى بوابة مبنى يلوح وكأنه الرئيسي.. وتجوّلا بين الكتب المنسقة والمنظمة، وفجأة همست «سارة» صارخة، أو صرخت هامسة وقالت:

ـ تعال.. شوف كتبي كلها هنا.

قال: أيوه يا ستي.. ولنا من الناشئة، ليس لي أي كتاب، ربنا يعطينا حظك!

ـ قالت: بالله عليك دا كلام مثقفين؟! يحسدوا الأعمى على كبر عينه، على الأقل جبران خاطر!

قال: مثقفين إيه يا أختي... المثقفون إما: أحباب السلطة، وإما... عكس ذلك، وهم مثقفون على الورق صدقيني، لكنهم فيما بينهم... في الحوار، وفي التعامل يُجيدون نشر الغسيل بإتقان أكثر من بطلة رواية «زقاق المدق»!

ـ اختارا بعض الكتب، وخرجا إلى مبنى آخر، وثالث.

ـ دخلا إلى مكان، كُتب عليه «سراي المرأة». قال «عادل» لرفيقته:

ـ تفتكري ليه في هذا العام فصلوا المرأة عن الرجل، وأعطوها سرايا خاصاً. كأنهم يعيدونها إلى عصر الحرملك والحريم؟!

قالت: وليه تفسرها بهذا المعنى.. ممكن أعطوها استقلالية.

ـ قال: وممكن.. عزلوها، من العزل!

ـ صارا في قاعة تضم مستمعين، وعدة أديبات وناقدات على منصة في صدر القاعة.. يناقشن أدب المرأة.

همس في أذنها: ليس هناك شيء اسمه؟ أدب المرأة، وأدب الرجل.

ـ قالت: أنا أؤمن أن هناك أدباً بلا شوارب... هس خلينا نسمع، وخلّي جدلياتك بعدين.

قال: ياباي عليكي يانفيسه.. هُسْ في البيت، وهس في غيط الفكر؟! ـ شوفي... شوفي، تلك السيدة التي تتوسط منصة المحاضرة... هل تعرفين اسمها؟!

ـ قالت: لأ.. ليه؟!

قال: أصلها حلوة.. ونفسى أتعّرف عليها!

ـ قالت: سأعرف لك اسمها.. بس، «أهجد»!

ـ وكتمت ضحكة كادت تنطلق منها، وأخذته من يده.. يخرجان من القاعة، وفي الهواء الطلق قالت له:

ـ إنت كارثة!

قال لها وهما يواصلان المشي في شوارع وحوارى المعرض: هل مازلت تحبين... أقصد (مدرمغة/ مدهمله) في الحب؟!

ـ قالت بنفثة إنفلتت من بين شفتيها: الحب لا يخضع لتحكُّم إرادة الإنسان فيه.

قال: ما دام إنك تعبانه إلى هذا الحد من المعاناة، والشجون.. أقترح

عليك اقتراحاً مفيداً، شافياً لك من هذه الدراما السوداء التي عجنت قلبك بها!

ـ قالت: الله يستر... ماذا تقترح يا طبيب القلوب التعبانه؟!

قال: إيه رأيك تحبينى أنا؟!.. والله أحسن لك، وما أتعّبك.

ـ قالت بنظرة شاردة، وبلغة فصحى: ولم لا.. أين الخطأ؟!

قال: الخطأ.. أن يعتقد «الآخر» أن الحب يمكن أن يوجّه «بريموت كونترول» من شخص إلى آخر!

ـ قالت: أنا أعيش حُباً بقدر ما كان يحفُّني بالسعادة كبحيرة عسل ومنًّ وسلوى.. بقدر ما صرت فيه أو صيّرنى إلى امرأة: متوترة، حانقة على قسوة الرجل، وخيانته.. امرأة لم يعد في إمكانها أن تهمس لحبيبها، أو أن تمنحه الدفء.. في صراخ ذلك الحبيب «سى السيد» وفي استعلائه، حتى أشعرنى وكأنه يريدني أن أكون مجرد شهرزاد في ليلته، ما يلبث أن يقطع رأسها في الصباح!

قال. وَلْ.. وَلْ.. أظن أننى وضعت يدي على الجرح النازف، وأنت ياحبة عيني كاتمة في صدرك كل المدة دي؟!

ـ قالت: أرجوك يا «عادل».. الموقف لا يحتمل السخرية.

شاهد «عادل» دمعة تلمع في عينيها، لم تنسرب على وجنتيها.. فقال: آسف.. كنت أمزح أخرجك فقط من «المود» اللي يغم أهلي وكل قومك العرب.. زيادة على غمهم الأزلي.

ـ ابتسمت وهي تمسح دمعتها وقالت: أشكرك إنك نبشت أعماقى، أو

أفتتحت حزني الذي كظمته عن كثير من الناس، حتى أقرب صديقاتي.

قال ضاحكاً: هل هناك أقرب صديقاتي مني؟!

ـ قالت: يمكن الآن وجدت القدرة، والشجاعة، والدوافع.. أن أقفّل للأبد: صفحات هذا الحب الذي أرغدنى سنوات، وقتلني بعد ذلك

*. لكني عايشه أستوحى من حبي الذي كان.

قالت: والله ضِعنا.. لو تدلنا على باب الخروج الرئيسي، فالرجل الذي معي مريض.. وياريت تنقلنا معك!

ـ وما زال نَعْلا كل واحد منهما تحت إبطه.. ركبا بجانب السائق، «عادل» في الأول، و«سارة» بجانبه.

ـ قال «عادل» للسائق: يعني حنِمشي كده إن شاء الله ساعة؟!

قال السائق: لأ يا بيه.. كلها دقائق.

ـ قال «عادل»: خسارة!!

إلتفت إليها وقال هامساً وهو يمزح: قربي إليّ حتى لا تتسخ ملابسك في الباب.

ـ لكزته بتأدب.. فبادر إلى الالتصاق بالسائق ليكون ما بينه وبينها: شبراً على الأقل، وهو يتحمل رائحة السائق، وهي تنظر إليه/ شماتة كأنها تقول: إحصد كل أعمالك ونواياك !!

ـ وأوصلهما السائق إلى البوابة الرئيسية وهو يتطلع إليهما.. ثم قال يودعهما:

ـ بالسلامة.. إنتو أحلى زوجين شفتهم.. دمكم خفيف!

قال «عادل» وهما يخرجان إلى السيارة: خلاص يا ستي، بشهادة سائق ونيت يحمل كتباً.. لم يكن منظرنا كحبيبين، بل كزوجين.. إفهموها!

ـ وضعت «سارة» يدها على رأسها وقالت ضاحكة: «ماكانش يومك يا سارة»!!

ـ علت قهقهاتهما في السيارة التي تقلهما إلى الفندق وهما يسترجعان بعض الصور والمواقف لهما داخل معرض الكتاب، ومعرض الحياة لكل منهما، رغم كثافة الحزن في عمقيهما.. وكأنهما كانا يضحكان على الأشياء التي تؤلمهما في العمق النفسي، ويحولانها إلى مجرد مزاح فقط.. انتهى بهما أمام بوابة الفندق.. فسألها هناك:

ـ هل تُفضل سيدتي الخروج والدخول إلى الفندق أولاً وبمفردها، ثم أدخل أنا بمفردي؟!

* قالت: ليه... نحن لم نفعل شيئاً خطأ أو غلطاً، كنا تحت الشمس والسماء وفي زحام الناس، وفي أيدينا كتب تدل علينا!

ـ قال: شُجاعة... لقد حذرتك، يمكن نلاقى «غنام» أو همام، أو جمعان، أو...

قاطعته: أنا يا سيدي امرأة في النور، لا أفعل ما يخجلني، بل ما أرفع به رأسي دائماً، وهذا ما يطمنني ولا يخيفنى، وهو سرقوّتي... الآن أحتاج ـ فقط ـ إلى حمام فوراً لأقشرِّ تعب المشي والغبار.. هلكانه جداً!

* * *

* جلس على حافة سريره في غرفته يقرأ ما وجده من رسائل هاتفية:

ـ شُفتك في معرض الكتاب: متلبساً. . . سأكون عندك مع «أحمد» بعد التاسعة مساء، لا ترتبط/ «سيف بن ذى يزن»، على رأيك.

ـ إنتَ رحت فين؟ !. . هذا ثالث اتصال ولم أجدك أيها الرجل الزئبق. . كلّمنى/ «غالية»!

ـ أنت شخص مريب لا ترتبط مساء الغد من اليوم أحذرك، سنسهر سويا/ «فلاح».

ـ وضع كل هذه «المسِجَات» على الطاولة، وسرح وهو يحادث نفسه:

ـ تُرى. . . هل بحثت عنى «نوار». . على الأقل لتعرف ماذا فعلت لها في طلبها؟!

* * *

(١٣)

تبقّت من أيام زيارته للقاهرة ثلاثة أيام. . لابد أن ينهى خلالها: مشتريات السوق، ويقوم بجولة أخيرة على المكتبات، ويذهب إلى مسرحية يحب بطلها كثيراً، و. . . يحاول أن يقترب أكثر من «نوار»!

ـ أوه. . «نوار»: هذه الأنثى، الفتاة، السندريللا/ اللغز بحق.

ـ أكثر من مرة. . حاول أن يبحر في أعماق عينيها، فكانت تصدّه باغماضتهما وبأجوبتها.

ـ حاصره سؤال مدبب وهو مستلق على سرير!

ـ هل تحبها. . هل تسمي استطرادك وراءها: حباً. . أم تراك يا عادل ـ

كما قالت عنك سارة ـ تأخذ من كل امرأة ميزة، وتضعها في المرأة الحاضرة التي أمامك وتشاغل قلبك؟!

ـ الإجابة متعجلة في هذه الفترة القصيرة من رؤيته لـ «نوار».

ـ إنشغاله بها.. كان بدوافع إعجابه السريع بملاحتها، وبالذهب المسكوب على ظهرها في شكل شعْر، في ضحكتها الطفولية.

ـ هل يتوخس منها؟!

ولِمَ التوخس.. فهو الذي اقتحمها وليست هي.

صحيح.. لكنها هي التي أشرعت أمامه الأبواب، ودعته بابتساماتها، وبعنايتها الخاصه به، وبملاحقته ليكتب لها: أجمل كلام لم يكتبه لها رجل من قبل، كما قالت له!

ـ لحظات مرهقة من التفكير، والأسئلة، التي تكالبت على «عادل».. وهو يفكر في أبعاد هذه العلاقة مع أنثى ملفتة، يخاف أن يتعلق بها وتخذله، ويحبها فتذله!

ـ يظل في مكانه.. وهو ينطلق بهذا الإحساس: حزيناً، متكبراً على الهواجس والظنون.

ـ وهل ستكون «نوار» هي: حصاد رحلته هذه، بكل ما فيها من مفاجآت، ومكاسب في روابط الصداقة، والمزيد من الرؤية لواقع ربما تتشابه فيه الأقطار العربية؟!

يحس «عادل» أن في أعماقه وقراً كسمعه، وأن الإنسان حين يحتار فذلك لأنه لا يعرف، أو لأنه فقد القدرة على التمييز، أو الاختيار، أو ... القرار!

في مجال العاطفة.. يعتقد الإنسان: أنه يزداد اقتراباً من نفسه وروحه، ولكنه في الحيرة... قد يقتل هذه النفس، ويغرّب هذه الروح!

ـ يحتاج «عادل» الآن: أن يلم أشواقه للفرح... فالحنين يكبر أحياناً حتى يتحول إلى: غربة، ووحدة، وشيخوخة!

ـ ولماذا يلم أشواقه للفرح... مادام أنه يحيا لحظته التي يحب فيها: الاكتشاف، ومعاشرة الخفقة، والدفء بالناس الذين يحبونه وهم حوله؟!

الأشواق للفرح في شكل إنسان نحبه أو ـ على الأقل ـ نرتاح إليه، ونمنحه ثقة النفس!

❊ ❊ ❊

❊ أيقظه رنين الهاتف من أفكاره، وهواجسه، وأسئلته... كان صوت «الدكتور فلاح» كأصوات المذيعين، ويمكن أن يكون صوته «إيكو».. قال:

ـ أيها العجوز الفتى.. أنا جاهز، إنزل إلى الصالة على هونك، ولا تنس أن تقفل غرفتك من «اللقافه».

ـ ومع الخطوات الأولى لخروجهما من الفندق، سأل «عادل» صديقه:

«بس لو تقول لي: أنت رايح على فين»؟!

ـ صمتاً من فضلك.. ممنوع الأسئلة.

هات سيجارة.

ـ لكن... أنت لا تدخن.

ليست قاعدة ولا التزاماً... ربما كان عدم تدخيني: نسياناً!

ـ لا تفلسف حتى المزاج!

التدخين في هذه الأيام: لم يعد مزاجاً... إنه توتر، حالة نفسية.

ـ وهل أنت متوتر، وحالتك النفسية متردية؟!

كأنك تخطفني، ولا تخبرني إلى أين ستضيعني هذه الليلة؟!

ـ ها قد وصلنا... إنزل.

ـ صعدا عمارة طويلة، وارتفع بهما المصعد إلى الدور السادس، وقرع «فلاح» الجرس.

ـ فوجىء «عادل» بوجه صديق قديم يطل من فرجة الباب، وهو يقول «لفلاح»:

لقد نجحت، وجئت به!

ـ قال «عادل»: اللعنة عليكما... ثكلتكما أمَّاكما يا حنظلتان!

قال صديقهما عمر: أدخل يا لمض... زمان عنك وعن «أدبك» الجم.

ـ تجول «عادل» بعينيه في أرجاء الصالون... ولعلع صوته: عندك شيشه، لأ... إثنان، واحدة للجراك، والثانية للمعسل... فاتحها كازينو يا متكأكىء؟!

ـ اسمع يا «عمر»... حالاً تجهز الجراك، جزاءً لك وردعاً لأمثالك: غرض حميد/ «فلاح»!

ـ علت قهقهات الأصدقاء... ثم ما لبث «عادل» أن ابتلع قهقهاته.

ـ دخلت إلى الصالون: أنثى أخرى.. تطوف بهم وهي تسلم عليهم كالنسمة، كالهمسة العطوف.

ـ إثبت يا واد يا «عدوله»!

ـ قال لنفسه، وطفق يحدق في وجهها الذي شاعت فيه إبتسامة مساء مضمخ بتلك الاشواق للفرح.

ـ ولكن... هذا الوجه ليس غريباً علي، ترى.. من تكون؟!

ـ هاجمه السؤال الثانى من داخله، وتراكضت الأسئلة عليه منه، يحاول أن يتذكر.

ـ والله يا «عدوله» كبرت.. ضربتك الشيخوخة يا ابن الناس على حين غرة!

ـ ورغم سخريته هذه من نفسه، لم يتنكر، ولكنه لم يستح من التحديق في وجهها إلى حد الحماقة.. حتى قال له «فلاح»:

* هيه... لا تمدّن عينيك

ـ لم أكن أدري أنك متزوج من إمرأة أخرى غير أمّ أولادك أيها الرجل المنثور!

* منثور، منظوم، بتفعيله واحدة.. ما هو شغلك.

ـ والمرأة تزداد ابتسامتها طلاوة، وتحولاً على الحضور!

ـ لكن «عادل» لاحظ أنها تخصه بابتسامتها بين فترة وأخرى.. وهو لم يزل يحك رأسه، محاولاً أن يتذكر!

ـ بَسْ، بس.. وجدتها، وجدتها!

ـ أعلن هذا الخبر لنفسه صامتاً.... عرف هذه المرأة، وقد التقى بها قبل عامين عند صديق له، وكانت قد أتت للاتفاق معه على عمل ديكورات

شقته، فهى ديكورست مبدع!.

* قال بصوته العالي: يا سلام... الدنيا صغيرة، أو كما قال المواطن الأميركى «توم بين»: العالم قريتى... والشاعر قال:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنّان كل الظن أن لا تلاقيا!!

ـ قال «فلاح»: إيه الحكاية... نحن بنتكلم في موضوع آخر ياسيد، وأنت انبعثت كأنك قادم من عصر غير عصرنا!

* * *

حين قام صديقه «فلاح» إلى الحمام، أشارت إليه المرأة، وطلبت منه أن ينتقل ليجلس بجانبها، وسألت: افتكرت أخيراً؟!

ـ قال: ذاكرتك أقوى!

قالت: وجنونك أحلى.. يرسخ في الذاكرة، لقد عرفتك من النظرة الأولى حين دخولي.

ـ قال: هل أحببت جنونى؟!

قالت: منذ التقينا أول مرة، وكان إلحاحك عليّ عند صديقك أن أبقى لأسهر معكم... وكنت قد جئت لعمل، ولا تربطني صداقة بك، وقليلها بصديقك، لقد عرفتك فوراً لأنك بقيت في ذاكرتي.

ـ قال: ازددت جمالاً، وتألقاً... أما ابتسامتك فسكّرها زياده قد تقتل المريض بالسكر!

ـ عاد «فلاح»، وأراد «عادل» العودة إلى مكانه، لكنه أبقاه، وشاركهما المكان.

قال «عادل» للجميلة: لا فائدة... سأعود إلى مكاني، فهذا الرجل قصد أن يبقينى هنا ليستمع إلى حوارنا!

❊ ❊ ❊

قبل عامين: التقاها.. هذه الأنثى الناعمة جداً، المدوكرة: «سوزان»، وحاول يومها اقناعها: أن صداقته معها مربحة لها، ومرغدة لعاطفته!

ـ هذه المرأة الماثلة الآن أمامه وبجانبه، وكانت ـ يوم رآها في المرة الأولى ـ قادمة من أوروبا حيث كانت تدرس الديكور... وهي ليست من حفيدات إيزيس، لكنها من أصداء التاريخ الأموي... من أعلى منطقة في قاسيون، تشرف على بردى والغوطة.

ـ يومها ـ أيضاً ـ سألها: هل تزورين مصر مثلي؟

ـ قالت: بل أقيم فيها.. فهى نصفي الثاني، أمي مصرية وأبي شامي!

❊ قال: أنت إذن مخاض/ وحدة ما يغلبها غلاّب!

ـ قالت ضاحكة: لذلك.. كان الانفصال أيضاً بين أمي وأبي!

❊ ❊ ❊

❊ وامتد الليل بالسهارى.. وشعر «عادل» أنه يحتاج إلى النوم، والخلود إلى نفسه.. فحمل «جاكتته» على يده متأهباً للتسلل من بين السهارى.

ـ لمحته «سوزان»... فاقتربت منه تقول:

ـ هل مللت من صحبتنا؟!

* قال: بالعكس.. امتلأت بصحبة الوحدة العربية، وأنا رجل وحدوى لكن.... دعيني أفر من.

ـ خرج متسللاً.. لكن صديقه «فلاح» لحق به، وكأنه يطارده، زاعقاً عليه:

ـ انتظر يا مجنون... أنا قادم عائد معك!

* قال مطوحاً بيده إلى الخلف: ما زال في الليل ثمالته.. عد إلى «سوزانك»، سآخذ السيارة وأطلب من السائق ان يعود إليك.

ـ قال «فلاح»: لكن الأمور ليست كما تظن.

* قال وصوته يغيب خارج الشارع: إذن.. دع الأمور كما تظن سوزان!

ـ لكن «فلاح» أصر أن يصحب صاحبه ورفيقه، ويعودا معاً إلى الفندق.

في السيارة.. بقي «عادل» صامتاً لا ينبس بنأمه، وكأنه خارج هذا الزمن كله، ومنسلخ من لحظاته هذه.

* سأله «فلاح»: ما بك.. دائخ، أم أن الجميلة عششت في تلافيف رأسك؟!

ـ لم يلتفت اليه، وقال: تلافيف ايه... والله الدنيا دي عجيبة يا حسن!

قال فلاح: لكن أنا اسمي لم يكن في يوم من الأيام: حسن!

ـ قال «عادل»: أعرف.. لكن بعض أعمالك حسنة، انبسط. أنّثت لك حسن!

وترك العنان لنظراته تختلط بأضواء الليل المتكسرة في ثمالته، واقتراب الفجر.

لم يتكلم... لم يقل لصديقه: تصبح على خير.

صعد إلى غرفته، وشعر باحتياج شديد للنوم العميق جدا!

* * *

(١٤)

هل سينتهى هذا الجنون حقاً؟!

ـ سؤال «عادل» إلى نفسه، بعد أن استيقظ في صباح جديد، وجلس يتصفح جرائد اليوم!

ـ هل هو «جنون» عاطفة.. أم مجرد تفجير لأشواق الفرح في نفسه؟!

ـ ولكن تفجير الفرح لا يتم من خلال قصة حب جديدة قد تفنيه، أو تضنيه.

ـ ملامح «نوار»، وضحكتها، ووجهها: صارت أشياء تطرد وراءه في كل مكان، وكل لحظة... فهل هذا حب؟!

ـ تجربته في هذه المعاناه ليست بسيطة ولا سهلة.

ـ لقد دخل حدود وجهها ذات مساء، وقال لها مبتسماً:

ـ صباح الليل الذي وجهك: صُبحه!

وترنمت «البنت»/ نوار بالوصف، وقالت له:

الله. . . . كلامك حلو!

ـ وبقي ما بين وجهها وضحكتها: يتنفس ـ في مشاهدته الافتتاحيه لها ـ خطوة الليل الأولى، وكأن جوانحه سطعت لحظتها: شمساً من ضحكتها.

ـ استيقظت لحظاته الأجمل: حباً، وبدايات.

صدحت دنياه لحظتها: تغني «نوار». . تتحدث عن ضوء الأرض فيها.

ـ هي «نوار» التي لم ينج من سحرها. . . وهي التي لا تعرف ظمأه إلى الحنان الذي لن يقسو أبداً. . . فهل تقسو هي عليه؟!

في أيام «عادل» هذه. . كان احتياجه شديداً إلى اجتياز كل الإحباطات التي نثرها في دربه: البعض من الناس الذين أحبهم، وظن أنهم يحبونه.

ـ مشاعر الناس تبدلت. . . لكنّ الحكايات القديمة تروي من وقت طويل: كدر الصديق، أو من نحسبه صديقاً!

ـ «نوار»: طلعت قوس قزح بعد رعوده.

❊ ❊ ❊

أخرج ورقة بيضاء، وكتب عليها رسالة من ثلاثة سطور:

ـ أخي المخرج الفنان/ «عصام»:

هذه هي «نوار» التي حدثتك عنها بالهاتف، ولعلني وسّطت لك صديقنا معاً «سيف» برجاء الاهتمام بموهبتها وملاحتها في فن الإعلانات. . فلا تخيّب رجاء الجمال الذي يشع به وجهها!

ـ وضع الرسالة في جيبه، وغاب في المصعد.. ليجد نفسه بعد لحظات أمام نوار».

ـ صباح الخير يا أجمل «نوار».

صباح الفل.. أنت فين يا هربان؟!

ـ أنا أحاول الهروب من سحرك ودلالك.. أين قهوتي؟!

حالا... وأين هديتي الصباحية؟!

ـ حالا.. هذه المرة تختلف، إنها رسالة إلى مخرج الإعلانات المعروف «عصام» تسليمها له بنفسك بعد أن تذهبي للكوافير بالطبع.

وهل شعري يحتاج لهذه «الصناعة»؟!

ـ عفواً... المخرج ينتظرك غداً بعد الظهر، الساعة الخامسة... حلو الكلام؟!

* أنت أحلى.. كنت أفكر لو اصطحبتني اليه، ولكني أستحسن فكرة الذهاب وحدي، لا أسبب لك إحراجاً لو لم أنل موافقته ونجاحي.

ـ مثلك.. أفضل أن تذهبي إليه وحدك، ليس دفعا لإحراجي، فتأكدي إن شاء الله أنه «في وجهك القبول»... ولكن لكي يعرف ذوقي في اختيار الجمال!

* يا سلام... إنت محدش قدك!

ـ مين! محدش ده؟!

* اشرب قهوتك.. لا تبرد، دا أنت شيطان معجون بمية العفاريت.

ـ يمكن... الزمان صاغنى بهذه الشخصية، كفاك الله شر الزمان، ومنحك من خيراته.. وبالمناسبة، تذكريني بقصيدة رائعة للشاعر اللبناني الكبير «إيليا أبو ماضي» لا أحفظها، ولكن أختزن منها هذه الأبيات في ذاكرتي:

وطن النجوم.. أنا هنا

حدّق.. أتذكر: من أنا؟!

يتسلق الأشجار.. لا ضجراً يحس، ولا ونى ويعود بالأغصان يبريها: سيوفا، أو قّنا ولكم تشيطن كي يقول الناس عنه: تشيطنا!

ـ تعرفي... في كل هذه «الرزانة» المحمولة بتجارب عمري: ما زلت أتوق إلى هذه الشيطنة أو مثلها.. اتسلق الاشجار، أبرى الأغصان وأصنع منها سيوفاً أو قنا... أتشيطن ليقول الناس عني مثلما قلت:

هذا الرجل الرزين يتشيطن!

* قالت «نوار»: ياه.. إنت ممتع ومبهر، نفسي أجلس أسمعك على طول.

ـ قال: أشكرك.. لكني أنفث وأنفس عن نفسي.. نحن في أقاليمنا اليعربية يا مليحة: صرنا نعيش الضغط النفسي والاجتماعي، «انت مش مضغوطة»؟!

ـ في الخارج يقولون: «اتشيطن» بحب، وهنا في أقاليمنا يضيفون: سوء الظن الذي يبعد كثيراً عن أقوى الفطن، ويتهمون الأخلاق في الإنسان

بالانحراف، لمجرد أنه: أطلق تعبيراً أو تصرفاً عفوياً منه لا يضر بأحد، ولا يعتدي على شرف الآخرين!

ـ اغفري ـ نوار ـ حين يصرّ سمعك الآن على الدهشة، وصوتك يرضع من لبن البوح أو حليبه. ـ اغفري لي حين أصر دائماً على طلبى بوقت أطول نتغدى أو نتعشى فيه بعيداً عن العيون أو الظنون . . . فلقد اغرقنى العطش، وأنت أنثى الحلم، وأنثى السفر، وأنثى خاصرة العمر!

لم ينتظر أن ترد عليه بكلمة. . . فقد شاهدها تحدق في وجهه، كأنها مندهشة، أو مسلوبة الكلام.

جر ساقيه إلى المصعد، وأختفى فيه كالعادة، أو كما يفعل الناس.

لعله كان في تلك اللحظة يحاول أن يقفز فوق العمر والإحباط. . حتى ينتصر الزمن بالحب على كل حرائقه!

فهل ترى «نوار» ستتوقف به عند هذا الفاصل المموه. . بين أن تعطى أنضر ما يشكل نقاء الإنسان. . وبين أن تحسر عطاءها؟!

ـ همس بين نفسه: في الحب يا صغيرتى. . لا نستفتي جروحنا. . لا تسرقنا أصواتنا الداخلية، حينما تصبح هي وحدها: حدود خوفنا من النهاية.

لقد اقترب من «نوار» فجأة، وبتدفق. . . فوق ما تستطيعه هي من عطاء، وفوق ما يتحسبه هو من ردود فعلها!

* * *

عاد إلى غرفته. . وهو ينساق وراء رغبة نفسه في الوحدة، لكي يحلم بالتوحد.

أضرب عن الهاتف.. لا يتصل بأحد، ولا يرد على أحد، حتى على، نوار»!!

ـ حتى ولو كانت «غالية»!!

* كلهن..... نساء، في لحظة من اغتصاب أشواق الفرح!

لكنه متعطش للكتابة في هذه اللحظة، طلب نعناعاً خالصاً، وخضع لحمام دافىء.

وحين أمسك القلم ليكتب... كان وجه «نوار» يحتل شاشة عينيه مختلطاً بضلوعه... لكن هنالك كالطيف: وجه آخر كان يزاحم، وربما يكافح ويقاوم احتلال وجه «نوار» لعينيه وضلوعه... وجه لا يريد أن يظهر كاملا، وواضحاً بل هو يظهر ويختفي كالطيف، كأضواء النيون البراقة... بما يعنى: أنه لا يريد أن يعطى ضوءه، وفي الوقت نفسه مصم على أن يكون وحده الذي يحتل بصر، وضلوع، وقلب «عادل»!

وبدون توقيت.. خطت يده على الورق، ليكتب قلمه وهي ورؤيته ورؤاه:

* يا امرأة البهاء والنقاء.. أسألك:

ـ هل الذي يمنح العطاء يسترد ما منحه... أنت أم هذه التي تتوارى كالطيف!

أسالك.. أسألها.. أسألكن: عن الفرحة عندها تكون حنيناً يتواصل بالأشواق لامرأة في صدر رجل.. عن الحب عندما يزهر في مخاض الكلمة والبوح؟!

تصاعدت شجاعتي الآن أمام هذا الضوء الممنوح لخفقة قلبي. . . أتمناه منك، أنا الذي أتوق أن أحيا بك، وأن لا يكون سواك: عذوبة مائي، ولا سواك كنوز بحاري وأسرارها.

وضع القلم. . شعر أنه تعب كأنه يلهث، هو المتمرس على الكتابة حتى تفيض الصفحات كالنهر في موسم فيضانه!

و. . . لماذا لا يقدر الآن أن يفيض كهذا النهر؟!

لا يدري الآن. . هل هو يسأل، أم مجرد دهشة تفيض منه؟!

* * *

(١٥)

هبط إلى «الكوفي شوب» يبحث عن أحد ـ أي أحد ـ يحكي معه، ولكن ليس بطريقة، (لبنان إن حكى) لسعيد اللا عقل عربي!

دكتورة «هلالة». . . يا هلالة!!

شاهدها تجلس وحدها، وتقرأ في كتاب. . لكنه ضبط نظراتها تنطلق منها إلى صفحة النيل، والشمس تنعكس كومض الألماس. . فلم تشعر به وهو يقترب منها.

«هلالة» عندما حاول أن يقرأها من الداخل. . . وجد في أعماقها: امرأة مكسورة عاطفياً. . في داخلها. . حزن شاسع المساحة، لكنها تطرق دروب حياتها بقوة، وبشموخ وبشخصية نسائية ملفتة، وعالمة. . تجيد الحوار، وتمنطق أراءها بحجج مقنعة. . . فهي امرأة مريحة، وناضجة، ومحاربة. . .

وهي أنثى في الأربعين الجميل، أو في جمال الأربعينات الذي يصبغ ملاحتها بنكهة عميقة.. لم تفقد رشاقة أنوثتها، وإن كانت تضع حجاباً سميكاً على مشاعرها... وهي امرأة تؤمن بحرية الإنسان الذي لا يهدر قيمته أمام الآخرين باسم الحرية، أو بادعائها.

ضحكتها المميزة... يتموسق من أنغامها: حنان الأنثى.

وقف «عادل» أمامها، وقال مبتسماً: هل تسمح سيدتي بـ «ساعة بقرب الحبيب»؟!

ـ قالت ضاحكة: عسل !!.. حبيب.. مرة واحدة، أنت يا خوي حبايبك كثير!

قال: الحبيب.. ليس العشيق أو المعشوق.. بل الذي نمحّضه المودة، وارتياح النفس، والثققه و.....

ـ قاطعته: بس، بس، على هونك، شوي علي، أنا ماني قدك.. شربت شاي، والا أطلب لك غداء؟!

قال: شربت من كيعانى... نفسى مصدودة.

ـ قالت: يمكن لما نتغدى سوا.. أفتح لك نفسك؟

قالت: وتأكلي جمبري، والا إستاكوزا؟!

قالت: متجاوزة خبثه: ليه.. كلوسترولك، منخفض، ولا ضغطك؟!

قال: الإثنان في العالي.. فوق الارتفاع، لكن.. نفسى في «جمبراية».. تأكلي معايا؟!

ـ قالت: وأنت تقشرهم لي؟!

قال: أقشر قبيلتهم... يا متر، من فضلك!

ـ قالت: أنت هكذا دائماً متعجل في اتخاذ قرارك الذي تريد؟!

قال: ولماذا لا تعتبرينى حاسماً في اتخاذ القرار؟!.. لأننى ـ ياسيدتي ـ لا أعلن عن رأي، أو رغبة إلا بعد أن أكون قد اقتنعت بتنفيذها من داخلي.

ـ قالت: وين هالغيبات.. قالو لي إنهم شافوك معك البارحة بنت ممثلة، صاعدة ياكُثُر حلاها؟!

قال: قصدك تقولي: شافونى معها... فهى صديقة الدكتور «غنام» ولا أعرفها، ولمعلوماتك لم تنزل لي من زور!

ـ قالت: حتى الدكتور «غنام»... بروتس؟!

قال: أو هووه.. بعدد شعر رأسه الأصلع!

ـ قالت: عمره طويل... هذا هو الدكتور «غنام» بنفسه.

إتخذ الدكتور «غنام» مقعده هو وصوته المجلجل، ونفسه الطيبة جداً، ومرحه المعتاد.. وقال:

ـ جئت أودعكم.. سأعود اليوم إلى جدة.

قالت الدكتورة «هلالة» وانا وراك يا خوي.. غداً إن شاء الله إلى الرياض.

ـ قال «عادل» حلو.. و «سارة» مسافرة بعد غد، وأنا... مسافر في الغد فهل «يرمحنا» العودة معاً؟!

قالت «هلالة»: والله قضينا صحبة جميلة، وسعيدة إنى اتعرفت على واجهة مشرقة من مثقفينا ومبدعينا.. يا خوى كلمونى بالتليفون..

ـ قال «غنام»: أخاف أن أزعجك؟!

قالت «هلالة»: يعنى مكالمة للاطمئنان وخذ رقم هاتفي.

قال «عادل»: أما أنا.. فلن أطمئن عليك فقط بل سأشتاق لك، تعودت عليك، وعلى «حكمتك».. تذكرينى بـ «بيدبا الفيلسوف» إنما على إمرأة.
قالت «هلالة»: بالعكس.. منكم نستفيد ونرتاح!

قام «غنام» واحتضن صديقه «عادل» وصافح الدكتورة «هلالة»، وركض إلى الخارج.

وجللتهما ـ هلالة وعادل ـ لحظات صمت. كأنهما قد أفلسا من الكلام.. حتى قالت «هلالة»:

إنت يا خوي عاطفي، حق من قال عليك رومانسى.. أشوفك تدارى دمعة في عينيك!

قال: لعلى من الناس العشريين، والأهم: أننا في هذا الزمن الردىء، من الصعب أن نجد صديقاً يحوز على ثقتنا، فما بالك عندما نريد أن نحافظ على هذا الصديق؟!

ـ قالت: فلسفة الصداقة في عصرنا صارت تقوم على المصالح في أغلبها، لكن... ما زالت الدنيا بخير، والناس أيضاً.

وامتد الحوار بينهما... ولا حظ أنها أكثرت من التلفت، ونظرها على المدخل، قالت:

ـ انتظر الأولاد. . . لا بد من التسوق، الله يعين.

❊ ❊ ❊

❊ صعد إلى «نوار»، وكانت منشغلة جداً بالتزامات عملها، ناولها الرسالة التي خطها لها بعد الظهر، وعاد إلى غرفته. . السأم يلازمه، فأين سيذهب وحده؟!

وظف الهاتف عند سأمة، لم يجد «سيف» في مكتبه، ولا «أحمد»!!

«فلاح» غير موجود في غرفته، ولا «سارة»!.

راودته نفسه أن يهاتف «غالية» لكنها لن تعود قبل السابعة مساء.

إذن. . . لماذا لا يأخذ قسطاً من الراحة: ينام قليلا إلى المساء والسهرة، أو يقرأ ما ابتاعه من صحف ومجلات، أو يطالع في بعض الكتب؟!

نفسه مقفولة، ومزاجه مطفأ. . الحياة هي الناس حقاً، ولو تطلب الإنسان في بعض لحظاته: شيئاً من التوحد مع النفس، أو الوحدة بعيداً عن الآخرين. . فإن تأمله لن يطول في هذا الصمت المستغرق.

بقَيتْ له أشياء بسيطة، يشتريها قبل أن يحين موعد سفره في الغد، لكن. . . . لابد أن يسهر هذه الليلة الأخيرة مع صديقيه الحميمين «سيف» و«أحمد»، كما وعداه.

في بهو الفندق، وهو يهم بالخروج: شاهد «نوار»:

ـ سألها: إلى أين؟!

❊ قالت: إلى البيت، قرأت رسالتك القصيرة جداً، والدسمة. . سأعيد قراءتها في البيت، قل لي: أنت مصمم على السفر في الغد؟!

ـ قال: إن شاء الله. . . هل توافقين أن أوصلك بسيارتي إلى بيتك؟!

* قالت: أشكرك. . ليس في صالحى أن يرانى زملاني أخرج معك، لأركب سيارتك.

قال: إذن. . . سأشرب فنجان قهوة الصباح من يدك غداً لأودعك.

قالت: «حتوحشنا. . . أتعودت عليك».

ـ قال: أتمنى أن تشتاقى لي حقاً، كما سأشتاق لك وأعانى من غيابك. واتخذ طريقه إلى السوق، وفي رأسه عشرات الصور، وزحام من أصداء الأصوات.

في سمعه أيضاً: أصداء لصوت «سارة» في حواراتهما العقلية الممتعة:

قالت له: «يا رفيق الحرف، وما أعظمها من رفقة. . دربها مرصوف بالصدق وسمو الأخلاق: إنى أعيش حزنا سعيداً، أقاومه وأكافحه لئلا يحولنى إلى: امراة من رماد. . حسبنا ـ يا سيدي ـ أننا أحرار في تفكيرنا، طلقاء في خفقاتنا، أنقياء في ضمائرنا. . حسبنا أننا نمثل فئة نادرة لم تستعبدها ماديات الحياة، ولم تلوثها النزوات والرغبات. . فئة شفافة تعيش بمشاعرها»!

ياه يا «سارة». . أنت مرهقة أحياناً بالتزامك، وبمثالياتك، وبمباشرتك لاتخاذ قراراتك.

«خسارة» تدخل حياة «عادل» من عقله، وليس من قلبه حتى الآن، وهذا هو الأخطر والأقوى. . كل واحد منهما يحدث الآخر عن: الحلم، والحزن، والإنكسار، والتحدي.

يصفها بالبجعة البيضاء النقية في لحظات تفتح مشاعرها وجنون خفقها.

ويصفها بالنمرة الشرسة: في مواقف ترفض فيها أن تمنح شيئاً من التنازل للرجل!

وتصفه هي بالرجل «الصقر».. لأنه يتبنى أحياناً قضايا المرأة، ويدافع عنها.

وتصفه بالرجل الرومانسي الذي يفتح ذراعيه للمرأة. يدخلها حياته بقوة، فلا يقدر بعد ذلك أن يظلمها!

ـ يا حليلك يا «سارة»!!

قال عبارته هذه، وهو يقفل راجعاً من السوق، ليستعد للسهرة الأخيرة في هذه الرحلة مع صديقيه «سيف» و«أحمد» ويعود إلى قواعده/ بلده: سالماً، متجدداً!

* * *

(١٦)

لم يكن «عادل»: صخابا، ولا متكلماً، ولا زلقا في كلماته، على امتداد هذه السهرة الأخيرة من رحلته القصيرة.

كان يهمه أن يصغي إلى صديقيه «سيف» و «أحمد»..، وكل واحد منهما: «حلواني» كلام.

حلق بعيداً، بعيداً عن صديقيه يفكر في هذا الزمن الذي قال عنه «فيلليني».

«إن الزمن يشبه الغبار.. فلا يعنيني هذا الذي يجرى الآن»!

وكيف لا يعني «عادل» ما يجري الآن، وما جرى على امتداد رحلته القصيرة؟!

يقول لنفسه: هذه الرحلة القصيرة.. تأتي من أميز الرحلات في هذا الزمان الذي يشبه الغبار.. فهل تتحول ذكرياتها، وصورها، وأصداؤها، ومواقفها إلى..... غبار؟!

يستحيل تصديق هذا التوقف... حتى لو أراد «فيلليني» أن يوصم الغبار كله كعمر بأنه: لا أكثر من غبار، يُثار وقتاً يطول ويقصر حتى يموت الإنسان.. ويبقي الغبار مندلعاً في حياة الذين ينشئون، ويولدون، ويكبرون... حتى يموتوا، وتتعاقب الأجيال متشابهة في فلسفة: الحياة، والموت.. والغبار، والعمر!

وأين «العقدة» في هذه الدراما الحياتية الإنسانية؟!

الناس يتحدثون عن هذه العقدة، ويخافون منها.. لكنها تتحلل كمادة كيميائية بسقوط المناسبة، أو بترمد الحب، أو بذبول العمر!

العقدة الحقيقية في دراما الحياة.. هي: الطموح، والرغبة، والغرور، والزهو!

ولا يفكر الناس في عقدة حياتهم... لأنهم منغمسون فيها، والمرأة في أعماقهم فلايرون عليها وجوههم!

وأغراه سر الليل المتهادي على صفحة النيل.. فكأنه يجلس وحده، حتى ولا رواد المطعم، ولا ضجيج أبواق السيارات في الخارج.

كان صديقاه: «سيف وأحمد» يتجادلان في أبعاد ودوافع موقف شاهداه

في العمل، وكيف تقزم المصلحة الذاتية مسئولاً كبيراً، فيصبح حجمه أقل ضآلة من عقلة الأصبع.

لم يكن «عادل» يتابع حديثهما، ولا تعليقهما على الموقف، ولا «قفشاتهما» وضحكاتهما.

وهما بدورهما... لم يلاحظا شرود صديقهما «عادل»... كأنه في كوكب آخر.

ـ ترى... أي واقع هذا الذي «يبرمج» الإنسان: وقتاً، وجدولاً، وانشغالاً بغير الأعمق في النفس، والأثمن في العقل؟!

إنه مونولوج داخلي... شاع في نفس «عادل» وسرقه من الاستمتاع بصحبة صديقيه.

وسمع صديقه «سيف» يقول له وهو يهزه:

ـ لا تدع من أخذ عقلك يتسلط عليك لهذه الدرجة؟!

* قال «أحمد» بروحه المرحة: «ما تعرفنا على نوارك، ونعدك أن نرعاها لك حتى تعود إلينا بالسلامة»!

ـ قال «عادل» والله... لا مانع عندي، أقبلا غداً في الظهر إلى الفندق، وأعرفكما عليها.

* قال «سيف»: أنت لست جاداً.. أعرفك.

ـ قال «عادل»: والله العظيم جاد... على الأقل أتركها في أيد أمينة، واعرف أخبارها منكما.

* قال «أحمد»: وهل تهمك أخبارها بعد أن تعود إلى وطنك، وأهلك؟!

ـ قال «عادل»: لا أدري... سأعرفك عندما أعيش الاسبوع الأول بعد عودتي.

* قال «سيف»: يا ابني.. هناك فرق، صدقني.

ـ سأل عادل: أي فرق؟!

* قال «سيف»: فرق كبير بين الثّرى والثُّريا.. أقصد بين «نوار» الثّرى، و«غالية» الثريا.

ـ قال «عادل»: ولماذا تضعهما في مجال مقارنة؟!

قال «سيف»: أنت الذي جعلت «غالية» في مجال أفعل التفضيل!

ـ قال «أحمد»: لا تغضب من سيف لكن الصراحة أن «نوار» عيّله، حسب تصويرك لها، أعني أنها: لوليتا، في حين أن «غالية»: شهرزاد أو إيزيس بكل حلاوة النيل، وعبق زرع الغيطان!

* قال «عادل»: صدقوني يا جماعة.. لا مقارنة أعترف وأعرف، ولكن.. نوار طلعت كشمس جديدة على حياتي التي كانت شديدة الغيوم وكثيفة السحب، كأنها قوس قُزح.. في حين أن «غالية» هي التي غطّت سمائي الصافية بالغيوم. والسحب، ومنعت عني ومني المطر، وأصدرت قراراً بأن تبقى أرضي عطشى قاحلة!

ـ قال «سيف»: لهذه الدرجة أنت تحب غالية؟!

* قال «أحمد»: أنا عارف «عادل» بيرفص، أو يرفِّز... يتمرد على المسيطر في أعماقه، ويجلس على حفافي نفسه وقلبه، «مدلدلاً» رجليه.. يصفر ويغنى، وضلوعه ترشح دموعاً.. أعرفه!

إبتسم «عادل».. وبقي يتابع تشريح صديقيه، مستمعتاً بحبهما له، رغم أنه يختلف معهما في هذا التحليل، والقراءة لنفسيته، لأنه يعرف ما في أعماقه.

وفي ثمالة الليل احتضن «عادل» صديقيه بشدة يودعهما.. وقال لصديقه «سيف»:

ـ هل تريد مني أن أدعي لك تحت باب الكعبة المشرفة؟!

قال «سيف»: آه والنبي.. أحسن قربنا نخش النار!

❊ ❊ ❊

أيقظه هاتف «نوار» في صبحه الأخير لهذه الرحلة... قالت:

ـ لا تأتي.. إلا ومعك هديتي!

هديتك اليوم شجوني يا «نوار».

ـ إذن... ستترك شجونك لي وترحل.

❊ إذا لم تضايقك.

ـ دعنا نكمل الحوار وجهاً لوجه.. في انتظارك.

كان بالأمس قد انتقى لها هدية/ وداعية منه.. رتب وضعها مع الرسالة في مغلف، وسلمها لها، وهو يسألها:

ـ أين فنجان قهوتي؟

❊ من فضلك لا تعاملني كأنك لن تأتي بعد الآن!

ـ أقرئي الرسالة... فهي أنا:

فضت المغلف ونشرت الرسالة بين أصابعها، وأخذت تقرأ:

* عزيزتي «نوار»:

ـ الوقت يمضي والزمان.. فهل يمضي الحب معهما؟!

أعرف أنك لم تحبيني كرجل يدخل حياتك وتكونين معه شركة العمر، لست هذا الرجل.. وتعرفين أننى: مبهور بجمالك، وبشخصيتك، وبرقة أنوثتك، وأجدك معي أحياناً مباشرة في جدية صدك لبوحي.

أعجبت بك.. نعم خفت أن أعشقك.. نعم، سأفكر فيك كثيراً بعد عودتي إلى بلدي... نعم، ولكن.... مَنْ أنا عندك، ومَنْ أنت عندي؟!

وجدت نفسي أمامك هذا الرجل «الملاح التائه» كما وصف شاعركم علي محمود طه.. أسعى إلى جندولك، وأنا هذا الرحيل/ الإياب إلى عاصمتك الذاتية.. تجدينني في كل أحوالي: كوكباً يختلف عن رحلاتك إلى اللامدى.. أنا هذا «الغريب» عندك، الذي ستغفرين له: أن بوحه إليك فراشة في لهبك!

دخلت بهاءك بداية غريبة، أبحث لديك عن الدفء الذى أفتقده.

وأنت بعيدة كجزيرة غير مكتشفة.. قريبة مني كوشم في صدري، ترسمين الأحلام وتسرقينها.. تلونين ابتسامتي بالعطش لك.. تدخلين دهاليز ذاكرتي.. تشقين القلب ولا تغلقينه!

أنت منحتني الفرح الأول، والموت الأول... وأنت هذا كله)!

مد يده إلى يدها... العناق الوحيد والمباح بينهما: عناق كفيهما فقط! وكان آخر عناق!

* * *

* في طريقه إلى المطار في قطرة النهار الأخيرة.. سأله السائق:

«إن شاء الله اتبسطت يا بيه»؟!

* وجد نفسه يرد على السائق بقوله: ما جئت لأنبسط ولكن... لاتأمل واسترخي!

لم يفهم السائق، فآثر الصمت.

لكن أعماقه كانت تمور، وكأنه يخاف على الحلم.. لو عجز أن يركض وراء ندائه، أو عجز عن تحقيقه ولو بالموت!

وكأنه يخاف من هذه المسافات التي لا يملكها، ويخاف من الزمان الذي يبعثر الأحلام!

(يسترجع كلمة قالها في الزمن البعيد لتلك الأثنى الإيزيسية «غالية»: إنى احرّضك على عطاء يتنامى ولا يتناهى... عطاء منك ينجب مئات العصافير التي تطلق زقزقتها بألوانها الزاهية في زمن البغضاء واللون الرمادى.. ونزرع معاً نخلة جديدة)!

لكن «غالية» حوّلت كلماته العشب إلى: شوك وحنظل.. ومشت بعيداً عنه!

إستعادة من سرحته صوت السائق يعلن عن وصولهما إلى المطار.

لقد كانت أيام أجمل في هذه الرحلة القصيرة!

* * *

الفصل الثاني

(١)

هذه عروس البحر الأحمر/ جدة، كما تبدو منه خلال نوافذ الطائرة:

بانوراما من ألوان قوس قزح، ولمعة البحر التي تضيف ظلال الليل من الأضواء المنبعثة والمنعكسة على صفحة البحر: روعة، ونداء مشتاقاً من مدينة تحتضن في دفئها وحيويتها: أبناءها وزوارها ممن يقيمون فوق أرضها، وبجانب بحرها.

جدة: الميناء، والبوابة المشرعة لقوافل الحجاج والمعتمرين، والتجارة منذ أزمان وازمان.. تتباهى اليوم بعد أن أدارت يد التخطيط الحديث وجه «جدة» إلى البحر، وقد كانت تعطي البحر ظهرها!

هذه المدينة التي يحبها زائرها من النظرة الأولى، كامرأة جذابة.. تغنى بها الشعراء، وكان أشهرهم: شاعر الحجاز الكبير «حمزة شحاته» فقال:

النهى بين شاطئيك غريق

والهوى فيك حالم.. لا يفيق.

طفرت دمعة من عيني «عادل» مع لحظة بدء الطائرة في الهبوط إلى أرض المطار.

الانتماء إلى الوطن: بطاقة هوية للإنسان دائماً.. وتعريف دقيق للحب. لا شيء في ذهنه الآن سوى: أهله وشوارع جدة وشاطئها، وهمسات ليلها، و...... ماتبقى من أصدقاء هذا الزمان!

لماذا يفر من «تذكر» «نوار» في هذه اللحظات؟!

إنها أنثى ـ كما يحس بها ـ وقد انتقلت من قلبه إلى: رأسه... التفكير فيها: حاد بأسئلة مدببة.. ولكن وجدانه لا يقبل تعليل هذه المغامرة الغرامية!

هو رجل: ما زال يفتش عن وجوه بلا أقنعة، وعن قلوب بلا زوايا كثيفة الظلال، وعن وعي بلا عقد الفهم المجير دائماً لمصلحة الذات... فهو رجل علمته خبرته بهذا البحث دائماً.

يذكر أنه في كثير من هذه المواقف.. كان يهزم نفسه، أو يهزم «الأنا» في داخل هذه النفس.. ليس بمعنى التضحية، بل بدوافع السلامة والقفز فوق اللحظة التي لا تدوم كثيراً!

يركض مثل رفاقه في الرحلة من جوف الطائرة، إلى الأوتوبيس المعلق، إلى صالة الجوازات.

ينظر.. «السرا» طويل، وما زال الناس يتدافعون، كل واحد يريد أن يكون هو الواقف أمام مسئول الجوازات.

سأله موظف الجوازات مازحاً بعد أن عرفه: رحلة عمل، وكتابة؟!

رد عليه بعفوية: بل رحلة حب.

لا يدري «عادل» كيف فسر مسؤول الجوازات عبارته. أخذ جوازه. ودخل إلى صالة الحقائب والجمارك... حتى استرخى أخيراً على مقعده في بيته، كأنه يلتقط أنفاسه التي لهثت به أو لهث بها أكثر من عشرة أيام.

وفى الهزيع الأخير من الليل.. اكتشف أنه محاصر بالأرق، لم ينم رغم تعبه من الرحلتين رحلة الطائرة، ورحلة الركض!

هل تراه يفكر في «نوار»؟!

ترى... من أنت يا «نوار»؟!

كيف انساق بهذه السرعة المذهلة إلى عالمها، وضحكتها وركض وراء سبائك شعرها الذهبي؟!

هل كان «عادل» متعطشاً للحب إلى هذه الدرجة؟!

أم كان يحتاج إلى دفء امرأة، يزمّل ارتعاشة برد حياته التي تكاد أن تكون مثل البحيرة الراكدة؟!

هو فنان... يتطلع إلى: إلهام، ومشاكسة، وحوار، واحتواء في حضن يغمره بحنان يفتقده.

كان قبل رحلته هذه، وبعد إطلاق رصاص «غالية» عليه.. يلوذ إلى صديقته الكاتبة «سارة» عبر الهاتف: يشكو لها، و«يفضفض»، ويتألم، ويقهقه.

لكنه لم يفكر لحظة أن تكون «سارة» هي: الأنثى التي تضم ارتعاشته في دفئها من البرد، والوحدة... فقد كانت «سارة» تقاوم استعمار رجل قوي لخفقات قلبها، ولارتجاف أضلعها... أحبّته حتى أغمي على عقلها للأبد!

وقال لها يوماً بالهاتف: من أنت ... كامرأة؟!

ـ أجابته: أنا امرأة.. انتظر الرجل «الآخر» الذي أحببته في هذا الرجل الأول/ حبيبي!!

قال لها: لا أحد يهرب من ضعفه يا سيدتي.. خاصة من عاطفته!

أراد أن يقسر نفسه وعينيه على النوم... فهو متعب بهما وبجسده.

❊ ❊ ❊

❊ الصباح الأول له في «جدة» بعد عودته.

يتذكر فنجان القهوة من البن المحوج، ومن يد «نوار» وهمس:

ـ ترى... هل تتذكرنى الآن، مثلما أحياها؟!

هل يطلبها في أول صباح يلتقي فيه صوتاهما، ولا يغسل عينيه بفجر وجهها؟!

هل اشتاق لها بعد ليلة واحدة... فماذا يفعل بعد أن تكرّ الأيام وتتشابه وتطول؟!

طلبها بالهاتف، وهو يحشد في صوته أزهى فرح نفسه:

ـ قالت له: صرتُ أشرب فنجان قهوتك.

❊ اشتقت إليك منذ ودعتك.

ـ أشعر أننى وحيدة.

❊ مأذا حدث مع مخرج الإعلانات؟!

ـ أوه.. آسفة، كنت سأخبرك لكنني انشغلت بك عني... خبر: لقد

قُبلت فتاة إعلان... نجحت يا «عادل»، وسأدخل في برنامج يشبه التمرين والإعداد، ثم نبدأ التصوير. أشكرك. هذا بفضلك.

الحمد لله مبروك... كيف أحادثك في المساء؟!

ـ خذ رقم منزلي.. وانتظرك بعد المغرب.

يا ارتوائي أنت... أفتقدك.

ـ مع السلامة... في انتظارك.

لا يدرى ـ ثانية ـ بعد أن وضع سماعة الهاتف: لماذا راوده شيء قد يكون شكاً، أو ظناً، استنبطهما من نبرات صوتها، رغم رقة كلماتها؟! وساوره القلق، وانتابته هواجس الوله... حتى حل موعد المكالمة الأخرى.

ـ قالت له: أرجوك.. إجلس الليلة واكتب لي، وغداً إبعث بأولى رسائلك بالبريد المستعجل.

قال: عن ماذا تريدين؟ أن أكتب لك؟!

ـ قالت: إلى الآن لم أعرف عنك شيئاً.. عن حياتك، عن نشاطاتك؟!

قال: وهل أنا أعرف عنك؟!

ـ قالت: ستعرف كل شيء... ولمعلوماتك، فأنا لا أعطي رقم هاتف بيتي لأي إنسان... أنت عزيز علي جداً.

* * *

أراد أن يحكي، يبوح... يتحدث لأحد عن «نوار». صديقته الكاتبة «سارة» ستصل الليلة أو الغد.. لا يقدر على الانتظار، ولا على هذا

الكتمان في نفسه، لابد له من مرآة.

إنطلق إلى صديقه المقرب كثيراً إلى نفسه والمحتوى لأسراره كلها، والمتلقي لشجونه، وقلقه: «حسن».

كان يسميه: الشاطر حسن، لأنه يثق في حصافة رأيه، وحنكته،

وتجاريه الأطول بكثير من تجربة «عادل»... لكن هذا «الشاطر» لا يخلو من خبث، وهو يُشعر صديقه «عادل»: أنه يوظف خبثه أو دهاءه لمصلحته، وليس ضده.

شعار «الشاطر حسن» عن النساء: أنهن كلهن..... اذا لم يمارسن الاحتراف، فقد يتمنيه!!

ويستشيط «عادل» غضباً على صديقه، يرفض شعاره هذا، قائلاً:

ـ يا أخى... لماذا تعمم؟ !.. النساء هن: الأم، والأخت، والبنت، والزوجة.

* قال: بشكل أو بآخر.

ـ يسأله «عادل»: هل اتهمك بعقدة؟!

* يرد «الشاطر حسن »: هذا تفسيرك، ولك الحق.

ورغم آرائه، أو شعاراته التي كثيراً ما تتضارب وتختلف مع أراء «عادل» فقد ركض إليه ليبوح، ليرتاح.

«الشاطر حسن»: يجيد فن الإصغاء، مثلما يجيد فن إقناع مَنْ أمامه،

أو بالدقة: يجيد فن التأثير على مَنْ أمامه.. كما يجيد فن الجدل،

والمراوغة في الكلام.

استمع إلى «عادل» يقص عليه: حدوتة «نوار».

ـ قال له: صفها لي... هل هي جميلة، وكيف لم أرها، وأنا دائم التردد على هذا الفندق؟!

وصف جمالها وقوامها لصديقه الشاطر حسن، وأخبره أنها جديدة.

لم تمض أكثر من نصف عام في عملها هذا.. وكان يحدثه بعفوية وصفاء نية.

لمعت عينا الشاطر حسن، وبكل الثقة التي يمحضها «عادل» لصديقه هذا، كاتم أسراره، ومرآته، ومتلقي بوحه، وحكيمه... ظن أن لمعة عيني صديقه: تفكيراً، وتعاطفاً معه.

وبعد صمت قصير، قال الشاطرحسن:

ـ استمر في الاتصال بها، ولكن... عليك أن تنقل كلامها بالتفصيل إلي.

❊ ❊ ❊

(٢)

❊ كان لابد أن يواصل «عادل» ممارسة حياته العادية: أن يكتب كل يوم، وأحياناً كل لحظة، وأن يسرق من الإحباط والملل: وقتاً مستقطعاً للقراءة الجادة.. ففي كل يوم بعد الظهر، يضع الصحف المحلية تحت عينيه، ويمشط سطورها بطريقة عجلى أو عابرة.. فالمضمون متكرر في أغلب أعمدة هذه الصحف، حتى كتابة الرأي لا تخرج عن أسلوب صياغة الخبر، كما هو مطلوب.

صار يضيق بالأعداد المتراكمة من الصحف والمجلات الوافدة من الخارج، ولابد أن يطالعها، أو يمشطها عابراً.. ويقص ما يتوقف انتباهه لتأجيل قراءته وهو في حالة نفسية، أو «مزاجية» أحسن.

فكّر عدة مرات أن يقاطع الصحف اليومية، والمجلات الأسبوعية.. فقد كان يشعر فيها مضيعة لوقته، وأمام مكتبه كتب كثيرة تستحق القراءة.. ولكن محاولاته فشلت.

شيء كالعادة ـ قراءة الصحف اليومية ـ عجز أن يتخلص منها أو ينفك من إسارها.. رغم أنها عادة صارت مرهقة لاحتماله النفسي، ولتفكيره وفهمه بالتحليل والأبعاد.

حتى ما تطرحه هذه الصحافة اليومية من قضايا محلية.. لم يعد الطرح مستساغاً، ولا مثيراً، ولا جذاباً... فالطرح في ذاته معاد ويخلو من الحلول التي قد يطلع بها كاتب بشجاعة الصحيفة التي تجيز نشر الرأي أو الحل!

الكلمات ـ على امتداد الوطن العربي - تبدو مثل: كرنفالات في مدينة غربية.

قلائل ـ أولئك الذين استراحوا، واكتفوا من هذه الكرنفالات، وذهبوا إلى بعيد في زحام متلاطم من الغرباء، والسيارات التي تبدو في أعدادها أكثر من البشر، وعشرات الأسواق التجاريّة الضخمة، والـ «سوبرماركت» والمطاعم، التي غمرت المدينة، حتى يحسب الناظر إليها: أن الناس لم يعد لديهم ما يشغلهم سوى الأكل، والشرب، والتسكع في تلك الأسواق!

وهذا البحر الأحمر: يمتد في النهار وهو يبتلع حرارة الشمس اللافحة بالهجير، ويتراقص في الليل بالأضواء الملونة المنعكسة على صفحته.. وقد

تموَّج سطحه بكبرياء الموجة البيضاء التي تندفع من المنتصف حتى تتحدد بحجار الشاطىء.

* * *

دخل على صديقه «وائل» في مكتبه، ولم يكن يعلم بعودته من القاهرة. احتضنه وهو يقول له:

ـ أين اختفيت.. سألت عنك بل فتشت عليك تحت قاعدة أبو الهول فلم أجدك.

قال «عادل»: لم أكن هناك... بل كنت أجلس فوق أنفه وأسأله: من كسرك أيها الأنف؟!

ـ فماذا أجابك أبو الهول؟!

أجاب بقوله: لا عليك.. المهم أنهم يحاولون إعادة الجزء المكسور!

قال «وائل»: أخبارك؟!

ـ قال «عادل»: كما يقول مثلنا الشعبي «مطبق العادة معصوب كل يوم»، لا جديد.. إلا ارتفاع نسبة الملل، والقرف!

قال «وائل »: حتقولي؟!.. يا أخي شيء غريب، كل ما تتكلم مع واحد، حتى ولو كان عائداً من الريفيرا.. يحدثك عن القرف، والملل.

ـ قال «عادل»: «شوطة» عام ١٩٩٤م.

قال «وائل»: أحد رجال الأعمال طالبناه بفلوس لشركتنا لم تسددها شركته، فكان جوابه الذى قاله لي ببساطة متناهية: يا أخي.. روح، هو فيه أحد عنده فلوس في هذا الوقت.

ـ قال «عادل»: وبماذا تعملون إن لم يكن بالفلوس؟!

قال «وائل» ضاحكاً: بالانتظار... بالصبر مفتاح الفرج، إلاّ ما سمعت حكاية رجل الأعمال الذى يتودد إليكم يا أدباء وكتاب؟.

ـ قال «عادل»: مين.... عبد السميع؟!.. ماذا حدث له؟!

* قال «وائل»: دخل دنيا!

قال «عادل»:دنيا إيه؟! دي الدنيا في جيبه.

* قال «وائل»: لأ بجد... تزوج امرأة ثالثة، مطلقة، أما زوجته ـ قبل أن تسألنى عنها ـ يقال إنه جعلها في البيت تعود لممارسة عملها الأصلى!

ـ قال عادل: يعني الراجل ده.. فيه حيل؟!

* قال وائل: ما دخل الحيل والميل والخيل... عنده فلوس يشتري بها الدنيا.

ـ قال «عادل»: مظهراً فقط.

* قال «وائل»: ونحن في عصر المظاهر من زمان العجائب!

ـ قال «عادل»: وأخبار السوق وشغلك؟!

* قال «وائل»: المبحرون في الصحراء.. في بحر الآل!

وقف «عادل» وقد مد يده إلى صديقه يودعه، ويقول:

ـ إذن.. إلى اللقاء في قعر البحر!

* * *

* وفى بداية المساء.. ألح عليه صديقه «سامي» بضرورة حضور مجلسه اليومي المعتاد، وقال له عبر الهاتف:

ـ !يا شيخ تعال.. دق لك صكة بلوت، ودخن عليها.. محدّش واخد منها حاجة».

قال: لكنى أسأم بسرعة من لعبة الورق هذه.

ـ ولا تسأم من لعبة أوراقك التي أغرقتنا بها في بحار الكلام «إللي ما عليه جمرك »؟!

سأحاول الحضور، بشرط أن لا ترغمني على البقاء وقتاً طويلاً.

وفي مجلس صديقه «سامي».. كان يستعرض الوجوه، ويتعثر في بعض الأصوات، و«يتفرّز» من بعض الآراء التي تطرح.. لكن المجلس بلا شك كان يشبه (الشَوّ) ـ الاستعراض ألوان البلياتشو: أشخاص متنافرين لاتوحد بينهم فكرة، ولا تجمعهم وحدة رأي أو مبدأ..

تجمعوا في هذه السهرة: البعض منهم جاء يقشر تعب النهار من عمله، ومنهم من جاء ليستمع إلى ما يقوله الآخرون، ومنهم من جاء ليرفع صوته ويدلل على أحقيته للكلام، ومنهم من غلبته نفسه على وقاره واحترامه لها!

سمع بعض الأصوات تتحدث عن «فلان» الذي خسر صفقة في أمريكا تقدر بملايين الدولارات، وآخر خسر في لعبة سهر «قروشاً» من الدولارات، وكانت بجانبه امرأة فاتنة.

مال إلى جاره الذي يقتعد الكرسى الآخر، وقال:

ـ لماذا يتحدثون عن الخسائر فقط.. غمُّوا نفوسنا، ألا توجد مكاسب؟!

فقال زميله: لأنه ـ ببساطة ـ لم تعد هناك مكاسب بالفعل. . . انظر إلى الوضع العام في وطننا العربى (الكبير). . في خلال سنوات قليلة من الستينيات وحتى التسعينيات، حولّنا من كان من مكاسب نعض عليها بالنواجذ إلى خسائر، والعرب يدعون أنها مكاسب. . . كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمل!

ـ قال «عادل»: ، ول. . . أنت ساخن جداً، حاسب. . ترى الأزمات القلبية، والجلطات: على ودنه. . وضغط الدم مرتفع في موازاة أرتفاع الأسعار. . والسكر يهدد الكثير، حتى أصبح دمهم خفيفاً، وحواراتهم سكر»!

قال جاره زميله: «على رأيك. . لا يطق لي عرق، وتكتب الصحف عن موتى، وتتبارى الأقلام في ذكر محاسن ميتهم. . بس، كلام الناس ثلاثة أيام»!

ـ قال «عادل»: أستأذنك. . سأنسحب بهدوء مستغلاً اختلاط وارتفاع الأصوات. لقد صدعت.

قال جاره: خذني معك. . . النوم أحلى.

* * *

عاد إلى بيته أكثر إحباطاً، وذهولاً. . . كأنه فقد القدرة على التفكير، وعلى التركيز في شيء، وعلى الإحساس بما حوله، أو بما داخله.

فتح جهاز التلفاز، وأخذ يعبث بجهاز «الروموت كونترول». . يتنقل من محطة محلية إلى عربية مصرية، ومن تلك إلى محطة فضائية. قال لنفسه:

ـ زحام في الكلام وبه حتى في الفضاء. . إحنا ناقصين يعني، ألا يكفي

زحام الكلام على الأرض»؟!

توقف قليلا أمام محطة فضائية عربية.. تعرض سهرة كاملة ومنوعة، وضيفة السهرة على مدى ساعتين: راقصة قطاع خاص!

ـ قال ضاحكاً: «منكم نستفيد يا راقصة.. ممكن تقول الراقصة غير المتماسكة كلاماً متماسكاً أكثرمن عضو برلمان عربى»!

حوّل القناة إلى أخرى... شاهد مطرباً وراقصاً، وسيم الوجه شبيهاً بالبنت: يغنى وهو يغمض عينيه، ويطوِّح بساقيه في الهواء، وفى الجهات الأربع... وتظهره القنوات الفضائية مجتمعة أكثرمن مرتين في اليوم!

فى قناة ثالثة: شاهد مطربا من الخليج العربى ـ كما دفع للتلفاز أن يصوره ـ وهو يقود سيارته المرسيدس الشبح، والكاميرا تصاحبه من الشارع إلى البوابة الرئيسية للمسرح.. وخلفه تابعان كالبودى جارد، وبدون أن يلتفت إلى أحدهما: نزع الشال من حول رقبته، وقذفه خلفه ليركض التابع الأول فيلتقطه، ويخلع البالطو، ويرميه إلى التابع الثانى، ويدخل إلى المسرح في شكل طاووس!

ـ قال «عادل»: الله يرحمكم يا عبد الوهاب، وفريد الأطرش، وعبد الحليم حافظ... ويرحمك يا محمد على سندى.. لقد تحول الفن إلى: زعامة طاووسية!

أقفل جهاز التلفاز، وردد عبارة جاره في المجلس: النوم أحلى!

* * *

(٣)

شيء من القلق أخذ ينتشر في أنحاء نفسه، وقد كثّفت وحدته هذا القلق. . . والتفكير في «نوار» يرميه أحياناً في مايشبه التمزق!

وهو يفتقد «سارة» أيضاً: مرآته غير المشروخة التي يرى على صفحتها كل انعكاسات نفسه، وأفكاره، وشجونه. . تصغى إليه، وتربت على مشاعره حتى تمتص قلقه.

أين هي «سارة »!

كأنه يناديها، وقد أكدت له عودتها بعده بيوم، فما الذى أجل عودتها؟! لكنْ. . . لماذا لاينطلق الآن إلى: صديقه، حكيمه، معلمه «حسن». . . ذلك الرجل الذي كان وما زال «عادل» يمحضه الكثير من الثقة في النصح له ومن الإعجاب بحصافة تفكيره، ومن الشعور بالاطمئنان والراحة كلما حكى له وحتحت من نفسه قشور الهم والمشكلات. . حتى أنه يطلعه على أسرار بيته، والخلافات والمناسبات السعيدة قبل حلول موعدها.

إذن. . . كيف نسي «حسن»؟!

دخل عليه في مكتبه، وهويقول له مازحاً ضاحكاً:

ـ أريدك أن تمنحني دقائق من وقت عملك، لأنني قلق، وتائه وعندي «لوح» أريد أن أسمعه لك!

بتلك الابتسامة العريضة التي طالما أراحت «عادل» على وجه صديقه، وأحياناً كان يستخدمها «حسن» للسخرية من موقف تصرف به «عادل». . أشار صديقه إلى الكرسي، وقال له:

«كلّي آذان صاغية.. اجلس، و «سمّع اللوح»!

وهذه العبارة التي يرددها «حسن»: تعود إلى ماكان يقوله «الفقي» ـ كما يطلقون عليه في الحجاز ـ حين يدخلون الطفل إلى أحد «الكتاتيب»، ويحفّظ «الفقي» الدرس للطفل مكتوباً على لوح خشبي، وفي اليوم التالي يطلب منه أن يسمِّع اللوح»!

وكان «عادل» أحياناً يشاكس صديقه معلمه، مستشاره «حسن» عندما يغضبه فيقول له مازحاً:

ـ يا أخى.. أنت مازالت فيك نزعة ذلك الفقي القديم في الكتاتيب، وذلك المعلم الفظ الذي يقرع تلميذه على اختلال فهمه لما درسه له، وهو يطوح بالعصا ترهيباً.

ويضحك «حسن» ويقول: لم أطلب منك أن تصفني، ومع ذلك... أنا أصطفيك من بين زملائك / أصدقائنا معاً، لأني أحترم فروسيتك، ولو انك «تندب» في بعض المواقف كما الجردل!

بدأ «حسن» يلبخ.. ثم استطرد يقول لصديقه «عادل»:

ـ هيا.. سمّع اللوح وخلصني!

* * *

ذلك هو كل شيء بالتفصيل... رواه «عادل» لصديقه مستشاره «حسن»، أو كما يحلو له مناداته أحيانا: الشاطر حسن.

ها هوقد «سمَّع اللوح» ـ من طقطق لسلامو عليكم ـ وحكى لصديقه حكاية «نوار»، واصغى إليه مبتغياً مشورته ورأيه الحصيف.

وعاد «حسن» يُحبط صديقه «عادل» بكلمات انتقاص من رجاحة تفكيره وقسا عليه في الكلام ، وأجحف له القول إلى درجة التبكيت عليه.

وتقبل «عادل» أسلوب صديقه معلمه... لأن قناعاته عن هذا الصديق تؤكد له عنه: أنه يريد مصلحته، فلا ينبغي أن يغضب منه، وأن يتحمل غلاظة بعض كلماته القاذفة.

ويعود «حسن» فيقول: يا إبنى.. أنا أريد مصلحتك، أنت رجل متسرع، درويش، مدب، من السهل أن يضحك عليك حتى البسطاء، لم تتعلم من الحياة بمقدار ماكبرت فيها، وجربت.

(تشرد خواطر «عادل» وذكرياته به إلى أول رحلة دعاه إليها صديقه «حسن»، وكانت سبباً مباشراً في تقرب «عادل» أكثر مما كان نحو صديقه، والثقة في آرائه ونصائحه، وربما الإعجاب في أكثر الأحيان برؤيته في الحياة والأحياء... فكأنه التصق بصديقه «حسن»، لايفارقه أبداً في مدينة جدة... وكان «حسن» يدعو «عادل» دائماً للالتقاء به في مكتبه، ويملآن الحياة: مودة، وصفاء وتفاهماً أعمق في مابين شخصيتيهما.

عدة رحلات رافق فيها «عادل» صديقه، واستمتع فيها برعاية «حسن» ورفقته.

ملآ الدنيا بهجه، وغرسا المزيد من شتلات المودة في حقول الصداقة المبنية على الاعتبار بأن: الحفاظ على الصديق في هذه الأيام كنز، وأصعب من إنشاء صداقات جديدة.

عاشا معاً حكايات مرغدة، ومواقف تراوحت ما بين السعيدة وتلك التي

تشبه الصدمة. . وحرص «عادل» أن يعرف صديقه معلمه على أصدقائه خارج الوطن، وفى كل رحلة يكسب «حسن» معرفة أصدقاء يعتز بهم «عادل». . . وكان «حسن» يشكك له في البعض منهم، ويحذره من البعض. . وكانت القاعدة العامة عند حسن: «لاثقة في أحد». . . أو أن «الآخرين» لايتقربون منك أو يسمحون لك أن تقترب منهم إلا من أجل مصلحة!

وتأثر «عادل» ـ إلى حد ما ـ بآراء صديقه الحصيف كما كان يسميه دائماً. . . فمثل هذا الصديق بجانبه: ثروة، وصمام أمان. . . دائماً هذا شعوره نحوه، واحساسه به بجانبه. . . حتى تلك المواقف التي خلفت علامات استفهام لدى «عادل» لم تغير صورة صديقه في نظره)

* * *

تلاحقت هذه الذكريات من وجدان «عادل» نحو صديقه، وهو يخرج من مكتبه في طريقه إلى بيته.

اضطجع «عادل» في مسائه المحشود بالأفكار والهواجس. . بالاشتياق والوحدة.

تناول كتاباً من لون المذكرات السياسية. . لم يطقه فقذف به.

تذكر رواية «غبريال ماركيز» التي سماها: الحب في أزمنة الكوليرا، ابتسم ونسج في نفسه همساً:

ـ حقاً. . نحن في أزمنة كوليرا، كوليرا في الأخلاق، وكوليرا في النفوس، وكوليرا في الضمائر والعواطف!

يعود بتذكره إلى بطل رواية ماركيز «فلورنتين» والذي كان يكتب بتدفق

حتى ينسى الراحة لنفسه، وكان صوت أمه يهزه أحياناً وهي تناديه من غرفة نومها قائله له:

ـ «يا فلور... إنك تبدد عقلك... ما من امرأة تستحق هذا»!!

ويهمس: ولا حتى التي يخفق القلب باسمها، وتصطفق الضلوع وجداً؟!

وهل يمكن ان تكون «نوار» شبيهة بتلك الفتاة «فيرميناداثا» في رواية ماركيز؟!

إنه يشتاق الآن إلى «نوار».. أخذت ـ في غيابه عنها ـ تنغل في شرايينه كجنون الدم.

ترى... ألا يشتاق الآن إلى «غالية» مقدار اشتياقه لنوار؟!

إنه يفلسف العلاقة هنا.. إنه «يحتاج» الآن إلى غالية.. تصغي إلى معاناته، تهدهده كطفل على صدر أمه، تمسح بيديها الحانيتين على رأسه، وتدعه يغفو في حضنها.

لو كانت «غالية» بكل هذا الحنان.. لم يكن قد اضطر إلى التبعثر، والركض من محطة إلى أخرى، حتى ألقى بتعبه الآن في محطة «نوار»!

وهل ستبقى «نوار» في حياته: مجرد محطة، أم تتحول إلى وطن؟!

تناول أوراقه وقلمه... وكتب:

«وضعت سماعة الهاتف، بعد أن غسلنى صوتك من كآباتي ووحدتي. تمنيت لو أعدت الإتصال بك بعد دقيقة واحدة، لأقول لك: وحشتيني.. اشتقت إليك.

هل يعقل أن أعيد الاتصال بك هاتفيا بعد أقل من دقيقة واحدة..

ومازالت أصداء صوتي في سمعك، وصوتك يسكن سمعي؟!

هل هذه لهفة، أم اندفاع، أم استغراق فيك؟!

كأنني كنت أجلس على شاطىء العمر أمام أمواج السنين، أرتقب طلوعك قمراً، وشمساً: نواراً، يضئ نفسي.

حدست ذات يوم حين كنت أتأمل وجهك وأنت أمامي في الاستراحة أنني: صرت أخاف منك عليّ. وكنت في بدء انجذابي إليك أعتقد: أنه من الضروري أن أخاف عليك مني.. فأنا رجل تجربة أعمق وأكثر تعدداً.. وأنت زنبقة تطلعين بعبقك من الضوء والنسمة، والماء، فتشكلين كوني بعطرك، وبنكهة أنوثتك.

آ ه. ما أسرع انتشارك في نفسي مثل العبق في ليلة العيد!

صرت أنتظر اللحظة التي أحادثك فيها بالهاتف... فأنت ترعرعين الأجمل في داخلي كإنسان.

عبثاً.. أحاول أن أغسلك من واقعي.. واكتشف أنك تكبرين كالزمن بسرعة مذهلة».

طوى الرسالة في المغلف، لإرسالها في الصباح.

أراح رأسه على قائم السرير، وهو يسترجع بخياله أو تخيله ملامح وجهها وضحكتها.

حاول أن يبسطها في تأثره.. فقال لنفسه:

ـ ما هذا الجنون؟!.. إنها فتاة عادية، جاملته بابتسامة كانت من طبيعة عملها في البدء، وهي تمنح تلك الابتسامة المجاملة لكل نزيل جديد،

من مهمتها أن تشعره بالحفاوة.

لا... لقد أحس بسحرها يسافر في دمه... وجهها هو الأجمل.

لو أنه الآن قادر أن يخبئ وجهه كله في سبائك شعرها الذهبي...

كان المساء يتحول إلى شفق ذهبي، والشفق من خيوط شعرها.

لكنه صحا على الفراغ... لا أكثر من تخيل ومن الأفضل له أن يحاول مع النوم.

* * *

(٤)

صار الاتصال الهاتفي كل مساء مع «نوار».

ولكنه في هذا المساء من الليلة الأخرى، ومن خلال محادثته لها.. فوجىء بها تخبره قائلة:

ـ صديقك «حسن» الذى حدثتنى عنه كثيرا معتزاً بصداقته لك... هنا في الفندق.

* كيف... لقد كنت معه بالأمس في مكتبه ولم يخبرنى!.. ولكن كيف عرفت، وأنت لم تلتق به قبل ذلك، ولا تعرفين شكله باعتبارك جديدة هنا؟!

ـ هو عرفني، أو سعى للتعرف عليّ.. وجدته فجأة أمامي عند مدخل الاستراحة مبتسماً يشير إليّ ويقول: أكيد أنت الآنسة «نوار».. فسألته: وكيف عرفتني؟!.. فقال: من وصف صديق لي رسم ملامحك ومميزاتك بدقة

شديدة، فقلت له: آه.. عرفت، لابد أنه «عادل» فهل أنت صديقه؟!

غريبة.. أنه لم يخبرني برحلته المفاجئة هذه.. ها... وماذا بعد؟!

ـ تعرف... والله كلامه حلو جداً، وباين عليه مثقف.. ده بيتكلم زيك تمام.

* نعم، نعم... لكني أنا الذي أتكلم بطريقته من تاثير أستاذيته لي، وربما أستخدم بعض كلماته وتعبيراته.. أليس معلمي وأكثر مني خبرة لأنه أكبر سناً؟!

ـ ماذا تقصد.. هل غضبت أني تحدثت معه.. فهذا عملي؟!

* وماذا فعلت أنت، أو حتى هو لأغضب؟! ولكن... هل من حقي عليك أن أعرف ملخصاً لحواره معك؟!

ـ أبداً... بدأني ـ بعد التعارف ـ بفاصل غزل مبطن في جمالي وشَعري، والحق أنه مؤدب وغامض.. ومَدحك، قال لي: إن ذوقك راق... فقط لأنك أعجبت بي، ووعد أن يعود لرؤيتي!

* إذن.. كسبت صديقاً جديداً، أكثر خبرة؟!

ـ غيرة دي؟!.. إسمع، هو يستحق الاهتمام بالفعل، ولكن... ليس مثل الاهتمام بك.

* كيف... فسّري لي؟!

ـ نوع الاهتمام به في شكل حذر منه، لأن طريقة تفتيحه للمواضيع معي: أشعرتني أنه يتصف بشيء من صفات الثعلب المهذب.. وسأعرف ماذا يريد؟!

أبداً. . . هو إنسان طيب، على الأقل أنه: راقٍ كما وصفته.

***

* لابد أن تلف الدهشة رأس «عادل» لثوان. . برغم ثقته الراسخة بصديقه «حسن» لكن هذه الحركة أقلقته، خاصة أنه لم يخبره بسفره، وكان يجلس معه يوم أمس !!

«حسن»: يخبره دائماً برحلاته، بل ويدعوه في مرات لمرافقته. . فهو رجل أعمال جعل تجارته بعيداً عن سطح علاقاته أو حتى صداقاته. . . لكنه بهذه السرية في جوانب شخصيته، يحرص أن يستخدم عبارات منتقاة تعبر عن المودة، والذوق في التعامل، وقد استطاع بهذا التعامل الذكي أن يأسر الكثير. . وكان في اختياراته للكلمة التي يقولها أو للفظ مثل جواهرجي متمكن من شطارته، لديه القدرة أن يخلط لك الأحجار الثمينة والكريمة بالأحجار الفالصو، ويقنعك بأصليتها وجودتها!

وضع سماعة الهاتف، وفي رأسه الموشوم بالدهشة، سؤال حائر:

ـ ما الذي اضطر «حسن» للسفر إلى القاهرة بهذه السرعة؟!

وكان «عادل» حاول إقناعه بالرفقة إلى معرض الكتاب، وتعلل بمشاغل لا تنتهي ولا بعد شهرين هنا في الداخل!

قد يكون اضطراره بسبب صفقة تجارية، أو مشكلة حدثت مع المتعاملين معه في القاهرة جائز!

هنا ـ هو وحده ـ مع كل هذه الدهشة!

(لم تكن المرة الأولى هذه التي يظن «عادل» ـ مجرد ظن الآن دون

اهتزاز الثقة «بحسن» ـ أن صديقه يكرر نفس الدوران الذي قام به من خلف «عادل» قبل أكثر من عامين وذهب إلى «غالية». لقد حاول يومها أن يلعب لعبة.. وحين علم «عادل»، قال له «حسن» بطريقة يشعره فيها بواقعية الحياة، وبطبيعة المرأة في كل الأحوال:

ـ هذه المرأة.. تريد رجلاً!!

وهل ذهبت إليها.. لأنك تعتقد أنها اختارتك على كثرة الفراشات من الرجال الذين يحومون حول لهبها المازال مشتعلاً؟!

وهذه امرأة يُحج إليها يا صديقي... وأنت: غبي ودرويش لم تعرف في حياتك كيف تسوس امرأة على كثرة ما عرفت!

إذن... حاولت برجولتك أن تكسب أنوثتها عندما التقيتها من وراء ظهري؟!

ـ أبدا.. ومن أمامك أستطيع، فأنا لا أحسب لك حساباً... فقط أريد أن أعلمك، وأبصرك أن: النساء كلهن....... !!

ليكن هذا رأيك، أو قصدك مما فعلت ولكن... لا بد أن تعلم: أن هذه المرأة «غالية» بالنسبة لي، وهي تشكل عندي: قيمة ومعنى لايمكن أن أهدرهما في رغبة من رغباتك المؤقتة هذه.. ولأنها قيمة، أعرف أنها ستستعصي عليك ولو ركضت وراءها حتى ينقطع نفسك، وأنت تتلمظها... وعلى فكرة: هذا رأيها فيك)!

* * *

أعاد الاتصال مع «نوار» في اليوم التالي، وكانت في بدء حوارها: ضاحكة، فرحة به، تتمنى عليه أن لا يقطع رسائله ولا هواتفه عنها.. لم

يلحظ عليها التبدل حتى الان، لكنه استنيط سؤالاً حار في ذهنة من كلامها معه عن صديقه مستشاره، حين قالت له:

ـ صديقك سافر اليوم.. وأخبرته البارحة أنني تحدثت معك، وأنك علمت بحضوره فقال بعفوية وبلغة انجليزية: «سووت!»

حسناً.. لعله ذهب إلى أوروبا، فمشاغله كثيرة.

ـ أقول لك خبراً، بشرط أن لا تغضب.. لقد دعاني أن أذهب معه إلى باريس، أو لندن، أو أي مكان أختاره ليفسحني... وقدم لي، «هدية» ثمينة وملفته عبرت عن مشاعره!

أريد أن أسألك: ماهو وضعه المادي وهل هو رجل مليونير.. لغته بالملايين، وأظنه قادراً على العطاء المادي!

في كل الأحوال... هو رجل كريم جداً ومضياف، ولا يقصد مصلحة ذاتية له من وراء ضيافته (!!) لكن.. لماذا تسألين عن مركزه المالي.. ماذا يهمك في ذلك؟!

تبدل صوتها، وشعر أنها تعجلت معه في طرح مثل هذا السؤال الذي ريما يكشف عن طموحاتها! ثم قالت بعد صمت قصير.. كأنها تغير الموضوع:

ـ أعرف رأيك فيه، فقد حدثتني عنه، وطلعت به إلى السماء. السابعة.

وإذن... ما الذي تريدين قوله؟!

ـ أبداً... هو شخص ظريف، ولطيف، وأملس، ومتحدث بارع، و... «نفسه خضراء» رغم شعره الأبيض كالقطن.

ومن كان شعره أبيض.. أليس إنساناً: يرغب، ويحب، ويحلم.. ما دامت توجد كانت لديه قدرات على ذلك كله؟!

ـ ليس مهماً عندي ما تشرحه، ولكن قل لي: كيف تختار أصدقاءك، وكيف تثق فيهم؟!

فهمت ترميزك... يقال يا حبيبتي: إن الرجلين يستمران أصدقاء جداً، حتى يتنافسا على المرأة!

ـ ولكن ما فعله صديقك.. لم يكن تنافساً.

حسناً... ما زالت ثقتي فيه ثابتة لم تهتز... ولعله له عذراً، أو رؤية!

هل سنضيع المكالمة في الكلام عن «حسن» ومناقبه، والظنون حوله؟!

دعينا منه... اشتقت. اكتبي لي.

تبدل صوتها، وضخمته شراسة الرد وعنف الكلمة، قالت:

ـ أكتب لك... لماذا؟ أنا لا أكتب لأحد.

على هونك.. لماذا انفعلت واستشطت غضباً؟!.. كلمتي لا تغضب، ومن حقي أن أنتظر منك رداً على رسائلي، فمن غير المنطق أن أكتب لك.. حتى بدون صدى!

ـ المهم أن تكتب لي، فأسعد بكلماتك.. لا تطلب مني المزيد، ثم أنني لا أجيد الكتابة مثلك.

كأنك يا «نوار» تغيرت؟!

ـ أبداً... هذه أنا، وهذه شخصيتي.. مش عاجباك؟!

إذن.. إتضحت شخصيتك لي الآن.

ـ ماذا تقصد؟!.. من فضلك لا تجرحني بالكلام.

وكيف تجرحينني أنت؟!

ـ أنا لم أجرحك.. هذا أسلوبي، ثم.... من أنت بالنسبة لي؟!

آسف.. مع السلامة.

قال عادل: أهلاً.... ترى هل بدأت ثمار «الشاطر حسن» تطرح حصرما؟!

أحسّ أن صداعاً شديداً يلف رأسه، ومعدته تقلب عليه.. فهل يقصد «عادل» أن يؤجل معرفة الحقيقة... وإلى متى؟!

ـ «اشتغل القولون العصبى»!

دخل عليه «إبراهيم»، الرجل الذي صار يلاصقه، ويعرف أخباره وأسراره وآهاته.

ميزة هذا اللصيق ـ أكثر من الصديق ـ أنه يحسن الإصغاء، ويعرف كيف يشيع قلوع سفينة الأمل في خاطر ونفس صاحبه «عادل».

«إبراهيم»: يعرف صديقه من ملامح وجهه.. من نبرةّ صوته، فكل ما يعتمل في داخله ينعكس عليهما. مثل نثارة الزئبق، وفلاشات التصوير.

ويصغى «إبراهيم» إلى صديقه، دون أن يزعج تهويمه بالمقاطعة، ولا بالتعليق.

ـ يقول له في اليوم التالي: أنت البارحة كنت في قمة الحزن، أو الألم.. لقد فاضت ثرثرتك مع نفسك بصوت عالي، وتركتك تبوح وتنوح!

لا عليك... فيضان من بين الضلوع يحدث لي بين فترة وأخرى.

ـ لكنى لاحظت عليك كأنك تنزف.

ربما... أنزف الدم الفاسد الذي تجمع في أوردتى بما صرت أحسه مكتسباً من الغدر، ومن الصدمة ومن الفجيعة!

ـ أقترح عليك أن تكتب لترتاح... أكتب أي كلام، حتى أو تمزقه بعد ذلك.

أخاف أن أكتب الآن... فأظلم من أحبهم حتى الآن!

ـ لا بأس... أنت تكتب عن هوية الناس اليوم في عمق واقعيتهم المادية! لكن «حسن» بالنسبة لي ما زال موضع ثقتى... فقط حيرتنى حركته.

ـ شمس تطلع... خير يبان!

* * *

(٥)

سرق الليل «عادل» إلى ظلاله وهمساته... كأنه يجلس الآن مع نفسه يحاول أن يسبر أعماقه، ويتلفت في الدنيا حوله ويفتش في ضمائر الناس... فيرتطم! في لحظات الثمالة من الليل.. كأن «عادل» يحدق في وجه زمانه ويناديه!

ـ يهمس: الناس يدورون حول زمانهم، والزمان يدور بالناس وحولهم... حتى النهاية.

الناس: يهاجرون كل مساء إلى غبطة اسطورية.. ويعودون كل نهار إلى: خوفهم الخرافي.

كل يوم.. لابد أن يعود إنسان إلى: لفة المصادفة، أو... يرتطم بها. الإنسان ـ في هذا العصر ـ صار يبحث عن الإنسان.. يبحث عن نفسه، يريد أن يستعيدها.

الإنسان: خاضع للتوقيت.. وما بينه وبين إنسان آخر: خاصرة وطن!

هكذ شهق «عادل» في وجه نهاره وليله.. في وجه زمانه.

استعطفت لحظاته العابرة بالفرح.. قدم رجاءاته العديدة إلى وقفات الإنسان في محطاته.

* كأن «عادل» يخاطب الزمان في لحظته هذه.. فيعمق تعبه وتمرده، وصدمته.. يقول له:

ـ كف أيها الزمان عن الدوران!.

ـ الإنسان والزمان ـ يعتقد أنه هو الذي يجري بالآخر.. حتى يكتشف الإنسان بعد فوات الأوان، وفي رمقه الأخير: أنه وحده الذي كان يلهث ويدور... لا الزمان!

يفترش وجه «نوار» سواد عينيه، فلا يرى سواه على امتداد الأرض.

كان يقول لها بالهاتف في إطلالة المساء: إنه ينادي على الثواني الأجمل في العمر.. عليها!

ـ وكانت ترد عليه قائلة: إلى ماذا تريدني أن أتلفت معك؟!

فيقول: تلفتي مثلي ومعي، حتى تخلع الوجوه أقنعتها.

ـ تسأله: تظن أنني ـ حتى أنا! ـ بقناع؟!

يستطرد كأنه لم يسمع سؤالها: حتى تغتسل النفوس من زيفها، وتأمن الخفقات بين الضلوع!

ـ تقول له: لم أسمعك تحدثني من قبل بهذه الكلمات، ولا بهذا الغضب على الدنيا والناس؟!

يقول: لابد أن يتحرر الإنسان من استعباد المادة لعقله، ومن سيطرة الشهوة على وعيه... لابد أن يعاد إليه ما سرق منه: الحب والضمير، والعدل!

ـ تقول له ضاحكة ربما لتستفزه: عجباً.. مازلت ـ مثل صاحبك، معلمك ـ كما تسميه ـ حسن، فهو قد تحدث معي عن الحياة... لقد أثر فيك فيما يبدو.

قال: أعترف أن تاثيره عليَّ كان إلى مرحلة معينه، حتى اكتشفت أننا متناقضان.. هو رجل واقعي جداً إلى درجة تجريد كل شيء وواقعيته قد غمسها في ماديات الحياة.. في حين أبقى أنا: رومانسياً كما يتهمني دائماً.... لم أستطع أن أبقى مثله، أو أن أصير برغم أنني اعتبرته في فترة من العمر في مقام وتأثير «الأب الروحى» وقد حاول ـ لا أنكر ـ أن يغير أفكاري ونظرتي إلى الحياة والأحياء.. وعندما فشل: صار يصب جام غضبه على رأسي.. واعتبر هذا التمرد على أبوته أو أستاذيته: عيباً في شخصيتي ولذلك.. كثيراً ما كان يعّيرني ويشير إليَّ وهو يردد: (كم تعلم في المتبلم يصبح ناسي)!

ـ قالت: هل اقتباس الآراء أو التأثر بها.. معاناة؟!

* قال: إذا كانت ضد طبيعة، وإيمان وقناعة المتلقي لها.. لقد كان

«الشاطر حسن» ومازال: ملجأ للكثير من تلاميذة، وبلغ به ذكاؤه أن يحرص على استقبال كل واحد منهم على حدة.. أذكر مرة أنني كنت أجلس أمامه في مكتبه: نضحك وأروي له مما لا أقدر أن أقصه على غيره، وهو يستلذ بما يسمعه مني.. ورن الهاتف، وحين وضعه: طلب مني أن أذهب، لأن صديقنا معاً «ياسر» سيأتي إليه، وعنده موضوع خاص(!!).. وعندما حاولت أن أفهمه أننا جميعاً في مقام الاخوان أكثر من الأصدقاء أشعرني انني المفضل لديه ولا يريده أن يرانى عنده، وعرفت بعد ذلك: أنه يقول لكل واحد منا أنه هو المفضل لديه!

* يقول «حسن» له: اسمع.. أقول لك شيئا ينفعك يا غبي: تعامل مع المرأة، وحتى مع الناس، كأي شيء له عمر افتراضى... مع زوجتك، مع أولادك، مع حبيبتك، مع صديقك.. حتى مع أهلك !!

* * *

* أيقظه رنين الساعة الذى أعلن له: أن الوقت هو الرابعة من صباح اليوم التالى.

ياه.. إنه ما زال يحب صديقه «حسن» ولا يمكن أن يسبق معرفة الحقيقة والخلفيات، فيتهمه لئلا يظلمه.

يتذكر أيضاً: أنه حكى له عن الحفل الذي أقامته الكاتبة «سارة» في الفندق، احتفاء بظهور كتابها الجديد، فطلب منه أن يصف له شكلها، وهل هى جميلة حقاً كما يقولون وهل هي مرتبطة عاطفياً؟!

سأله «عادل» لماذا... ألم ترها إلى الآن؟!

ـ قال «حسن»: وأين أراها... حتى أنني لم أسمع صوتها وليس بيني وبينها هواتف!

وأصغى «عادل» إليه وصدق ما قاله له عن «سارة».. حتى كان يوم يجلس عند صديقه هذا في مكتبه، فاستأذن منه لدقائق خارج الغرفة، وأراد ان يشغل فراغ الوقت الذي يغيب فيه صديقه، وأخذ يطالع في أسماء الكتب التي رصها «حسن» في دولاب جميل، وفجأة.. وجد كتاباً من كتب «سارة» فتناوله وإذا بإهداء على الصفحه الأولى الداخلية من الكتاب من: سارة إلى حسن.. تتحدث فيه عن أستاذيته!

أعاد الكتاب إلى مكانه، وكأنه لم يقرأ أو يكتشف، شيئاً، ولكنه حين عاد صديقه «حسن» أخذ ينظر إلى وجهه، ويهمس في نفسه:

ـ ولماذا الكذب علي ـ أيها «الشاطر حسن»؟!

لعله أراد من «عادل» أن يحدثه عن «سارة» من رؤيته هو، وليكتشف: هل «عادل» يحبها،فهو يعرف بعض التفاصيل عن حياتها!

فوجىء بصوت «سارة» في اليوم التالى لهواجسه، وحيرته.. فبادأها صارخاً دون أن يحس:

ـ أنت فين؟! تقولين لي: غداً سأعود وراءك وتتخلفين أسبوعاً؟!

قالت «سارة»: ظروف، وأعمال.. إنما قل لي: ماذا بك... هل أنت متعب؟!

ـ قال: متعب وإلا مزفت.. هل يهمك أصدقائك؟!

قالت: يا أيها الطفل الكبير... أحلف أنك «متنيل بستين نيله»!

ـ قال: يا ريتها نيله... ده قطران وزفت!

قالت: احكى لي.. ماذا حدث؟!

ـ قال: طبعاً يا ختي.. النسوان كده «قرقر، قرقر».

قالت: يا طفل الحب... اهدأ، وقصّ علي!

وأخذت «سارة» تصغى لتفاصيل سيناريو «حسن» في رحلته إلى القاهرة مع السندريللا، وما قالته «نوار» عن صديقه.. وكأنها لم تندهش كثيراً، وكأنها لم تفاجأ بما رواه «عادل»، ولكنها كانت تستحثه وتقول له وهي تكتم ضحكة ساخرة!

ـ ها... كمل، وبعدين؟!

قال «عادل» بعد انتهاه روايته: كنت وما زلت أؤجل الصدمة يا صديقتي.. فمن غير المعقول ولا حتى المنطقي: أن أخسر صديقي بهذه السرعة.

قالت «سارة»: إسمع... لا تزعل ولاتحبط، فالله جل وعلا أراد أن يزيدك بصيرة.

قال «عادل»: كيف؟!!

ـ قالت: لنعتبر أن رحلتك هذه إلى القاهرة وتعارفك بـ «نوار»: إمتحاناً قدرياً «للشاطر حسن» بدون أن تخطط أنت، ولا يدلك فيه، أو حتى تنسج ظنك حوله وضده ولكنه حظك، ونيتك الطيبة، يسرت لك ذلك.. وكأن رحلة «حسن» هذه، ستكشف لك: حقيقة «نوار»... لأن، «الشاطر حسن» كما يبدو لكما يبدو لي، وما استشفته من هذه الاحداث.. هو صياد للفرائس السهلة... فإذا

كانت «نوار» فريسة سهلة فحلال عليه كما يقولون، ومبروك لك الابتعاد عنها. . أما إذا طلعت مثل «غالية» وغيرها: أكبر من اعتبارها فريسة وأثمن من أن يأتى رجل صياد لينشر شباكه حولها. . فإن «نوار» في الحالة هذة حلال عليك!

قال: رأيت أحد كتبك عند «الشاطر» بإهداء مميز منك له. . فكيف ينكر معرفته لك أمامي؟!

ـ قالت: إلتقيت به في القاهرة مرة بالصدفة، وطلب ان يقرأ لي، وأنا أعرف اسمه جيداً، وأعرف أستاذيته لجيل كامل. . . فأهديته نسخة من كتابي. . . . لا أكثر!!

قال: أستعد للسفر إلى القاهرة خلال أيام. . تعودين معي؟!

ضحكت: يا حليلك. . يمكن حقيبة ملابسك لم تفرغ. . خير إن شاء الله ما دوري أنا في هذه الرحلة. . هل بلغ اشتياقك لنوار إلى هذا الحد أم. . . لتكتشف، ما الذى أحدثه صديقك الصدوق «حسن» من تخريب؟!

قال: لقد طلبت «نوار» أن أعود. . أخبرتنى أنها ستشتري سيارة جديدة، ولن يكون أول رجل يركبها سواي. . لأنها اشتاقت لي، كما قالت. . . .!!

ـ قالت «سار» مقاطعة له: لا بأس. . . ولكن من أين وفرت قيمة السيارة الجديدة، وكما نعرف أن أسعارها في مصر غالية جداً؟!

قال: أخبرتني أيضاً أنها باعت سيارتها القديمة، و. . . أضافت إلى قيمتها قيمة السيارة الجديدة.

لم تعبأ بتحليله، ولا ببقية التفاصيل، واستمرت كأنها تخاطب نفسها:

ـ تعتقد أن «الشاطر حسن». . . يفعل هذه المساعدة؟!

قال: لا . . . لا، أعرف أن أقصى ما «بصفته»: خاتم. . . فقط!

ـ قالت: إذن. . . . من أين لها ببقية القيمة؟!

«نوار» في حاجة لهذه السيارة، أو للحصول على سيارة جديدة. و«حسن» وأمثاله: من خير الذين يقتنصون فرصة الاحتياج ويضعون لها السيناريو الذكي والمستثمر، ويبررون الفعل من ورائها!

صمتت «سارة» قليلاً. . كأنها غارقة في بحور من الذكريات، أو لعلها تسترجع أصداء. . . فما لبث أن انتشلها من هذه الذكريات والشرود، صوت «عادل» يقول:

المهم أننى سأرى «نوار». . . وأحلم بأن نكون معاً، والأماكن التي سنذهب إليها.

ـ قالت «سارة» وهى تتنهد بكل حرارة أضعلها: الله معك. . يعطيك على قد نيتك، المهم خلي بالك من نفسك، ومن زوزو، ومن سوسو!!

كأن «عادل» يركض وراء طيف. . حلم تحت جفنيه يتغذى ويرتوي من خفقات قلبه، واصطفاق أضلعه.

في سمعه: الأصوات المنتشرة في ـ أرجاء العالم. . كل الأصوات.

كل صوت يتناهى إلى سمعه، ولو بالصدى. . هو: صوت يظن أنه الأعلى، ثم. . . يبتلع أصداءه وحده!

ـ قال «عادل» لنفسه: ما برحت الأصوات تسيطر على الحوار والهمسة. . لكنها أصوات منهزمة بأصدائها!

* * *

وقف «عادل» ملياً أمام هذا الشيوع في الدهشة الرافضة.. كان يفكر في الأعتراض (الجنون) ـ بطبيعته الرومانسية ـ على ما يمكن أن يكون لوناً من السلوك، مما يندرج في المعنى الذاتي!

يفكر «عادل» في هذا الإنسان المعاصر الذى يتحول بالتجريد إلى: خارطة.. ترسم في حياته جغرافية الممارسة، ومناخ الأصداء لذه الممارسة لدى الآخرين، وتضاريس التعامل المتشابك مع الآخرين ومنهم!

بعد خروجه من مكتب صديقه، معلمه، لصيقه «الشاطر حسن» وفي أصداء صوت «نوار» التي ألحت عليه بالحضور... كان يتوقف أمام الإصغاء والرجفة والتطاير، بكل نيرانه ونيران الذين أحبهم، وهو: محتج وعطوف... يتلمس من خلال عاطفته، وعلاقاته، وتوحده مع الذين أحبهم: الإصغاء والصراخ.. الحب والسخط. الهمسة وكل ما يكبر في الأسرار، وما يتضاءل في الرثاء!

ـ يتساءل: هل سقط الآن في الرثء، أم أصبح أسير الأسرار؟!

ها هو عادل يشاهد نفسه ويشاهد الآخرين... الجميع يمارس: لعبة اقتحام أشياء الآخر، في الوقت الذى يدفع فيه البعض بأشيائه إلى نفوس من يعايشونهم... بل ويحبونهم.

تراجيديا، وكوميديا.. دراما سوداء أحياناً.. ووقفات بلا ملامح!

تطفر دمعة دافئة من عيني «عادل».. وهو يشعر: أنه ينغمس في الحياة كما كسرة خبز لإنسان فقد شهية الأكل.. يحتاج لمقاومة فقد الشهية.. يحتاج إلى ما وصفه كاتب ذات يوم فقال: (مرارة الطفولة، وحيرة الشباب، وفزع الرجولة)!!

إذن. . . هو القلق الذي صار يكتنف معاش الناس اليوم. . وهو القرف الذي يتحد بعقارب الساعة التافهة بلا أمل. . وهي الحيرة المحيرة اللاهثة التي تحيل الإنسان إلى صفيح ساخن، لعله يحس أو ينبعث!

في ما كتبه «عادل» وصوره، واستقصاه عن حقائق الناس اليوم. . كان: يتطلع إلى الوجوه، وينبش صدور الناس بكلمة، ويحاول أن يتسلق أذهانهم بفكرة لو أصغوا إليها. . . وكان في وقتهم الراكض بهم متسع، ويدق على ضلوعهم بخفقة إنسان، ويستفز حوافزهم بنأمة. . . وكان بعد ذلك كله: يجمع دموعه ـ ككاتب إنسان ـ ويغسل بها ذلك كله. . . ويعود لينثر ابتسامته لعله يسترد بالابتسامة أشياء غابت!!

* * *

قبل سفره إلى القاهرة بيوم، هاتفه «حازم» الذي يرتاح لحديثه، ويسترخي أمامه. . فهو يمتلك قدرة هائلة، وربما إبداعية على ابتكار كمية من السخرية التي ينثرها عبر النكتة، والقفشة، والتعليق المميز بلماحية، وسرعة بديهة.

ـ سأله «حازم» في لحظة جلوسه الأولى أمامه: ما هي أخبارك. . ماذا تفعل. . ما هو الجديد مما تكتبه للطبع وليس للاستهلاك الصحافي اليومى؟!. . إشتقت إليك. . أخبرني.

قال «عادل»: كما يقول البعض «على حطة إيدك»!

قال «حازم» ضاحكا: كلنا يا سيدي «على حطة إيدك ». . أشياء كثيرة في حياتنا اليومية، وأحيانا التفاؤلية مما نترقب تطوره، أو تحسينه: ما زالت «على حطة إيديك» هات كلاماً جديداً!

قال «عادل»: من القديم ما يتجدد في ما يعيشه الإنسان اليوم، أسمع. .

كنت قد توقفت البارحة أثناء قراءاتي عند عبارة أعجبتني، وصمختني، يقول فيها كاتبها: (انظر إلى وجهك في عيني من يرافقك في الحياة، ومن تراه دائمًا أمامك، وعش معهما.. فالناس لا يعيشون إلا معاً، ولكن عندما يموتون.. يدخلون القبر فرادى)!

قال «حازم» عبارة جميلة.. في حالة إذا وجدت أو ضمنت من يرافقك في الحياة ممن نسميهم أصدقاء، ومن تراه دائماً، ولكن «فانتازيا» المعايشة اليوم للناس، ولمشكلات الحاضر.. تقوم على الخوف من استفحال هذا الاضطراب، ولا نقول الضياع، في رسالة «بناء الإنسان» !

نتساءل: ما هو مضمون الإنسان اليوم من الداخل؟!

بدون تشاؤم: ولا تعبيس للحياة، نقول: المضمون محزن، وكأنه قش.

اتذكرّ الآن معك عبارة «علي بن أبى طالب» كرم الله وجهه.. وقد قالها من ١٤٠٠ سنة «الفقر في الوطن: غربة.. والغنى في الغربة وطن».. كلام قيل من ذلك التاريخ التأسيسى لبناء الإنسان السوي، والشريف، والمتعاطف، والمنتج، والملتصق بوطنه أو أرضه.. ويومها لم يكن الناس يتعاملون بالكروت، أو «بالترافيلر»!

سأله «عادل»: ماذا تسمي هذا العصر الذي نعيشه بكل خوفنا، وفجائعنا؟!

قال «حازم»: نحن في عهد صناعي.. بدون صناعة، (قياساً على ادعائك لشيء لا تملكه)!

قهقه «عادل»، وقال: نحن نحاول بلورة أشياء قديمة بأشياء متجددة، ولكن لا جديد فيها، ونصيغها حسب الرغبة، والحاجة، والمصلحة.. بغية

أن يكون شعور الناس كلهم: واحداً، بكل الصعوبة التي فيه.. وأن تكون نكهة الحياة. متداخلة ومنشغلة دائماً بترتيب الحياة التي تزداد فوضى!

قال «حازم»: بناء الإنسان من الداخل.. هو الذى نفقده الآن.. هو هذا «الخراب» الذي يستشري في داخل الكثير من الناس بالدوافع التي ذكرتها أنت: الرغبة، والحاجة، والمصلحة، والعجز الذي يدفع إلى السرقة، والكذب وتزوير الحقائق!

تماماً.. مثل ذلك الشخص الذي بدأ حياته: بوابًا عند مدخل عمارة، حتى كبر وتضخم، واشترى تلك العمارة التي كان بواباً لها... لكنه ما زال في داخله يمارس أسلوب البواب ويتعامل مع الناس، وربما مع نفسه على أنه: بواب!

والعمارة التي نشاهدها من خارجها: مغرية، ومكسوة بالمرمر.. وتعود إليها في صباح اليوم التالى، فتجدها قد تهاوت وصارت حجارة وتراباً.. تجد أناساً بيننا اليوم مثل هذه العمارة.. لا يهمهم الداخل، ولا الأساس، بل المظهر فقط!

وعمارة قديمة: تقف شامخة ثابتة منذ عشرات السنين.. لأن أساسها وداخلها متين، وقواعدهما غير مغشوشة!

والشخص: الذي كان يحتل مركزاً مرموقاً في المجتمع أكثر سنوات عمره، حتى بلغ مشارف الشيخوخة التي تتطلب منه الراحة، والتأمل: تجده بعد أن يفقد مركزه ذاك.. يركض وراء من كانوا تابعين في إدارته له.. ليضعوه في موقع أقل من قيمة مركزه بكثير.. المهم أن يتحدث عنه الناس!

* * *

خرج من مكتب صديقه «حازم» وهو يشعر بدوار يصك رأسه:

إلى هذه الدرجة.. بلغ مستوى الحياة، وانغمر الناس في قش كثير لكنه لا يستر عوراتهم؟!

في إمكاننا أن نرى صفاً طويلا من النمل، يتخذ طريقه مستقيماً على الحائط في نظام عجيب وباهر، ولم يعد البشر يتقنونه أو يلتزمون به اليوم(!!).. وتأتي نملة في عكس الإتجاه، كما يفعل الكثير من بشر هذه الحقبة.. وتسير النملة إلى طريق مضاد، فتصطدم بالصف، ويتحول إتجاه الجميع: الصف، والفرد، أو تحول النملة الواحدة اتجاه الصف الطويل!

وانطلق إلى السوق.. ينتقي «هدايا» تُسعد «نوار» وتعبر لها عن مشاعره.

تمنى لو أشترى كل الأجمل في السوق.

ترى... هل يعجبها ذوقه الذي يختار لها الآن: ما تلبسه، وما تتضمخ به وماتتزين؟!

إنه يجتهد، ويثق في ذوقه.. الذي كثيراً ما خدمه!!

وهو يستعجل عقارب الساعة أن تفرّ بدل أن تركض، وأن تجن بدل أن تأخذ دورتها المعتادة.

يبقى من الزمن: النصف الآخر من اليوم، والليل بطوله الممض، والنصف الأول من نهار الغد.. وقت طويل كأنه دهر!

فى المساء... قال لـ «نوار» الخبر:

ـ بعد ظهر الغد.. سأكون في طريقي إلى عينيبك، فهل تلبين دعوتي لك على العشاء؟!

قالت: «بجد بتهزر»؟!

قال: هذه الأمور لاتحتمل المزاح يا صغيرتي.. ولكن اسمعي: لقد فكرت ألا أسكن في فندقك الذى تعملين فيه!

قالت: وما هي الأسباب؟!

قال: أنت اقترحت ذلك، يوم طلبت مني الحضور بشرط أن أختار فندقاً آخر!

قالت: صحيح.. المهم أن تأتي، مشتاقة إليك جداً

ـ قال: هل تسمحين لي بقيادة سيارتك الجديدة، وأنت بجانبي؟!

قالت: «يا سلام... ده أنت أول واحد بعد ماما وأخواتي طبعاً... على فكرة: أنا حكيت لماما عنك كل حاجة، وبتشكرك جداً، وباينها حتطبخ لك بإيديها»!

ـ قال: إيه ده... أنا أشوف لى صاروخ، ولا طاقية الإخفا، وتلاقيني قُدامك مثل ملكة سبأ.

قالت ضاحكة: إنت عندك جن تستخدمهم؟!

ـ قال. كقاية أنا!!

واستمر الحوار ضاحكاً، يرشه عطر الفرح بلقاء الغد.

الفصل الثالث

(١)

وقف «عادل» أمام كرسيه في الطائرة يرتب الجلسة، ويضع حقيبته، ويخلع جاكيتته.. وفي التفاتته إلى الخلف، حيث الصف الأول من كراسي الطائرة لتحمل المضيفة جاكيتته: انفغر فاهه دهشة من هذه المفاجأة غير المتوقعة، والمثيرة.

شاهد صديقه، رفيقه في السفر، معلمه «حسن» وهو يضع حقيبته في رف الطائرة، وأخذ يحملق فيه حتى استدار نحوه، والتقى وجهاهما!

أخذت المفاجأة «الشاطر حسن» للوهلة الأولى، وكأنه شعر أنه فقد شطارته مع «عادل» للمرة الأولى.

بادر «حسن» صديقه المازال فاغر الفاه بقوله: رحلتي هذه مجرد عبور للقاهرة ففي فجر الغد سأسافر إلى أوروبا.

ـ قال «عادل»: كان الله في عونك.. شُغل طبعاً؟!

قال حسن: وأنت.. ماذا تفعل في القاهرة؟!

ـ قال «عادل»: محبة.. أحب القاهرة، وأجواءها الثقافية والفنية، ولي أصدقاء كُثر فيها كما تعلم.

قال «حسن»: أقصد أنك لم تأت من أجل امرأة ما؟!

ـ قال «عادل»: بلى... الرجل والمرأة، كلاهما لا يستغني عن الآخر.

أقلعت الطائرة.. وفي لحظات الإقلاع، من عادة «عادل» أن يغمض عينه، ويسترخي ويردد دعاء السفر.

وحين عادت حركة المضيفات والمضيفين إلى جوف الطائرة، إلتفت إلى صديقه «حسن» يريد أن يواصل الحوار معه، فرآه قد وضع مجموعة من الصحف، والمجلات، وجاكتته على المقعد الخالي بجواره، ولم يفسرها «يعادل» بأنه قصد ذلك حتى لا ينتقل بجانبه.. وحملت يداه صحيفة يومية كأنه يغطي بها وجهه كاملاً.

وطوال الرحلة من جدة إلى القاهرة.. قرر «حسن» أن يخفي وجهه عن صديقه بقراءة الصحف، ثم المجلات.

«عادل» تحمله الأسئلة بكل ما في الموقف من دهشة:

ـ لماذا يتعامل معي بهذا الأسلوب، حتى لو كنت جاراً له لم يعرفه في المقعد، كان من الممكن أن يتحدث !!

غرق «عادل» في الحيرة... فهو لايعرف أنه ارتكب خطأ بحق صديقه، ولا يسمح لأحد من كان أن يتحدث بما يسوءه في غيبته، فكيف «عادل» بذاته؟!

تراه محرج من رحلته الغامضة التي سعى فيها إلى «نوار» دون أن يخبره حتى بعد عودته من مصر؟!

ولماذا يُحرج.. هل طعن صديقه في ظهره؟!

يستبعد «عادل» أن تبلغ النذالة بصديقه إلى هذه الدرجة؟!

إذن... ماذا حدث، حتى صار كل هذا التبدل، وعبوس الوجه؟!

* * *

* يحاول عادل أن يجمع خيوط الشهرين الأخيرين الفارطين.. لم يختلفا على شئ أبداً.

أوه يا «عادل».. كيف لم يختلفا؟!

إنه لا يريد أن يعيد حتى إلى مخيلته تلك الحكايه/ الفضيحة لشخص من رجال الأعمال «المملّينين» أراد أن يُقحم نفسه في وسط المثقفين والأدب، وابتدع مناسبات، ورتب مواقف لا تحمل الا الإضرار بمثقف، أو بصحافى، أو بكاتب.

حكاية غثة، عندما يتذكرها «عادل» يثور قيلونه العصبي.. فرجل الأعمال ذاك، لم يكن بمعنى كلمة «الرجل».. أراد أن يوظف «عادل» باسم مشروع ثقافي للإعلام له، وإلقاء المزيد من الأضواء عليه هو، واستطاع أن يخدع «عادل» الذى صدقّه بكل حسن نية، أو بما يقال عنه: بكل رومانسية يصفه صديقه «حسن» في داخلها أو بها: أنه غبي، درويش، ساذج، أهبل!

وكل تلك الشتائم كان يتلقاها من صديقه «حسن»، بعد أن تورط «عادل» مع ذلك المليونير المخادع في البدء بمشروع ثقافي ودفع «عادل» من لحمه

الحر كما يقولون، ومما استدانه، والمليونير يماطل فيه، ويقتر في الدفع المتفق عليه!

كذبة قبيحة مما قامت عليه معاملات ذلك المليونير للناس. . . وتدخل «حسن» مع أصدقاء حميمين «لعادل» لدى ذلك المليونير، حتى انتزعوا ما دفعه وما استدانه من فم الثعلب.

بادر «عادل» ـ يومها ـ وانحنى لأصدقائه الحميمين على وقفتهم معه، بما فيهم «حسن».

لكنه فوجىء بصديقه، بعد مضى شهرين على تلك التجربة القاسية التي تعرض لها، يطلبه من بيته لأمر عاجل، وركض إلى «حسن» منزعجاً:

* قال له «حسن»: إسمع. . لقد أنهيناً مشكلتك مع المليونير، أو بالأحرى:

أنا الذي أنهيتها، ولولاي ما كان صديقاك يقدران على إلزام ذلك المليونير بالدفع.

ـ قال «عادل»: أقدر لك هذا، وقد أجزلت لك امتناني في حينه.

* قال «حسن»: ليس هذا هو الموضوع الذي طلبتك من أجله. . ولكن أريد أن ترافقني إلى منزل المليونير لتصالحه، فالرجل كان كريماً معك!

ـ قال «عادل»: ربما كان كريماً معك أنت!

* قال «حسن»: ماذا تقصد؟!

ـ قال «عادل»: أقصد كريماً عندما قبل تدخلك، لكن هذا المليونير الثعلب جرحني كثيراً، وأمرضني، وأدخلت بسببه إلى المستشفى في حالة

صحية قلق فيها أهلي عليّ.. وليس له عندي شيء لأذهب إليه، بل المفروض أن يأتي هو إليّ ليعتذر عن سفالته معي!

* قال «حسن»: أنت مغرور.. لا تعرف مصلحة نفسك ولا كيف تكسب الرجال.

ـ قال «عادل»: ربما من وجهة نظرك... لكن هذا الثعلب لم يكن رجلاً أبداً، لا معي، ولا مع كثير غيري).

* * *

ها هي الأصداء في سمع «عادل» تختلط مع هدير الطائرة التي توشك على الهبوط في مطار القاهرة، تراه ـ حسن ـ أخذ موقفاً بهذه القسوة على صداقتهما، وعلى محبة «عادل» له؟!

هبّ الركاب ـ كعادتهم ـ قبل أن تتوقف الطائرة تماماً.

حمل «عادل» حقيبته، وارتدى جاكتته، وجاء دوره للخروج من الطائرة.. وعيناه تبحثان عن صديقه «الشاطر حسن»!

وفى امتداد المسافة من الطائرة إلى الصالة الرئيسية للمطار: لمح «الشاطر حسن» يركض أمامه كأنه يهرب من أحد يطرد وراءه.. دون أن يقول لصديقه «عادل» سوى كلمة المجاملةّ: «حمداً لله على السلامة» ثم اختفى من الطائرة!

وخرج «عادل» من دائرة الجوازات ليبحث عن حقيبته، فشاهد صديقه، رفيقه، «حسن» يدفع عربة حقيبته أمامه جرياً، ويخرج من المطار، دون أن يلتفت خلفه، ربما خوفاً من أن تأتي عيناه في عينى «عادل» ويُحرج معه.. وربما ظن أن «عادل» يحتاج أن يوصله صديقه معه إلى الفندق الذي كانا دائماً يسكنان فيه، هو لا يعلم أن «عادل» في هذه المرة غيَّر فندقه واستبدله بآخر

ليتمكن من رؤية «نوار» بلا إحراج لها في منطقة عملها!

في الطريق من المطار إلى الفندق.. لم يستطيع «عادل» أن يستعيد توازن عقله، ولا أفكاره.. ما زالت الأسئلة تتغلغل في نفسه من هذا ـ الموقف العجيب الذي تصرف به «حسن» معه!

كان الضجيج من داخله يلف رأسه، ويقبض نفسه، ويقلّص أمعاءه... كأي مظلوم لا يدري الجرم الذي اتهم به!

طفا على حفافي نفسه.. ومازال الضجيج يفلسف حالته.

إحساسه بغربة صديقه عنه.. يزيد ألمه، ويلج به إلى دروب الحيرة، والصدمة، مبتعداً كثيراً ـ بهذا الموقف ـ عن استمرار حُسْن الظن في صديقه... كأنه كما يقول المثل الشعبي: «آكل لحمة نيّة» ومنذ رأى «عادل» شعر بوجع بطنه، وربما بوجع ضميره.

شاطت في تلافيف رأسه عبارة، قفزت من قراءاته القديمة، تقول:

ـ «لا تحذرني من شيء، وانما قل لي: ما الذي أستطيع أن أفعله الآن»؟!

حقاً... ما الذي يستطيع أن يفعله الآن... فالحذر لم تعد له قيمة، لأن المحظور، وغير المتوقع وغير المصدّق قد حدث.

اللحظات تحركه من المطار إلى الفندق، كأنها: الأمواج تتقاذفه.

* * *

تناهى إليه صوت السائق يقول له:

ـ حمد لله ع السلامه يا بيه... وصلنا.

دخل إلى الصالة الرئيسية كأنه «مبرمج» وأخذ مفتاح غرفته، ورمى نفسه على السرير، يكبح جماح دموع كالجمر، كان لابد أن تفر من حدقتيه ليرتاح قليلاً!

تقفز عبارة أخرى في ذهنه، يتذكر أنها من أقوال «نيتشه»:

ـ «إذا أساء إليك صديق، فقل له: إنني اغتفر لك جنايتك عليّ!

ولكن... هل يسعني أن أغفر لك ماجنيته أنت على نفسك بما فعلت»؟!!

تمنى في تلك اللحظات من خروج النهار ودخول الليل أن تلمع هذه الدموع في عينيه، حتى تتحول إلى ضوء يخرجه من هذا السرداب المعتم!

ـ «نوار».. لابد أن أهاتفها فوراً في بيتها، وقد طلبت مني ذلك.

جاءه الرد: أنها خرجت.. غير موجودة!

فهل أخبرها «حسن» بقدومه؟!

* * *

(٢)

أسفر البحث بعدم العثور على «نوار» التي حرضته على القدوم، وألحت عليه، وزركشت له الأماني!

ترك «عادل» كل التزاماته، وأعماله في بلده، ولبى دعوة «نوار» فوراً. فهل دعته... لكي لا يجدها؟!

الغائب عذره معه. . . ربما جاءها ظرف طارئ من المفاجآت!

يريد أن يعرف فقط. لمجرد المعرفة ليطمئن عليها، أو. . . . ليرتاح!

اتصل بها في عملها بالفندق، أخبروه أن فترة عملها تبدأ من الصباح حتى الثالثة بعد الظهر، والآن. . الساعة الثامنة ليلاً، وفي البيت ينكرون وجودها أيضاً.

بدأ يخاف من الانتظار. . لا، بل هو يخاف من: لحظة المعرفة، عندما يكتشف شيئا!

ساورته هواجس، وزوابع من القلق، و. . . . التوقع:

ـ هل. . . . . «حسن» له دور في هذا الغياب؟!

هل. . . . حضوره معه على نفس الرحلة: كان مصادفة، أم «فكرة ذكية» من الشاطر؟!

هل. . . . . تعلم «نوار» بحضور «حسن» أو أنها أخبرته بقدوم «عادل»؟!

مرة قالت «نوار» لعادل» إن صديقك «حسن» اتصل بي من جدة!

تمددت هواجسه في صدره، واستلقى على سرير الفندق مقيداً بذلك الانتظار المشفوع بالأمل:

لعلها تتصل بمجرد أن تعود إلى بيتها.

شارفت الساعة منتصف الليل.

إعتورته لحظات من الضحك وحده كالمجنون. قال:

ـ حقاً. . . ماذا أنتظر؟!

كان السؤال صعباً، وحزيناً... فهل يضحك في وجه السؤال، أو يعبس، أو..... «يُطّنشه»؟!

كان يحلو له ـ في لحظة الجنون هذه ـ أن يهب من فوق سريره، وينظر إلى وجهه في المرأة... ليجد أن التعبير عليه عادياً، في شكل إجابة:

ـ لا أعلم الآن ـ بعد منتصف الليل ـ ماذا أريد أن أنتظر؟!

قبل السؤال، والتعبير أو الإجابة، وقبل وصوله إلى القاهرة... حين كان يستعد للسفر، وبعد أن ربط الحزام في الطائرة: كانت تنتصب في أعصابه اللهفة... فهل باضت لهفته تلك هموماً الآن؟!

أراد أن يفكر، فأوهنه التعب... كانت حيرته: من أين يبدأ التفكير؟!

تعب، واسترخى عن التفكير.. وشردت به خواطره نحو غابات أفناها الحريق!!

وتراءت له بعض أفراحه، كأنها: استطاعة.. اعتسفها، فأدخلها بيت الطاعة!

أغمض عينيه وتأهب للنوم بعد أن قفز به الوقت والانتظار والأمل إلى ما بعد الساعة الثانية صباحاً.

ـ همس: الكثير من الناس يركز رؤيته للآخرين من خلال عدسة علاقاته الخاصة، خاصة تلك المتصالحة مع أهوائه، ومع الدخول في عذوبة العواطف المتهمة دائماً.. مثل عاطفته!

لم يستطع أن يفهم ما حدث، والسر، والغموض، والصدمة... فالذي

لا يجيد إلا لغة واحدة: يندق وعيه وينسحق تحت أول خطوة تدفع به إلى الهوة السحيقة!

* * *

أيقظه في الصباح: رنين الهاتف. كان صوت «نوار» يبدد نومه، وكل قلق عليها... وبادرها ملهوفاً، يقول لها:

ـ أين أنت... معقول أن لا تتصلي بي طوال الليل، أو أنك لم تكوني في البيت؟!

* قالت: على مهلك.. كان عندي ظرف عائلي.... و....

ـ قاطعها: هل يمكننى أن أعرفه؟!

* قالت بصراحة: لا.. آسفة، المهم أننى عدت بعد الساعة الحادية عشرةّ مساء، وبالطبع توقعت أنك خرجت تسهر مع أصدقائك، أو.... ربما صديقاتك!!

ـ قال: حسناً.. لا تقلبي الموقف لصالحك، بدري عليك هذه الخطوة، لقد انتظرتك طوال الليل، حتى الثانية، ثم نمت.. وتعلمين أننى لم أحضر لأصدقائي، ولا... لصديقاتي، بل تركت كل شيء في بلدي، وطرت إليك.

* قالت ضاحكة: تعرف... صاحبك «حسن» هنا!

* قال «عادل»: أعرف.. رأيته في الطائرة!

* قالت: لقد فوجئت به صباح هذا اليوم!

ـ قال: عجيب جداً، كنت أظنك تعلمين بقدومه.

❊ قالت: صدقني. . . كان قدومه مفاجأة لي.

ـ قال: مضطر أن أصدقك لأنني حريص أن أحتفظ بك. . المهم: متى نلتقي؟!

قالت: سأنهى ساعات عملي بعد الظهر، وسترانى حوالى الساعة السادسة مساء في بهو الفندق، لكنني سأحادثك قبل أن أخرج حتى أجدك أمامي.

إذن. . . فقد جددت «نوار» أمل «عادل» من جديد.

في حين اكتشف أن صديقه، قد كذب عليه عندما أخبره في الطائرة:

أن قدومه إلى القاهرة للعبور فقط إلى أوروبا لمدة ليلة واحدة. . و«نوار»

قالت: إنها التقت «حسن» في صباح هذا اليوم قبل أن تحادث «عادل»!

ـ قال: إني أشم رائحة شياط!!

❊ ❊ ❊

رغم ذلك. . . فقد فرح بصوت «نوار» أراد أن «يعبط» تلك اللحظات التي تكلما فيها، ويغمض جفنه لمزيد من الحلم بها، ويخرج لسانه لعقربي الساعة البطيئين جداً.

ينظر إلى نفسه الآن. . . إنه يشعر بامتلاكه للدنيا ومن عليها في هذه اللحظات.

ويبتسم، وأشياء كألوان الطيف تطوف بخيالاته. . ويقول:

ـ أين تبلغ الطائرة. . عندما تتابع فلك الامتداد للسماء؟!

إن الطائرة: تعود إلى نفس الخط الأول الذي انطلقت منه!

فهل سيكون «عادل» مثل الطائرة، ويعود إلى نفس الخط الأول الذى انطلق منه إلى «نوار»؟!

ويعود التفكيرة فيعصف به.

أوغلت به مخاوفه المعادة حتى الصدأ عن «توقيت» تواجد «الشاطر حسن»!؟

وأذا اكتشف ـ فيما بعد ـ أن صديقه: قد سرق منه سندريلته هذه، واستطاع الاستئثار بها... فكيف سيواجه فجيعته هذه في صديقه؟!

«نوار»، اتفقت مع «عادل» الذى صاغ لها الحب كنغم، وحدثها عن الحياة من جانبها الرومانسي بألوان قوس قزح... وطلبت منه أن يحضر فوراً إليها، وقد ضمنت هذا الرجل الموله بها «عادل» كانه هذا الطير الذي حط على شجرتها ولن يطير، أو لن يرضى بشجرة بديلة عنها!

ولكنها حينما وجدت «الشاطر حسن» أمامها.. يلاعبها بخبرة الصياد الذى سينقض على فريسته دون أن تشعر به... فقد ترى في «حسن» هذا، بدعوته لها إلى أوروبا وتفسيحها، وبمعرفتها لمستواه من «عادل».. أنه: النسر الذي يحلق بها... فماذا تريد إذن بالطير الضعيف؟

ولم ينفك من هذه الهواجس إلا بارتداء ملابسه، وخروجه ليفاجىء صديقه «سيف» في مكتبه بقدومه!

ـ قال له «سيف»: معقولة.. ما هذه المفاجآت الجميلة؟!

* قال «عادل»: وحشتني... اشتقت إليك، والى «أحمد».

ـ ضحك «سيف» وقال: بكاش.. اطلع من دول وصارحني بسبب الزيارة، وهل تكون المهمة العاجلة «نوار»؟!

※ قال «عادل»: كانت «نوار» حتى وصلت الفندق، ثم أصبحت المهمة: البحث عن نوار حتى صباح اليوم... وتبقى حتى إشعار آخر: إكتشاف سر «نوار والشاطر حسن»!

ـ قال سيف: حدوته دي؟!

※ قال «عادل»: أكبر من الحدوته، وأكثر بُعداً من الخوف، وأكثر غوراً من المحيط!

ـ قال «سيف»: يا ساتر... يا بني أنت تجلب المتاعب لنفسك اعمل مثلي، ودع شعارك «كُل فطير.. وطير»!

※ قال «عادل»: مشكلتي ليست في الأكل... فالنعاج كثيرة، مثلما خرفان الذئاب أكثر... مشكلتي في حياتى كلها: اكتشاف الإنسان.. وهذه «المرأة، كمخلوق رقيق، أشعر بها تغمرني بالحنان، وتغرس الزهور في حدائق أيامي.. لم أشك في أنها: لبوءة ولا نعجة، ولا.... مجرد جنس، بل هي ـ في تقديرى ـ لها: الإنسان، ونصفي الآخر، وأمي وأختي، وحبيبتي، وأبنتي!

ـ قال «سيف»: أنت حتخطب يا بني... قوم ناكل لنا لقمة، فأنا لم أفطر.

قال «عادل»: إنها معاناة الإنسان في حصيلة الانطباع، ومن خلال التجربة.

ـ قال «سيف»: أحياناً.. يأتي موقف واحد يفسد كل تجارب العمر، ويرميها كالنفايات.

* قال «عادل»: للذئاب والحملان.. الحمار والحصان.. الغيوم والمطر... حياة عجيبة.

ـ قال «سيف»: استمر في هذيانك حتى نصل إلى المطعم!

* * *

(٣)

لم تتصل «نوار»، في المساء، ولم تحضر أيضاً. كان «عادل»، قد عاد إلى الفندق في الخامسة عصراً، ولم يبرحه إلا بعد الحادية عشرة... وقد أمضه الانتظار، وكلما رن هاتفه التقطه بلهفة.. ظانا أنها «نوار» لكن «نوار» صارت ـ كما تخيل عادل ـ مثل «سندريللا» التي خطفتها الجنية. وأعادتها إلى بيتها.. وقد تركت له حذاءها... وقد كان حذاء «نوار» له: وعدها!

ـ هل اقتنص «الشاطر حسن» ضعف «نوار» أمام المادة.. فاستطاع أن يصادرها من صديقه وتلميذه ويجّيرها ـ كالشيك ـ لحسابه؟!

إن «نوار» في حياة «حسن» لن تكون أكثر من شيك كتبته له المصادفة، وحُسن نية صديقه «عادل» فبادر إلى صرفه في بنك المتعة، والتسلية «بنوار»، لأن «حسن» في كثير من حواراته، كان يؤكد لصديقه «عادل» فيقول له:

ـ (أنت يا أهبل... ليس هناك شيء اسمه حب، ووله، ودموع.. نحن في عصر الحقائق والمعلومة!

سأله «عادل» حتى في المشاعر... فكيف تلغي التخيل، والحلم، والانتظار؟!

ـ قال: رومانسية يا بني... والله ماراح تفلح)!

* * *

* من ملامح شخصية صديقه، «حسن»: إنه يفشل دائماً في الوصول إلى امرأة، ليس عندها ذلك الضعف الشديد والحاد أمام المادة... وأنه ـ أيضاً ـ يستحلي المرأة التي تميل إلى واحد من أصدقائه (!!).. ولذلك كان صيده، أو فريسته: من النساء الضعيفات أمام بريق المادة، أو من النساء (الفَضْله)!

فهل يصبح «الشاطر حسن» هو: الشيطان، أو «راسبوتين»؟!

أما شخصية «عادل» .. فقد توهجت بالرومانسية التي يعتبرها صديقه مصدر خسارة لصاحبها، ومحط سخرية الرجال العمليين من أمثاله!

و «عادل» في تجارب حياته الإنسانية، كان يستميل إليه المرأة برومانسيته... وقد فقد البعض منهن، لأنه لم يتحول إلى صياد لهن من مدرسة ومنهج «الشاطر حسن»!

وهناك شريحة ثالثة من الرجال: تستميل المرأة إليها باقتحام فكرها.. إذا كانت امرأة مثقفة!

* (قالت له صديقته سارة في حوار بينهما ذات يوم: أن الرجل الذي يمكن أن يغزو قلب المرأة التي تحترم نفسها ـ وما أقلهن في زمن المادة ـ لابد أن يتحقق له النجاح عبر فكرها ، فهي ليست سلعة، وليست مومساً، وليست لاهية تبتغي المتعة المؤقتة فقط.. إن لها منهجها، وأفكارها، ورؤيتها للحياة التي تربت عليها عاطفتها)!

لعل «عادل» تمنى في هذه اللحظات المريرة من انتظاره لهاتف «نوار»:

أن تتسم شفافية روحه بما سمّاه العلماء بـ «التخاطر».. فتنتقل أفكاره وخفقاته، وقلقه، إلى «نوار» حتى تحس بالنار التي أشعلتها في صدره، وتركته يحترق بها!

ابتسم وهو يتذكر: كيف انشغل وسط مثقفي وفناني مصر في بدء الثمانينيات بلعبة تحضير الأرواح بالسلة!

فهل يأتي بسلة الآن، ويحضر «نوار» و «حسن»؟!

ولكن... هل يقتصر تحضير الأرواح للأموات فقط، أم للأحياء أيضا.. أم للأحياء الذين ماتوا في قلوب من كانوا يحبونهم؟!

هل يحدث له الآن: أن يتوقع شيئاً ويتخيله، ثم يراه أمامه حقيقة، في شيء مما أطلق عليه علماء النفس «الباراسيكلوجى» أو ما وراء علم النفس، أو ذلك التخاطر؟!

يتذكر «عادل» في سرحته هذه: قصيدة للشاعر «كولريديج» التي قال فيها:

ـ «ماذا لو أخذتك سنَة من النوم؟

وماذا لو حلمت أنك ترقى إلى السماء..

إلى مكان عالي به جنة من الزهور؟

وماذا لو قطفت منها زهرة..

ثم استيقظ من نومك

لتجد الزهرة بين أصابعك»؟!

ـ «مجنون ياعمى. . . الله يلطف بعقلك»!

سرت هذه العبارة في أرجاء نفس «عادل»، ولكنه ابتسم لها، وهو حزين. أنه يجلس الآن في موقع العاجز الذي أحبطته الصدمة عن فعل أي شيء!

إنه يتعذب من داخله، ومعاناة الانتظار تتمدد في نفسه لتشمل كل شيء فيه!

صار يخاف من مفاجأة هذا الانتظار. . . إنه لايريد أن يصطدم بموقف صديقه «حسن» منه، حين تتأكد ظنونه الآن أو هواجسه عن سبب قدومه إلى القاهرة، أو حتى مروره بها.

لو اتضحت هذه الظنون في معنى الحقيقة. . . فهو لن يفقد صديقه فقط، بل يخاف أكثر: أن تهتز ثقته في الآخرين، لأن «حسن» في اعتبار «عادل» يأتي في آخر من (يستحيل) أن يشك فيه، أو في وفائه له، أو في استئمانه على أسراره. . فهو يعرف أن صديقه «حسق» سيجد له المبرر بحججه أمامه، بطريقة المثل الشعبي: (خذوهم بالصوت، لايغلبوكم). . فسوف يأخذ «حسن» صديقه بالصوت. . ويقول له بأسلوبه المعتاد:

ـ يا مغفل. . . لقد مددت جسر التعرف مع «نوارك»، لأعرف خلفياتها ولأعلمك كيف تتعامل معها، بعد أن اكتشف شخصيتها!!

وتشيع على وجه «عادل» ابتسامة حزينة أكثر مما هى ساخرة!

حقاً. . . اندفاع «نوار» إلى «حسن» بأطماعها المادية: ليس إعجاباً بشخصية «حسن »، لأنه عملي ومادي. . فلا بد أن ينكشف أمام المرأة. . فإذا كانت مثله، فإنها تستثمر هذه اللعبة لصالحها.

إن «نوار» أهدت إلى «عادل» حقيقة عظيمة عنها، وعن «حسن». . . فهي ـ بالركض مع «حسن » بعيداً عنه ـ أنقذت «عادل» من نفسها الطامعة في المال أو المادة، وجعلته يعرفها على حقيقتها. . وكشفت له أيضاً: فصلاً آخر جديداً من السيناريو الذي يمارسه «حسن» كمنهج له!

* * *

وطال انتظار «عادل» لهاتف «نوار». . أكثر من خمسة أيام، وهو لم يفقد الأمل في اتصالها، خاصة بعد سفر «حسن» بالتأكيد، فهو لايبقى في القاهرة إلا ثلاثة أيام في أكثر ما يجلس.

كان من الممكن أن تتصل ـ بعد سفر «حسن» ـ لمجرد التبرير لـ «عادل» عن أسباب اختفائها!

فى اليوم السادس له في القاهرة، طلب من صديق رافقه في رحلته هذه أن يحمل كل الهدايا التي اختارها بدقة لتفرح بها «نوار»، ويذهب بها إليها في مقرعملها!

قال «عادل» لصديقه: هل وجدتها. . تسلمت هي بنفسها مجموعة الهدايا؟!

ـ أجابه صديقه نعم. . وطلبت مني أن أشكرك بشدة، وسألت عنك، فأخبرتها أنك في فندقك، وتفكر في السفر.

ومضت الأيام بطيئة مملة. . وعادل، بدأ يمل من الانتظار.

في يوم رحيله. . اتصل هاتفيا بمنزل «نوار»، وردت عليه والدتها، وكانت فرصة ثمينة أن يقول لها:

ـ سيدتى. .أودعكم في أمان الله، فأنا ذاهب الآن إلى المطار، وأرجو إبلاغ «نوار» امتنانى الشديد على حفاوتها الرائعة والمؤثرة بي، منذ أن قدمت إلى القاهرة بطلب منها، ولا حاجة لي هنا إلاّ رؤيتها، وأن أكون بقربها. . . شكراً على هذا الكرم الذي لن أنساه»!

وأقفل سماعة الهاتف، ولم ينتظر رداً، لأنه يتصور رد الفعل لدى والدة «نوار». . خاصة إذا كانت ـ كما أخبرته «نوار» مرة ـ تعرف كل شيء، لأن ابنتها لا تخفي عنها ما تعيشه أو ما يصادفها في حياتها!

* * *

وفي اليوم التالى لعودته إلى بلده. . كتب إلى «نوار» هذه السطور:

ـ أيتها الفتاة السندريللا: حذاؤك. . عدت به من عندك، وسأحتفظ بة ليذكرني بك، بعد أن أنساك. . فتصوري أن يتذكر رجل امرأة بحذائها؟!

وإذا كنت تحبين الشعر، كما قلت لى مراراً، فإننى أهديك من أجمل قصائد شاعركم الرائع المجمور بخيانة المرأة «كامل الشناوي» التي قال فيها:

ـ «كوني كما تبغين. . لكن، لن تكوني

فأنا. صنعتك من هواي، ومن جنوني

ولقد برئت من الهوى، ومن الجنون»!!

أيتها المليحة في خمار الكذب الأسود:

عدت من كذبتك، وأنا شديد القناعة بأن الإنسان يقبل على الأشياء التي تبدو جاهزة على سطح الحياة. . لأنه يريد أن يلتهمها، يستنزفها. . يدور حولها، ويلهث، ويتضخم، ثم. . . ينكمش، وتعتريه حالات من: التفاني،

والامتصاص العجيبة، ثم. . . القاتلة أحياناً!!

سأقول لك حقيقة قد تنفعك في مستقبل حياتك، وأنت مازلت في مقتبل العمر: إن الإنسان بعد الأخذ والامتلاك يعترف، أو يتحجج بأن ما أخذه جاهزاً، لم يكن أكثر من شيء رخيص!!

لست أريد هنا من كلامي: الإسقاط على موقفك ضدي مع «الشاطر حسن»، أو موقفه ضدي معك. . . إنى سعيد جداً: أن تعرت أمامي أشياؤكما لينكشف الوجه القبيح للمادة!

ولست ألومك ـ صدقيني ـ ولا حتى ألوم صديقي «الشاطر حسن ». . . كل اللوم يا صغيرتي لابد أن نصبّه على «الخطأ» بأسباب استنباته في حياتنا!

* * *

(٤)

عاد «عادل» إلى جدة، مكسوراً. . في صدره قبر ردمه، بعد أن لحد فيه جثمان حبه لتلك السندريللا، وقبر آخر مازال مفتوحاً. . . ويخاف أن يودع فيه جثمان صداقة ويهيل عليه التراب!

رغم كل ماحدث. . . تريّث في إصدار حكم الموت على صداقته لمعلمه، رفيقه، أنيسه مستشاره، حكيمه: «حسن». . قرر أن يُشرع فرصة أخيرة للتأكيد، أو للنفي، وفي قرارة نفسه كان يتمنى أن تكون الحصيلة التي عاد بها من القاهرة عن صديقه: لا أكثر من هواجس. أو ظنون، أو أضغاث أحلام!

فجيعة.. أن تتأكد لديه: لعبة «حسن» مع «نوار»، وضده!

وفرحة.. أن يثبت «حسن» لصديقه «عادل» نفي هذه اللعبة عنه.. وأن تكون محصورة في «نوار» فقط!

اتصل بصديقته «سارة» بعد عودته بيومين.. سألته:

ـ طمئنني.. ما هي الأخبار، استمتعت وتجولت بالسيارة الجديدة. أنت تقودها والسندريللا بجانبك؟!

تصدقي.. لم ألتق «نوار» إطلاقاً، ولم أسمع صوتها إلا مرة واحدة، ثم.. اختفت!

ـ عجيب... كيف تلح عليك في الحضور إليها، وتبثك أشواقها، و.... لا تراها؟!

وتْصدقي شيئاً آخر؟!

ـ ها... ماذا أيضاً، لقد أحزنتني؟!

* لقد رأيت صديقي «الشاطر حسن» في الطائرة التي أقلتني إلى القاهرة!

ـ كيف؟!... لحظة من فضلك، من الأول!

روى «عادل، الحكاية كاملة، و«سارة» تصغي وتقاطعه أحياناً لتوضيح موقف أو أبعاد كلمة.. حتى سألها في انتهائه من الحكاية:

ـ تفتكري.. إن «الشاطر حسن» خلف هذا التغيير لدى «نوار» وقد تحادثت معها ليلة سفري إليها، وكانت سعيدة بالخبر، وألمحت إليّ أنها تُعدَ لي برنامجاً نستمتع فيه معاً بأيام جميلة؟!

* قالت «سارة»: الحياة يا صديقي تقوم على العرض والطلب. . . «نوارك» لها مطالب، وربما صديقك قدّم عرضاً سخياً!

ـ قال «عادل »: حتى وهو يعرف حكايتي معها من بين شفتيّ؟!

* قالت «سارة»: أنت لاتريد أن تظلمه، حتى يتأكد لك ظنك أو نفيه كما تقول!

ـ قال «عادل »: أذكر مضمون رسالة كنت بعثت بها إلى صديقي «الشاطر حسن» قبل شهور، أي قبل أن يظهر إسم «نوار» في واقعى، وفى مكوكية «الشاطر حسن» للقاهرة. . وكنت أعاني يومها من ميله إلى جانب ذلك «المليونير الشاطر» ضدى، ومحاولاته العديدة أن يرغمني لاصطحابي إلى صديقه المليونير، كأننى أعتذر منه على ما ارتكبه في حقي. . وكان من المفروض أن يصطحب هو المليونير إلى بيتي، ليخفف ـ على الأقل ـ مما فعله بي، وما سببه من آلام نفسية فظيعة. . . هذا المخلوق: قاهر كل من يملك موهبة!

* قالت «سارة»: لابد أن تضع الجميع أمامك حتى لاتنسى تجريحهم لك بطيبة قلبك.

سمعت عن ذلك «المليونير الشاطر»، الذي يخدع من يتعامل معه، حتى البنوك يخدعها. . . إنه يدفع الإنسان الذي يصطاده إلى الحلم البعيد، حتى يظن أن حلمه صار واقعاً جديداً له، يُحسن به مصدر رزقه ومعاشه!

ـ قال «عادل»: لقد تسلل إلى مجتمع المثقفين، والصحافة والأدب. . وأوهم الجميع بأنه النصير لهم الذي يفكر في مصلحتهم وفي الارتقاء بهم مادياً. . فأخذت البعض سنَة من أحلامه، وجعل البعض من هؤلاء يمسك

النجوم، ويضع للقمر مكياجاً.. يصرف ما في الجيب انتقالاً إلى الحياة الجديدة التي وعده بها ذلك «المليونير الشاطر» وهل يؤمل الكاتب ما في غيب «المليونير الشاطر»، مما يمنيه به، ويخدعه، ثم يخذله ويتخلى عنه في غمضة عين؟!

قالت «سارة»: نعم... إنه يجيد بيع الحلم للآخرين، ثم يفسد لهم هذا الحلم، أو يسرقه!

هذا المليونير ـ يا صديقى ـ لا أكثر من «دلاَّل» تنتهي صفقاته في ربع ساعة، فيعاني بعد اتمام الصفقة من الفراغ.. تتوقف تليفوناته، فيفكر بذكائه أن يُجمع حوله هؤلاء المثقفين والأدباء والصحافيين ليصيد عدة عصافير بحجر واحد.. وهو عندما يصرف (٥٠٠) ألف في ليلة واحدة، يبخل أن يعطي لكاتب أجر عرقه، ربما خمسة ألاف ريال.. وهو عندما يستعين بواحد من هؤلاء الذين ينسج لهم الحلم ثم يسرقه، ويشغلهم شهوراً للدعاية له، في مقابل بيعهم الحلم بمبلغ يساوي ربع النصف المليون، تكلفة أقل منحته إنشغالاً عدة شهور... فإنه بذلك يشتري انتباه كل المجتمع له!

ـ قال «عادل»: بدأنا الحديث عن «الشاطر حسن» فإذا بنا نسهب في التعريف بأبعاد شخصية شاطر آخر، هو المليونير سارق الأحلام!

قالت «سارة»: أنت تعرف الكثير عن «الشاطر حسن» الذي عرفت من حوارك عنه: انه يُشعر المرأة بمناصرته لها، وهوخلفها يطعنها.

ـ قال «عادل»: لا عليك منه... فهو من شعاراته التي يرددها: «على الرجل ألاّ يثق بامرأة»!.. لكن هذا الرجل بحق: يعتبر مدرسة، فهو ذكي جداً، أخذ الحياة بمنطقية المادة.. لايضن على أصدقائه وخلصائه، ولا

يبخل بآرائه ومشورته لهم، ويغرس في نفوس أتباعه:

رغبة «خذ وجرّب.. ولاتعطى إن استطعت، والجزاء من جنس العمل»!

له تلامذة يتابعون منهجه، أنا واحد منهم، جعلهم يحللون الحياة برؤيته، وحاول أن يُدخل في انطباع البعض منا أن نظرة الرجل إلى المرأة لابد أن يراها وكأنها «إيرما لا دوس»!

ولكي أنصف هذا الرجل.. فهو صادق النصح لأصدقائه وتلامذته، ولكن نصحه يأتي في إطار منهجه، وقناعاته، ورؤيته للأشياء.. ويريد من هؤلاءكلهم أن يعتنقوا ما يوصله إلى عقولهم، وحتى إلى عواطفهم!

* قالت «سارة» : دعنا من صديقك «الشاطرحسن» لننطلق إلى البعد الأشمل لهذه الشريحة الإنسانية أو البشرية.. والملامح تقوم هنا على المعادلة بين: الخير والشر.. بين الفضيلة والرذيلة.. وفى رأيي أن الحياة تقف على نقيضين غالباً: الشر ضرورة لانتصار الخير.. الرذيلة تدفع العلماء والمصلحين إلى الدفاع عن الفضيلة وتثبيتها.

هذه هي الحياة.. والإنسان الذي معدنه من الخير ينتصر على الشر في النهاية، والرذيلة موجودة من أجل أن تبرز الفضيلة والعفة.. فإذا كان الإنسان يحرص على سلوك الفضيلة، سيتمسك، أكثر عندما يطلع على الرذيلة!

ـ قال «عادل» : تعيدينني إلى ما قدمه بعض الروائيين من شرائح إنسانية وبشرية والبعض: قدّم نفسه، مثل «محمد شكري» في الخبز الحافى، الذى استخدم الكلمات البذيئة والتعيسة، ليعلن عن صورة الرذيلة من خلال أدب ذاتى لمصلحة الإنسان.. وكأنه بذلك يقتل نفسه أو ينتحر!

* قالت «سارة» : عندك «طه حسين» في كتابه المعروف الذى أحدث

ضجة حين صدوره عن «الشعر الجاهلي».. أعتبره أنه قدم خدمة للحقيقة عندما يكتب أديب بهذا الحجم رأيا خاطئاً، أو خارجاً على الحقيقة،. فهو قد فكّر بصوت عالٍ، جعل الأزهر وعلماء الدين يتصدون لخطئه ويفندونه ويدحضونه بالحقيقة!

وطه حسين ـ بكل عظمته ـ يحسب له وليس عليه، لأنه فجّر خطأ فى رأسه، ليكتب العلماء الحقيقة والصواب... وهكذا نجد أناساً يسقطون في لحظة ضعف ـ بطبيعة البشر ـ ليمارسوا الخطأ أو يقولوه... ثم يدافعون عنه بمغالاة الذين يركبون رؤوسهم!

ـ قال «عادل»: بَسْ بَسْ.. خلاص «ياسارة»، تعبت.. سأحدثك في الغد!

* * *

اختلطت في رأس «عادل» ثلاث صور، الأولى: لصديقه «الشاطر حسن»، وصورة للخادع الأعظم لعفويته ولصدقه: «المليونير الشاطر سارق الأحلام» و«الطينة من العجينة، والخباز واحد»!.. وصورة لصديقته المخلصة: «سارة»!

عادت بعض الصور تنثال عليه:

(ما زال «المليونير الشاطر» يوظف جزءاً ضئيلاً/ قروشاً من أمواله في الإعلام عن تواجده اجتماعيا، وأدبياً... ويصّم سمعه عن دعوات البعض له بأن يوجه جزءاً بسيطاً من أعماله الأكثر ربحاً: لمساعدة المحتاجين والأسر الفقيرة التي لا تسأل الناس إلحافاً.. ولدعم بعض المشروعات الخيرية... فلا يلبي!

وصف نفسه في لقاء صحافي معه أنه: مثقف، لأنه قارئ جيد، وهذا تعريف مالي للمثقف، أو تعريف موظف لمن يريد الدخول إلى زمرة المثقفين.

وما زال «الشاطر حسن» يمزق بالظنون فيه ما تبقى من حسن الظن.

وما زالت السندريللا «نوار» في صدمتها العنيفة له.. هي هذه الأنثى التي تنطبق عليها صورة الشاعر «كامل الشناوي» في قصيدته «لا تكذبي»: هو الذي صنعها من هواه ومن جنونه!

وما زالت «سارة» صديقته التي قامت علاقة كل واحد منهما بالآخر على قاعدة الصداقة الأنقى التي تخلو من الغرائز... وكأن كل واحد منهما قد أدمن الآخر، أو هو المناسب للاخر في زمن الصداقات التي أخذت تترمد.

قالت له «سارة» في حوار سابق معه عن صديقه «الشاطر حسن»: إن هذا الرجل البارع والذكي.. يصطاد في الماء الصافي وليس في العكر... لذلك فهو يرى بوضوح تام حتى ما تحت أعماق الماء.. ولذلك ـ أيضاً ـ فهو ناجح في اقتناص لآلىء هذه الأعماق!

قال «عادل»: نعم.. «حسن» هذا: يشكل سعادة لمن يحظى بمعرفته بالفعل، وكلما كانت معرفة الآخر به أقدم... فإن هذا الآخر سيتخرج من مدرسته، ليكون واحداً من اثنين: إما من الطيبين الأبرار، أو من الطالحين الأشرار)!

وأخلد «عادل» للنوم.. ليرى ماذا يمكنه أن يفعل في صباح الغد.

* * *

(٥)

* في هذا الصباح الجديد، بعد مضى أكثر من عشرة أيام على عودته. . . يشعر الآن وكأنه يشبه ذلك الذي صعد أعلى قمة في العالم ولم يهبط، وأيضاً لم يعد يخاف أن يهوي من هذه القمة. . . أو كأنه: جحا الذي حمل الحمار على كتفيه حتى لا يقول الناس عنه: إنّ قلبه كالحجر!

تمر لحظات بـ «عادل» يحس فيها بالزهد، والاكتفاء، وحصر الرغبة في «دولاب». . .

وتبدو أمانيه ـ في لحظات أخرى ـ كأن لها قدم طفل في سنة خطواته الأولى، ما زالت أحلامه لازوردية، وعندما تطلع عليها الشمس: تبهت، أو «تفسخ»!

حتى مشاريعه لما تبقّى من مستقبل له، لا يدري كم مسافة ما سيعيشه فيه. . هى مشاريع تنقسم إلى فئتين: مشاريع أو أمنيات، لم يعد يقدر على تحقيقها، أو على المحاربة من أجلها. . ومشاريع: يحكها، ويخرجها من أصابع قدميه. . لكثرة ما ركض، وتعثر، وتعب وشمخ، وناضل من أجل فكرته دفاعاً عن مبدئه.

ويرفع «عادل» رأسه في فجر النهار، فيرى سماء زرقاء صافية، أصفى من قلوب الكثير من البشر اليوم. . ممتدة لا نهائية، أرحب من صدور البشر الذين صاروا يضيقون حتى بأبسط الاشياء التي لا تخصهم!

يضحك «عادل» في هذه اللحظات. . كأنه يتطلع إلى نفسه وحوله، يتوق من قلبه أن يردد بصوت عبد الوهاب القديم: (انسى الدنيا وريح بالك). . لكنه لا يستطيع، يمنعه انشغاله بالناس في داخله، وانشغال الناس بغيرهم في داخلهم.

يريد أن يسترجع ويحتضن تلك الأشياء الحميمة التي افتقدها الناس في هجمة الماديات، ومن أهمها: الضمير، والصدق، والحلم الذي لم يُغدر به، والنقاء.

يريد الآن: أن يتمدد، ويتمطى، ويهرب من حرارة الشمس القادمة، ويدخل إلى حنان الأمسيات الهامسة.. يشرب أشعة القمر فترتوي بالضوء بعد أن تكثفت العتمة بين ضلوع الإنسان.

يريد أن ينوح على «ذكرى» الإنسان الطيب، والمحب، والأكثر وداً.

و.... يحك «عادل» رأسه، كأنه يفكر في شيء مهم.. وكأن شعرات هذا الرأس تحتوي على إدارة كاملة لتشغيل (العاطلين) عن العمل في ذات إنسان هذا الزمان.. والعاطلون عن العمل في أيامنا هذه: القلوب، والضمير، والحب، والوفاء!

يبتسم ـ بعد كل هذه الهواجس أو الخواطر ـ وما زالت الأفكار تلح عليه، وتحاوره!

يهمس بعد أن حبسه الصراخ.. عندما أصبح الافتراض: إلزامياً وعفوياً في وقت واحد.. فيقول لنفسه:

ـ إن الشروط العقلية المرهقة.. تتمثل في: أن يفكر الإنسان جيداً، حتى لا يعيد أو يجير حماقاته كلها إلى: الضرورة... التي قال عنها الأقدمون: (للضرورة أحكام)!

الآن: الحب ضروري في زمن واقعي جداً إلى درجة الغرق في مادياته.. والحرب ضرورية في زمن البغضاء، والتمزق النفسي داخل أمة واحدة.. والتغيير ضروري في كثافة الأشياء المدجّنة، والأشياء الراكدة كالماء

الآسن وقد تخطاها التطور. . والبغضاء: أضرت بضروريات الإنسان!

* يعود «عادل» إلى تأثير رسالة كتبها لـ «نوار» بعد عودته الأولى من عندها، يوم كانت تلح عليه أن لا يتوقف أبدا عن الكتابة إليها. . يومها كتب لها:

ـ نوار: في تلك اللحظة الوداعية الفراغية، حين أزف موعد سفري من عندك عائدا إلى وطني. . كانت يدي الممدودة بدفء الذكرى: أغلى خفقة من قلبي الموجوع باحترافك لقسوتك معي!

كوني، أو لا تكوني. .

كوني اللحظة التي أريد.

اللحظة: العمر، الاحساس، الامتلاء، العطاء. .

أريدك اللحظه/ الغيث. . وكلمة العشق الدائمة، تلك التي نضعها بين قوسين ضيقين. . حتى لا تضيع الكلمة في فلسفة الانتظار)!

* * *

«ها هو «عادل» الآن: إنسان هذه المرحلة من ثمالة القرن العشرين في زحام ما سموه: العالم الثالث، أو النامي. . الفقير إلى الحضارة وليس إلى المادة، والفقير إلى الوضوح في التعامل. . إنه إنسان: يعيش، لكنه لا يحيا. . والفرق كبير بين الكلمتين!

يشعر اليوم بشيء ينقصه. . يريده ويبحث عنه. . ينتشله من هذا الفراغ النفسي، من (العادي) الذي يتحول: ساماً!

في عمقه الإنسان: يريد «عادل» امتلاك الإحساس بإنسانيته، وبأفكاره. .

لا بغرائزه ومادياته. . كأنه هذه البحيرة الساكنة: جميلة، ولكنها لاتتبدل، لاتتفرع، لاتصب في الزرع.

الناس في هذه المرحلة يعيشون السالب بعد أن عطلوا الموجب. . ولذلك صارت الحياة عادية إلى درجة الاختناق، والخوف يشيع فيها وحولها!!

وها هو «عادل» ـ كأي فرد على امتداد وطنه العربي الكبير ـ صار: يتوقع، ولكنه لايحصل!

ـ للحلم للطعون ـ إنه يشعر أيضا: كأن الأشواق صارت حراساً على الإنسان اليوم. . لكن أشواق «عادل» ـ كما يحسها ـ هي: الموجب. . هي كلماته، وقراءاته، وإبداعاته، ونداءات روحه، وحركة الإنسان في أعماقه. . . وهي: صوت جروحه، وهي: «تخيل «ضحكاته، وهي أصغاء اللقاء الدائم في سريرته.

ـ يقول «عادل» في حواره مع نفسة: الأشواق صارت قضية في عالم اليوم. . لأنها: ريح الحنايا التي جعلتني أردد كلمة لفنان قال فيها:

«ما تهمنى الريح المناسبة. .

وهل لمن لا يعرف وجهته أن يراقب الريح»؟!

إن «عادل» بلحظات التأمل هذه يحاول أن يرسم بالألوان: إشراقة الحب في عتمة خيانة البشر، وفى سأم الحياة. . . هذه الحياة التي يركض الناس فيها إلى (مدن واسعة الحيلة). . حيث تتراكض الأشياء، والأحداث. . ومعهما الناس.

ويشاهد الناس أنفسهم من خلال مرآة أشيائهم، ورغباتهم،

وطموحاتهم.. وكيف تتحول كلها إلى منظر عادي كإعلانات الشوارع عن فيلم جنسى قذر، مر على عرضه، واستمرار هذا العرض: عام كامل!

هكذا يبصر «عادل» كيف يعايش قومة العرب ـ من المحيط إلى الخليج ـ تلك المدن العالمية المؤثرة، التي تبدو (واسعة الحيلة)؟!

وكيف يعايشون أيضا: اعتيادهم.. بكل التحديق، وبمنتهى السخف، وهم يمارسون بكل إصرار أنانيتهم، وخوفهم؟!!

يفتش الآن عن لحظة فرح.. وهو يلهث في هذا العدو الطويل والمتواصل على دروب الحياة.. وهو يغري حشاشة العمر، حتى يبلغ تلك اللحظة التي يبوح فيها، ويشتاق بحرية الإنسان فيه.

ويفتش من وقت طال به الأنتظار له.. عن: لحظة معرفة لماحة كومض البرق، تضيئها: خفقة عشق صادقة في قلبي حبيبين لا يكذب أحدهما على الآخر، ولا يخاف من الأعين التي تتلصص على الحب.. حينما تغمر ظلال الأنانية الضلوع... وتُشعل تلك اللحظة أيضاً: صرخة حق، حينما يغمر ظلام الخوف نفس الإنسان، ويتراكم الصدأ على الجوانب!

* * *

تأخذ هذه الخواطر «عادل» إلى رغبة في الابتسام.

يبتسم الآن... بعد هذا الرماد الذي غطى توهج نيران أضلعه.

إنه حفي بالإنسان في أعماقه.. يرش بالحنين، وبالتأمل: هذه المسافة ما بين القلب والوعي، وما بين الارتواء والعطش، وما بين العثور والفقد!!

في حالاته العادية أو الاعتيادية.. يشعر: أن السأم هو «الزهق».. حتى

صار يخاف من هذا «العادي»، ويحس أنه يقتله!

ويخاف من الكلمة التي يتداولها الناس اليوم بكثرة، وهي: (أحياناً).. حتى أوصلها الناس إلى وريدهم.

فهل أصبح الخوف في حياة الناس: غالباً أم من الأشياء العادية؟!

والبعض ـ مما يتناهى إلى سمع عادل في المجالس التي يرتادها على قلة ما يرتاد ـ أخذوا يرددون كلمات أكبر من حجم أفعالهم، أو مسئولياتهم!

الكثير: يريد أن يكون هو وحده «القلة» المميزة في كل المجتمع.

ويشير «عادل» في تأملاته هذه إلى المحور في رؤية الناس الآن.. وهي رؤية تشكل خطورة!

وأضنى «عادل» هذا التأمل الحاد، والكثيف.. لما يعيشه، ولما يحسه، ولما يسِّور حياته من كل جانب.. ولم يحاول أن يمنع دمعة ساخنة من الانزلاق على خده، ليغمض عينيه بعدها، و... يصمت!!

انطلق «عادل» بعيداً عن كل أشياء العمر الملموسة، يفتش عن بعض الأشياء المحسوسة التي فقد هذا الجيل الإحساس بها.

كانت المناسبة ذات شبه بمعنى كلمة: «ما أشبه الليلة بالبارحة».

وكان يعبر شارعاً رئيسياً في مدينة جدة، منطلقاً بخواطره، في سيارة صديقه الذي يرافقه إلى دعوة عشاء أمام البحر، في «كابينة» للاسترخاء مع نهاية الأسبوع.

بادأة صديقه «فؤاد»، فقال:

حديثك مجروح، ينز بالوجد، ويقطّر التعقل مثل قطرة الدواء!

قال «عادل» ضاحكاً: من فضلك.. أبعدني عن تشبيهات الأطباء، أنا ناقص يعني؟!

قال «فؤاد»: كأنك تعاني، وأنا صاحبك أعرفك.

في المقعد الخلفي كان يتكئ صديقهما «مالك» يفسر الأمور بضحكة ساخرة.

«مالك»: له فلسفة في مواجهة المواقف، ويقول لهما:

أولاً: لا بد أن نمتلك القدرة على التحديد، وعلى التنظيم، وعلى تحاشى اختلاط الأشياء بعضها بالبعض الآخر.

* قال له «فؤاد» ضاحكاً: هل تنظم مكتبا إدارياً؟!.. الرجل يئن!

قال «مالك»: لازم له أن يئن، وإلا ما أصبح قادراً على جعل السر حلماً، والحلم سراً في الواقع.. بمعنى أنه ما زال صامداً، ينآى بحلمه الجميل عن واقعية الحياة المادية!

قال «فؤاد»: ومن منا اليوم قادر على الاحتفاظ بالحلم الجميل الذي تتحدث عنه؟!

صديقنا «عادل» يردد دائما على مسامعنا قوله: إن أحلامنا فسدت، وقد أفسدها هؤلاء الذين يسرقون أحلام البسطاء ويبيعون أحلام المتفائلين للخديعة غالباً!

ـ قال مالك: إذن... هل نئد أحلامنا، ونتوقف عن الأفراح عنها من داخلنا؟!

قال «عادل»: الحلم في عصور الظلام، والرقيق، وشراسة الاستعمار..

كان مزهواً في صدور الناس، رغم كل في ذلك القهر.. شيء كالصهيل كان، وكان الإنسان مصلوباً على الحزن، أو في انتظار «الأمثل» في الأقسى والأسوأ!

إذن... لا شيء يستمر على حاله للأبد، نحن ندير وجوهنا للبحر الآن، ولكن البحر لا يرانا، ولا يسمع أصواتنا... مجرد الإحساس بأن البحر يمنح الراحة والأمل.. مثلما هو يكرس الخوف من غدره!

ـ قال «فؤاد»: كارثة أن يفقد هذا الجيل قدرته على الإحساس!

قال «مالك»: خلاص.. استمر يا أخ عادل في الأنين بلا حنين!

ـ قال «فؤاد»: أنت يا «عادل» حزين، وكأنك غارق في فوضى منظمة! ضحك «عادل» وقال: حلوة الفوضى المنظمة... ربما أصبح العالم يعيش ما وصفته بالفوضى المنظمة، ولكنى أظنه: تنظيماً فوضوياً.. وبدون التلاعب بالألفاظ، أعود إلى تلك الأمنية عن الناس: بأن تتضح الرؤية في الإصرار على نسج الحب، والوفاء، والعدل، والضمير!

ـ قال «مالك»: وإذا كانت الرؤية مشوشة عند الكثير، فكيف نربط بين ما يصب في أحاسيسنا وما ينبعث من عقولنا، و... ينفلت منا؟!

قال «عادل»: في الغالب.. ماذكرته هو عمق الحزن لدى أية أمة.. والعرب اليوم يحاولون معالجة الأحزان ـ لا الحزن الواحد ـ بتجريب القفز فوقه!

ـ قال «فؤاد»: وكأنك تلمح إلى أن المواطن العربى يشعر الآن وكأن دروبه عمياء، وأن الحياة تحولت إلى مأساة، وأنه لا بد من الوقوف للتلفت وإعادة النظر في كثير مما اقتحم حياته، أو طرأ عليها، أو أفسدها!

قال «عادل»: في رأيى.. أن الأخطر الذى يمارس ضد الإنسان العربى يتمثل في طعن أحلامه، أو إفساد حلمه الخاص... سواء ما يرتبط بالأزمات الاقتصادية، وسقوط الكثير في الفقر، أو البطالة أو غياب الضمير.. أو ما يرتبط بجفاف المشاعر، حتى كأن هذا الإنسان العربي قد نسي عواطفه، أو جمدها، أو... ربما باع عواطفه لاحتياجاته، وهذا هو الأخطر!

* * *

أمام البحر.. إنسلخ «عادل» من أصداء أصوات أصدقائه، كأنه يبحر على امتداد صفحة البحر إلى عمق الليل، والى المجهول والأصداء التي تغطى أصوات أصدقائه، وهى تنبعث من أعماقه.

وكان لا بد له أن يقف وجه «نوار» أمامه... ولا يدري كيف اختلط وجهها فجأة في هذا الشرود بوجه «الأنثى» التي صورها «كولن ويلسون»، وأجرى حواراً بينها وبينه، أو ببين أنثى ورجل يحبها:

ـ قالت الأنثى: لقد رهنت نفسى للخوف!

وبدهشة سألها الرجل العاشق لها: كيف؟!

ـ قالت: في حياة الإنسان اكتشاف أول يفكر فيه بعيداً جداً عما يعاني، أو ما يحب .. واكتشاف آخر: يشعر فيه أن تفكيره ذلك ما يلبث أن يضطرب.. وهكذا يعيش الإنسان بين التفكير، ثم اضطراب التفكير!

* قال لها: وهل تعتقد سيدتى أنه يوجد لكل شىء حل بعد التفكير واضطرابه... حتى للخوف من الفجيعة، أو الخوف من الموت؟!

ـ قالت: إن أكثر الحلول التي يستخدمها العالم.. ليست عادلة للإنسان)!

* * *

«هذا المساء.. تتقاذف لحظاته: أفكاره، ورعشة أضلعه.. كأن رمزاً حبيساً في صدره قد غادر هذا الصدر.. والأصوات في سمعه أصداؤها حتى لم يعد يفهم شيئاً مما يبلغ أذنيه.. أو كأنها أصوات من الماضى الذي يصر أن يطغى على المعايشة أو الواقع.

تُرى... هل يمكن أن تتضاءل المشاعر، حتى تبدو في حجم الأقزام؟!

بكل تأكيد.. لا دخل لخلخلة الموازين، بل... ربما هى الشروخ التي تتسع، وتقوض المعنى في داخل الإنسان!

متعب «عادل» الآن... ما زال يعانى من صلب الانتظار!

متعب من الأسئلة المتلاحقة التي تفترسه كلما كان وحده مع نفسه.

كان يصمت.. فتقشِّر صمته ضحكة «نوار» الطفولية... وكأنه أمامها يقف على مفارق الزمان... على مفارق الكلام!

ها هو «عادل» الآن: يتصدق الخرافات والأساطير.. كالذي يستوحي من حكايات الجدات عن: الوفاء، والجذور، و.... عرق الكادحين!

إنه لا يخلط الآن بين المشاعر والموازين، ولا بين خفقة القلب، وصرخة العقل، ولا بين إرادة الأمم وهوانها.. لكنه يحاول أن ينفي عن زمنه هذا: الثقة في الأساطير، وحتى الانتظار لعودة الحلم.. الأساطير: لا أكثر من حكايات وحواشٍ على حفافي الوقت.. فلا يمر دون أن نصدق فيه شيئاً!

ويشده رجع ضحكة «نوار»، ويقول كأنه يهمس في أذن البحر:

ـ الرجْع حقيقى.. هو: دهر من الأيام، وحقبة من التحديق في هذا العبور الدائم الذي يمارسه الناس في المشاعر، والهموم.. فوق جسور ـ بمجرد الانتقال منها إلى جسور أخرى.. فلا يقدر العابرون أن يتلفتوا إلى الخلف لئلا يسقطون من الدوار على الأقل!

❊ ❊ ❊

«فى السيارة من البحر إلى بيته، لم يقل كلمة واحدة، سأله صديقه المحب له !فؤاد»:

ـ هل كبس «السليق» على معدتك.. أم أغرقك البحر، وابتلعت أمواجه صوتك؟!

سأله «مالك» معقباً: هل التجربة العاطفية، أم الصدمة.. هي التي تدوم أصداؤها في النفس؟ !

ـ قال «عادل»: أحياناً... تصبح التجربة سقوطاً في العجز!

وعاد إلى صمته.، حتى بلغ باب البيت، وفى نظرات «فؤاد» قلق على صديقه، سأله وهو يودعه:

❊ هل أنت بخير؟!

ـ قال «عادل»: لا تخف.. سأنام فوراً!

لكنه لم يستطع النوم، قام إلى أوراقه، وكتب... كأنه يخاطب بهمس حنون سمع «نوار»:

❊ «الآن... صرت أوكد ما كنت أردده: أن الذى ننتظره لا يأتى!

هأنذا. . خلف الليل، وأسئلتى، وندائى عليك. . محاولا أن أطرح تعبي.

أعماقي: ترقص بأنغام تلك الرقصة الهندية القديمة «إيروسكا»، ومعناها: ـ النار تشتعل بين جوانحى ـ ولا تحسّبن أنت بهذا الطير الذي يرقص مذبوحاً من الألم!

كنت متفائلاً بك جداً. .أبتكر مع إطلالة صباحك، وفنجان قهوتك: وجهاً للأمل، وبسمة لما تبقى من غدي، وفوزاً بالدخول إلى بهاء عاصمتك الإنسانية!

لم أعد أحتمل أن أسالك الآن. . .

لكني ـ في بُعدي عنك ـ أهزك يعنف، لتتولي أنت إيقاظ خفقي من إغماءته فيك. . ومن استغراقي في تعب أسطوري!

كنت أبحث عن حنانك. . . بدون أن تتردد كلماتي في إعلانه.

وكنت أبحث عن خطرك. . . فالإحساس بلا خطر يصبح معاملة واهمة، تمارس اليوم في عالم الناس.

خطر العصر الآن ـ ياصغيرتى ـ أخذ يتشح بطقوس القرون الوسطى. . يجعلنا مشاهدين فقط نلهث خلف فصول رواية عنيفة، لا نعرف نهاية أحداثها، ونعجز أن نشارك في صنع أحداثها!

إن بعض ما نراه : لا نحياه. . . لأنه صار أكثر من تمثيل بارع »!

* * *

أطفأ ضوء الغرفة لينام. . . فكأنه أطفأ ثمالة شمعة في نزعها الأخير!

* * *

(٧)

فى هدأة الليل.. كان غبار الأرض يختلط بغبار نفسه. ويغطيا سماء المدينة وسماء النفس.. ويتحول لون السماء الأزرق الصافي إلى لون أحمر مشوش بالأتربة.. ويتحول مزاج «عادل» الرائق، ونفسه الهادئة إلى: مزاج مكتئب. ونفس قلقة ومتوترة.

ـ تساءل «عادل» في منتصف ليله: ولماذا هذا كله؟ !

علماء الأرصاد يقولون: إن المنخفض الجوي قدم من مكان ما ـ يحددونه ـ هو الذى أثار هذا الغبار!

ولماذا لا يكون «مرتفعاً «جوياً؟!

وهواجس «عادل» من داخله تقول: إن الانخفاض في معدلات الصدق، والوفاء، والوضوح.. هو الذى كثف هذا الغبار في نفسه!

وفي هذا المناخ الجوي والنفسي، كان لا بد أن ينهض «عادل» ويتأكد أن زجاج النوافذ مغلقاً، وأسدل الستائر على النوافذ وعلى أفكاره التي آلمته!

ـ يارب... بعد هذا الغبار الأحمر، يهطل المطر!

مدينة «جدة» تعانى من شح الأمطار، حتى في الأشهر التي تنعم فيها بقية المدن والمناطق برحمة المطر، تبقى «جدة»: عطشى، جافة.. يثير الزوابع فيها هذا الغبار الأحمر ويرتقب الناس المطر، فلا ينزل! كان «عادل» يسمع جدته لأبيه تقول في احتياج كهذا:

من أفعال الناس يا ولدى... لا ينزل المطر، ولا يرحمنا ربنا بالغيث!

ترى... لو بقيت «جدته» إلى هذا الوقت التي حدثت فيه المتغيرات في

كل شيء، حتى في نفوس الناس.. ماذا كانت ستقول، أو تبرر؟!

أفعال الناس في زمن الأجداد والآباء: كانت محدودة في مطالب صغيرة، وبسيطة جداً.

وأفعال الناس في زماننا الطباشيري هذا: صارت بلا حدود، ولا كوابح.. الاحتياج يملى على الناس، والإنانية، والعنف، والتفكك النفسي والأسري، والنزغ في الأفكار من تأثير الحيرة، وفقدان الثقة.

فهل تسح السماء فجأءة، وتسكب المزن، أو الغيث.. لترتوي الأرض، وترتوى نفسه أيضا مما ينعكس على النفس؟!

جهاز «التكييف» يهدر في غرفته، وبرودته ضئيلة.

حرارة في المناخ، وحرارة في نفسه.

استرخى، وفتح التلفاز.. ليشاهد ما تقذفه المحطات الفضائية العربية إلى «وعي» وعقل، ووجدان، وتعب: الإنسان العربي.

يحب أن يتفرج على الإعلانات، وتابع إعلاناً، وآخر.. وتذكر «نوار»:

هل استثمرت وساطة «عادل» لها عند ذلك المخرج، و... أصبحت «فتاة إعلان» كما تمنت؟!

تجول «بالريموت» على عدة محطات.. كانت تقدم أشياء مملة، همس:

ـ نعود للإعلانات... أحلى!

فجأة... هذه هى «نوار»:

«واللّهى.... بالله»؟!

تبدو «نوار» مشرقة، وأكثر جاذبية!

ـ «طبعاً يا عم... كيلو المكياج، وعشرات الإضاءات، والكاميرات... شيء يجنن، عال، عال.. والله ونجَحْت يا بنت، مبروك يا أجمل كاذبة، وأحلى خادعة، وأذكى مستغلة»!

حتى الآن... هذه «نوار» قد كذبت، وخدعت، واستغلت «عادل» حتى العظم... فماذا فعلت مع المخرج «عصام» أو ماذا فعل بها (؟!).. ومع الشاطر حسن»؟!

في منتصف عرض الإعلان، رنّ الهاتف، جاءه صوت صديقه «فلاح» من البعيد:

ـ إفتح بسرعة القناة المصرية الثانية.

* فاتح يا سيدي.. إن شاء الله مرسي، خلاص، هوينا خلينا نتفرج!

ـ كده... إستغنيت «بلقطة» يا مفتري؟!

* قاطعه: «ها... حنلبخ؟.. أنا أمزح معك... وهل أطيق الاستغناء عن صديقي، مدماكي في اللحظات العصيبة، أتركنا من الاستفزاز، شايف البنت؟!

ـ والله طالعه زي القمر... ثمرة وساطتك يا بيه!

* أسقى الشجرة، ويأكل غيري الثمرة!

ـ يعني إيه... كنت حتعملها وتتزوج السندريللا، اللوليتا؟!

«مش القصد!... يعنى أصوم كل هذا العمر بلا زواج، وافطر على أعلانات... طيب مش حلوه علشاني»؟!

ـ صحيح بالمناسبة: هل ألغيت فكرة الزواج نهائياً.. ما هي الحكاية،

هل تعاهدت مع أحد، والتزمت بعهدك، و. . . . خانك ذلك الأحد؟!

يا شيخ اتكلم في شيء مفيد.. تفتكر بعد هذا السن، أفكر في الزواج؟ ومتى سأربي «زغب الحواصل» وهل يربيهم شخص أخر يلعن سنسفيل اللي خلفهم في تربته؟!

ـ والله.. أنت صعبان عليّ!

* خلاص... إبحث لي عن عروسة!

ـ ممكن... لكنى أعرف ذوقك ومزاجبك، أنت رجل صعب في اختيار الجمال.

* لا بأس... إذن، دعونى يا أصدقائي مع «بنات أفكاري» كفاية شقاوتهم معي!

رن جرس الهاتف من جديد، قال «عادل»:

ـ الليلة دى.. ماراح تنتهى... آلو.

جاءه صوت صديقه «غنام» يغني منبعثاً في هدأة الليل كصوت الضفدعة.

قال له «عادل» ها... ماذا تريد أنت أيضا؟!

ـ قال «غنام»: سلامتك، وكبر عمامتك، القناة الثانية تفرح قلبك.. إلا أخبرني أيها الهمام: متى صارت «نوار، فتاة إعلان، ومن أوصلها إلى هناك؟!

قال عادل: يا عم «غنام».. والله أنت رجل طيب، وميال دائماً إلى إعطاء الناس ما يستحقونه... أفلا تكون «نوار» في رأيك: ممن يستحقونه؟!

ـ قال «غنام»: حبيت أواسيك، أو أشجيك، أو.... تتوجع!

في مساء اليوم التالي.. حكى بالهاتف لصديقه «علي» الذي يتابع معه حكاية «نوار» على البعد، ودون أن يعرف شكلها.. أخبره عن مفاجأته بالاعلان.

ـ قال «علي»: تكلم يا «عادل»... أنت في حاجة أن تبوح الآن، «فضفض».

أحدثك الآن، أنت حارس بوابة أحلامى... تعرف كل الذين يتناثرون في حقولي خلف بوابة أحلامي، و... أستغلك أحياناً لمعرفة أعماق امراة، أليست الحياة تقوم اليوم على الاستغلال؟!

ـ حسناً.. سأفوتها لك، لكن... استمر، كلامك حلو.

أحياناً أفكر في حياتي.. في ما تبقى من عمري الذي لا أعرفه، ولا أريد أن أعرفه، والمهم أمنيتى تتحقق: «أن أموت واقفاً كالأشجار»، كما قال شاعر عالمي.

وحين أفكر في حياتي هذه، والسؤال الذي يطاردني من نفسي ومن الناس:

ـ لماذا لا تتزوج... لماذا لم تتزوج حتى الآن؟؟!

أحس أن هذا السؤال المزدوج يشكل في حياتي: إدانة لجانب من حريتي الشخصية... رفض تحمل مسؤولية زوجة، وأطفال، وبيت، برغم حبي الشديد للأطفال.... لكني «فنان» مجنون، يطلق عقلي أحياناً فأتمرد على كل شيء، حتى على نفسي.. فكيف أوثق نفسي بهذه السلسلة؟!

* كأنك بوصفك هذا لشخصيتك.. لا تحب الحياة؟!

ـ نحن لا نحب الحياة، بل نحب من في الحياة.

وانحدرت دمعة من عيني «عادل»، وتهدج صوته.... وغاب في الصمت.

أخذ صوت «علي» يتردد في الهاتف: ألو... ألو.

* بعد دقائق.. أجابه «عادل» يضحك: بلاش أغمك يا صديقي... ما رأيك لو دعيتك إلى زيارة حديقة الحيوان الكبيرة، أي مكان في العالم؟!

لماذا حديقة الحيوان بالذات.

* لنخرج من الهم والغم البشري... ونفرح بمخلوقات أخرى من الحيوانات الأكثر إنسانية من الإنسان!!

ـ ما رأيك لو تقفل التلفاز، وتضع موسيقى هادئة، لعلك تنام؟!

على رأيك... فأنا مازلت أفتش عن النغم الذي يضيع كلما أجده، أو عندما أجده... فالنغم في جوانحي هو: خرافة الفرح، ولا يمكنني أن أفهم النغم إلا حينما أستلقي ووجهي يتطلع إلى رأس شجرة، بعد أن تفقد الشجرة ظلها!!

ـ وبعدين معاك، تعني ستنام في حديقة بيتك؟!

* ليس شرطاً... أتخيل الشجرة عند رأسي، ناحية الرأس!

ـ لا.. بلغت مرحلة الهدرشة، كل هذا من «فتاة الإعلانات»؟!

* أبداً... ربما بسبب الإعلان ذاته، وقد كانت «نوار، تعلن عن: أحذية جديدة، عندما تلبسها لا يسمع الناس خطوتك... تصلح للحرامية، وهي كذلك!!

ـ لقد أخرجتني من «نوار»، إلى الإعلانات، إلى الحياة، إلى النغم، إلى الأشجار والأحدية وفلسفتهما!

* جميعهم. . . أشياء مترابطة، لإثبات حضارة عقلك وعقلي، ومدنية أرواحنا (الحداثية)، وقدرتنا على الانتماء المتجذر في زماننا (! !). . . تصبح على خير.

* * *

إذن. . . نجحت «نوار» ووجدت فرصتها أخيراً.

ها هي «فتاة إعلان» متألقة، مشرقة البسمة، كما شاهدها. . وكما أرادت أو تمنت!

وها هو «عادل». . قد حجمته السندريللا، فجعلته: لا أكثر من حامل الكاميرا الذي يأمره المخرج بالتنقل بها من زاوية إلى أخرى!

لتهنأ «نوار» اليوم بهذه الفلاشات التي تظهر جمالها للمشاهد وتضيف عليه: لمعة كذب المكياج!

كانت «نوار» تبدو أجمل من حقيقتها في الإعلان. . . لكن هذه اللمعة لا تغمط أن «نوار» جميلة وملفتة. . وإلا ما كان للمخرج أن بختارها فوراً!!

يرَن جرس الهاتف في مطلع نهار «عادل» فيأتيه صوت الدكتور «غنام»:

ـ حبيبي. . . إشتقت إليك.

أهلا بالرجل الخفي. . يا أخي تعبت في البحث عنك، أخبرونى إنك ذهبت إلى القاهرة عدة مرات، ما هو أصل الحكاية، أما الحكاية. . فأنا أعرفها؟ !

ـ مقهقهاً كعادته: الله يكافيك يا شيخ.. والله كان عندي شغل، المهم.. أبحث عنك وأريد أن أراك فعندي ما نتكلم فيه معاً حول حواراتك وكتبك.

الدكتور «غنام» شخص يتصف في نواياه بالطيبة الشديدة، ويحرص على التمسك بأصدقائه، بل هو يركض وراءهم، ويدين غيابهم عنه.

في داخله انتماء للطيبة، برغم عصبيته التي تصبح عنيفة أحياناً إلى درجة الصراخ، لكنه ما يلبث أن يهدأ أو يبرد، وتعود ضحكته تجلجل في مساحة صراخه الغاضب!

«غنام»: أكاديمي، ينكب على المطالعة، والبحث، والتنقيب عن الكتب الجديدة، وله رؤيته في تطور الإعلام عالمياً.. ويطلق عليه صديقه «عادل» صفة: الأكاديمي «النباش»، فهو ينبش في كل شيء.. وهو ناقد لا ينتمي لموجة الحداثة، بل يناوئ أنصارها.

قال «غنام» : يستهويني أسلوبك الملتزم أو المصرّ على الرومانسية التي ينظر إليها هؤلاء المناوئون: على أنها سادت ثم بادت، ولكن الإنسان في حرائق هذا العصر وقلقه، هو في أشد الحاجة إليها.. وأحب رموزك التي يفهمها البعض تحديداً في المرأة، وأعرف أنك في ما ترمز إليه أكثر شمولاً من هذا الحصر.

ـ قال «عادل»: ما نعيشه حتى على مستوى الفكر والتفكير شيء يتخذ معنى أو سلوك: التعالي، ولابد أن نأسف لضياع «عقل» في مغريات التعالي، أو لإختناق روح في غبار الذاتية، ورؤية الناس من علو شاهق وهم في السفح.. وفي حدود نظرته: كالذباب، أو كالرمال المتحركة!

قال «غنام»: القضية أكبر من الرومانسية، ونهج مدرسة نقدية.. وأعمق

من تضئيلها داخل الطموح الشخصي الأنوي. . ولكننا بالاستخلاص المنطقى نحاول أن نوجد الزمن المفقود؟

ـ قال «عادل»: هناك إستعارة لكلمة يونانية تعني «غياب المعايير». . أي خلخلة السلوكيات لدى الناس، أو كما قال عالم الاجتماع الفرنسي/ اميل دوركايم: (إنهيار المعايير يقاس في ظهورها السلوك وتحديد القيم التي تكفل للفرد تحقيق ذاته، دون أن يعتدي على ذوات الآخرين).

قال «غنام»: ما زلنا نطرح على أنفسنا السؤال تلو السؤال عن: أسباب هذا التبدل الفظيع الذي شوه سلوكيات الكثير من الناس، فأصبحت ترى في المجتمعات العربية بلا تحديد: هؤلاء الذين استسهلوا الشتيمة، والغيبة، والنميمة، ومحاولات النيل من سمعة الآخرين.

ـ قال «عادل»: أسألك الآن عن نسبة «أهل البلد»، الذين تراهم في الأسواق، أو الشوارع، أو الذين يقودون السيارات. . المدينة فقدت عذريتها تماماً، مثلما هي افتقدت دفء تاريخها القديم بحواريها وأزقتها الضيقة!

أدخل اليوم إلى أى مكان تجارى في «جدة»: دكاناً، أو معرضاً، أو سوقاً. . إنك لن ترى أمامك وجهاً تعرفه من أهل بلدك. . وليست هذه هي المشكلة في احتياج البلد إلى هذا السيل المتدفق من العمالة الأجنبية. . لكن المشكلة الأخطر تكمن في: الخوف من فقدان البلد لهويته الاجتماعية!

قال «غنام»: وهناك سبب آخر، يبرز في هذا (الاحتياج) لدى الناس. .

الجميع يريد من يخدمه، ومن يعمل لأجله، وهو لا يريد أن يخدم ولا يعمل إلاما يجد فيه مكسباً مباشراً له.

ـ قال «عادل» الاحتياج الاجتماعي الأهم الآن. . أن يكون هناك اهتمام

جدي بدراسة ما استجد على نفسيات الناس، ومعالجة هذه الظواهر، أو المستجدات التي تتحول تدريجياً إلى متغيرات لجذور المجتمع، ولهويته.. إذا ما حاولنا إحصاء: كم لغة يتكلم بها سكان «جدة» فقط اليوم، بهذه الأعداد الهائلة من العمالة الوافدة!

قال «غنام» في عمق نفسيات البعض، وربما أفكارهم، ما يسميه العلم الحديث: أزمة نفسية، لابد أنها تنشأ من المسئولية التي يشعر بها المرء نحو عائلته إذا كان موظفاً وما زال راكداً في كادر وظيفي متدن، لم يزد دخله من وقت طويل، فيضطر لطرق أبواب أخرى، ربما جرته إلى الإنحراف.

ـ قال «عادل» : وهناك من دفعه الطموح أيضاً إلى محاولة زيادة الدخل، والثراء السريع.. وذلك على حساب وقت راحته، والتئام شمله بأسرته، ومتابعته لسلوكيات أبنائه.. ونتج عن هذه التي اعتبرها شروخاً: زيادة الأمراض، وأمراض القلب بالذات، والغربة داخل أفراد الأسرة الواحدة.. وهذا ما نسميه: حصيلة المسئولية العاجزة، أو المنشغلة، والطموح المضني حتى الفشل!

وأنت ترى من يكسر إشارة المرور عمداً ليقتل نفسه أو يقتل غيره .. بمنتهى اللا مبالاة، والاستخفاف بالموت!!

* قال «غنام»: صدعت رأسي.. الله يكافيك، خلينا نتكلم قليلا في الحب.

ـ ضحك «عادل» وقال منغماً: حب إيه إللي أنت جاي تقول عليه؟!

* * *

* آلمه رأسه بالفعل.. خاصة وأن صديقه «غنام» يعزّ الضحك بصوت

عالٍ حتى وهو يبكى.. وهذه حالة نادرة تحتاج ـ كما قال له ـ إلى نظرية نقدية في الفكر المعاصر!

وكأن حزنه تزامن مع ألم رأسه، ولا يدري كيف يحدث هذا الإنسجام بين الألم العضوي، والألم النفسي؟!

كيف يمكنه الآن أن يربط بين كل ما يصبّ في أحاسيسه؟!

* نوار، غالية.. وقبلهما عبر «عادل» محطات كثيرة، بعضها تزعق فيها القطارات وتتوقف، وبعضها تقلع فيها الطائرات وتختفي.. والبعض الثالث، مع صوت «محمد عبده»:

ـ ليله، ليله، ليله.. وتنتهي الليلة!

طفرت دمعة جديدة من عيني «عادل». وما أقل دموعه المفضوحة، وما أكثر حشد دموعه المكبوحة، لكن الدموع تغسل النفس من الإحباط، والارتطام، والفجيعة في الآخرين الذين وثقنا في محبتهم.. أن ندع الدموع تتواجد، فهي التصفية لكثير مما يتسرب إلى أعماق الأرض لأنه لا يستأهل الدمع.

فهل هذا هو العجز، أم مثالِية الحب؟!

«عادل» : مازال ينادي حلماً، ويخاف على معنى أصيل في داخله من أن يفسد.. لئلا يتحطم المعنى وبالتالي: الإنسان.

يحنُّ الآن إلى «رتم» بلده، وإيقاعات ألحانه.. ويتنقل من «محمد عبده»، إلى «طلال مداح».. وكأنه يصرخ معه بأنغام نكهة مجتمعه وأهله: (مقادير.. يا قلب العنا).. ويجد في النغم والكلمة: سلوة في الانتقال من

أول جسر العاطفة إلى أوله الآخر.. لأن جسر العاطفة لا نهاية له.. والمقادير: هي في الحب أولا.

إذن.. لا وقت لديه للدموع.. فهذا عصر جبار طغياني، حوّل الدموع إلى ماء!

لعل «عادل» يتألم الآن من موقف «نوار» الغريب معه، مثلما تألم قبل ذلك من جَلْد «غالية» لأغلى إحساس خصّها به.. فأهانت هذا الإحساس بإذلاله ذات يوم.

لكنه ـ رغم ذلك كله ـ ما زال يروي أناشيده بنبرة الحب.

إن الإنسان لا يلام على صدقه.. و«عادل» لم يضخّم حزنه بما تأثر به، ولكن حزنه أعمق من أن يتأثر بموقف، أو بتجربة.. فالاهتمامات تنبع من حفاوتنا بالعمر.

* * *

اتحدت أصوات السيارات التي تشق سكون الليل، وتمزق استرخاءة «عادل»، وتطوح برأسه داخل كل ما فيه!

هذا فصل «السنبلة».. ويا ويل سكان الساحل مثل «جدة».

الرطوية في الخارج عالية، والضجيج: سمة المدن الحضارية الكبيرة. والعودة من الضجيج، والهروب من الرطوية إلىِ جهاز «التكييف»: تبقى هي المطلب، ودائماً: الخروج يكون عكسياً.. أي الخروج من الهدوء إلى الصخب والزحام.. والخروج من انتعاش الهواء البارد إلى الرطوية والحرارة: يبقى نتيجة، أو ضرورة كسمة لعصر يتَّصف بهذا الزحام، وبالرطوية والحرارة معاً في نفوس الناس.

هذا التطبيق ينم على كثيرمن أشياء الناس، بلا تمييز أو استثناء، ولكنه تطبيق يتردد أحياناً، وربما يقدر المرء أن يتخلص منه عندما ينجح في فهمه لأشياء الحياة، وفى فلسفته حين التفكير، وفى عواطفه حين العفوية.

وهذه نقطة مهمة.. توقف عندها «عادل» في قفلة يوم آخر، صاخب، وفياض بالحيرة وبالأسئلة.. وهو في حالة المتأمل تارة، والمضطرب الضائع تارة أخرى!

❊ ❊ ❊

الفصل الرابع

(١)

* ما أوحش الليالي الوحيدة!

ليالي «عادل»: وحيدة، مشروخة الموال.. يتيمة الكلمة.. والنغم: أنين يخرج من حنجرة الحزن.

ها هو يدخل الزمن الغريب.

يرى الناس من حوله: يزرعون الأشجار، ثم يقتلعونها، ويقيمون مكانها: كتلاً إسمنتية... يلدون الأطفال، ويقتلونهم بحروبهم.. يُثرثرون عن المنطق، ثم لم يلبثوا أن يضعوه في كثافة التجريح حتى يسود الكذب والتزوير!

ها هو يدخل الزمن الماكر.

ارتفعت في هذا الزمن: جراح الإنسان فوق دائرة الخوف، إلى أبعاد تبسيط القتل والموت!

إن كلها ما عانى منه «عادل» يضطر أن يسرق له الرؤية من تيه النتيجة..

لأنه أراد أن يخفي المعاناة عن الناس ويصبح الفرق بين رؤيته وتوقعاته: الحيرة، واستسلام للتوقعات مهدراً كل رؤاه!

تعتاده أصداء من حوارات لم تجف دماؤها في عقله بعد. ، كانت بينه وبين من توجهم في أعلى القلب والعقل.

يبتسم «عادل» في استذكاره لتلك الحوارات، وتغم عيناه بصورة مخلوق: عاش عمره سرابيا متموهاً. . أمضى العمر وهو يحتفل بالأكاذيب، حتى صدق أكاذيبه واعتبرها حقائق!

ذلك المخلوق: حاول أن يشير إلى نفسه، ولكن. . . عن طريق مساوئه!

إلى أين يذهب الآن؟!

هذا العاشق الرومانسي، الموجوع من الحبيبة، ومن الصديق. . . حتى غطاه الحزن، وتبعثر في طيبة القلب؟!

تعتريه موجات حزن، حتى تستبد بصبره. . هو الذي أراد أن يجعل طيبة القلب: شمساً تصلى الرطوبة والعفونة بوهجها. . وقمراً يشكل أرض الصحراء ـ ضوءاً، وظلالاً، وهمساً شجياً فوق الشجن !

فهل يشعر الآن: أن «الإنسان» فيه قد تكامل، حين توحد مع حزنه، ومع تجربته، ومع انصهاره، ومع صهيله؟ !

ها هو في هذا التكامل/ التوحد. المشرع، المنطلق.

لم تكسره هذه الخفقة التي ارتدت إلى ضلوعه: مرفوضة من تلقي من أحبهم. . .

وكيف تكسره وهي تعود إلى ضلوعه: خفقة مجربة، ما زالت أقوى من

الانكسار الذى يصنعه بعض البشر ليكون جثة للآخرين!

تساءل «عادل» : هل يهمني الآن أن يتسع الوقت، أو ينحسر؟!

وما هو الشيء، أو المعنى الذي يستحق أن يتسع وقت عاطفته وصدقه له؟!

كم هي الأشياء التي انحسرت في حياتنا بمعانيها.. بعد أن بلغت بإنسانها إلى شفرة الموت !؟

جنون، بروق، رعود، قوس قزح قمر في منتصف الشهر، قيظ لاهب، موج بركانى، شوارع مفتوحة للذين يمارسون الجري على امتدادها، ولكنهم لا يعرفون طريق العودة منها ولا إليها!

رصاص... هو الذى صار يحسم «اللقاح» الإنسانى في هذا العالم. والإنسان: سقط من صهوات الجياد.

والخيول: بلغت مرحلة إطلاق الرصاص. حتى عليها!

***

* تعبث أصابع «عادل، بمجلة التقطها دون أن يقصد قراءتها.. المطالعة اليوم: وقت مستقطع في حياة الكثير من اللاهين !

هو: غير لاه.. إنه ـ فقط ـ مسفوح في أودية الصمت، وشمعة عمره تُسقط قطراتها اللاهبة،. قطرة قطرة، كل قطرة تتصيد: ضحكة منه، أو خفقة ـ من بين ضلوعه!

توقف عند عنوان عريض يفتتح خبراً:

«في دراسة فرنسية: المرأة أصبحت شرسة»!

* قال ضاحكاً أو ساخراً: معقول... هذا الكلام يا «عبلةّ»؟!

دخل الخبر به في إحصائية غريبة:

عدد النساء الشرسات في تزايد، عدد المسجونين من الرجال ٥ ر٢٢٪، في حين أنا عدد المسجونات من النساء ٤ ر ٢٤٪ ليست نسبة كبيرة!!

علماء النفس يحللون: المرأة تشبه في عواطفها: الإنسان البدائي الثائر دائماً، وإذا لم يظهر رد فعلها سرشاً، فتأكد أنها تضمر شيئاً من الانتقام في وقت مناسب،!

* قال «عادل» في أصداء كلمات الخبر: وَلْ... يأهل فرنسا: رفقاً بالقوارير!

ـ كان صوتاً من داخله يرد عليه: «أنت ماتتوب»؟ !

* رد على صوته الداخلي: من أي شيء أتوب... من المرأة؟!... أتوب من العطر، والوردة، والنغم، والهمسة الأحلى، و...... الجلاد الذي يحول الرجل إلى «ماشوسي»؟!

قال صوته من الداخل: «أنت مسكين، منقوع في بقايا شموعها»!

* رد على صوته: أنا أقوى بحنانها، وبحبها الذي لا يخون... وأنا أضعف بأنانيتها، وعقدتها ضد الرجل أو نحوه!

وكان صديقه «إبراهيم» قد جعل حضوره إلى «عادل» متزامناً مع صوته الداخلي.

قال له «إبراهيم» بعد أن أصغى إلى الخبر: الذي كتب هذا الخبر من «مافيا» الرجال!

ـ قال «عادل» : ولماذا لا يكون دافع الرجل الذى كتب هذا الخبر من أفعال «مافيا» النساء؟ ا!

* قال «إبراهيم»: غريب قولك. . معروف عنك رفقك بالقوارير، ومناصرتك لهن !

ـ قاطعه «عادل»: هذه إحصائية مثبتة يا سيدي. . . فلم الاحتجاج والغضب!!

قال «إبراهيم»: فليكن. . . لدى النساء عشرات الإحصائيات المثبتة أيضا عن شراسة الرجل أيضاً.

ما زلنا ـ يا صديقي ـ نعاني في مجتمعاتنا من مشكلة ما أسميه (الطلاق الفوري). . أن يتزوج شاب من فتاة متعلمة، ولا يعيشان تحت سقف الزوجية أكثر من شهر، فيطلقها!

ـ قال «عادل»: أو. . . تطلب هل الطلاق، لأن الشاب أقل مستوى من تفكيرها!

* قال «إبراهيم»: هذه حالات لا تعمِّمها على القضية!

ـ قال «عادل»: ليس للشاب ولا للشابة يد أو حيلة في هذه «النتيجة». .

أعتبر المجتمع هو المسؤول: الأسرة، الأب، والأم، التأثير المادي بمستوياته، شعور الشباب أحياناً أنهم شريحة موضع هجوم دائم ومستمر من المجتمع، ومن الإعلام، وحتى من المرور!!

* قال «إبراهيم»: المشكلة تكمن يا صديقي. . . في أن مثقفينا ـ كما يبدون يعيشون في واد بعيد عن هذه المتغيرات التي تحدث في المجتمع!

وكأنَّ «إبراهيم» أراد أن يغير «نكهة» الحديث.. فبادر بسؤال لصديقه عادل»:

ـ من وقت طويل، لم تعد تأتي على ذكر «نوارك».. فهل انقطعت أخبارها عنك؟!

* نعم... لم أعد أعرف شيئا عنها!

ـ معقول يا رجل.. لم تتصل بك طوال هذه المدة، منذ عدت من القاهرة بخفي حنين المهدَى إليك من «نوار»؟!

* تصور؟!... (حتى خُفا المحترم حنين) رفضت نوار أن تتنازل لي عنهما!)

ـ خلاص يا سيدي.. أمست وأصبحت «فتاة إعلان».. مين قدها، والبركة في سعادتك!

* ليوفقها الله.. في كل الأحوال.

* * *

يرتد «عادل» إلى صمته..

يجد في القراءة سلوته، و«إقلاعه» السريع من أصداء هذا العالم المادي، ومن زحام هؤلاء البشر.. الذين يتلذذون بخطواته الزاعقة، واقتلاعهم لأشجارهم، وخرم أجمل لوحات عمرهم قبل أن يعرضوها للمزاد!

أصبح الناس يحبون الصيد... وضاع الموال!!

أمضى سهرته في ليله: يقرأ...

صورة «نوار» تعلو وتهبط في أمواج نفسه... تسبح وتغرق، كالإنسان في الرمق الأخير!

جثث الذين كانوا أصدقاء، تنغمر في صدره... ويعود إلى عبارة كان يقرؤها قبل قليل:

ـ «كلما انتصب جحود من أحببت.. أضفت ضريحاً جديداً في صدري»!

كأنَّ الزمان قد صار فارغاً من التعبير.

وعلى مساحة الليل... أشعل حزنه، وبعثره على تضاريس نفوس الناس... كأن الشىء الآخر قد اختلط بالظل، ورمال هذه الصحراء التي تسفيها الرياح.

* (يسترجع صوت «سارة» الصديقة التي آزرته في معاناته: ـ أفتقد هذه الأيام: ضحكتك، وقفشاتك، ولذعاتك... كأنك فجأة قد أضعت خفة دمك، وانتعاش روحك.

* قال لها: ربما... ملاحظتك صحيحة، حتى أنا نفسي أتساءل: ما السبب؟!

ولكن... أظننى، وأظنك نعرف الأسباب!

ـ قالت: بل اعتقدت أنك قد شفيت، أم أنك حين تُشفى من العشق يثقل دمك)؟!

حقاً... لقد تغير «عادل»، واشتاق إلى مرحه المعتاد!

* * *

(٢)

الأيام تتداول «عادل».. وهو لم يعد يستطيع أن يحرك الأيام.

كأن تطلعاته قد تعطلت، وأفكاره تقلصت بتأثير ما عانى منه طوال الشهور الفارطة.

يشعر ـ في تأمله المتوحد مع آهته ـ أن لمحاته الذهنية قد تضاءلت، حتى كادت الرؤية لديه أن تكون ذات سياج... رؤية محدودة، لا تتخطى ذلك السياج، لا تقفز فوقه، لا تتمرد عليه.

إنه يدلج في دروب العجز، مبتعداً كثيراً.. وهو يرى «لحلم» أمامه: مطعوناً بنصل الخديعة، والخيانة، والجحود.. مضرجاً بدماء كأنها دمائه هو.

ينسى متعة التفكير، ليعود إلى صرخات داخله... يقظة الإحساس عنده، لا تنجيه من أصداء الغربة، وهو ـ بعد ـ في مكانه لا يتحرك. يحاور هذه «التجربة» العنيفة التي طعنت «الحلم» فيه، ورمته في الغربة حتى مع نفسه.. تلح عليه التجربة صارخة من أعماقه:

ـ لكي نلحق بالآخرين.. لابد أن نتغرب، حتى نتوحد معهم!

لكي نتساوى بالآخرين... لا بد أن نعانى من التجربة، وطول الخطوة.

ـ الفكرة.. لم تكن سوى حقيقة والحقيقة اليوم هى: الغربة)!!

* بعفوية، وبدون قصد من «عادل»... تعلقت نظرته بعقربي الساعة / بداية المساء... كان هذا الوقت هو موعده مع «نوار» الذي يطلبها فيه بالهاتف، ويطمئن عليها.

لم تعد «نوار» تذكره... أصبحت «نجمة» إعلانات!

ـ هكذا الدنيا. . . لا، لا. بل هكذا الإنسان !!

إبتسم «عادل» وأصابعه تنقر على سطع مكتبه، وهو يتمتم بيت شعر مما حفظه للأخطل الصغير:

ـ يا للشفاه الكسالى. . لا تودنا

فقد حملنا على أفواهنا القربا!!

ولحظة شروده المتسكع هذا ما بين عقربي الساعة، ووجه «نوار» وأبعاد المعنى في بيت الشعر. . رن جرس الهاتف، وبتثاقل رفع السماعة:

ـ آلو. . . آلو، مين؟!

آلو. . . إنت ما عرفت صوتي؟. . . أنا «نوار»

ربما أصابته رجفة، ربما ارتسم الذهول على محياه، ربما فقد النطق لثانية واحدة، وهو غير مصدق سمعه، ولا حتى صوتها. . . لكنه تمالك نفسه وأجابها:

ـ أهلا. . . . . ن «نوار» كيفك إنت؟ !

* معليش، معك حق تسخر مني، وممكن تضع السماعة في وجهي.

ـ أسخر. . ممكن، لكن أضع السماعة في وجهك. . لا يمكن، أبي لم يربينى على هذا السلوك، ولا حتى الناس الذين يفقدون ذاكرتهم لم يضطروني لهذا التصرف. . ها، ما هي أخبارك؟!

قبل كل شيء. . أنا أعتذر بحرارة، خجلانة منك، أنت رجل طيب وصادق، ولكني أنا لا أستحقك.

ـ يا شيخة. . . لا يوجد إنسان طيب كل الوقت، بالذات في هذا

العصر، لا تلومي نفسك، أستطيع أن أجد لك العذر عندي أو التبرير مني لك... فقط لأنك لم تكوني أنثى عادية في حاضري هذا منذ عرفتك، ولأنني اشتقت إليك.

* صوته يتصاعد من أعماق نفسه يهمس له: يا ملقوف.. يا مدلوق، إثبت، أنفخ في وجهها، أعمل نفسك غير مهتم ولا فرحان بعودة صوتها... حتى لا تتضخم أكثر مما ضخمتها أنت!!

ـ يرد على صوته الداخلي: أنا أتعامل بالعفوية، والصدق.. حتى لو حصدت من ورائهما تعب القلب، ومذلة الحب.. ألم يقل الشاعر:

إما بُذل.. وهو أليق بالهوى إخرس يا صوت نفسي الداخلي..

دعنا نسمع ما لدى «نوار»!

* إنت رحت فين... آلو... آلو.

ـ أنا معك يا مليحة... مبروك النجاح «اللي كسر الدنيا» حتى أصبحت نجمة إعلانات!!

* الله يبارك فيك.. تعرف؟!... بدأت أتلقى عروضاً بالتمثيل في المسلسلات. وفي السينما.

ـ والله؟!... بخ، بخ، أقصد مبروك مرة أخرى، إن شاء الله أشوفك «نجمة الجماهير» على غيظ المذكورة، وبعدين ما تتذكريني أبداً!

* والله العظيم... إنت نقطة مهمة في حياتي، صدقني.

ـ ضاحكاً: أرجو أن لا تجعليني نقطة سوداء.

* إنت أخبارك إيه؟!... أنا في حاجة لك.

ـ عارف إنك في حاجة إليّ.

«عجيب... كيف عرفت؟!

ـ من اتصالك!

* لا والله... أنا اشتقت إليك، ونفسي أقول لك أخباري.

ـ غير أخبار النجاح العظيم في الإعلانات، و أدرلك مستقبلاً في التمثيل؟!

أنا استقلت من عملى في الفندق، وجالسه في البيت!.

ـ قصدك جالسه في الأستديو أمام الكاميرا؟!

مش دايماً... صحيح النجاح جاني من هنا، و.......

أجهش صوتها بالبكاء الحار جداً.

فوجئ «عادل»... كأنها كانت تختزن هذا الصوت المجهش، وهذه الدموع منذ ودعها آخر مرة... لكنها لا تبكي عليه كما هو واضح، لا بد أنها تعاني من مشكلة.. من شيء صعب!

ـ ماذا بك؟!... أرجوك تكلمي، فأنا لا أحتمل رؤية ولا حتى سماع امرأة تبكي!

بصوت دموعها، لا شيء يا «عادل».. أنا كويسة!

ـ لا.. مش كويسة، وإنما منيلة فيه إيه أرجوك، كده أنا بديت أرتعش.

عندي مشكلة صحية.. ما تخافش إن شاء الله بسيطة، ويمكن أدخل المستشفى لإجراء عملية لا تستغرق أكثر من أسبوع، إنما مش دلوقت، ولكن بعد عشرين يوم، المهم إنى حا أكلمك كل يوم جمعة زي دلوقت بالضبط.

ـ وليه ما أكون أنا اللي أكلمك في البيت!!

لا.. لأ، أرجوك.. ماما مش عاوزه، لكن أنا أعرف كيف أتصل بك في مثل هذا الموعد. باي.

ـ اسمعي بس... ألو... ألو.

❊ ❊ ❊

❊ بعد أن وضع سماعة الهاتف.. سرقته الأفكار، والافتراضات، والتوقعات.. وكلها تدور في المساحة ما بين: دوافع اتصال «نوار» الهاتفي، والخبر الذى فجرته عن مرضها... وكأنها تعلن له خبراً سيئاً !

ـ هل...... اكتشفوا فيها.... مرضاً.......

قاطع هواجسه: لأ.. لأ، بعد الشر، إنها وردة ما زالت تتفتح على الحياة. في عنفوان شبابها، وفي قمة أحلامها.

ـ إذن... مم تشكو، ما هو مرضها؟!

أو... بلغ بها الإتقان في التمثيل عليه إلى هذه الدرجة من البراعة: تبكي، بل وتجهش؟!

لأ... إنها لا تمثل، شعر «عادل» في صوتها بالصدق.

دخل عليه في مكتبه صديقه «ابراهيم ».. وقد شاهده بهذه الحالة النفسية والتأملية، المصطبغة بالحيرة.. وبدا وجهه ممتقعاً بالإصفرار: ـ ماذا بك... ماذا حدث؟!

مفاجأة يابرهام لنكولن... والله مفاجأة، وَلْ... معقول؟!

ـ إيه. . فيه ايه، جننتني، ترى ما عندي أعصاب تتحمل، قول يا مخلوق. .

تصور يا براهام. . . مين كان يكلمنى قبل (برْهة)؟!

ـ مين يعني؟!. . . ها هو انت جالس تكلم نفسك، ونفسك تكلمك من فترة كالمجانين، أو كالفلاسفة على شفا الجنون. . ارحم نفسك يا مخلوق.

لأ بجد. . . كانت «نوار» تكلمني!!

ـ رجعنا للهدرشة، وكلام المراهقين.

يا بني اسمع، ولا تفسد فرحتي، وجع بطنك يامنفش!

ـ نسمع. . . بس بدون شتائم.

«نوار» اتصلت، اعتذرت، توددت، أسهبت في الأخبار، شهقت، بكت!

ـ وحْده. . وحده، اعتذرت، توددت. . . حتى شهقت، معروف ومتوقع، إنما الغريب وموضع السؤال لماذا شهقت، وبكت!

ألمحت إلى معاناتها من مرض، وستدخل المستشفى لإجراء عملية!

ـ وبطيبتك الشديدة طبعاً. . صدقت.

* يا مخلوق اسمع. . . البنت بكاؤها كان حاراً، ودمعتها لسعت أذني!

ـ حاضر. . . تريث وانتظر المكالمة الأخرى في الأسبوع القادم، وكما يقولون: شمس تطلع، خبر يبان!

* * *

(٣)

كل شئ يبدو الآن ممكناً في ذهن «عادل» وربما في قدراته، ولكن. . . لا تأثير له عليه!

قد ينفجر باكياً، وعلى شفتيه بقايا ابتسامة صفراء، أو بيضاء.

قد يقهقه ودموعه تغسل وجهه، وتملأ حلقه.

قد يفهم ما في داخله، ولكنه لا يفهم: لماذا هو فهم ذلك، وكيف فهمه؟! إنه مثال من شرائح عديدة في المجتمع العربي. . تعاني (بفهم)!

ورغم عجزه. . كان يلوح في استشعار قدراته وارادته: أنه أكبر من تحقيق أقل شىء، وعن إمكان شيء واحد في داخله!

يضحك «عادل» وهو يغذ في تأملاته، ويسأل نفسه:

هل تراها «لذة الخيبة ». . هذه التي يمارسها العالم المريض اليوم، بكل ما لا يؤثر الإنسان به، وإنما يتأثر هو به؟!

إن «الخيبة» ـ وحدها ـ كشعور حثالي في قاع النفس، تبدو شيئاً ممكناً. . يمكن للإنسان أن يفعله ليكسر به طوق الآخرين من حوله. . . فهذا الإنسان المعاصر لم يعد يستمر: شكلاً واحداً، ولا شعوراً واحداً، ولا سلوكاً سرمدياً. . بل صار يتشكل على أكثر من صورة، وشعور، وسلوك. إن «عادل» ـ بعد هاتف «نوار» له ـ صار يراها هذا الإنسان المعاصر الذي لا يستمر شكلاً، ولا شعوراً، ولا سلوكاً. . . إنها تتشكل على أكثر من صورة حسب احتياجها ودوافعها.

إنها الآن تضحك على الحياة، في لحظة غفلة منها ومن الحياة ذاتها عنها!

لعل «نوار» تطمح إلى زخرفة واجهة حياتها.. وهى تعرف: بماذا تزخزفها والطرق المؤدية إلى ذلك!

و«عادل» : يرى في هذه الشريحة من البشر قدرة فائقة على زخرفتهم لحياتهم.. بالتزوير للعواطف، بالنفاق، بالخداع، بالبسمة الخادعة... وهو عاجز عن مسايرة هؤلاء!

* * *

أوجعته أفكاره، وتصوراته وتحليلاته... وكأنه كان ـ لحظتها ـ في حاجة شديدة جداً إلى امرأة، أو سَمْع يصغى اليه.

فكر في صديقته «سارة» في اللحظة التي رن فيها الهاتف:

ـ أهلاً «سارة».. غريبة، لعلها المرة الأولى التي تتفضلين فيها، وتتعطفين وتتنازلين، وتتواضعين.. فتكوني البادئة بالاتصال!

طبيعة المرأة يا صديقي: أن يركض وراءها الرجل، لا أن تركض هي وراءه!

ـ ولكني أنا «صديقك».. أقصد لست «رجلك» الذي تتمنين أن يستمر العمر كله يطرد وراءك.. وأنت ـ في إطار الصداقة الرائعة هذه ـ لا تركضين ورائي باتصالك، بقدر ما تتفقدين أحوال صديقك المكلوم في عواطفه بكل حيرة الدنيا.

أخبرني... هل لديك جديد؟!

قص على صديقته «سارة» مفاجأة «الهاتف النوّاري» بالتفصيل الممل، وهى تصغي باهتمام، حتى فرغ من الحكاية و. . . زفر.

تكلمت «سارة» في عمق إصغائه لها. . فقالت:

ـ «نوار» ومثيلاتها: سلّعت نفسها قبل أن يسلعها الرجل. . ربما باضطرار دوافع حياتها، وأحلامها، وأحسب أن مرض «نوارك» الحقيقي يكمن في علاقتها بنفسها، ولدينا ذلك النهم على «المقتنيات» لها. . في الوقت الذي تفقد فيه جوهر الأشياء!

ولكن يا «سارة». . . ربما كنا نظلم الفتاة، أو نقسو عليها؟!

ـ المشكلة ليست في «نوارك» بل فيك أنت.

كيف. . . نوّري المحكمة؟!

ـ بدون مزاح، أو امزاح لا بأس. . . المهم: أنك لابد أن تكون قادراً لأخذ حقك من هؤلاء الذين برزوا كأمثلة في حياتك «نوار»، الشاطر حسن، . . . الخ، لا بد أن تحجمهم!

وأين المشكلة يا سيدتي؟!

المشكلة في تكوينك. . . في رومانسيتك . . في رقة عاطفتك ورهافه شعورك.

الحقوق ـ يا صديقى تحتاج إلى قسوة المواجة، وأنت تفقد هذه القسوة، أو لا تطيق أن تصدر منك ضد الذين انكشف خداعهم لك. . . قلبك لا يتحمل قسوة أخذ الحقوق، حتى حقوقك التي أنت مظلوم فيها مائة في المائة. . . أنت من هذا الطراز النادر اليوم: غير القادر على القسوة!!

إنني مثلك أيضاً. . نحن نرحم الآخرين، حين هم لايرحمون أنفسهم. . التكوين العاطفي الذي فطرنا عليه، يجعل من كامل عقلنا: رحمة بالآخرين، وترفُّعاً بأنفسنا. . ربما لأننا لا نطيق أن نشعر أن الطرف الآخر يتعذب.

نعم يا صديقتي. . أنا لن أواجه هؤلاء، بل أواجه وجعي وأوراقي. . وكل ما أتذكُّرهم، أو حتى أتخيلهم وقد صاروا صغاراً متقزمين. . صدقيني أنني أتألم لحالهم، أو لمضمون نفسياتهم.

هؤلاء. . كان بينى وبينهم: عيش وملح، وكلمة حلوة. . . ولو وقف أحد منهم وسألني: لماذا هذا الموقف معي الذي أسقطتني فيه من حياتك، فأتوقع أنني أنهار أمامه وأبكي من أجله!

لا بد يا «سارة» أنني سأبقى لوقت طويل: حزين جداً لسقوط هؤلاء في نفسى، وقد كانوا: قدوة «كالشاطر حسن»، أو كانوا شمعة كـ «نوار»، أو كانوا عمراً جديداً «كغالية».

أحزن. . لأنهم انكشفوا، وقد ينظرون هم إلى الأمور، وكأن الشئ لم يكن، ولم يصدر منهم. . ولو رأيت الندم في عيون هؤلاء، فلابد أن تدمع عيناي!

ـ طبيعتنا عاطفية. . يذبحنا بها من نحبهم، ونتحدث عن الرحمة. . ولا نقدر أن نتعامل مع أناس قساة، قلوبهم صلبة، مغرقين في التعامل المادي!

* نحن نذبل ـ ياصديقتي ـ لكن بشموخ. . ونحن نتجرح، لكن بترفع. . ونحن نُطعن في الظهر، لكننا نصفح!

* * *

* أخذ «عادل» يتطلع إلى البعيد... في عينيه جثث العديد من الأسئلة التي ماتت بجوعها إلى الأجوبة.

وفوق شفتيه: ابتمسامة تتشكل حسب ما تتلقاه بهدوء، وبلا مبالاة.. كأن شفتيه تحولتا إلى قطعتي صلصال لها عشرات الأشكال!

أراد أن يخبئ كل الخفق الذي ثلمه غياب «نوار» في الأسرار، أو في الخديعة... حتى لا يجرحها بحزنه!

خاف على «نوار» من حزنه عليها... وهو حزن، كان في اختفائها كأنه يقرع بوابتها الحديدية لتفتح له!

* (في موقف كهذا.. لابد أن يتذكر «غالية» التي طالما ناداها هي الأخرى، قبل «نوار» وربما بعدها سيستمر في مناداتها: أن تخرج من الصلف العاطفي إلى ضحكة الحلم.. أن تمشط شعرها بكلماته، وأن تلبس عشقه لها: ثوباً من الحرير الأبيض، وأن تتعطر بحنانه وبدفئه.. في ليلة مقرورة بالوحدة النفسية)!!

ترنم «عادل» بكلمات أغنية تلح عليه في وحدته النفسية.

ـ «حسْب أيامي: جراحاً، ونواحاً، ووعوداً

وليالي: ضياعاً، وجحوداً ولقاء ووداعاً.. يترك القلب: وحيداً»!

في هذه اللحظة التي لم يتوقعها ـ أن تتصل به «نوار» ثانية ـ حاول أن ينفيها من عينيه، حتى لا يغرق في أكاذيبها وخدعها.. كان ربيعها القديس يتراكم ثلجياً وخرافياً في صدره، وتمنى حين اللحظة تلك التي اقتحمه فيها صوتها، لو سألها:

ـ إلى أين سيحملك الخيال.. في عبثك بعواطف الآخرين؟!

إلى متى سيحتملك خفقك في قتلك لحلمي عنك وفيك؟!

أقسى ما يسقط فيه الإنسان: لحظة أن يبيع عفويته للغبار وللتعب.

أصعب ما يعايشه الإنسان: لحظة أن تكبر عليه غربته، فتسجنه معها في شروخ الحزن.

«نوار»: صارت هى غربة «عادل» وفي الغربة... يتدفق كل هذا الحزن النبيل الذي يطهره، ولا بد أن ينقي صدره من ثلج «نوار» الخرافي!!

* * *

حسناً.. أيها الرجل العاشق الرومانسي!

لا بد أن تتحمل أن تكون قد أتيت في عصر آخر.

دعك من الجراح، والحزن، وخطا النمل التي ترتد متضادة!

هذا هو قوام عصر الصاروخ، والهبوط على سطح القمر، والإيدز، والسرطان القاتل، والضعيف يلتهم القوي.

بكل ارتقاء هذه الحضارة في العلم، والإنجازات التي اضطلع بها عقل الإنسان... فإن الإنسان يتقهقر إلى شريعة الغاب.. إلى منطق: كل شيء بثمن، وغالباً يكون: بثمن بخس إذا كنت من تبيع، وبثمن جشع اذا كنت من تشتري!

قيمة الإنسان لم تعد في عبق الوردة، ولكن... في سحيق الوهاد!

النظرة الإنسانية: انفكت من الحصار التشاؤمي.. العصر بمتطلباته، وبظلم القوة فيه، جعلا التشاؤم: حياة يعيشها المعاصرون!

يريد «عادل» أن ينسى «نوار» ويسقط ما يمر به من محطات تتعاقب على دربه.

انه الآن: يتطلب الهدوء، والتأمل.

الحب في حياته: حقيقة... ليس ترفاً، وستبقى هذه الحقيقة.

* * *

(٤)

كان شاطىء بحر «جدة» غافياً، وصدر «عادل» ساهراً، قلقاً ـ تشغل حرائقه: عينا «نوار» البعيدتان في لا مدى انتظاره.

كان يناديها، ويرتقب عودة صوتها من جديد، كما وعدته.

دعاها في الأصداء: أن تقترب منه بخفقها، قبل أن تمنحه دفء يديها. كانت يداها مهجورتين من قبلها.

وكان يرى في عينيها: قصيدة الفراق الذى توقعه، وحاول أن ينفيه.

في عمق سوادهما: فجر ـ يمتنع عن حقوله.

وفي شرودهما: مشوار نحو الريح، والمرايا.

وفي اتساعهما: أصداء الحلم المطعون ـ المنفي إلى جزر الخوف والزحام!

كان ضوء القمر ينعكس على صفحة البحر...

رأى وجهها داخل هالة القمر: عالياً، حليبياً ـ وجيدها متلع يشرئب نحو

اللامدى، مثل نجمة القمر!

(في زمن مسروق من الفرح القديم ـ من الطعنة الأولى السابقة التي أصابت حلمه بخنجر الغالية: «غالية» كان عبق الليل يضم «عادل» و«غالية» في رمل ناعم بجانب البحر ـ فسألها مازحاً:

ـ هل يحب القمر: وقفة التاريخ؟.

فى ذلك المساء الهامس بخفقاتهما.. امتزجت بسمة «عادل» ببسمة «غالية».. وكانت أضواء السيارات والمباني: تركع طيعة تحت ضوء القمر!!

كان المساء البكر ـ في ليلته هذه ـ يدخل ما بين حلم «عادل» وشروده..

لم يكن يدري أن الزمن الأجمل: لحظة مسروقة من الحلم.. مطعونة بالشرود!

صار حلمه المطعون: ممنوعاً من الحب.. ممنوعاً من الشوق.. هارباً من نداوة الذكرى.

وكان القهر يحرضه أن لا يتلفت خلفه حتى لا يرى الدماء التي تسيل من حلمه المطعون!

كل ما تراكم من حبه، ومن ثقته في الأصدقاء: ينفيه من أعماقه الأصيلة، النقية.. ليرميه بعيداً بدون حنين، أو حنان!

❊ ❊ ❊

❊ عاد إليه صوت «نوار» في نهاية الاسبوع، بداية هذا المساء... يحفه الوهن وتغرق نبرته في التعب.

ـ سألها قلقاً: ماذا بك... هل أنت مريضة؟!

* قالت: لا تنزعج.. سأدخل المستشفى في بدء الأسبوع القادم لإجراء عملية بسيطة.. أرجوك لا تقلق.

ـ قال: حسناً... ما اسم المستشفى، وهل تسمحين لي بالقدوم لأكون بجانبك؟!

* قالت: لأ... أرجوك، أنا بالفعل أحتاجك بجانبي، ولا أدري ماذا أقول لك؟!

ـ قال: أي نوع من الاحتياج.. أنا بأمرك رغم أن ظروفي هذه الأيام صعبة جداً.

* قالت: تعلم أن تكلفة المستشفى ـ عملية، وعلاجاً، وتنويماً ـ باهظة جدا، بالذات لأنه مستشفى خاصاً.

ـ قال لها بعد صمت: متاكد أن صديقي معلمي «الشاطر حسن» له أفضال على كثيرين ومعهم، وأعتقد أن صلة الطيبة به تدفعه للوقوف بجانبك، خاصة وأنه الآن في القاهرة!

قالت: حاولت الاتصال به أكثر من مرة لكن.....

ـ قال: لكن..... ماذ ا؟!

قالت بصوت شبه منكسر وقلق: لم يرد عليّ.. ولم يحاول أن يعرف سبب احتياحى في الاتصال به ـ إننى لم أعد أسمع صوته ولا أسمع عنه، لقد كان عملياً معي!!

وقبل أن ينتهى الحوار الهاتفي مع «نوار»: حزيناً ـ حرص أن لا يدعها تذل نفسها، فقال لها مقاطعاً:

ـ فهمت، فهمت. سأكون بجانبك، كما تعودت مني دائماً!

ولفّته دوامة من الحيرة، والذهول: صوت «نوار» بالغ الأسى، والتعب ـ ويدل على صدقها، فهل بلغت براعة البعض: أن يجيد تمثيل الصدق في قمة الكذب؟!

أيضاً ـ لا يريد أن يظلمها، وبادر إلى البنك، وحول لها المبلغ الذي كان في إمكانه أن يقتطعه من حسابه.

تلك هي علاقة «الإنسان» بنفسه: أن تكون ثروته الحقيقية: النور من داخله، وليس هذه الإضاءات الملونة الخارجية، ولا هذه الفلاشات التي تحترق في لحظة اشتعالها.

العلاقة الإنسانية التي كثيراً ما سخر منها صديقه «الشاطر حسن» أمامه من خلال حوارهما دائماً، خاصة وهو يتحدث عن «المرأة»!

وحين يتذكر «عادل» الآن. كيف أن صديقه الشاطر حسن قد أنهى تلك العلاقة الانسانية الرائعة في مفهوم الصداقة معه، انحيازاً مبدئياً أو أولياً إلى ذلك «المليونير الشاطر»... فإنه بقناعة شديدة مارس القطيعة، ليمنحه فرصة الانسحاب، أو الاختفاء بعد أن صار غير قادر على مواجهة «عادل»!

ـ يهمس «عادل»: إن الوردة التي تقطفها لأول مرة، تحتفظ بها.. لأنها علمت أنفك حاسة الشم، أو أيقظت هذه الحاسة فيك، وأعطت حواسك شذى العطر.. حتى يجن فيك الامتلاك، فتركض في الحقول تقطف الورود، وتشمها، وتضمها، ثم ترمى بها تحت قدميك ذابلة!

لكن هذا السلوك البشري لم يقدر عليه.. في حياته لم يطق مرة أن يفعل بأية وردة هذا السحق.

وفي همس بارد، لكي يتحرر من تعبه، ترك ديالوجاً في داخله يتسلل منه إليه:

ـ (هل أنت ميّت الآن؟!

ما هو الموت؟!

ـ ليس شرطاً أن يتوقف نبضك، ربما تشعر بتفاهة ما حولك.. بضياع كل ما حسبته لك... هذا موت!

لا أرغب في ممالأة شيء ما.. عندما يفقد المرء دواعي الحياة، فما قيمة هذه الحياة؟!

أشرب، وآكل، وأمشى، وأعمل.. لكني أنجذب إلى ما كان يعانيه بطل رواية «مرتفعات ويذرنج» الشهيرة.. والاختلاف الوحيد عنه: أن ذلك فقد الإحساس بالحب، والإنفعال والكراهية.. أما أنا فقد تخلصت من الإنفعال حتى لا أكره، وحرصت على التشبث بمقدرة واحدة.. وهذا هو العذاب في عصر مادي)!!

❊ ❊ ❊

❊ لم يعد يستطيع الإتصال بهاتف «نوار» في البيت، بعد أن حذرته.. وهو يراوح ما بين القلق عليها، وغياب صوتها، والخوف من أن تؤكد له مرة أخرى: كذبها وخديعتها.

وفى مساء رابع بعد أن بادر إلى تحويل المبلغ لها.. جاءه صوتها مكسواً بالفرح، بكلمات متعجلة سريعة، في حوار لم يدم أكثر من دقيقتين!

ـ تسلمت المبلغ، ولم يكن مفاجأة فأنا أعرف إنسانيتك ـ والشكر لك قليل أمام صنيعك!

ولكنك أخبرتني أن دخولك إلى المستشفى كان موعده في بدء هذا الأسبوع، ونحن الآن في نهايته!!

ـ لقد كنت أنتظر ما توقعت أنك ستبادر بإرساله ـ وغداً سأدخل إلى المستشفى.

وكيف سأطمئن عليك.. هل تعطيني رقم هاتف المستشفى؟!

ـ لأ ـ لأ، في المستشفى سيرافقني أحد من أهلي، ربما أمي، أو أخي، أو خالتي.

ولكنى سأكلف من يتصل بك ـ فلا تقلق، سيغيب صوتى عنك لمدة ثمانية أيام فقط!

ولا يدرى «عادل» لماذا شعر في هذه اللحظة: أنه يصغي إلى صوت «نوار» لآخر مرة.. وقد أزعجه هذا الهاجس كثيراً، وكثف من قلقه عليها ـ بل لعله تمنى في لحظته: ان يكتشف كذبة جديدة أو خديعة منها ـ بدلاً من أن يأتيه خبر عنها يسوءه، بصرف النظر عن العاطفة ـ فهو في هذا الموقف: مجرد إنسان!

ومرت الثمانية أيام، وقلقه يتضاعف. ـ حاول أن يتصل، لكنه لا يعرف المستشفى.

وفى حيرته وقلقه ـ كان يتساءل:

ـ هل «الحب» عبودية؟!

العبودية أنواع، والخوف أن تستعبد المادة الإنسان ـ وعبودية القلب أكثر معاناة وألماً ـ الأفكار وحدها هي التي لا تدع أحداً يستعبدها...

لكن القلب لابد لصاحبه في صد عبودية الحب له ـ فكأن الإنسان بالحب يستعبد نفسه بنفسه أو لنفسه!

وأمضى «عادل» أسبوعاً آخر في الانتظار ـ نصف شهر، ولم يتصل به أحد يطمئنه، ولم يعد إليه صوت «نوار»!!

***

(٥)

سقط رأس «عادل» في حجره، وما زالت نظراته حادة في سقوطها.

يُطوّح الأسئلة القلقة عن هذا التردّي في حالته النفسية، كأنه هذا المريض في حدة الإحساس:

ـ ماذا يحدث بعد أن ترحل أحاسيسك وتصد أمواجاً عاتية في بحر حب، ظننته سيكون كبيراً... ثم تفقده في بداية الطريق؟!

عبرته أيام عصيبة.. كان فيها ذلك المعتكف مع نفسه.

اعتكاف الإنسان مع نفسه: عملقة، قناعة.. يدل على أن هذه النفس:

ثرية بمعانيها، حتى ولو كان ثراؤها في إطار الحزن العميق!

اتصل بصديقه، حبيبه «سيف» هاتفياً:

ـ أنت صديق «فشنك»!

وأنت مجنون في عواطفك!

ـ من أخبرك.. يابن ذى يزن؟!

حلمت بك تبكي في النوم، والذين يفسرون الأحلام يؤكدون: أن مثل هذا البكاء في النوم: فرج لصاحبه.

ـ فرج في الدرج يا «سيف». . . حكايه أخوك راكبه جمل.

ماذا حدث؟!. . . ولماذا أسألك، لابد أنك سقطت شهيد «الحب النواري»؟! روى لصديقه «سيف» خيبته بالحذافير!

ـ قال له سيف: أنت لا تكره غيرك أبداً، ولكنك تكره نفسك في الآخرين!

سأله عادل: كيف. . فسر لي طال عمرك؟!

ـ قال سيف. أنت تشاهد فيلما عرفت أبعاد مواقفه، وعقدته القصصية، والكثير من أحداثه المتوقعة لديك. . . لكنك بعد نهايته ما تلبث أن تفتش عن فيلم آخر لا يختلف عن الذى شاهدته وشدتك حكايته ـ أنت ـ يا ابنى ـ مغرم أفلام غم رومانسي!

قال «عادل»: هذا تشبيه سخيف، فلا تربطني بما يستفزني!

ـ قال «سيف»: حسناً ـ لعلك تشعر الآن بالقرار، أن تكون حكاية «نوار» قرارك ـ ألا يكفيك ذلك؟!

قال «عادل» بلى ـ بالعامية! ـ إنه الفارق اللامرئي في أشيائنا، والخيط الرفيع في حياتنا!

ـ قال «سيف»: علشان خاطرك ـ . حأجيب لك قرارها، وقرار اللي خلفوها»!

وأفرغ «عادل» وقته كله، بعد محادثته مع «سيف» في انتظار صوت

صديقه يعود اليه ثانية «بقرارها، وقرار اللي خلفوها»!

ولم يطل به الانتظار كثيراً.. لكن المعلومة التي عاد بها صوت «سيف» كانت مذهلة!

قال له «سيف» ساخراً كأنه يسدد إلى وجهه لكمة من يد أعنف مصارع: السندريللا بتاعتك، مش عيانه ولا دخلت مستشفى، وزى العفاريت!

ـ كيف ـ يستحيل ـ غير ممكن!

أمسك أعصابك لقد كلفت سكرتيرة المكتب بالاتصال «بنوارك» وعندما تتحدث امرأتان معاً ـ عليك أن تصغي للعجب العجاب، لكني طلبت من السكرتيرة في نهاية محادثتها مع «نوار» أن تخبرها بقلقك عليها، وبضرور اتصالها بك.. فوعدتها خيراً، بعد أن فوجئت أن السكرتيرة: دسيسة من حضرتك لكشفها!!

ـ وعدتها خيراً؟ !.. على طريقة الموظف الميري يا سيد!

انت زعلان ليه؟!.. إفرح إنك كشفتها على حقيقتها، أو أقل لك: إبكِ علشان ترتاح!

اسمع يا صديقى هذه العبارة لكاتب فرنسا القديم «اندريه جيد» الذى قال: إنك إذا اكتشفت حزنك وعرفت ما تريد، أو ما صنعه بك الآخرون.. فلا بد أن تتعرف على أسباب اكتئابك أو خيبتك، ولا بد بعد ذلك أن ترتاح»!

ـ أشكرك «يا سيف».. أرجوك، أريد أن أخلو مع نفسي قليلاً.

ولكني سأقلق عليك.. أرجوك طمئنني.

ـ لا تخف. . . فالمثل الشعبي يقول: «الشقي. . عمره بقي»!!

على فكرة. . لكي تكمل المعلومة لديك: نوارك تركت عملها في الفندق، صحيح مثل ما أخبرتك، واشترت سيارة جديدة، صحيح، ولكن. . . لن يدخل فيها سعادتك أبداً (!!) ونجحت في الإعلانات، ضارية بشكل ملفت، ولا فضل لك. . خلاص نسيتك «نوارك »، و. . .

ـ كفاية «يا سيف». . . مع السلامة.

❊ ❊ ❊

❊ شعر «عادل» بالاختناق، وبعفوية. . امتدت يده إلى سماعة الهاتف، ليتحدث مع صديقته «سارة» لكن الهاتف رن في هذه اللحظة. . وحين أجاب فوجىء بصوت «نوار» يأتيه:

ـ ألو. . . عادل، أنا أَسفة في تأخرى عن الاتصال بك. . أصلي كنت وما زلت أواجه مشكلة مالية في تسديد تكلفة المستشفى، ومطالبتها لي بالدفع الفوري، و. . . . . .

أصغى «عادل» إلى تدفق صوت «نوار»، واكتفى بسماع الخلاصة التي ركزتها هذه المرة في مباشرة الطلب. . . ثم بادر بوضع سماعة الهاتف، بعد أن مكنها من سماع صوته، لتعرف أنه هو الذي أجابها:

ـ لم أعد أعرف إمرأة بهذا الاسم!

وضع سماعة الهاتف، ويده ترتعش، وعيناه غائمتان بالدمع.

خاف أن يتضاعف اختناقه ـ فتناول سماعة الهاتف، وطلب صديقته «سارة»:

ـ بادأته «سارة» بالكلام بمجرد سماعها لصوته: أهلاً عدولة. ـ أنت فين؟! ـ . أنا زعلانة منك. . إنت نسيت أن تشاركني في أحزاني كما عودتنى، واعتبرتك: الأخ، والصديق، والمرآة. . . لقد أغرقتني في أحزانك، وتركتني أعيش في حزني، ولكن . .صدقني أنني أعيش حزناً سعيداً، لا عليك. . . كلانا ـ أنت وأنا ـ قد أدمنا الحزن السعيد.

* إيه ياسارة. . إنت بالعة راديو، ابلعى ريقك. . هبْ على إرسالك؟!

جلجلت ضحكة «سارة» وهى تواصل كلامها في أذن «عادل»:

ـ «عدولتى». . نصف الألف خمسمانة، الآن أو كازيون، أو خسارة: نصف الألف نصف الخمسمائة.

* لأ ياسارة. . نصفها لم يعد خمسمائة، بل: صفر ـ صفر!

ـ ماذا بك صوتك غريب؟!

أخبرها «عادل» بالاكتشاف ضمن المعلومات التي تقصى عنها صديقه «سيف» وقبل ذلك: كان سيف ـ كما أخبره اليوم ـ قد حاول معرفة خلفيات هذه الفتاة، خوفاً على صديقه «عادل» من الانزلاق في أمواجها العاتية.

* قالت «سارة»: لا عليك. . الإنسان الذي عانى من الحرمان والصدمات مثلك وأدمنهما ـ تكون الحرب معه صعبة، لأنه: لن يفجع في مثل هذه الشرائح. .(سُو واتات) يا صديقى؟!

الحلم المطعون: يحسب الذين قتلوك باسم الحب، قد طعنوه كله حتى النزف أو النزع الأخير: «نوار» «الشاطر حسن»، المليونير الشاطر» لكنني أرى طعنة حلمك من قبل هؤلاء قد أحدثت ثقباً في الحلم، وأثق أن ما لديك من أمل، قادر أنت على تجديده، سيرتق هذا الثقب الذى تحرص أنت بإرادتك

أنت وتجعله طعنة في كبد حلمك.

للحلم المطعون ـ واضحة، وتنتصر الفضيلة ـ ! دعه للأيام، فهو يتعرى، يتعرى!

* تعرفي... نفسي الآن أضع رأسي على صدر حنون، كأم تحنو على طفلها الكبير وأغفو!

ـ بضحكة هادئة قالت له «سارة»: يا صديقي الطيب «فتعلم كيف تنسى، وتعلم كيف تمحو» ـ أنت «يا عادل» أحببت امرأة خلقتها بخيالك أو من خيالك، وكل الذين عرفتهن، كنت تبحث في كل واحدة منهن عن: رمز، عن معنى، عن قيمة، عن عطاء عاطفي ـ والكثير منهن: قتلنك، والقليل: جعلنك تستمتع بالحياة معهن ـ وتظل أنت: صانعهن؟

* * *

* في عمق الجرح ـ ينزف حلم «عادل» المطعون.

والدنيا من حوله الآن: لا تجيء، لا تذهب، لا تقف.

يصرخه الجواب: لغة في قاموس الفجيعة، والصدمة!!

تلك اللحظة ـ كان الموت يفاضله، مابين رحيل الحب وبقاؤه مندلعاً في أوردته ـ . ما بين السر يداجيه ورُفُضه أن يكشفه حتى يرتاح!

بين التعب.. يفيض: «عادل» الآن من أعماقه: ظنوناً وجنوناً!!

ـ قال عادل: هذا أنا أسقط في «لذة» الخيبة... عندما صارت الأشياء: باهتة، وتقشرمن فوق جلدها الزيف، وظهرت حقيقة هذه الشريحة!

* قالت سارة: هؤلاء بشر مثل مناديل الورق.. التي تبدأ خدماتها من «اكلينكس» فوق طاولة صالونك ومكتبك، وتصل حتى المرحاض، أكرمك الله... وهى شريحة قد نبدو أمامها كالمتفرجين، ولكننا لا نقدر أن نواجهها، لأننا نفشل في إتقان أسلوبها.

إننى أسترجع في «قرار» «نوارك» في صدرك: قرار «الشاطر حسن» أيضا.. ولم أحدثك عنه من قبل، فقد كان يلذ له أن يتعدى على سعادة الآخرين.. لا، بل يحرض الآخرين على سعادة بعضهم... هو لا يتجرأ ولا يستبيح لنفسه فقط بل يفشي هذا الأسلوب!

ـ قال عادل: لا أظن أن الشاطر حسن، قد ضمن استمراريته في حياة «نوار»... فقد كان مما يهمه في موقف كهذا أن يحرضها علي، وأن يأخذها إلى بعيد.. فإذا أخذ منها رماها... وأذكر أنه حرضني مرة أن أدخل في حياة الأنثى التي أحبها صديقنا معاً «ياسر» وأخطفها منه... وهو يحمسني بحكاية قديمة أكل عليها الدهر وشرب.. يوم سرق «ياسر» مني امرأة غالية جداً، كانت في حياتى يومذاك: شمعة، وحلماً نسجه الحب بيني وبينها أحلى سنوات العمر نضارة، وطموحاً!!

أطلقت «سارة» ضحكة مجنونة، وقالت:

ـ ياله من فاجر الأفكار، أو فاجر الفكر... أرجوك أعد ما قلت، أعد.. حقاً حرضك على الأنثى التي يحبها «ياسر»؟!

* نعم... ألست مصدقة؟!

تعلو قهقهات «سارة» ثانية، وهى تردد:

ـ إنه فاجر الفكر بلا شك، وأنا متاكدة لو قدر له أن يعرف أنثى «ياسر» لكان حرّضها عليه، وقد يقول لها، الطيور لا تقوى أجنحتها إلا بالتنقل من غصن إلى غصن»!

لكن هيهات له.. ليست كل الطيور، وما أجمل أن تتكشف الحقائق.

جدة ٣١ ـ ربيع الآخر ١٤١٥هـ   ٢٦ ـ سبتمبر ١٩٩٤م

❊ ❊ ❊

تلك الليلة

الفصل الأول

(١)

* لم يعد يملك شيئاً من تلك الكنوز العظيمة التي كان يخاف عليها ويخبّئها كجوهرة، وكان يضنّ بالإفصاح عنها.. حتى لمن أعتقد أنهم أقرب إليه من حبل الوريد!

الآن.. هو وحده حين هبط المساء الرمادي على نافذة غرفته.

«جدة»: المدينة الممتدة أمامه بزحام شوارعها، وبكثافة سياراتها وركض الناس فيها.. تبدو مدينة ليس فيها شيء من التلذذ، ولا من البهجة أو الترفيه.

ارتفع صوت الأذان من علوّ مئذنة المسجد الذي يجاور بيته.

ـ ردّد بخشوع: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.. حق والعزة لله.. رضينا بالله رباً، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ: نبياً ورسولاً.. اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة.. آت سيدنا محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه اللهم المقام المحمود الذي وعدته، إنك لا تخلف الميعاد.

شمَّر «زياد» عن ساعديه في طريقه إلى الوضوء ليؤدي صلاة المغرب.

تطلّع إلى وجهه في مرآة المغسلة.. وهمس كأنه يخاطب وجهه:

ـ يا هذا الوجه المرهق.. لعل قطرات ماء الوضوء تغسل عن ملامحك التعب والنَّصَب... فما الذي أتعبك؟!

هل التعب يجيء من التلقّي للوجوه، وللسحنات، وما يشكِّلها من عبارات، أو ألفاظ، صار الناس يتبادلونها اليوم بقليل من الحب.. بكثير من المصلحة؟!

أنزل أكمام ثوبه على ساعديه، ووقف خاشعاً يؤدي الصلاة.

وفي أذنه كان الهاتف يصك سمعه برنين متواصل فيه الإصرار العجيب على النداء وطلب الإجابة.

في انتهائه من الصلاة.. قال:

ـ ألا يؤدي هؤلاء الناس الصلاة؟!

ـ ربما كانت مكالمة خارجية، أو... لعلها: معاكسة في هذه الظاهرة المستفحلة التي تشير إلى ما حدث من متغيرات إجتماعية، وأخطر تلك المتغيرات: في السلوك، وأسلوب التعامل مع الآخرين.

وقف أمام نافذة غرفته... يحب في هذا الوقت أن يتأمل الكون.. يرتفع عن الأرض، ويلتحم بالسحاب، وبالنجمة، وبقرص الغروب القاني الذي يُجسِّد له حقيقة وحدته.

وحده يعيش في هذه «الفيلاّ» الصغيرة التي وفِّر قيمتها من بيعه لأرض قديمة، كان يتناساها بعد أن تركها له والده ضمن تركته التي خصه بها..

ودفع قيمة الأرض: مليوناً، ونصف المليون الآخر: كان يجمِّعه في البنك من بقايا راتبه الشهري، ومن الحوافز في راتبه..

على أيام الحوافز (رحمها الله).

الرطوبة تعلو في مدينة «جدة» كساحل، وينزلق الطلّ كقطرات المطر فوق زجاج النوافذ، وزجاج سيارته الرابضة أمام باب الفيلاّ.. وكان يقوم بغسلها بعد عصر كل يوم: ذلك الفتى «التكروني» الذي اتفق معه على مائة ريال في الشهر... حتى اختفى التكروني نهائياً...

فلعله كان بدون «إقامة»، مثل غيره الكثير!

ـ ياه... مَنْ يغسل لي هذه السيارة اللعينة؟!

يبرر لنفسه هذا التقاعس قائلاً:

ـ نعم.. إنها الرطوبة، هذه التي تكسّر جسم الإنسان، وتصيبه بالكسل.

ولكن... هل الرطوبة حقاً أم «التربية» التي تعوَّد فيها على تلبية مطالبه، وأن هناك مَنْ يخدمه دائماً؟!

ـ ربما... كان أبي موسراً، والخدم في حياته كثير، والآن... لا بد أن أخدم نفسي.

أنفاسه تكاد تختنق بهذه الرطوبة العالية في فصل «الجوزاء» من شهر مايو/ أيار... ولا شيء في كل هذا الادِّعاء بالحياة!

يشعر في أيامه الباردة هذه، الصامتة كالخرس.. وكأنه فقد كنوزه العظيمة تلك التي طالما احتفظ بها، ورفّهت عنه، ودللها: الحلم، والتخيل، والأمل، والتفاؤل.

إنه عصر: فساد الحلم، والتخيُّل السِّري، والأمل التائه، والتفاؤل المصاب بالتضخم!!

فماذا تبقّى له.. وهو الآن في آخر خطوة في «الأربعين» مدلجاً إلى أول خطوة في الخمسين؟! الذكريات، الأصداء، الصور التي تعتاده في استرخاءاته كأنها الأشلاء!

ها هو يتماسك الآن... لديه رغبة في الصراخ، لا... بل في البكاء.

ولكن... ما الذي يصرخ عليه، أو ما الذي يصرخ فيه؟!

يغوص في عمق الأسئلة... والأسئلة تخلعه من أعماقه.

الليل بظلال أضوائه البعيدة القادمة من الميناء: يتكثّف في صدره، ويمدّ فيه جسور الصمت والوحدة.

أقفل النافذة، وأسدل ستارتها عليها، وأضاء «الأباجورة» في ركن الغرفة، مكتفياً بإضاءتها.. وأدار جهاز التسجيل بعد أن وضع «كاستًّا»، انبعثت منه أنغام ناعمة وهادئة... فهو يقاطع سماع الأغاني الحديثة هذه التي يسمعها بقدميه، أو بأقدام وأيدي مَنْ يؤدونها، وقد فقدت إبداع الموسيقى، وجمال الكلمة، وعمق الصورة الشعرية... إنها لا أكثر من «ديسكو» غربي، بترجمة رديئة.

وحملته تلك الأنغام الناعمة إلى بهاء الذكريات، وترديد الأصداء.

ترقرقت جوانحه.. وهو يحس برغبة (حميمة) في البكاء الذي يريحه دائماً.

إذن... هذه هي الحياة، وهؤلاء هم الأحياء.

* * *

* أفاق من هودجة الموسيقى لمشاعره.. والعطش يجفف ريقه.

قام إلى الثلاجة، وشرب الماء مع الصمت الذي يكتنفه ويدثره.

يحتاج الآن إلى مَنْ يشاركه هذه الوحدة المتبتّلة، وهذا الصمت المرنّ.

اتجه إلى المطبخ، وأخرج من أحد أدراجه: مبخرة تعمل بالكهرباء، ومن درج آخر تناول كيساً بداخله قطع من بخور «العُود».

هذا العبق الدافئ... هو الآن: أجمل مَنْ يتقاسم معه: متعة الموسيقى، وبهاء الذكريات، ورنين الأصداء في الصمت.

وتصاعد البخور في أرجاء غرفة النوم.. وقد استرخى على أريكة أمام السرير في طرف الغرفة.

تناول جهاز «الريموت كونترول» وأشعل به التلفاز.

الساعة التاسعة مساء/ موعد نشرات الأخبار... وكالعادة:

ـ حروب، قتل، تفوق القوة واستئسادها على الشعوب الضعيفة: محدودة الإمكانات الدفاعية.. غنية بثرواتها أو بإستراتيجيتها.

ـ إسرائيل.. ولعبة العدوان ما بين مدّ وجذر.

ـ صعود وهبوط العملات العالمية التي يتحكّم فيها: الدولار، وينحني له «اليَنْ»!

ـ محاولات العلماء لاكتشاف دواء جديد للأمراض المستعصية.

تذكّر أنه «جائع»... يشتهي هذه الليلة: «سندويتشات طعمية»، أحسن مَنْ يعدها متبّلة: موقعه في البلد.. والمهمة صعبة.

من الأصداء.. يأتيه صوت أمه رحمها الله، وهي تقول مازحة بالمثل

الشعبي: «عند البطون.. تذهب العقول»!

ارتدى ملابسه، وقاد سيارته.. يقتحم بها: زحمة الشوارع بالسيارات، كأنّ نسبتها أعلى بكثير من نسبة الناس.

لا يحب السرعة.. يبتسم وهو يستعيد ما كان يقوله لأمه حين يخرج إلى الشارع قبل أكثر من ثلاثين عاماً:

ـ «لا تخافي عليّ يا أمي... أنا راح أمشي من تحت الجدر»!!

حتى وهو يقود عربته الآن... كأنه يمشي من تحت الجدر، أو لصيقاً به، ومن حوله السيارات المنطلقة كالصواريخ: تنط، وتتلوّى.

دعسة واحدة على البنزين، وانطلقت به العربة إلى الزحام... يتوخى السلامة، وتحاشي المتهورين... وكله من أجل "«ساندويتش طعمية»!

ـ «أوه يا زياد... كل هذا ليس من أجل الساندويتش، بل بسبب إضرابك عن الزواج»!

صوته من الداخل يعلو ويختلط برجفة جسده.

حقاً... لأن بيته يفتقد دفء الرفيقة، والأنيسة، والشريكة في الحياة.

ـ «هذا مبدأ.. يا واد يا زياد»!

صوته من الخارج.. يتسلل إلى أعماقه، ليبرر هذه العزلة.

❊ ❊ ❊

❊ حين بلغ الثلاثين.. كانت أمه تلح عليه أن يتزوج، تطارده بكلماتها، تُحرِّضه على نفسه:

ـ «يا ولدي.. الزواج سُتْرة ومصونة.. الزواج تكمل به نصف دينك».

يبتسم في وجه «ست الحبايب»، كما كان يناديها.. ويرد عليها:

ـ «إن شاء الله يا أمي.. حتى يجي النصيب».

* تجادله قائلة: «متى يجي النصيب يا ولدي.. لمّا أموت يعني، بدّي أشوف أولادك». يصمت... ويأخذ أمه بين ذراعيه ثم يُقبّل يدها.

واصلت أمه إلحاحها عليه.. حتى فاجأته يوماً، قائلة له:

ـ «خلاص لقيت لك بنت الحلال... أمها صاحبتي من الشباب وحتى الآن، ما رأيك في بنت عمك «سالم الوادي»؟!

فوجئ «زياد» بقرار أمه.. قال لها: ولكنك صاحبة أمها، وأنا لا أعرفها.. حتى لا أعرف وجهها.

ـ قالت له: «وي... بسيطة أخليك تشوفها، هادا زواج ما هو لعب.. أنا أعرف».

وتوالت ضغوط أمه عليه.. حتى خضع لرغبتها.

دخلت بيته امرأة جديدة.. جميلة، سمراء، طويلة.. شعرها فاحم بلون الليل.

في الأسبوع الأول بعد شهر العسل.. اكتشف أنها لا تعرف طريق المطبخ في بيت أهلها.. وبقيت أمه هي التي تطبخ لهما.

وفي الشهر الثاني.. ارتفع صوتها، تحب الصراخ، وإصدار الأوامر إليه.. وقد طالبته بخادمتين: واحدة لها، والأخرى لأمه!

وأحبطت أمه في اختيار «ست البيت».

واحتمل «زياد» كل هذه الطباع والسلوكيات من زوجته، حتى لا يزداد حزن أمه.

وطال احتماله حتى انتهاء عام على اقترانه بهذه المرأة الصعبة.

ـ قالت له أمه: «أعرف يا ولدي أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق، ولكني أراك تحتمل فوق طاقتك، وعاشروهن بمعروف أو فارقوهن بإحسان... أنا رفعت إيدي».

وتنفّس الصعداء.. أزاح هذا الكابوس، فلعلها تجد كابوساً يتوافق معها.

وفي تنفسه ذلك.. كان يطوح بيديه مثل الخارج من بوابة السجن.. يتنسم الحرية.

والتفت إلى أمه يقول لها:

ـ «ما قصّرت يا أمي... سأستقدم لك خادمة تسهر على راحتك، فقد كبرت على شؤون البيت.. استريحي، واستمتعي بحياتك».

لكنَّ أمه استراحت للأبد بعد عام... وبكى في وحدته، والوجوه تتزاحم من حوله، والظلال يتراكم بعضها فوق بعضها الآخر.

وكأنه تعود على هذه الوحدة بعد تجربة زواجه الأولى، وبعد فقده المؤلم لأمه/ بَركة عمره وست الحبايب.

يذهب إلى عمله كل صباح، بعد أن يوقظه رنين الساعة التي يضبطها من الليل.. ويعود بغدائه معه من أي مطعم، أو ينام ثم يصحو ليُعدّ لنفسه طعاماً.

ـ (ياه يا «زياد».. العمر يركض، لا زواج، لا أولاد... حتى ولا خادمة تنظف البيت، وتطبخ لك)؟!

طاط، طاط، طاط.. أبواق السيارات من ورائه تدعوه أن يتحرَّك بعد أن أضيئت الإشارة الخضراء.. وكان يعيد ذلك الشريط في مشواره لجلب عشائه، وكثيراً ما استرجعه في ذهابه وإيابه. وقف أمام بائع «الشاورما»، ونقَدَه قيمة «الساندوتش» وقفل راجعاً إلى بيته!

في طريق العودة.. واصل حواره مع نفسه:

ـ يتهمونك يا «زياد» بأنك فقير من الأصدقاء والأصحاب... «يووووه» على رأي الشاعر: «ما أكثر الأصحاب حين تعدهم... لكنهم في النائبات قليل»!

يعرف «زياد» أنه ينتمي إلى عصر اسمه: أنا.. ومن بعدي الطوفان، لذلك فهو لا يلوم أحداً من أصدقائه، أو ممن صاحبوه وقتاً طويلاً ثم انفضُّوا عنه.. «الدنيا تلاهي»، أو لا بد له أن يجد لهم العذر وإلاّ أصيب بالإحباط وبالاكتئاب من كثرة المنفضين الذين لم يسمع أصواتهم عبر الهاتف من شهور طويلة، فما بالك بالذين لم يعد يلتقي بهم؟!

آخر تواصل جاءه من صديق: ورقة وجدها قبل يومين في مقبض باب «الفيلا» من صديق لم يسمع صوته من عام مضى.. كتب له فيها:

ـ «زياد... أعذرني، لم تذهب من خاطري.. لكني صرت متعدد الرحلات. تمنيتك في باريس قبل شهر حين جئت على بالي... معليش يا زياد، أضع لك رقم هاتفي الجديد، أرجوك أن تتصل بي لأنني اشتقت إليك»!

تنهد «زياد» بعد قراءة الرسالة القصيرة، وهمس لنفسه:

ـ «كثَّر خيره.. فيه الخير برضه، أحسن من كثير مثله.. نسوا أو تناسوا، فماتوا في وجداني»!!

في غرفة نومه.. سقط داخل «الكنبة» المواجهة لجهاز التلفاز، بعد أن التهم سندويتشه، وصنع فنجان شاي أخضر له.. ورفع ساقيه وطواهما تحته، وأضاء التلفاز.. حتى يشعر بالنعاس، وقد انتهى يوم آخر من الأسبوع، ومن الشهر، ومن السنة... أي من عمره الذي ينسرب منه بطيئاً ومملاً!!

***

(٢)

* اختلط ليل جدة بالطل، والهمسات الضبابية.

وجه «زياد» يفيض في هذا السكون بالملل، وبالوحدة.

فيلم الغم والنكد على شاشة التلفاز: انتهى بما هو متوقع.. بحيث يُحرم المشاهد من قدح ذهنه، وانتشاء خياله.

أقفل التلفاز... ودسَّ وجهه بين خيوط الضوء المنسربة إلى غرفته من فجوات الستارة... فإلى أين سيذهب بوجهه من هذا السكون؟!

هذا المساء... كان يقص على نفسه حكايته، هكذا يفعل بين فترة وأخرى.. ربما ليتذكَّر أنه ما نال يعيش دون أن يحيا.

منذ موت أمه.. وهو يثق في ذاكرته التي سجَّلت المواقف، والصور، والذكريات... لم تخنه يوماً، وإن كان يهرب أحياناً من هذه الذاكرة حتى لا تحاصره بصدى لا يحتمله، ويفرّ منه كلما تصاعد في نفسه.

كان أصدقاؤه يحسدونه على هذه الذاكرة... حتى أرقام الهواتف يرددها بسلاسة، ولم يحتج يوماً إلى أجندة تليفونات يحملها... ويضحكون في وجهه وهم يقولون له:

ـ ذاكرتك مخيفة. . . فهل تخاف أن تفقد ذاكرتك، أو تتمنى الاحتفاظ بحيويتها؟!

لكنه ـ الآن ـ كمن يقف على أطلال. . أو أن ذاكرته تشبه الأطلال.

يشتاق إلى: «ذكريات زمان»، ويحنّ للماضي.

يعيش أكثر شهور السنة. . منغمساً في العمل، ومسترخياً في صمت الكون من حوله حين يدخل بيته، ويبقى فيه. . لا تصاحبه إلا الوحدة، ولا يحاوره إلا الصمت.

لكنه «يحيا» شهراً واحداً في دورة الزمن. . يقتطعه من السنة، ويسميه البعض: إجازة. . ويسميه هو: انطلاقة!

شهر واحد في العام. . يحزم فيه حقيبته الصغيرة، ويحجز مقعداً في طائرة، ويسوح في أرض الله الشاسعة!

أما في العيدين. . . فهو في عيد الفطر يحرص أن يقسِّم الأيام الأربعة على أهله! وأقربائه. . يزورهم ما بين: مكة المكرمة، وجدة، والطائف. . وفي اليوم الخامس من العيد: يسترخي في صومعته هذه. . يجلس مع نفسه، وخواطره، وأفكاره.

وهو في عيد الحج. . يكون ملبِّياً، ثم يفيض من عرفات، ويذوب في جموع الحجاج. . يتعرّف عليهم، ويدعو معهم. . . لا يذكر أنه ترك الحج ذات عام وسافر بعيداً، لكنَّ هدير الحجيج، وأصواتهم الداعية، ومشهد الشُّعْث الغُبْر: (يخمش) قلبه، كما يصف، ويزرعه فوق هذه الأرض الطاهرة.

كان يحمل أمه معه في كل عام، ويحججها.. وكانت تلهج بالدعوات المستفيضة له:

ـ «روح يا ولدي... ربنا ينوِّر طريقك، ويبعد عنك الشر، ويسبغ عليك الرزق»!

كان يُقبِّل قدميها، ويبكي.. وهو يقول لها:

ـ «إدعي لي يا أمي... رضاكِ هو ثروتي في هذه الدنيا»!

❊ ❊ ❊

❊ طفرت دمعة دافئة من حدقتي «زياد» وهو يشاهد في خياله هذا الشريط من الذكريات والمواقف.

هواياته محدودة... ربما كان من أهمها: القراءة.

إنه يعشق الكتاب، ويعتبر الوقت الذي يجلس فيه للقراءة، هو: موعد عشق لا يمكن أن يشاركه فيه أحد.. حتى قبل موت أمه، كانت تعرف طقوسه هذه مع القراءة وتحترمها، وتقفل عليه باب غرفته بعد أن تزوده بالشاي في «التُّرْمُس».

واستفاد كثيراً من القراءة.. فقد انعكست هذه الفائدة على مداركه ومفاهيمه، فلم يعد يجرؤ أحد أن يقول له: «يا حمار».. وانعكست على تفكيره، فصار يملك رؤية واضحة، ولديه قدرة على إبداء الرأي السليم... وانعكست حتى على مشاعره، فارتقت القراءة به من حيوانية الجنس إلى رقة العاطفة، والحلم، ودفء اللقاء.. لكنه كان يفرُّ من أسْر الرومانسية لوجدانه، لأنه يعتقد: أننا نعيش في عصر مغرق في الماديات، لا تنسجم الرومانسية مع ملامحه.

ـ وقال له أحد أصدقائه في أحد حواراتهما: لكنَّ الرومانسية صارت في هذا العصر المادي كما تقول: ضرورة.. حتى تنتشل عواطف الناس من الجفاف، وحدة الطباع، ووحشة النفس!

وفي كل ليلة... يقرأ، ويحرص أن تكون قراءته للشعر بعد منتصف الليل، رغم فراره من الرومانسية.

ويحرص على ممارسة هوايته الأخرى، وهي: السباحة... وأثناء بحثه عن «فيلا» لشرائها، كان يبحث عن المسبح أولاً، حتى عثر على «فيلته» هذه... وصار وقت سباحته محدداً في اليوم بعد أدائه لصلاة العصر، فهو لا يحبذ أن «يُعسِّل» في إغفاءة ما بعد الغداء، أو بعد الظهر.

ويعتقد أنه بنظام حياته هذا: يستمتع بالوقت، وبتنظيمه لفائدته هو.

لم يفكر في تكرار تجربة الزواج ثانية.. وكان يهرب من ضغوط وإلحاح أقاربه عليه... فهذه حياته التي ارتضاها لنفسه، ويشعر في تنظيمه لها: أنه يمتلك: حريته، ويُعبِّر عن إنسانيته.

ـ سألته عمته في ثاني أيام عيد الفطر من العام الماضي: «أنت مضرب عن الزواج، والا إيه؟!... أصابعك يا ولدي ما هي زي بعض... ما صلحت الأولى، ربك يعدِّلك ويصلح لك الثانية... ها أخطب لك»؟!.

* ويقفز زياد.. ويقول لعمته: «لا... دخيلك، أنا كده مبسوط، وعايش سُلطان».

وتزم شفتيها، وتشيح بوجهها... فهذا الرفض من ابن أخيها لا يعجبها.

ـ وتقول له ابنة عمه الأكبر من والده، وهي تكبره كثيراً وآخت بينهما

الرضاعة: «قول لنا على المواصفات اللي تبغاها في زوجتك، وتأكد أننا سنجدها».

* ويرد عليها: «يا أختي... والله العظيم مبسوط كده، بعيد عن الصراخ والنكد اليومي».

ـ تجادله: «يعني لازم تكون كل زوجة في طباعها وسلوكها زي طليقتك!!.. لا تخلّي التجربة الأولى تعقِّدك يا خويا».

* ينفعل: «تعقِّدني إيه، وعقدة من إيه؟!.. كل ما هنالك أن الزواج قسمة ونصيب، ويوم ما يجي النصيب.. لا تخافي، راح أندبّ، واتهبّب... يعني أتزوج»!

ويطارده هذا الهاجس، وأصداء أصوات أهله.. وفراره الدائم من هذا الارتباط.

نعم... يعرف أن الزواج نصف الدين، ولكنه لا يريد أن يظلم بنت الناس التي سيختارونها له، أو حتى التي سيختارها... لقد تعوَّد على هذه الوحدة.

بعض أقربائه الأبعد، الذين لا يزورونه إلاّ «في الشديد القوي» كما يقولون: ينظرون إليه شزراً، وبريبة.. كأنهم يتهمونه بأنه: رجل عابث، ضد الالتزام.

ـ فهل هو رجل عابث بالفعل؟!

طرح هذا السؤال على نفسه في أصداء الذكريات هذه، وابتسم.. ثم همس:

ـ لو كنت عابثاً.. ما شكوت من الوحدة، ومن صقيع هذه الجدران، رغم الحرارة والرطوبة في الخارج... معليش، مجتمع الهمس والشائعات يبقى خطيراً يُدمّر وشائجه من أعماقه.

سكنه هذا.. يشبه قلعة تاريخية، ويخيّل إليه: حتى حجارتها نائمة.

وقته الضائع هذا ـ بعد العمل ـ يعاني من البلل... لولا أنه يجففه ويطرد بلله حين يلوذ إلى القراءة، وحين يقذف بجسمه في مياه المسبح.

هو رجل متماسك جداً... صراخه يعلو من داخله، فلا أحد يسمعه غيره.

بكاؤه ليس دمعاً... بل آهة، وصمتاً، وتأملاً... وأحياناً يتحوّل بكاؤه في شكل ابتسام!

كل ليلة.. يزعجه رنين الهاتف القابع بجواره، ويرمقه بنصف نظرة، و..... «يخصره»، لا يعير رنينه أي التفات... فهو إما: معاكسة/ من هذه الظاهرة المؤلمة، وهو إما: «رغي»!

ـ «ليس شرطاً... ربما كان من يطلبك لديه موضوع هام»؟!

يقول لنفسه هذه العبارة/ السؤال... ويرد على نفسه:

ـ «لم يعد في حياتي ما يُشكِّل هذه الأهمية... ومَنْ يُهاتفني، لا بد أنه يقصد شيئاً لمصلحته»!

ـ «ولـمَ لا؟!... الناس بالناس يا ولد، أنت تحتاج الناس، وهم يحتاجون إليك... أجب على الهاتف.. لا تكن أنانياً»!!

يحدث ـ أحياناً ـ أن يستجيب، ويرفع سماعة الهاتف، ويصغي:

ـ «هلا زياد... كيفك؟!.. يا أخي مكروب والله، تصوَّر، المقاول ابن الـ......... بعد أن بدأ في العمارة، اختفى، وطاردته ومازلت، ويعتذر بقلة العُمّال، وهو متشعب يعمل في أكثر من عمارة... يا أخي الناس جرى لهم إيه؟!.. أعوذ بالله، كله كذب، وتدليس»؟!

* يرد عليه بعد أن نفث صديقه ثورته: «إنت عارف اللي جرى للناس، وانت واحد من اللي جرى لهم، وجرى عليهم... فضفض يا خويا فضفض، بس.. تقدر تعمل حاجة، تصلح السلوكيات، وتهذب التعامل؟!... روح نام، الساعة الآن بعد منتصف الليل، نزعتني من أحداث رواية مثيرة.. الله يكافيك»!

ـ يأتيه صوت صديقه محبطاً: «يا برودك يا أخي.. رواية؟!.. يا لذيذ يا رايق.... تصبح على دراما يا أخ»!!

يتلفّت حوله بعد أن أعاد سماعة الهاتف.. يتطلع إلى جدار الغرفة، إلى التلفاز المقفل، إلى الرواية التي قَلَب كتابها، وأطل عنوانها: (الجدار)... كأن هذا الجدار ينقصه حتى يقرأه في رواية!

كل شيء حوله ـ كما خيّل له لحظتها ـ أنه: يخفق.. له أنفاس، ونبض.

إنه ـ في وحدته ـ يخاطبهم جميعاً في وقت واحد، وأحياناً يخاطب كل شيء على حدة... فمخاطبة الجدار تختلف عن مخاطبة التلفاز المقفل، عن مخاطبة الكتاب... وفي كل هذه الأشياء، ومن خلالها: يرى ملامح البشر، وطباعهم.. وتتطاير ذرّاتهم حتى تستقر فوق وسادة نومه.

ـ هل هذا انتحار بطيء؟!

وجّه السؤال إلى نفسه. . . ولم يتأوّه، بل شعر أن بخوراً يتصاعد من ضلوعه هو العبق!! سمع ساعة الحائط تدقّ الواحدة بعد منتصف الليل.

النوم يجافيه. . . دندن بصوت خفيض: «أراك عصيّ الدمع، شيمتك الصبر»!

تلك حاله. . . وهو يمتح من أعماقه المعاناة، والدمعة، والصبر.

مزارع الوحدة في صدره. . طرحت ثمار الصبر.

ومع ذلك. . . فهو يملك قدرة رائعة للحسم بعد التفكير.

يتمتع بقدرة كهذه مثلاً: يقول لنفسه: أريد أن أنام. . ويذهب إلى سريره، ويضع رأسه على الوسادة، وبعد دقيقة واحدة يعلو شخيره.

ـ يقول لنفسه: أريد أن أسافر. . . فيخرج من بيته لشراء تذكرة، والحجز، و. . . . يسافر.

كان «يمارس» هذه القدرة التي تمتعه كثيراً، ليؤكد بها: تصميمه، وإرادته.

ورغم أنه لا يستمتع بإجازته السنوية إلاّ «شهراً» واحداً في السنة. . لكنه يختفي أحياناً:

أيام الأربعاء، والخميس، والجمعة. . ليظهر يوم السبت في العمل!

ويسأله زملاؤه بدهشة: أين كنت؟!

ويرن عليه الهاتف. . «يلعلع» فيه صوت أحد أصدقائه: «أين كنت. . بحثنا عنك ليلة الخميس. . علي: كان عنده عشاء، أم أنك كعادتك لم ترد على الهاتف»؟!

ـ يقول له: «مِنْ متى ألبّي دعوات عشاء أو غداء.. ألا تعرفني»؟!

* يرد عليه صديقه: «يا أخي أخرج من عزلتك المصطنعة هذه.. أم أننا لا نعجبك»؟!

ـ يقول له ببرود: «ربما بالفعل لا تعجبوني.. فدعوني في عزلتي»!

إنه لا يُحدِّث أحداً عن حياته الخاصة.. ولا يقول: أين اختفى في نهاية الأسبوع؟!

لكنه يفعل ذلك الاختفاء كل شهرين مرة.. يذهب إلى القاهرة، إلى الدار البيضاء.. ويعود إلى جدار بيته، وسادته الخالية، وكتبه الصديقة، والهاتف الذي يرنّ ولا يستجيب لرنينه في أغلب الأحيان، والتلفاز الذي يفكر في تشغيله في مواعيد الأخبار، أو المسلسلة اليومية.

تستطيب اللحظات في وحدته هذه.. حين يجلس مع ذكرياته، وتأملاته، وحواره مع نفسه ولها.

وفوجئ بعد مغرب يوم برنين جرس باب «الفيلا».. وقام متثاقلاً ليجيب.

يعرف أن فتيان الجيران في الحارة.. يفعلون هذا العبث أحياناً، يضغطون على جرس الباب ويختبئون... فقط لإيذاء الغير!

لكنه حين أشرع باب «الفيلا».. وجد أمامه صديقه الذي حادثه قبل أيام بالهاتف، واشتكى له من المقاول، والكذب:

* أهلاً سامي... تفضل، خطوة عزيزة!

ـ عزيزة مين يا عم؟!.. انت راجل انعزالي، إندياحي، استبطاني، جدراني.

* على هونك... أنت تشتمني أم تمدحني؟!

ـ لا أعلم.. «انداحت» الكلمات بتلك الألفاظ.. فهل تعرف معانيها؟!

* لا عليك... كثير من الكلمات لم نعد نعرف معانيها.. وكثير من المعاني جهلنا كلماتها.. أهلاً بك، شَقّة غريبة.

ـ وبعدين معاك؟!.. في الأول: عزيزة، ودحّين: غريبة... تكون اتزوجت؟!

* لما تكمِّل عمارتك، ويوفي المقاول معاك... أتزوج!

اختفى «زياد» في المطبخ، ليعود بعد دقائق يحمل صينية الشاي والأكواب.

ـ سأله صديقه سامي: «فين الخدّامة؟!.. آه، إنت ما عندك خدّامة، يا أخي بلا قرامة، فكّ الكيس شوية، واستقدم خدّامة فلبينية على الفرَّازة.. خليهم يورُّوك صورتها.. وأهي: تخدمك، وتقوم بتنظيف البيت، و........، أو تقتلك!!

* أعوذ بالله من أفكارك... إطفح الشاهي.

ـ إسمع... إيه رأيك تبيعني هذه الفيلا؟!

* وأسكن أنا فين؟!

ـ لا، لا... ما حتسكن في الشارع، أشوف لك شقة برْحة وهواءها بحري في عمارتي.. الفيلا كبيرة عليك، خاصة وأنك مضرب عن الزواج!

* يادا الزواج . . . يا حبيبي أنا كده مبسوط في عيشتي وفي سكني . . والله عال: واحد شايل ذقنه، والثاني تعبان منها، إسمع انت . . شوف سكة تانية.

ـ أصل فيلتك تلزمني . . أحتاجها، الله وكيلك بعد انحسار «الطفرة»: الفلوس شحَّت، لكنها ماشية بحمد الله . . كام شقة أأجّرها، على كام فيلا . . مستورة.

* لما الفلوس شحِّت . . من فين تدفع لي قيمة الفيلا؟!

ـ لا . . ما تخاف، لي فلوس عند عدة إدارات ومؤسسات، وأطالبهم بها . . لكنَّ الكثير منهم يدّعي: «ما في سيولة»، بس أخلّص فلوسي وادفع لك!

* يا صديقي . . . أهلاً وسهلاً بك، أنستنا يا حبيِّب، عساك طيب، وتسلم . . وما عندي فلل للبيع . . بلاش وجع دماغ.

أوف . . . زفر «زياد» من صدره وهو يقفل باب الفيلا في ظهر صاحبه.

وركض إلى حجراتها . . . كأنه يُطمئن حجارتها، وأبوابها، ونوافذها . . أنه لن يُفرّط فيهم.

* * *

(٣)

* كان «زياد» يتأمل وجهه في المرآة.

يضحك في وجهه، أو على وجهه.. ليس دميماً، بل له ملامح وسيمة، وتعبيراته لمّاَحة.. تجذب إليها.

وجهه... يحتاج إلى باطن كفَّيْ أنثى: يحضنه، يدفئه من ثلج هذا اليُتْم العاطفي.

استمر يضحك وهو يخاطب نفسه في المرآة:

ـ يا هذا الوجه... مجهد أنت، أم يتيم من ابتسامة الفرح، ومن انتشار الحب على قسماتك؟!

ضوء الشارع يتسلل إلى غرفته من فجوات الستارة.

قام... وأحكم إقفال الستارة، إنه يتناغم مع هذا الضوء الخافت في ركن غرفته.. مثلما تنساب موسيقى «موتزارت» في أجواء مشبَّعة ببخور العود الذي يحبه دائماً.

آه «موتزارت»... كيف، والغناء كله اليوم: مبتلي بأصوات نشاز تغطي الأجهزة قبحاً؟!

واصل ضحكه أمام المرآة... في حضرة «موتزارت» وعبق العود!

ـ «ترى.. هل أنا مجنون»؟!

ما زال يضحك... حتى وجد نفسه يقهقه:

ـ «إعقل يا واد يا زياد»!

يخفت ضحكه... تتراءى له: بعض الوجوه العابسة الكريهة: وجه رابين، وكريستوفر، ومحمود المليجي، واستالوني، وقارئة الفنجان العربي!

تراءى له بعض الوجوه التي تدَّعي البشاشة والفرح: وجه الختيار عرفات، والرئيس جيفرسون بيل، ووجه الممثل العربي في أفلام هذا العصر!

تراءى له بعض العيون: عيون المها بين الرصافة والجسر.. فأين الرصافة، ومَنْ نسف الجسر؟!

ـ آه.. أيتها العيون التي تنبلج كفجر نقي بعد ليل شديد الظلام.

أيتها العيون.. السحر الذي يحيل الدمعة إلى ابتسامة.

أيتها العيون.. شلال رؤى مطرّزة بالحلم، وبالدلال!

عاد يضحك.. يقهقه، يتوتر، وفجأة: تناول زجاجة عطر من فوق التسريحة وقذف بها على المرآة.. فدوّى تهشم الزجاج في أرجاء الغرفة.

انخرط على الأرض.. متكوِّماً: يبكي.. يجهش بالبكاء.. يصرخ.. ينادي:

ـ يا أمي... أين أنت؟!

ـ يا حبيبة القلب... من أنت؟!

لو تطلَّع إلى المرآة المهشمة الآن، فلن يرى وجهه.

لو بحث عن مرآة أخرى... فكل المرايا مكسورة... يرى عليها: نظراته المكسورة مثل المرآة، وملامحه المسكينة، وعضلات وجهه المتوترة.

من يحتويه الآن.. يحضنه.. يمسح على شعر رأسه.. يسقيه بيديه ماءً بارداً.. يغسل له وجهه ودموعه؟!

يقفز فجأة... يصرخ:

ـ لا... لست مجنوناً، فقط... أنا يتيم الأم والأب، بل يتيم الحب!

يركض إلى ستارة النافذة، يفتحها، ويقذف بضلفتي النافذة إلى الخارج... يخاطب كل شيء أمامه:

ـ أيتها المدينة التي تغيظ برطوبتها.. بصمتها مثلي.. بهذه الأكوام من الحجارة، والخشب، والتراب: المعالم التي تدل على إقامة عمارة هنا، لن يلتقي سكانها بعد ذلك إلا كالغرباء.

الغربة ـ أيتها المدينة المتباعدة دروبها وطرقها ـ الغربة هي هؤلاء الناس/ النمل... في خطي سيرهم للذاهب وللقادم، كخطين، مستقيمين لن يلتقيا.

الغربة هي: هذه الماديات.. الفلوس، الحجارة، الذهب، الرصيد في البنوك، لذّة التناسي، تحطيم كل ما يصادف المرء في طريقه!

ماذا تبقّى في صدور الناس من حب، ومن كراهية؟!

الآن... لا أحد يحب، لا أحد يكره... اللون الرمادي هو الطاغي.

هذه الأشجار التي غُرست على أطراف الشوارع، وفي منتصفها: كيف تُسقى... والناس يشكون من قلة المياه؟!

ـ «هذه الأشجار تُسقى بمياه الصرف الصحي... يا أبله، ألا تشم الرائحة»؟!!

أيتها المدينة المتثائبة دائماً بحشود السأم.. مَنْ يُحزِّمك لترقصي، فيعرف الناس أنّ لهم أفراحاً؟!

الخطوة: شبر... الشبر قد يستهلك عمراً كاملاً!

ترك النافذة مفتوحة، وأسدل الستارة.

ـ عندما نتحدث عن الحياة... لا بد أن نكون أحياء.

وهو يشعر أنه لم يكن حياً... يتشابه كثيراً مع الـ «رومونت كونترول» الذي يشغل به التلفاز، ويُشغِّل به: عقله وأفكاره حسب مصالحه... والمؤلم: أنه يضطر أحياناً إلى تشغيل عاطفته بهذا «الرومونت»!

فماذا أعطته الحياة.. وماذا أخذت؟!

مبدأ العيش دائماً: خذ، وأعط.

وما يغلب على حياته اليوم هو: العطاء المستمر.. دون أن يحظى بأخذ أبسط الأشياء التي يرغبها!

رياح ثارت من داخل نفسه.. فجّرتها ضحكة أمام مرآة.

هل يعني هذا: أن يتحاشى بعد الآن الوقوف أمام المرآة؟!

ولماذا... والرياح مصدرها: النفس، والملل، وهذا اليُتْم في الحب؟!

إنه لا يريد أن يتحوّل إلى فيلسوف... فقط: يريد آدميته، ويحافظ على إنسانيته، ويحيا أحلامه وطموحاته.

يخيّل إليه في بعض لحظات تفكيره في حياته: أن طموحاته قد أحبطت، وأن أحلامه قد سُرقت منه، وزوّر السُّراق هويتها وملامحها.

خيط الفجر الأول يتقدم إلى حضن السماء.. إشعاع النور من يوم جديد.

فرك عينيه، وقرر أن يغتسل.. وتوضأ انتظاراً لأذان الفجر.

فتح المصحف، وأخذ يقرأ آيات من القرآن الكريم، وقد انسابت دموعه على خديه في صمت.. ولم يكفَّ عن تلاوة القرآن حتى ارتفع الأذان.

شعر كأنّ جسده كله مهشم كتلك المرآة التي حطّمها... آوى إلى فراشه بعد. أدائه لصلاة الفجر، يفتش عن النوم.

❊ ❊ ❊

❊ في منتصف النهار استيقظ على حرارة غرفة نومه... اكتشف أن الكهرباء قد قُطعت، لا يندهش فهذا هو فصل الصيف، وموسم قطع التيار. الكهربائي عن البيوت.

قفز من فراشه وهو ينظر إلى الساعة التي شارفت على الثانية عشرة ظهراً:

ـ «ول...... راح الدوام، خصموا عليك يا واد يا زياد».

يبدو أنه من شدة التعب والسهر.. أقفل رنين الساعة التي ضبطها على موعد صحوه كل صباح، وواصل النوم.

وإذن... ماذا يفعل بقية اليوم حتى الليل؟!

في النهار.. تتسع الغربة حوله، ربما في نفسه.. لكنه في الليل يشعر

بالتوحُّد مع نفسه، ومع أفكاره وتأملاته، كأنّ الليل هو وطنه، أو عائلته.

أمسك ببطنه.. كأنه يريد أن ينقذها من المغص الشديد.

هكذا هو دائماً... يعاوده المغص كلما انتابه شعور الوحدة، كأنَّه في زنزانة، وتراه يمشي في أرجاء بيته قابضاً على بطنه.

ماذا يفعل الآن... هل يذهب للطبيب؟!

يعرف التشخيص.. سيقول له الطبيب: توتر، قولون عصبي، مرض العصر.

أبوه: كان يعاني من ذلك القولون، دون أن يعرفوا اسمه آنذاك.. فهل القولون مع التركة المتواضعة التي خلَّفها والده: وراثة؟!

كانت أمه تسارع حين يؤلمه المغص، فتحضر له (نانخة) من العطار، توفرها في البيت، حتى تجدها فوراً لابنها عندما يثور عليه المغص.

ـ «نانخة الآن... وهل يوافق الطب الحديث»؟!

سارع إلى نوع من الكبسولات سبق أن وصفها له الطبيب، وتناول منها حتى يخف ألم المغص... وربما لا يكون «قولوناً»، لا بأس.. عليه أن يستريح بعد الدواء.

ـ «لو كانت معك زوجة رفيقة.. لرعتك الآن يا واد يا زياد»!

ـ «يا عمي روح... المغص أهون»!.

تعالى رنين الهاتف... لا بد أن يرد حتى لا يشعر الآن بالعزلة وهو مريض:

ـ أين أنت يا رجل... كنا نضبط دفتر الدوام على دخولك للإدارة؟!

❊ أعاني من مغص حاد... أشكرك على اتصالك وسؤالك عني.

ـ يا أخي لا تشكرني... المدير سأل عنك عدة مرات.

❊ إذن... أخبره عن مرضي.

ـ «ها. ها. ها... مريض، وإلا عندك أحد»؟!

❊ «يا بني آدم حرام عليك.. إن بعض الظن إثم، ألم تلاحظ صوتي»؟!

أنهى المحادثة السمجة مع زميله الغِتت في العمل وفي الهاتف.. وهمس في داخله:

ـ «علشان كده.. أقول ما أرد على التليفون... ولا على نوع بشر».

كبسولة الدواء.. فعلت مفعولها، ارتاح كثيراً، وكأنه قادر لأول مرة على التنفس، بل والتأمل، والعودة إلى الحديث الدائم الذي لا ينقطع بينه وبن نفسه.

عاوده صوت زميله الغِتت متمهلاً عند عبارته الشك: «مريض.. وإلا عندك أحد»؟!

ـ «أحد مين يعني... وفين»؟!

يشعر الآن بالجوع... عليه أن «يتخطّر» قليلاً، ويدخل المطبخ، ويعدُّ وجبة الغداء... في نفسه أن يطبخ اليوم بعد تلاشي الألم، ولكن عليه أن يختار ما يأكل.. مثلاً: شوربة خضار، فتح الثلاجة فلم يجد فيها الخضار.. لا بأس، شوربة عدس.

ـ «آه... والله فكرة، غذاء الأصحاء الفقراء.. مع كبسة رز..... الله».

ما نصنعه بأيدينا... نتحمل نتائجه ولا نشكو!

لكنه طبخ شوربة لذيذة... وأكل، وشبع، وحمد الله على النعمة والعافية.

عليه أن يرتاح الآن في هذه القيلولة.

«تعسيلة» بعد الظهر.. لا ينصح بها الأطباء، وترفضها الشعوب كثيرة الإنتاج... إنهم يعملون من الصباح حتى بدء المساء.. ويتناولون الوجبة الكبيرة.

حاول في أكثر من ظهيرة أن يهرب من تلك «التعسيلة» التي تُكسّر الجسم، ولكنه يقع فيها كثيراً أيضاً.

استرخى بعد تلذذه بالشاي الأخضر.. هو ضد التدخين الذي يُعطب القلب.

من جديد.. استطرقته عبارة زميله في العمل: «مريض... والاّ عندك أحد»؟! صحيح... إنه لم يفكر في «المرأة» منذ تجربة زواجه الأول.

كيف كان يعيش، ويتفوق على رغباته؟!

هل هو رجل كابت لنفسه.. مكبوت بإلغائه لهذا الجانب الهام؟!

لم يفتش عن أنثى... حتى أنه لم يفتقدها في حياته، ولكن..... حتى الحيوان يحتاج لنصفه الآخر، حتى الأشجار تتلاقح.

هل هو رجل مريض، أو غير سوي؟!

ـ «أعوذ بالله... ليه أفاول على نفسي؟!... هادا الكلام: فاول»!

ـ «هل هو رجل بائس حقاً... قال إيه، ويتهمه البعض بالرومانسية، صح.. رومانسية مع وقف التنفيذ»!!

عند رؤيته للأفلام.. كثيراً ما كان يتوقف أمام جمال أنثى: وجهها، أو قوامها، أو سحر العيون، أو قوة الجاذبية.. فهو «يفهم» في الأنثى، ولكنه جعلها كالغول، والعنقاء، والخل الوفيّ... وقذف بها في أودية النسيان.... فهل استراح؟!

صدَّ العديد من المحادثات الهاتفية الـ...... رومانسية.

ـ يقول: «ما هي نتيجتها... وجع القلب، وعوار الدماغ»؟!

ولكن... أين: المشاعر، وخفقة القلب، وجحافل الشجون التي يفيض بها صدره..

مع آلام المغص من الوحدة، بل من العزلة، والامتناع عن ممارسة وظائفه الفسيولوجية؟!

أية أنثى سيختار؟!

هل سيحب في البدء؟!

الحب... لا اختيار فيه، لكنه يقود كل الأحاسيس إلى إنسانة لا غيرها.

قام يركض إلى المرآة... أوه، لقد نسي أنه هشمها.

مرآة الحمام... هذا وجهه، شعره سيزحف إليه البياض.. فمتى يتزوج، وينجب، ويربي.. قبل أن يموت؟! «يا هَنَى مين يعيش»!

ـ "يا سيدي... الأعمار بيد الله، فهل تقبل بي فتاة في العشرين؟!

الدُّهن في العتاقي يا سيد... اتكل على الله، وشوف..

حيشوف... الصباح رباح»!

والصباح الذي سيقرر فيه الإقدام على هذه الخطوة الجريئة بالنسبة له.. ربما كان في الغد، وربما جاء بعد نصف عام، أو اكتمال سنة... المهم: أن رأسه اتحد مع قلبه وانتفضا معاً!!

* * *

(٤)

* قادته خطواته إلى سيف البحر . . . هذا «الكورنيش» الممتد من أضواء «أبحر» التي توصوص من البعيد كالنجوم، إلى أضواء الميناء الصفراء. . . يذرعه في الليل مئات البشر: مَنْ أصابه الملل، ومن رغب في نزهة مع عائلته بعد تعب النهار، ومن فاض به «القرف» فلم يعد يدري ماذا يريد، ومن تكالبت عليه هموم لقمة العيش، أو هموم الانسجام مع الناس.

زحام شديد. . يتزايد أكثر في مسائي الأربعاء، والخميس/ الإجازة. . . الشباب ينطلقون بسياراتهم: صخب يراه حتى في التعبير عن العواطف، وفي التدليل على «الطَّفش».

ـ «أين يذهب الناس؟!

صحيح. . . فكيف نلوم الشباب دون أن نوجد لهم البديل. . كالأندية مثلا»؟!

شرائح أخرى من الناس. . اقتعدت الرصيف المشرف على البحر، و«الموجة تجري ورا الموجة» في غموض الليل، وبياض الموج، وهدير البحر!

ملكوت رائع وعظيم ـ يا أي فلان ـ يفسد هذا الصخب الذي تشكّل

من أصوات السيارات التي يقوم أصحابها باستعراضاتهم.. ومن النظرات الجائعة التي تختلس النظر إلى ملاحة أنثى، أو غموض شكلها خلف عباءتها.. ومن عربات الباعة المتجولين «بالبليلة» أو الآيسكريم.. ومن أصوات الأطفال المنطلقين.

اختار «زياد» بقعة رملية بعيدة قليلاً من هذا الكرنفال الشعبي، افترشها وحيداً، مقابلاً للبحر الفسيح/ العميق أمامه... واصطحب معه جهاز تسجيل تصاعد منه صوت مَنْ كانت «كوكب الشرق»/ أم كلثوم.. وهو يصدح بإحدى أغانيها الشجية الشجنة: «ياللي كان يشجيك أنيني»!

البحر أمامه: بساط مخيف.. يحصد كل تلك الأضواء التي تتجمع من أبحر، وامتداد الكورنيش، والميناء.. وتتماوج على سطحه بلا تعب!

هذا الامتداد الذي امتزج فيه سواد الليل ببياض الموج المندفع نحو الشبج.. لا يفلسفه «زياد» بالغموض والأسرار، بقدر ما يتأمله، ويستغرق فيه، ويغرق.. لأنه يولّد عنده أسئلة مختلفة، وتشكيلاً رائعاً لعظمة الخالق، واستخلاصاً لطيبة النفس البشرية التي تتشابه مع هذا البحر في: المدّ والجزر، والأسرار، والأمواج، والعمق، والغدر، وجمال الزرقة اللانهائية.. كأنها تتحد مع زرقة السماء. !

كأنه هو الآخر يتحرر من افتراس الأفكار له، وقد جذبه «التأمل» إلى فلسفة الوجود والكون.. وأغراه كثيراً بالدخول الأعمق إلى ذاته، لعله يحصر إحباطاتها، ويلاحق الأماني والأحلام كفراشات الربيع في صدره، رغم شبه العزلة التي سوّر حياته بها.

ماذا لو كان صيّاداً/ نوخذه... هل كان قد عرف أسرار البحر،

والموج، وهذه اللانهائية والعمق معاً في زرقته؟!

كل إنسان هو صيّاد.. لرزقه، ولحظِّه، ولمواهبه.

قناعة.. لا بد أن تستقر ـ في النهاية ـ داخل الإنسان... حتى يكسب منها: نقاطاً مضيئة كهذه التي تمتد من «أبحر»إلى الميناء عبر امتداد الكورنيش.

* * *

* عندما يكون وحده في البيت.. يفلسف وحدته تلك بأنها: الغربة من داخل النفس.

وهو الآن يتلفّت، ويرصد هذه ـ الوجوه المتلاطمة كالموج... فيشعر ـ أيضاً ـ بالغربة، ولكنها هذه المرة: غربة من خارجه، وحوله، وتنعكس على واقعه وتعامله، وتُلوِّن مرئياته واحتكاكه اليومي.

إنه يلتفت بحثاً عن «سحنة» تنتمي إلى سحنته.. إلى طين هذه الأرض، ويكاد لا يرى أحدا يدفئ وجدانه ونفسه بالألفة.. لأنه لا يرى أحداً يعرفه، أو من أهل وطنه!

أبصر من مكانه الذي تباعد فيه عن الزحام: تجمعاً حول البقعة التي ثبّتت فيها «بلدية جدة» مجموعة ألعاب للأطفال، وكأنها خناقة.

دفعه الفضول الذي يصيبه مرة في العام، وركض نحو ذلك التجمُّع يستطلع الخبر.

وهناك سمع الحكاية: أطفال يلعبون، ويتسابقون للفوز بلعبة من تلك الألعاب.. واشتبكوا، فجاء الآباء والأمهات، و..... اشتبكوا، والناس:

بين متفرج سلبي، ومحاول أن يفض الاشتباك ولو بأسلوب تلك (الفرعة)!

ضحك «زياد» وأصوات الآباء والأمهات المتشابكين: تشتبك بسمعه.. ولا صوت يتكلم اللغة العربية، ومن أراد أن يتكلم ليُشهد المتفرجين: كسَّر فيها حتى قتل سيبويه مرة أخرى!

وجاء البوليس.. وتفرّق الناس، وانتهت (الفرعة).. وعاد «زياد» إلى بقعة الرمل التي استقبلته وحيداً، وقد نسي في ركضه نحو الخناقة: جهاز تسجيله.. ولكنه لم يعثر عليه بالطبع.

لملم غيظه، وصمته، وهذه الحصيلة من نزهة الكورنيش، وقاد عربته خارجاً بها من زحام السيارات بصعوبة.

ـ ترى... أين يذهب الآن؟!

شعر بالجوع.. فانعطف إلى شارع معروف بتكاثر المطاعم فيه.

لا يرتاح لتناول وجبته داخل مطعم وهو بمفرده.

في المطعم أثناء انتظاره لتجهيز طلبه من الطعام.. كان يقف إلى جواره رجلان، ليسا من سحنته ولا طينته أيضاً.. صوتاهما يعلوان بجانبه:

* قال الأول: أخبرني الكفيل بأن أعماله تقلَّصت، وليست لديه فلوس.. فإذا رغبت في نقل كفالتي منه إلى شركة، أو أي مكان، فهو لا يمانع.. فهل تتحدث مع كفيلك عني؟!

ـ أجابه الآخر: ولكنَّ أعمال الشركة التي أعمل فيها مختلفة عن عملك،

* قال الأول: أرجوك... ممكن أعمل أي شيء، لا أريد أن أعود إلى بلدي!

ناوله البائع لفافة عشائه... ليخرج من المطعم مباشرة إلى عربته، متجهاً نحو منزله.

ـ معقول... وكيف لا يعيد الكفيل الأصلي عامله إلى بلده؟!

سمع أحد زملائه في العمل يقول ذات مرة: أن هناك أشخاصاً يطلبون عشرات التأشيرات من دول معينة، ويستقدمون عمّالاً منها، ويطلقونهم في البلد «يسترزقون» حسب شطارتهم، في مقابل أن يدفع كل عامل لهذا الكفيل مبلغاً محدداً في نهاية كل شهر!!

ـ ماذا جرى للناس؟!

سقط منه هذا السؤال على التراب وهو يقفل باب عربته، ويفتح باب منزله... يحمل لفافة عشائه.

* * *

* إنها الساعة الحادية عشرة ليلاً... عبق شجرة «النيم» التي زرعها في حديقة منزله: ينتشر عطراً.. يتسلل من النافذة القريبة.

نصحه البعض أن لا يغرس شجرة «نيم».. فأوراقها التي تتحَتْحت: غزيرة، وجذرها يمتد عميقاً إلى الأرض، وربما يضر بالعمق.

يحب رائحة «النّيم» أو شجرة الليل التي لا تمنح هذا العبق إلا في الليل.

خرج إلى الحديقة.. هذا المساء انحسرت الرطوبة، مفسحة لنسمة هواء عليل.

هذه المدينة لا تعرف الشتاء، ولا ينتعش فيها الربيع... لذلك هو «يفر» في مثل هذا الوقت من السنة إلى الخارج.

إنه الفصل الذي يحبه في أوربا: الخريف... وربما خالف الكثير من الناس الذين لا يحبون الخريف، والبعض سخر منه، لكنَّ الخريف: له همس بين أضلع «زياد».

ـ لا بد أن أبدأ في طلب الإجازة السنوية، وأرتب برنامج رحلتي.

أين يذهب هذا العام؟!

يحب «باريس»... لكنه يخاف.

هذه العاصمة الفرنسية الجميلة/ عاصمة الثقافة ونور الفكر.. صارت موحشة بسبب تعدد حوادث الإرهاب فيها.

حثالة القرن العشرين: تطفح بهذه الظاهرة التي أخذت تتفشّى في العالم.. حتى في أوطان المسلمين الذين يقتلون بعضهم البعض بادّعاء الإصلاح، والعودة إلى الدين!!

جلس «زياد» تحت شجرة «النيم»، وهمس:

ـ الإسلام العظيم... لم ينتشر بالإرهاب، ولا بقتل الأبرياء والأطفال والنساء.

بعض فتوحات الإسلام.. تحقق بالحرب التي لا تطعن في الظهر، ولا تقتل في الغفلة.

بدأ يكلم نفسه كالمجنون:

ـ «وأنا مالي... اللهم احفظ لنا أمننا.

طيب... أروح فين؟!.. بهوت بالدولار الإمبراطور، والسعر نار.. ولو أنني أشتاق كثيراً إلى الجبل، وشجرة الأرز، وشلالات المياه هناك.. وغزل الطبيعة للإنسان.

أروح.......... هناك (!!)، لا، لا، لا... صارت الإجازة «هناك» شيئاً مقرفاً أولاً، ثم مُتعباً»!!

أجّل خياراته إلى الغد، والأيام القادمة.

الليل: يحرره من السأم والقرف.. وإن كان يكرّس لديه: الهواجس، ومحاصرة التوقعات في يومه الجديد.

في مكان ما من أرض الله الشاسعة: سيختفي شهراً، أو أقل.. حسب الصحبة التي تنبعث له كالحظ.

في السفر، والركض بين الأمكنة: يتجدد نفسياً.. يشعر أن هذه الانطلاقة لا تنحصر في ساقيه فقط.. بل في أفكاره، ورؤيته، وحتى في وجدانه الذي يصاب أحياناً بالتكلُّس.

البعض من الذين يواظبون على السفر في الإجازات والصيف.. ينحصر اهتمامهم في التسوُّق/ كل النساء.. وفي السهر، و............/ كل الرجال.

والبعض: يفلسف السفر بالمتعة فقط... وتفسير المتعة يختلف من شخص لآخر!

الناس في السفر: يعرفون أنفسهم من الداخل لفترة محدودة.. وهو أحد هؤلاء: يعرف نفسه، بل ويجدها... ربما لأنه طوال العام ينغمس في العمل، ويغمسه الفراغ فيه.

لكنَّ «زياد» لا يعاني من الفراغ... لديه القدرة على حشد وقته بما يعتقد أنه يستفيد منه، حتى لو كان: تأملاً، وحواراً مع نفسه!

يبتسمم وهو يتذكّر كلمات ابنة عمه/ أخته بالرضاعة، وهي ترفع صوتها الحاد في سمعه وتقول:

ـ «والله راح تتجنن يوماً ما.. انت ما تزهق من الرغي مع نفسك، ولا من وجهك على المراية... هبْ عليك يا شيخ، والله ما أتمنى أسلوبك هادا.. في رأي إنه: بلادة».

عودته هذه الخدينة على الصراحة، و«التلبيخ» له كلما رأت ما تظن أنه من الأخطاء البشعة.

❊ ❊ ❊

❊ عيناه تومضان بالبلل.. تماماً كانعكاس الضوء على ورقة شجرة غسلها المطر.

ليست هناك في عمق عينيه: صورة محدّدة، لكنَّ رؤيتهما واضحة من وضوح تفكيره.

ـ قال: «وليكن مثل هذا الجنون الذي يثير أختي... إنّ قلة من الناس تستمتع بهذا الجنون العجيب».

أحياناً... يصبح الوضوح مع النفس، وبالتالي مع الناس: جنوناً في

تعريف الذين تعوّدوا على الغمغمة، واللجلجة... هو لا يغمغم، بل يصرخ، يتحدث مع عقله ووجدانه بصوت مرتفع.. قد يسمعه مَنْ حوله، أو مَنْ يعاشره.

وفي طريق العودة من نفسه كل ليلة... يكون جهاز تكييف غرفة نومه في أعلى برودته، وإلاّ جافاه النوم.. ويسحب «اللحاف» فوقه، يتغطّى به كاملاً، وينام... وقد فعل!

❊ ❊ ❊

(٥)

* جلس على الكرسي الملاصق لمكتب رئيسه في العمل، وبيده ورقة.

ـ قال له: جئت أطلب موافقتك على منحي إجازتي السنوية.

رفع رئيسه رأسه عن الأوراق، ونظر إليه من فوق نظارته ذات النصف زجاجة، وقال له:

ـ لكننا لا نطيق فراقك شهراً.. وأنت موظف «شغِّيل» وكفء، وعملك يتعطل.

*أشكرك على هذا الإطراء.. لكني في حاجة ماسّة إلى أن أفارق نفسي قليلاً... فقد مللت من عشرتها أحد عشر شهراً، وأريدها تنطلق بعيداً عني، وعن أفكاري المعتادة التي دائماً ما نتجادل عنها أنا ونفسي.

ـ لكنَّ الإدارة تعاني من نقص في الموظفين والعاملين... والميزانية لا تسمح بأن نملأ الوظائف الشاغرة، وعلينا أن ننجز أعمالنا بهذه الإمكانات المحدودة.

* أرجوك... لو بقيت أكثر من ذلك، فلن تستفيدوا مني شيئاً.. سيكسوني التبلُّد، ويفيض القرف مني، ويزداد رفضي لأشياء كثيرة دهستني بعجلات السأم... «اللي نصبح فيه، نمسي عليه».

ـ حسناً. . . وأين وجّهت بوصلة سفرك؟!

* صدّقني. . لم أحدد حتى الآن، فهل تقترح؟!

ـ ربما لأنني ألغيت سفر إجازتي هذا العام. . لم أفكر في المكان، لكنَّ الأمكنة: تنادي أصحابها ـ كما يقولون ـ وإجازة سعيدة.

كأنه يلتصق بنفسه. . . هو الآن ذلك الطفل الذي انبعث من أعماقه، يريد أن يتجدد. . . أن يركض، بل ويرفس، وينطلق إلى حبة مطر تُرقرق هذا الجفاف في وجدانه.

ترى. . إلى أين يهرب من هذا الجفاف، والصمت، والوحدة؟!

إلى الغابات، أم إلى الأنهار. . إلى الأمطار، أم إلى زقزقة العصافير؟!

ليس شاعراً، وإن تمنّى وحاول ذات مرة أن «يُشَخْبط». . وبعد أن أعاد قراءة ما كتبه، قال لنفسه:

ـ «ربنا اسمه: الستَّر. . . حذار أن يراها جنس مخلوق»!

ولعله مزّق الورقة. . فهو لم يعد يذكر!

الآن. . . كل شيء في داخله يتقافز، «ينطنط». . يغرق ويطفو.

ـ «ولكن. . . إلى أين ـ يا واد يا زياد ـ إلى أين»؟!

في لحظة ـ لا قبلها ولا بعدها ـ سيكون هناك. . . أين؟!

إنه حتى الآن لا يعلم. . ويضحك وهو يستعيد مشهد «عادل إمام» في مسرحيته، يقول: «أنا هناك. . تعالي هناك». . . وهو لا يعرف إلى «هناك» أين؟!

«زياد» يفرح بالسفر.. فهو طفل كبير وربما لأنه «بيتوتي» لا يحب أن يخرج من بيته كثيراً.. يسكن مع نفسه، فإذا حان موعد السفر: انطلق في.... تلك اللحظة!

* * *

* الصدأ... الصدأ... الصدأ:

إنه يغمر كل نفسه... بل وشعر بهذا الصدأ يؤثر في أعضاء جسده.. فهو ـ تارة ـ يشكو من صداع، وتارة يشكو من آلام عظامه.. وفي زوايا نفسه: أشياء ترابية علقت بضلوعه، ولا بد أن يزيحها وينظف ضلوعه... فإذا نظَّفنا ضلوعنا ـ أي مشاعرنا ـ نجحنا في تنظيف أفكارنا من تلك الأشياء القبيحة: كالحسد، والبغض، وهمّ مراقبة الناس الذي يقتل!

هذه العمارات الشاهقة التي بنيت على امتداد المدينة، وحتى في شوارعها الخلفية... لم تعد تتصف بمعنى: السكن.. بقدر ما صار القاطنون فيها يعانون من الضوضاء والصخب في الشوارع، ومن تلوث الجو، أو البيئة كما يقولون، ومن المجهول كلما قاد رجل سيارته.. فالخارج من بيته: مفقود، والعائد إلى بيته: مولود... فالحوادث بلغت إلى إحساس الناس، وتفوقت على مضمون الخبر!

ضياع... يختلط أحياناً بهذا «الإسفلت» الأسود، المحفّر في بعض الشوارع.. كأنه يؤثر في تشكيل تماوج النفس الإنسانية.

ـ «يا سيدي.... الرزق هو الأهم، وهو من عند الله عز وجل».

همس «زياد» بهذه العبارة في قفلة مشواره من إدارته إلى بيته... مروراً بما التقطته عيناه من شوارع، ومبان شاهقة، وإسفلت لا يكون «طريقاً» في بعض الأحيان.

خطوة إلى داخل بيته... تُرى: أي الخطوات يتذكّرها الإنسان، أو أنه لا ينساها أبداً؟!

خطوة مؤلمة في حياة «زياد»، لن ينساها أبداً مهما مضى عليها الزمان.. تلك الخطوة التي دفعت قدميه إلى داخل بيته، بعد أن دفن جثمان أمه وعاد من المقبرة، وكأنَّ الدموع جفّت في عينيه.. وكان يحتاج إلى البكاء ليخفف مصابه... واستمر في ذلك الذهول حتى مساء اليوم الآخر، حين تفجَّرت الدموع من عينيه، ولكنها استقرت في قلبه.

دخل غرفة نومه: منتشياً... وعليه أن يبدأ في تحديد «النقطة» التي ينطلق إليها في السفر.

أخرج جواز سفره من حقيبة يده التي تشهد على كثير من رحلاته، وجولاته.

استمتع كثيراً.. لكنه كان يفرُّ من العبث، لعله كان يبحث عن: غناء روح، فيصطدم بوجوه كالأظافر، وبنفوس كالشهب... وهو الذي يهدهد العاطفة بين جوانحه دون أن يعلن عنها أو تكشفه من الداخل.

هناك «صور» أخرى.. أضافها إلى «ألبوم» حياته، أو ذكرياته.. بعضها بهتت الملامح فيها وبعضها الآخر: يكاد يخرج من الإطار أو الألبوم، ليتحدث معه!

ـ «أوه... الألبوم، أين هو»؟!

اشتاق إلى تلك الصور داخل الألبوم التي: أسعده بعضها، وأحزنه بعضها، واستقر بعضها في حشاشته لا ينمحي أبداً!

فتح ضلفة الدولاب المثقل بالكتب، وبأوراقه الخاصة، وبعدة ألبومات حفظ صور ذكرياته فيها.

أخرج الألبومات، ووضعها على «الكومدينو» بجانب السرير.. حتى يحين موعد لقائه مع نفسه «عندما يأتي المساء، ونجوم الليل تظهر»!

❊ ❊ ❊

❊ وأخيراً... حل موعد الإجازة السنوي.

نعم... إنه يحتفل به، ويشعر حين ينطلق إلى السفر كأنه: صاروخ يكتشف القارات، أو كأنه قوس قزح ينتشر في سماء العمر.

إنه يخرج من هذا الروتين الممل لبرنامج يومه الذي تعوّد عليه حتى البلادة.

لا شيء يستطيع أن يفعله هنا.. يقوم به، أو يجلس، أو يطير.. الأشياء مدجَّنة في التعوُّد الصامت حتى الخرس.

كل صباح.. يستيقظ من نومه على منبّه الساعة، لا يفطر ـ كما تعوّد أيضاً ـ يخرج من بيته، يدخل سيارته، يخرج منها، يدخل الإدارة، يخرج منها، يدخل مطعماً، يخرج منه، يدخل بيته.

نادراً ما تقوده قدماه إلى «شلة» مجتمعة في بيت صديق أو زميل في العمل.. يؤجل ذلك إلى: مناسبة زواج، أو عزاء، أو حتى «طهور»...

الواجب لا بد أن يقوم به، ولا يبقى وقتاً طويلاً.

هذا اليوم يبدو سعيداً بموافقة رئيسه على الإجازة.. عليه أن يحتفل.

قرر أن يذهب إلى زميله في العمل «أسعد» وشلة بلوت، والتقطيع في خلق الله... من زمن بعيد لم يُرغم نفسه على سهرة نميمة، فهو ينفر من هؤلاء المشّائين بنميم.

لكنه سيذهب الليلة إلى دار «أسعد».. تهفُّه نفسه على «صكة» بلوت، و«الكوجراتي» المشهور به مجلس زميله أسعد، فهو لا يقدم الشاي ولا القهوة.. فقط «الكوجراتي» الذي يقيم له دعاية في سهرته بأنه: يُصفِّي الدم، ويخفّض الكلسترول!

ـ «يا واد يا زياد... مالك وللنميمة، وتضييع الوقت في البلوت ونرفزته»؟!

لا.... سيذهب، خمسة تفاهة لا تضر.. خاصة وأنه يعيش اليوم وبعض الليل في وحدة، وصمت، ومخاطبة الجدار... وهو الليلة يحتفل بقرار الإجازة، فلا بد أن يغتسل قليلاً من الصمت، والوحدة ليكون «فِرشًا»، حتى لو غضب أنصار الضاد!

كأنه الليلة سيخرج من جحره الذي لا يزوره فيه أحد إلا نادراً، ولا يبرحه هو إلاّ نادراً...

لا بأس بليلة واحدة يُسخّن فيها للرحلة القادمة بعد أيام.

بعد أيام؟!!

نعم... غداً سيذهب بالجواز إلى السفارة لأخذ التأشيرة، ثم يحجز ويقطع تذكرة.

ولكن. . . إلى أية سفارة سيذهب؟!

وما دام هناك تأشيرة. . . فلا بد أن الوجهة ستكون أوربية، فأكثر الأقطار العربية ـ والحمد لله ـ لا تطلب تأشيرة لدخولها. . وإن بدأ البعض في إعادة التأشيرة بعد حوادث الإرهاب، والتخريب. . . أي أنه: تخريب في الوشائج وصلة الدم بين العرب فيما بينهم.

مع حلول المساء. . . قاد عربته إلى منزل زميله «أسعد» وقد تكاثرت السيارات أمام باب فيلته. . ربما عدد السيارات أكثر من عدد الزائرين في الداخل، باعتبار أن الكلمة الساخرة تقول: لا ممكن أن يقود الشخص سيارتين في وقت واحد. . . . لو تمكّن»!!

دلف إلى الباب الداخلي، وبمجرد أن دفع به. . اندفعت إليه أصوات «البشكة» المختلطة، المتنافرة كالعادة.

كان لا بد له أن يرفع صوته الخفيض دائماً، حتى يسمعه مَنْ في المجلس:

ـ السلام على من اتبع الهدى.

البعض التفت إليه، سمعه فردّ عليه السلام. . والبعض الآخر سادراً في النقاش الصارخ، ولاحظه زميله صاحب البيت «أسعد» فقفز من مقعده مرحِّباً به:

ـ «هلا والله. . . عاش مين شافك أيها الانعزالي»!!

❊ «هلا بيك. . ما هذا الصخب؟!. . . يا أخي/ كل مكان أذهب إليه صار صاخباً، لذلك. . لم يعد أحد يسمع، لأن الكل يتكلم»!

ـ سمعت أنك قررت السفر في إجازتك السنوية... أين ستتجه؟!

* صدّقني لم أقرر بعد.... الليلة ـ في حواري مع نفسي ـ سأقرر إن شاء الله.

ارتفع صوت أحد الأفراد «البشكة» أعلى من كل الأصوات، قائلاً:

ـ يا جماعة.. من فضلكم، خمسة صمت.. حتى ننظم الكلام.

* رد واحد آخر من مقتعدي الأرض في حلقة «البلوت»: «نظم يا خويا، واحنا مالنا... وإلا أقول لك: تعال العب بلوت، تِنْجلي.... قال ننظم قال»!!

ـ أصرّ المتكلم على توصيل ما يريد قوله.. فوَاصَل كلامه: يا جماعة... الجرائد تكتب كل يوم ولا أحد يردّ إلا مَنْ رحم ربك، وعلى سبيل المثال: المناهج والمقررات الدارسية.. والله إني أشفق على حال ابنتي الصغيرة في أولى ابتدائي، وهي تحمل حقيبة ثقيلة على جسمها الصغير وأيضاً على عقلها الصغير واستيعابها... فأين هو التعليم المتطور.. هل هو في كثرة المناهج؟!

اختلطت الأصوات ثانية، عادت إلى التصادم.. الكل يتحدث.

تسلل «زياد» من المجلس في انشغال «البشكة» بالصراخ.. وركض إلى عربته متجهاً إلى بيته... وهو يزفر:

ـ «أفْ... علشان كده لن يتفق العرب، صاروا أكثر من الهنود»!

* * *

* لم يُبدِّل ملابسه بعد... فجأة تحوّل البيت إلى ظلام دامس.

مرة ثالثة في هذا اليوم والليلة.. يُقطع التيار الكهربائي، احتفالاً بحلول فصل الصيف. أخذ يتلمس طريقه إلى المطبخ بحثاً عن شمعة تضيء هذه العتمة.

ـ «الله... ما أجمل السهرة على ضوء شمعة، إنه عودة عصر النقاء، والبساطة، بدون تعقيد الحياة»!

ولكن... أي نقاء وبساطة في هذه الرطوبة التي تنقع الناس؟!

إذن... الفرار، إلى حيث المناخ البارد، أو الربيعي.. إن أمكن!!

* * *

الفصل الثاني

(١)

* صوت الطائرات فوق «فيلته» يتردد بين فينة وأخرى.. بيته كالمحور: يودع الطائرات التي أقلعت، ويستقبل الطائرات التي ستهبط.. لقد تعوّد على هذا: الإقلاع والهبوط!

القمر يتوسط السماء: بدراً... يتموّج ضوؤه كبحيرة فِضَّة.

وفي رأس «زياد»: زحام من الأفكار، والأشياء، والوجوه.. كلها تقرع عدة بوابات في رأسه، وفي صدره... بعضها مشرع على مصراعيه، والبعض الآخر: مغلقاً على أسراره.

يريد أن يتخلص من هذا الزحام المتراكم.. أن يُصفِّي الذهن والصدر.

يريد أن يهتف لشيء ما محدد.. لشخص ما يختلط في النفس مع الدم!!

ما هي ـ إذن ـ فلسفة: أن يتعذّب الإنسان بشيء، أو بفكرة، أو بخفقة.. وأن يفرح بهؤلاء جميعاً؟!

الفلسفة تكمن في: تحديد ذلك الشيء، أو تلك الفكرة.. والتأكد من

تلك الخفقة كإحساس صادق لا يتأثر برغبة عارضة.

أضاء غرفة نومه التي ضربت الفوضى أطنابها فيها:

السرير: غير مرتَّب، والغطاء نصفه على السرير ونصفه الآخر على الأرض: (عزوبية ليست مغرية كثيراً)!

زجاجة ماء صحي فارغة، وعلبة بيبسي.. على الكوميدينو.

الغرفة تحتاج إلى كنس وتنظيف... فعل ذلك فوراً كيفما اتفق.

توقف أمام جهاز التلفاز يتطلع إلى صورة «أمه» التي اختار سطح التلفاز مكاناً دائماً لها... قبّل الصورة، وهمس: وحشتيني.

ألقى بجسمه الممتلئ قليلاً في داخل «الكنبة» المواجهة للتلفاز، ليست لديه رغبة في رؤية العالم عبر هذه الشاشة... الدماء صارت تغطيها من خلال الأفلام والأخبار!

استدار بجسمه إلى دولاب الكتب خلف ظهر «الكنبة»، وأخرج منه «ألبوماً» كبيراً يضم صور رحلاته المتعددة.. ومازال في ذهنه السؤال الذي يحيره: إلى أين يذهب ويمضي إجازته؟!

حاجته الآن إلى السفر تلكز انتظاره.. والرغبة منحصرة في الانطلاق فقط.. في استمتاعه بالحرية الشخصية: ينام وقت ما يحلو له، ويصحو متى أراد.. يخرج، يبقى... انطلاق يشعر فيه بحرية قراره، وبتجرده من التزامات الوقت.

مِنْ تراكم الوحدة عليه، وعلى وقته الطويل الطافح بالسأم.. صار يخاف أن تنبت له أنياب كالوحوش من هذه الوحشة.

ها هو جرَّب هذه الليلة: أن يخرج، ويسهر، وينضم إلى رفاق وزملاء.. فما الذي كسبه من هذه السهرة؟!

لا شيء... لا، بل خسر الوقت، كأنه كان يدور حول نفسه، وأصوات الصارخين تدور حوله.. وهو يحاول ـ بجهد مرهق ـ أن يتلمَّس في هذه الأصوات: ماذا يريد أصحابها؟!

الكل يشكو من أشياء.. ويفعل أشياء أخرى يشكو منها الآخرون.

ومَنْ الذي يُصلِح.. ومَنْ الجدير بالتنبيه؟!

لا بد أن لجدار غرفته آذاناً تسمع حواراته الخافتة مع نفسه... فهي إما حجارة صماء بالفعل، أو حجارة أصابتها عدوى الشكوى والملل كالبشر، أو حجارة «تعوّدت» على زياد، مثلما تعوّد هو على خرسها!

ليفتح «ألبوم» الصور، ويسترجع منها أصداء الذكريات، والأشواق التي تبدَّلت... فسقط بعضها في النسيان، وبقي بعضها في الحنين.

❊ ❊ ❊

❊ لو كان معه في غرفته شخص يراقب حركاته وسكناته.. تعبيرات وجهه.. عضلات هذا الوجه: تنكمش تارة، وتنبسط تارة أخرى.

إن «زياد» يقلص ذلك الماضي، وتلك الذكريات في صورة، مثلما تتقلص عضلات وجهه.. ويبسط وجوه أشخاص لم يكونوا عادين في مواقف العمر، مثلما تنبسط عضلات وجهه تارة أخرى.

تلفَّت حوله.. كمن شعر أن بجانبه أو خلفه من يتابع حركاته وتعبيرات وجهه.

نعم. . . هذه الصور تشكل سرية في حياته، لا يمكن أن يسمح لأي أحد الاطلاع عليها إلاّ إذا رغب هو، وذلك إلى «أي أحد» يختاره «زياد» بعناية دافعها الثقة.

الصور لا تضم مناظر مخلة بالسلوك. . . لكنها أجزاء من شريط عمره الغالي عليه.

شعوره وهو يتأمل هذه الصور: شاعري دافئ. . كأنه يحاور نفسه عن بداية حكاية، وانتهائها. . عن فلسفة اللا نهائية في «شخصيات» تستبطن أعماقه، وأعماق كل إنسان: احتفى مثل «زياد» بفلسفة: القرب والبعد بين الناس. . القمر الذي يضيء ظلمة الليل، والشمس التي تسطع في النهار بكل هذه الشواظ التي ترسلها. . المطر الذي يفتقده «زياد» في نفسه كصحراء بلاده، فيبقى ظمآناً. . والصواعق التي تزلزل أعماقه التي تتحوّل أحياناً إلى ليلة شتائية تهزها الصواعق، ويخلخلها البرق والرعد. . . فلا يجد «الحميم» إلى جانبه، ولا الرفيقة!

ساقاه: قاعدة لتمثال رجل. . هو نفسه كأنه لا يمشي، ولا يتنقل. . بل ثابت فوق قاعدته، لكنَّ رأسه يتحرك، ويضج بالتفكير، ويضيق ويتسع. . وصدره يعتمل بشتى المشاعر التي ترتفع بخيالاته إلى أجواز الفضاء، وتهوي بأحلامه بعد ذلك إلى وهاد النفس والفراغ العاطفي المميت!

هذا التمثال المكوّن من ساقيه/ القاعدة، وجسمه: الرأس والصدر. . يصدُّ عن نقطة وقوفه: قوافل الرمال التي تتراكم حوله حتى تكاد تغطيه، ثم تَسْفيها الرياح. . في دورة المدّ والجزر.

كانت هذه هي «حصيلة» الرؤية للصورة الأولى التي طالعته على أول

ورقة في «الألبوم». . وكانت تجمعه مع مجموعة من زملاء الدراسة الثانوية، وقد مات منهم ثلاثة إلى رحمة الله، وانتقل اثنان منهم إلى مدينة بعيدة للعمل والاستقرار الاجتماعي والأسري. . . وأهمهم: الثلاثة الآخرون الذين يقطنون معه نفس المدينة، ولكنَّ التواصل بينهم: نسفه انشغالهم بطموحاتهم في الحياة، وركضهم وراء أحلامهم. . فلم يعد أي واحد من هؤلاء «الفرسان» الثلاثة يعرف عن «زياد» شيئاً، لكنه هو يعرف عن كل واحد منهم: أخباره. . . العامة على الأقل:

* الأول: تسنَّم مركزاً مرموقاً وكبيراً، وصارت صوره في الجرائد تظهر شبه يومية. . . وقد التقاه «زياد» مرة في حفل رسمي، فبادر راكضاً للسلام عليه، ربما يستعيدان معاً: ذكريات الدراسة، ومرحلة الفَتْوَنة والشباب. . . ومدّ يده إلى مَنْ كان زميل دراسة فأصبح مسؤولاً له شأن، وشعر «زياد» ببرودة يد الرجل «الآخر» الآن وهو يصافحه. . ويقول له بترفع:

ـ أهلاً.

حتى كاد «زياد» أن يقيس كلمة «أهلاً» على شفتي هذا المرموق بالمسطرة!

* الثاني: صار رجل أعمال ناجح. . «يلعلع» اسمه في السوق، وفي كل الغرف التجارية داخلياً وخارجياً. . . ودفعت الصدفة «زياد» للذهاب إلى مؤسسة ذلك الرجل/ زميله القديم في الثانوية، فقال لنفسه وهو يدخل مصعد الشركة:

ـ «لأ. . . عيب يا واد يا زياد، مهما كان فهو زميل دراسة قديم، ولا بد من السلام عليه، حتى لو لم يسأل عنك كل هذه السنين».

دخل المكتب الضخم.. وطلب من السكرتير إبلاغ «زميله القديم» بحضوره، ومعه بطاقة باسمه.

فُتح باب غرفة رجل الأعمال الناجح، فإذا هو وجهاً لوجه أمام جاره في مقاعد الدراسة، وحسب «زياد» أنه يركض بخطواته نحو الرجل.. الذي قال له بابتسامة سوق:

ـ «أهلاً أخ زياد.. سعدت بزيارتك لمكتبي، وأعتذر لك الآن.. فلا بد أن أخرج لحضور اجتماع هام... شكرا لك، مع السلامة».

وانطلق يجري... كأنه خائف من أن يلحق به «زياد»!

* الثالث: عمل في شركة الزيت سنوات، وكانت تبعث به كثيراً إلى أميركا... فاختصر المشوار، واستقر هناك، حتى خيِّل «لزياد»: أن زميله لم يعد يعرف اللغة العربية!

ـ «ياه يا زياد... ما أوسع طموحات الإنسان، وما أصغر الدنيا، وما أقصر العمر»!

هتف لنفسه بهذه العبارة من أعماقه التي تترسب فيها أصداء الذكريات... كأنها أصداء من أرجاء «مقبرة».. الأحياء فيها: شواهد القبور فقط.. حتى أحياء البشر الذين يدبُّون على الأرض، تحوّلوا أيضاً إلى: شواهد قبور تمشي على أقدام... ولا أحد يتّعظ!

وكأنّ أصواتاً عديدة، وغير متجانسة.. تملأ غرفة نومه الآن.

يتلفّت حوله، وينظر إلى الجدار، وسقف الغرفة، ونحو ظلال «الأباجورة» المضيئة في الزاوية.... لا أحد معه في الغرفة!

لعلها أصوات السنين. . . هذه التي تنبعث من ذاكرته، ومن شجونه!

فهل يقدر أي إنسان على التخلص من كل هذه الأصوات في حياته؟!

بعض هذه الأصوات: يهدهده، وينعشه بعبق الذكريات الجميلة.

وبعضها: يُقرِّعه، ويؤلمه بحثالة ما استقر في أعماقه من مواقف، أو أخطاء.

وبعضها: يُمزِّقه، وينهش في محاولات إسعاد نفسه. . . حتى يحيله إلى شخص له ساقان من حجر، وعينين من زجاج، وصدر من قش!

❊ ❊ ❊

❊ قَلَب صفحة «الألبوم» الأولى بصورتها التي أحرقت في نفسه: عشرات الصور المنسوخة منها!

ظلال الإضاءة في غرفة نومه. . تتشكل منها: ألوان على شكل وجوه، مثلما جدار الغرفة ـ كما خُيِّل إليه ـ كانت تصدر أصواتاً لأصحاب هذه الوجوه.

الصورة الثانية: لم يتوقف عندها طويلاً. . بسرعة قلب صفحتها.

لا يريد أن يتذكّر. . . إنها لا أكثر من «رعاف» في بدء حياته كرجل.

إنها صورة زفافه. . . هو وتلك المرأة: الجميلة، الفارعة، الميعسبة، ذات العينين الواسعتين، والفم الأكثر اتساعاً على الصراخ في وجهه.

ـ ترى. . . لماذا يحتفظ بها إلى الآن؟!

موقف في حياته. . لا أكثر، وهو عندما يطالعها الآن. . لا تشكل عنده أي حنين، ولا ذكريات، بل تضخم في سمعه صوتها الشرس، وكلماتها

الأكثر شراسة وسخرية منه، وعبارتها الدائمة له: «في بيت أهلي كنت حرة وأميرة»!

و. . . طالما أنها ماتت في حياته، فلماذا يبقيها في «ألبومه» الخاص؟!

عاد إلى الورقة الثانية، وتأمل «الصورة». . وكأنه يراها لأول مرة.

انتزعها من «الألبوم»، ومزقها قطعاً صغيرة جداً. . . بعثرها بعد ذلك في أنحاء الغرفة، وهو يتفرج، متابعاً انتشار قطع الصورة ومدارها حتى تستقر على الأرض فتاتاً.

تنهَّد «زياد». . . وهو لا يعرف: هل هي تنهيدة الراحة، أم. . . . الشجن؟!

أياً كانت/ التنهيدة. . . فهو لن يعيدها ثانية.

قَلَب الصفحة التي صارت فارغة بعد تمزيق الصورة التي احتلتها وقتاً طويلاً.

الصفحة الثالثة: طفلة جميلة. . ضاحكة كفرحة الحياة.

حضن الصورة. . كأنه يحتضن الطفلة مجسدة أمامه.

يحب الأطفال. . يشعر معهم بعفويته، وصفاء نفسه، ونقاء الإنسان بداخله.

وهذه الطفلة التي صارت تتكلم الآن، وارتفعت قامتها قليلاً، تناديه: «خالو». . فهي ابنة أخته بالرضاعة/ ابنة عمه «اللمضة» التي تتحوَّل أحياناً إلى ضميره، وأحياناً إلى شيء كالرشد حين تفكر معه وله، و«تلعن سنسفيل حضرته»، إذا عرفت أنه أخطأ.

أحب طفلتها أكثر... ورغم عشرته الطويلة مع الوحدة والصمت، إلاّ أن هذه الطفلة تجذبه باشتياقه إليها، فيجد نفسه يقرع جرس بيتها ومعه الحلوى والألعاب.

أخرج الصورة من «الألبوم»، وأخذ يتأملها.

ـ «عجيب... كيف لم يفعل ذلك»؟!

وضع «الألبوم» على الطاولة بجواره، وتناول الهاتف يطلب رقم أخته:

❊ «وداد... كيفك أنت وزوجك، وقمرك الجميل/ البنت الحلوة؟!

ـ أهلاً زياد... إيه اللي حصل، يهودي أسلم، والاّ جاتك هبقة في عقلك علشان تتذكرنا معاليك؟!

❊ اسمعي... بلاش أسلوبك الاستفزازي هادا، أبغى أحدث صورة التقطتيها في استديو للبنت الحلوة/ رانية... علشان أكبرها.

ـ عندك عريس يا خويا.... بعدين إنت فين مختفي؟!

❊ معليش... سأمرّ في الغد، آخذ الصورة، وأودّعك لأني مسافر.

ـ بالسلامة... لندن برضو؟!

❊ ها.... والله ما قررت، إنما فكرة.

ـ فكرة يا أخويا اللي أعرفه... والا ذكرى»؟!

وضع سماعة الهاتف، واستغرق في أبعاد كلام أخته، ولمزها له.

آه....... لندن!!

(٢)

* جوفه يتّقد.. كأنّ حريقاً هائلاً اندلع فيه.

يختلج.. رعشة قوية تهزّ جسمه، وكأنه يسمع ضلوعه في صدره تصطفق.

دولاب مكتبته.. كأنه يتطوّح مع جسمه، وخيّل إليه أن الكتب ستسقط على رأسه.

كل صورة من هذا «الألبوم» الذي يضعه في حِجْره.. تُطلق عشرات العيون والوجوه، بعضها: يصافحه، وبعضها: يُقبّله، وثالثها: يصفعه.

كلها: وجوه وعيون من طين....... وردد بيتَ شعر «إيليا أبو ماضي»:

ـ «نسي الإنسان ساعة أنه طين فصال تيها.... وعَرْبد»!!

حتى نار العشق... تنتهي إلى: طين!

ابتسم «زياد» لهذه الخاطرة، يحاول أن يتخلص بهذه الابتسامة من الرعشة، والاختلاج، والاصطفاق.

شوق مكثّف يتفجر من صدره.. يشعر هذه اللحظة بحزن يختلط بالرعشة، والخلجة.

يتمنى لو يرى شخوص هذه الصورة بالذات، على الصفحة الثالثة من

«الألـبـوم». . . يـقـومـون الآن مـن الـصـورة، ويـتـحـلّـقـون حـولـه، وتـتـعـالـى ضحكاتهم، وتتواصل قفشاتهم ونكاتهم.

وكيف للنسيان أن يتغلّب على بعض ذكرياتنا، مما شعرنا في دفئه بالحياة وبالحب.. بالحيوية وبالتجدّد؟!

يتأمل الصورة... وتمتد أصابعه تتلمس كل وجه، وطاولة، وزهرة، ووعاء.

ومن البعيد.. تناهى إليه صوت «ناي» مشروخ الصدى، ينسكب هو الآخر مختلطاً برعشته، وخلجته، واصطفاق ضلوعه.

ثم... يضيق عنده التنفس كأنه يختنق.

يلقي برأسه إلى ظهر «الكنبة»، ويغمض عينيه قليلاً ليستعيد أنفاسه التي ضاقت الآن ربما بسبب كثافة لهاثه منذ طالعته هذه الصورة!

لم ينس كل وجه في هذه الصورة، ولا حتى هذا المنظر الخلفي في الصورة.

يحدق في المنظر الخلفي.. كأنه يتفرّس وجهاً معيناً، أو يستجليه دون أن يظهر!

وميض يشع من عينيه.. كلما طال تحديقه في الصورة.

حتى انبعث هذا الوميض من صدره، من نبضه، مع أنفاسه ورعشته!

شيء ما ـ غير مرئي ـ في هذه الصورة.. يتشكّل كالوشم الذي حفرته الذكرى في ذاكرته... لا، بل في وجدانه وبين ضلوعه.

تحوّلت هذه الصورة إلى بحر ممتد لا نهائي.. تذرعه ذاكرته ذهاباً

وإياباً، في المدّ والجزر.. في الموج والعمق.

تصطدم يده بيده... كأنه يصافح أفراد هذه الصورة.

تهرب نظراته من وجوه الجالسين أمامه في الصورة.. إلى خلفية الصورة، مما يراه خفقه، وهو أكبر من مجرد نظرة تُحدّق!

الوجوه في الصورة.. كأنها تتجه نحوه، تحضنه، تقهقه من خلالها الأصوات.

اختلاط آخر من: السفر، والتعارف، والغربة، وبساطة إحساس الإنسان قبل أن يرتطم، أو يشكو من وجع ما.

تزداد نظراته دفئاً... وهي تتشرد في تفاصيل هذه الصورة، كأنها: تلملم الكلمات من أفواه فرسان الصورة.. وتلملم لحظات تلك الليلة الماتعة التي أمطرت: دهشة، ومفاجأة، و.... حباً.

ـ (الآن... يشرع «زياد» ذاكرته السرية التي لا يفتح بوّابتها أمام أحد، ولا يحكيها في سمع أحد.. فهي ذاكرة خاصة جداً.

ماذا.. لو لم يسافر في ذلك الوقت الذي مضت عليه خمسة أعوام؟

ماذا.. لو لم يذهب إلى لندن، و«يغرق في دافئات المنى»، كما غنت فيروز؟!

ماذا.. لو حشد تلك الليلة بكل أبعادها في زجاجة حملها معه إلى وطنه، وأودعها عمق البحر الأحمر؟!

أي بحر يصير... وأية زجاجة تكون؟!

قد يجد الزجاجة ذات يوم، ولا يجد البحر.

قد يجد البحر ويسأله عن الزجاجة. . . فيكتشف أن البحر ـ هو الآخر ـ فقد ذاكرته!

لحظتها. . . إلى مَنْ يرجع؟!

إلى تلك الليلة التي خبّأها قي زجاجة، . ضنَ البحر بها عليه بعد سنوات، فادّعى فقدان الذاكرة؟!

أم يرجع إلى ذاكرته السرية. . . وقد نُحوِّل جوانب من ذاكرتنا إلى وثن؟!

أم يفكر في الانسلاخ من ذاكرته السرية. . . فتبقى الزجاجة في قاع البحر الغريب هو الآخر مثله)؟!

هو الآن لا يطرح الأسئلة، لكنه ينوس بين أصداء عمر قصير: خطفه قرصان في عرض البحر، وخطف البحر والزجاجة معه!

عمر قصير. . امتد حتى طال، وهو يحاول فتح ذاكرته السرية تارة، ويتردد على شاطئ البحر. . هل يقذف بنفسه فيه ويغوص بحثاً عن الزجاجة؟!

عمر قصير. . . وهو يذهب ويؤوب. ولا شيء إلا: الصمت، والوحدة، وشهر في العام. . هو كل ما صارت الذاكرة السرية تأخذه إلى أعماقها وتقفل عليه.

* * *

* امتدت يده إلى جبهته. . تزيح العرق الذي تفصَّد عليها.

ـ قال لنفسه: «لماذا نعمد دائماً إلى إقامة سور عال نحيط به أحلامنا،

وخفقة قلوبنا... هل الحلم: عيباً.. هل الخفقة: ميكروباً.. هل الخوف صار هو: العقل، والحكمة. والاستقامة»؟!

لكنه ما زال خائفاً!!

بمعنى: أنه مازال يحلم، ويخفق قلبه... ويتمسك بالعقل، ويدَّعي الحكمة، ويفر إلى الاستقامة لتحميه من إدانة السور العالي لحريته الشخصية، ولذاكرته السرية!

كان يريد أن يتزوجها: خلفية هذه الصورة التي تبدو الآن في الصورة مثل «كاسبر» في الفيلم الذي أثار ضجة!

هل هناك مَنْ طلب منا أن نحوّل: الحب، والحلم، والخفقة، إلى «كاسبر»... ذلك الشبح البريء الجميل، الذي لا يراه أي واحد، وهو يرى كل الناس.. حتى الذين لا يحبونه؟!

لكنه خاف من البحر، ومن العقل.. مثلما خاف على إدانة استقامته.

قرأ مرة في إحدى الروايات التي جذبته لغادة السمان.. وصفاً عجيباً للبحر، قالت: «البحر هنا.. مجرد امتداد إسفلتي للشوارع، وإن كان ماءً»!

ـ قال: «وَلْ... حتى البحر سوّدناه، أسفلْتتناه.. فكيف نذرع البحر الآن.. بالسيارة، أم بالبسكليته»؟!

استخدم البحر هنا رمزاً للحب.... فما أعمقه، وأكثره غرقاً!!

ولكنه يريد حصته من البحر... مَنْ يطالب إذن؟!

عاد يحدق في «الصورة»، وعادت أصابعه تتلمس الوجوه، والأشياء، والخلفية الكاسبرية، والظلال.

كأنه يجري الآن القهقرى. . . يعود إلى تاريخ هذه الصورة: ١/ ١/ ١٩٩٠م.

ـ يهمس: «ياه. . لقد جريت مسافات طويلة من تاريخ هذه الصورة إلى الآن. . . ومن الآن مرتداً إلى ذلك التاريخ. . . إلى تلك الليلة»!!

ما هذه الصورة التي استوقفته، بل جمّدته في لحظة نسفت ما قبلها، ولم يأت بعدها؟!

توقف أمامها كالمتبتّل. . ألغى ما بعدها من صور، وسكنت نظراته فيها.

كأنه الآن يستنشق من خلالها: رائحة الليل في لندن، وعطر الصحاب الذين جمعتهم هذه المائدة في مطعم. . يأكل فيه رواده على ضوء الشموع، ويسود الهمس إلاّ من قهقهات تفلت أحياناً، وما تلبث أن تخجل من الهمس فتذوب في الليل مع هذه الشموع.

ما أقصر الوقت في زمن هذه الصورة. . . وما أطوله وأبرده بعد زمان هذه الصورة.

يتذكّر حتى الموعد. . الساعة التي دخل فيها إلى هذا المطعم.

لا. . . إنه يتذكّر حتى الدقائق، والثواني. . . . نعم: الساعة التاسعة والدقيقة الواحدة، عندما وقف مستأذناً ضيوفه، رفقاء السهرة. . في التقاط صورة تذكارية.

في التاسعة والدقيقة الواحدة، وهو يضع أصبعه على زر التصوير. . قال له ضيف الشرف لهذه الدعوة/ سمير:

* هل تلتقط الصورة لنا. . أم للطاولة التي خلفنا؟!

ضحك زياد لحظتها، وعينه اليمنى في فتحة الكاميرا يضبط المنظر، وقال لصديقه:

ـ لكم وللطاولة... هل رأيت طاولة ممشوقة، شعرها أسود فاحماً؟!

* «سأله سمير بعد التقاط الصورة: «بجد.. هل صوّرت خلفيتنا.. أقصد الطاولة المميزة»؟!

ـ قال زياد: «عيب... لازم أستأذن، فهذه الطاولة من عائلة»!

* قال سمير: «دعنا نبدّل المواقع أو المقاعد»!

ـ رد زياد: «يا راجل... زوجتك في المستشفى».

غامت عينا «سمير»، وسقطت دمعة من حدقيته.. وقال:

* «أدعو لها يا زياد... أدعو لها جميعكم».

ندم «زياد» على مشاكسته لصديقه، فهو لم يقصد إيذاء مشاعره، أو تذكيره بزوجته المنوّمة في المستشفى.. أراد المزاح فقط، فقلبت إلى غمّ.

ـ قال زياد: أعتذر يا سمير.. لم أقصد، ربنا يشفيها، وهذه دعوة مفتوحة لها بعد انتهاء كورس العلاج.. سأدعوها في هذا المطعم الأنيق: ضيفة شرف.

* قال سمير: «كّتّر خيرك يا زياد.. قولّلي ماذا ترى خلف ظهري»؟!

ضحك الصحب.. المكوّن من أصدقاء زياد:

* سمير: أستاذ في الجامعة، متخصص في النقد.. يهتم كثيراً بالجوانب الإبداعية في فنون الأدب، لكنه حريص على إخفاء انتمائه الفكري.. لا يعلن عن رأي يعتقده، ولكنه متمكن جداً من الاستطراد في التحليل.. وهو الآن في العقد الرابع من العمر.

* عاطف: ثلاثيني... منذ صغره وهو يحلم بمخاطبة الناس، عندما كان في المدرسة.. اشترك في الحفلات المدرسية بصوته الإذاعي، وفي الجامعة كان يقرأ الصحف بصوت مرتفع، كأنه يقرأ نشرة الأخبار.

ليس له انتماء فكري... فقط: يقرأ الصحف والمجلات، ويبحث عن الكتب المتخصصة في الإعلام، خاصة المسموع... وعندما انتقل إلى لندن للدراسات العليا، انضم إلى إذاعة لندن في قسمها العربي، وهدّد بالاستقالة أكثر من مرة مع أحداث عربية تقف الإذاعة منها موقفاً مشبوهاً... وهذا هو انتماؤه الشامل!

في عمله بالإذاعة.. التقى بزميلة له مذيعة.. تجانساً، تقارباً، تحابّا.. كل ذلك في وقت قصير جداً.. طلبها للزواج، وكونّا بيتاً وأسرة منهما ومن بنت في السادسة، وابن في الرابعة.

* سعاد: هي هذه الزوجة التي كوَّنت أسرة «عاطف»... قدِمَت مع والدها الذي هرب من مصر لمواقفه السياسية في منتصف السبعينات بعد حرب رمضان، وقدّمت طلباً للالتحاق بهذه الإذاعة، ونجحت في التجربة.

تؤيد والدها في معارضته لمعاهدة «كامب ديفيد» التي سعى إليها الرئيس السادات، وزادت اقتناعاً بعد أن عاشت في لندن... لكنَّ نشاطها ينحصر في عملها فقط.

سعاد: امرأة ثرثارة لا تكف عن الكلام والضحك معاً، يصفها زوجها بأنها: «رغّاية»، ويقول:

ـ «من كتر ما ترغي تِخْنت، وصار وزنها ٨٠»!

تنظر إليه شزراً.. وتستمر في الضحك والكلام.

* بقيت «إلهام» زوجة «سمير»، المشدودة إلى وثاق سرير المستشفى.

هذه المرأة.. تُشكِّل الجزء الهام من حياة زوجها «سمير».

لم يقترنا بعد قصة حب عنيفة، ولا حتى هادئة... اختلفا عن الشباب في سنهما آنذاك، وتقاربا بمنطق العقل قال خفقة القلب.

هو الآن يحبها، ولا يقدر أبداً على فراقها.

وهي عشقت فيه: أحلى أيام العمر معه، تصفها.

لكن... هي الآن في المستشفى، تعاني من السرطان اللعين.

* * *

(٣)

* يتماسك «سمير» أمام زوجته الطيبة المبتلاة بالسرطان اللعين.

وتنزلق دمعة غالية في عمق الليالي التي أرَّقه فيها مرض زوجته «إلهام».. في الوقت الذي تنام فيه عيون البشر والشجر، وتهدأ الرياح.. لكنَّ رياح حزنه تستعر، وهو يتسلل إلى وجهها النائم بعد معاناة نهار كامل من الألم، وبعد انتهاء الحقنة اليومية التي تبقى في جسمها أكثر من ساعتين.. فيحل عليها التعب وتنام.

لحظتها.. يجد «سمير» وقته الخاص الذي يجلس فيه بجانب سريرها في المستشفى، يتأمل وجهها النائم كأنها ميتة، ويمسح الدموع التي تنزلق من عينيه، ويخاطبها بهمسة قلبه:

ـ ما أشقاني من بعدك، لكنَّ قضاء الله نافذ، وأنا مؤمن بقضائه عز وجل.

يعقد ذراعيه على صدره، كأنه يراع نفسه عن الانهيار، وصوته عن الصراخ، وعينيه عن المزيد من البكاء.

ها هو معها الآن في افتراس السرطان اللعين لها: رجل وحيد، متوحّد مع آلامها... وهي: صابرة، لا تتذمر، لا تقلق، لا تخاف من الموت الذي

تنتظره، بعد أن أخبرها الأطباء في لندن عن دائها.

ـ امرأة طيبة جداً، هادئة، صوتها خفيض... كثيرة الاطلاع، عاشقة لأجمل مبهجات الحياة: الكتاب والموسيقى.

تغار على «سمير» جداً... ولا يذكر أنها تركته يخرج بمفرده إلاّ في العمل فقط، وبعد ذلك تلازمه، تقوم معه بالزيارات، ترافقه في السهر والسفر.

ولعل هذه المحاصرة له من شدة غيرتها عليه.. كانت مصدر ضيق لـ «اسمها»، كرجل يتوق إلى الانطلاق قليلاً.. إلى لقاء أصدقائه.. إلى السفر وحده ليبقى مع نفسه.. إلى الابتعاد عنها ليشتاق إليها وتشتاق إليه.

أما هي.. فتختلف معه في هذا المطلب الخاص به، فتزيد حصارها له.

ـ الآن.. يخاطب جسدها المسجى على السرير ووجهها المرهق: لا بأس.. كثّفي حصارك لي، طارديني في كل مكان، فقط... إبقي بجواري في الحياة، لا تذهبي أرجوك.. فأنا أحبك، وحياتي بدونك أطلال.

أنجبت «إلهام» من «سمير»: ولداً واحداً فقط وكانت تتوق إلى أخت لهذا الولد، فهي تحب البنت.

اقترن بها «سمير» عندما كانا يدرسان معاً في أميركا، وكانت زميلته في الجامعة.. وعادا إلى الوطن بعد التخرُّج بابنهما المولود حديثاً... حينذاك.

لا شك أنهما عاشا معاً وقتاً طويلاً دون أن يُحسّا بركض العمر في الوقت.. رغم قلة السنوات التي جمعتهما وقصرها.

اختلافهما: لم يكن يفسد الود بينهما... يتشاجران، يصرُّ على رأيه..

ولا تجادله، ولكنها تنفذ رأيها بهدوئها المعهود.. حتى إذا اكتشفت ما فعلته: ابتسم ووافقها على رأيها.

أعجبه فيها: اتزانها، وتروّيها، ومعالجة المشكلات بدون انفعال.

قادرة هي أن تضبط الغضب والتسرع في تصرفاتها وردود أفعالها، وتحولّهما إلى: تأن، وتفكير، وحكمة.. وهو عكسها تماماً: عصبي المزاج، انفعالياً.. ودائماً كان يحتاجها لتضبط كل هذه الأشياء التي قد تفلت منه.

أعجبها فيه: رجولته ومواقفه... فكانت عندما تتحدث عنه، تصفه بقولهاْ زوجي الفارس.

ـ تقول دائماً: لم نختلف أبداً في صلب الموضوع، أو الفكرة.. اختلافنا أحياناً يكون في التفاصيل، أو في إسلوب المعالجة.

قادر هو أن يزرع اتساع صدرها الرحيم بالأمان... فهو زوج غير مشاكس، وإن كان يتزيّا أحياناً بالصرامة التي لا تكبر فتصبح قسوة.

لو ماتت هذه المرأة/ الرفيقة، الشريكة له في عمره... فستصبح حياته: موتاً أقسى.. ستصفعه رياح الوحدة، وتظمئه الصحراء القاحلة التي ستتمركز في بيته.

ـ «سمير... سمير.. أنت هنا يا حبيبي؟!

أعطني كوب ماء.. هِيَّا فين الممرضة؟!.. لازم تروح ترتاح وتنام شوية».

رفع رأسها قليلاً، وسقاها.. وقبَّل جبينها، وهي تلحُّ عليه أن يذهب إلى

الفندق لينام. عادت إلى نومها.. وعادت دموعه تسحُّ من عينيه في صمت الليل ووحشته.

جاءت الممرضة.. تابعت حالتها، وقالت له:

ـ إنها بخير.. بقاؤك هنا لن يضيف شيئاً، ولا حتى يخفف عنها.. لأنها شبه مخدرة، فاذهب لترتاح.

* * *

* تلقفه هواء لندن البارد لحظة خروجه من بوابة المستشفى.

أوقف سيارة الأجرة، منطلقة به بعد ذلك إلى الفندق.

في غرفته التي حاصرته فيها الأصداء، والهواجس.. أشعل سيجارته المائة، فهو يدخن بشراهة، وأزمة زوجته: زادته تمسكاً بالسيجارة التي يحرقها ويحترق معها.

أزمة «إلهام» بدأت قبل ثلاثة شهور.. هناك في الوطن.

تعدَّدت أقوال الأطباء في كثافة: الأشعّات، والتحاليل، والأدوية.

لكنَّ واحداً من أولئك.. لم يكتشف هذا الداء اللعين في جسدها.

تعبت كثيراً، وقالت لسمير يوماً:

ـ «خلاص.. لا أريد أطباء، ولا. أدوية... أنا بين يدي الله عز وجل يفعل بي ما يشاء». ابنها الوحيد في الرابعة عشرة.. يصرخ وهو يلقي برأسه على صدرها، ويهمهم:

ـ «أمي تموت.. أمي تموت، أرجوكم أنقذوها».

وكانت تمسح بيدها على رأسه مهدئة، وتمسح بابتسامتها على وجهه مطمئنة.. وتنظر إلى «سمير» ليخفف عن ابنهما.

تركاه في الوطن للدراسة.. وسارع «سمير» بما سفرها، وتقاريرها الصحية، وحجز في هذا المستشفى مع طبيب متخصص.

* قال له الطبيب: «نحاول أن نكبح تمدد المرض وانتشاره.. هذه الحقن: تحاصره، والباقي على الله».

ـ سأل سمير نفسه: لا ترى... هل أنا أعذِّبها»؟!

لا... إنه يحاول إنقاذها من براثن السرطان... لكنَّ «إلهام» لا تقاوم كثيراً، كما قال له الطبيب.. تبدو مستسلمة، راضية، قانعة بالعمر الذي عاشته.

فقط... كانت تضغط على يد «سمير» وتهمس له:

ـ رجائي الوحيد... ابننا «عصام»، إنه في سن المراهقة الخطرة.. إهتم به، تابعه، لا تتركه للآخرين!

مَنْ هم الآخرون الذين قصدتهم «إلهام»؟!

لم تطلب منه أن يتوقف عن ممارسة حياته الطبيعية، ولم تلمح له إلى الزوجة الثانية القادمة... فما زال زوجها في شموخ رجولته وعنفوانها... لكنها كانت تلحّ عليه للعناية بابنهما فقط.

ـ قالت له في أول يوم لها بالمستشفى، والحقنة الأولى تسري في جسدها: «سمير... الموت والحياة بيد الله، تزوّج.. لكنَّ طلبي الوحيد هو: أن تُحسن اختيار التي ستواصل معك مشوار الحياة، ابننا يخرج من

الطفولة إلى الرجولة، لست أخاف عليه.. خاصة وأنني متأكدة من روعة أبوّتك له.. إنني أخاف عليك أنت»!

طفرت دمعة من عينيه، ورفع يدها وقبّلها.

أراد «سمير» أن يأخذ قسطاً من النوم.. فهو مجهد جسدياً، ونفسياً وعاطفياً... لكنه فشل، فالنوم يجافيه، والهواجس تقتحمه... فكأنه لم يعد يعرف شيئاً، ولا يرى شيئاً، وعاجز أن يفعل أبسط الأشياء.

خُيّل إليه أنه لم يعد قادراً على مزيد من الضغط النفسي... فماذا يفعل؟!

هذه إرادة الله... وعليه أن يصبر حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

لذلك... هو: عاجز عن التفكير، والتصرف، ويبلغ عجزه أحياناً إلى عصيان الدمع على عينيه ليرتاح بالبكاء قليلاً.

يصرخ في سويداء الليل، وهجمة البرد على جسمه:

ـ «أيها المرض اللعين.. أيها الحقير.. يا مفرّق الأحباب.......».

يصمت... يعود إلى وعيه، ويهدأ:

ـ «أستغفر الله العظيم... يا رب يا حنّان، يا أرحم الراحمين: إرحم إلهام».

يهدُّه التعب.. فيسقط على السرير بملابس خروجه، وينام!

* * *

* تصحو «إلهام» من نومها وخدر أدويتها.. فتجد «سمير» بجانب سريرها، كفه يحتضن كفها، ونظراته تغسل وجهها، وفمه يتمتم بآيات قرآنية.

كل صباح... تجده أمامها على هذه الصورة، وتهمس:

ـ «صباح الخير يا حبيبي... متى جئت»؟!

يقوم هو بإفطارها، وغسل وجهها، ونفحها بالعطر الذي تحبه: «شانل».. منذ أهداها أول زجاجة عطر في أميركا.

يحاول أن لا تلتقي عيناه بعينيها، حتى لا ترى فيهما الدموع والشفقة عليها من مرضها.

تكره هي الشفقة... امرأة تعتز بنفسها، وبصلابة احتمالها ومقاومتها حتى للمواقف الصعبة في حياتها، قبل أن يرزأها هذا المرض.

يذكر يوم توفي والدها، وكانا في أميركا يدرسان، ولم يتخرّجا بعد.

أخبرته ـ بعد برقية وصلتها ـ وبقيت مذهولة، جامدة الملامح.. لم تطفر من عينيها دمعة واحدة.

خاف عليها... فالقهر أكثر شراسة من الفجيعة في حبيب.

أخذها في حضنه.. ووسَّد رأسها صدره، وهمس في أذنها:

ـ «أنا الآن: زوجك. وأبوك، وعشيرك، ورفيق دربك.. حتى الموت».

لحظتها.. تفجّرت دموعها، أجهشت على صدره، والتصقت به، كأنها تطلب منه أن يحميها للأبد.

دخل الطبيب في اليوم السابع لتلقِّيها العلاج في هذا المستشفى، قال:

ـ أتفاءل بشيء من التحسن البسيط... لذلك قررنا أن نواصل «كورس» الحقن أسبوعاً آخر، وبعدها نقرر إذا كانت ستبقى معنا، أم ترحل إلى بلدها.

ـ قالت إلهام لزوجها: يا حبيبي... هذه تكاليف باهظة، والنتيجة معروفة.. أنا مؤمنة ومسلِّمة أمري لله.. دعنا نعود إلى وطننا، وأهلنا، وابننا.

* قال لها: لا تفكري في التكاليف... وطالما لدينا بصيص من أمل، فلماذا نقفل النافذة؟!

أخلدت «إلهام» للصمت... ولكنَّ «سمير» لمح أول دمعة تتخبط في عيني زوجته.. حاولت أن تداريها عنه، فأخذها إلى صدره، ولم يكن لديهما معاً سوى الصمت، أبلغ تعبير عن: المعاناة، والعجز.

وانطلقت نظراته إلى أبعد من المباني الشاهقة، وإلى اللا مدى في السماء... كأنه يهرب من هذه الحقيقة الماثلة المؤمِّلة، و الموت يمارس الحياة مع الناس.

وجه «إلهام»: حكاية جميلة تنتشي الآن في الأسى، وتترمد في الموت.

وجه أجمل. كان ينفي من رؤية «سمير» كل الوجوه الجميلة، ليبقى وحده هو: مرآته التي يظهر على صفحاتها: عمره وحصيلة المشوار.

* * *

(٤)

* يسقط «ألبوم» الصور في حِجْر «زياد» للحظات، فما أكثر شروده وتهويمه.. وقد استغرقت أفكاره في أبعاد معاناة صديقه «سمير» يومذاك، وهم يترقبون الموت: مناخاً يشيع في أجوائهم، وسيخطف من بينهم فجأة: هذه المرأة الصابرة «إلهام».

وعلى صفحة «ألبوم» الصور المتهاوي في حِجْرِه، سقطت دمعة ساخنة كأنه يرى أمامه الآن جثمان «إلهام» مسجَّى!

ـ حقاً... الزمن هو الحالة، والاستشعار هو الملابسة!

همس! بهذه العبارة وهو يرفع «ألبوم» الصور ثانية إلى نقطة رؤيته، ويحدق في الصورة.

كانت «إلهام» مازالت تخضع للحقنة اليومية لعدة ساعات، لعل العلاج يصدّ عنها هجمة السرطان اللعين على جسدها وعمرها كله.

هذه المرأة المثقفة الناضجة الأربعينية: طويلة القوام، حنطية البشرة، شاسعة الابتسامة حتى وهي تعلم أنها تموت، هادئة النفس، ودودة الطباع... كلامها همس، وحوارها يتلمس الموضوعية.

لكنَّ «سمير» يموت كل لحظة أمام رفيقة عمره، وجسدها المسجَّى على

سرير المرض والألم.. يشعر بقمة العجز، وبمرارة الهزيمة.. كأنها الهزيمة الأولى في حياته، لأنها الهزيمة الأكثر مرارة، تهوي به إلى خندق العزلة والصمت!

في تلك الليلة... بعد انتهاء هذه الصحبة التي ضمتها الصورة من تناول عشائها في المطعم الفخم... وبعد محاولات «زياد» انتزاع الابتسامة من بين شفتي صديقه «سمير» ليُسرِّي عنه في محنته.. والنكات التي كان يطلقها ثنائي الإذاعة: وقف «سمير» مكتئباً رغم كل شيء، وحمل علبة سجائره وولاعته من فوق الطاولة، وقال:

ـ أعذروني يا أصحابي.. قلبي مقبوض، لا بد أن أعود إلى المستشفى.

* قال له زياد: ولكنَّ موعد زيارتك لإلهام عادة في الصباح.. ما الذي يجعلك تذهب الآن؟

ـ قال سمير: لا أدري يا زياد... صدقني، اللهم اجعله خيراً، أعذروني... وتصبحوا على خير.

وقف الجميع، يواكبون خطوات «سمير» إلى خارج مطعم «السماء الزرقاء».. وأصر «زياد» على مرافقة صديقه المهموم إلى المستشفى للاطمئنان على الزوجة الطيبة التي تصارع أعتى مرض.

تشبثت كفا سمير بكف صديقه «زياد».. كأنه يخاف من السقوط وهو يمشي إلى حيث سيارة الأجرة التي انطلقت بهما إلى المستشفى.

وفي جوف العربة، وجوف الليل.. لم ينبس أحدهما بكلمة، ولا حتى

بنأمة.. كانت الأنفاس تتلاحق، والنظرات تغوص في عمق الليل وتتبعثر في إضاءات الشوارع والمحلات التجارية المقفلة.

ما أشد حاجة الإنسان دائماً إلى ذلك «الاستقرار» في النفس.. على رأي، على روية، على حقيقة، على واقع، على دفاع عن نضج العقل في زمن انتشار المعرفة، وانحسار العاطفة!

ـ "أي انحسار للعاطفة ـ يا زياد ـ وهذا الرجل بجانبك يتمزق بعاطفته"؟!

استمر هذا الديالوج الداخلي بين «زياد» ونفسه منذ حملتهما العربة من المطعم خارج لندن، حتى بلغت بهما أمام بوابة المستشفى.

وفتح «سمير» الباب كأنه يهرب من العربة، تاركاً صديقه «زياد» ينقد السائق أجرة المشوار، ويلحق به... وكلاهما يركض كأنَّ حدثاً جللاً قد وقع.

وخيِّل إليه: كأن أصداء صوت «سمير» تتردد في ردهات المستشفى وأبعاد الليل، تنادي:

ـ إلهام... إلهام.... لا تموتي أرجوك!

وأخيراً.. استطاع «زياد» أن يلحق بصديقه، يشده من ذراعه الأيمن، يبطِّئ خطواته وهو يسأله:

ـ ماذا بك... هل جننت؟!

* ولكني أعرف أن «إلهام» ستموت يا زياد... أعرف، قلبي يغرق في الاكتئاب.

ـ هوّن عليك.. الموت والحياة بيد الخالق الأعظم، وأنت رجل مؤمن.. تعال أولاً نسأل الطبيب المناوب.

* لا... دعني أذهب إلى غرفتها مباشرة.

ـ لا بأس... تعال.

* * *

* كانت «إلهام» مسجَّاة على سريرها... هل هي ماتت، هل هي في إغماء.. أم أنها تستغرق في نوم هادئ؟!

فزع «سمير».. وركض خارج غرفتها يبحث عن الطبيب.

طمأنه الطبيب بأنها نائمة من تعب الحقنة اليومية، وبتأثير بعض الأدوية التي تخدر الألم. طلب من الطبيب أن يبقى إلى جوارها، ألحّ في رجائه.. كأنه يتوقع شيئاً.

هكذا جلس «سمير» أمام سرير زوجته.. كأنه وهو يحضن كفها في دفء صدره: يتشبَّث بمجدافين ـ كفها وصدره ـ يشق بهما خرس الليل، وفجيعة الرحيل المتوقعة، وتفشِّي عقم الفرح في حياة الناس اليوم.

إنه يرفض التساؤلات، ويستدني نتائج مرهقة في مسيرة العمر، مما يتأوّه به الإنسان من: ظلم، وغدر، وحقد، ومرض مستعصٍ... فلا يسمع هذا التأوه إلاّ الليل، وأحياناً يصم الليل أذنيه.. فلا تصغي لهذا التأوه إلا ثواني العمر، ولا يصمد معه إلاّ خفق الشوق.

إنها تراكمات عقم الفرح.. في ظواهر عقم العاطفة، وعقم العقل عندما تتكثف عليه المحن والظلم!

هناك في أعماق حضارة بعض الشعوب.. حدث غياب سّري، انعكس على نفسيات أجيال تلاحقت، وأنجبت ذلك العقم المتعدد.

حتى دموعه الآن.. يشعر «سمير» أنها تعاني من العقم، لا يدري كيف يبكي وهو في أمسّ الحاجة إلى دمعة.

لكنها........ ليلة الريح هذه، وزوجته أمامه تصارع الموت، وهو يراوح في هذا الفراغ المزدحم.. كأنه يتمسك بورقة شجر جافة هشة، بينما تتساقط على رأسه أوراق عديدة، لتساقطها: أحكام إجبارية لا يمكن رفضها... كالموت، كالفراق، كالعقم العاطفي، كالرحيل.

إنه الآن لا يرحل عن نفسه وحدها.. بل يرحل عن الابتسامة، والفرح، والمطر.

شعر بكف «إلهام» تلتصق بصدره أكثر، وتضغط على كفه التي تحضنه.

لم يسأم من تأمل وجهها... حتى أشرعت جفنيها ـ فجأة ـ فإذا هي تنظر إليه، وترسم ابتسامة كالطيف على شفتيها.. وهمست له:

ـ «إنت هنا يا حبيبي؟!... الحمد لله».

وعادت عيناها إلى إغماضتهما... وما لبثت كفها أن تزحلقت فوق صدره، حتى تهاوت بلا حراك.

ـ آه..... آه..... آه!

صرخات وجيب قلبه، وأضلعه، وخفقه، ونبضه.. تعالت مع صوته.

احتضنه «زياد»... وأخرجه من الغرفة التي اكتظت بالأطباء والممرضات، وبصرخات ثمالة الليل.

ـ قال له زياد: هل كنت تريدها أن تتعذب أكثر... رحمة الله واسعة.

ليلة الريح هذه... كان وداع أخرس، أهان النطق، وجمَّد وعود الأمل للأبد، وملأ الصدر بهذه الشجون التي ستتراكم أكثر بتعاقب السنين.

ليلة... كان فيها كل شيء يرحل بعيداً من أمام «سمير»، ومن حياته... والولادات: عقيمة.

الكلمات الأجمل في حياته.. ترحل.

النظرات إلى الأبعد.. تطويها السحب.

احتجاج استفساراته.. صارت تقضُّها فكرة الرحيل، ويدميها واقع هذا العقم الجديد في حياته.

استفساراته.. لا تملك الآن إلاّ الإذعان للرحيل، وللعقم!

وتمدد سؤال شوكي على شفتي «سمير» عقب هذا الرحيل، والعقم الجديد في حياته:

ـ لمن نحيا.. ولمن نعيش؟!

فرق كبير بين أن نحيا، وبين أن نعيش.

في ليلة الريح هذه.. احتجب الغمام.. وفي الغمام: احتجب ضوء القمر.

على الأرض التي سيمشي عليها: قتاد الصحاري.. وإنسان وحيد: دثاره الريح، وأديمه الشوك.

فما هو سؤال الإنسان دائماً؟!

إنها الليلة بعد الألف التي قطعت فيها شهرزاد رأسه بكل حشود الحب

في قلبه لها، وبكل شعور اليُتم والعقم بعد رحيلها.

❊ ❊ ❊

❊ في قاعة توديع المسافرين بمطار «هيثرو».. قال زياد لصديقه:

ـ سمير.. أنت الآن لا تصحب معك جثمان «إلهام».. اعتبر أنك تصحب معك روحها، وذكرياتكما معاً، وأصداء ضحكاتها.. أدفن تأوهاتها وآلامها ودموعها مع جثمانها، واهتم بابنكما كما طلبت منك.

حضَنَ «سمير» صديقه.. وهو يقول له:

ـ لا تتأخر عليّ... لا تتركني وحدي هناك.

❊ لن أغيب طويلاً... أيام وستجدني أمامك. ؟؟؟

❊ أحس «زياد» بدموع جمرية تلسع وجنتيه.

كفكف الدمع... وهمّ أن يطبق «ألبوم» الصور، بعد استرجاعه لأحزان مضت.

لكنه تريث قليلاً... اختلطت تلك الدموع بشبح ابتسامة خجول تتردد بين الظهور على شفتيه والاختباء!

إنه لم يسترجع أبعاد هذه الصورة بعد... هناك «الخلفية» الجميلة في الصورة التي كان يحاول تسليط عدسة كاميرته عليها... وكان صديقه «سمير» في بدء تلك الليلة يحاصره، أو يضبطه!

ما هي حكاية «خلفية» الصورة؟!

❊ ❊ ❊

(٥)

* خلفية هذه الصورة.. تستحق عدة عناوين، وألوان، وظلال.

حفلت ـ في البدء ـ بما يسميه العشّاق: خفق الشوق في الصدور النابضة.

بالفعل... شعر بصدره يهتز، لا... بل يرتج، زلزال من الشوق لملامح مجهولة، أو غير واضحة.

ضبطها وهو يهمُّ بالتقاط صورة لصحبه الذين دعاهم على العشاء في مطعم «السماء الزرقاء» خارج لندن... ولم يستطع لحظتها أن يتبين سوى تلك الابتسامة الشاسعة، الفضية كنور القمر، الجذّابة التي سرى منها إليه: سحر عجيب غامر، حتى أن الكاميرا اهتزت بين يديه في اختلاجته.

أنثى... لم يجد وصفاً لها سوى كلمة: مليحة.. تتخطر على أعتاب الثلاثين.

تبدو في ركن ذلك المطعم: هادئة، شامخة، رزينة اللفتة والبسمة.

ترافقها امرأة خمسينية مازالت تتشبَّث بالجمال الملحوظ الذي كانت تنعم به في نهدة عمرها.

وفتاة.. لم تتخط العشرين بعد، حسبها الآخت الصغرى لهذه المليحة

التي تفوقت بجمالها الثلاثيني على جمال أختها العشرينية.......... يا للعجب!!

وتزاحمت في صدره: أصداء الزمان في عمره، وحنين المسافات التي قطعها ولم يغرس في بقعة منها شجرة تطرح ثمراً ناضجاً!.

وحين يتأمل خلفية هذه الصورة الآن.. فكأنه ينادى على: غربة رؤية في بصائر أعشاها الهوى!

يعاني الآن من وجع أصاب خفقه منذ تلك الليلة.. وهو يتذكر جرأته، واندفاعه.

كان يشعر لحظتها بإصرار عافية العشق في صدره، في عزيمة الثابتين.

تلك الليلة ـ بعد أن التقط الصورة الجماعية لرفاقه ـ وضع الكاميرا على الطاولة، واستأذن في طريقه إلى الحمّام... لكنه تباطأ باندفاعته أمام الطاولة الخلفية، وضم نظراته الوالهة كباقة ورد حفَّت بعبقها اتساع عينيّ تلك المليحة، وحلكة شعرها الليلي، وجسدها الفارع اليعسوبي كامتشاق سيف من غمده.

التقت نظراته بنظراتها التي بدت متعالية قليلاً... وواصل خطواته إلى وجهته، لكنه بقي واقفاً في زاوية المطعم، أمام بابي حمامي النساء والرجال.

فهل فهمت نظراته؟!

هل قرأت في عينيه رسالته العاجلة؟!

هل ستلحق به... حتى لتسأله: ماذا تريد مني؟!

لم تلحق به.. وجرر أذيال الخيبة، وعاد إلى رفاقه، ممتنعاً أن يرسل

نظرة واحدة إلى تلك الخلفية التي نسجت أبعاداً وردية، قوس قزحية في وجدانه.

ابتعد قليلاً عن ضيوفه الذين دعاهم على العشاء، ومازال باقٍ معهم على الطاولة.. زحمته الأسئلة:

ـ لماذا لم تتجاوب معي؟!

أنت مجنون.. لعلها متزوجة؟!

لا... نظراتها لا تقول أنها مرتبطة.

وهل تريدها أن تركض وراءك إلى الحمام كالمراهقين... يا «عيِّل»؟!

ورآها «تفز» كقلبه الخفوق، ومعها المرأة الخمسينية، والفتاة العشرينية.. ومروا بجانب طاولته وهي تُحدّجه بنظرة لم تكن من عينيها بل على شفتيها.

هبّ واقفاً... يصلح من ربطة عنقه، وصوت صديقه «سمير» يقول له ضاحكاً:

ـ «أنا معك على الخط... لا تتعب نفسك، يا نخلة في العلالي»!

لم يعره التفاتاً.. لكنه تبع المليحة وحاشيتها في طريقهم إلى خارج المطعم.

كأنه في زورق يخبُّ به في موج عاتٍ.

فرصة... تقدمت المرأة الخمسينية، والفتاة العشرينية عن هذه المليحة التي أبطأت من مشيتها المتخطرة.. كأنها تدعوه للاقتراب منها.

اقترب منها، وقال:

* اسمي زياد. . . من جدة، وجئت في إجازة، هل أراك غداً الرابعة بعد الظهر في الهايدبارك؟! . . . أتمنى ذلك.

وتنفس الصعداء بعد أن ألقى خطبته العصماء دون أن ينتظر حتى سماع نغم صوتها، وقفل راجعاً إلى صحبه. . يشبر الأرض، أو يمتطي هودجاً، وهو يطل على الساعة الرابعة بعد ظهر الغد.

ـ بادأه صديقه سمير مازحاً: «سَبْع والاّ ضَبْع»؟!

* أجابه: فرس يا خلق الله. . . فرس.

ـ قال سمير: يا مجنون. . يا مراهق، إتقل.

* * *

* بينه وبين نفسه. . رفض أن «يتقل»، فكان في الموعد الذي ضربه لها بعد الظهر يتجول في الهايدبارك!

مجنون «حاف»، كما وصفه صديقه. . . أم مجنون ليلى؟!

ـ ترى. . . ما اسمها، هل هو جميل كوجهها وخفَّة حركتها؟!

وأين ستجده في هذا الـ «هايدبارك» الذي يمتد إلى أبعد من حدود النظر؟!

سيعثر عليها هو. . . حتى لو ذرع المكان كله.

فجأة. . . وجدها أمامه وحدها بدون ابتسامتها الطيف، وأيضاً بلا ملامح جادة. . . لكنها قابلته بين بين، ولأول مرة يدفئ صوتها سمعه وهي تسأله:

ـ ماذا تريد مني؟!

* لن أقول لك كالأغبياء أو الكذابين: لا شيء... بل أريد منك كل شيء.

ـ إنت وقح في شكل شاب مهذب!

* لست وقحاً بعد أن تجيبيني على سؤالي هذا: هل أنت متزوجة؟!

ـ وهل تظن أنني آتي إليك لو كنت متزوجة... يا وقح؟!

* حسناً... أريد أن أتزوجك، ما رأيك؟!

ـ مجنون... هكذا، دون أن أعرف حتى بقية اسمك، وعملك، وأخلاقك.. ودون أن تعرف اسمي، ومَنْ أنا؟!

* هل أطمع في معرفة اسمك؟!

ـ وماذا يفيدك الاسم؟!.. ولكن، لا مشكلة عندي، اسمي «مشاعر»، لا تقل إنه مستعار، صدقني!

* إحكي لي... مَنْ أنت؟!

ـ يا.... وقح، زدت على صفتك هذه أنك: مقتحم جريء لا مبالي.

* ول.. ول... ها أنت عرفت عني الكثير من صفاتي في دقيقة واحدة.

ـ عصر السرعة، وحضرتك بالع راديو.

* لا عليك... راديو، وتليفزيون، وتليفون، وبيجر، وفي الطريق: الهاتف الجول... المهم: كم رقم تليفونك؟!

ـ وما يخصك فيه؟!

❊ أكلمك، وتكلمينني... ويزداد كل واحد منّا معرفة بالآخر.

ـ وإذا كنت أنا غير راغبة في معرفتك... ما تقول؟!

❊ لا أقول بل أفعل!

ـ هاو... كيف؟!

❊ كيف... كيف؟!.. آه، زي ما يقول فريد الأطرش: تطلع للسما أطلع لك، تنزل للأرض أنزل لك.

ـ إيه الأغاني القديمة دي... إنت متأخر؟!

❊ يعني أنتِ اللي متقدمة؟!

ـ بلاش تلبيخ.

❊ تعرفي المسافة اللي مشيناها مع بعض حتى الآن؟!

ـ إحسبها إنت.

❊ نصف ساعة وكأنها ثانية... يا ليتها تستمر كل العمر.

ـ من فضلك... لازم أرجع للبيت.

❊ توّ الناس... وحشتيني وانت معايا!

ـ يا كثر كلامك... إنت مذيع؟!

❊ لأ... أنا إنسان أصمت «إحداشر» شهراً، وأتكلم شهراً واحداً فقط!

شاعت الابتسامة الحليبية على شفتيها، وتكسرّ جفناها.. أغضت، ودقت حشائش الحديقة بطرف حذائها... وواصلت خطوتها صامتة.

تجرَّأ «زياد».. وترك يده تتسلل بطيئة إلى يدها لتحتويها.

جفلت وكفه يضغط على كفها. . . حتى استنام الكف في حضن الكف، ولفهما صمت لأكثر من خمس دقائق.

فاض صبر «زياد». . همس لها:

ـ هل أحظى برقم تليفونك؟!

* قالت: أعطني أنت رقم تليفونك. . وأتركها للظروف.

خفيف «زياد». . سريع، لقد جهَّز رقم هاتفه، في ورقة كتبها قبل أن يأتي إلى هنا. . . كأنه كتب هذا السيناريو للقاء.

ناولها الورقة وهي تبتسم قائلة:

ـ أنت رجل عملي لا تضيّع وقتك. . والرجل العمليّ في الغالب: إنسان مادي.

* قال: الأيام «بيننا». . ستظهر لك أن مادّيتي مركَّزة في عقلي، ووجداني يفيض. . يتوهج بالحب.

ـ قالت ضاحكة: على رأيك. . تقول إنك تصمت «إحداشر» شهراً، وتنطق شهراً واحداً. . . يا خوفي إنك تحب أيضاً لشهر واحد، وتنسى بقية شهور السنة!

* قال: حتى أكون صادقاً معك. . . فعلت هذا كثيراً، والسبب يرجع إلى أنني كنت أبحث عن الأنثى التي لا تستحوذ على كل شهور السنة في عمري، بل على كل عمري.

ـ قالت: وهل وجدتها؟!

* قال: أتمنى أن توافق.

ـ قالت: دون أن تعرف عنها شيئاً؟!

* قال: وهي لا تعرف عني شيئاً.

ـ قالت: أنت مغامر.... والمغامر كثير الندم.

* قال: أنا أتبع خفقات قلبي... لكنها لم تخفق بهذه الشدة والجنون من قبل.

ـ قالت: سأذهب الآن، ولكن.... لا تُعلِّق آمالك على الهاتف أبداً، يا........ رجل يا واقعي.......... يا......... وقح!!

رفع كفَّها إلى شفتيه بانحناءة تقدير.

وتسمَّر في مكانه... يتابع نقلة حذائها فوق حشائش حديقة الهايدبارك... حتى اختفت في زحمة الناس الذين تكاثر توافدهم في هذا الوقت، وفي زحمة الغروب المعلنة عن نهاية يوم في عمره.

* * *

الفصل الثالث

(١)

* أراد «زياد» أن يلتقط أنفاسه قليلاً.. كأنه كان يهرول وراء هذه الذكرى، أو الصورة،

أو التجربة التي لم تأت بها السفن.

ألقى «ألبوم» الصور في حِجره، وأرخى ساقيه إلى الأمام، ورأسه يستقر على «الكنبة»... وهو يتلفّع بأصداء مازالت تعتاده من خمس سنوات كمدِّ البحر وجزره... لا تفارق ذاكرته، ولكنها أيضاً لا تنسجم كثيراً مع كل هذا المخزون من ذكريات وتجارب عمره في ذاكرته.

يعترف الآن أنه في تلك التجربة قد «احترف» العشق المهزوم أمام تلك المليحة: «مشاعر».. وتبعثر الكثير من العناوين التي كانت بارزة في حياته يومها.

في خطواته اللاحقة لخطوات مشاعر من حديقة الـ «هايد بارك» إلى الشارع.. إلى مقر إقامته.. كان هواء تشرين القارص بالبرودة يلفح وجهه، ويرعش جسمه.. لكن لفح البرودة التي قابلته بها «مشاعر» وتعاملت بها

معه، كان أكثر لفحاً لمشاعره هو. . . وكانت ارتعاشة أضلعه أشد من رعشة جسمه بالبرد.

في بدء ذلك المساء. . ترك العنان لساقيه يقودانه إلى حيث تريدان، لم يحس بتعب المشي، ولم يفكر في إيقاف سيارة أجرة تقلُّه إلى فندقه. . . متعته حينذاك تركّزت في هذا المشي الهويني من الحديقة، وهو يحادث نفسه كأنه يحادث هذه المليحة/ مشاعر. . ويشعر بها تمشي بجانبه.

ـ ما هذا. . . الحب من أول نظرة في مطعم؟!

ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه بعد هذا الخاطر/ السؤال. . لا يدري إن كانت: ساخرة، أو مغتبطة؟!

لكنَّ هذه الأنثى المليحة: فجَّرت في وجدانه جنون العشق في عصر السرعة والماديات.

بكل غموضها. . صبَّت في صدره: وضوح الحس. . بل وهيامه بها.

لم يتعرّف عليها بعد. . . ولم تتعرف عليه، كل ما حدث منه نحوها: مشاكسة أخذت تكبر وتكبر حتى تحوّلت إلى مسلك عاطفيّ متدفق. . . وكل ما حدث منها نحوه: تمنُّع، ودلال، وحذر شديد.

منذ تلك الليلة في مطعم «السماء الزرقاء». . وهو ينسج مع ملاحة وجهها: أبعاد حزنه الذي يفيض من حفافي نفسه في عمق الليل.

وفي الزمن القصير جداً الذي تحدد في نصف ساعة. . حاورها، فكان هو المتكلم وهي المصغية. . وكان هو البوّاب الذي يفتح أمامها المداخل وهي تغلقها في وجهه. . وكان هو الدَرَجْ التي أقامها لتضع قدميها فوقها وتصعده هو: درجة، درجة. . . ورغم ذلك: أبدت له رفضها بأسلوب

الراغب.. وواربت له رغبتها في ضلفة نافذة رفضها!

ومرَّت الليلة الأولى بعد لقائهما في الحديقة... ولم ينعم سمعه برواء صوتها.

وليلة أخرى، وثالثة... أسبوع كامل، مملّ، متعب له بالانتظار، وبالقلق.. وهو يراوح ما بين الحديقة عصراً، لعلها تأتي إلى نفس المكان، وفي نفس الموعد أو قبله بقليل، أو بعده... حتى تتساقط خيوط المساء الأصلي على المدينة الضخمة ذات المباني التي تميل إلى السواد.

فكّر في العودة إلى نفسه التي افتقدها منذ التقى هذه المليحة.. يعود إليها قبل أن يرتعش جسمه، ويلفحه البرد، ليكون الآن في أمسِّ الحاجة للخلوة مع نفسه... للاختباء فيها، أو ليستمد من حميميتها رباطة الجأش... والقفز فوق لحظة الهزيمة.

لقد هزمته «مشاعر».. أو أنها جعلته يهزم نفسه.

الهزيمة: خذلان للنفس في البدء... ثم تتساقط الأشياء بعد النفس!

قرّر أن يحزم حقيبته، و.... يعود إلى وطنه.

هناك في «جِدَّته».. لا بد أن تحنو عليه وحدته من جديد.. تطعمه الصبر، وترويه من رحيق الأحلام، وتُشكل لوحة حزنه من ألوان الطيف التي لا تدل دائماً على: التفاؤل، أو الفرح.

ـ قال لنفسه: «هذه الليلة العقيمة لي في لندن.. لنجعل ختامها: ديسكو»!

يسخر من نفسه... فهو لا يفلح في الرقص كما هؤلاء الشباب في كل

الدنيا، ولكنه «حرِّيف فرجة». . . وهو لا يحب صخب الديسكو المزعج لهدوئه، ولكنه يميل بين فترة وأخرى إلى التغير.

شيء من «القرف» غمره وهو في لندن.

كم تبقّى من إجازته؟!

ـ «ياه. . . توّ الناس، بل لم ينصرم منها سوى نصف شهر»!

ها هو يخرج من طقس العشق إلى أي شيء لا يكون فيه طقس. . ربما كانت الوحدة حتى وهو في زحام لندن. . وربما كانت الهزيمة».

ـ «هزيمة؟!. . . إنني لم أضع في اعتباري ولا تقييمي أن تتحوّل هذه المليحة إلى: معركة. . أكسبها أو أخسرها»!

ـ أضاف في حواره مع نفسه هذه الفكرة التي طرأت: «لماذا أبقى داخل مدينة لندن؟!. . . خارجها هو الأجمل، مثلاً. . . . مثلاً، آه. . أذهب إلى «باث»، هناك حيث المياه الساخنة، والآثار الرومانية القديمة. . . . ديسكو إيه، وجنان إيه»؟!!

في الصباح. . . حمل حقيبة صغيرة، في طريقه إلى محطة القطار.

كأنَّ القطار: تابوت يدخله. . وهو وحده كاليتيم، رغم هذا الحشد من الركاب.

اختار الدرجة الأولى المريحة. . . نعم هو رجل «لا يحب الكَلَفة»، لا بد أن يتنعَّم. . . فمتى يبدأ زمن اللهو؟!

يمدّ نظراته عبر نافذة القطار، ويُهربّها بعيداً عنه في أحضان هذه الخضرة الرائعة.

تراوده أفكار وهواجس عديدة:

ـ لماذا يفرّ الناس في إجازاتهم إلى الصخب.. الشوارع المكتظة.. المحلات التي تبيع «كل شيء» الديسكو.. المقاهي؟!

في إحساس تمتعه: أن الإجازة تعني التأمل، والاسترخاء، والهدوء، والحوار مع النفس.

ـ صرخت نفسه من داخله بصوت ممثل كوميدي، «يا عمي رووووح... كل شهور السنة في جدة وأنا مع نفسي: أحاصرها، ألطِّشها، ألعن سنسفيلها.. أحلم وتُفسد حلمي أشياء كثيرة مما يجري ويكون في يوم الإنسان وتعاملاته وممارساته»!

القطار توقف أمام محطة... غادره أناس، ودخل فيه أناس.

القطار... كأنه هذه الدنيا، لا يتوقف إلاّ عند محطة في زمن قصير، يُفتح بابه ويُغلق ليخرج البعض، ويدخل البعض الآخر... لذلك: شعر وهو يدخل القطار في المحطة الأولى: أنه يدخل إلى تابوت.

فجأة... لم يجد الرجل الذي كان يحتل المقعد المجاور له.. قال:

ـ «لا بأس... إنه من المغادرين، النازلين، المفارقين».

فجأة ـ أخرى ـ امتلأ المقعد بشيء عكس له المثل الشعبي: «تبدَّلت غزلانها بقرود»... هذه المرة: تبدِّل قردها بغزالة!

ـ قال لنفسه: «أيوه يا شيخ... حتى لا يكون الطريق مملاً!!

التفت إلى جارته الجديدة في المقعد المجاور:

ـ «هاي.. هل تذهبين إلى باث»؟!

* ابتسمت له.. وقالت: «هاي... هل تعرف باث»؟!

ـ قال: جئتها من عدة سنوات... أحب أن أضيع فيها لمدة يوم واحد»؟!

* قالت: تحب الضياع؟!

ـ قال: «الضياع اللي بمزاجي... واللي أعود منه وقت ما أريد»!

* قالت: لا فرق... الضياع هو الضياع.

صمت... يفكر في موضوع آخر يواصل به حواره مع هذه البريطانية التي تبدو في الخامسة والعشرين، نحيلة القوام، متوسطة الطول، و...... شعرها شديد السواد.

ـ «آ..... شعرها الأسود، أهو... موضوع نفتحه»!

* قال لها كالمستأنف لحكم صمتها عليه: «هل يضايقك أن أسألك عن سواد شعرك برغم أنك شقراء»؟!

ـ ضحكت، وقالت له: ألم يخطر ببالك أنني أصبغه ليتحوّل إلى أسود؟!.. أشياء كثيرة في حياتنا صرنا نصبغها لنحولّها من لونها الأصلي إلى اللون الذي يرضينا أو يخدم مصلحتنا.

* قال: تدرسين الفلسفة؟!

ـ قالت: لا... أنا مهندسة ديكور، وحتى ترتاح.. أخبرك أن لون شعري أصلي، ولا تطلب تفاصيل أكثر.. لأنني سأنزل في هذه المحطة، وتمتع بوقتك في «باث».

ودّعها... وهمس: «يا خسارة... كانت من الصاعدين، فصارت من الهابطين».

هو.. سيهبط في المحطة القادمة «باث».

رحيل دائم... حتى في ما يظنه الإنسان استقراراً، فهو الاستقرار المؤقت، ولكنَّ الأشياء ترحل، والناس يرحلون، والشمس، والقمر، والزهور.

هذه «باث»... يحمل لها في صدره ذكرى يتيمة لا يريد أن يبعثها من جديد.

ليست ذكرى مؤلمة... فقد ركض فيها، وقهقه، والتقط صوراً تذكارية.. ما لبث أن مزقها بعد ذلك حتى لا يتذكّر مَنْ شاركته الرحلة قبل عامين إلى «باث»، ولم يكتشف أنها كانت من الطيور المهاجرة.. تحطُّ حيث الماء الغزير.

امرأة أخرى.. عبرت.

رحلة أخرى.. ستأتي.

وجوه... وجوه كثيرة: تمرُّ بنا باهتة، بدون أن يكون لها: موقف، ولا خفقة، ولا ذكرى.

إجازة... تبدو كما حقنة تخدير لآلامه، ولهمومه، ولمشكلاته.. يحاول فيها أن يتناسى صعوبات الحياة التي يعيشها حتى النقع... من أجل أن يحيا شهراً واحداً، «ينقع» فيه نفسه ليغسلها من توتُّرات عصره، ومن ملاحقات المشكلات له.

وفي كل إجازة... يعود، وقد تجمَّع هو في داخله، وتجدَّدت خلاياه وأوكاره.

دائماً. . . كان يترك على كرسي الطائرة التي تعود به إلى رطوبة «جدة»: صورة تذكارية جديدة. . . كأنَّ كرسيّ الطائرة يمثل بالنسبة له: ألبوم صور آخر، غير هذا الذي يحتفظ به في دولاب مكتبته المقفل!!

وانطلق إلى نفس الأماكن في «باث»: المبنى التاريخي الضخم، بحمامّه الذي مازالت مياهه التي تميل إلى الخضرة: ساخنة تنفث دخاناً. . وأمام ذلك المبنى: المقهى/ المطعم المعتاد، وقد تناثرت طاولاته أمام مدخليْه لتحتل نصف الشارع.

هناك. . . «اصطاد» طاولة رأى ثلاثة يتركونها، ورمى نفسه على الكرسي، وفتح حقيبته وأخرج «الكاميرا». . . لعل عدستها تلتقط وجهاً لا يكون غريباً بعد ذلك!!

* * *

(٢)

أمضى «زياد» نهاره كله في «باث».. رفيقته: الكاميرا وحدها، ورغبته في الانطلاق.. أي يتحول إلى مياه نافورة: يتبعثر، يدهش، يتأمل، يستريح، يتعب، يجري، يصعد، يهبط.

شيء ما قد حدث فيه.. لا يعرف كنهه!

هل انتحر ذلك الشيء في أعماقه... وما هو؟!

ربما كان الملل، أو الفراغ، أو... ذلك العشق «الطارئ» الذي اقتحمه بنظرات «مشاعر» التي تسدد إلى عينيه وعمق قلبه!

أسدل الليل ستائر ظلمته على الكون.. لم يعد «زياد» يرى الحقول والخضرة من نافذة القطار، بل صارت وجوه من حوله تنعكس على زجاج النافذة.. والقطار ينهب الأرض، والخواطر تنهب نفس «زياد»:

ـ تراها قد اتصلت به؟!

لا... لم ينتحر عشقه الطارئ في قلبه... مازالت المليحة «تنغبش» في صدره.

هذا عشق ديكتاتوري.. فرض حكمه على «زياد» بلا انتخاب، ولا

ديمقراطية.. تماماً مثلما يجري في أنحاء كثيرة من هذا العالم: الأحزاب هي التي تسيطر على قرارات الشعوب.

ـ زجر نفسه: «بس خلاص.. خلينا رايقين، منتعشين بالتاريخ القديم، وآيسكريم باث»!

لا بد من العودة إلى «ميتو مشاعر» على وزن عنوان الرواية العالمية: «العودة إلى ميتو شالح» للكاتب الساخر «جورج برنارد شو»!!

وكيف يعود إليها... إلاّ بواسطة خياله، وحلمه؟!

توقف القطار... هذه المرة: لا أحد يصعد، الكل يهبط.. المحطة الأخيرة لركض هذا اليوم.

حمل «زياد» حقيبته الصغيرة، علَّقها على كتفه، وأشار إلى التاكسي.

كانت سماء لندن ممطرة... يسميه: «المطر الغاضب»، فهو يتدفق بغزارة شديدة، والبرق ما يلبث أن يضيء السماء والأرض وجدران العمائر الشاهقة السوداء.

ـ قال زياد: أما هذه الليلة المرعدة، الممطرة، المبرقة... اللهم اجعله خيراً!.

دوى صوت الرعد عنيفاً.. حين كان «زياد» يهبط من «التاكسي»، ويهرب مسرعاً إلى بهو الفندق.

تلك الليلة.. استقبلته لندن بالرعود والصواعق... ربنا يستر.

في بهو الفندق... لفت انتباهه تجمُّع كثير من العرب أمام جهاز التلفاز.

اقترب متوجساً، ومازال يردد: ربنا يستر، وعلا صوته يسأل:

ـ «فيه إيه يا جماعة... خير إن شاء الله، هل هو خبر فرح عربي»؟!

* تسلّقت جسد زياد: نظرات واحد من المتحلقين حول التلفاز، حتى بلغت عينيه.. وقال له كأنه يخاطبه من كرشه المتورم أمامه بشكل ملحوظ:

ـ «هُوّا فيه خير بعد الآن في وطننا العربي التعيس»؟!

* استطرد شخص آخر يرتدي الثوب والعقال، فقال:

ـ «مصيبة يا أخي.. صدام حسين اجتاح الكويت»!

* في ذهول زياد.. تصاعد صوته: «ول.. ول.. متى حدث ذلك»؟!

ـ وقف بجانبه طفل في العاشرة يرتدي إلى الـ «تيشيرت» وقال له:

ـ «من الصباح عمو... والله من الصباح».

* قال زياد: «وأنتم من الصباح رابضون أمام التلفاز تتفرجون فقط كأنها مباراة كرة قدم»؟!

ـ قال صاحب الكرش: «وماذا تريدنا نفعل... فعلها اللعين».

قال لابس الثوب والعقال: «الله وكيلك... لم يرسل جيشاً، بل وحوشاً».

ركض «زياد» إلى المصعد، ورمى حقيبته المعلقة على كتفه فوق الأرض وكأنه رمى معها كتفه، وعقله.. وبادر إلى التلفاز يفتحه على القنوات البريطانية وبعض الأوربية.

لغط شديد في الأخبار، والتعليقات، وأخبار مزعجة عن حشود على وطنه، والتهديد بإرسال صواريخ إلى الرياض العاصمة.

أمسك بسماعة الهاتف، وطلب أخته في جدة:

ـ اختلط صوت أخته الفزع بصوته: «انت فين يا زياد.. تعال يا خويا، الموت مع الجماعة رحمة.. والاّ أقولّك لا تجي».

* اسمعي يا أختي.. من فضلك خلِّيني أتكلم، إنتم طيبين»؟!

ـ «طيبين يا زياد.. طيبين حتى الآن، لكنَّ المجرم صدام بدأ يهدد بإرسال صواريخ للرياض، كلَّمت بنت خالي في الرياض.. إطمئن».

* «طيب... أشوف لو لقيت مقعد على رحلة بكره».

ـ «يا خويا خليك حتى يضرب جيشنا هادا الكلب المسعور.. أخذ الكويت كلها، الله لا يبارك فيه».

لندن... ازدادت كآبة على كآبتها.

أزاح ستارة نافذة غرفته.. توقف المطر كالعادة، يزخ بغزارة ويتوقف.

الشوارع لامعة.. تنعكس على إسفلتها أضواء السيارات، وخيّل إليه: أن الناس لزموا بيوتهم لمتابعة هذا الحدث الجلل.

ولكن... ماذا يهم الإنجليز في ضرب العربي لأخيه العربي.. ألا يتفق ذلك مع شعار سياستهم التليد: فرّق تسد؟!

الموقف يختلف هنا... الخليج مصدر البترول/ الثروة.

طلب مكتب الخطوط بالهاتف.. لا أحد يرد.

ـ قال: «الصباح رباح... السهرة الليلة أمام التلفاز لمتابعة آخر حماقات وجنون ديكتاتور مغرور».

أفزعه رنين هاتفه المصاب بالخرس من وقت طويل.

رفع السماعة: «آلو... مين، مشاعر»؟!

ـ نعم يا زياد... بلدي راح يا زياد، راحوا.. أهلي، عشيرتي.

* «صلي على النبي... ليه بلدك عزبة؟!.. دا وطن، ومهم كمان.. لا تظني أن العالم سيبقى متفرجاً، مصالحهم عندكم وعندنا».

ـ «خالي وأهله هناك... هو بمثابة أبُو لنا، أبونا مات من عامين».

* «هوّني على نفسك... المصيبة تبدأ كبيرة، ثم تصغر، وتصغر، حتى تتلاشى».

ـ «أية تلاشي يا زياد... الكويت راح، راح».

صراخ، جنون، حماقة، خوف ورعب، حزن غامر، فجيعة وارتطام.

لا يدري «زياد» ماذا يقول لمن عشقها في تلك الليلة: «مشاعر».. لا يدري ماذا يقول لنفسه ووطنه مهدد بحماقات هذا الديكتاتور.. لا يدري ماذا يفعل، بماذا ينصحها تفعل ليفعل هو... فَهُم شركاء الآن في المحنة؟!

حيرة، قلق ينزف كالجرح.

كل الأبواب والنوافذ تُغلق أمامه.. يشعر باختناق.

أمسك سماعة الهاتف ليطلب «مشاعر».

وضعها ثانية.. تذكر أنها حجبت عنه رقمها، واكتفت هي بالحصول على رقمه.

حيرة... خوف كأنه الموت.

لا جديد في أخبار محطات التلفاز.

سأم.. كأنه اليأس البشع في وحدته هذه.

رنَّ جرس الهاتف.. التقط السماعة، سقطت منه، رفعها:

ـ «آلو.. أشكرك انك اتصلت، كنت في حيرة وخوف عليك... أريد أن نتحدث معاً، ولا أعرف رقم تليفونك».

* «اسمع زياد... سأمرّ بك في الفندق، فكِّر أين نذهب، أشعر باختناق يقتلني.. نصف ساعة وأكون أمام باب الفندق، انتظرني من فضلك».

الآن... لا شيء له طعم ومذاق، حتى الحب.

ها هي «مشاعر» تطلب منه أن يلتقيا.

ها هو.. تكبر مشاعره بحجم الوطن... لا شيء قبل الوطن ولا بعده.

ـ (يا سيدي الوطن... حفظك الله من الحاقد، والطامع، والمفسد.

يا سيدي الوطن... عشت عمري فيك: أقبِّل كل ذرَّة من ترابك.. أنت أكبر من دموع خوفنا، ورجفة أضلعنا، وعجزنا وقلة حيلتنا... عشقنا لك يسري مع الدم في الوريد، نحيا بحياتك، ولن تموت.. لأننا نموت دفاعاً عنك).

طفرت دمعة حزينة من حدقتيّ عينيه، لم يحاول مسحها، فهي شاهد عصر يُروِّج لنذالة الضعفاء مهما بلغ جبروتهم.

قام وتوضّأ... واستقبل القبلة حسب ما قدرَّه من جهة نحوها، وصلى ركعتين.

ارتدى ملابسه، وهبط إلى بهو الفندق.

ما زال التجمع العربي أمام التلفاز... ناداه صاحب الكرش:

ـ أخُو... بيّض الله وجه أميركا.

❊ حدّق في وجهه، وبعد صمت قال له: وقبل ذلك.. بيّض الله وجه المملكة، تلقت في صدرها عنفوان هجوم صدام الحاقد بعد اجتياحه للكويت، وردَّت على هجومه بلا تردد... فلا يمكن أن يدخل أصبع قدم إلى أرضنا.

لم ينتظر التعليق.. وقف ينتظر «مشاعر» ما بين بوابتي الفندق الزجاجتين متوتراً، جريحاً كصقر.

وقفت عربتها المرسيدس، وركض إليها، وغاب داخلها.. وانطلقت بهما العربة.

لأول مرة يجلس بجانبها، لا... بل بقربها.

مدّت يدها تصافحه، احتضن كفه كفها، وقبَّله.

شاهد الدموع تنساب من عمق بحيرتي عسل عينيها.

أخرج منديله، وأخذ يمسح دموعها على وجنتيها.. وهي مستسلمة له، تمعن النظر في وجهه، وعينيه.

ـ قالت: أشكرك زياد... ما كنت أعرف أنك تفيض بهذا الحنان.

❊ قال: لا تشكريني... فعندي دموع مثل دموعك تحتاج إلى أصابعك بلا منديل لتجفيفها.

كانت الدموع تجول في عينيه.. وصوته يجهش بشيء كالبكاء، لكنه أكبر

من هذا البكاء.. في حجم الطعنة والفجيعة.

ـ قال لها من خلال حشرجة صوته: ما كنت أتوقع هذا اليوم الذي تتجسد فيه: فجيعة عربي في عربي!

ضغطت على يده.. وهمست: إلى أين نذهب؟!

ـ قال: الحزن، والغضب، والفجيعة.. تجمعوا في معدتي الآن، عندما أزعل تبدأ شراهتي للأكل!!

استطرد يقول لها: اضحكي... والله ستعود الكويت، كثير في العالم لن يسمحوا لصدام الخمّام أن يفرد عضلات حقده.. الآن اختاري لنا مطعماً يسد غائلة الجوع، وإلا أقول أنا؟!... إلى السماء الزرقاء!!

* * *

(٣)

تلك الليلة: الشبح البغيض الذي تضخَّم فيه فساد حلم الوحدة العربية بعدوان «صدام العراق» على جاره.

تلك الليلة: ترتدي وشاح الحقد الأسود... وقد انحسرت عنها الأضواء في الشارع العربي، وتكثَّفت الدموع في العيون العربية: حزناً على تمزق عربي جديد.. لكنه يأتي هذه المرة أكثر خطورة مما سبقه من التمزقات.

لقد نال التمزق من وشائج الدم وأواصر القربى بين العربي والعربي.

استطاع جنون «صدام» أن يحدث الانقسام فيما يسمونه: الشارع العربي... بل هو: الوجدان العربي، بما ينذر بنسف تلك الوشائج والأواصر.

ـ قالت مشاعر لزياد في المطعم: أعتذر لك عن هذا التوقيت السيء الذي اضطررت فيه أن أدعوك للعشاء أو تدعوني أنت.

* قال محاولاً أن يسري عنها: لا.. أنا الداعي، هل نسيت أننا عرب، ليس بيننا نساء تدفع، الرجل هو الذي يدفع.... بالتي هي أحسن!

افتر ثغرها عن نصف ابتسامة، ولكنها بدت أمام «زياد» مثل تمثال مدام

«توسو» في متحف الشمع، تنبض بجهاز من داخلها. . أو أن قلبها تحول إلى جهاز يضخ الدم فقط.

ـ قالت له: ما زلت مُصرًّا على عرض الزواج؟!

* فغر فاهه. . ربما دهشة، أو خوفاً. . وقال لها: أرجوك لنؤجل الحوار عن هذا الموضوع بالذات إلى وقت آخر.

ـ قالت: هل غيّرت رأيك بهذه السرعة؟!

* قال: بالعكس. . . زدت تشبُّثاً بك، ولكن. . . ليس في هذه الليلة.

ـ قالت: بل في هذه الليلة. . . هي ليلة المآسي والنكبات، ودعني لا أجزِّيء لك الألم، أو كما تقول: الفجيعة. . . . . . .

* قاطعها: من فضلك. . . لا تتكلمي، وصلت رسالتك.

ـ قالت: لا. . . لم تصلك بعد، ولا تفهمها خطأ. . إنني لا أرفضك يا زياد.

صمتت قليلاً كأنه الوجوم. . و«زياد» تصطكّ ساقاه تحت الطاولة، ويزداد وجيب قلبه.

ـ استطردت تقول: كان من المفروض أن أدخل المستشفى بعد أسبوعين لإجراء عملية في صدري. . . سيجتزون ثديي الأيمن لأنه. . . . . .

صرخ، بكى. . اندفع بكل شعوره المجنون يلقي رأسه على صدرها أمام الناس في المطعم دون أن يعي، وهو يجهش قائلاً:

ـ أرجوك. . . لا تكملي، أعرف حظي.

* غطت يدها شعر رأسه وأصابعها تتخلل سواده، دون أن يحفلا بكل زبائن المطعم، وهمست:

ـ ليس حظك يا زياد... بل قدري، الأطباء أكدوا لي أن الشفاء التام من هذا المرض اللعين كصدام الآن في الكويت، سيتم بعد العملية... أنا التي أرجوك: لا تحزن، لا تلعن حظك.. ألست حظك فكيف تلعنني؟!

* رفع رأسه من عمق صدرها، ودموعه تنساب.. همس: ألعن نفسي... ولن أرضى بغيرك أنثى بديلة، رفيقة لحياتي... معك أيتها المليحة سيستمر الحلم متوهجاً، مشتعلاً بالأمل.

تلك الليلة... ما تفاوتت فيها الأشياء، وإنما تجمّعت، وتمازجت، وتآلفت.

فهل الحزن: هو الأقدر على هذا التجمع، والتمازج، والتآلف؟!

هل الخوف من المصير: يوحِّد المشاعر، ويُقرّب الأبعدين؟!

كانت العبارة: عبارة «مشاعر» التي اختلطت بلمعان دموعها في ليل لندن المغسول بالمطر. وكانت كلمات «زياد»: سطراً احتشدت فيه معاني الانصهار والذوب.. تلك التي تكوّنت من أنفاسهما، ونبضهما، و... رجفتهما.

كأن أجراس الخوف والوحدة القاتلة.. يتعاقب رنينها في ليلة غاب عنها الهمس، وضاع صدى أمواج النفس، وآمن الصمت بينهما بالترقب المتعاقب!

ـ قالت مشاعر: لنذهب.. فقد تأخر بنا الليل، سنذهب في الصباح إلى السفارة لنجتمع، لنتكلم، لنصرخ معاً.

* قال زياد: سألحق بك في الصباح إلى سفارتكم.. كلنا في الهم شرق.

ـ سألته: ألا تنوي السفر، والحجز في الغد على الرحلة القادمة؟!

* أجابها: مازلت أفكر... هل أتركك هنا وحدك؟!

ـ قالت: وأهلك... أنت لم تحدثني عن عائلتك ومجتمعك الأسري، مثلما أنني لم أحدثك... سرقنا الهم والفجيعة.

حملتهما السيارة إلى داخل لندن... زياد تولى قيادة سيارتها.. هي لا تستطيع، فالدموع في عينيها أكثر من الرؤية، والأشياء.. والكويت وطنها يملأ كل عينيها وأرجاء قلبها الموجوع بمحنته.

اخترق صوت «زياد» صمتهما المؤلم.. في محاولة منه لامتصاص معاناة «مشاعر».

ـ قال لها: صحيح... من أنت كلك، ما هي حكايتك؟!

* سرى صوتها موهناً: الآن... من حقك أن تعرف، ومن حقي عليك أن تحكي.

صمت قليلاً.. إلى أن قالت: أنا من عائلة كبيرة موسرة، من جدي إلى أبي.. والتجارة الناجحة المتطورة: رزقنا، وسعة مستوانا المعيشي.. عرق الجهد والكفاح في أسرتنا: «وايد»/ واجد.... ومع ذلك العرق كانت أبواب الثروة تُفتح واحداً وراء آخر.

أمي التي رأيتني معها في المطعم.. امرأة عاصرت عرق ذلك الجهد والكفاح مع أبي، واحتملت أسفار التاجر الكثيرة أو المتلاحقة.

كان جدي في البدء: نوخذه.. صارع البحر حتى أضناه، واتجه إلى الهند.. ومن هناك بدأت تجارته.. جذور عائلتي تنبع من عمق الجزيرة العربية، وهكذا نشأ أبي في مناخ التجارة.. علمه جدي، ودفعه إلى التجارب، إلى الخسارة والربح.

وحين بلغت الخامسة والعشرين.. أعادني أبي من أميركا حيث كنت أدرس وأقيم أكثر شهور العام، و.... أبلغني خبره الصاعقة: لا بد أن أتزوج ابن عمي!

وجدت عندي جرأة الفتاة المتعلمة، المتخصصة في الاقتصاد والإدارة.. التي قالت لأبي: لا... آسفة لا أريد ابن عمي.. لكنَّ أبي أصرّ، ويومها قلت لكل أسرتي: لم نعد في ذلك المجتمع القبلي المغلق، وابن عمي أتعامل معه كأخي تماماً، بالإضافة إلى أنه لم يكمل تعليمه الجامعي.. فكيف نتفاهم، وتتوافق آراؤنا؟!

وذهب رفضي وصراخي أدراج الرياح... ودفعني أبي بديكتاتورية الأبوَّة القبلية إلى حضن ابن عمي قسراً.

احتملت العيش معه عاماً كاملاً رضوخاً لأمر أبي، وحرصاً مني على عدم إغضابه.

في سن السادسة والعشرين.. فقدت أبي فجأة، مات أبي حينما كان نائماً في فراشه، سكتة قلبية.. ووجدت أن السبب الذي من أجله احتملت الزواج عاماً كاملاً من شخص لا أحس به زوجاً.. كان سبباً لاغياً، فطلبت الطلاق، واستجاب ابن عمي فوراً، واعتبرته رجلاً بحق.. طالما أنه تأكد من رفضي له زوجاً.. خاصة بعد أن قلت له إثر تشييع جنازة أبي:

ـ إسمع... لنفترق بإحسان بعد أن تعاملنا ـ على مضض ـ بمعروف.. صدقني أنت ستبقى لي بمثابة الأخ.

* سألني يومها: إذن صارحيني كأخ بالفعل.. هل في حياتك رجل آخر؟!

ـ أجبته: يستحيل أن يكون في حياتي رجل آخر، وأنت زوجي.. هكذا أدَّبني ديني، وشذّبتني تربية أهلي لي.

ليس لي إخوان أولاد.. هي أخت واحدة فقط التي رأيتها معي في المطعم.. وهذه هي كل أسرتنا، ونحب خالنا جداً.. فهو الذي وقف معنا وساعدنا بعد وفاة أبي.. وهو الذي شد من أزري وعضدي، ووضع في عزيمتي القدرة لأتسلم إدارة شركات أبي، حتى صرت: حاذقة، بنت سوق كما يقولون، شاطرة في التجارة.. ونجحت ولله الحمد في القيادة.. لم يهبط مستوى الربح، بل ازداد.

وهاأنذا... امرأة مطلقة، يتيمة الأب، مديرة شركات قد الدنيا.. في الثلاثين من عمري، و........ بس!!

ساد صمت... بل سكون، حتى قالت «مشاعر» مندهشة:

ـ زياد... ويش فيك يا عمري.. وين ها السرحان؟!

* قال بذهول: أنتِ.... كل هذا الذي رويته لي؟!

ـ قالت بدهشة: نعم.. أنا كل هذا، وكل هذه وهاذوكا... خير يا طير؟!

* قال: أنا.... أنا.... أنا شاب بسيط، موظف أعيش على راتبي

فقط.. بعد أن أقتطع منه: قيمة الكهرباء التي تضاعفت، والماء، وبنزين السيارة، وقيمة السندويتش الليلي.. وأملك «فُلَيْلة محندقة على قد لحافي».

فقدت أبي في سن مبكرة: سني وسنه، فقد زوجوهما ـ هو وأمي ـ في سن صغيرة... لكنه مات، هكذا.. عمره خلص، أو هكذا فلسفوها دون أن يهتموا بأمراض خبيثة!!

أمي فقدتها بعد أن أصرت ـ مثل أبيك ـ على تزويجي بمزاجها أو باختيارها.

ـ قاطعته مشاعر: ها........ إنت متزوج؟!

* التفت إليها مبتسماً ويداه تتشبثان بمقود السيارة: أصبري.. بلا لقافه، هل تعتقدي أنني سأزيد واحداً في نسبة الرجال الذين يسميهم نساءهم: خونة؟!

استهدي بالله، واسمعي: مثلك عشت مع زوجتي «نقاوة أمي» عاماً كاملاً.. حتى اقتنعت أمي قبلي أنا بتنفيذ الحكم الإسلامي الجميل: «عاشروهن بمعروف، أو فارقوهن بإحسان»... وكان الإحسان في النهاية، وبقيت عاماً آخر.. فقدت في قفلته أمي الحبيبة التي كانت هي كل شيء في حياتي، أو هي كل حياتي الجميلة والسعيدة والحزينة.. ودخلت إلى عقد الأربعينات.

«أمتلك... ها: أختاً بالرضاع، ولا تسأليني: مين رضّع مين، مثل هذه اللخبطة المؤذية كانت منتشرة في جيل أمي»... وهي أخت تخاف عليّ، هاتفتها البارحة، وكانت تبكي.

ليس عندي أعمام، بل عندي عمة واحدة... يبدو أن أبي رحمه الله، كان «فاصوخة» جدي!

أخوالي ثلاثة: مات منهم واحد قبل سنوات، وتبقَّى اثنان.. كنت أصر على مواصلتهما، وزيارتهما، والسؤال عنهما.. وباعدت بيننا المسافات ومشاغل الحياة: الأول يعيش في الظهران، وعلمت أنه كان يأتي إلى جدة ولا يزورني، بل ولا يهاتفني.. والآخر رجل أعمال أبر من الدنيا، يبدو أنه ليس لديه وقت ليسأل عن ابن أخته الموظف الكحيان!!

وصلنا فندقي... خذي مقود السيارة، وأراك غداً في سفارتكم.

* * *

(٤)

لم يجد في بهو الفندق أحداً.. طارت الطيور بأرزاقها.

التلفاز مقفل، وعمال التنظيف يؤدون مهمتهم.. سأل موظف الاستعلامات وهو يسترجع مفتاح غرفته:

ـ «فين الربع.. كانوا هنا يتحلّقون أمام التلفاز لمتابعة الأخبار»؟!

* «أجابه الموظف: خرجوا مثل كل ليلة.. يسهرون ويعودون بعد الثانية صباحاً.

قلَّب المفتاح في يده وهو يهمس: «يحيا الوطن»!

في الصباح سيطلب أخته وعمته ليطمئن عليهما.. ما تبقى من محطات تلفازية لا جديد فيه من الأخبار.

رمى جسده على السرير العريض جداً.. وهو يهمس:

ـ تلك الليلة... هذه الليلة: اختلط الفرح بالألم.. الأمل بالخوف.. الحب بالحقد!

لا يدري.. كيف يفلسفها، ولا بماذا يعنونها.. شيء كالأحلام التي تتخللها كوابيس مفزعة.

«مشاعر»: هي الأحلام... وعدوان صدام على الكويت وعلى وطنه: هي الكوابيس.

مَنْ يُصدّق أن عربياً يعتدي على جاره العربي، أو يطمع في ثروة أرضه؟!

هل هي عودة إلى البدائية، وحرب البسوس، وإغارة القبائل بعضها على البعض الآخر... ومتى.. في نهاية القرن العشرين الحضاري، والهبوط فوق سطح القمر.. وفي عصر تفجير المعلومات، والخدمات الفضائية، والتكنلوجيا؟!

خبط «زياد» رأسه على حافة السرير دون أن يحس.. آلمه فوضع كلتا يديه على هذا الرأس المثقل بالأفكار، وبالأسئلة الجارحة لتاريخ أهله العرب، وبالصور التي يتخيلها من حصيلة الحرب التي يهدد فيها «صدام» باستخدام القنابل الجرثومية، وما يسمونها قنابل الخردل!

هذا المجنون.. ماذا يفعل بأهله العرب؟!

يشغلهم عن قضايا الوطن العربي الكبير.. عن خطط التنمية لأقطارهم وشعوبهم.. ويتسبب الآن في إهدار ثروة الأرض: ميزانية السلاح، وتكلفة للحرب الظالمة.

ـ همس: حقاً... هل نحن في ثمالة القرن العشرين.. أم في ثمالة العقل العربي، والحصافة العربية؟!

انتاب «زياد» حزن لا يحتمله الآن وهو وحده في غرفة فندق الغربة.

شعر أن أمعاءه تتقلص.. تتلوى في داخله، هكذا هو عندما يفتك به الزعل والغضب.

ـ قال: الخطورة ليست في هذه الحرب التي سينعكس تأثيرها على خطط التنمية.. بل في آثارها النفسية بعد ذلك.. وفي هذا الانقسام العربي الذي دبّر له «صدام»، فإذا الإعلام العربي يتبادل الشتائم ضد نفسه!

رنّ جرس الهاتف.. سمع صوت «مشاعر»:

ـ ألم تنم بعد؟!

* أنام؟!... وهل أبقى، صدام في عيوننا، وصدورنا، وعقولنا: راحة.... وأنت؟!

ـ حاولت الاتصال بخالي في الكويت... يبدو أن الخطوط نسفت في الحرب.. قلقة يا زياد.. على الكويت، وعلى أهلي.... وأنت؟!

* فكّرتُ أن أتصل بأختي وعمتي في الطائف.. الوقت متأخر، سأطمئن عليهما في الصباح.. هل سمعت أخباراً جديدة؟!

ـ نعم... أميركا ستضرب هذا الكلب، وبلدك حبيبه.. يتلقى حقد صدام مع الكويت وفتح ذراعيه لاحتضان كل أبناء الكويت الذين نجحوا في التسلل من جهنم صدام.

* كلنا إخوة.. ووطن واحد، هذا يوم امتزاج الدم.. لا تخافي، سيندحر الطاغية.

ـ ماذا ستفعل غداً.... عفواً: اليوم، فقد بلغت الساعة الرابعة صباحاً؟!

* سأذهب إلى سفارتنا أولاً، ومن بعدها إلى الخطوط لأحجز في أقرب رحلة.. ثم أوافيك في سفارة الكويت/ بلدك.

ـ إسمع... لو شقَّ عليك الأمر، فلا تكلف نفسك.. المهم أن تخبرني بما ستفعل، ألا تأخذ مني رقم هاتفي؟!

لم ينم «زياد»... ظل يتقلب فوق سريره، كأنه سرير فقير هندي مغطى بالمسامير.

لم يشق نور النهار كبد السماء... لكنَّ خيوط الفجر أخذت تتسلل من بين قطع السحب الكثيفة.

ـ قال: الله يستر مع المطر.

يعشق المطر، والشتاء... ربما لأنه يعاني طوال السنة من الحرارة والرطوبة، وشح الأمطار في جدة.

لكنه هذه المرة.. لا يميل إلى المطر، لا يتمنى هطولها.

ضغط على زر التلفاز.. يتنقل من محطة إلى أخرى.

محطة الـ (CNN) على الهواء منذ اندلاع جنون صدام.. أمريكا ضربته، وهو كان يريد ضرب منابع البترول في المنطقة الشرقية من المملكة.. وجّه صواريخه إلى هناك، ثم إلى العاصمة الرياض.

صواريخ «باتريوت» المضادة لصواريخ صدام: تصطاده في الجو.

لقطة مصورة شاهدها على الشاشة: الناس في شوارع الرياض يتكلمون عن هذا الـ «باتريوت» بإعجاب.

في الليلة الثالثة: صعد الناس إلى أسطح المنازل لمشاهدة انطلاقة الـ «باتريوت» بأضوائه، ثم وهو يرتطم بصاروخ صدام المعتدي ويفجره.

حطام صاروخ في أرض بجانب مبنى الجوازات الذي هدّم الصاروخ

أجزاءً منه... والناس يتواجدون هناك.

يتغير المشهد مع خبر آخر: الصورة من الكويت.. جنود المعتدي ودباباته تدمر كل شيء.. لقطات للخراب.

ـ قال زياد: عجيب.. كيف التقطوا هذه المشاهد؟!... الأقمار الصناعية، طائرات الأواكس.

غمر النوم عينيّ «زياد».. أغفى والتلفاز مفتوح.

ساعة، ثلاث ساعات... هب من نومه مفزوعاً كأنه كان يشاهد حلماً مزعجاً.

ـ همس: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

تمتع بحمام دافئ، وارتدى ملابسه على عجل، وهبط إلى بهو الفندق: سكوت، وحشة، لا أحد... مازالوا نائمين.

أوقف التاكسي في طريقه إلى السفارة.

شق طريقه في زحام الناس من أهل بلده المتواجدين في لندن.. لغط، أصوات تتبادل. الأخبار المفزعة والمفرحة.

بعد لحظات.. خرج عليهم السفير في قاعة كبيرة جمّعوهم بداخلها.. طمأنهم، وأبدى كل مساعدة يريدها مواطن يزور بريطانيا الآن.. لخّص لهم واقع الحال.

ـ سأل بصوت مرتفع: هل نستطيع أن نعود إلى وطننا.. أقصد: هل المطارات مفتوحة؟!

* رد المسؤول: طبعاً.. تستطيع العودة، لا شيء يمنعنا عن ممارسة

حياتنا الطبيعية في بلد الأمن والأمان... وهذا العدوان إنما هو اختبار لصمودنا... الله معنا.

خرج «زياد» من السفارة إلى مكتب الخطوط.. نفس الزحام، لا..... بل أكثر مما شاهده في السفارة، والتعليقات التي سمعها أكثر مبالغة.

وقف في الطابور.. والوقت يمرّ بطيئاً، ولم يصل إلى «كاونتر» موظف الحجز.

انسلّ من الطابور.. وفي رؤيته ورؤاه: وجه «مشاعر»، دموعها، بكاؤها.

استقل سيارة أجرة إلى السفارة الكويتية.

خاض زحاماً آخر.. عيناه في أعلى رأسه، ونظراته مبعثرة يحاول بها اصطياد وجه «مشاعر».

نظر إلى ساعة يده: الرابعة بعد الظهر.

ـ قال: لا بأس.. من ساعة أخرى.

فجأة.. حطت يد رقيقة على كتفه، وصوت «مشاعر» الحافل بالشجن يقول من وراء ظهره:

ـ كنت أبحث عنك.. قدَّرت أنك ستنتهي من مشاويرك في هذا الوقت.

* قال: منذ ساعة ونصف وصلت، وبحثت عنك.... ها، ما هي الأخبار؟!

ـ قالت: شُكِّلت لجان عدة للإعلام، ولبحث حالة الأسر الموجودة في

بريطانيا.. الدموع بلا حدود، والخوف يضج في الصدور، وأنت..... هل وجدت حجزاً؟!

* قال: طابور طويل... فاض صدري وهربت، غداً إن شاء الله من الصباح الباكر أداوم أمام مكتب الخطوط.

ـ قالت: هل أنت مضطر للعودة؟!

* قال: لا... تبقَّى من إجازتي أيام تقارب نصف الشهر.

ـ قالت: وتتركني في هذا الحال؟!

كأنها تترك رسالة من وجدانها إلى قلبه: أريدك.

* قال لها: متى يحين موعد عمليتك؟

كأنه أيقظها من غفوة.. وتدفق حزن اختلط بلونها القمحي، قالت له:

ـ أية عملية الآن يا زياد؟!.. وطني يُذبح.. هو في غرفة عمليات القسوة يحاولون أن يسرقوا منه القلب، والنظر، والنبض.

* قال: وطنك لن يموت.. الأوطان تبقى إذا ما استمرت شعوبها في الكفاح لتحريرها، والتاريخ مليء بالأمثلة والمواقف.. أنت يا «مشاعر» لا بد أن تبقي لوطنك.. فالأوطان بدون إنسانها: يباب.. ولا بد أن تجري العملية في موعدها.

كانت تضع ساعديها على صدرها.. أمسك بهما وهو يقول مبتسماً:

ـ لنفض اشتباك القلق والحيرة.. هات يدك في يدي، هل أراك هذا المساء؟!

تشبَّع وجه «زياد» بنظرة طويلة عميقة من عينيها.. وخيِّل إليه أن

«مشاعر» تحاول كبح جماح دموعها التي تغرورق بها عيناها.

❊ قالت: سأكون في البيت، كلِّمني.

افترقت كفَّاهما في لحظة يزداد التحام خفقانهما معاً.

حمله التاكسي إلى الفندق: منهكاً بعد يوم صعب لن يحسبه من أيام الإجازة، إلاّ اللحظات التي ارتوت فيها نظراته من وجه المليحة... وكأنه في حلم غير متجانس ما بين السعادة، وبين الشقاء.. ما بين الخفقة وبين انقباض الصدر.

ـ سأل نفسه: هل أتركها وحدها... مَنْ لك هناك يا واد يا زياد؟!

أخته بالرضاعة.. مع زوجها وأولادها، وعمته في بيتها.

وطنه لن يضام... الحقد عابر لأنه يقتل نفسه.

ـ أراد أن يغفو قليلاً... لعله يكحل عينيه بوجه «مشاعر».. لكنها ساكنة في هاتين العينين، وتحت الجفنين أبداً.

❊ ❊ ❊

(٥)

ليلة أخرى في السفر. . . وطنه يتّقي صواريخ المعتدي بالتعامل معها حتى يفجرها في الجو. . ووطن المليحة يكاد يغرق في هوان احتلال «صدام» له، وتمزيقه من الداخل.

تلك الليلة. . . جاءت ـ أيضاً ـ مؤلمة، جُنَّ فيها تفكيره، ووهنت ملاحقاته الهاتفية للحبيبة «مشاعر».

في اللحظة الأخيرة داخل سفارة بلدها. . طلبت منه أن لا يتعجل في سفره. . طلبت منه أيضاً أن يحادثها في الهاتف مساء.

هذا هو المساء. . وهاتفها لا يرد على ندائه:

ـ تراها إلى أين ذهبت. . هل مازالت في السفارة؟!

تلك الليلة. . . يسترجع «زياد» ثوانيها الآن، ومازال يُحدِّق في خلفية الصورة، ووجه «مشاعر» في ذلك المطعم: يبدو متموّهاً ما بين الظلال والأضواء.

إنه يتذكر الأحداث بكل تفاصيلها ودقائقها. . ساعة بساعة. . لحظة بلحظة. . همسة بهمسة. . ورغَد كف «مشاعر» في دفء كفِّه، وابتسامتها الحزينة كضوء شمعة.

شعر في تلك الليلة أن «مشاعر» تضيع منه. . . وهي التي أقامت جسر التواصل بينهما بعد صدودها الأوليّ عنه.

أعاد الاتصال الهاتفي بها، ربما للمرة العشرين.

أخيراً. . . استجاب الهاتف، ولكن. . . هذا ليس صوت المليحة، أصغي:

ـ أنا أمها يا ولدي. . مشاعر نائمة، تعبت في السفارة طوال اليوم وأحست بألم، وأوصى الطبيب لها بدواء تناولته ونامت.

شعر أنه جُنّ. . تردد أن يستأذن أمها في زيارتها، قال بعد صمت:

ـ ولكن. . . . هل هي بخير الآن؟!

قالت أمها: إدعي لها يا ولدي. . . الآن هي أفضل.

ـ قال بصوت يكاد يختنق بالعبرة: من فضلك. . لن أخرج من الفندق. . لو استيقظت، دعيها تتصل بنا.

طال به الليل كأنه دهر. . والهاتف أصابه الخرس، برغم أنه اتصل بأخته في جدة، وبعمته في الطائف للاطمئنان عليهما.

ـ قالت له أخته بالرضاع ساخرة: «صدام اللعين لم يتعب. . هذه هي الوحدة العربية التي كان يخدع العرب بشعاراتها، و. . . . . . أمجاد يا عرب أمجاد»!!

قالت له عمته بفزع المرأة الضعيفة التي لم تنل قسطاً من التعليم: «إلهي يهدُّه البعيد، ويوقِّف نموّه»!

ابتسم في لحظات الهمّ العصيبة.

بقي في غرفته قلقاً، حائراً.. يكاد يختنق في وحدته هذه، وبهواجسه المختلطة.

الساعة الآن شارفت على التاسعة مساء... هل يعيد الاتصال بالمليحة، فقط ليطمئن عليها؟!

لم يحتمل.. فاض صبره، وطلب رقم هاتفها.

هذه المرة.. ردت أختها، اعتذرت له بأنها ما زالت نائمة.. ربما هو مفعول الدواء إلى الصباح.

فهم رسالة أختها المهذبة: «لا تتصل»!

طلب من «الروم سيرفس» أنواعاً من المأكولات.. هكذا يفعل عندما يعاني من الزعل، أو القلق، أو الغضب: يأكل بشراهة، ثم.... ينام «يتخمد»!

وفعل ذلك بسرعة: طلب الأكل، وانتظر إحضاره له أمام التلفاز، وصور وتقارير الـ (CNN)... وطنه صامد، بل مدافع قوي أمام جبروت حقد هذا المحتل الغازي: (الأخ والشقيق)!

ـ في تردّدات صوت أعماقه قال: «انقلبت الدنيا.. أشياء كثيرة لا بد أن تتغير بعد انقشاع هذه الغمة.. أشياء أكثر تحتاج إلى تحجيم، وهناك أشياء سائبة لم نضع لها عناوين حتى الآن.. لا بد من وضع عناوين لها للتعرف عليها، والتعامل معها في هذه المتغيرات الدولية، والاقتصادية، والاجتماعية!

أكل... شبع... ونام «مخموداً» محبطاً كأنه في قاع بئر سحيق!

في الصباح ـ قبل أن يغسل وجهه ـ امتدت يده وهو مازال غارقاً في سريره، وطلب المليحة.

ـ جاءه صوت أمها بارداً جداً كصباح لندن.. قالت له: خرجت قبل قليل.

«سألها: هل ذهبت إلى السفارة؟!

ـ أجابته: يمكن... ولديها أشغال أخرى.

خرج من الفندق، وأوقف سيارة أجرة، وطلب من السائق أن يأخذه إلى مكتب الخطوط.. شعر أن خطواته هذا الصباح تتحرك بآلية، أو أن تفكيره معطل، وتزدحم في رأسه آلاف الأسئلة.

خف الزحام داخل مكتب الخطوط الجوية.. أكد حجز عودته إلى جدة في اليوم التالي.

مهمة صعبة.. قام بها وتنفَّس الصعداء، ولا شيء يفعله بعدها.

عاد إلى الفندق.. ناوله موظف الاستقبال مفتاح غرفته، و.... رسالة!

قلَّب الرسالة بين يديه.. خط نسائي، لا أحد يكتب له هنا، فهل تكون الرسالة من «مشاعر»، ولماذا.. ماذا فيها؟!

في غرفته.. فض مظروف الرسالة بيد مرتعشة، حريصاً على قراءة التوقيع قبل الرسالة:

«الصادقة معك/ مشاعر»!

اصطكت أضلعه في رجفة كأنها زلزال يخلع قلبه: ما الذي تريد أن تقوله.. وهل كانت مساء البارحة نائمة بحق؟!

انخرط جسمه داخل الكنبة، وأخذ يقرأ:

(الإنسان المميَّز في اعترازي به/ زياد:

صدقني.. إنها لحظة قاتلة بالنسبة لي، وأنا أعتزم كتابة هذه الرسالة لك.

أريدك ـ في البدء ـ أن لا تسمح لسوء الظن أن يتلبس أفكارك، ولا حكمك عليّ... فأنا لم أخدعك، ولم أكذب عليك، ولم أتصل بك في لحظة أسوداد الدنيا في وجهي لأتركك للتفكير، بعد أن أفيق، لا يا زياد.... أنا ـ حقاً ـ أحببتك.. أحببت: رجولتك.. أحببت: حنانك.. أحببت: مواقفك التي جسدت أمامي أفكارك الحصيفة.

نعم... أحببتك يا زياد، تدفَّقْتَ أمامي كنهر رقراق في شدة ظمئي.. انساب صوتك في سمعي: موسيقى رقرقت كل الأصوات النشاز من حولي... وحين احتضنت كفك كفي في عمق دفئها، شعرت أن الحياة صارت أجمل، وأنك الوحيد الذي يمكنني أن أمنحه: ألفتي، وسكني، وكل عمري.

مازلت أذكر تلك الليلة ـ لعلها اليتيمة ـ التي لم أحتج فيها رجلاً من قبل مثلما احتجتك فيها أنت وحدك.. وفي طريق عودتنا من المطعم: كنت ألخص لك حكاية عمري، وأفتح لك بوابات نفسي.. وامتدت يدك إلى شريط سألتني عن مضمونه: مَنْ يغني؟!.. فأجبتك: لا أحد يغني لي سوى «عبد الكريم عبد القادر»، وقلت لي: أنتِ منقوعة في الحزن، وشامخة بالسمو!

أوه يا زياد... ماذا تظنني أقول لك الآن عن حزني؟!.. وطني،

وحبي.. لا أريد أن أفقدكما، ولا أفقد أحداً منكما، ارتبطت أنت بفجيعة عقلي المنتمي إلى حضارة القرن العشرين في كل ما حدث لوطني.. وارتبطت أيضاً بهذا الأمان النفسي والعاطفي الذي سكبته أنت بين ضلوعي... حتى جنّ تفكيري بك وفيك، أردّد كالمهبولة: كيف أتخيّل أن أفقدك، أو....

أخرجك من حياتي عنوة، وبكل قسوة السيّاف الذي يقطع الرأس؟ !!!

نعم يا زياد ـ يا حبيبي ـ سأخرجك من حياتي عنوة.. سأقطع رأس قلبي قبل أن أقطع رأسك هذا الذي انزرع في عمق صدري.

أريدك.... والله أريدك، صدّقني.

ولكن... ظروفي تقف لك بالمرصاد، ظروفي الصحية أولاً وآخراً، وظروفي العائلية... البارحة قالت لي أمي عنك: زياد رجل بمعنى هذه الكلمة.. أنتِ وصفته لي، وحدثتني عن فروسيته، فلماذا تظلمينه معك؟!!

هل رأيت.. تحالفت أشياء أخرى أيضاً ضد قلبي وقلبك، أرجوك لا تسألني عنها الآن.. «ربما تجمعنا أقدارنا ذات يوم بعد أن عزّ اللقاء» وأحكي لك.. فإذا لم تجمعنا هذه الأقدار.. أرجوك ـ يا زياد ـ بحبنا: أن لا تظلمني، ولا تكرهني.. دعني في صدرك غرسة ذكرى لتلك الليلة الجميلة!

أرجوك... لا تسأل عني، لا تطرد ورائي... لا أريد أن يسقط تعبك في الخيبة.

الصادقة معك/ مشاعر)

سقطت الرسالة من يد «زياد»، وافترشت بعض سطورها: دمعة سقطت

هي الأخرى من عينيه، وقد جلّله السكون كالموت، وسرت في عروقه برودة لا تنتمي أبداً إلى برودة طقس لندن.

هل انتهت الحكاية للأبد؟!

هل سُرقت «تلك الليلة» من عمره للأبد أيضاً؟!

هل يستسلم لدافعها الغامض الذي لم تفصح عنه، ويوافقها على قرارها؟!

هل الدافع ينحصر في سرطان ثديها فقط، وهي ستجري عملية لاستئصاله.. أم هناك ثدي آخر في حياتها؟!

تعددت أسئلته البادئة بكلمة: «هل»... دون أن يجد إجابة على «هل» واحدة.

يده تمتد إلى الهاتف وتنحسر كالمد والجزر: هل يتصل بها.. هل تكلمه؟!

رنين هاتفها مستمر، ولا أحد يجيب.

بقيت يده ممدودة إلى الفراغ، معلقة في الفضاء.. ونظراته تفرُّ من عينيه، كأنها تكسر زجاج النافذة، وتختلط بسحب سماء لندن، وتصطدم بجدران أبنيتها العالية السوداء... ثم تسقط هامدة في عمق التايمز!

زنَّره الخوف حتى هزَّته في كل أرجاء جسده.. جالس على الكنبة بهذا الجسد، لكنه مسجَّى القلب، والعقل، والنفس.. مميزاته تكاد تموت أمام ذهوله وفي عمق شروده.

هنا... اختلطت الحقيقة بالحلم.

ـ همس: ما هي الحقيقة.. وما هو الحلم؟!

هل هناك تجانس بين الحقيقة، والحلم... ولو تجانساً نادراً؟!

الحقيقة هي: «مشاعر» والحلم هي أيضاً... فكيف تجانسا معاً في واقعه، وعاطفته، وعقله؟!

كانت حلماً ماتعاً مشرعاً على الغد بهدْي ضوء القمر، وعلى دروب الشمس.. بلا خوف، بلا عراقيل، بلا فقد، بلا صدمة...... حتى تحوصّل إلى: مجرد حلم، لا بد أن يفيق منه!

وأصبحت حقيقة ـ في بدء تكوينها ـ هي الحقيقة الجميلة التي تشرنق حياته بالسعادة وبالدفء... حتى تبلورت حقيقة الإفاقة من الحلم!

جريح هو... ينزف دماً مختلطاً من الحقيقة والحلم، فهل عجزت «مشاعر» عن الاستمرار في الحلم، ومواصلته حتى يصبح حقيقة؟!

هذه الليلة الجديدة.. هي: ليلة الحقيقة القاتلة!

تبلّد كل شيء في «زياد».. خفقه، عقله، جنونه... بلغ ذلك الصراط الحاد من تساوي الأمور: لا شيء يفرحه، ولا شيء يحزنه... اللون الرمادي طغى على تفكيره، ونظرته، وسرى في شرايينه يُبدّل لون دمه أيضاً إلى: رمادي!

ترى... هل يستمر الحلم بعد إفساد الحقيقة له؟!

أبواب تُفتح، وأخرى توصد للأبد... وتبقى لحظة ضوئية لا تتكرر:

يتوهج فيها الخفق.. ويتعانق فيها الموت مع الحياة!

حزم حقيبته في الصباح، وهبط إلى بهو الفندق، سدد حساب إقامته... وأخذه المجهول إلى المطار. عائداً إلى وطنه: هذا الحضن الذي لا يخون أبداً!!

* * *

الفصل الرابع

(١)

* كفكف «زياد» دمعة مرة.. كأنه كان يختزنها في عمق عينيه من «تلك الليلة» قبل خمسة أعوام.

«مشاعر»... نعم، لم ينسها أبداً، ولم يتنازل عنها ببساطة، وأصر يومها وبعده: أن لا يخذل قلبه ويشقيه ببعادها عنه.

انتهت حرب الحقد الصدامي، وأعيدت الكويت إلى ربعها، وعاد أهلها إلى حضنها... تدفق الفرح مع خطوات العودة، ولكن.... بقيت دمعة تترقرق في عين كل كويتي لم تجف: بكاء على الأسرى الذين يحتجزهم الطاغية في غياهب ظلمه.

في أفراح النصر... انبعث «الحلم» من جديد في نفس «زياد».

لعل الحلم الماتع يعود، ويتحقق في: حقيقة هذا النصر الذي يطرز الجديد من الأحلام وينسجها: واقعاً، ومستقبلاً.

لا بد أن يبحث عن «مشاعر».. بعد أن كلَّت يده من النداء على هاتفها

في لندن، ولا أحد يجيب، والبحث عنها هذه المرة سيكون في ديرتها/ الكويت.

استأذن من مديره في العمل ليغيب يومي الثلاثاء والأربعاء بحجة أن عمته في الطائف: مريضة جداً!

انطلت الكذبة على المدير الذي لم يتعوَّد الكذب، أو عدم الانضباط من «زياد» في عمله. اشترى التذكرة، وحجز مقعده، وسافر يوم الثلاثاء إلى الكويت.... بحثاً عن «مشاعره» هناك.

ليست لديه تليفونات مكاتبها ولا منزلها، ولا حتى عنوان مكتبها الرئيسي.

وحتى لو عرف كل ذلك منها في لندن... فالحرب غَّيرت الناس، أفلا تُغير العناوين وأرقام الهواتف؟!

طلب من الفندق أن يبحث له عن عنوان مكتبها الرئيسي، أو حتى هاتف المكتب.. بعد أن زوَّد المسؤول هناك بالاسم الكامل لها، ولشركتها.

انتهى ليل الثلاثاء وهو قابع في الفندق يرتقب البشارة دون جدوى، فهو لا يعرف أحداً هنا.

بعد ظهر الأربعاء.. قال له الموظف في الفندق:

ـ هات البشارة... أكتب العناوين والهواتف.

تناهت إلى سمعه أصوات دفوف وزغاريد.... لم ينتظر، ارتدى ملابسه، وانطلق إلى عنوان الشركة الرئيسي، وهو يقول لنفسه: «تليفون إيه اللي أسأل منُّه.. ما حك جلدك مثل ظفرك».

وقف أمام واجهة الشركة، تريث قليلاً، التقط أنفاسه اللاهثة، أصلح من وضع عقاله وغزله، وبسمل وهو يضع خطوته الأولى في مدخل الشركة.

وجد موظف الاستعلامات في وجهه، اتجه إليه وطلب منه أن يدله على مكتب المدير العام للشركة.

صعد إلى الدور الخامس حسب إرشاد الموظف له، وبهدوء وبطء: دفع باباً كبيراً أمامه، ولا غيره في هذا الدور، ومضى إلى قاعة كبيرة، وقدماه تصطكان.. حتى بلغ نهاية القاعة حيث وقف أمام آنسة تجلس خلف مكتب عريض، وقد سرى التلجلج في صوته وهو يقول لها:

ـ من فضلك.. أريد المدير العام شخصياً ولأمر هام.

* قالت له السكرتيرة: هل لديك بطاقة باسمك؟!

ـ قال لها: آسف... فقط هذا اسمي: «زياد» قادم من «جدة».

غابت عن عينيه، ثم فتحت باب مكتب المدير، وأشارت إليه أن يتفضل.

اختلج.. تبعثرت خطواته:

ـ تُرى.. كيف تكون المفاجأة لها، كيف ستستقبله.. هل تصافحه، تحضنه؟!

فوجئ برجل سمين يجلس خلف مكتب زجاجي فخم، ويضع سيجاراً مطفأ بين شفتيه.

اقترب منه وهمس: مساء الخير... أريد أن أقابل المدير العام من فضلك.

ـ ارتفع صوت الرجل الأجش قائلاً: أنا المدير العام.

* قال زياد: عفواً... إنني أسأل عن...... السيدة «مشاعر».

ـ آآآ..... وهل من خدمة أؤديها لك؟!

* أشكرك جداً... الخدمة الوحيدة التي تسعدني بها: تدلني على مكتب هذه السيدة، أو بيتها، أو هاتفها... معي رسالة هامة لها من «جدة».

ـ نعم... نعم... في إمكانك تسليمي هذه الرسالة وأنا أوصلها لها.

* ردَّد زياد في نفسه كلمة: «غِتت.. والله غِتت، أعوذ بالله».

فاجأه المدير السمين كأنه يوقظه بصوته الضخم.. طالباً منه الرسالة.

ـ قال: عفواً... لا بد أن أسلمها للسيدة شخصياً.

* قال المدير: ولكنها ليست هنا.. إنها في أمريكا حيث تعيش هناك، وتدير أعمالها من هناك... وأنا هنا أمثِّلها.

ـ رد زياد: هل أطمع في الحصول على هاتفها هناك؟!

* آسف... لا بد أن أستأذنها، ولكن...... من أنت، وماذا تريد؟!

ـ هي تعرفني يا سيدي... فقط أخبرها عني، اسمي «زياد»، وهذا هاتفي ورقم غرفتي في الفندق.. فمتى أنتظر منك رداً؟!

* حسناً... غداً صباحاً في العاشرة!

* * *

* أوف... رجل سئيل، ومتعجرف.

في طريق عودته إلى الفندق.. انهالت الأسئلة في رأسه على قلقه:

ـ هل هاجرت إلى أمريكا.. تزوجت، أم اكتفت بتجربة واحدة.. أجرت العملية؟!

لم ينم تلك الليلة المرهقة لوحدته في فندق أبكم.. كان التلفاز سلوته حتى يسأم منه، ويمسك بكتاب اصطحبه معه.. فهو لا يتنقل إلا ومعه زاد عقله.

في الصباح... اكتشف أنه نام على الكنبة. بملابسه، والكتاب ملقى بجانبه.

الساعة التاسعة صباحاً.. تبقى ساعة بطيئة مملَّة، حاول أن يفنيها بالاستحمام، وبالفطار، وبقراءة الصحف التي طلب من الفندق إحضارها له.

الساعة العاشرة الآن.. أيها الهاتف رن، أصرخ، غني!

اندهش من نفسه.. وهذه الدمعة اللائجة في عينيه، بماذا يصفها؟!

فجأة..... علا رنين الهاتف، التقطته أصابعه المرتعشة:

ـ آلو... آلو.

صوتها.... نعم «مشاعر».. هو صوتها ببحته الجميلة:

ـ أهلاً زياد... ويش لونك؟!

* «مشاعر... أنا... لوني... لوني ممتقع، إنت فين، ليه تعملي كده في قلبي»؟!

ـ صوتها منضبط على الجدية: أنا بخير.. عملت العملية وطبت الحمد لله، آسفة ما كنت أعرف رقم هاتفك في جدة حتى أتصل بك!

* لكني يا حبيبتي كتبت لك رقم هاتفي في تلك الليلة بلندن.

ـ صحيح... لكنه ضاع مني.

* كما ضعتُ أنا يا «مشاعر» عندك؟!

ـ معليش يا زياد... الإنسان المحظوظ يحلم مرة واحدة، ويعيش الحلم بقية عمره..

وأنا حلمت معك فكنت أنت المرة الوحيدة، أو الحلم الأساسي، وصدقني أنني أعيشك حتى الآن.

* تعيشينني حلماً يا مشاعر.. طيب ليه ما نحوِّل الحلم إلى حقيقة؟!

ـ صعب.. أنت فوق إمكاناتك، وأنا تحت ظروفي وواقعي.

* يعني يا مشاعر؟!!

ـ عشنا تلك الليلة.. حلماً رائعاً كأنه العمر كله، سامحني يا زياد، أنت أفضل مني.

لم يجد كلمة إضافية يقول لها.. ليست هي الصدمة، ولا الفجيعة، ولا الهزيمة.. بل أكبر من ذلك بكثير!!

كأنه ينترع سماعة الهاتف من فوق أذنه ببطء شديد، ويعيدها إلى موضعها... دون أن يرد على كلماتها الأخيرة.

ها هي «التفاحة» التي وصفها «برنارد شو» ذات يوم... وكيف عطبت؟!

كل حقوله وزروعه.. هجم عليها الجراد دفعة واحدة على شكل الكلمات التي قالتها له «مشاعر».

هل طواه كابوس رهيب؟!

أفظع، أفظع... الكابوس! نستيقظ منه، لكن «زياد» سيبقى لفترة

طويلة: عاجزاً عن الخروج من هذا النفق المظلم الذي رمته فيه «مشاعر.. الأنثى، المليحة التي كان يصر دائماً أن يناديها: يا مشاعري!!

ـ قال: المرأة تفر من الرجل الذي أحبها غالباً... مثلما الرجل: لا يتزوج من المرأة التي عشقها!

* * *

* امتدت يد «زياد» إلى ورقة «الألبوم» التي تتصدرها هذه الصورة.. تساءل في نفسه:

ـ هل يمزق الصورة وفيها: صديقه سمير، وذكرى الأيام العصيبة لزوجته الراحلة «إلهام»، وذلك الإذاعي وزوجته الإذاعية في إذاعة الـ «BBC»، وتدليس هذه الإذاعة على العرب في حرب الخليج بالذات... وفيها: هذه الخلفية لظلال ملامح «مشاعر».. تضيء ابتسامتها المترددة هذه الظلال؟!

إنه يكره التمزيق... حتى ولو أشعلت أبعاده هذه الصورة: حرائق الغابات في جوفه.

ضوء الأباجورة الخافت الذي تنعكس ظلاله على الصورة، بل و «الألبوم».. يراه وكأنه يرتعش، يضعف التيار الكهربائي ويقوي.. يترنح كرأس «زياد» أمام تلك الليلة التي ذبحت صديقه «سمير»، وتلك الليلة التي ظن أنها ميلاد جديد لخفقه، و.... ذبحته أيضا!

ـ «لا... لن أذهب إلى لندن»!

منذ ذلك العام لم يطأ أرض الدم الثقيل بعد إهدار دم قلبه هناك... خمس سنوات كان يتجه فيها إلى باريس، ومرة إلى قبرص... لا يشخص بصره إلى أنثى، لا يدع التفاتاته تتأنى أمام وجه مليح، ليس بعد «مشاعر»

بزخم الصدق الذي حسبه متجذراً فيها، و. . . . دفنته في صدرها معه!

ـ عاد يطرح السؤال الخفي في نفسه: «ما هي أخبارك يا مشاعر. . تعيشين أم رحلت. . تزوَّجت أم. . . . . أخذك اللهو الخفي كسؤالي هذا»؟!

أفاق من شروده على رنين الهاتف العالي. . مزعج، نسي أن يخفض صوته:

ـ آلو. . . أهلاً سامي، أعذرني. . لم أستطع الخروج والالتحاق بكم في سهرتكم.

* لعلع صوت صديقه المعتاد: يا انعزالي، يا اندياحي، يا استبطاني، يا جدراني. . ألا تفك أسر نفسك من نفسك؟!

ـ رد «زياد» بصوت مرهق جداً: معليش. . . خذني على قد جدراني!

يعود إلى «الألبوم». . يحضنه كأنه «مشاعر»، ومعها كل تلك الذكريات الضاحكة، والباكية. . وتلك الليلة، والأخرى، حتى تحوَّلت لياليه إلى: خرس، وبُكْم!

دوامة الإرهاق تلفُّه ولكنَّ النوم يجافيه.

اتجه إلى المطبخ، وأعدَّ فنجاناً من شاي الرشاقة بدون سكر، فهو يحافظ على نحافته، ويكره أن تتكور بطنه أمامه كالحوامل!

في أعماقه: خفقة تنتحب، ونبض يتحوَّل إلى صرير، ودم مجنون يجري في شرايينه.

لا بد أن يتمتع بإجازته، ولكن بعيداً عن لندن.

خمس سنوات. . ولم يُشْف بعد من «تلك الليلة»!

* * *

* استقبلت نظراته ورقة جديدة في «الألبوم»، وعليها صورة قديمة. . مضي على مناسبة التقاطها أكثر من عشر سنوات.

تجمعه هذه الصورة بصديقه الذي كان رفيقاً له، وأحياناً يحلو له فيناديه: يا توأمي/ حسن العلاّمي.

في الصورة: يضع حسن يده على كتف «زياد» مرسلاً ابتسامة عريضة إلى أبعد من مستقره اليوم.

تسللت أصابع «زياد» تتلمس ملامح صديقه «حسن» كأنه مجسد أمامه.

ـ خاطب صديقه في الصورة: باعدت بيننا الأيام بعد هجرتك إلى أميركا. . . نعم، لماذا لا تكون إجازتي هذه المرة عند صديقي/ توأمي القديم؟!

أزاح «ألبوم» الصور. . وقام يفتش في أوراقه بحثاً عن عنوانه الذي زوَّده به حين كان «حسن» يواصله بالرسائل، قبل أن يقطعها نهائياً!

* * *

(٢)

* مرة واحدة في العام تهطل الأمطار على مدينة «جدة» بغزارة.

الناس يصلُّون الاستغاثة طلباً للمطر.. وسكَّان «جدة» يصلُّونها ويطلبون أن تكون: «حوالينا ولا علينا.. على المزارع، وبيوت الشَّعَر».

دائماً... عندما يحين موعد المطر السنوي على جدة.. فهو ينسكب، يتدفق، وتغرق المدينة في مياه تتلاطم بشدة حتى تغطي أرصفة الشوارع، وتزحف إلى مداخل البيوت. اصطكت الرعود بالبرق... ودوَّى ذلك الصوت الذي يخاف منه «زياد».. بل تصيبه الرعشة من رؤية البق، وهدير الصواعق.

نحَّى «ألبوم» الصور جانباً.. وأخذ يركض في أرجاء «فليلته»، يقفل النوافذ المفتوحة، ويسد المنافذ منعاً لتسرب المياه إلى الداخل.

أطفأ الكهرباء في كل البيت بقفله لسكينة التيار، وفضَّل أن يضيء شمعة في غرفة نومه، و.... معيشته في الوقت نفسه حينما لا يكون لديه ضيوف، وما أقلهم.

واحتضن في صدره «ألبوم» الصور خوفاً عليه من أن تمزقه ريح المطر، أو تتلفه هذه المياه المنسكبة بغزارة على المدينة.

الحمد لله أن الأمطار السنوية هذه.. هطلت قبل موعد سفره، ولكنه عندما يسافر في كل عام.. يودع مفاتيح «فليلته» عند أخته بالرضاع، وهي تتفقدها، «تشقِّر» عليها، وتنظفها له قبل موعد عودته من السفر بيوم.

أخلد للنوم بعد أن شارفت الساعة الواحدة من صباح اليوم التالي.. وبعد أن توقف المطر.

لكنه لم ينم وقتاً طويلاً.. هبَّ من نومه، واتجه مباشرة إلى نافذة غرفة نومه في الطابق الثاني، فتحها على مصراعيها.. وهاله منظر مياه الأمطار التي كانت تضرب في بوابة منزله، وتغطي رصيف الشارع.

الشارع الرئيسي يغرق هو الآخر، والسيارات: معطلة داخل المياه... المنظر المألوف كالعادة كلما استقبلت «جدة» الأمطار.

ـ قال لنفسه: كيف أخرج الآن، وأخوض هذه البحيرات بسيارتي الصغيرة.. حتى أصل إلى مبنى السفارة الأمريكية؟!

قرر أن تكون إجازته هذا العام في أمريكا.. يذهب إلى: مَنْ كان يناديه: توأم روحي، حسن أبو علي، أو «أبو الحسون».

ـ همس «لا بأس.. اليوم من بُكرة، وبُكرة من اليوم، هيَّا الدنيا طايرة»؟!

قام بتفقد بيته.. تحسباً من أن يكون المطر قد عاود هطوله أثناء نومه.

قال يخاطب نفسه وهو يدخل المطبخ لإعداد فنجان شاي الصباح.. فهو لا يتناول إفطاراً أبداً: «الحمد لله.. كل شيء تمام، لا سقف عندي يخرُّ كَبيوت آبائنا وأجدادنا، ولم تتعرض النوافذ لكاشح».

وضع كأس الشاي على الطاولة بجانب سريره، وعاد يحتضن «ألبوم» الصور، والصفحة مفتوحة على صورة قديمة له في جدة مع «أبو الحسون». . . وهو يسترجع الذكريات والأصداء من تلك السنوات الجميلة التي آخت بينه وبين صديقه «حسن».

❊ ❊ ❊

❊ كان يداعب صديقه «حسن» دائماً بهذا النداء: أبو الحسون.

هذه ملامحه في الصورة وفي ذاكرته: وجه شبيه بالفرنجة من ذوي العيون الزرقاء، والرطانة الهوجاء، والشعر الأشقر.

ـ يقول له مازحاً: لا بد أن جدَّك ألمانياً، أو. . . لعلك من القوقاز أو واق الواق.

ملامح «حسن» في الوجه، والقامة وانسدال خصلات الشعر، واستدارة الشارب والحاجب. . هي أقرب إلى صورة «أدجار ألن بو»/ الأميركي القلِق الحائر. . الفنان والشاعر الذي وصفه برنارد شو بقوله: «لقد تم اكتشاف أميركا، ولم يتم اكتشاف بو».

أبو الحسون أيضاً في تقييم «زياد» له: أنه شخص، شيء. . لم يتم اكتشافه بعد!!

ممكن أن يصف توأم روحه «أبو الحسون» بما يصف به «ألن بو»: فنان أشد روعة من الفنانين الرائعين، مفطور على أرستقراطية الكلمة. . . . . واحسرتاه!

«ألن بو» لم يعش هناك. . لكنه مات هنالك، وتم إلقاؤه كسكير وفاشل.

و «أبو الحسون».. يعيش هناك في أميركا، ولا يعلم إذا كان مازال حياً يرعى، أو أنه مات ـ مثل ألن بو ـ دون أي تعليق؟!

سيكتشف هذه الحقيقة، أو الإجابة على سؤال الموت والحياة.. عندما يذهب إلى أميركا بعد أيام، ويفاجئ صديقه، مَنْ كان توأم روحه.

يحدق «زياد» في الصورة.... لا، بل في ملامح «حسن»:

إنه يحمل هذا الوجه النابليوني الأليف.. عيناه: تُشعَّان ذكاءً ومكراً، وجبهته العريضة: تنسدل فوقها خصلة شعر شقراء.

«أبو الحسون: يجيد إلقاء النكتة الأميركية ذات الكلمات الضخمة والإيقاع... بجانب لهجته «المكَّاوية» القُحْ، بأعماق حارات: الشامية، والشبيكة، والقرارة، والمسفلة.. في مكة المكرمة.

يمتلك طاقة جاهزة دائماً من: الحيوية، والنشاط، والتدفق الذي لا يعرف الملل ولا التعب.

صاحب قامة قصيرة مقتحمة.. يطاول بها غيره من العماليق، وذلك باللسان الطويل، وحسن البيان، ونزق رعاة البقر... لذلك أحب أميركا كثيراً حتى هاجر إليها منذ سنوات. كان «زياد» يتقاسم مع صديقه «أبو الحسون»: اللقمة، وعلبة السجائر عندما كان يدخن، والعشاء الأخير... فقد كان دخل كل منهما متواضعاً: «يا يدِّي فُكِّي حلقي، عشانا عليك يا رب».

في صداقة كل واحد منهما للآخر.. ذلك الإيثار الجميل الذي يلغي الأنانية.. وقد ربط بينهما وعد مشترك من: الضياع، والألفة، والغربة، والشوق.. إلى التجوال، والمغامرة، والسفر، واقتحام الآفاق.

كانا ـ معاً ـ يطوفان أحياء «جدة» العتيقة ليلة بعد ليلة: مفلسين سعداء.

تجدهما مرة في حارة: المظلوم، وتارة في حارة البحر، أو حارة الشام، أو الصحيفة... يتحايلان على إنفاق الليالي بشتى حيل الأذكياء، وفنون الصعاليك والمحتالين.

أبرما عقداً ملزماً بينهما: أن لا يفترقا.

وأصر كل منهما أن يحافظ على هذا العقد/ الاتفاق لعدة سنوات.

لم يفترقا إلاَّ.... حينما تحقق حلم «حسن» القديم، وسافر كأنه «طار» من توأم الروح/ زياد... ذهب إلى أميركا ليعانق معشوقته التي لا يمل من الحديث عنها، وإليها، ومناجاتها كحلم!

لكنَّ هذه السبل لم تنقطع بينهما، ولم تقطع كل واحد عن الآخر.

كانا يلتقيان من حين لآخر في «لندن»، عندما كانت هذه المدينة أيضاً: معشوقة زياد. حتى استقام الحال لـ «أبو الحسون» هنالك في أميركا... بعد أن تزوج من امرأة، وصفها «حسن» لصديقه في إحدى رسائله التي لم تكن تنقطع:

ـ «عثرتُ على فتاة أميركية في الجامعة: لا تتعاطى الكحول، ولا تحب زحام الاختلاط.... حسبتها في البدء: انعزالية، أو تشكو من عقدة نفسية، أو «نفساوية» حسب تعبيرك... واقتربت منها، تذكَّرت فيها: هدوءك، وصمتك، وتحديقك... قلت: أتزوجك... عفوا: أتزوجها، وبذلك ضمنت في شخصيتها: زوجتي وصديقي/ توأم روحي!!

طلبت منها أن تسْلم، شرطي الوحيد... لكنها رفضت الأمر، وطلبت مني أن تدرس ديني، وتتعلمه، وتفكر... حتى تُقدم على هذه الخطوة بقناعة.

احترمتها ـ يا مبجَّل ـ ولم أعد أفاتحها حتى انتهاء العام... وفوجئت بها تقول لي:

ـ موافقة... سأتزوجك.

* قلت لها: لأ... قولي إنك ستُسلمي وتتزوجينني!

«أجل إيش؟!.. العين الحمرا يا ولد، بس يا سيدي.. ودي كانت آخر عين حمرا مني لها، بعد ذلك.. تبدَّل لون عينيها الأزرق الجميل إلى... لون أحمر»!!

الآن... صار عندي: ولدان وبنت مولودة حديثاً... لو تزوجت، كان لازم تجيب ولد ونزوجه على البنت.. لكنك خايب، فيلسوف مرتكس، حميمي مع صمتك!!

تلك إحدى رسائل "أبو الحسون» التي كان يبعث بها بين فترة وأخرى، على مدى أربع سنوات.. حتى انقطعت الرسائل، ثم أخباره، وقفشاته، ونكته الأميركية.

لكنَّ عنوان «أبو الحسون» مازال لدى «زياد» في الشركة، وفي البيت.. همس كأنه يخاطب صديقه:

ـ «يعني حتروح مني فين يا هارب»؟!

كتب «زياد» رسائل عديدة قبل أكثر من عام إلى صديقه/ مَنْ كان توأم روحه... لكنه لم يتلق أجوبة عليها أبداً!

تُراه مات هناك كموت «إدجار ألن بو»؟!

أم أن «زياد» هو الذي مات في وجدان صديقه؟!

عندما كانا يلتقيان في لندن. . في كل مرة يعقد العزم على الاجتماع معاً في أميركا. . يدعو «أبو الحسون» صديقه مغرياً له، قائلاً:

ـ «تعال أيها الحميمي. . . نُتوِّج ليالي الضياع التي كانت في جدة بليالي دولية، بعد أن صار الشيء الدولي هو الأفضل حتى في الضياع!

تعال أيها الفيلسوف المرتكس. . نجني ثمرات الأحلام الليلية على شاطئ جدة». . . .

❊ ❊ ❊

❊ مازال اللقاء متاحاً. . . لا مشكلة.

التذكرة جاهزة، ولا عائلة معه تشغله.

أمنيته الدائمة: أن يهبط على صديقه/ مَنْ كان توأم روحه ـ فجأة ـ ذات صباح أو مساء. . . ليحضنه، ويستعيد أحلى الذكريات.

خمسة وعشرون عاماً من الصداقة، والإخاء، واجترار الأحلام.

وغداً. . . سيطرق باب صديقه، ويلتقي به في مهد «إبراهام لنكولن»، وعلى ضفاف الميسوري!

أطبق «ألبوم» الصور. . . ولعلها وقفته الأخيرة أمام صور هذا «الألبوم» قبل أن يشد رحاله إلى أميركا، بحثاً عن صديقه «أبو الحسون»/ مَنْ كان توأم روحه.

وفي اليوم التالي ـ بعد المطر ـ قاد سيارته اليابانية الصغيرة في ما تبقى من مياه الأمطار، متجهاً إلى السفارة الأميركية لمنحه التأشيرة. . وإلى مكتب الخطوط لشراء التذكرة وحجز مقعده في رحلة نهاية الأسبوع.

(٣)

* عندما هبطت به الطائرة في مطار «سانت لويس».. كان أول شيء بادر إليه: الاتصال بصديقه الحميم/ مَنْ كان توأم روحه «أبو الحسون»... ذلك الذي رحل من الوطن ولم يعد، واستقر به الحال في الوسط الأميركي، وكانت أمنيته التي طالما همس بها في أذن صديقه «زياد»: أن يعيش في أميركا.... فتحققت أمنيته!

ولكن... كيف يعيش «أبو الحسون»؟!

هذا هو الأهم الذي ينبغي أن يتفقده «زياد» في حياة صديقه.

جاءه صوت «حسن» في الهاتف متعلثماً.. كأنَّ المفاجأة عقدت لسانه:

ـ زياد... متى وصلت، وأين تكون الآن؟!

* أنا في «سانت لويس» يا أهبل.. وراك وراك.

ـ عنوان مكتبي لم يتغير.. خذ التاكسي وتعال بسرعة.

البداية رائعة ومشجعة «زياد».. فالتلعثم في صوت «أبو الحسون» لا بد أن يكون من الفرحة بقدوم مَنْ كان توأم روحه، وصديقه الأعز.

استقل «زياد» التاكسي من المطار في طريقه إلى مكتب صديقه حسن.

كانت هواجسه ضاحكة ومستبشرة.

هو الآن في أميركا/ سيدة القوة في العالم بلا منارع، بعد أن تهاوى ما كان يُسمى بـ «الاتحاد السوفييتي» مثل كرتون فارغ، ولم تعد موسكو الروسية هي العاصمة التي كان يُطلق عليها: «الستار الحديدي».. تقوَّضت، وتبعثرت إيذاناً بسقوط الشيوعية العالمية التي توَّجت الصين الشعبية نفسها زعيمة لها بعد سقوط هذا الاتحاد!

نعم... أميركا هي سيدة القوة التي تصول وتجول اليوم، وتتحكم أيضاً في مصائر شعوب العالم، خاصة العالم الثالث... بكل هذه الضخامة التي يراها، وتفتتحها نظراته المندهشة.

بعد دقائق.. سيهبط على صديقه «حسن»، مزوداً بمواثيق العهد القديم الدافئة، غنياً فؤاده برصيد أيام الشباب الأصلي، وليالي النضوج.. وكل الوشائج الأصيلة التي تسري في العروق مسرى الدم بين صاحبين سارا معاً على مدارج الفتوة والشباب، واجتمعا تحت سقف المسكن الواحد، وامتدت بهما الليالي الشاعرية الضائعة سنوات متفرقات حيناً، متعاقباً حيناً آخر!

الآن... يتاح لهما أن يحقق كل واحد منهما: حلمه القديم، ويكون اللقاء في نسيج تجسيد لأحلام.

لقد افترقا إلى حين.. وأملهما في لقاء ـ حتى لو كان مؤقتاً ـ لكنه يتوِّج أحلام الصبا والشباب، وتلك الليالي الأجمل.

سرت رعشة برودة خفيفة في جسد «زياد»، ليس من برودة الطقس... بل من خاطرة عبرت ذهنه فجأة في سؤال طارئ:

ـ هل ينغمر دف الصداقة في جليد الغربة وصقيع الرحيل؟!

هل تتبدد أحلام الصبا والشباب في عواصم الضباب، والركض المادي، والتعامل بالرومنت والكمبيوتر؟!

هل تتحوّل مواثيق الليالي الساهرة المحترقة في حناجر الأوهام: إلى بقايا من رماد السأم، وهشيم الأيام... فيملُّ فيها الصاحب صاحبه ويبدله؟!

تذكَّر «زياد» بيت شعر قديم، حكيم:

ـ وليس خليلي بالملول، ولا الذي إذا غبتُ عنه... باعني بخليل!

* وقفت به التاكسي أمام عمارة ضخمة، وحمل حقيبتيه: ملابسه، ويده إلى داخل العمارة التي استطالت في وسط المدينة.

هالته فخامة مكتب «أبو الحسون»، وهو يلج من بوابته، حاملاً حقيبتيه بجهد مرسوم على وجهه... همس:

ـ «ما شاء الله... والله وقبِّيت على وجه الدنيا يا أبو الحسون».

في طريقه إلى مكتب السكرتيرة... تناهى إليه صوت صديقه القديم الحميم وهو يصرخ أثناء محادثة هاتفية، وبعد أن انتهى منها.. أخذ يصرخ على موظفيه كعادته عندما يتحدث. وهكذا اطمأن «زياد» على أن صديقه بخير وعافية.

اقترب من السكرتيرة الحسناء جداً، وأخبرها باسمه... دون أن يلحظ عليها أي اهتمام، وعرف أن «أبو الحسون» نسي أن يخبر سكرتيرته بمجيئه كعادته أيضاً.

عادت السكرتيرة من مكتب المدير صديقه «أبو الحسون»، وطلبت منه أن ينتظر قليلاً... فالمدير مشغول بمحادثة هاتفية.

فوجئ «زياد» للوهلة الأولى، قال:

ـ «ول... توقعت أن يركض إلى الخارج ليحضنني».

* سأل السكرتيرة: هل أخبرته باسمي الكامل، وبأنني قادم من السعودية؟!

هزت الحسناء رأسها في تعالٍ ملحوظ.... وبقى الصديق الحميم «ملطوعاً» ومنقوعاً في الانتظار أكثر من نصف ساعة.

استفتى «زياد» نفسه: هل يحمل حقيبتيه ويخرج، ولكن... إلى أين، وهو الذي اختار أميركا بالذات لإجازته السنوية من أجل صديقه.. بكل اشتياقه له؟!

ومازال صوت «حسن» في صراخه، وهدير الأوامر.. يتناثر من بين ضلفتي باب مكتبه.

ـ قال زياد لنفسه كأنه يسلى انتظاره، ويوجد عذراً لصاحبه الحميم: «ربما كانت أشغاله كثيرة، ولكن... تحدثْتُ إليه بالهاتف من المطار، وتوقعت أن يطلب مني البقاء حتى يبعث إليَّ بسيارته.... لا تدقّ يا واد يا زياد»!

هو الذي كان يحرضه في لقاءاتهما بلندن على «ارتكاب» هذه الزيارة لأميركا.. ليستعيد أيام زمان.

فجأة... خرج «أبو الحسون» من مكتبه صارخاً، ثم واثباً نحو «زياد»، معانقاً له.

لم يتغير «أبو الحسون» كثيراً.. نفس الوجه الأبيض النابليوني المشرب

بحمرة الحياة وهاتين العينين الخضراوين، والشعر الأصفر المسدل على جبهته، وطاقة النشاط التي لا تكل ولا تتوقف.

تعانقا.. وقدم مَنْ كان توأم روحه: الاعتذار على الانتظار، والتفت إلى السكرتيرة الحسناء جداً، ووجَّهها أن تطلب لهما: كأسين من الشاي الأخضر!

ـ قال زياد ضاحكاً: شاي أخضر.. هنا في أميركا؟!

* «رد حسن: من جدة مباشرة يصلني كل شهر تموين «الجراك».

ـ قال زياد: ومازلت تتعاطى الشيشة، وتدخن الجراك؟!

* ضحك حسن وقال: نعم... الجراك يشيع في بيتي رائحة جدة، لا... بل رائحة مجتمع الحجاز.

ـ قال زياد: الحياة تتطور يا صديقي.. لا بأس، أخبرني عنك.

وبدأت الأسئلة بينهما.

ولا حظ «زياد» أنه يفتقد: توأم روحه وصديقه الحميم «أبو الحسون»... من يراه أمامه الآن يكاد يكون شخصاً آخر.. «مسَترْ خسن أو هسن».. خواجة يتكلم معه باللغة العربية، حتى لهجته «المكَّاوية» أصابها الغزو الأميركي لمشاعر ولسان هذا الشخص الماثل أمامه باسم صديقه القديم «أبو الحسون».

شعر «زياد» بتغير ملحوظ على صديقه.. خيّل إليه كأنه جاء عبئاً ثقيلاً عليه، أو كأنه داهية داهمته فجأة.

ـ سأله حسن: هل حجزت غرفتك في الفندق؟!

* قال زياد: ليس بعد.. أنت أعلم مني بأسماء الفنادق ومستوياتها.

رفع «حسن» سماعة الهاتف، وطلب من الحسناء جداً أن تحجز غرفة لصديقه في فندق قريب من مكتبه.

والتفت إلى مَنْ كان توأم روحه بوجه باهت.. قائلاً:

ـ أرجوك تعذرني يا زياد... المفروض أن يكون سكنك عندي في البيت.

* قال زياد: ليس مفروضاً يا صديقي... فالبيت للأهل وللأولاد، والأصدقاء لهم الفنادق.. المهم أن نلتقي.

ـ قال حسن: و.... حتى هذه أيضاً، سأعتذر لك عن كثرة لقاءاتنا، فقد جئت في ظروف صعبة.. وقتي مشحون جداً باجتماعات ومقابلات.. لكني أعدك أن نلتقي في «الويك إند»، حتى أعرِّفك بزوجتي وأولادي!

جللهما صمت... في ذهول «زياد» وبداية بحثه عن صديقه القديم في شخصية هذا الماثل أمامه!!

استدرك «حسن» بعدما لاحظ تبدل ملامح صديقه، وقال بصوته العالي جداً:

ـ لكن... طبعاً، هذه الليلة أنت ضيفي، سنتناول العشاء في مطعم جميل بأطراف المدينة.

جاءت السكرتيرة الحسناء بورقة وضعتها أمام «حسن».

ـ التفت إلى صديقه «زياد» وقال: هذا هو حجزك في الفندق.. سيوصلك السائق إلى هناك، وسأتصل بك في المساء للعشاء.

بقي «زياد» صامتاً.. يطيل النظر في وجه صديقه/ مَنْ كان توأم روحه..

في وجهه النابليوني وقد تضخَّم أكثر بهذا السيجار الطويل الذي يحبسه بين شفتيه، وهو مستغرق في قراءة الأوراق التي على مكتبه. . . كأنه يقصد الفرار من نظرات صديقه «زياد» التي اصطبغت بالحزن، أو بالصدمة.

ـ وتساءل زياد في نفسه: هل ستكون ليلة ثالثة لتصبح أيضاً: «تلك الليلة» مع صديق عمره، وعشير فتوَّته وشبابه؟!

عادت السكرتيرة الحسناء جداً، تخبرهما بوصول السائق.

أصر «زياد» أن يحمل حقيبته بيديه. . وخرج يتلفع بصمته وصدمته، وصديقه ينحط جسمه على الكرسي الضخم الدوَّار. . كأنه مثبَّت به لا يستطيع حراكاً.

* * *

* غرفة جميلة. . صغيرة لكنها مريحة.

فتح حقيبة ملابسه، وأخذ يُعلق ملابسه في الدولاب، كعادته كلما دخل فندقاً وهو في سفر. . . لكنَّ طنيناً كالنحل يلف رأسه بعد هذا اللقاء الأول بصديقه الحميم.

هل يلبي دعوة صديقه على العشاء هذه الليلة. . . أم يختفي، ويترك هذا الفندق في الصباح إلى مكان آخر لا يعرفه «أبو الحسون» رحمه الله؟!!

ـ قال «عيب يا واد. . . نشوف الآخرة معاه».

حين جمعهما المساء. . . كان حديث صديقه الحميم منصبًّا على أعماله، وطموحاته للمستقبل. . لم يذكر لمحة واحدة من ذكرياتهما معاً. . لم يسأله عن الوطن، ولا عن تلك الحواري العتيقة في «جدة» التي تغيرَّت اليوم. .

بعضها شقه طريق عريض طويل، وبعضها فقد ملامح التراث، وتلك البيوت القديمة ذات النوافذ الخشبية والرواشين.

كان «زياد» شارداً بعيداً عن صوت «حسن».. عاد به الشرود إلى جدة، وإلى تلك السنوات التي طوت معها أجمل الذكريات، وأكثر المواقف أصالة وحباً.

كانت تلك الليلة في انطباع «زياد»، بل في وجدانه: مملَّة جداً... لعله تنفس الصعداء في إنهائها هو، وقد اعتذر لصديقه بأنه متعب من السفر ويحتاج للراحة.

ـ قال حسن وهو يودعه عند مدخل الفندق: لديك أرقام هواتفي، وسنلتقي في نهاية الأسبوع لترى أولادي.

لم يلتفت «زياد» إلى صديقه وهو يغيب في بهو الفندق!

* * *

(٤)

هذا الصباح... استيقظ «زياد»: نشطاً، بل ومرحاً، لا يشعر بغضب نحو صديقه، ولا بألم من التبدّل الذي غّير شخصيته القديمة التي كان يعرفها فاقترب منها بحب، إلى شخصية مركّبة وغريبة عن معرفته القديمة بمَنْ كان توأم روحه «حسن».

«تلك الليلة/ البارحة»... كان من الممكن أن تحدث له وفيه: صدمة جديدة تضاف إلى صدمات الليالي اللواتي سبقنها، لكنَّ، «زياد» يستقبل اليوم الثاني له في «سانت لويس» بنفسية مرحة.. بابتسامة صباحية أولى قفزت على كل الأحداث في بدء دخوله إلى هذه المدينة التي يأتي إليها حسب تعبير أهله في الحجاز: (صرارة).. للمرة الأول.

تناول إفطاره بهذه الروح المقبلة على الحبور... وخطرت له فكرة، أرادها أن تكون كالاختبار المحدود لصديقه الحميم/ مَنْ كان توأم روحه.

قام إلى الهاتف، وطلب «المستر هَسَن» لعله يعود إليه بصوته وهو «أبو الحسون» صديقه القديم... لكنَّ السكرتيرة الحسناء جداً أخبرته بأن «المستر» لم يصل بعد إلى مكتبه بسبب اجتماع لديه خارج المكتب.

رجاها أن تُخبري «المستر هسن» بضرورة الاتصال به حين عودته.

لكنَّ «حسن» لم يتصل حتى بلغت الساعة الثانية بعد الظهر.

واصل «زياد» إحراجه المتعمِّد لصديقه، فطلبه ثانية على الهاتف.

جاءه صوت «المستر» بصراخه المعتاد:

ـ أهلاً زياد... تِصّدق بالله، الآن أخبرتني السكرتيرة أنك طلبتني.. تذكّرتْكَ عندما سمعت صوتك.

* لا بأس يا «أبو الحسون».. بالمناسبة: هل تذكر اسمك هذا؟!

ـ طبعاً يا زياد... يا سلام، كانت أيام.

* معليش... جمال السكرتيرة يغفر لها نسيانها، المهم يا صديقي: قررت أن أواصل الرحلة، فلا أبقى هنا في «سانت لويس» كل إجازتي، لأني.....

ـ قاطعه حسن: جميل... فكرة رائعة، طبعاً يا صديقي إنت جاي في إجازة، لازم تتفرج، وتتنقّل.

* قال زياد: لذلك... أطلب منك خدمة أخيرة تؤديها لي، بأن تُكلف أحداً في مكتبك بحجز تذكرة لي إلى نيويورك بالقطار السريع.

ـ أجاب حسن: بس كده، يا سلام... ولكن عليك أن تعرف أن الزمن بين «سانت لويس» ونيويورك يستغرق ثلاث ساعات!

خدعة من «حسن» قصدها مع صديقه الحميم الذي قدم من «جدة» لرؤية مَنْ كان توأم روحه... وكأنَّه يُسهل على «زياد» مغادرة (سانت لويس) ونيويورك بأسرع وقت!!

لم يفطن «زياد» إلى خدعة صديقه الذي طلب منه أن ينتظره في الفندق،

وهو سيكلف مَنْ يشتري له تذكرة ويحجز له.. ثم يأتي إلى «أبو الحسون» ليقلَّه في سيارته إلى محطة القطار.

عاد«زياد» إلى دولاب الملابس، وأخرج منه بِدَله ثانية، ورتبها من جديد داخل حقيبته.. ولم يعد لديه ما يفعله سوى انتظار هاتف صديقه الذي انفلتت فرحته من خلال صوته عندما أخبره «زياد» برغبته في ترك «سانت لويس».

لكنّ «زياد» لم يتوقع هذه السرعة في إجراءات (تسفيره) من صديقه الحميم.

رنّ هاتف غرفته في الفندق بعد ساعة... و«تدلدل» صوت صديقه الصارخ دائماً من سماعة الهاتف، قائلاً له:

ـ خلاص يا زياد.. كل شيء تمام، هل أغلقت حقيبتك؟!

* نعم يا حسن... أنا جاهز.

ـ إذن... سأكون أمام فندقك بعد ساعة.

* لا تكلف على نفسك من فضلك.. فقط إبعث لي بالتذكرة وعنوان محطة القطار.. وأنا أتصرف.

ـ يا رجل... عيب أنا «أبو الحسون»!

شعر «زياد» بالفرحة الطاغية في صوت صديقه.. سيخلص منه تماماً.

ـ همس: «ول.... إلى هذه الدرجة صرت ثقيلاً على مَنْ كان توأم روحي»؟!

* * *

* لعل «حسن» أراد بتحمله مشقة حمل صديقه «زياد» بنفسه أو بسيارته إلى المحطة: أن يتأكد ويطمئن بأن صديقه غادر «سانت لويس».

وخاب ظن «حسن». . . فقد تأخر القطار عن موعده أكثر من ساعتين، وأحس أنه (دبَّس) نفسه مع صديقه الذي أراد إجلاءه عن المدينة في أقصر وقت. . . واكتظت المحطة بآلاف المسافرين الذين هجموا على القطار لحظة وقوفه. . في الوقت الذي أخذ غروب الشمس يهجم بدوره!

اكتشف «زياد»: أن صديقه «أبو الحسون» قد خذله للمرة الثالثة. . وذلك حين فوجئ بأن التذكرة التي قطعها له كانت: عادية وبلا نوم!!

صار لزاماً عليه في القطار أن يبحث لنفسه عن مكان. . . ولا مفر له من طرقات القطار، يتسكع فيها، ويتكئ على نوافذه التي كان يطل منها على كتل الظلام والجبال والقطار يسير في قلبها زاحفاً كالثعبان!

وخيّل لهذا الغريب «زياد» أن القطار لن يصل. . الطريق تزداد طولاً، والوقت يتمدد مللاً، والوجوه: غريبة هي الأخرى كأنها هبطت بجانبه من كوكب آخر، برغم أن ملامح هؤلاء البشر عادية. . مثل التي يراها في الصحف، والتلفاز، والسينما. . . لكنه في هذا القطار، وبعد ذلك التوديع الحار من صديقه الحميم، شعر أن الوجوه اختلفت، وأن الأصوات بلا حناجر.

طافت بذهنه صور الطفولة القديمة، وشرخ الفتوة حتى الشباب. . وتذكر كل ما قرأه في الروايات البوليسية عن هذا القطار العجيب الذي يطوف أميركا. . . وكيف يشق الجبال شقاً، ويسير فوق البحار بسرعة البرق، ويكتشف «أرسين لوبين» في داخله: أغرب الجرائم. . ويُتعب «شرلوك

هولمز» المجرمين الهاربين والطامعين في خزائن النقود، وخطف الجميلات!

وتصوّر قطّاع الطرق، وعتاولة اللصوص ـ بالرغم من الحرّاس الفولاذين ـ وهم ينحدرون من جوف الظلام، ويطلقون سيلاً من الطلقات النارية في الفضاء، تنكفئ لوقعها فتاة شقراء على صدره لتحتمي به.

ينتفض قلبه، ويغلي الدم في عروقه.. ويتخيّل نفسه ذلك الفارس النبيل الذي يهبط على الأرض معتلياً ظهر جواد أشهب بغرة فوق الجبن، ويقفز إلى جوف القطار، ليداهم اللصوص، وينقذ هذه «السنيوريتا» الجميلة، ويردفها خلفه على صهوة جواده، وينطلق مترنماً بقصيدة شعر!!

خبط وجهه بكفه ليفيق من هذه التهويمات التي اقتحمته وهو يتسكع في ممرات القطار وأمام نوافذه.

كان الخيال أجمل من الواقع... وهو سبيله الوحيد لاختصار المسافات، وقَتْل ساعات الملل، و..... تناسى وجه صديقه الكذوب!

❊ ❊ ❊

❊ وجوه وسحنات مختلفة تراكم في ردهات القطار.

بنات وشُبّان يركبون القطار.. يستلقون على أرضيته،، يدخّنون ويشربون البيرة: مفلسون وصعاليك.. ظن أنهم يشاركونه ساعات الغربة والملل.

لكنهم عشّاقْ.. يفترش بعضهم البعض الآخر في ممرات القطار ودواوينه.. يشارك بعضهم الأحاديث، والعناوين، والتليفونات.

إذن... هذا هو الجيل الجديد الذي يُشكّل مجتمع أقوى دولة في العالم/ سيدة القوة أميركا؟!!

لعبت نفسه... يريد أن يتقيَّأ من تأثير هذه المشاهد، أو عليها.

تسلل إلى عربة الطعام... وقد لدغه الجوع والبرد.

تجوّلت نظراته خارج أسوار القطار.. تتلمس الزرع، والجبال العالية، وامتداد الطبيعة.. وتتابع شروق شمس صباح جديد، ما لبثت أن كابت فجأة مع النسمات الباردة وراء الجبال التي لا تحدها الأبصار.

طوت الشمس في حزمها الضوئية: لدغة الجوع، لكنها تغيب وتشرق في محاورة جميلة.

لم يقطع القطار المسافة في ثلاث ساعات، كما قال له صديقه المراوغ.. كذبة أخرى صنعها ليُعجِّل بالتخلص من «زياد» في سانت لويس.

أخيراً... توقف القطار، ومع وقوفه: تصلبت ساقاه من ذلك العذاب الذي عانى منه طوال الرحلة.

هبط إلى رصيف المحطة، وفوجئ بالطقس القارس.. حتى تجمد من البرد.

كان المطر ينهمر رذاذاً جليدياً... و«زياد» بملابس خفيفة، لم يستعد لمواجهة هذه العاصفة من المطر الثلجي، أو الثلج الممطر.

ـ همس: «سامحك الله يا مَنْ كنت توأم روحي... وهذا مقلب رابع منك»!

فيّل البرد في جسده إلى عواء... ومازال الوقت صبحاً، فكيف سيكون المساء أو الليل؟! أشرق يومه الرابع في بلاد «العم سام»: وحيداً، يرتجف من البرد.. كأنه محموم الجسم... أو كأن الإجازة التي حلم فيها بليلة

واحدة ـ على الأقل ـ جميلة، ودافئة.. قد تحوّلت إلى إجازة من الراحة، خالية من الاطمئنان والأمان النفسي.

ـ «روح يا مستر خَسَن... الله يكافيك يا شيخ»!!

وقف في مكانه على رصيف المحطة: جامداً يرتعش وهو لا يقوى على نزع إحدى يديه لفتح حقيبته والتقاط ملابس ثقيلة يتّقي بها هذا البرد.

كثر تلفته عن يمينه وشماله.. غريب لا يعرف أحداً، ولا يدري إلى أين يتجه؟!

ـ قال: «سيارة تاكسي أولاً، ويدلني سائقها على فندق!

يدلّك؟!... هذه نيويورك يا مبجّل، يعني: زحام، وضياع، وضخامة، وخوف، وانبهار، وجنون، وحضارة»!

فجأة... نبت أمامه شابان تدل سحنتهما على أنهما من السودان، وبادره أحدهما يسأله:

ـ رأيناك محتاراً في وقفتك.. هل من مساعدة؟!

توجّس خيفة في البدء.. مدّ يده إلى المتكلم ورفيقه يصافحهما، يريد أي شيء يدفئ يده فيه، ومازال توجُّسه يتصاعد في بلد الحضارة، والجريمة معاً!

ـ قال: فقط... أريد فتح هذه الحقيبة اللعينة لأخرج منها جاكتاً ثقيلاً أتدثر به، وأتّقي البرد.

تابعَتْهُما عيناه وهما يفتحان الحقيبة، ويخرجان منها أول جاكيت صادفهما.

ـ قالا له بصوت واحد: هل من خدمة نؤديها لك؟!.. العربي للعربي في الغربة.

شكرهما بحرارة، واتجه إلى خارج المحطة.. وألقى بنفسه في سيارة أجرة، قائلاً للسائق:

ـ من فضلك.. خذني إلى فندق قريب من المطار، قريب جداً.

لا... لم يعد في حاجة إلى أية ليلة في أي مكان... عليه أن يعود إلى «جدة»، اشتاق إلى وحدته في بيته الصغير، إلى أهله وزملائه في العمل.. حتى إلى تلك المتناقضات أحياناً!!

ماذا يفعل في نيويورك... وحده في مدينة مخيفة «قدّ الدنيا كلها»؟!

ـ همس: «يا غريبْ... بلدك».

فَقَد الحماس، والفرح الطفولي بالإجازة، وباكتشاف مدينة أخرى في هذا العالم الذي صار ينام ويصحو على متفجرات، وحروب أهلية، وقمع سياسة القوة.

استراح يومه وليلته في الفندق الذي اختاره له السائق... لم يبرحه أبداً، أنيسه في الغرفة: كتاب، والتلفاز.. حتى أشرق الصباح الخامس له، وأكد موعد عودته إلى جدة... قانعاً، راضياً، مكتفياً بما طعنه به مَنْ كان توأم روحه!

* * *

(٥)

* هنا في «جدة» / عروس البحر الأحمر: الأمان، وتذويب كثافة الرحيل.

هنا «البحر»... بأمواجه البيضاء النقية، العنيفة في اندفاعها كنفسية الإنسان.

يُشكّل «زياد» في رؤاه الآن: سيرة هذا البحر/ الإنسان، وهذا الإنسان/ البحر... بدايات، ونهايات.. مدّ وجزر.. تمدُّد وانحسار.

البحر: أعماق... والأعماق: إنسان!

دخلت الطائرة أجواء مدينة «جدة».. همس «زياد»:

ـ «الله... ما أجملك يا وطني، ما أعمق حميميتك في نفسي يا مدينتي، ما أسعدني بهذه الطمأنينة التي يمنحها لي تراب الوطن»!

كان رأس «زياد» يتكئ على زجاج نافذة الطائرة... ومدينة «جدة» تحت النظر: متلألئة بأضوائها الصفراء، والبيضاء... شاسعة كهذا البحر، كهذا العشق في فؤاد «زياد» لذرة تراب من وطنه.

من هذا العلو: يشاهد أسطح البيوت، يبتسم والخاطرة تلوب في ذهنه، متذكّراً أيام الطفولة... ويسترجع صوراً من ذلك العهد بصوت ينبعث من داخله مرتاحاً، فيّاضاً بالشجن:

ـ «كنا في طفولتنا نصعد إلى «السطوح» أعلى مكان في البيت، لنلعب... فلم يكن أهلنا يسمحون لنا بالخروج إلى الشارع، فالشارع خطر و«فَلْته».. يتساوى في ذلك الولد والبنت خوفاً على الطفل والطفلة من الانحراف عن التربية السليمة.. دون أن يبحث الآباء آنذاك: نتائج حبس الطفل في سطح البيت، وعندما ارتفعت العمارات الشاهقة لم يعد هناك «السطوح»، بل أصبح للعمارة رأس.... فقط!!

كان الأطفال يسمعون أصوات أمهاتهم محذرة:

ـ لا تطلع يا ولد فوق جدار السطوح!

لقد فقدنا سطح البيت، ومعه فقدنا: قيمة الجوار، والحارة، والجيران الذين تشعر بهم وكأنهم أهلك..... ياه، ما أجمل تلك الطفولة، وذلك الزمن البسيط».

عبرت ملامح «أبو الحسون» في ذهن «زياد».. عودة إلى طفولتهما معاً، ولعبهما في سطوح البيت، وكانا يسكنان متجاورين!

اختفى سطح البيت، مثلما اختفى أيضاً «أبو الحسون»، وظهر شخص آخر اسمه: «مستر هسن، أو خسن».. مع ظهور الشقق التي يسكنها أناس لا يعرف بعضهم البعض الآخر!

تحوّلت الحياة إلى مدن كبيرة، وإلى أسطح اختفى منها الأطفال، واستُبْدِلوا بـ «إريل» التلفاز. . . عشرات الأعمدة الحديدية، و«الإريلات».

كان الأطفال يُطلُّون من تلك الأسطح على الشارع، فيرون الناس يمشون بأحجامهم الحقيقية. . وعندما فقد الناس «السطح»، تحوّل الناس إلى أحجام مختلفة!

وكانت حواري مكة المكرمة، وجدة تضم تلك المقاهي الممتلئة بالناس الذين لهم لغة واحدة، بل ولهجة واحدة، وأصداء ضحكاتهم تشيع في الأرجاء. . . حتى اختفى الناس داخل البيوت الزجاجية، والسيارات المنطلقة. . . فتبعثروا في صناديق الفضاء/ الطائرات.

في «تلك الليلة» اليتيمة التي استضافه فيها «مستر حسن». حاول أن يشده إلى الماضي قليلاً لعله يتذكّر نفسه. . إلى الطفولة، والفتوة، والشباب. . فقال «زياد»:

ـ مازلت في السطح يا «أبو الحسون». . . هل تذكر أيام طفولتنا حين كنا نلعب معاً في سطح منزلنا أو منزلكم؟!

* رد حسن باستعلاء: لا تذكِّرنا يا شيخ. . . البدايات دائماً تأتي متواضعة، أنا الآن في سطح أوسع وأبعد. . ومازلت ألعب في السطح ولكن بدونك، وحدي بقيت في السطح. . فأنا الآن رجل أعمال في الأعالي، وحياتي تحوّلت إلى سفر دائم لمتابعة أعمالي. . أي أنني: فوق السطح.

ـ ارتسمت ابتسامة باهتة ساخرة على شفتي زياد، وقال لصديقه

القديم: ولكن. . . . . ألا تحن للأرض البسيطة، لدهليز البيت، لكرسي في مقهى؟!

* قال بلهجته المتعالية: دهليز إيه؟!. . إنت ما اتغيرت، ليس عندي وقت حتى للتفكير في هذا الذي تُضيِّع به وقتك. . . فكّر في الغد، كيف تكبر، وتنتشر، وتلمّ الناس حولك!

ـ سأله زياد: وراحة البال. . . هل تضمنها؟!

* قال حسن: راحة البال لا تتفق مع التفكير والطموح يا صديقي.

ـ قال زياد: صدقت. . . راحة البال تتوفر فوق الأرض لا فوق السطح.

* قهقه حسن قائلاً: تعرف. . . إنت إنسان مسكين، مازلت عاطفياً، رومانسياً كما عهدتك من زمن طويل.

ـ قال زياد يُجاريه في الضحك: لكني أركب الطائرة. . ألا تكفي الطائرة: سطحاً لي؟!

صمت «زياد» قليلاً وهو يحدق في وجه صديق طفولته. . وقال:

ـ أعترف لك يا «أبو الحسون»: أنك وأنت فوق السطح. . لا أحد يراك، في حين أنك قادر أن ترى، ولا تعرف ما تريد في زحام نفسك هذا وأفكارك.

صدّقني ـ يا صديق طفولتي ـ الإنسان يتوق أحياناً إلى أحد يراه بجانبه. . لا تحته، ولا فوقه!!

* * *

❋ أعلنت المضيفة ربط أحزمة المقاعد، استعداداً للهبوط في مطار وطنه.

الوقت يمر بطيئاً في لحظات هبوط الطائرة فوق مدرج مطار «جدة».

يريد أن يجري. . . ينطلق من أقصى الوطن إلى أقصاه:

ـ همس: «نعم. . لا شيء يعادل الوطن، ولا حتى الفرح. . . إن الوطن أعظم وأكبر».

فُتح باب الطائرة، وأخذ الركاب طريقهم إلى ذلك الأتوبيس المعلّق. . حشدوا الناس فيه، زادوا الزحام، والناس قد ملأوا المقاعد، وتشبَّثوا بالأعمدة الممتدة في أعلى الأتوبيس!!

خيّل لـ «زياد» أن هذا الأتوبيس كجهنم. . جعله موظفو الخطوط يقول: «هل من مزيد»؟!

امرأة تحمل طفلها، ولا تقدر أن تمدّ يدها إلى أعلى الحافلة المعلقة، التفت «زياد» إلى رجل منتفخ الأوداج، ذكّره بصديق طفولته «حسن». . هزّه في كتفه، وقال له:

ـ «قف من فضلك. . ودع السيدة/ الأم تجلس مكانك».

كان الرجل من أقاصي الهند. . «بربر» بالهندية، ونصب طوله الذي يماثل طول «عوج بن عنق». . . وما زال موظفو الخطوط (يحشون) الحافلة بالركاب، حتى اختنقت أنفاس الناس، وأخذت الأصوات المتذمرة تعلو.

أخيراً. . . أقفلوا الباب، ومرت دقائق بطيئة مملة استغرقها هذا الأتوبيس

المعلّق، ما يسمونه إلى «موبل لاونج» أو الهودج. . حتى هبط من أمام باب الطائرة حتى الأرض، ومشي بطيئاً كراقصة مبتدئة، وتوقف أمام بوابة مقفلة للدخول إلى المطار، وتكررت العملية.

وكعادة الناس: اندفعوا وتدافعوا. . كل واحد يريد أن يكون هو الأول أمام موظف الجوازات. . . ولم يفعل «زياد» مثلهم، بل تأنى وترك الزحام ينتهي، ربما كان هو آخر راكب هبط إلى صالة الجوزات، وآخر إنسان يقف في الطابور الطويل.

حاول أن يسلّي نفسه ليخرج من ملل الانتظار في الطابور، وحتى يصل إليه الدور. . فانطلقت نظراته تتمعن في هذه السحن البشرية القادمة معه من نيويورك.

أطول هؤلاء البشر هم أبناء العم سام: الأميركان. . بسواعد مفتولة ونظرات متجولة ببطء في أرجاء صالة الجوازات، وعلى شفاههم ابتسامة تلغي كل تذمر، أو قلق، أو تعب من وقفة الطابور. .

أكثر الأجساد «كروشاً» في هذه الطوابير: هم العائدون إلى وطنهم، ربما بعد إجازة «ممتعة» مثله، أو بعد إنجاز عمل «بزنس».

يتأمل «زياد» هذه السحن، ورأسه لم يتوقف عن الحركة كبندول الساعة التي تكاد بطاريتها أن تفرغ!

شعر بيد من خلفه تدفعه إلى الأمام، وصوت صاحب اليد:

ـ الطابور مشي. . . تقدم يا أخي، والله هلكانين.

تقدّم.. زحف وئيداً، حتى بلغ «كاونتر» موظف الجوازات، وختم له، وانطلق إلى قاعة الحقائب.. يُمنِّي نفسه أن تكون حقيبته من أوائل ما يُفتح أمام موظف الجمارك.

أكثر من ساعة... حتى وجد نفسه خارج بوابة القدوم، وحوله يتزاحم سائقوا التكاسي.

لم يبق فيه نَفَس... واسترخى في مقعد التكاسي الخلفي، وأغمض عينيه.. ثم ما لبث أن فتحها فزعاً على وجه مَنْ كان توأم روحه، أصبح «يتفزز» منه!

ابتسم.. والتاكسي يقف به أمام بوابة «فُلَيْلته».

أول ما لفت انتباهه في عشه الهادئ هذا: ورقة التقويم.

ـ قال: «حقاً... رحلة إلى أميركا، إجازة مدتها أسبوع فقط؟!.. ولا بقيمة التذكرة، الله يكافيك ياللي في بالي»!!

* * *

* تمدد «زياد» على سريره بعد أن سبح في بانيو «حمَّامه، وسكن في المياه أكثر من ساعة، وفي رأسه عبارة: «رشِّدوا الاستهلاك»... يُحدق في الجدار، في التلفاز الأخرس، في تلك الأباجورة التي يميل ضوءها إلى اللون الأحمر.

لا يدري الآن... هل هو ساقط في الإحباط، أم قد أفاق بضربة حقيقية على دماغه؟!

هل يعاني من ضيق صدره الآن، أم يهنأ بهذا الاسترخاء مع حريته وخصوصياته، بعد تجربة مضنية راوحت في نفسه ما بين الفجيعة، والصدمة؟!

يستعيد التجربة القاسية لحظة بلحظة.. تكاد تتجسد أمامه على جدار غرفة نومه، كلوحة تجريدية.. كخطوط «بيكاسو».

لا يكاد يُميّز ما استقر في أعماقه من حصيلة هذه التجربة: هل هي الهزيمة له، أم أن الهزيمة تنال من صديقه الذي فُجع فيه؟!

تتلاحق ضربات قلبه.. تذكّر نصيحة أمه يرحمها الله له في مثل هذا الوجع.. كانت تعد له كأس ماء وتمزجه بماء «الكادي»، شرط أن يكون من تقطير أهل الطائف.

قام بتثاقل إلى المطبخ، وبحث عن زجاجة ماء «الكادي»، وقطّر منها على كوب ماء بارد. وضع يده على صدره... كأنه يعلن خوفه على قلبه، همس:

ـ «أعرف.. إنه زمن القلوب التي صارت تعطب بسرعة، طبعاً... مما تشوف، وتسمع»!!

لكنه ما زال يفتش ـ بعناء ـ عن الحب... فمن يدلُّه على طريقه ليكون هو طوع بنان الحب.. أو مَنْ يدلّ الحب عليه لتصبح حياته دافئة بأجمل المشاعر!

ـ «آه... مشاعر، ماذا فعلت الحياة بها؟!

هي اختارت أن تُحدث هذا الانقلاب المرير، وتأمره أن يخرج من حياتها».

كانت نظرتها العميقة تطوف من عينيها الواسعتين على وجهه.. تمتزج بحدقتي عينيه، تذوب في دمعته الساخنة التي فرَّت منه.

تُرى... هل هناك حب يقسو، أو حب قاسٍ؟!

كأنَّ ملح البحر قد ملأ صدره... وشعر بضيق في تنفسه، امتدت يده إلى كأس الماء المخلوط بـ «الكادي»، ورشف منه.

هل فاض صدره حتى تحوّل إلى جوف طبل؟!

أم أن ملح البحر.. قد طرد الخفقة، وانبثَّ بين الضلوع؟!

❊ ❊ ❊

❊ لتسقط الأسئلة والأجوبة معاً.

قام إلى جهاز التسجيل، واختار أن يصغى في ليله هذا إلى موسيقى كارساكوف العالمي: «شهرزاد»!

ـ تمتم: وأيّ شهرزاد؟!.. ولا غيرها تلك الليلة.

تجمَّدت عيناه على «ألبوم» الصور الذي تركه قبل سفره فوق جهاز التلفاز.

قفز كالمذعور.. أمسك «بالألبوم»، وأخذ يمزقه وهو في حالة هياج طارئة وعنيفة.

مزّق الصفحات، والصور... حتى جلدة «الألبوم»، وبعثر كل هذه

الأوراق في أرجاء غرفة نومه.. وقذف بجسده على السرير يلهث كأنه كان يخوض معركة.

معركة حقاً... بعد أن محى أقسى ما في ذلك الماضي.

ـ قال: غداً.. سأشتري ألبوماً جديداً، و... سأتركه فارغاً، نظيفاً.. بدون صور!!

انتهت

أيام... معها

لعل عنوان هذه الرواية يُذكِّر الكثير من جيلي بعنوان الرواية الرومانسية الرائعة التي كتبتها الروائية السورية المبدعة/ كوليت خوري، وأكملت نشرها في عام ١٩٧٩م، وعنوانها: «أيام معه»... وقد أرغدت المشاعر العربية حينذاك!

ويسعدني أن أذكِّر القارئ العربي اليوم بروايتها الجميلة من خلال عنوان روايتي هذه!!

(أحبَّائي: أنا غنَّيتُ أغنيتي كما جاءت ففيها ألف إيقاع وفيها من نشاز اللحن: آلاف.. وآلاف فيا أسماع جيل الأمس: ما عندي من الألحان هتاف ولا عندي لِنَاياتِ الهوى المحذور.. عزَّاف! فعمري.. موجة في لا نهايات من الهمس! وقلب بالصدى المجروح... رعَّاف!

ويا أسماع جيل اليوم والآتي: صدى كلماتيَ العذراء محزون! أحبائي: إذا جئتم فقد تجدون أنفسكم كما تلتم فوق الدُّر: أصداف)!!

* * *

هي... وهو

سارة: لم تكن مِلْكَ نفسها.. برغم كل محاولات الاستقلال التي تمرّدت بها ورفضت.. وبرغم كل تلك الشحنة الهائلة من الوعي الذي يعذّبها في معايشتها لسطحية الواقع البشري الذي يُشكّل مجتمعها، أو كيان المجتمع الأسري.. منذ فرض أهلها على حياتها: شريكاً لم تقبله ولم ترفضه يومها... لكنها كانت تتساءل في نفسها:

ـ كيف تقوم هذه الشراكة أو الشركة بدون أن يتم التعارف بين الطرفين؟!

تعدّت الآن مرحلة العمر المسوّر بالمهيمنة.. وفضّت الشركة أو الشراكة بحجم الخسائر على امتداد السنين، وبأهمية الأرباح في استقبال ما تبقّى من العمر!

تعدّت مرحلة.. كانت تسمع فيها أيضاً: حكايات البنات، وماذا يفعل النساء في مجتمعها النسائي المُغْمى عليه!!

كانت تواجه شرائح من النساء، ممن كُنَّ حولها، بنظرة الاحتقار.. وهُنَّ يحصرن الحياة في خصوصية نسائية موجعة، مثل: الموضة، والمطبخ، والسفر، والتسابق على المظاهر، والعلاقات الخاصة في مجال الهمز، و... اللمز أحياناً، في ذلك الاستغراق بعيداً عن الأحاسيس الطبيعية!

في الوقت الذي لم تكن فيه مِلْك نفسها. . كانت حقاً للطرف الآخر الشريك، بمعنى: الامتلاك أو الاستحواذ الذي يُلغي شخصيتها!

لم يكن الشريك يفهمها، ولا يجيد الاقتراب منها، أو دفعها هي للاقتراب منه.

كلاهما نقيض الآخر، ووَجَعه.

لكنها الآن تُكفكف تلك الذكرى، وتحتضن حصاد شجرتها منه: ابنها الوحيد الذي صار يشاركها في الإحساس بمعاناتها، أو الالتصاق بمشوار عمرها الذي أوقفت أعمقه على تربيته. . . في الوقت الذي كانت فيه تشتاق إلى نداء حب، ودفء بوح.

وما زالت تشعر أنها امرأة «قوية»!!

ومعنى القوة: يكمن في إرادتها، وليس في عنفها!!

ضعيفة. . كما صممت على كبت عواطفها، والتواري في العزلة، وتغريب مشاعرها وإخفائها حتى عن «إنسان» تعرف أنها في وجدانه هي: الحلم، وأنها في نفسه هي: صوت عمره.

وما زالت ـ أيضاً ـ تذكر أنّ هذا الرجل الذي أعادت إليه صوتها من جديد الآن. . . وقفزت ضلوعه من صدره فَرَحاً بها ـ بعودة حلمه ـ وصفَها ذات يوم غير بعيد، فقال لها:

ـ أنتِ: زهرة. . وسيف!

تُضمّخين لحظاتي الأجمل بعبقك. . كزهرة.

وتقطعين رأسي ـ كسيف ـ كل مساء.. بإلباس مشاعرك حجاباً، وبشرودك المفاجئ، و.... بتموُّج بوحك!

وأضُمّك زهرة فوّاحة.

دمي يسيل من ضربة سيفك.. حين الموت في عبقك، وفي حدِّك القاطع، هو: عمر العمق، وعمق العمر!

***

فارس: فنان.. يخوض أمواج نفسه الإنسانية في بحر الكلمة تارة، والنغم تارة أخرى.. برغم نشاز صوته حين يأتي مباشراً!!

أضناه التلفت في سنين عمره، بحثاً عن عمره.. بحثاً عن التوأم لروحه.

واستحوذ عليه الالتزام في مسئوليات الحياة، والكيان الذي شكَّل منه أُسرة.

عَبر الكثير من الفخاخ التي نصبتَها حوله: الرغبة المجردة، والتسليات العابرة في وقت فَقْده للحلم، أو ضياعه... وتلك القسمات التي خايلته في بدء دخولها إلى مساحة قلبه وخفقاته، ثم ما لبثت أن تبدَّدت.. لأنها تبدّت على حقيقتها: قسمات أفردت في حياتها أهمية الأخذ وابتذال العطاء!

في بحر كلماته.. كان يصارع أمواج نفسه، ومنزلقات طحالب الآخرين من حوله.

كان بحثه عن نداء يتواصل بعفوية خفقة قلبه المُتْعب من كثرة الاكتشاف تارة، والارتطام تارة أخرى... إلى حد الفجيعة!

طاف جزراً خرافية. . ظنّ أن سكانها يمنحونه نصفه الضائع منه، أو المفقود.

توقف عند محطات. . . أغراه الزحام فيها على تعدُّد الوجوه التي تتجاوز بالحس الإنساني منعرجات الملل، والسقوط في الاعتياد.

لم يحسب أن يحصد ألوان التراكمات من طوافه على هذه الجزر الخرافية، وتوقُّفه عند محطات الزحام.

لكنه طفق يركض مُتْلعاً بشبابه، مشرئباً نحو أحلامه. . في بحثه المضني عن: توأم الروح والنفس. . عن القيم والحياة بعطاء الإنسان فيها. . عن هذا الحلم الذي طالما انتظر عودته، كلما وُلد مساء جديد من رَحم سأم الأيام.

وفي كل مرة. . يخال له أنه يقبض على الحزن في أعماقه ويسكب مكانه: الفرح.

ثمّ. . . ما يلبث أن ينكفئ على نفسه، ينوح ولا يبوح.

تطفر من بين ضلوعه دمعة على افتقاد الحلم الجديد، وفي عينيه نظرات مُغذّة في البعيد المجهول.

* * *

الفصل الأول

عودة الحلم!

طلعت في سمعه: صوتاً، دافئاً، حانياً.

امرأة قادمة إلى حاضره المتشقق بعطش الروح، وصمت الفرح، وتشوُّه رغائب الإنسان، وتفريغ الزمان من الحب!

كأنها انبعثت من حنايا ضلوعه، ولمعت كبرق خاطف.

أضاء صوتها العائد إلى حميميته: ملامح حلمه القديم الذي كان يستشرفه بتأملاته، فيَرى كياناً إنسانياً يحقق له عودة الحلم الأجمل... ذلك الذي طالما أرغد حياته، وسقى تربة نفسه الظمآى، وانتشله من ساعات سهر الوحدة في عمره، ومن سهاد لياليه الموحشة بغياب «الحلم»، وبانحسار الدفء الذي كان يسري بين ضلوعه كلمّا تناهى صوتها إليه.. فتستيقظ الحياة في داخله.

في البدء.. كان يحسبها مجرد «صوت» أراد اقتحام وقته المزدحم بضجيج الناس، وبصمت فَرحه، وبتفريغ الزمان من الحب... ليطرح سؤالاً، أو يبلور حواراً حول: أفكاره وتأملاته.

لكنّ الصوت سرى في سمعه كجدول الماء الذي تدفق على أرضٍ عطشى.

هو نفس الصوت. . . ذلك الذي كان يحياه في حلمه عن أجمل أيام عمره.

هي نفس الضحكة. . . تلك التي كانت تشاكسه، وأحياناً تستفزه. . ليقُدَّ من ضلوعه بوح وجدانه الأعمق لأنثى هذا الصوت والضحكة!

امرأة. . . كان يحياها: حلماً، ويحلم بها: حياة.

وكانت هي في عمره تراوح بين الحلم الذي يهدم كل الحاجز، والموانع. . وبين الواقع الذي يزيد من ارتفاع الحواجز والموانع.

كان صوتها يضحك وهو يقتحمه. . قائلاً:

ـ «إنتَ ما مُتْ» ؟!!

قال لها ضاحكاً بسؤال/ إجابة: «مين. . . . . أنتِ فقط»؟!!

ـ قالت: ذات ليلة نمت، وحلمت أن عبد الحليم حافظ يغني لي وحدي من الزمن القديم الأحلى: في يوم. . في شهر. . في سنة، تهِدَا الجراح وتنام!!

قال يسألها مفتتحاً دفء الكلام معها: وما الذي هدأ فيك ونام. . الجراح، أم الزمان، أم خفقة القلب؟!

ـ قالت: الرجل يُكثِّف الجراح، والمرأة تحاول أن تعبث بالزمان قبل أن يعبث بها. . . وتبقى خفقة القلب المكنونة في سر البوح هي: الأعمق، والأنقى، وفوق الجراح، وعبث الزمان!

قال: ملأكِ الزمان حكمة وفلسفة حتى فِضْت بهما... ولكني ما زلت أسأل: عن الذي هدأ فيك؟!

ـ قالت مغتاظة: أما زلت تفتّش أحلامي؟!

قال: أعذريني... ضِحْكُنا صار قليلاً، وبكاؤنا اليوم هو الأكثر!

ـ قالت: أرجوك.. لا تخرج أحلامي بإغراقها في الواقع، لقد فكّرت أن أسمع صوتك بعد كل هذه السنين التي غيّبت معها حتى الذكريات الأجمل.. فكنت أحاول أن أطرد الذكريات من خيالي وتأملاتي حتى لا تضعفني وتعيدني.

قال: ولماذا فكّرتِ أن تسمعي صوتي؟!

ـ قالت: لأنك وحشتني!

قال: صوتك ـ لو تعلمين ـ هو الحلم منذ تلك السنين... وهو يعبر سمعي فقط، ليسري في عروقي، ويستقر في شراييني مختلطاً بدمي.. ألا تذكرين أغنيتي التي كنت أرددها في سمعك دائماً:

ـ «يا خليّ القلب»؟!

ـ قالت: ما زلت ذلك الفتى المتدفق بعاطفتك... ألم تهمد؟!

قال: كنتُ بركاناً هامداً... وصوتك السبب في اندلاع حِمَمي من جديد، إذا اعتبرتِ تدفق عاطفتي: حمَماً!

ـ قالت: ماذا كنت تتمنى قبل عودة حلمك؟!

قال: أن أعرف مساحتي في تفكيرك.. وأنتِ هنا وهنالك في البعيد،

وفي الصمت، وفي قطيعتك لي!

ـ قالت: التعب. . التعب. . التعب، ذلك الذي نطلب الاستزادة منه.

* * *

ناداه صوتها أخيراً من المفاجأة. . . من هذا الطلوع الذي بشّره بعودة الحلم.

نادته أنوثتها التي تختال باحتفاظها الملحوظ بشباب العمر، وبنضارة الجسد. . . فكان نداؤها ينبعث من أعماق تجربتها الأصيلة التي أثمرت سنوات طويلة من اللحظات الأحلى، ومن الجراح المترسبة، ومن التمرد الذي ساعدها على الوقوف كنخلة الصحراء المازالت محمّلة بأشهى ثمرها.

وكان نداؤها يأتي من تجربة غيابها، أو اختفائها!

تشعر أنها: سنوات بلا عمر.

أنها: عمر تجمّد في ركض السنين والأيام بها. . . وهي تؤدي وظيفتها في الحياة كزوجة لفترة طويلة، وكأم في الفترة المتجذّرة داخلها.

فرحت بأمومتها على امتداد سنوات العمر والتجربة، واللحظات الأحلى، والجراح، والتمرد. . . وقد تبقّت الأمومة وحدها هي: ثمرة عمرها، أو حصاد ركض السنين بهذا العمر.

كان بحثها دائماً. . هو بحث الروح عن مشاعر توحّد ذاتها بذات الحلم الذي طالما نادت عليه في مسيرة العمر، وطالما حبسته نداءات قلبها عليه في صدرها الذي لم يكفّ عن التوحُّد بذلك الحلم!

لكنها في بعض الأحيان والتأمل لحياتها، ولطبيعة نفسها. . تعتقد أنها

أنثى لم تحب بعد، أو أنّ من تريد حبه: شريك في مكان آخر!

أو أن الحب ذاته: مقولة، أو خرافة، أو وهم نُرغد به قلوبنا... لكنه يتحول إلى مجرد ممارسة حين الملامسة، واستجابة لاحتياج!!

وحين شعُرَتْ أن هذا العمر مجلود بِجرْي السنين، وأنها في داخله تنحدر تدريجياً إلى سن الاستقرار والهدوء، والبعض يسمونها: طلائع الشيخوخة... رفضت وهي تقف أمام مرآتها تشير إلى دلائل نضارة شبابها وجسدها.. وقد لامست سمعها كلمته:

ـ لقد انبعث جمالك مُجدَّداً... صرتِ أجمل، وأنا منبهر أمام هذه اللوحة/ أنتِ!

نداؤها على الحلم قد تخطى ذلك الهمس القديم.. إلى هذه الصرخة المدوية.

وتعرف هي ـ أيضاً ـ أنها تعيش في مجتمع محافظ.. لا بد لها فيه أن تئد «الحلم» الأجمل بين ضلوعها، أو على الأقل: تدسُّه، أو تُسِرَّه بين جوانحها... حتى لا يصدر المجتمع حكمه عليها: ظالماً، ومبالغاً، ومتطرفاً.

إنها لم تفكر مطلقاً في هذه الخطوة التي تراها الآن في مرحلتها الحالية: جارحة لالتزامها الذي ربطت حياتها الجديدة به... فهي مع داخلها عقدت هدنة واتفاقاً بنصوص هذا الالتزام، لتهدأ قليلاً، ولتستريح من لهاث جَرْي طويل.

لكنَّ «فارس» يسألها في عودة صوتها إلى إصغائه:

ـ هل تقدرين على الهدوء والاسترخاء بهذه الحيوية المتجدِّدة فيك؟!

ما زالت حيوية التمرد والاكتشاف تتدفق مع نبرة صوتك. . . فكيف إذا وقفْتُ أمام وجهك، وأخذْتُ يدك بين يدي، وقبَّلتُ باطن كفّك؟!

قالت تتدلل: حتى أمنيتك هذه لن أحققها لك. . برغم أنني أجمل وأحلى!

ـ قال: ولكنهم أخبروني أن جسمك قد امتلأ!

قالت: لا تستفزنّي من فضلك، ولا تصدقهم.

وضحكا معاً «ضِحْك طفلين» عائدين من نهدة الحلم. . . . .

حتى صمَت ـ هو ـ فجأة في مواصلة ضحكها هي.

سألته: ماذا حصل لك. . هل غضبتَ مني، ولماذا؟!

ـ قال: ضحكتك صارت أكثر صفاء. . فأردت أن أصمت لأستمتع بها أكثر.

قالت: «إنتَ مجنون. . لكنْ إسمع، صرتُ أكره أن أكون عادة في حياتك. . . لا بد أن نختلف ونتخانق كل يوم، وكل ساعة. . وتزعل مني، أو . . . أنا أزعِّلك أحسن، حتى يبحث كل واحد منا عن الآخر، ويفكر فيه، ويغتاظ، وتحبني أكثر»!!

ـ سألها: لماذا قلتِ «تحبني» أكثر، ولم تقولي: "ونحب بعض» أكثر؟!

أجابته: لمّا أنت تقول «تِحبِّني» كفاية!

ـ قال: ما زلت مغرورة، و. . . . سيف أحياناً.

قالت: «لا تفهمني غلط. . كلمة (أحبك) عميقة، فكيف نُهينها بترديدنا لها كل لحظة»؟!

ـ قال: «لكنّ الحب، أو الحلم... يتحولاّن إلى عادة كما تقولين.

قالت: «يا فيلسوف حياتي اللي فالقني... أنا أرتاح لجنابك، ومن الصعب أن أرتاح لأي إنسان... فكيف طوال السنوات البعيدة اللي راحت؟!

فهمت يا زعلي، ورضاي»؟!

❊ ❊ ❊

تُحس في سرحات من الليل الذي تسرقها فيه تأملاتها: أنّ صدرها يكاد ينفجر وحدةً وسأماً.

الوحدة القاتلة: أن لا نجد من يفهمنا، ولا من يقدر على احتواء أسئلتنا وتمردنا، ودَفْق الدفء من مشاعرنا.

وحدتها مع نفسها.. لذلك لم تعد تميل إلى حفلات الصخب و«الرغي»... برغم أنها أرادت كسر طوق الوحدة والعزلة عن حياتها، وانطلقت تلبي «دعوات» صديقاتها وسهراتهن.

تبرد في مشاعرها جمرة الشوق والانتظار لطلوع الحلم.

وكثيراً ما سهّدتها أفكارها حين تضع رأسها على الوسادة.. لكنها تملك القدرة دائماً على طرد الأفكار، وعلى رسم ابتسامة فوق شفتيها... كأنّ «حلمها» يُقبِّلها في تلك اللحظة.

سألت نفسها قبل نومها ذات ليلة:

ـ حقاً... هل تختلف (الامتلاك) الذي يشعر به الرجل بمجرد اقترانه بزوجة: أن هذه المرأة قد صارت مِلكه تماماً مثل قطعة الأثاث... عن ذلك (الامتلاك) الذي تشعر به المرأة في بنائها لبيت، ولأسرة... وعن الامتلاك

الآخر والأعمق بالحب واستمرار توهج العاطفة؟!!

قفزت من سريرها، وهاتفته متوترة:

«قل لي. . لماذا تلاحقني الآن مدّعياً أنك تحبني، وأن عودة صوتي إليك/ عودة الحلم. . . هل تريد أن تمتلكني ولو بالحب؟!

اسمع يا زعلي ورضاي. . . أنا لا أحد يمتلكني ولو بالحب»!

فوجئ بثورتها بعد منتصف الليل، وحاول أن يمتص توترها الذي لم يعرف سببه. . . فسألها:

ـ هل لي أن أعرف مناسبة سؤالك الآن؟!

هل ندمتِ أنْ أعدت صوتك إلى سمعي؟!

قالت: «أنا لا أندم على ما أفعله. . صحيح إنت وحشتني، وقلت أسمع صوتك. . ولأني أحب الفضول أحياناً ـ ما هو بدائم ـ أردت معرفة أخبارك، وأستمتع بغزلك اللي تعوَّدت عليه»!!

ـ قال: «تاني. . . التعوّد»!

قالت: «إنت ودَّك أكون بطلة في قصصك»!

ساد صمت قصير بينهما بعد كلمتها.

ـ قالت: في الماضي كنتَ تغضب مني بسرعة، كنتَ سريع الغضب.

لا بأس، ولكن. . . . أرجوك: إزعل وإنت تضحك. . أحسن!!

ـ قال: لكنك تعلمين أنك أنت خلاصة قصة عمري، وأجمل لحظات حياتي. . فكيف تحصرين نفسك في هذا الدور المحدد؟!

قالت: «تِعرف إنك مشكلة»؟!

ـ قال: ليتك تتحدثين كزهرة، لا كسيف... في دفئك أشعر بالأمان.. وجهك حين يشرق في أيامي يُزهر به فرحي.

يضع رأسه المثقل بالأصداء وبالأفكار على راحة يده... كأنه يغفو ولا يستطيع... ويراوده سؤال مفاجئ من نفسه لقلبه، لكل حواسه وإحساسه:

ـ هل ما زلتُ أحبها، مثلما كان ذلك الاشتعال والوهج والحريق والتمسك بها... أم أن السنين أبطأت الخفق؟!

صمت قليلاً... لا يفكر، وإنما ينتظر إجابة قلبه وحواسه وإحساسه.

ومثلما فاجأه السؤال من نفسه... فاجأته في إثره: دمعة ساخنة انحدرت من حدقتيه... كأنها تلك الإجابة المنتظرة.

* * *

أسند رأسه المتعب بتمردها، والحافل بحواراتها القصيرة المختصرة، اللماحة الدالة على نضجها وهمومها وأحلامها ومعاناتها وتمردها... وطاف بهذا الرأس سؤال يختلط بمحتواه:

ـ تُرى... هل عاد إليه «الحلم» .... من جديد؟!!

لقد التقيا ـ هي وهو ـ منذ زمن طويل، وافترقا في أوقات مختلفة.. وبقي في الفراق المتعدد: خيط يشد أحدهما إلى الآخر... حتى في قطيعتهما، وصمتهما.

تُرى... ما هو ذلك الخيط؟!

يشعر أنه مسئول عنها، وعن كل الثِّقل الذي حملته واحتملته في بعض مراحل عمرها.

عن جنونها وتمردها حتى عليه.

عن غيابها الذي يطول، لتعود بعده وفي كل مرة: كمطر المواسم. . تهطل على أرضه القاحلة بغيابها، وترويها، و . . . . يتوقف المطر!

وهي تعرف مشاعره هذه.

وتعرف أيضاً: أنه يعرفها من داخلها، وكأنه يقدّر مسئوليته عنها على حساب قلبه واحتماله لجنونها ولتمردها!

قال لها: أنا قدرك. . فلا مناص لك، ولا هروب مني.

ـ قالت: ومن أنا بالنسبة لك؟!

أردفت: أنا أعرف. . . ولكني أريدك أن تقول. . . . . دائماً.

ـ قال: أنتِ حلمي الدائم الذي يُفارقني كلما وجدته. . ويجدني كلما احتجت إليه. أنتِ حلمي المتوحِّد مع عمري وأفكاري وسأمي وغضبي وجنوني وحناني.

في كل غربتي وتجوالي وتجاربي. . . تأكد لدي أنني لم أكن أنتظر امرأة غيرك ولا مثلك. . . . أنتِ بالذات.

قالت: ولكني أحياناً مزاجية كما وصفتني. . . وأنا قررت الآن: الاسترخاء، والهدوء. . . فدَعنا نُنمي صداقة بيننا!

ـ قال: وهل تظنين أنه من الإنصاف أن تقتحمي حياتي بهذا الاحتواء

الكامل الذي ارتضيته، وعبر سنين غَذَّت في البعاد، وبمنتهى البساطة تُصْدِرين قرارك أو (فرمانك) بما يجب أن يكون عليه شعوري نحوك؟!

دعينا ـ يا حبيبتي ـ لا نتحدث عن الغد، فلقد تحدثنا عنه كثيراً وخذلتنا أضداد الحب والوعي!

إنَّ الغد ليس مُلْكنا... بل هو غرسة اللحظة الأولى التي سمعتُ فيها صوتك/ الحلم... وتوحّدت مع نبرته الدافئة من أعماق صدرك، ومع الإنسان الذي يسكن في أعماقك.

وكنت خائفاً عليك بما ظننته عزلة حبَستِ نفسك فيها!

ولأول مرة أعرف أن هناك إنساناً يحبس نفسه في الاسترخاء والهدوء!!!

صدقيني ليست مسألة ثقة، ولا هو خوف، ولا حتى عشق... بل هو «الاعتبار» للإنسان في داخلي وداخلك.. لهذا «الحلم» الأحلى الذي سقيتُه من دم شراييني، ومن دموعي، ومن سهادي، ومن غربة نفسي في افتقادك، وحتى من ابتساماتي... ليزهر «الحلم»/ وجهك دائماً.

قالت بهدوء كأنها تستفزه به: «طيب..... تصبح على خير»!!

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني

المثقَّفة!

في هذا السكون الذي أعقب إنزال سماعة الهاتف من يد «سارة». . . تلفتت حولها في المكان، وقد سقطت في حيرة السؤال: ماذا تصنع الآن؟!

لا بد لها أن تتحرك، أن تقوم وتفعل شيئاً.

ـ لماذا أنهت حوارها مع «فارس» بهذا البرود الذي افتعلته في قمة دفء حديثه وحماسه؟!

لا تدري. . . ربما أرادت أن تكبح اندفاعته.

ربما قصدت أن تغضبه ليثور عليها.

فهل هي في حاجة إلى رجل: يثور عليها، ويصرخ في وجهها. . . ليكبح هذه اللامبالاة التي تصبغ أيامها الحالية؟!

تعرفه جيداً. . . إنه شديد الحساسية، ربما غضب منها الآن، لكنه لا يقدر أن يقاطعها. . . هي وحدها التي تقدر أن تقاطعه، ثم تعود إليه وقت ما تريد!

ارتسمت ابتسامة غرور على شفتيها. . وهي تهمس لنفسها:

ـ لكني لا أقصد تقزيم شخصيته أمامي... فقط يحلو لي أن أشاكسه، فهل أنا عدوانية؟!

لا.. لا.. لا.. أظن، فقط: استفزازية، وهو في استفزازي له يبدو كطفل يحتاج إلى حنان أم! و ...... ماذا عنها هي الآن؟!

منذ «سنة الطلاق» ـ كما سمتها ـ وهي تحاول أن تتمرد على ما حولها.

كانت قد عزلت نفسها في داخلها.. وانطلقت من هذه العزلة تتفرج على الناس والحياة، كأنها خارج طقس هؤلاء الناس، أو خارج اللعبة كلها.

راحتها التي استقرت فيها أخيراً: أن تتأمل، وتُصغي أكثر مما تتكلم.

لعبتها: أن تتفرج، وتقترب من المكان الذي تعتقد أنه يستهويها، وتقفل الباب بإصرار وعنف أحياناً في وجه أي «رجل» تشعر أنه جاء ليقتحم حياتها الجديدة ـ راحتها، ولعبتها ـ ليستحوذ عليها، ويمتلك مشاعرها، ويأمرها فتطيع، أو «تنخَّ» ويُخضعها لرجولته!

قالت لها أقرب صديقاتها إليها، وقد صارت تنتقي كل من تُقرِّبه منها:

ـ هذه عزلة... لا، بل سجن لعاطفتك، وربما لعفويتك كإنسانة!

أجابتها: لا أشعر بهذا السجن الذي تصفينه.. أحياناً يكون السجن الأقسى في خوض الناس لخصوصيتك، ولاستقلالية تصرفك أو فكرتك!

ما زالت قوية في التمسك بتمردها.. لكن قوّتها هذه المرة صاغتها من جديد: امرأة أخرى مختلفة عن «النسوة» اللواتي عاشرن فكرها... وعاطفتها في داخلها تنثر الأسئلة الحادة على امتداد سنوات عمرها.. ولا أحد منهن استطاع أن يشير لها إلى إجابة واحدة تفسر هذا التدجين الملحوظ لدورها

كامرأة يسمونها: نصف المجتمع!

عندما كانت في سن المراهقة. . تتقافز من الخامسة عشرة إلى العشرين، كانت الحياة تبدو في نظرها: ضحكة، وسهرة، وأغنية، ورقصة، ومحادثة هاتفية تعتبرها دائماً «للتنفيس» عن أشياء كثيرة معتقلة في رأسها، وبين ضلوعها!

وعندما نضجت قليلاً بعد نهدة العشرين. . بادر أهلها إلى تكبيلها بلا استئذان من عقلها، وبلا استفتاء لخفقات قلبها. . . فزوّجوها، لأنه لا بد لها أن تتزوج، أو هكذا بنات العائلات، والبنات الجميلات!

وعندما ضمتها غرفة واحدة مع عريس الغفلة، في أول ليلة من شهر ما يسمونه العسل. . سألَتْه بجرأة مستمدة من رفضها لكل السيناريو (المعتاد) في مجتمعها:

ـ من أنت؟!

ـ وبعفوية، وبقهقهة ساذجة فارغة بلهاء. . أجابها: أنا رجُلك. . . زوجك!

قالت له بدون أن تستهدفه بالاستفزاز، أو تحط من قيمته؛ لكني لا أعرفك. . . فهل تعرفني أنت؟!

قال: أعرفك جداً. . . فأنت ابنة أحسن الناس وأطيبهم، وأكثرهم فروسية برجولته وبمواقفه.

ـ قالت: إنك تثبت بإجابتك هذه أنك تجهلني تماماً. . فأنا لم أسالك عن أبي، ورجولته ومواقفه. . بل عني أنا التي ستعاشرها، (والمفروض) طول العمر. . . من أنا في فهمك لكياني ولشخصيتي؟!

قال: أنت التي اخترتها لتشاركني مشوار الحياة، و . . . تملأ بيتي أطفالاً!

ـ قالت: فقط. . . لا شيء غير هذا، أولاً يهُمك في شخصي إلا «الإنتاج» لك، كمعمل تفريخ؟!

قال مندهشاً: ما هذا. . ما هذه اللهجة. . ماذا تقولين وتقصدين؟!

ـ قالت: ماذا تفكر أنت. . ماذا أفكر أنا. . ما هي الصفات التي نتَّحد فيها، أو حتى يتقارب بها كل واحد منا من الآخر. . ما هي مفاتيح شخصيتك، وشخصيتي؟!

قال: يبدو أنني تزوجت فيلسوفة، أو مُحاضِرَة في مدرَج الجامعة!

ـ قالت: أرجوك. . . بدون أن تسخر، ففي إمكان كل واحد أن يسخر، ولكن ليس في إمكانه أن يُقنِع.

قال: ولكن. . . لماذا كل هذا التعقيد، ومن الليلة الأولى التي يضمنا فيها عش واحد؟!

ـ قالت: تُسميه الآن «عُشاً». . . وبعد سنة قد يعلو صوتك وأنت تصف هذا العش بالسجن؟!

لقد أردت بأسئلتي من البدء: أن يفهم كل منا الآخر. . فلا نختلف، ولا نجد بيننا فيما بعد ذلك: الجدار السميك الذي إذا قام لا نستطيع أن نهدمه!

* * *

لم يثمر حوار الليلة الأولى من شهر العسل تقارباً. . . بل ذلك الحصر لاهتمام الزوج/ البعل في (التمتع) بزوجته الجميلة، الشابة، النضرة. . . قبل أن تنتفخ بطنها، وتنشغل بأمومتها عنه!

ولـم تَرْضَ بهذا الواقع الذي فرضته أسرتها عليها، وسمّته لها بأنه: حياتها الجديدة.

ولـم تكن ـ في ذلك السن ـ قد تحولت إلى: امرأة قوية. . ترفض، وتتمرد، وتُشكِّل حياتها كما تريد.

استمرت الحياة بينهما، أو حولهما. . لكنها لم تكن تشعر يوماً: أن الحياة في وجدانها، ولا في معايشتها ومعاشرتها لهذا الزوج/ البعل.

وعندما تفتحت مداركها أكثر، وتراكمت تجاربها، وتمدّد اختناقها بحياة زوجية تطفح بالمعاناة. . . أدركت أن الحياة ليست كما تعيشها، وليست كما قبلتها ذات يوم.

مع انحدار دمعة كانت تفرُّ من حدقتيها، وتُخضِّب كالدم وجنتيها المازالتا نضرتين. . همست لنفسها:

ـ الحياة أكبر بالتأكيد، وأكثر اتساعاً، وجمالاً، وانطلاقاً، وبهجة، و. . . عفوية!

الحياة كما استلهمتها من معاناتها الطويلة: أن يجد إنسان نفسه في الآخرين، ويجد الآخرين في نفسه!

أما هي. . . فلم تشعر بذلك كله، ولم يتحقق لحياتها. . . بل بقي محبوساً في نفس واحدة!

وحاولت ـ بعد سنوات ذلك الحبس أو الانحباس ـ أن تفتش عن «لحظة» من الحياة الأكبر والأكثر اتساعاً، وبهجة، وانطلاقاً. . . . . وأن تباشر الحياة بقناعتها، وباختيارها.

لم تكن تريد أن تفقد ثقتها بالرجل... تمنَّت ذلك في مرحلة أخرى من حياتها.

وحانت لحظة الطلاق.. بكل خميرة الذكريات، والماضي، والطفل الوحيد الذي ملأ حياتها في كل ما تشعر به من تفريغ مؤلم لها، و.... تلك الأحلام التي أحبت بها وفيها، وحاولت تجسيدها: حياة أخرى/ خارج الطقس، وفوق العمر.. وأبعد من اعتيادية الصحو، والنوم، والطبخ، واللبس.. وأشمل من انتظار الزوج في مخدع النوم، فلا يأتي طوال الليل.. ويبقى في مجلسه الخاص ساهراً مع أصدقائه، والساهرين من أجله.. وتبقى هي بين جدران كل غرفة من هذه الفيلا الأنيقة، ذات الأثاث الغالي أو الباهظ ثمنه: وحيدة، ملولة، شاردة الذهن.. وتستيقظ جوانحها بكل شراسة الوحدة في هذه الأصداء التي حولها.

استرجعت لحظة الطلاق تلك الآن، بعد مرور أكثر من عامين عليها.

تلك اللحظة المهولة التي تبدو بشعة، مزلزلة.

ثم.... التي صارت بعد هولها، وبعد وضوح جوانب وزوايا الأشياء التي بدت غامضة أو صعبة في حينها: لحظة مريحة، ساكنة، مسكونة الآن بتأملها، وبفتح «ألبوم» حياة، واستعراض صور عمرها، منذ أن شبَّت عن طوق طفولتها/ عمراً، وتمسكت بطفولة نفسها وروحها إحساساً حتى الآن.... فوجدت أنوثتها تفرع بجسدها الذي يطول!

* * *

قرَّرَتْ بعد «تجربتها» أن لا تنبس بكلمة حب لرجل، حتى حين تصرخ خفقاتها في عطش الروح، وأنين الوحدة... حتى لو كان الرجل

«فارس» هو الذي أحبها يوماً ما، وما زال يمحضها صدق نفسه من عمقٍ استقر حبه لها فيه!

أرادت أن تُجرِّب عطاءً من نوع آخر، ولكن. . . لنفسها فقط. . لذاتها:

ـ أن تعطي لنفسها ولذاتها ما يريحهما ويبعدهما عن «وجع القلب»، وهموم الحب، وقلق الشوق، وتقلُّب الرجل أو سأمه!

صارت صامتة في حوارها مع الرجل عندما يبدأ معها حديث الحب. . حتى «فارس» الذي صارت تثق في صدق عشقه لها، وإشراقة شموسه كلما تربعت في سمائه.

وأحياناً تخرج من هذا الصمت بعبارة، أو بكلمة واحدة. . لا يهمها أن تكون جارحة له، أو متصدية، أو مانعة لتسلله إلى قلبها، أو . . . قاتلة لمشاعره نحوها.

وعندما أراد هذا الرجل أن يلفت انتباهة مشاعرها إلى خفقاته التي عادت تمطر على أرضها من جديد. . فوجئ بحدِّة في صوتها، وهي تحذره ضاحكة عابثة بوجدانه:

ـ إلزم حدّك من فضلك. . . أراك الآن رجلاً متطلباً، تستزيد ولا تكتفي. . تتدفق ولا تقحل أبداً، تماماً كما عثرت عليك أول مرة. . . . كأنك لم تنس أبداً!

بالنسبة لي. . أقول لك أيضاً: لقد تغيرت، وكثيراً!

صرت ارفض أن تقتحمني عواطف رجل، وأن تقودني وتسيِّرني. . كأنه زوجي المتسلط!

الآن ـ في هذا النضج الذي بلَغْتُه من العمر ـ أرفض أن يتحكَّم رجل في خطوتي، ودخولي، وخروجي، وحتى رغبتي في البقاء مع نفسي وحدي.

أرفض مطاردته لي، وتفتيشه في تلافيف عقلي، وفي خزانة نفسي، وفي زوايا قلبي... حتى لو (فكرت) أن أحبه عشقاً!!

لم أعد أطيق أن أمنح هذا الحق لأحدٍ مهما كان..... غيري «أنا»!

نضوت عن قلبي، وعقلي، ولحظات حياتي: عباءة التبعية لرجل... حتى لو كان أنت.

أي رجل يريد كل أشيائي.. وحتى شرودي فيه وحده بأنانية مطلقة!

تقول الحب؟!!

حسناً... إنني لا أرفض الحب، ولا أقف سلباً من الرجل.. لأنني بكل ما سمَّيته: مواقع وحواجز في حياتي.. فأنا لا أبني سياجاً يفصل بيني وبين الرجل!

ممكن أن أشعر في لحظة دافئة مشتاقة: أنني أحبك، وأنني أريدك فوراً..... فتأكد أنني سوف أجدك (!!)

ليس غروراً ـ صدقني ـ لكنني أحاول أن أنسج إحساساً مختلفاً، بدون اعتساف، ولا حِدة، ولا مطاردة من طرف للآخر.. هو هذا الإحساس العفوي، وربما المباغت، والآتي بأنانية الحب.

* * *

شرد بها صمتها وراء صدى صوتها... وقد قصدت أن تُبلغ هذا (الفهم) لخفقات قلب «فارس» التي تلهج باسمها منذ زمن بعيد.

واسترجعت أصداء صوته أيضاً. . . كأنه يطلب منها أن تواصل الكشف عن ما في سريرتها، وعن عاطفتها نحوه، فقال:

ـ إذن. . . لم يبق لديك «الحب» الذي كان يشكل حياتك؟!

ما تريدينه، أو تخضعين له في بعض الوقت. . هو بالتحديد: استجابة الاحتياج لديك كأنثى للرجل.

إنه وقت للتفريغ العاطفي الذي يتبلور ممارسة!

ـ قال: أنت تشتمني يا فلان. . . ومع ذلك أعرف أنك ستغضب مما قلته لك، وترفض بإصرارك المعهود ما تسميه أنت أحياناً: لا مبالاة مني بك، أو ما تصفه في أسلوبي العاطفي معك، بأنه: قسوة عليك، بل . . . . واتهمتني بالسادية التي أمارسها معك لأتلذذ بتعذيبك في حبي!

لقد جرَّبت مجتمعاً آخر. . عشت فيه، واندمجت، وشدُّتني ثوابت لا بد أن تتوفر في العلاقة الإنسانية. . ومن أهمها: الإبقاء على الشخصية الذاتية، حتى لو أدميت عيني بدلاً من الدموع دماً. . . إنه سلوك حضاري اقتبسته من مجتمع نسميه متطوراً، والمهم فيه: آدمية الإنسان!!

ومن أهمها أيضاً: الوضوح في العلاقة. . بمعنى: لا تحاصرني ولا أطرد وراءك، طالما أنك تثق في حبي لك، وطالما أريدك وتريدني!

ومن أهمها: الانطلاق في زحمة الناس. . لا تغار من دخولي وخروجي إلى هذه الزحمة ومنها. . لا أسألك: ماذا تفعل إذا وجدت الثقة. . لا تسألني: أين كنت، ومن هو الرجل الآخر الذي ضحكت معه؟!

لم أعد أطيق أن يحاسبني أحد على ممارسة حريتي الشخصية.

أعرف أنك ستقول: إنني أخرج بك أو بنا من مجتمع محافظ وربما مغلق.. إلى مجتمع منفتح، وقد لا يكون محافظاً في حكمنا المُلْزِم..... رغم أن هذا العالم قطع أشواطاً بعيدة على درب الحضارة، وشملت إنجازاته العلمية العالم.

وأعترف: أنني لا أنكر طبيعة النفس البشرية وذاتيتها... لكنني بقيت عدة سنوات في غمار أو زحام تلك المجتمعات.. أنطلق، وأفْرج عن إنسانيتي وحريتي من قيودهما ومن المحظورات التي كبَّلتها حتى البلادة... وذلك في حدود التزامات تقرها سلوكيات، ولا أتنازل عنها.

سألها: ولكن... ألم تُصابي بالملل من هذه (الميْكنة) في المجتمعات المتحضِّرة.. من الزحام، وضغوط الماديات، والواقعية المباشرة إلى درجة استفزاز الروح في داخلك، واستجابة الاحتياج التي تنتهي بالرغبة؟!

ـ أجابته: أنت تسميها «ميْكنة» لأنك ما زلت تحافظ على ما حفره المجتمع في أعماقك... برغم استجابتك للانطلاق، و... العبث كرجل: تمارس، وترفض حق الطرف الآخر!

ومع ذلك... أقول لك: لقد بقيت في تلك السنوات: أقرأ، وأقرأ، وأقرأ..... وكان البعض من صديقاتي هناك اللواتي تعرفتُ عليهن في الزحام، يُطلقن عليَّ صفة: (المثقفة)!.

ولعل هذا الشعور المحفوف بالغرور انتابني في بعض اللحظات، لأنني تنبهت إلى حُسْن حواري ونقاشي، وسهولة توفير الأدلة، وبراعة جدلي لو أردت!

فرحتُ بحياة جديدة.. فررت بها خطوات بعيدة عن هذا الترصد لحرية

الإنسان الشخصية، وحتى عن: التلصص على أفكار الإنسان، وعلى خفقة قلبه. . ومَنْ يحب، ومن يكره، ومن يعاشر؟!

خرجتُ من مجتمع. . ليست مشكلته: الانغلاق، أو المحافظة. . . بل مشكلته الأساسية تكمن في تفريغه من المنطق، ومن الحرية الشخصية، ومن عفوية التصرف بدون اعتداء على حريات الآخرين، ومن حوافز الإبداع. . . حتى تشويه العاطفة الإنسانية الأنبل، وذلك حين يرمونها بالخطيئة، أو بالانحراف. . . كأنَّ هذا المجتمع أدخل كله في فرن لإنضاج شَجْبه الدائم لكل تلك الأساسيات لقيمة الإنسان، وإصابة عواطفه بالعُقَد من كثرة تحذيره من الحب، ومن الفرح، ومن الابتسامة، ومن الترفيه عن نفسه!

حتى لو نظرت إلى وجوه الناس في الشارع، في «السوبر ماركت»، ووجوه المذيعين على شاشات التلفاز، وحتى وجوه المشاركين في الندوات. . . فلا بد أنَّ ملاحظتك ستتركز عل ظاهرة: الوجوه العابسة المتجهمة التي نسِيَتْ الابتسامة، كأنها تخضع لحظر على الضحك!!

و «النسوة» كما يقول الرجال: أُصِبْن بالاكتئاب من كثافة عبوس رجالهن، حتى داخل البيوت من هذه العدوى المنتشرة!

* * *

فجأة. . . رنّ الهاتف في غرفتها التي فاضت بالصمت، وبشرودها إلى حياتها في الماضي:

ـ أهلين. . . كيف وجدت فرصة لتتصل بي بعد منتصف الليل؟!

اشتقتُ لكِ. . . أنت أنهيت محادثة أول الليل ببرود، فقط. . . أردت أن أخبرك أنك فشلت في استفزازي!

ـ يا . . . . بورودك، معليش. . ابتسم فأنت في جدة!

ها أنذا أبتسم لك. . . لكنَّ وجهك أحلى وأنت تبتسمين!

ـ غزلك سخيف هذه اللحظة. . . فماذا تريد مني الآن!!

لا أرفض «قُوَّتِك» التي تحاولين تركيز عدسة الزوم عليها معي كلما جمعنا حوار. . . ولا أريد «ضعفك» الذي تُدارينه عني في تضاعيف نفسك. . . فلستُ أحب المرأة الهلامية، ولا المرأة النعجة.

ـ حسناً. . . عباراتك جميلة، ولكن أسرع وأخبرني: ماذا تريد مني بالتحديد؟!

أعرف أنك تتَّشحين أحياناً بعباءة القسوة الظاهرة. . . فليكن، سأبقى شاخص القلب إليك. . متدفقاً، وأعتذر عن إزعاجك في منتصف الليل.

وضعت سماعة الهاتف، وهي مندهشة من لهجتها معه: لماذا خاطبته بهذا العنف؟!

ـ قالت: ليكن. . . ماذا أفعل له؟!

❊ ❊ ❊

كأنه انسحب من دائرة ضوئها. . . لم يعد يتصل بها ولا يشاكسها بملاحظاته، وحتى بعفويته التي تتوارب من خلالها: طفولته معها.

اختبأ بعيداً عنها في الصمت، واحتمل غياب صوتها ووجهها عن سمعه، وبصيرته. . . كأنه بهذا الانسحاب قد صافح عزلتها لنفسها، وانضم معها إلى عينيها وسَمْعِها في رغبة التفرج على الناس والحياة!

ومرَّت أيام على هذه التجربة المضنية له، وهو يسأل نفسه:

ـ حقاً. . . هل صارت أشواقنا الأصلية خارج لعبة الناس مع الزمن، وعبث الزمن بالناس؟!

لعلها تجيب هي يوماً على السؤال. . بعد أن أهملت الإجابة على الأشواق!!

تحوّل وريده إلى درب يوصله إليها دائماً، وهي لا تشعر. . . . .

امتزج تعبها وتمردها بدمائه: بابه السحري الذي يدخله في أي وقت إلى بهائها، وذاكرتها التي تحكَّمت في حبسها وإطلاقها وقت ما تريد!

لا بد أن تعلم من صفات صحرائه، وصبّارها، وحنظلها: كيف يحتمل «الجَملُ» فيه العطش؟!

إن هذه المرأة/ الأنثى. . صارت طقوسه، وكل انكساراته.

صارت هي وحدها: انعتاقه من الحنظل ومرارة الأيام. . وهي لهفته الخرساء التي تُشكِّل رغم صمتها: سفره إلى أمان الروح.

تستطيع هي ـ وحدها أيضاً ـ أن تسلبه الطقوس، والانعتاق، واللهفة، والسفر إلى أمان الروح، كلما أرغمته على تفريغ العمر. . . . عمره هو: منها!

وفي انسحابه من دائرة ضوئها، والتوقف عن الاتصال بها، ومشاكستها. . فوجئ بها ثانية: في مساء كان «يهدهد» فيه وحدته. . وصَله (خطها) بكلمة واحدة، أرسلتها إليه، تقول له فيها:

ـ وحشتني!!

* * *

الفصل الثالث

العودة المفاجئة!

هل عادت «سارة» ـ فجأة ـ إلى وجود «فارس»؟!

هل هي التي أعادت نفسها إليه: مشتاقة، أم مشاكسة.. أم مجرد صدفة وضعتها صديقتها «ليلى» أمامها؟!

كأنّ صديقتها «ليلى».. هي التي ذكرّتها به كانا في بدء مساء من أمسية «جدة»: الرطوبة تتصاعد مع حلول شهر يوليه، وبرج السرطان في منتصفه.. و «سارة» من برج النمر الصيني.

سألتها ليلى: ألا ترغبين في الذهاب إلى سهرة صديقتنا «وفاء»؟!

ـ قالت سارة: عندي ملل... أريد أن أسافر.

ستسافرين بعد أيام.. دعي صديقاتك يجلسن معك، فأنت كنت مسافرة وقتاً طويلاً وتدّعين الآن الملل؟!

ـ فكرة... سنذهب سوياً إلى سهرة وفاء.

ما هي أخبار «فارس»؟!

ـ «أيش ذكّرك فيه هالحين. . . أوه، سنوات مضت لم نتحدث».

ما رأيك لو أتلفن له؟!

ـ تلفني. . . وأنا مالي.

جرَّبت «ليلى» الاتصال بهاتف «فارس».

سرى صوته في سمعها هادئاً كعادته.

بدايات الكلام. . تداولتها معه، وبدت متلجلجة تفتش عن موضوع تفتحه لتواصل معه الحوار، سألته عن رأي كتبه قبل أيام أحد الكُتَّاب الذين حققوا حضوراً متميزاً ذات يوم من خلال إشراقة العبارة.

عباراته التي كان يجيب بها: مختصرة، أسقط في يد «ليلى».

سمعها تجادل صوتاً آخر معها في الغرفة، قالت له:

صديقتي تسأل عنك!

قال: وهل أعرفها؟!

ـ قالت: ألا يذكّرك حرف (S) بإنسانة ما؟!

غاب صوته عن سمعها قليلاً. . حتى جاءها وكأنه يمتح هذا الصوت من أعماق بئر:

قال: ياه. . . أما زالت تتذكر. . . . ولماذا تحرمني من صوتها؟!

بقيت سماعة الهاتف على أذنه لحظات، كأن (S) مترددة، أو تشعره أن صوتها في هذه اللحظات يقطع مسافات السنين التي قاطعته فيها ليصل إلى سمعه.

جاءه صوتها أخيراً بنفس عبارتها القديمة التي بدأت بها وصال انقطاعها الأول.. قالت له:

ـ إنت ما مُتْ؟!

فاض الشجن من صوته وهو يرد على سؤالها: وها أنذا أعود هذه اللحظة للحياة من جديد.

وقف الصمت ثوان قليلة بين الصوتين، حتى سألها بشغف:

ـ أين كنت كل هذه القطيعة؟!

قالت بنصف ضحكة: أبداً... هنا وهناك.

ـ قال: كان من المريح أن تخبريني بقرار قطيعتك.. حتى لا يطول انتظاري لعودتك أكثر من أربعة أعوام!

قالت: تذكرتك أكثر من مرة.. فكرت أن أطلبك، لكنك غيّرت رقم تليفونك.

ـ سألها: وكيف وجدت الرقم الآن؟!

قالت بنصف الضحكة: لمّا بغيت.... المهم، إيش أخبارك، عامل إيه؟!

ـ قال: عايش كبندول الساعة يمنياً ويساراً.

قالت: على فكرة.. أنا ما فكّرت أتصل بك، صديقتي كان عندها سؤال لك.

ـ قال: وطرحت السؤال... فهل أنهي المكالمة؟!

قالت: لما أبغى أنا!

ـ قال ضاحكاً: لم تتغيري. . . ما زلت في استفزازاتك القديمة.

قالت: وحشتني رسائلك إليّ. . تذكر يوم كنت تكتب لي في الصباح رسالة، وبعد الظهر رسالة، وفي المساء رسالة؟!. . . أكتب لي من فضلك، وإلاّ ما هو من فضلك. . أنا آمرك أن تكتب لي، وتحبني في الرسالة مثل قبل سنوات!

ـ قال: مجنونة. . . هل تصدقيني وأنا أقول لك: إن عودة صوتك إلى سمعي أعادت إلى نبضي حيويته، وإلى خفقي شبابه وقفزاته، وإلى قلبي ذلك الدفء الذي طالما غلفه في تلك الأيام التي أحييتني فيها باحتوائك، وبتواصلك في ليلي ونهاري؟!

سأكتب لك الليلة. . كلميني مساء الغد، ويمكن تلاقي تفاصيل أكثر!

* * *

لم تنتظر «سارة» أن يحل مساء اليوم التالي. . فقد جاء تليفونها لفارس في موعد الغروب، وصوتها يدفئ مسمعه:

ـ هل كتبت؟!

قال ضاحكاً: وعليكم السلام، مساء الحب.

ـ قالت: أرجوك. . . كتبت، وإلاّ لأ؟!

قال: دعيني أمارس معك بعض استفزازاتك لي. . . لا لم أكتب.

ـ قالت: إذن. . مع السلامة حتى تكتب.

قال: افتحي خط فاكسك في بدء المساء. . . ألم تسمعي عن: الحب بالفاكس؟!

ـ قالت: ولو...... في عصر «تفجير» المعلومات.

قال: المعلومات والقنابل معاً... إنه عصر تفجير متنوع، وأظن أن الذين يفجرون المعلومات هم وراء شحن ودفع وتحريض الذين يفجرون القنابل.

ـ قالت: و «صجُّونا» بالكلام عن السلام، ومباحثات السلام مع إسرائيل... في الوقت الذي أحسب فيه أن كل إنسان عربي صار يبحث عن سلام مع نفسه.. أحياناً يضطر الواحد منا أن يكون سطحياً حتى لا يتعب!

اسمع يا راحتي النفسية.. أكتب لي من فضلك قبل ما أسافر..... في الليل.

وجد نفسه في اندفاعتها القديمة إلى «أوامر» سارة له، وتساءل:

ـ هل ما زال يحبها... أم أن عودتها المفاجئة بعثت حبه القديم لها من جديد؟!

ومَنْ عرفهم بعدها.. هل كانوا مجرد محطات؟!

وهي/ سارة... ماذا تشكل في نفسه حتى الآن؟!

أسئلة مدببة تسددت إلى صميم نفسه من شروده وراء صوتها بعد إنهاء المحادثة الهاتفية بينهما... وكأنه بقي يعاني من التردّد خوفاً من «مزاجيتها» التي لا تستقر على حال!

بقي ساعة يفكر... حتى تسللت أصابع يده إلى القلم.. وأخذ يكتب لها:

يا امرأة الزحام الذي يُضيِّع صوتي إليها:

والآن. . . . . في عمق هذا الزحام: ماذا أنتظر؟!

هل أنتظر عصا الساحرة في حكاية «سندريللا». . وقد أضعت عيوني لكثرة ما فتَّشت عن «مقاس» حذاءك أو خطوتك. . تلك التي تواجدت في الهروب؟!

هل أنتظر عودة الإيقاعات المعبّرة. . . وأنا أقبع داخل أذن «بيتهوفن» الصمّاء؟!

أم تراني أنتظر ما صوَّره شاعر قال: «أنتظر مطر التاريخ في توهج المسافة»؟!

أنا لا يعنيني التاريخ. . . لا تعنيني المسافة، بقدر ما أهتم بالمطر، وأبحث عن التوهج.

أم أنتظر «أرسطو» ليعطيني تأكيداً بأن أسنان المرأة أقلّ من أسنان الرجل. . . هو الذي نسي أن يتفحص فم زوجته الأولى، وأسنان زوجته الثانية. . وعاش عصراً قاعداً على ألوان من الأوهام والظلال. . . . . مثلي؟!

كل الحقيقة في حياته كانت: تعاسة بالمرأة. . . لأنه لم يعرف عدد أسنانها!!

آه يا. . . . . أنتِ: ماذا أصف وأكتب؟!

المساء: جمجمة آدمي. . مرسوم عليها: الأنف، والشفة، والأذنين. . . بدون عينين!

هكذا تصبح الأشياء: غالبة، واضحة. . . . . ثم: تافهة!

وهكذا وقفت في منتصف هذا المساء، أنادي على «عروس الخرافة»، عليك. . . بمسمع منك!

أود أن أكتب. . أن أغازل. . . . . . أغازلك أنت. . أستفزّك. . أهامسك.

أو أن أغازل «عروس الخرافة». . أستفزها. . أصفعها. . أقبِّلها!

أرغب ـ الآن ـ أن يصدر عني تصرف. . قد لا يُقرّه الآخرون.

لأعترف. . . لا بد من الاعتراف في هذا الزمن الرديء: أن الناس سيزرعون احتجاجاتهم في حدقتيْ عينيّ، ويديرون ظهورهم: مقهقهين. . آخذين بمبدأ، أو قاعدة: لا شيء يهم!

فما هو الشيء المتبقّي. . . . الذي صار يهم؟!

أرغب أن يصدر عني تصرف يُزيّن وجهك ـ أنت حبة اللؤلؤ/ الأغلى.

لأعترف: أن الحب هو . . . جنوني، وسيفي!

شراييني تيبّست. . . وما زلت منقوعاً تحت النجوم: أنتظر.

ولكن. . . . أنتظر ماذا؟!

أنتظرك أنت. . . من عهد: إرم ذات العماد، من أصداء أشعار مجنون ليلى!!

أبحث عن التوهج. . أتابع سحابة لا تمطر، تفترش ضياء القمر والنجوم. . فلا التوهج يتفاعل، ولا الغيث ينسكب.

لكني مجلود بأفكاري. . متمنطق بالعالم حول نفسه.

و . . . ماذا عن: خوف المرأة من الرجل، وتمردها عليه؟!

و . . . مـاذا عـن: انـجذاب الـرجـل إلـى الـمـرأة، ثـم . . . . . قـسـوتـه عليها؟!

و . . . ماذا عن: ذلك التوحُّد بين المرأة والرجل الذي انحصر ـ فقط ـ في . . . . اللحظة؟!

* * *

هل ترينني ـ يا حبة اللؤلؤ ـ مغذٍّ في التهويم حتى التيبُّس؟!

في انتظار الانقباض النفسي ـ سمة هذا العصر! ـ تختفي العيون من وجهها.

ولماذا أكتب لك. . . . . . حتى الانقباض؟!

أكبر من الارتياح إليك وبك. . . أعمق من توقع «فهمك» لي.

في انتظار «العيون» عيناك: أجمل ما يشدني إلى أنثى. . . تتوقف ريشة الرسام، ويجف حبر الشاعر، ويبحّ صوت الشادي.

تزفُّنا أشواقنا إلى الحب والفرح. . ثم ما تلبث عقارب الساعة أن تنسحب إلى مكان مليء بالاختناق، كزجاجة طافحة بالرمل!

وليت الناس يتوقفون يوماً واحداً عن الضحك المصطنع، أو الابتسامة الصفراء. . . لأنه ضحك فاسد، مليء بالأصداف والصدأ!

حتى العشق: بارد. . . لأنه تحول عند الكثير إلى حافز، يخضع للمتناقضات في حياة إنسان هذا الزمان. . . ولأنه عشق «معلب»، نفتحه في الليل إذا ما ترددت الأصداء المتناقضة في داخل النفس وخارجها، ونقفل عليه في النهار. . لنجري وراء الوراء، ذلك الذي يحدد: مستوى معيشتنا، ونسبة

الترف في استخداماتنا المالية.. بينما يزداد في كل يوم تفريغ الوجدان من العواطف الصادقة، وتجفُّ العقول من فكرة الخير والمحبة للناس!!

ولست مبالغاً.. ولكني متأثر بواقع العصر القاسي.

هل هي التعاسة في دروب المدينة كلها... أم هو الحزن في دهاليز العبرة»؟!

هكذا جعل مني صديقي: بطلاً لرواية «غابريال ماركيز»: الحب في زمن الكوليرا!!

أعترف لك: صرت في خصام مع نفسي بعد قلبي.. والكثير في هذا الزمن: صار يزيّف صدق الخفقة، ويشرخ التوحد باسترخاء لهفته!!

صرتُ أردد في وحدتي وتوحُّدي مع الحزن النبيل: أسىً عظيم حين يشعر الإنسان أنه وحده.. قلبه يتيم، وأيامه باردة!

كان الأسى الأعظم ـ يا حبة اللؤلؤ ـ أن تخترقني: مسمارية ذلك الموّال:

ـ «قد كنتُ أحلم قبل اليوم في سِنَةٍ.. فصرتُ أحلم منذ اليوم: يقظانا»!

تُرى... هل أقدر أن أحلم بغيرك...أنت الأنثى/ الخرافة؟!

وهل أحلم: أن لا تحلم بي امرأة غيرك.... لأنني لا أريد سواك؟!

أم أحلم: بأنثى شاسعة من عصر «قيس وليلى».. تقتحم، وتشع في صدري كالصباح الجديد.. فتُبلسم الجروح، وتذيب.... الماضي؟!

كم مرة نحلم ـ يا سيدتي ـ فيستمر الحلم: حُلماً؟!

أنا أحب. . . . . . لا أستعبد.

أنت: استعبدت قلبي. . لكنك لم تحبه!

لقد حاولت أن أصغي. . . فطغى الضجيج على الإنصات.

لقد حاولت أن أرى. . فازدحمت آلاف المشاهد والصور، واختلطت الملامح والخطوات.

لـم تعد الكلمة التي تكتب، أو تقال، أو حتى تصرخ: هي العطاء الحقيقي لصياغة فكرة جديدة للحياة. . . أصبح كل عطاء الإنسان: أن يكرس أحلامه ليكبر فوق الآخرين، بعد أن كان الإنسان يكبر بالآخرين. . . بالتعاون، وبالروح، وبشمل الأسرة، وبروابط القربى، وبقيمة الحرية!

أصبح كل إنسان ـ وحده ـ يتحرك ما بين المسافة والظل!

حزنت كثيراً. . حينما كان صوت شاعر في سمعي يردد:

ـ «إنني شاعر. . أتحرك ما بين المسافة والظل»!!

* * *

وبعد. . . يا لؤلؤة القلب:

هل أواصل البوح لك، وأنا الذي أشعر بتدفق معك وإليك. . . أم (أنْظم) فلا وقت للهدهدة في هذا الزمن الطباشيري؟!

* * *

الفصل الرابع

قمـة المعاناة

هذه الليلة.. لم تكن «سارة» تنتظر أحداً.. لا رجلاً.. لا همسة حب.. لا نداء من قريب بعيد، ولا حتى معاكسة هاتفية مما استشرى في سلوكيات مجتمع أهلها الجديد!

فقط... كانت تشعر أنها تبحر فوق مياه هادئة الموج.. تُجدّف ببطء، والليل من حولها صامت لا يعيد إليها أصداء تجديفها.

ـ تساءلت: هل حقاً عندما تموت قضايا الإنسان.. تموت معها خفقة الحب؟!

ولكن... من قال إن قضاياها ماتت، ربما بدأت قضاياها الأكبر!

كانت رسالة «فارس» تتنقل من يدها اليمنى إلى يدها اليسرى، وتعيد قراءتها، وتشرد بعيداً... إلى فارس، وبعيداً عنه.

ـ سألت نفسها: لماذا تذكرته الآن، ولماذا تحرضها رغبة ضوئية لأن تكتب إليه.... وحده؟!

ربما لأنها عايشت الهدوء مع نفسها بعد لحظة طلاقها من زوجها الأول.

الآن ـ بعد أكثر من عامين ـ لم تجد في نفسها ذلك الزلزال الذي (نخعها) من عمقها وأضرم في قلبها: نيران العشق أو جنون الحب.

ربما ـ ثانية ـ لأنها وهي توشك على وداع الثلاثينات من عمرها. . صارت تكثر أسئلتها وتتفرع دروب خوفها، لأن التجربة في أبعادها ستكون ذات دلالات إنسانية تتوفر فيها القناعات أكثر مما هي عاطفية/ غرامية!

لكنّ «فارس»: طرأ على خاطرها. . . ومن زمن كان هو قد انتشر في البال وترك فيها بقايا منه حتى الآن.

ـ ولكن. . . كيف ستراني الآن؟!

كأنّ «فارس» أمامها وهي توجه له هذا السؤال عبر تحديقها في سطور رسالته.

ولو رآها: فجأة، صدفة، غفلة. . . ما هي حركته الأولى؟!

هل تراه يتفحصها مستعرضاً جسدها الممشوق الفارع الذي ما زال ميعسباً ـ كما كان يصفه أمامها دائماً ـ ويندهش قائلاً بضحكته:

ـ كيف تحافظين على رشاقتك؟!

هل يسألها مثل كل مرة: أين تسريحة شعرك القديمة . . . لماذا تقصين شعرك، ألمْ أنْهك عن ذلك؟!

ولو رأته هي . . . بدون صدفة، ولا غفلة، ولا فجأة، لأنها أرادت

وسعت إليه. . . فكيف ستسقط نظرته الأولى عليها، وكيف ستعاملها عيناه بالنظرة الأولى؟!

هل تَرُشُّ نظراتها بعبق الذكريات وتلك الأيام الخوالي. . يوم بذرا جنون الحب معاً في برودة الأيام فأشعلاها، وركضا ليلاً، وحلماً نهاراً؟! أيام الخوالي.

هل تتحسن «بقايا» من حبه ذاك، هي التي لم تحافظ على نعمة حبه لها. . أم لا يهمها في هذه اللحظة، بل هي تهتم بما آلت إليه سحنته، ونفسيته؟!

ذات يوم ـ قبل أكثر من عام ـ سمعَتْ أنه كاد يموت بعد أن تعرض لحادث.

ـ همست كأنها تحادثه: يا الله. . إنني لا أكرهك، بل أعبر عن شدة حبي لك. . فلو أنك انتقلت إلى رحمة الله، لأصبحت جزءاً هاماً في ما تبقى من عمري. . لا تبرحني أبداً، وأسترجع أمسياتنا الأجمل والأكثر جنوناً وحلماً وسفراً.

يوم علمت بما تعرضت أبدا له. . لم أشعر بذلك القلق الذي أصاب أهلك وأصدقاءك في عصر ندرتهم، ولكني أردت أن أقول لك وتمنيت أن تسمعني: كان من المفروض أن تتعرض لمثل هذا. . فأنت لا تتوقف ولا تتلفت حولك، كأن الحياة لديك: موعد هام، ومحدد، وقصير جداً!

ياه. . إنها ما زالت تذكر: كانت تطلب منه في لحظات امتلائها العاطفي أو الغرامي به . . أن يؤجل موته، لأنها تحبه!

تشعلها لحظات معه. . فتتبلور أمامه: صادقة وشفافة وبلورية المشاعر،

رغم أنها تعرف رأيه عنها في هذه النقطة بالذات . . . ومما كان يقوله لها:

ـ (أنت لا تحبين رجلاً لذاته أو لصفاته. . بل تحبين ذاتك أنت فيه، بكل ما يتعمَّقك من أنانية ونرجسية فيك).

واليوم ـ بعد قطيعة دامت بينهما أربع سنوات ـ اكتشفت أنها: لا تكرهه، لكنها أرادت أن تلغيه من ذاكرتها. . أن تقلع غرسته من تربة أيامها. . أن تجعل شجرته تجف في حديقة عمرها وتشيخ وتسقط حتى تموت جذورها.

كم هي قاسية في هذا الجانب الذي كان يزعجه من جنونها. . وكان يطلق عليه: قسوة متناهية!

لم تعد تريده في حياتها أبداً.

إنه لم يحطم حياتها. . هي المسؤولة عن كل ما حدث مما اعتبرته أمها وأخواتها: تحطيم لحياتها حين قررت أن تنهي الرباط الزوجي بعد معاناتها في عشرتها مع زوجها . . من إهمال لها، وغرور، وانشغاله بصفقاته ورحلاته الدائمة والمتلاحقة!

حاولت عدة مرات ان تسترد زوجها إلى ما يسمّيه الرومانسيون في العصر الماضي: «عش الزوجية أو الحب» . . لكنها اكتشفت: أن زوجها ذاك. . كان يقيم عشاً مؤقتاً في كل مكان يسافر إليه، وقد كثرت أعشاشه.

كانت أمها تصرخ في وجهها، حينما علمت بدخول «فارس» إلى ليالي ولهفة ابنتها:

ـ هذه خيانة منك يا سارة . . . فكيف تطيقين ذلك؟!

لذلك كانت تطيل التحديق في وجه «فارس»، ثم . . . يرتفع صوتها مقهقهاً، وتمتد إليه يدها متوددة في قمة شراسة أنوثتها معه، وتناديه:

ـ تعال إلى صدري . . يا نقطتي السوداء، اللامعة بالضوء جداً!

* * *

كانت فكرة مجنونة . . لكنها ارتكبتها كجريمة، حبكت خيوطها، وعرفت ماذا سيحل بها، وربما توقعت، ماذا سيلاقيه/ فارس؟!

لم تشعر بالخوف عليه حين خطّطت . . لم تفكر في مصيره، وماذا سيحدث له لو افتضحت قصتهما؟!

كل ما ركزّت تفكيرها عليه وفيه، كان ينحصر في هذا السؤال:

ـ كيف تقتل هذا الرجل/ زوجها، الذي قبرها بالحياة، فتجعله يمشي ويتحرك ويعيش حياته: مقتولاً؟!

لا يخطر بالبال أنه الانتقام . . بالعكس، ليست ميّالة إلى الشر كما هي طبيعتها ونفسيتها . . لكنه التمرد ومحاولة كسر الطوق الذي سجنها في إطاره عدة أعوام، أثمرت طفلاً كبر اليوم وفي عيونه ما يرعبها حيناً، وما تتحاشاه أكثر الأحيان.

فهل هي سافلة . . أمْ زوجة جريحة بالإهمال من زوجها . . لعقت دماءها التي تنزف، وقامت بعمل أقسى من الاغتيال، أو القتل الجسدي؟!!

هكذا تعاملت مع وجود «فارس» في حياتها: أحبته وقتاً قصيراً، وسريعاً، ومكثفاً، وعاجلاً . . . كأنها تخاف أن يموت فجأة، أو أنه لن يعمّر كثيراً . . حتى إذا عرفت خبر الحادثة له . . احتارت لحظتها في تعاملها

المتباطىء مع الخبر: هل تبكي، أم تضحك. . هل تصفق لتوقعاتها عنه، أم تزجرها وتكرهها، لأنها تريده أن يعيش ويحيا. . لا تريده أن يموت الآن، رغم ما حدث من فراق بينهما.

تريده أن يواصل حياته بإصراره الذي تعرفه فيه.

كانت في زمن صفائهما، أو «غيهما». . تطلب منه برجاء تُسمِّيه سخرية، أو ترفاً في المشاعر والتعبير، فتقول له:

من فضلك. . دع موتك يتأجل قليلاً، حتى أسأم منك، وبعد ذلك لا يهمني إن ودَّعت الحياة، أو بقيت. . . لكنك ستكون في حكم الميت في مشاعري!

الآن. . . هل يسألها بمبادرته التي تعرفها فيه: «هل تعتبرينني ميتاً في وجودك، أم حيَّاً»؟!

ـ تهمس: لا أدري صدقني. . . أشعر بك بعيداً جداً جداً، كأنك خارج حدود عالمي، أو كأنني في كوكب آخر لا يتلائم مع كوكبك. . . لكنني ـ فجأة ـ اشتقت إليك، أو إلى الكتابة لك: عني وعنك!!

لا تتهمني بأني كبرت، شخت. . لم أزل في شموخ أنوثتي وكبريائها.

كنت أطلب منك في الزمن الذي أحبك فيه، برجاء حار: أن لا تموت. . . وإذا أردت ذلك فيكون بعد أن أكرهك!!

ستسألني بالضرورة، أو بتوقّعي لأسئلتك التي خبرت محورها: والآن. . . هل تكرهينني؟!!

هي لا تعرف الكراهية، وأيضاً. . . لم تعد تعرف قلق الحب، لعلها

تقتنص فرص الضحك، والمرح، والانطلاق، والسفر بعيداً بعيداً . . لكن قلبها: وادع، راكد كالبحيرة النائمة!

حتى زمان التسلية الذي كانت تقول له عنه: إنها تخافه . . لم يعد هو الزمان المثير، ولا المخيف . . ربما كان هو الزمان التافه، أو الذي يضخم تفاهة ممارساتنا، حتى العاطفية!

* * *

أمسكت القلم . . وبدأت تكتب له رداً على رسالته:

ـ عزيزي فارس:

ما معنى التسلية الآن؟!

أنت . . . هل عندك نَفْس؟!

لحظة من فضلك . . . لا تظن أنني محبطة.

لكنّ أسئلتي تراكمت، وفاضت . . . ولقد تركت الأسئلة بدون أجوبة، وحتى بدون حرص على إيجاد أجوبتها . . . لماذا؟!

ألسنا نعيش، ونمشي، ونتكلم، ونسهر، ونمرح؟!

إذن . . . لماذا نُقيِّد حياتنا بمثل هذه الأسئلة التي صرنا نجرجرها خلفنا كالأصفاد والسلاسل؟

ذهبت إلى البلد التي تكرهها أنت/ في أقصى الأرض.

طرأْتَ أنت على خاطري هنا ـ في بداية مساء، وأنا أشاهد لقطة من برنامج في التلفاز - فقلت: ترى . . لماذا أنت تكره هذا البلد/ القارة؟!

ألا زلت متمسكاً بالمبادئ والقيم والمثل، والمواقف، والوطنية؟!

ياه . . . هل تذكر يوم قرأت عليك أبياتاً من قصيدة، سميتها أنت (تقدمية) قبل أكثر من عشرين عاماً، فقلت لي:

ـ لو كنت أمامي لأخذتك في أحضاني . . لكنّ الهاتف يعيقني، مثلما الخوف يعيق الكثير عن كلمة الحق، والحقيقة!

هل ما زلت مجنوناً بالمبادئ يا صغيري الشايب؟!

أحاول أن أبلور كلمة «أحبها» منك لي . . وكنت تقولها دائماً في سمعي وأمامي . . . (في الفاضي والمليان). . وكانت تسعدني، وأشعر بصدقك فيها، وأتردد أن أقولها لك الآن بنفس نبرة صوتك، ودفء الكلمة:

ـ وحشتني؟!

صحيح . . . هل وحشتني حقاً؟!

مضى وقت طويل لم نلتقِ فيه، بل. . . لم يُصادفني وجهك في أي مكان، فهل تغير وجهك منذ أن عرفته؟!

كم أتمنى أن أراك الآن أمامي، فقط. . . لأرضي فضولي لا أكثر!

أضحك . . . ستقول عني: ما زلت كما أنا. . لم أتغير، كلماتي اللاذعة، وتعليقاتي الاستفزازية، و . . . . قلبي الأبيض!!

حقاً . . . أنت الوحيد الذي تعرفني جيداً من داخلي، وكثيراً ما خفت من تحليلاتك، واستنباطاتك عن خطواتي، ولكن هذه الميزة عندك، تدل على حميميَّتي فيك، وحميميتك في نفسي، وتمازُج روحينا.

تصور . . . حتى السخرية افتقدتها في تعليقاتي، ربما لأنه لم يعد لها طعم.

صديقاتي: صرن يتَّهمنني بالشرود، وبالبرود.

قلت لواحدة من اللواتي يحرصن على تسقّط أخباري ذات يوم:

إنني أحب رجلاً رائعاً جداً، وتعتبرينه من عامة الناس، وسأتزوجه يوماً ما.

نظرت إلى ملامح وجهها، فوجدتها تغيرت . . كل ألوان الطيف انتشرت على قسمات ذلك الوجه: غيرة، أو حقداً . . . وقد عرفت أنها أمضت أكثر من عام وهي تحاول إقناع أهلها بالموافقة على اقترانها بشاب يصغرها كثيراً، ومن عائلة أقل بكثير من مستوى عائلتها الاجتماعي والمالي. . . دون أن تفلح!

حتى عندما تزوج ذلك الشاب بامرأة أخرى في سنه. . استمرت في حلمها تنتظر أن يعود إليها!

ضحكت سخرية من الحياة، لا من صديقتي . . . وتذكَّرت أننا حلمنا معاً ـ أنت وأنا ـ ذات ليلة، ربما أسميها (يتيمة)، لأنها ما تكررت في روعتها. . قلت لي فيها:

ـ حلمي أن يضمنا بيت واحد!!

وسرحتُ مع حلمك، وطاردني صوتك حتى استرجعني . . . فقلت لك:

ـ أنت رجل مجتمع، مجالاتك متسعة في الركض، لكنّ الفوارق

الاجتماعية ما زالت تقهر التغيير، ومثل القرن العشرين!

كنت شغوفة جداً بأعمال البر . . . أزور الجمعيات الخيرية في بلدنا، وأفتش عن الأسر المحتاجة والفقيرة في مجتمعنا، خاصة تلك التي لا تسأل الناس إلحافاً . . لأساعدها في حدود طاقتي.

مرة بكيت أمام سيدة في الخمسين، كانت تقف أمامي وتشرح لي حكايتها مع أطفالها وزوجها المريض الذي يفتش عن عمل من حوالي نصف عام، ولا مورد لديهم!

كانت يدي ـ بعفوية ـ تدخل إلى الحقيبة المعلقة على كتفي، وتخرج دفتر شيكاتي، فأنا لا أحمل نقداً كما تعلم عني، ثم . . . ما لبثت أن تنبهت: هذه المرأة لا تعرف طريق أي بنك . . . فما بالي ببوابة البنك، وطريقة صرف الشيك؟!

ـ قلت لها: عودي إليَّ غداً في هذا الموعد وأنا أنتظر أمام بوابة هذه الجمعية في سيارة. . . وعادت وفرحت بل طفرت من عينيَّ وأنا أسمع صوتها يلاحقني بدعواتها من خلال بكائها أو صوتها المخضّل بالدموع.

هل رأيت؟!. . . لقد فررت في اليوم التالي من البلد كلها؟!

قد تتهمني بنعوت عديدة، لا بأس. . . طرت إلى أوروبا لأنسى منظر تلك المرأة!

رد فعل عكسي، أو . . . جبان!

أو . . . مجتمعنا صار يعاني اليوم من الإنفصام في الشخصية!!

لا عليك. . . فالناس يموتون بأتفه الأسباب، بحوادث السيارات التي

صارت جنوناً.. بأسباب ليس من بينها: الفقر، وانظر حولك!!!... وهم يموتون الآن بالجوع، أو بالتجويع العالمي المتحد(!!) والجوع ليس سببه: شح الطبيعة بل شح الرحمة من القلوب، وتفشّي الطغاة في العالم.. حتى صرنا نسمع وصفهم بالمصلحين!!

حتى الطغاة يا حبيب الأمس ـ يتحدثون اليوم عن: الحرية، والديمقراطية، والعدل، والحق!!

أرأيت... لا مفر من الجنون أبداً!!

أشتاق أن أقول في هذه اللحظة: أحبك (!!) ليس لأنني أحبك بالفعل بل لأنني ظمأى للحب بذاته!

مرة قلت لي أيضاً في قراءتك النفسية لذاتي: أنت لا تحبين رجلاً لذاته بل للحب فقط!!

بعدك.. عرفت من هو أصغر منك سناً، بل حاولت أن أغازل (طليقي) في سري، لأقتنع به، وأسمح له أن يعيدني.... ففشلت.

هل رأيت ترفاً أكثر قهراً، وضنكاً، وضغطا عَصبياً من ترفنا الذي نعيشه كل يوم في هذا العصر التجليطي: عصر تفشي الكذابين، والمنافقين، والمدلِّسين؟!!

دعك من اشتياقي، أو من رغبتي الآنية في التصريح بكلمة: أحبك.. لك وحدك! أرغب أن أحكي لك.. أن أبوح ـ كما هي عبارتك دائماً ـ أن أفضفض.. فأنت الوحيد الذي استحوذت على هذا الحق (فيني) من سنوات طويلة.

غيرك. . لا أقدر أن أمنحه هذه الخصوصية ورغم ذلك فأنا لا أجدك أمامي الآن. . وهذه مشكلتي معك منذ أول يوم عرفتك فيه، فأنت مرتهن بمناخ اجتماعي. . . وصرتُ مثلك بعد ذلك ، ولكننا نحتاج إلى بعضنا البعض في لحظات هامة، فلا يجد أحدنا الآخر!

كم هي قاسية هذه البروتوكولات؟!

لا تضحك. . . من يقرأ كلمتي هذه ـ البروتوكولات ـ سيتهمني بخروجي عن العادات والتقاليد العربية وربما يرميني بالإباحية في عصر الإرهاب حتى ضد الفكر والرأي. . وهي التهمة السهلة في عصر الإتهامات السائلة والمسددة برصاصة!

حقاً أريد أن أحب!!

أن يُسمعني "رجل" : كلمة حب من بين أضلعه تخرج، وليست من لسانه، أو حنجرته!

فهل بلغت كلمتي/ النداء ـ أحبك ـ حشاشتك، وعمق روحك؟!

منذ متى لم تسمعها؟!

لعلك ـ كرجل ـ تسوّقها، كلما التقيت بأنثى حلوة!

نعم. . أعرف أن هذه هي التهمة الدائمة، الثابتة التي تحاول كل امرأة أن تلصقها بجميع الرجال (!!) ولكن. . . قل لي: ألا تفعلون ذلك أيها الرجال/ السادة؟!

آهٍ. . . كم أتوق الآن لسؤال منك، كنت تردده بين الفينة والأخرى على مسامعي، فتقول: ما أخبار «مزاجيتك»؟!

صدّقني... أنت كنت على حق، لقد أتعبتني مزاجيتي كثيراً، خاصة بعد اختفائي من حياتك، وإصراري على مقاطعتك للأبد، بل على قطعك من ذاكرتي، ومشاعري!

لكن ... نعم «حيل الله أقوى»...وقد كان من كان، حتى لم يعد عندي مزاج لإنعاش مزاجيتي!

إنها فكرة مجنونة أن أكتب إليك الآن... لقد أفرغت هذه الشحنة التي كادت تهوي بي إلى قاع النفس، وربما ترميني في الإكتئاب.

لا أريد منك رداً... بل أنت لا تستطيع أن ترد، لأنني قصدت أن لا أكتب لك عنواني اليوم ولعلك ستقرأ الرسالة على أجزاء، أو ترمي بها على سطح مكتبك عدة أيام، ليس خوفاً من نفخ رماد نيران حبك القديم لي... بل لأننا ـ أنت وأنا ـ قد تغيرنا كثيراً كثيراً، وكأننا قد جئنا إلى عصر لا نعرفه، أو من كوكب آخر!

وأنا .. إن لم تكن كارثة الطلاق في بدئها، وراحة الطلاق في تمدده بعد ذلك.. قد نالا من عمق نفسيتي ورؤيتي للحياة والأحياء.. فإنني لست أكثر من إمرأة صارت تروق لها الفرجة، والإسترخاء البليد.

أرجوك.. عدني أن لا تفكر في كلمة واحدة من كلمات هذه الرسالة بعد أن تطويها... حتى التفكير لوّثه العصر الجديد!!

* * *

الفصل الخامس

السلام مع النفس

* بعد أن أنهت كتابتها إلى «فارس». . احتوتها لحظات حزن وتأمل.

أخذها الشرود بعيداً إلى شيء غير محدد. . . لا تدري، ربما كانت تدري أشياء كثيرة.

هو «التبليم» إذن. . . لازمها كحالة، أرادت أن تنفكّ منها وعجزت.

الليلة ـ في منتصفها ـ ستبدأ سفراً جديداً، وما زالت حالة «التبليم» تلازمها.

دعتها صديقتها إلى مشاركتها وصديقاتها سهر النصف الأول من الليل في بيتها.

وفي وسط صديقاتها. . . لم تشعر بتحسن، بل تضاعفت الحالة لديها حتى الرغبة في البكاء. . . فآثرت الإنسحاب والعودة إلى بيتها حتى لا يصبح دمها ثقيلاً عليهن. . وتستعد للحظات السفر. في بيتها. . . بكت، تدفقت دموعها.

ليس هناك سبب تدريه، هرعت إلى الهاتف، وطلبت «فارس»:

* سألها : ماذا حدث لصوتك.. هل تشكين من زكام؟!

ـ أجابت وهي تحاول الضحك: ربما... هو زكام نفسي، لقد كنت أبكي يا فارس.

* قال: ولماذا البكاء؟!

ـ قالت: صدقني لا أدري... البارحة بكيت فجأة بلا داع، والليلة شعرت بالإختناق حتى بكيت.

* قال : ربما لأنك مسافرة.. ستغيبين فترة أخرى عن أهلك وعائلتك ووطنك.. وربما كان هو الانتقال الجديد في حياتك!

ـ قالت ضاحكة: باسم الله عليّ.. تقولها كأني سأنتقل إلى الدار الآخرة!

* قال: لعلّها «النقلة» الجديدة بعد كل النقلات التي تشكلت منها حياتك.

ـ سألته: «إيش درّاك.. أنت يا أخي ما زلت مشكلة في حياتي.. ليه تقرأ أفكاري وعمري؟!

إسمع ... صحيح أنا أفكر في برمجة حياتي الجديدة، لقد سبق لي أن تزوجت، وصرت أماً وربيت، وأحببت.. والآن: العيال كبرت، رتبت حياة إبني، فماذا تبقّى؟!.. طبعاً أنا الذي تبقّى!!.. أحياناً أسأل نفسي: هل أنا أنانية»؟!

* قال لها: بعد كل هذا لن تكوني أنانية .. بدليل: أنك أجَّلت ترتيب رغباتك الخاصة.. كان زوجك أولاً ولم يعرف كيف يتعامل معك، ثم كان

ابنك، والآن . . أنت، و . . . . أنا!!

ـ قالت ضاحكة: «نعم؟! . . وأنت ليه تقحم نفسك في حياتي دايماً، يمكن بأحب رجلاً آخر»؟!.

* قال مغتاظاً: لا بأس. . . المهم أن تحبي، أقصد: تحبي أحداً غير نفسك!

ـ قالت: بتشتمني؟! . . لا بأس، لكن تعرف. . إكتشفت فيك حاجة جديدة لم تكن في طباعك القديمة اللي عرفتها. . إنك أصبحت إنساناً واقعياً/ مثلي. . . وهذا شيء جميل، على الأقل حتى تستطيع أن تتعايش مع بشر هذا العصر.

* قال: لا تفرّحي نفسك هكذا. . . واقعي في هذا الحوار معك، أقصد: أنني آخذك على قد واقعيتك. . . . . .

ـ قاطعته: على قد عقلي يعني. . . إنت ما زلت دمك ثقيل.

* قال: ما زلت أمزح معك. . لكنَّ الحياة هي الأخرى متوقفة في جوانب منها.

ـ قالت: أنا أبحث عن سلام مع نفسي ومشاعري الداخلية. . أشعر الآن أن حياتي بدأت تِصْفى. . . خلاص انتهت المقابلة الهاتفية، أودِّعك لأني طالعة المطار بعد شوية. . يمكن أستخدم معك التسويف : سوف أكلمك من محل إقامتي، سأسمع صوتك. . ويمكن لن يحدث ذلك، ولا تكون أية «سوف» بيننا. . . . مع السلامة!

* وضع «فارس» سماعة التليفون. . . كأنَّ الشرود الذي أصاب «سارة» قد عداه.

كأنها ذهبت ـ كعادتها ـ ولن تعود. . وإذا أرادت العودة فليس قبل عدة سنوات مماثلة لما سبق، و. . . ترى: إلى متى يعيش، ويصمد في هذه الحياة أمام تحديات: ارتفاع ضغط الدم، وكوابيس الواقع المادي، والمتغيرات التي أخذت تُحدث الشروخ الخطيرة في بنية المجتمع من الداخل: السلوكيات، والوشائج؟!

ليل آخر يتمدد الآن بين جوانحه. . . لم يعد له أنيس يهدهده في وحشة الليالي سوى هذا الانتظار لها، لصوتها، لخطها عبر الفاكس. . ولسريته الشديدة معها دون الآخرين، بل دون كل شيء قد تتشكل منه حياته اليوم.

أمامه عبارة قالها «ماياكوفسكي» يوم قرر أن يختار بنفسه طريقة موته، بعد أن فرغ من أفراح الحياة العابرة، ومن أفراح الكفاح التي جُيِّرت لغيره. . فقال يومها:

ـ «الحادث أصبح منتهياً، وزورق الحب تحطم على صخور الحياة اليومية»!

«فارس». . . لا يدري الآن: هل تحطم زورق حبه مرة أخرى؟!

«سارة». . هي التي تعرف وحدها، وتقرر له هذا المصير.

وسرت إليه عدوى حالة «سارة» قبل سفرها. . . عنده رغبة شديدة للبكاء، وهو ـ أيضاً ـ لا يدري السبب.

تذَّكر بيت شعر لنزار قباني، فأخذ يهمس به:

ـ «أنا شجر الأحزان. . . أنزف دائماً وفي الثلج والأنواء. . أُعطي وأثمر»!

ربما كان بكاؤه . . لأنه استغرق في بعض الصور الوطنية التي أعاد قراءتها اليوم عن وضع أهله العرب . . عن تمادي إسرائيل في اللعب بمصير العرب، فهي التي توقف مباحثات السلام، وهي التي تدس أنفها، متى أرادت، وبأمر منها. . . والعرب ينصاعون، ويهرولون. . . كأنّ الكرامة العربية تحولت إلى مجرد أسطورة. . .

«كأن المروءات أطرقت. . وموطن آبائي : زجاج مكسَّر»!

ما زال يستذكر ذلك الشعر الذي حفظه يوماً، والذاكرة لم تفقد تفاؤلها بالغد:

«هُزمنا. . وما زلنا شتات قبائل

تعيش على الحقد الدفين، وتثأر»!

الصورة مجسدة في وقائع، وأحداث. . بل وفجائع: العراق والكويت، البحرين وقطر، السودان ومصر. . . أمثلة، أمثلة، أو كما قال «عبد الصبور» قبل أن يموت قهراً بالأزمة القلبية:

ـ «حزن تمدد في المدينة

كاللص في جوف السكينة

كالأفعوان بلا فحيح»

تدفق الشعر على ذاكرة «فارس» بكل ما فاض من آلام النفس وأحزان المعاناة الأكبر:

ـ «يا صاحبي. .

زوّق حديثك. . كل شيء قد خلا من كل ذوق

أما أنا. . فلقد عرفت نهاية الحذر العميق

الحزن يفترش الطريق»!

يخبط «فارس» رأسه حتى يفيق من هذا الاستذكار الموجع الذي يصور واقع الحال.

إنه مدعو إلى حفلة الضحك التافه غالباً، المنتشر المشروع!

من الأشياء التي يظن أنه يختلف فيها مع هذا الجيل الجديد ـ وقد دعس الأربعين ـ هو: الذوق وحسن الاختيار. . بدءاً من الذوق في الموسيقى أو الأغاني، ورأيه: أنه لم تعد توجد في هذا العصر: موسيقى، بل أجهزة وآلات.

تأثر نفسياً من شباب هذا الجيل الجديد. . يكاد الأب لا يرى أحداً من أبنائه يتغذى معه وأمه أو يتعشى، ويجد ابنه الآخر نائماً طوال ساعات النهار وحتى ساعات الليل الأول. . يستيقظ بعدها وينفك يهرول إلى عربته وأصدقائه حتى بعد منتصف الليل. . ويجد ابن صديقه في شكوى أبيه من إدمان الإبن على الهاتف لا يبرح يده ساعات طويلة!

فهل هو جيل: تافه، أم معطل، أم عاطل، أم يفتقد التوجيه، ولم يجد القدوة؟!

ماذا يفعل هذا الجيل. . هل هو باق: يحدق في سقف الغرفة؟!

هل يقضي ساعات الليل سهراً . . يمزق ساعاته الأولى في الشوارع والأسواق التجارية، وأماكن النزهة (البريئة) بنظرات جائعة . . ثم يمزق منتصف الليل في لعب الورق أو المغازلة بالهاتف؟!!

هكذا صارت العلاقات الأسرية الإنسانية في أكثر البيوت. . . كأنّ هذا الجيل الجديد تحكمه أشياء تمتُّ إلى الرغبة أكثر، وإلى «الأنا». . . أشياء مؤقتة لا ثبات فيها ولا ثبات لها، حتى الحب أو العاطفة الجميلة تحولت إلى مجرد: تفريغ شحنة لا أكثر!

* تذكَّر «فارس» يوم دعاه صديق يصفه باللهجة الشعبية أنه (مفلغم). . أي ثري موسر. وكانت السهرة خاصة ما أن دخلها حتى شعر بالقرف في تلك المفاجأة بعد بقائه ساعة. . وقد مال عليه جاره يهمس:

«لا تفتح فمك كالأبله. . كل سهراتنا كده، وفي بيوت كثيرة. . إيه يهمك أنت، إنبسط، وفرِّغ، وروح بيتك نام»!

شعر بدوار يعصف به في تلك الساعة من السهرة. . قرف من نفسه، ومن واقعية الواقع أو العصر، ومن هذه (المباشرة) المسددة كرمح إلى الأشياء التي يرغبها الإنسان، مع الإشياء التي يحرص أن يحافظ عليها. . . كلاهما: مقتولة وقاتلة في عمق نفس الإنسان شعر ـ أيضاً ـ أنه يحاول ملء ثقوب الذاكرة في قمة وهج الجراح، أو كما سمته كاتبة عربية: (وجع الشهوة). . . فحتى الشهوة صارت تتوجع، لأنها بعدت عن ذلك الإحساس بالتعبير عن الحب في مباشرتها، ومعنى اللذة في التعبير التلقائي الذي يتفوق على تزوير اللحظة أو سرقتها!

الجانب الآخر في واقعية المادية، أو مادية الواقعية: أن الشيء الوحيد الذي حرص البشر عن إبعاده على التزوير، هي الكراهية. وذلك يتطابق مع عبارة «مونتيرلان»:

ـ (إذا كنت عاجزاً عن قتل من تدّعي كراهيته، فلا تقل أنك تكرهه.. أنت تعهِّر هذه الكلمة)!

في الكراهية إما أن تبرز قوة الكاره، وإما أن يُسقطه عجزه!

وهكذا ـ أيضاً ـ يفتش البعض عن (الشيء المضبوط) في حياتنا.. فهل تبقَّى شيء مضبوط؟!

يشرد الفكر بـ «فارس».. ويقول في هذا التيه الذي يتمدد به:

ـ ربما أن الذي خسرناه هو الأكثر... لا يوجد أكثر من العمر الذي تمهره بصمة!

ربما أن الذي خسرناه هو: الحب، وهو الأمان في ظل تغيير المجتمع والنفوس.

فهل يفجعنا الآن لو اكتشفنا ـ في الأشياء اللا مضبوطة واللا منضبطة ـ أن الأبوة صارت مزيفة، والبنوّة مزوّرة؟!

زفر «فارس» من صدره آهة، وصمت... كأنه خرس!!

* * *

الفصل السادس

لؤلؤة القلب!

* في قطيعتها الأخيرة. . . إكتنفه زحام عجيب، يندهش الآن أنه لم يحاول الإنسلاخ من: زحام النفس، مع ضربات القلب في هموم الحياة.

وكان هناك زحام آخر. . يتدافع فيه أمامه: بعض العاجزين والفاشلين الذين لا تقدر تربة نفوسهم أن تُطلع زرعاً بل حنظلاً مريراً!

هذا الزحام. . كان «فارس» يظن أنه استسلم له ـ على غير عادته ـ لكنه ما لبث أن تمرد عليه وكسر طوقه، وهو يحلم بزحام آخر تمثل في اكتشاف درب يسلمه إلى دفء كلمة حب في عصر أولغ في الماديات، ويسلمه إلى حنان أنثى حبيبة، وإلى أمان صديق وفي لا يخونه، ولا يطعن في الظهر، ولا يتنكر!

عبرت أصداء صوت «سارة» أذنيه ـ في إطلالتها عليه كأنها تشاركه هذا الهمس مع نفسه ثم تشاكسه بطريقتها وتقول له:

ـ «طيب وأنا مالي يا أخ. . . أنا تجاوزت غمك الأزلي هذا من اللي تسميها قطيعتي لك. . الآن صرت أكثر مرحاً وإنطلاقاً، وأكثر كسراً منك لأي

زحام يحاول أن يحوطني أو يأسرني»!

إرتسمت إبتسامة على شفتيه، وهو يتخيلها في هذا الحوار.

الله يا الدنيا... كانت هي ذلك «الحلم» الذي هرب إليه من طوق الزحام، وغابت.... حتى انبعث صوتها من جديد: واقعاً!

يوم أن عاد إليه صوتها مجدداً... كان يصدّ اشتياقاً لها في صدره، أحاطته أسئلة قلقة عنها: ما هي أخبارها.. كيف صارت.. سعيدة أم ما زالت في دوامة معاناتها؟!

دفعه الشوق يومها إلى المرور ببيتها... وعبر متباطئاً أمام البوابة، كأنه ينادي تلك الشجرة التي ترحب بالقادمين من الباب الداخلي، والتي تستيقظ غالباً بعبقها في الفجر.. وكانت تراهما وتسمعهما!

تساءل في نفسه: ترى.. هل أحدثت «سارة» تغييراً في نظام البيت من الداخل، ربما جاء مشابهاً للتغيير الذي حدث في داخلها هي/ صاحبة البيت!!

إذا كانت هي قد تغيرت، والدنيا تغيرت، والمجتمع كله لم يعد ذلك القديم بقيمه، وعاداته، والتزاماته.. أفلا تتغير الجدران، والأسقف، والنوافذ، و... الأبواب؟!

تذكر أغنية «فيروز».. وأدار محرك عربته، وهو يدندن: آه... «لبْواب»!

هل ما زالت «سارة» تتذكر أغاني فيروز: سيمفونياتهما، أو سيمفونيات حبهما؟!

تُذكِّره «فيروز» دائماً وأبداً بهذه الحبيبة «سارة» وهي ملتحمة بداخله:

ـ (إلى متى تبقى سارة في هذا القلب. . ممتزجة بخفقه ونبضه)؟!

يُذكره صوت «فيروز» بحوارات ومواقف بينهما. . . تلك الأيام الخوالي.

صدفة. . كان يفرز ذات يوم ما تقادم لديه من أشرطة الفيديو في بيته، بعد انتهاء صلاحية عصر الفيديو، ودخوله عصر الستلايت والغم الفضائي. . . وعثر على مسرحية لصباح اسمها: «دواليب الهوا». . . وأخذه الشرود إلى الأجمل من العمر والأحلام. . . كأن صوت صباح يتردد في سمعه الآن، تغني تلك الأغنية من ألحان الرحباني، التي كانت «سارة» تغنيها له كلما أعلن لها عن موعد سفر له: (سفّرني معك. . . على ها الطرقات)!

ياه. . . الذكريات، الأيام، الأبواب!

كم يتمنى الآن: أن يترنم في سمعها بموال من الشجن. . . بكل حزنه النبيل هذا في داخله!

لم تكن «سارة»: مرحلة في عمره، بل: زمناً، وحياة، وعصراً كاملاً!

الآن. . . ظهرت من جديد. . فجأة منحته دفء صوتها، فهل ستعاود الإختفاء من جديد؟!

فكَّر ـ بمجرد احتواء سمعه لصوتها ـ أن يعود إلى تعوده معها، وطبيعته (القديمة): أن يكتب إليها. . . وكان يروق لها آنذاك أن تطلب منه الكتابة، بل «تتوسل» اليه أحياناً ليكتب لها. . كأنها ـ في ذلك الزمان ـ قصدت إشباع غرورها من خلال متعتها بالحياة الأجمل في كلماته التي تجسد الغرور فيها، وتحلق بها إلى الحلم.

لكنه اليوم. . . كأنه هو الذي يرغب أن يتوسل إليها، لترضى أن يكتب لها، وأن تقرأ ما يكتب. . . . فلماذا؟!

هل هو: متعب؟

ربما. . . وهي حضن الراحة الذي يُشكل انتماء روحه.

هل هو: شَجِن؟!

ربما. . وهي على امتداد كل تلك السنوات: توأم لشجنه هذا.

هل هو: عاشق؟! ربما. . . والحياة لم تُبقِ له إلا الأصداء، ولا يقول: النهايات!

كم كتب لها هذا «الإنسان» القابع في أعماقه وهو يغوص في فراغ «الوداع»، لكل ما يركض إليه بفرحه، وبخفقة قلبه، مثل ركضه إليها. . . فيرتد إليه الفرح حسيراً، وترتد خفقة القلب: مثلوجة!

وهي ـ سارة ـ لعلها تركت من ذلك الزمان: بسمة «تاريخية» على شفتيّ فارس. . كالورود المجففة. . . وها هو الآن: وحده بدونها. . بلا أنفاس عطرها، يتقطر خيالاً وتخيلاً لها، وتصوراً، وحساً. . كأنه في لحظته هذه التي يستغرق فيها أبعاد الأيام الخوالي وأصداء صوت «سارة» يستقبل أنفاسها!

كان الأعجب أن يتحول التشخيص هنا إلى: شخص!

والأعذب في واقعه هذا: أن عذابه يبلغها، وتقابله بعذاب آخر.

* * *

أيقظه رنين هاتف بيته جرّده من التخيل، والذكريات، ورماه من جديد في الواقع.

قام بتثاقل ليجيب فجاءه صديقه «أحمد» ماتبقى له من زحمة الأصدقاء في زحمة عصر الجحود، وفقدان ذاكرة الوفاء. . . صديق أوحد يفضفض له عن همسات نفسه، وأسئلتها. . ويتعاطف معه وهو يقرأ «ملامح» صوت فارس في إصغائه له.

ـ سأله: ماذا تفعل الآن؟!

* أجابه فارس: أُحدق في الجدار!

ـ قال أحمد: هل أمرُّ بك. . نخرج لنتنفس أمام البحر قليلاً؟!

فرح بدعوة صديقه. . لعله يهرِّبه من هذا الـ «فلاش باك».

وهناك أمام البحر. . سمع «أحمد» تفاصيل العودة الجديدة لسارة من فارس.

ـ قال له أحمد: (تعرف أن ما ربط بيني وبينك هو وعد مشترك من الضياع والألفة والغربة، والشوق إلى التجوال. . أتحسس مشاعرك وكلماتك كرذاذ الجليد على سطح القلب، وأتخيلك هناك. . . . . . تقف بملابس الصيف: متجمداً مرتعشاً، لا تقوى حتى على نزع الألم من صدرك، ولا حتى من محبرتك.

أسألك الآن: كيف انشقت الأرض عنك هناك. . . عندها، وفاض الألم، وأصبح الجميع ـ فيها هي ـ يبحث عنك حيث يحبون أن يلقوك؟!

هل هي التعاسة في دروب المدينة كلها. . . أن هو الحزن في دهاليز العبرة؟!

هكذا جعل منه صديقه أحمد: بطلاً لرواية غابرييل ماركيز: الحب في زمن الكوليرا!

وعندما أعاده صديقه إلى البيت في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.. كانت شجونه تفيض منه، واشتياقه مندلع يتصبب لسماع صوتها.

ها هو الحلم يزهر.. حروفاً وكلمات منه.

زهر كلماته : يناديه ، يناجيها.

كلماته إليها.. تجسد له وجهها، وصوتها، وتنشر ضوءها في ظلمة من حوله...

لحظتها تتشكل رسالته إليها: حقولاً تموج سنابلها بحبه لها.

جمع الأوراق البيضاء تحت يده.. وأخذ في دفع قصائده: موجات في بحر جنونها... يناديها:

❊ (يا من سميتك/ لؤلؤة القلب:

الوقت الذي يفيض بنا: حنيناً.. نغرقه في الإنتظار، ربما.... حتى الموت!

دعيني ـ الآن ـ أقترب منك في مسافات سفرك البعيدة.

دعيني (أتخيلك): كيف صرت... هل تحولت حنطة جسدك إلى لون الشوكولاتة؟!

لكنك في أسفارك كنت ـ وما زلت ـ تهربين من الشمس والصحراء إلى الأنهار، والحدائق، والعشب/ الطريق... ليبقى جسدك ـ كما هو ـ حنطة التمييز في سفرك!

أي جنون تبقَّى في عمق عينيك الواسعتين من عهد الهوى والعاشق الصبّ لك؟!

اشتقت إليهما/ عيناك. . . تلك التي رأيت وجهي ـ ذات ليلة يختلط مع سوادهما العربي، ودمعة الوحدة.

أوه. . . . جحيم ـ يا لؤلؤتي ـ هذه السنوات التي عشتها دون أن يختلط وجهي بسواد عينيك!

كيف صارت ملامحك الآن؟!

ستضحكين. . . ستجيبين: «صرتُ أحلى. . صرتُ أجمل. . فأنا أنثى في مدخل الأربعين/ يحلب ثمري: عسلاً»!!

كان «صدرك» الشامخ: عنواناً لرمز السيف. . . يستوقف رقبتي ليقطعها وأنا أوسدها هذا الصدر!

كيف حال «السيف»/ صدرك؟!

لم أشعر بثورة الحياة ورقبتي تُقطع إلا بسيف صدرك.

ماذا فعلتِ بشعرك؟!

المرة الأخيرة التي منحتني فيها «صبابة» من روائك لعطشي ـ قبل سنوات ـ رأيت شعرك: قصيراً. . أقصر من كتفيك. . . كان غيظي شديداً، كتمته في صدري دون أن ألومك على قص شعرك حتى ينتشي غرورك بعمل شيء يغيظني، أو يكسر رغبتي، أو يحطم ذوقي في شعرك.

رأيت شعرك كسنابل القمح البكر. . . أذكر أن لونه الأصلي كان مغرقاً في السواد، لكنّ نسمة السفر في أوروبا: غيّرت لونه بلون الناس هناك!

وتلك التسريحة التي رأيتها تاجاً على رأسك أول مرة. . . فأحببتك: هل تغيرت؟!

عفواً. . . لا ينبغي أن أسأل، فلماذا تبقى التسريحة ـ وحدها ـ بعيداً عن عبث التغيير؟!

كنت حين أجلس أمامك. . أتأمل خصلة من شعرك تغطي نصف جبينك، ويضيء النصف الآخر في مزج بين الفجر والليل!

فهل بهتُت حنطة جسدك، أو ازدادت إلتماعاً وارتواءاً؟!

هل تظلل عيناك: رموش تمارس الحب بالأهداب المتكسرة؟!

هل أبقيت على ذلك الليل المخمَّر بأنفاسك الدافئة. . المعتَّق في اشتهاءات اللحظة التي تلد طفل الفرح من رحم النرجس؟!

أين صرتِ؟!!!

حدثيني عن: مقدار تحطيمك لما ترفضينه الآن؟!

دعيني أحدثك عن نفسي ـ قليلاً ـ فليس غيرك من يستحق أن أدعه يغوص في هذه النفس!

أعترف لك: صرت في خصام مع نفسي/ بعد قلبي. . . والكثير في هذا الزمان: صار يزيف الصدق، ويشرخ التوحد.

صرتُ أردد في وحدتي وتوحُّدي مع الحزن النبيل بعدك: أسى عظيم حين يشعر الإنسان أنه وحده. . قلبه يتيم، وأيامه بارده.

ها أنا ذا أحيا بجانب الصخر. . وأرحل فوق الموج/ حلماً، لأغرق.

في السنين التي غيّبت صوتك ووجهك: ركضت أبحث عن المطر/ أنت، و. . . ضعت وأنا أفتش عن «صدفَتك».

هاتف نسمة ربيعية من خارج الطقس، فعبرت بي. . حتى أسلمتني للأصداء!

رأيت قلوباً مسجونة في الغربة، وعقولاً ترشح تفاهة، ونفوساً غطاها الصدى.

لذلك. . إندهشت في مرورك الخاطف على سمعي أنك سألتني بعد كل هذا العمر، وكل تلك المعاناة: «إنت بتحبني بجد»؟!

ياه. . كدت أسألك: هل فقدت ذاكرتك؟!

لو سألتك. . أتوقع أن يكون ردك: «أيوه. . فقدت ذاكرتي»!

عندما طلبت منك أن «أراك» بعد تلك السنوات المدرجة في الغياب. . كنت أطمع في: ذاكرة قلبك. . . كنت لحظتها: أحبك أكثر من تشبُّثي بالحياة.

فأنت الحياة. . . في زمن الوفاء الصعب.

أنت لم تعودي «حبيبتي». . . بل أنت: حب الماضي، وأنت: خفقة القلب في هذا الحاضر. . تشتعل الخفقة بنداء صوتك، وتضيء بلمسة يدك ليدي!!

* * *

وحده صار في هذا الميناء. . ينادي عليها بصوت الحنين، و. . . . . . ما زال الحنين: لظى!

يتَّقد حنينه في حرقة أشواقه إليها. . يتوجّع خفقه في معاناته مع غيابها.

ينسكب أمله: صبراً، وترقباً لعودتها من رحلة الصيف الآخر التي طالت منذ بدأتها من سنوات ذلك الصيف الأول!

❊ قالت له في تلك السنوات: سأعود... فلا تدعني أجدك، لأنني لن أعود أنا.... فـ «أنا» كطبيعة الأيام والسنين!

ـ أجابها يومها: سأنتظرك.. وأراهن على اقتناص أول نظرة لك بعد العودة!

❊ ❊ ❊

الفصل السابع

تفجيرات الإرهاب!

* فجأة . . . دوت أصوات التفجير في شارع العُليا بالرياض.

العالـم كله. . . صار يقرأ عن شارع العليا، ويتعرف عليه، ويتابع خلفيات أخبار هذا الحدث الهام والغريب على هذا البلد وأهله.

هذا وطن. . عاش نعمة الأمن جيلاً بعد جيل، لم يعرف القلاقل، ولا المفاجآت المثيرة، ولا الجرائم المخطط لها بتنفيذ عصابات أو جماعات. . عاش أهله يفخرون بالأمن والأمان.

كان والد «فارس» يحكي له عن جيله. . وقد كان صاحب متجر واسع معروف، يبيع كل متطلبات العطارة. . لم يكن يقفل أبواب المتجر إلا في موعد إغلاقه ليلاً بعد صلاة العشاء بساعة، أما في أوقات الصلاة، وفترة القيلولة بعد الغداء. . فأكثر أصحاب تلك المتاجر يسدلون على البوابة الكبيرة، ومنصات عرض البضاعة، قطعة قماش كبيرة بحجم واجهة المتجر، ويذهبون إلى المسجد أو إلى المنزل لتناول الغداء. . . وكلهم ثقة أن الدار أمان، ولن تمتد يد أو قدم إلى متاجرهم وبضائعهم!

تلك هي قاعدة الأمن العريضة. . . ولم تكن حشود العمالة الأجنبية قد تدفقت بهذه السيولة اليوم.

إرتجت «الرياض» لدويّ التفجيرات، وخرج الموظفون من إداراتهم، وركض الكثير منهم إلى مدارس أولادهم ليحتضنوا فلذات أكبادهم، وينطلقون بهم إلى بيوتهم مع أهلهم. . والبعض دفعهم الفضول لمشاهدة موقع الحدث، وشفاههم ترتج بكلمات استفهامية قلقة؟!

هل أصابت هذا البلد الآمن عدوى الإرهاب المتزايدة في ما حوله/ الجزائر، مصر؟!

للوهلة الأولى. . . عاد الناس في الرياض بذاكرتهم إلى عام ١٩٩٠م، يوم كان حاكم العراق/ صدام حسين يرسل صواريخه المدمرة لتضرب أهدافاً مدنية، وتُهدم مدارس وبيوتاً . . . يومها أصاب الناس الفزع لهول ما يواجهونه لأول مرة، يسمعون عن الصواريخ ولم يرونها من قبل. . يقرأون عن الإرهاب والحروب، لكنهم لم يكتووا بنارها.

التجربة يومها كانت عصيبة. . . في الليلة الأولى: بكى بعض النساء، وأجهش الأطفال، وهم يتكومون في أحضان بعضهم البعض، وقد أطفأوا الأنوار، وتحلقوا حول التلفاز الذي يوافيهم بالتعليمات التي يواجهون بها هذا الحقد!

تلك تجربة أولى. . . لكن الناس بعد ليلتين من (معاشرة) صواريخ صدام المرسلة إليهم. . استطاعوا أن يوطنوا أنفسهم، وكان البعض منهم، حتى النساء والأطفال يصعدون إلى أسطح منازلهم لمشاهدة صواريخ صدام

حين تصطادها صواريخ الباتريوت المضادة. . . ويتناثر التصفيق من حفافي تلك الأسطح!

اليوم. . . اختلف الخوف، تعامُل آخر جديد يقتحم أمن مجتمعهم. . من خلال: الإرهاب. . . البلاء المستحدث الذي أخذ يشيع في العالم، ويقترب كثيراً.

الجريمة في هذا الوطن: كانت «ندرة» وسرعان ما يتم السيطرة عليها، وكشفها، وسحقها بالعقاب المستمد من تشريع الدين.

الناس يتحدثون في متاجرهم، وأماكن أعمالهم، وسهراتهم، ومنتدياتهم.

الكلام يتمدد. . . تختلط الدهشة فيه بالخوف، باستذكار أسباب كانت كالشقوق تتسرب منها إلى الأمن: الجريمة والإرهاب.

❊ ❊ ❊

❊ في مساء اليوم التالي على التفجيرات. . جاء صوت «سارة» عبر الهاتف من بعيد: ـ «إنت ما مت»!

❊ قال: صار الموت نسبياً ياحبيبتي. . متى ستعودين؟!

ـ قالت: الله يحفظ وطننا. . القاعدة راسخة إن شاء الله، ويا جبل ما يهزك ريح، طبيعي أن تتناثر شرارات من النار المشتعلة حولنا.

❊ قال: في رأيي. . لا ينبغي أن نبسط الحدث، لا بد أن نفكر في خلفياته وأبعاده.

ـ قالت: تخطيطات فاشلة.. إنهم لا يفجرون أحقادهم فقط، بل ويفجرون يأسهم وعجزهم.

* قال: الإرهاب ظاهرة هذا العصر، ما نسميه ثمالة القرن العشرين.

ـ قالت: في هذه الحالة نستدعي عقولنا في الحوار عن المدارك، وكيف ننجو بالشباب الصاعد من التأثير المضاد.. فهذا اختراق لعقيدة الجيل الجديد، لخلخلتها بأفكار تلصق إيديولوجياً بل وعقائدياً بالإسلام.

لم تكن نفسية «سارة» تطيق المزيد من الكلام.. فقد أنهت مكالمتها، ووعدته أن تتصل به لاحقاً للإطمئنان عليه.

واستمرت وتيرة الحياة.. لم يتغير شيء في نظام الناس، فالحدث شد الإنتباه في لحظة وقوعه.. وتناهت همهمات خوف من البعض: أن تمتد عمليات الإرهاب الى مدن المملكة الأخرى.. والبعض الآخر: إستبعد وقوع حادث مماثل.

لكنّ توقعات الناس، وتحليلاتهم.. لم تتوقف. بل واصلوا الكلام في أماكن العمل، وفي مجالس سهراتهم ومناسباتهم الإجتماعية.. وتركزت أحاديثهم في: سبل الوقاية من الإرهاب، ومن محاولات التأثير على عقول الشباب، ومناهج التعليم وأساليب التربية، وما حدث داخل الأسرة وروابطها.

وتحدث الإعلام عن قوة الجبهة الداخلية ليس بهدف التطمين الإعلامي، بل بأسباب بناء الإنسان: قيمة، ووطناً مما يشكل ثروة الأرض الحقيقية.

* * *

* إستغرق «فارس» في قراءة الصحف.. شدته هذه الحوارات المنشورة

مع آباء وإخوة المتورطين في تنفيذ التفجيرات بحيّ العُليا. . بعد انكشاف أمرهم، وإلقاء القبض عليهم.

* قال الأب المكلوم المفجوع في ابنه ـ أحد أضلاع المؤامرة ـ بنبرة حزن قاهر:

ـ لقد هجرنا إبننا ـ أنا وأمه ـ ولم نعد نراه بعد أن تزوج، ولا حتى نسمع صوته بالهاتف ولو مرة في الشهر. . ويدَّعي أنه مسلم متشدد، ومن أولويات تهذيب الدين لخلق المسلم: أن وصاه بوالديه إحساناً. . فالدين أو العمل في سبيل الدين حسب ما ادَّعاه: لا يبرر للإبن أن يهجر أباه وأمه بالشهور!

تبكي أمه، وهي تلتقط الحديث من والده. . فتقول:

ـ نعرف أنه سيلاقي جزاءه لقاء جريمته. . لكنه سيترك طفلاً يبلغ من العمر شهرين. . لم يفكر في مستقبله!

أما الأخ الأصغر لهذا الجاني. . فقد أجهش بالبكاء طويلاً، ثم رفع رأسه، وقال: ـ الوطن فوق الجميع.

طوى «فارس» صفحات الجريدة، وتشابكت في ذهنه أسئلة كثيرة، وخواطر استغرق فيها:

الماضي: لم يعد يستكنه الحاضر. . . وجيل أجداده وأبيه يشجب هذا الحاضر.

والحاضر: يشك كرأس رمح حتى النزف. . . وقد صار «العنف» عاطفة جديدة!

حواره مع نفسه بدأ بالتلفت إلى الخلف، ربما ترحماً على أيام زمان... وفي الزمان/ اليوم: ما يمكن أن يتطور إلى كوارث في صميم صياغة الأجيال الجديدة، بل وصياغة المجتمع الجديد الذي كان من المؤمل أن يأتي مميزاً بتفوق العقول وليس بتشويشها أو انحراف أفكارها، وبسيادة العلم والوعي والنضج.

مؤشرات لها أبعاد المتغيرات في خروج المجتمع إلى حقبة جديدة.. لكن التعامل معها هو المشكلة!

لقد تضاعف الخوف في قلوب الناس، وتقلَّص التقاء أفراد الأسرة بعضهم بالبعض الآخر، وكل فرد يبدو مشغولاً بنفسه.

تذكر «فارس» عبارة لرجل أكاديمي عربي سألوه عن الإرهاب اليوم: كيف يعرفه؟!..

فقال: «الإرهاب.. حوار دموي في الظلام، ومرض نفسي يعطي مبرراً للإرهابي أن يفعل ما يشاء»!!

اكتشف «فارس» حفلة إغماء في داخله، بعد هذا التفكير الذي سرقه للحظات.

في لحظة دخول إلى أعماقه.. فوجىء أن عقله مغمى عليه بسبب هذه الممارسات الغريبة على مجتمع الإسلام الآمن، وعلى مجتمعه بالذات.. وفوجيء أن قلبه مغمى عليه، برغم أن الشرايين تضخ الدم.. وفوجىء أن نفسيته مغمى عليها، وأحلامه، وذاكرته، وكل تجاربه وأفكاره: مغمى عليها.. جثث بلا حراك في داخله... فمن يقدر الآن على شحنها باليقظة؟!

ماذا حدث؟!

تذكَّر. . . . نعم من وقت أخذ يطول، وكل أشيائه العظيمة هذه: قلبه، ونفسيته، وأحلامه، وذاكرته، وتجاربه، وأفكاره. . . . كلها: صارت تتغذى بسندويتشات صغيرة لا تشبع ولا تعين هذه الأشياء على الاستمرار في الحياة!

ما هي هذه السندويتشات؟!

إنها مرتبطة بطبيعة الواقع. . . بكل ما فيه من سرعة، وسباق مع الزمن، وفقدان تدريجي للأصالة، و. . . . . . فراغ في المضمون، وفي الهدف!

تعب من هذه الجرعات التي هي في واقعنا: تجريع.

تعب من هذه الصَّلْب اليومي على تزوير الأصل، ثم تشويهه.

تعب من هذا العطش الروحي، والعطش إلى حريته الخاصة. . . واقع متضخم ـ كالتضخم المالي ـ يكبله ويشده إليه عنوة.

أشياء كثيرة لم يعد لها طعم. . . فلماذا؟!

قالت له «سارة» مرة: أنها قرأت عن مرضى القلب الذين يسقطون أحياناً في الاكتئاب أو الحزن. . . وما يشعر به «فارس» اليوم: ليس هو الاكتئاب، ولا هو من مواليده، فهو يقهقه أحياناً كأنه يشاهد مسرحية كوميدية، وفي أحيان أخرى، يهبط. . يشعر أنه غارق في لج. . أنه وحده، لا يتذوق أية نكهة أخرى حتى الأكل!

أحس أن ما طرأ على نفسيته يشبه القصف المركَّز. . تارة على قلبه، وتارة على عقله، وفي أكثر الأحيان على وجدانه!

فهل هو في حاجة إلى طبيب نفساني؟!

هو يعرف أسباب القصف المركز هذا.. لكنَّ مشكلته تكمن في عجزه عن تغيير ما هو ماثل في حياته أو واقعه، كما يقولون: (Too Late)... انتهى الوقت الذي كان يمكنه فيه أن يغيّر، أو يبدِّل، أو حتى يُحسِّن!

لكنه تحول إلى «حالم» في عمقه.. يتخيل بيتاً صغيراً/كوخاً: على ربوة، تغطيه غابة من الأشجار، وموسيقى، وصوت فيروز، وكتباً لم يقرأها بعد، و........ أنثى أحبها فلا يملّ منها، وتحبه بقناعات العقل ودفء القلب... فلا تهجره بعد حين!

عاش العمر «اللي راح .. راح» ـ كما أغنية عبد الحليم ـ وكان في هذا العمر يواجه معارك، ويسقط في خنادق، ويقفز فوق كمائن... وما شعر بالخوف يوماً، كان التحدي أمامه: دعوة للإنتصار والتفوق.. وكان لا يفكر بالعودة إلى شيء ولا إلى أحد... إلا (إليها هي).

لماذا؟!

لأن هناك أشياء كثيرة لم نعد نصدقها، وكلمات أكثر نقولها ويسمعها الآخرون فيطبعونها بالكذب أو للإستهلاك!

في أكثر مراحل عمره التي عاشها.. وجد الناس يعاقبونه على الحب!

حتى «سارة».. كانت أحياناً تعاقبه على شدة حبه لها، فتختفي..... أو يكسو صوتها ثلج حين تخاطبه .

❊ ❊ ❊

❊ أكثر من ستة أيام على محادثة «سارة» له، و.... اختفت مرة أخرى!

ـ ترى... أين هي؟!

لماذا تدعه وحده في هذا العالم «الطافح» بالمتناقضات. . الغريب، الموحش في غيابها؟!

يظن «فارس» أنه: حطم الرقم القياسي في احتماله لوحشة العالم وملل الوقت طوال غيابها.

يفتش عن حمامة بيضاء. . . فيقتحم عينيه: رشاش، مدفع، مسدس. .

في الأخبار في (نشاطات) العالم، وفي أفلام العنف، والمخدرات، والجنس. . .

حتى صار هذا المشاهد الموحش على شظايا الإنسان في حركته اليومية!

آهٍ : الشظايا. . . . . . . والوحشة، والوحدة، والبصمات التي تكاثرت!

مجرد خاطر عبر في باله الآن. . يود لو صارح «سارة» به، ولا يريد أن يظلمها :

ربما هي أنثى ـ لا يقول أنها عجزت عن عشق رجل ـ بل هربت من عشق رجل لها، فصار الحب عندها: خاطرة، أو. . . ربما دمعة تفاجئها في منتصف الليل، أو انطلاقة إلى شهوة الرجل. . . فالحب عندها: لا تسمح له أن يقيم، وترفض أن تمنحه الجنسية ، وتهرب من توغله فيها.

تخيل جسراً يجمعهما. . هما فوقه ملتحمان متحدان، وليس جسراً يربط بينهما.

تخيل أنها وهو. . يمشيان امتداد هذا الجسر في لحظة غروب، والبحر أرضية لهما وللجسر، ويعودان فوقه وقد أسدل الليل سُتره، فيضمها إلى صدره!

تلك هي مملكة العشق بكل جنونها الذي حلم أن يحيا معها!

ها هو الآن: معتقل في بقعة صغيرة حبسته هي داخلها بين: الممكن والمستحيل!

إنه الآن يفتقد حميميتها... عندما تكون في نهره.

* * *

الفصل الثامن

إغماءة. . .   وتقاعد عاطفي!

* دخل «فارس» بهذه الحبيبة / سارة إلى ذاكرة الحلم. . فلم يعد يدري الآن: هل هي حبيبته؟ هل هي عنوان فرحه؟. . . أم أنها : هذا الجمال الذي يكثف رغبته في البكاء خوفاً من فقدها في كل مرة؟!

في بدء معرفته بها. . كانت «صغيرته»، ذات السبعة عشر عاماً ، وكان هو في السابعة والعشرين. . . هددها، وركض ورائها. . أحبها حين كانت تعامله بمعنى في قصيدة للشاعر «هنري ميشو» قرأَتْها عليه ذات ليلة:

ـ «أمسيات. . أمسيات

كم من مساء لصباح واحد»؟!

كان هو في بعض الوقت: أماسيها. . وكانت هي في كل الزمن: صباحاته وأماسيه معاً.

والأمسيات: أروع، والصباح: بداية. . . فمزج فيها الأمسية بالصباح، فإذا هي تتشكل في حياته: لوحة الحلم. . . كأنها بغرستها في عمره تصبح هي: تاريخ ذلك العمر. . . . وحدها.

كانا يتحدثان في زمن التعارف، ثم اللقاءات غير المنتظمة.. عن الحب: قُبْلة، وشهوة، وامتلاكاً أو استحواذاً... جنون رائع ذلك الحب، كنا ـ معاً ـ يختتمان به أمسياتهما التي كانت حبلى بالشجون وبالوله.... فأين هما الآن من ذلك الجنون!

قصيدة.. إحساس.. نفس مبعثرة.. أحلام تحترق كالسيجارة بسرعة!

ثم.... مغادرة هذا الفرح المختلط بدمعة، بصمت ما بعد الوداع، أو الغياب، أو القطيعة منها له... لكنهما عاشا ذلك العمر بانحياز شديد منهما إلى الفراشات التي تحوم حول اللهب ، وتتحاشى أن تحترق !

هي هذه «اللذة» التي قال عنها شاعر الهند / طاغور: «ابتغوا اللذة في الألم».

أما في هذا الزمن / «الواقع».. فلم يعد أحدهما يحدِّث الآخر عن الحب، ولم يعد يستمتع باللذة في ابتعاد كل منهما عن الآخر... صار الحب ـ في مجتمعهما ـ من الشبهات!

ـ قال لها ذات مساء وهي تتوجس من لقائهما: تصوري.... أي إنسان تغتصبه الشبهة بالحب، أو الاشتباه بالحب (؟!).. وإذا سطعت لحظة حب بيننا، أو من ظروفنا: ركضنا خلفها مثلما يركض الناس في المناطق الباردة نحو البقعة التي تنتشر فيها الشمس، ولو.... لدقائق !!

يذكر ذلك المساء الذي التقيا فيه، و «جدة» / المدينة: يغرقها المطر.

كانت للمطر رائحة متصاعدة من الأرض، وهو يحب رائحة المطر... تقابلا، كل منهما احتل طرف الكنبة المستطيلة، والفراغ بينهما شاسع كالفراق...

لم يتكلما في ذلك المساء إلا بكلمات قليلة مقتضبة تبادلاها، وبقي كل منهما صامتاً في مكانه.

ـ سألها قبل الصمت: ماذا فيك؟!. . نفسيتك الليلة تبدو كسماء جدة، عليها غيوم!

* أجابت باقتضاب: لا شيء. . . كل ما في الأمر أنني غير راغبة في الكلام معك!

ـ سألها: هل يعني هذا أن أمشي. . أتركك الآن؟!

* قالت: لا. . . لا أعني رحيلك، ولكن لو أردت أن تمشي. . . . إمشي!

كان متأكداً أنه لم يغضبها تلك الليلة. . ربما كانت غاضبة من أحد غيره، من شيء ما. . وربما هي ليست غاضبة ولكنها تبدو مثل المكتئبة.

طبعاً. . لم يخرج تلك الليلة من عندها، أبقاه إصراره على قراءة أعماقها حتى يعيد البسمة إلى شفتيها!

* * *

* الليلة. . . تذكَّر ذلك الموقف الذي تقادم، وضحك في الموقف الجديد الذي تميز هذه المرة بالمرح. . مرح «سارة» في قمة نبرة الحزن التي لاحظها في صوتها.

لقد عادت البارحة ـ فجأة ـ من رحلتها الطويلة، وانتظرت إلى الليلة التي تلتها ـ هذه ـ لتكلمه، وتعلن له خبر عودتها.

ـ سألها: لماذا لم تتصلي بي لحظة عودتك؟!

* قالت ضاحكة: «يمكن... لأني ما أبغى أكلمك البارحة».

ـ سألها: لماذا... ما هو السبب؟!

* أجابت: بدون سبب.. يمكن ما لي نفس!

ضحك من أسلوبها... فهذه لقطة طريفة من تجلياتها معه!

لديها تعبيرات تبدو جديدة في تركيبها، تفاجئ بها المستمع لحوارها معه.

هو لم يحبها طوال السنوات التي غذَّت بهما في العمر فقط... بل شعر أنها (ضرورة) هامة في حياته... حتى في قطيعتها المتكررة.

كان «فارس» يظن أنها تقتل الحلم في نفسه، أي أنها: تقتل نفسها في داخله لأنها هي حلمه.

عرف تأثيرها العميق، التوحُّدي في قلبه... وها هي نفسه تطيب الآن من الحالة التي أغرقته أثناء سفرها.

في قطيعتها المتعددة.. لم يفكر ـ مجرد التفكير ـ في نسيانها، لأن حضورها في ذاته يمثل تشكيل لحظات الصدق... لم ييأس من وصالها مجدداً، ولا من طلوعها ـ فجأة ـ كشمس بعد أمطار غزيرة ورعود وبروق، لتقول له عبارتها الدائمة:

ـ «ها... إيش أخباراتك، إنت ما مُتْ»!!

الآن... اختلف تقييم الذاكرة فيه، ولكن... لن يستطيع أحد أن يعبث برعشة الحب، فهل تصورت «سارة» يوماً؛ أنه يطاردها كظله؟!

أحبها منذ ذلك الزمن، وفي ذلك العمر المتلع بالشباب.. ولم يشعر

في لحظة ما: أن حبه لها يتعرض للنسف من امرأة غيرها. . لا من اللواتي حاولن اقتحامه عنوة لاغتصاب مشاعره، ولا من اللواتي عبَرْن لحظاته المؤقتة.

يسترجع أبعاد معاني عبارة «فيكتور هيجو» لحبيبته جوليات القائلة:

ـ «كم هو الحب عقيم. . إنه لا يكف عن تكرار كلمة واحدة: أحبك. . وكم هو خصب لا ينضب، فهناك ألف طريقة يمكنه أن يقول بها الكلمة نفسها»!

في يده رواية أهدتها له «سارة» من سفرها. . توقف عند عبارة فيها، وقهقه وهو يقرأها بعد أن وضعت له تحتها خط:

ـ «أريد أن أحال إلى التقاعد العاطفي. . . أيمكنك أن تبلّغي قديسك طلبي هذا»؟!

حقاً. . . هل تتقاعد العواطف، ويكف القلب عن الحب وهو لم يمت بعد؟!

* قال: صدقيني لا أعرف. . كنت أقرأ في هديتك/ الرواية، وتوقفت عند عبارة إحالة الإنسان إلى التقاعد العاطفي، ضحكت، ثم بلَّمت. . . شيء من القرف سكنني منذ فترة، وأخذ يحفر بين ضلوعي وحتى في أفكاري: خنادق وحفراً ومتطلبات. . شعرت: أنني «وحيد». . أن الحب مخطوف، والفرح ملطَّخ بكميات هائلة من المساحيق. . وأن الحلم أفسدته بشاعة وقسوة الحياة المادية، وغير المستقرة. . فلا الزمان هو الزمان، والمكان تشيع فيه غربة النفس والروح.

أحس أن خيبات الناس ـ في واقعهم اليوم ـ تتكاثر ولا تتفاعل

لتتغير. . . والأعياد: ممنوعة، ومطلوب من الإنسان ـ المعاصر/المعصور ـ أن يتبرأ من كل خطوطه المستقيمة، ويركض في أزقة ملتوية الدروب.

صمت هنيهة، وهي تصغي إليه. . قال:

ـ لماذا لا تردّي عليّ. . . ناقشيني، غيرك لا يستطيع أن يفهمني، ويعجز أن يُفْهمني.

* قالت: إني مصغية. . . حزنك هذا هو حزني، وينبغي علينا ـ بأمر الواقع! ـ أن نعاني منه في السر، أو نجعله كالحب وكالحرية: سرياً!

ـ همس: أحبك. . . حتى لو ساد صمت بيننا، ولكني أرجوك ـ بأمر الحب ـ أن تبقي هنا في كوكبي ما بين غروب الشمس وشروقها. . لا تسافري حتى لا يكرُّ عليّ النزيف.

* قالت: «برغم أن الدنيا ما زالت تحفل بتواجد أناس صادقين جداً، لكن. . . حين نتكلم مع بعض، أشعر أنني وأنت فوق الناس كلهم، ويمكن أَصْدق منهم. . حتى لو كان الناس يقولون مثلنا».

ـ قال: تنقلينني دائماً إلى عالم أجمل. . عالمي الذي أبحث عنه من زمان. . تنقلينني إلى أعماق نفسي، وإلى نصاعة تفكيري، وإلى نقاء عواطفي. . . وحدك أنت التي أتوحَّد فيك وأتوحّد بك!

* قالت: أحس بك. . أنت تعبان، شيء طبيعي أن تتعب، لكني أحس كلما حدثتني عن نفسي وعنك وعن الحب، كأنك تريد أن تسجنني. . . في كلماتك، وفي رسائلك إليّ: عواطف كثيرة تنتشلني من هذا الضجر على الأقل (!!) وأحياناً ـ أصارحك ـ أتأفف منك، أقول: «أنت تريدني علشان ما تطفش وبس. . . أقعد أشوف حالي بيني وبين نفسي حتى أقدر أيضاً أشوف

حالي على الناس وليس بينهم!!. . أحس بيني وبين نفسي أني أحسن من الناس.

لا تقاطعني من فضلك. . سأحدثك عني. ها؟!

مطلوب مني أن أكون «سمبوطة». . يعني: مبسوطة.

أنا من زمان: أحزاني سرية حتى لا أضايق كل مَنْ حولي. . والشيء الوحيد الذي أقدر أن أعلنه هو: فرحي. . دائماً أظهر للناس أني مبسوطة حتى لو لم أكن كذلك.

حين أستعد لزيار أمي، ولرؤية طفلي الوحيد، وللقاء صديقاتي. . . أعمل نفسي مبسوطة، فقط. . . حتى لا أجعلهم يتضايقون مني أو بسببي.

أنت تحدثت عن «الإغماء». . وهناك فئة لا تقدر أن ترتفع إلى مستوى الإغماء الذي أحسست به وحدثتني عنه. . اختاروا برغبتهم أن يخدروها ـ نفسهم وحياتهم ووعيهم ـ والبعض يستعمل المخدرات!

هناك «ناس» كثير عرفتهم في أول حياتي. . صاروا اليوم: إما متبلدين تراهم يمشون كالقطيع، أو هم خدّروا أنفسهم حتى أغمي عليهم. . وبعضهم: اتجه دينياً، أو هكذا ينعتون اتجاههم ـ بتطرف شديد ـ لماذا؟!. . . لأنهم يحتاجون أن يتمسكوا بشيء، ولا يمكن أن نلوم أحداً. . . جيل كامل عنده إحباط واكتئاب.

وتعال. . نتفرج عليهم هنا وهناك ـ في غير مجتمعاتنا ـ في أميركا وأوروبا. . . كنت جالسة أتفرج على حفل ختام الأولمبياد، وكان حفلاً جميلاً، ولكن. . . لا يمكن لتلفازات العرب كلها أن تعرض الحفل من

طقطق لسلامو عليكم.. وهمست لنفسي لحظتها متسائلة: لماذا لا نعبر نحن أيضاً عن أفراحنا.. نتحرك، ونقف، ونرقص.. ولماذا نحاول أن نتعامل مع أفراحنا بخجل شديد كأنها سرية؟!

هل لأنه ممنوع علينا أن نفرح؟!

نلاحظ إذا ما ابتسم أحدنا... تلاحقت وراء ابتسامته الأسئلة: «إيش فيك.. لماذا تبتسم»؟!.. حتى تشعر أن الابتسامة: قلة أدب!

أيضاً.. لا تقاطعني من فضلك، دعني أفضفض!

ضحكت وأنت تتكلم عن «التقاعد العاطفي»... يمكن الواحد يستقيل، أو ـ على الأقل ـ يأخذ إجازة من الحب (!!) الحب يبقى في داخلنا: ذكرى حلوة.

التعايش: استمرارية الحب.. إن الحب لا يموت حتى لو انعدم الاتصال، وربما هذه مشكلتي!

مشكلة الواحد منا: ليست هي الحب، فمن حق الإنسان أن يحيا هذه المشاعر الجميلة، في مقابل أنه أيضاً قد يحرم منها.. المعاناة في الحب بكل ما فيها فهي إحساس لا يهون!

أنت تحدثني عن ذكريات لنا مضت.. أدعوك أن لا تتمسك بالماضي، ولكن... دعنا نغرس ذكريات في تربة هذا الحاضر.. وما أُعبِّر عنه ليس هو التمسك بالماضي، بل هي: الاستمرارية!

خلاص... انتهت خطبتي، فهل لك من تعليق؟!

كان «فارس» يطرد وراء تحليلها، وتوصيفها، وآرائها... كأنها جرّته وراءها ليلهث.

ـ قال لها: لماذا تحاولين أن تغمضي قلبك، وتصيبي عقلك بكدمات من أفكار الاكتئاب؟!

كأنك تحولين قلبك إلى (مقبرة). . تضم رفات من أحبَبْتهم وأحبوك، وصرت تتعاملين مع هؤلاء ـ برفضك للتمسك بالماضي ـ بأنهم «موتى في قلبك»، ولا بد أن تقومي بعملية مسح بين كل فترة وأخرى للاطمئنان على موتهم في قلبك؟!

❊ قالت: أسألك الآن. . هل أنت تحبني علشان الحب، وأنا. . هل أحبك، أعشقك، أم لأنك ـ فقط ـ تثريني عقلياً (؟!)

لا بد أن أقول أنك تثريني عاطفياً أيضاً. . . . .

ـ قاطعها: وعطائي هذا لك. . . ألا يثريك عاطفياً؟!

❊ قالت: ما أدري. . . يمكن أيوه، يمكن لأ!!

أحس أن قلبه شهق مع إجابتها. . . كأنه يقول لها وللزمان معاً:

ـ أرجوكما. . . كُفّا عن الدوران في حياتي!!

❊ ❊ ❊

الفصل التاسع

يعيش ولا يحيا!

* ها هو «فارس» ـ بعد رحلة سارة في السنين، وبعد سفرها واستغراقها في الغياب ـ ما زال أمام البحر الذي يقذف الأصداف والوشل على بعد خطوات منه... يجلس وحده، تكويه جمرة اشتياقه لها، يشاهد أضواء الميناء الصفراء على البعد، وشلالات بيضاء من النافورة التي زرعت كفنار في عرض البحر... حضن يعانق ويلتقي، وذراع يُلوّح بالوداع، لعل في التلويحة وعد أخضر!

منذ سافرت «سارة» إلى عمق الغرب، لم تحاول أن تطفئ ظمأه إليها بصوتها إلاّ مرة واحدة، لتتركه يحاول دائماً معها.. يتصل بها عبر الهاتف فلا يجدها، ويبعث إليها برسائله عبر الفاكس/ أحدث وسيلة أسرع... وهي موغلة في صمتها، لم ترد عليه إلا مرَّات يعدها على أصابع يده الواحدة!

عيناه تبحران على امتداد النظر... تترقبان انبلاج وجهها.

أعماقه تحولت إلى ميناء إنساني، ما زال مضاءً رغم غارات الكراهية، وتكريس الحروب الصغيرة بين الأهل ـ كالحرب التي أشعلتها العراق ضد

جارتها الكويت ـ وإخلاء الجرحي: جرحى الحرب، وجرحى النفس في عالم: الإنسان والنسيان!

فهل تراها: نسيت؟!

منذ تلك السنوات التي تعارفا فيها وتقاربا حتى الامتزاج. وهو يسكن أعماقها، وهي تجليه عنها، وحبه لها ينغل في وريده وهو يستعذب تأليمه!

لا . . . لم تَنْس سارة، لكنها صارت تعاني من حشود في أعماق نفسيتها، ومن التزاماتها نحو ابنها وتأمين مستقبله، ونحو «واقعها» وتحقيق الاستقلالية الآمنه له.

لكنَّ «فارس» في غيابها يشعر: أن الزمن في غربتها عنه، صار مجرد وقت يقطعه، ولا تنتهي الرحلة الصعبة. . . ما زالت هي في نفسه: مساحة العمر، في الفرح والترح. . في الإبتسامة والدمعة، وفي غيابها عنه. . بقي يرضع من سحابة تُلوّح بالغيث ولا تمطر، كأنها سحابة من زجاج!

قام من جلسته أمام البحر، يجرّ خطواته المتثاقلة ميمماً نحو بيته، وهو يهمس لنفسه بما قاله الشاعر بشار:

ـ إن الفؤاد يرى. . . ما لا يرى النظر!

لقد تحبب إلى «سارة» منذ أحب نفسه. . كانت النظرة: صادقة حيناً، وكاذبة حيناً آخر. . . لكنَّ نظرة الفؤاد هي التي تبقى عميقة لأنها عريقة، لا تكذب وإنما تتكاذب أحياناً من وازع الاحترام.

خفَّت خطواته إلى جهاز «الفاكس» في اللحظة الأولى من دخوله إلى بيته. . تهللت أساريره وهو «يلمح» خطها، فقد اتزانه، ونسي أن يبدل

ملابسه، التقط الورقة من الجهاز برفق خوفاً عليها من سقطوها.. وجلس يقرأ رسالتها، كأنه يصغي إلى صوتها:

* يا سيد الجميع:

سيدي: أنا ما نسيت، ولا بطَّلت، ولا خاصمت.. أنا قاعدة أقرأ وأعيد القراءة، وأفكر فيك وفي الدنيا!!

تقدر تسامحني... ممكن.. ممكن؟!

ممكن يعني تعذرني علشان ما رديت؟!

أكيد... ممكن!

أفكر فيك ـ وحدي ـ لا تشوش عليّ لو سمحت.. دع تفكيري فيك وعنك لي وحدي... مالك دعوة فيك... اتفقنا؟!

لا زلت أنا على قيد الحياة... الله يخليك، خليك إنت على «قيدها».. لازم واحد فينا يمسك فيها والا تخرب.. أليس كذلك)؟!!

كأنّ اليأس منها.. قد تحوّل الآن إلى أمل جديد في قدومها إليه، وقد اكتمل النضج الذي لا بديل له لكل ثماره وحقوله.

لم يصدق أنها تعود ـ ولو عبر رسالة قصيرة ـ وأنها تعلن عن بقائه في ذاكرتها، أو أن ذاكرتها لم تخن بياضه في عمقها!

يسترجع من الماضي صوتها.. أصداء لتلك العبارة التي خصته بها ذات مساء:

ـ (أنت ما زلت السر الوحيد المعلن.. في حياتي وفي حياتك)!

* سألها يومها: فهل أنت ضد هذا السر، أم معه؟!

ـ عادت إلى أسلوبها المعتاد معه. . تقول له: لا تصدقني، لا تصدق نفسك. . فكل هذا العالم يقوم اليوم على الكذب، والتزوير، والأقنعة. . على العمر المؤقت، والكلمة المؤقتة، و. . . . . . ربما على الخفقة المؤقتة أو العابرة، وبالأبيض والأسود. . . وهذه هي: ذاكرة خاتمة القرن العشرين!

يومها. . لم يرد عليها، استغرق في الصمت أو الإصغاء لها، وهو يتمنى أن تواصل إعلان الحقيقة الموجعة على الواقع البشع!

* * *

* ها هو يمشي: يتيماً منها. . يقطع منعطفات الأشياء المؤقتة: لحظة مؤقتة، ضحكة مؤقتة، فرحاً مؤقتاً. . . حتى الحب، صار الناس (يمارسونه) مؤقتاً، لذلك اختصرت دروب كثيرة إلى الجنس الذي يحدد تماماً في التفريغ بشكل عاجل ومؤقت!

كثير هي الرسائل التي كتبها إليها، ونادها فيها، ولكنه لم يبعث بها لأنه لا يعرف ساعي البريد الذي يمكنه أن يوصلها إليها دون أن يسرق منها دفء قلبه!

عاش على «الحلم». . حتى بلغ عنده إلى حد: الاجترار، فكيف لا يكون هو الجمل الظمآن في صحراء من الرمال السافية؟!

حتى الخيال: فقده. . وجلس يلملم قدراته، ويقف حارساً على ما تبقَّى له منها وعنها: الحلم. . . يخاف عليه أن يفسد هو الآخر، كما فسدت قيم أخرى ثمينه مثله. . كالضمير، والخُلق، والمودّة!

وهي بعيدة. . . ها هو يلملم ـ مع قدراته ـ الحزن المرغم على الضحك، ويرى هؤلاء المتعبين، ويسمع شجنهم. . تقضمهم هموم المعاناة

اليومية وهي تزداد تعقيداً كلما ازدادت الحضارة تضخماً!

الكل ـ اليوم ـ صار يبحث عن (واسطة) يتقدم بها حتى إلى الفرح ليقبل به، وإلى الراحة لتحضنه، وإلى الحب ليظلله من هجير الحياة.

ها هو: يرفو عبارة الحزن المرغم على الضحك... بعد أن دخل في حياة الناس شيء لم يألفوه من قبل، وهو: الخوف... ومطلوب من الناس في واقعهم هذا: أن يرسموا الحب بالقلم «الرصاص»، بشرط أن يعرضوا لوحة الحب، وكلمة الحب على (الرقيب)!

يشتاق هذه اللحظة أن يُقبِّل لؤلؤته.

على شرايين قلبه... يحبو إلى بهاء وجهها ـ في تخيله لها أمامه ـ ليقطف من بين شفتيها أجمل ابتسامة لم يشاهدها رسام الجيوكندا/ دافنشي على وجهها.

لا أحد يمرَّ من هنا..... هكذا يريد فارس في تخيله الجميل.

الكل يقف: متبتّلاً، خاشعاً.. يتأمل اللوحة/ هي «سارة»، ويغرق مثله!

❊ ❊ ❊

❊ سرعان ما أتى زمان جديد.. طلعت به كلماتها القصيرة في رسالتها عبر الفاكس... كأنها في هذه الرسالة: أطلقت لفتاتها، ونثرت ضحكتها.. وتساءل «فارس»:

ـ «ترى... هل هو زمان جديد... زماننا حتى الموت/ أنا وهي؟!

كيف نقسو على أنفسنا بإهدار زمان يطلع ملكاً لنا، ولا نتشبث به، بل نتجافى؟!

ما زال «فارس» يحفر صوته في قصائد «سارة». . كل كلمة تكتبها إليه هي: قصيدة.

استمزج أن يرد على رسالتها القصيرة/ المفاجأة. . . فكتب إليها:

* (يا سيدتي اللؤلؤة المصدوفة:

من أين بدأت الرحلة نحو اللحظة؟!

أين يصب جنونك: فرحاً، وشباباً ما زال، وتلاقى؟!

وأنا. . . أبحث عن صفصافة، لا تفقد ذاكرتها. . أكتب في فيئها قصيدة عشق وفيّ، وأمنحها من سريرتي: انتمائي للحب وللحزن!

فهل تتركيني أتخطى مسافات ظنونك وجنوني حتى أبلغ حدّ السيف. . . . ذلك الذي يحكم على خفقاتنا؟!

أريدك أن تطعميني حنانك، حتى أمنحك حقولي وغاباتي، وكل أنهاري وسنابلي.

آهٍ. . ما أبلغ تجذرك بين ضلوعي، فقد صرت كل السُّبُل.

آهٍ. . ما أقوى الحرمان منك عندما يرتدي دثار الالتزام المبذور في أيامك وأيامي الضائعة.

ألتقي بك كل ليلة فوق صارية سفينة الحب: (نعم. . . أنا ما بطَّلت). . أرجوك ـ إذن ـ أن لا تحبسي هذا الشجن المتدفق من بين ضلوعك. . دعيني أختلط برموشك ونظرتك، فأنا عاشق التفتح فيك.

يُتمي الحقيقي: حيت تغيبين، أو تقاطعين... أنت التي تطهرين نزفي وتغسلين روحي من أوشاب الحياة... وتعيدينني ذلك الإنسان: العاشق، المجنون، المتوتر، الفَرِح، الإنساني... فأي حلم يزهر في زمن: «لا يمنحنا حق الإجابة»؟!

في غيابك... أمرُّ بقلبي فلا يكلمني.

آلمني خصام قلبي لي كثيراً، كثيراً.

تسرقني أحياناً تلافيف غيمة.. ورغم ذلك: أبحث عنك، أحمل ميراث أحزاني، ووحدتي ووجعي.

تدفعني رغبة قوية لأحدثك اليوم عن نفسي، وبماذا أحس في أيامي هذه؟!

ترى.. أية نفس تريدين أن أسلط عليها عدسة «الزوم»... النفس التي تجمّع في أعماقها عشقي لك حتى الثمالة.. أم النفس التي تجمَّع حولها: العمر بهذا العراء فيه اليوم؟!

حسناً.. «عبد الصبور/ صلاح» قال:

ـ «الحب في هذا الزمان يا رفيقتي

كالحزن... لا يعيش إلا لحظة البكاء

أو .... لحظة الشبق!

الحب بالفطانة... اختنق»!

وما زلت باقٍ هنا على المفارق.. أحدثك عن شموس تشرق في

المساء، ترسل قصائد لا مبرر لنشرها، أو مع الرقيب تداولها. . لأنها في حياتي هي: دمع الفجر، وعين السهر. . وهي صوت الغيد الحسان وهُنَّ يغنين: «يا قمرنا يا مليح. . . شُدّ حصانك واستريح»!

قهقهي معي. . فقد صرت أستاف الـ «دوماً»، وأغدو كحلقات الماء المتسعة بعد سقوط حجر صغير، وأحياناً أشعر أنني صارية وسط بحر متجمد!

في بعض الأوقات ـ مثل أي آدمي نتشارك معاً معاناة هذا الواقع ـ أضع حالتي النفسية على ما أسترجعه من ذكريات جميلة، وأطبعه طبعة جديدة. . كأنّ الحالة النفسية تحولت إلى متعة كربونية، فأشعر ـ حينذاك ـ بمتعة كربونية!

يبدو أنني (أعيش) الآن، ولكنني لا (أحيا). . . أو أنني أعيش الأيام بواسطة زر.

ذهب الأصدقاء ورفقاء الحوار، وبقي رفقاء السمر. . . وهؤلاء ليست لديهم صفارة يدهشون بها هجوع المواني.

ذهب الأصدقاء. . دعستهم أنانية المصالح، فتنكروا حتى لأصداء الزمان. . فصرتُ ألزم غرفتي، وقد لا أرى الشارع إلاّ لماماً، مللاً من روتين الخروج إلى حيث يزداد الإنسان إحباطاً أو سأماً من التعود.

إنها المتعة الكربونية. . في هذه اللحظات التي تفترسني، ثم . . . . أبكي عليها بعد ذلك، لأنها ـ في الغالب ـ أرحم من القادم، ولست في هذا الشعور متشائماً، ولكن. . . يبدو أن «سلفادور دالي «الرسام السيريالزمي

صادق في مقولته هذه: «من الصعب الاحتفاظ باهتمام العالم أكثر من نصف ساعة»!

صراخي: يُشِّكل ولادات (صوت) الإنسان الدائم المحبط في أعماقي، وفي عالم يقف ضد ابتكار الأمنية، ويعمل على إفساد حلم الإنسان... لا بد أن أقف في وجه هذا العالم أو هذا الواقع، أقاوم الوجع، والقهر، والإحباط، والطغيان... لا بد أن أنتصر لرأيي، ولمبدئي، ولموقفي، ولو خرجت من رحم الصراخ والعذاب!

وأنا ـ بعد كل هذا الصراخ والعذاب ـ أجد عندي قدرة التخيل على منح النفس لكل الدروب المشعبة المكسوَّة بابتسامات الناس، ولكل المنطلقات الزاهية برفاهية السنابل، ولكل الطرق المضاءة بالنجوم المغسولة بالغيث... فكيف أفلح كل هذا التخيل في واقعٍ: صبَخه؟!

الجمال عندي هو: امتلاك الإنسان لحريته.. وحرية الإنسان في رؤيته هي: أبعاد الجمال.

والجمال عندي هو: الرحمة.. حتى لو كان يضيء بها وجه مليح، أو زهرة، أو جدول، أو قطرة مطر، أو انتشار الشفق، أو رقصة ساق وردة أخضر.

صار يبكيني اليوم: موقف بسيط جداً يحدث من عيني طفلة، عندما تنهرها أمها.

أو .... كأنني ـ في هذه المرحلة من العمر ـ صرت أواصل حركة الحياة بداخلي، أو حركتي بداخل الحياة.. بالدمعة، وفي حياتنا هناك من

يستحق دمعتنا، وهناك من يقتلها، وهناك من يتعالى على دمعته. . . فيجف من العاطفة!

إن الدمعة. . ليست مجرد «نقطة»، لكنها: رؤية، وبوح، وراحة، و. . . . ربما جموح أحياناً إلى درجة الرفض)!!

* * *

الفصل العاشر

مواجهة ما سيأتي!

* **مصباحه:** شاحب الضوء، تذوى فتيلته.

تخيُّله: عود ثقاب يحرقه، يرمده... وهذه النسمة الخفيفة تذرع وجه البحر، ترشق «فارس» بالنوى، وبالأصداء الحبيبة... ووجهه يتموج في الحنين للؤلؤته/ سارة.. وما زال صدره يمتليء عشقاً لها، ويفيض اشتياقاً.

فهل أخبر أحداً عن قسوة غيابها عنه، واختفائها في غبار السفر الذي يستهلك أكثر شهور العام؟!

لا يعرف وسيلة للاتصال بها وسماع صوتها... هي التي قررت «له» أن تحادثه هاتفياً من أسفارها كلما سنحت لها الفرصة، لكنها خطرت عليه أرقام هواتفها، ومعرفة خارطة سفرها.

لكنه ـ الليلة ـ يفيض اشتياقاً إليها... فهل يبلغها هذا الاشتياق بالتلبثي؟!

في اختفائها، ومن بعدها: صوتها... تخطى الحنين لها، فقد هجم القلق عليه وشاع في أرجاء نفسه:

خاف على قدره فيها. . . فهي الجانب المضيء المزهر من قدره.

هذا زمنه: بلا ألوان. . . وتبقى «سارة» هي: نخلته التي يتفيأ ظلالها وتلقي بثمرها في كل أرجاء حقوله.

بعدها من يكون، ولمن يكون، وكيف يكون؟!

أهدته أبيات «محمود درويش» قبل أن تبدأ سفرها الطويل، وعاد يتذكر ذلك الشعر:

❊ «علقوني على جدائل نخلة

واشنقوني. . فلن أخون نخلة»!

❊ سألها ـ يومها ـ عن مناسبة هذه الأبيات ومعناها. . فأجابته:

ـ المبدأ جميل. . . . فقط!

وحده ـ هنا ـ في هذا الحصر للمساحة الذهنية، ولانتفاضة الخفقة.

البحث الآن يستهدف: نقطة الضوء المختفية. . أين ذهبت؟!

إنه يتساءل في مدّها وجزرها معه. . في ظهورها ثم اختفائها من حياته:

ـ لماذا تجعل مع نفسها في حياة فارس: جودو الذي ينتظره دائماً. . الذي يأتي ولا يأتي؟!

عطش الأماني: يكتبه نداء عليها، حتى يتحول ضد نفسه!

رؤية أماني العمر في حياته: وعد عابر يغيب كالذبذبات الصوتية. . وهو يحفُّها ويتصاعد بها في الزمان المسروق. . وهو يفتش عن وجه: ضاحك/ حزين، فينعكس إليه من المرآة!

❊ ❊ ❊

جدة/ هذه الليلة: تسقيه الطل، وأصداء من إبداع الفجر المتوحد دوماً في موج البحر.

مدينة تتمدد، وتتسع، وتكبر... وكأنها ترقب ركض الأفكار بديلاً عن الركض اليومي بالأقدام: دورة الناس الدموية، والقلب الخفّاق بنظرة، وتدافع موج أبيض نحو الشاطئ والأضلاع.

هذا البحر أمامه قد اختلط بتذكار الأضلاع.. بوجوه تختال أمام المرآة/ الذات.. وبآثار العجلات على الطرقات اللا متناهية الغيبية.. وبصمت الأشجار تنادى: بوح النسمة عندما تخنقها رطوبة هذه المدينة الساحلية!

اختلط نبض «فارس» بأمواج البحر.. تناهى، تمزق.. خاض الرحلة الكاملة من ليلة/ لحظة، حتى الليلة /ألف، والألف سؤال منثور فوق رمل الصحراء، وزرقة البحر.. وفي سمع «سارة» الذي لا يشعره أنه يسمع له!

اختلط تفكيره بالأسئلة!

* لماذا نشلع الزمان بالأسئلة؟!

* لماذا انكسار القلب.. بفعل الحب، أو حتى باسمه؟!

* لماذا في عصر «الشكوى» من الذي نحب.. ينشقُّ هول من المفاجآت؟!

كانت «سارة» تردد على مسامعه بين فترة وأخرى مقطعاً من أغنية غربية.. تضغط على صورة واحدة منها: (لمن أشتكي.. وأضع رأسي على صدره)؟!

لم تغرب الأسئلة عن تفكيره، وشروده في هذه الليلة الخرساء التي

يختلط فيها هو الآخر بالرطوبة. . . . . . «والآه» التي يحبسها بين ضلوعه.

فجأة. . . دوى في خرس الليلة جرس الهاتف، ولم يصدق أنّ هذا صوتها:

* قالت له: كنت بعيدة. . بعيدة جداً.

ـ قال بغيظ يستفزها: ولِمَ عُدْت الآن؟!

* ردَّت بتوتر: لم أعُد لأُشبع جوع انتظارك، وما دريت أنّ فقدك لي يحولّك إلى كأس يحكمون عليها من منتصفها: فارغة، أم ملآنة. . كل حسب نظرته وشعوره.

ـ حرص أن يربط جأشه. . وأجابها؛ يبقى النداء. . زمان آخر لك ولي. . له نصف ملآن، ونصف فارغ، مثل. . . . سفرك هذا!

* قالت بحدة: اتصلت بك لأطمئن عليك. . أنت ماذا تريد مني الآن بعد القطيعة؟!

ـ قال: أنت التي اتصلت. . عاشقة هاربة رافضة. . . . .

* قاطعته: لا. . . أنا لست عاشقة، لم أعد أركض وراء الحب.

ـ قال: بل تركضين، وتتمنينه.

* قالت: أبحث عن «رفيق». . . مللت من الأصدقاء، والجوقة، والحاشية. . رفيق، هل تفهم معنى هذه الكلمة؟!

ـ قال: عدت الآن ـ بصوتك ـ لأسمعك: متلبسة بالحنين لدفء رجل بجانبك. . متشفعة بالنداء المخضَّل بعفوية آهة الشوق، وبرقصة فرح تؤجلينها في أعماقك حتى يظهر ذلك «الرفيق».

* قالت: لا يزال لك مذاق.. فشلت أن ألقمه نيران النسيان!

ـ قال: ربما... لأن مذاقي تلقَّح من شجرة: سِرُّنا الوحيد المعلن.

* قالت: كأنّ مهمتي انحصرت الآن في محاولة إسعاد الآخرين، ويمكن... أنَّ منهم من لا يهمني أمره أبداً.... أنت اصطدت من فمي كلمة: «رفيق» وطوَّحت بها، اسمع من فضلك يا هذا.... القضية عندي لا تتجمع في وجود رفيق، أو افتقاري إليه، لأ... القضية تتركز في: وجودي أنا... سعادتي أنا.... بس، خلاص مع السلامة!

* * *

* كأنّ «فارس» بعد أن أعاد سماعة الهاتف: واصل تحديقه في وجه الزمان.. كأنه يناديه قائلاً:

ـ الناس يدورون حول زمانهم، والزمان يدور حولهم وبهم.

الناس يهاجرون كل ليلة ـ إما بأفكارهم، أو بأحلامهم، أو بطموحاتهم ـ إلى غبطة أسطورية، ويعودون كل نهار إلى: خوفهم الخرافي... يعودون في: «لذة الصُّدْفة»!

وعندما كان «فارس» ـ في مشوار حياته ـ يعدو خلف الظلال: عاشقاً يطارد بسمة أو نسمة.. وعندما كان مرصوداً تحت نجمة أضاعت قمر ليلها الوحيد: كانت لحظات صمته مجروحة الأصداء، وكانت كلمات أشواقه: حبلى بالشجن.

كان يتمنى، ويتمنى... لعل صبابة تضيء مشاعر الآخرين.. وكان يهمس من داخله لكل دواخله، قائلاً:

ـ الحياة في واقعها: جدل طويل يفيض سأماً. . . وكلمات الناس النقية: طوتها التضاريس مع الغبار. . . ذلك أن الحياة: مناظرة مكشوفة، حافلة بالرُّغْم!!

وذلك هو حزن «فارس». . . وفي العَدْو خلف الظلال، والرصد تحت نجمة، والتمني المُلحّ على الثقة. . . فوجىء بتلك الكلمات النقية تنبعث من وراء الغبار وتضاريسه، وتحتضن حزنه، و«سارة». . لم تعد إليه تلك الليلة عبر الهاتف.

جاءت الليلة الأخرى. . بدايتها: حملت صوت «سارة»:

ـ قالت: هل زعلت مني أمس. . أقصد هل أغضبتك، أم استفززتك كعادتي القديمة معك؟!

* قال: أنكرت الزعل معك. . لملمت الغضب وشكَّلته لأجعل منه فرحاً بعودة صوتك. . أما استفزازك فهو عادتك!

هذه الليلة. . فاجأها بمخاض جديد لأسلوب حواره معها. . وهي: لم تفاجئه باستغراقها المعهود معه في برودة ردّة الفعل. . لكنها فجَّرت في سمعه سؤالاً لم يتوقعه أبداً:

ـ قالت: أما زلت تحبني؟!

* قال: ليس ندمي، بل اعتزازي أن قلبي استعصى على التوبة من عشقه لك!

منحها شهادة انكسار قلبه في ابتعادها عنه. . . وقد غاب في فضاء العمر!

ولم ترد على سؤاله/ الإجابة. . . لكنَّ أمواج نفسها تلاطمت مختلطة بحزن نبرة صوته. . . وما زالت التفاتته صوب زمانها.

لعله تخيلها هذه الليلة من صوتها. . . وطفق يفرح، يفرح، يفرح.

ردد عبارة النفري: «. . . . . وأفرح، فإني لا أحب إلاّ الفرحان»!

ما زال اشتياقه لها: اختراق لكل محاولات نسيانه لها.

هي «الأنثى» القادرة ـ وحدها ـ أن تُنهض من بين ضلوعه: أشد خفقات قلبه وجيباً، ونداءً عليها!

* * *

* جاء صوتها ـ للمرة الثانية في ليلتين متعاقبتين ـ ليس هو. . نبرته مبعثرة، نبضها يختلج بالحزن.

أراد أن يقول لها همساً:

ـ «هل تعلمين أن للنخيل أجفاناً؟!

فأية زوبعة اقتلعت جفن نخلتك»؟!

ولماذا تتركيني وحيداً في هذا التيه. . وأنت فراشة عمري البيضاء التي تأخذني دائماً إلى نبع الحب؟!

هل يصرخ الآن. . . ينسفح كأدمع أشواقه إليها؟!

لماذا ـ هي ـ تقول ولا تقول. . كلما حادثته؟!

كأنه في غموض محادثتها وسرها المكنون. . ترمي به إلى عالم مأخوذ بالغياب، وعليه أن يعيد اكتشافه. . . فهل تعتقد «سارة» أن في عمره بقية (طويلة) ليعيد اكتشافها من جديد؟!

هنا ـ في هذا العصر، أو في هذا العالم، أو في هذا الواقع ـ ظلام على دروب الحقيقة في اكتشاف الإنسان. . وهنا ـ أيضاً ـ بياض عظيم يتجلى في (القوة) التي جعلوها هي: معرفة هذا العصر، تصاحبها حرارة. . والأسباب التي يركض وراءها إنسان هذا العصر، أو يفتش عنها: تتركز في أنه ليست هناك وجهة نظر أخرى لغير القوة، حتى في العلاقات الإنسانية. . أو لم تعد هناك وجهة نظر أخرى يعترف بها الآخرون إلا وجهات نظرهم الذي قد (يَحْولّ)!!

إن «فارس». . يتعذب في أفكاره وتأملاته هذه. . ويتذكر عبارة العبثي «بكيت" : الخيال مات. . . فتخيل!!

فهل مات الخيال؟!

ـ قال: كل شيء يتذبذب. . . كل شيء يهتز، فنحن نعيش في عالم: معبوث به!

بقي شيء غير مكنون. . إنها التجربة، مهما كانت: سامية أو سافلة. . لا بد أن يشعل الإنسان منها نقطة ضوء لحياته.

ويتلفت «فارس» حوله في المكان، في الجدار. . . يتذكر أن «سارة» أعادت الاتصال به هذه الليلة، وتسللت لتتركه في هذا الفراغ، وهي تعرف: أن لا امرأة غيرها: تملأه في هذا العمر، وتحشده، وتفجره!

خلخلته رعشة شديدة في كل بدنه.

يشعر باشتياق شديد إليها. . بضربات عنيفة من قلبه، وظمأ شقَّق شفتيه.

كفكف دمعة تسللت فوق خده، كم هي موحشة الحياة بدونها.

في زمن اللقاء الدافئ الذي كان يجمعهما معاً: اشتعل صهدها وصهده... كانت كل الأشياء طليقة بينهما، حتى عادت «سارة» فقيدتها بلا مبالاتها.

ما زال يحبها... فهي مفرداته التي يشكل منها عباراته المفيدة لعمره.

استلقى فوق سريره الوثير... كأنه ينعزل بوحدة روحه، ليفقد السؤال المنادى عليها.

تتجندل أحلامه كالعصافير المقتولة برصاص صياد نزق... وكل هذه «الرؤى» أضحت غربالاً في أوجاع العصر.

يبحث ـ كإنسان ـ عن ذلك النشيد الأروع في صدور الناس المنشغلين بصراع المادة، الذي تناسوا أصائلهم لكثر ما يتذكرون، و.... يفقدون!

وها هي أمسياته قد تعلمت: معنى الخرافة.. من أجراس ذهاب «سارة» وسفرها الدائم، ومدِّها وجزرها في حياته!

استرخي.. لعله يحقق ولو ذلك الحلم: أنه تركها ومشى.... بلا قلب.

لكنها ـ حتى في أحلامه ـ تطلع: خروجاً ساهراً عليه.

صار وقوفه وسط بحار الأسماك المكتظة حول شباك الصياد، ولم يعد له زمن خاص إلاَّ من زمنها هي!

ولأنها كثيراً ما كانت تخاطبه بأبيات شعر مما تحفظه حتى تجنَّ به... فقد ذكَّرته أصداؤها بصورة شعرية قرأتها ذات مساء عليه مترنمة بشاعرية بلند الحيدري:

ـ «هذا أنا: ملقى. . . هناك حقيبتان

وخُطى تجوس على رصيف لا يعود إلى مكان من ألف ميناء: أصار. . وبناظري: ألف انتظار»!

❊ ❊ ❊

❊ من ذلك الزمان/ الذكرى. . . حتى هذا الحاضر/ التذكر: يجري دمه مجنوناً لأنه (ضَعْف) إنسان كثيراً ما حشدت لحظات الفرح المؤقتة غروراً فيه. . ولأنه (قسوة) إنسان يقف عند النقطة الفاصلة ما بين خروج فصل ودخول ما بعده. . . يحاول الآن أن يكون: مواجهاً لما سيأتي في كل الأحوال والحالات حتى الموت، بدلاً من أن يكون ما سيأتي هو المواجه له!!

❊ ❊ ❊

الفصل الحادي عشر

غريب رغم القرب!

❊ صعب عليه أن يميّز الرملة الذهبية، ولون كفّها حين يتدثر في كفه.

همست إليها.. هي: لغته الجميلة التي تضيء ضحكتها.. هي بوحه الذي يغسل أعماقها براحة النفس.. هي غزل الدنيا لها، فهي هذه الدنيا الأجمل في عمره.

التواصل معها.. لم يعد حواراً، ولا حديثاً، ولا حتى ...... همسة.

راودته أصداء من تلك الأغنية التي تتغلغل في الزمان الذي مضى... وأخذ يدندن:

ـ «يا حبِّيَ المر، العذب

ليت الهوى وانْتِ: كذب»!

تبقَّى له منها: أوراق وقلم... وحريته: أن يسكب على الورق نبضه إليها.

هي ـ حقاً ـ حبه: المر/ العذب.

هي التي فرضت عليه أن يكون تواصله معها: تخيُّلاً وأصداءً وتحديقاً في البعيد/ السراب، وتقهقراً دائماً إلى الزمن الأحلى/ الماضي. . حتى ولو كان الماضي هو يوم أمس القريب.

صار يحلم بها. . . بالتخيُّل وبالتحديق في السراب.

صارت رفقته لها فوق وسادة أحلام اليقظة لا النوم. . هي هذه المرأة التي رفضت منه تعريفها بكلمة: «أنثى». . . فهل هي ليست أنثى؟!

ترنُّ في صمته أصداء من ذلك الأمس، قائلة له:

ـ لا. . . أكون «أنثى» حين أريد فقط، لكني دائماً أنا «امرأة».

* يقول لها: وهاتان الشفتان المفترّتان عن نداء الحب؟!

ـ ترد عليه: لا تنظر إليّ من شفتي. . تعامل معي كامرأة من حقها أن تختارك أو . . . . . . ترفضك.

* يبتسم وهو يتمتم: أيّ مجد فرقديّ من رعشة نارك؟!

ذلك المساء ـ في حوارهما الهامس ـ واصل تحديقه في عمق عينيها وارتعاشة شفتيها، وتحول إلى ركن صامت!

* * *

* ليس من أساليبه الهروب. . . لكنها حلمه المجنون، وسنبلة أرضه/ حنطته التي يسقيها نبضه، وتنكر هذا النبض/ السقيا!

أمامه. . تتقصَّد أن ترتدي «الحِدَّة»، حتى وهي تضحك له. . . ويقف بين يديها وهو مكتظٌّ بالأشواق إليها، وهي تبدو أميرة تاريخ وجدانه. . لا يقدر تمرُّده أن يقاومها إن حاول . . . تصادر كل طقوسه ورياحه!

الحوار معها: سَرْج مهرة... يغرقان في التفاصيل أحياناً، وتُخضِّبه ـ هي ـ حيناً آخر بنظرة تنتشي من ولهه المتّقد كشمعة العاشق المسهد.

تتعمد في التفاتاتها نحوه: اقتطاف آهته المكلومة.. فتحوّلها إلى أنفاس مغتبطة بوجودها.

وعاد يسكب لها خفقة كلمات في هذه الحوارات معها التي ما تكاد تلتئم حتى تنفلش.. همس لها:

ـ يا حُبِّي المر/ العذب: ما هو امتياز صداقة تطلبها امرأة من رجل؟!

كيف ينسكب الثلج في شرايين يدي حين تعانق يدك... من يضحك بارداً حينذاك، ومن يرتعش: يدك، أم يدي؟!

أكون صديقاً لك، فأبادر إلى عناقك لعودتك من السفر، تماماً كما يفعل الأصدقاء... فهل أنت لحظتها: مطفأة الأنوثة ورجل يعانقك؟!

ـ ترد عليه: لا... لا داعي للعناق، فقط نتصافح!

ـ يتوتر ويكظم.. فيقول لها: إذن... فأنت تخافين، وتهربين من ذلك الإحساس الذي تلحدينه في مسمى الصداقة!

بعد صمت قصير، وشرود بنظراتها إلى عمق عينيه.. تقول له:

ـ في فمي ماء.. وهل ينطق من كان في فيه ماء؟!.. إني أحمل لك مكانة لا يزاحمك فيها رجل.

اسمع... كل الذي أقدر أعمله، أني أسخر من «الأشياء المقيتة»، وأحياناً أتجاوز السخرية إلى حد «التهزيء» الواضح/ الضاحك... ها؟!.. والغريبة أنه: يمشي الحال، مع أن هذا الحال لا يتغيّر، فهل لديك الرغبة

الآن لأحكي لك عني بدلاً من أن تجري بي إلى ظنونك وتلميحاتك وتفسيراتك؟!

* قال: كلي آذان صاغية. . . إحكي.

ـ قالت: إحدى صديقاتي الحميمات جداً، وبعد موقف مع أحد «الأشياء المهمة» قالت لي مذهولة: أنا مندهشة. . كيف تحكين للناس كل شيء بصراحة متناهية، تجابهينهن في وجودهن وفي وجوههم ورغم ذلك ما يزعلوا منك. . مع أنه من الواضح جداً: أنهم فوجئوا بما قلتيه؟!

ـ فقلت لصديقتي: أنا أيضاً أستغرب هذا الأسلوب مني، يمكن يستخفوا بعقلي؟!

لكن. . . آه يا فارس، يا صديقي العزيز. . الله يعين اللي يفكر، طوب الأرض اشتكى، ولا أدري: لماذا يعتادني الآن صوت نازك الملائكة وهي تقول شعراً:

ـ «ونحن ما زلنا كما كنا

. . . . أولئك الحمقى

الليل يمضي ساخراً منا

والفجر يروي للدجى. . أنّا

نشرب ما نُسقى»!

اسمع ـ يا سيد الجميع ـ نصيحتي لك: لا تفكر. . لا تفكر في الحياة، ولا في الناس. . ولا حتى في حبي، أو حبك لي، ولكن. . . اسخر، اسخر، اسخر، قدر ما تستطيع. . هذا علاج مجرَّب!

* قال: هل هذا ترياقك في سأمك، وسخطك أحياناً على الخطأ، والماثل، والمدجَّن؟!

ـ قالت: اقنع نفسك ـ بالرغم من كل شيء ـ أن الدنيا حلوة، والناس لطاف... نحن لا بد أن نصلح أنفسنا علشان نرضى!

اسمع ـ مرة أخيرة ـ عندما تكتب لي.. أكاد أمسك المعاني الجميلة بيدي، وأمتزج بالمعاناة العميقة جداً.. فتبدو بكلماتك أكثر من رائع، وكلماتك تعبر عن أشياء أحسها وأكاد أراها «عياناً».

لا تغضب مني... فأنا أعرف أن الحياة مرة واحدة، كما قالوا، ولكني رغم ذلك أشعر أحياناً أنني «محتاسة» مع كل الذي صار يشكل حياتي.. لا أقدر أن أتفرغ لحبك لي «آناء الليل وأطراف النهار»!

تجلجل ضحكتها في أرجاء الغرفة.... وتهرب بعينيها العميقتين من نظراته، تبعثرهما على الجدار وسقف الغرفة!

* * *

* انتصبت قامتها أمامه في منتصف الصالون، وهي تمد يدها تودعه.. والليلة تخطو بساعاتها إلى ثمالة منتصفها الآخر.

وطوى سلالم البيت حتى أشرعت له بوابة الداخل، ويده تبحث عن كتفيها.

قاد عربته حين كان الليل في حشرجاته الأخيرة.. و «سارة» تحتل عينيه حتى وهو يغمضهما قليلاً.

هذه المرأة المكسوة بالتضاريس المجنونة. . . تركت له عبارتها الأخيرة في نقيع هذا الليل وهي توصد الباب خلفه:

ـ خذ وقتك. . استمتع، ترى الدنيا تركض!

هذه المرأة/ سارة. . يتصورها: كونتيسة كادحة في زمن حب المرايا، لعلها أرادت أن تحوله إلى «عاشق عصبي جداً»، وأحياناً إلى عاشق متعصب لها. . حتى ولو كان عدلها: مقصلة لحبه!

هي «أنثى» ذات بهاء ودلال ودساتير تملأ أنوثتها صلفاً للحظة غير تاريخية ولا عادلة لجمالها ولرقتها.

ـ قال لها فارس يوم التقاها من جديد: لا تنتظري. . إنني لن أستقيل من نصوص عشقي لك!

لكنه ـ أيضاً ـ لم يصر على فرض نفسه عليها عنوة بلا اقتدار، وقد حسب أن اقتداره عليها تجيزه له: استثنائية واحدة تحسها هي قبل الحكم بمعرفتها!

يخرج كل مرة من حواراتهما معاً. . وهو يؤكد لنفسه: أن هذه المرأة ذات مزاج انقلابي. . برغم يقينه أنها تشتاق له، وفي نفس الوقت تبادر إلى ممارسة «الحدّ منه» معها. . وتعرف أن الفراغ الذي يحدثه غيابه عن حياتها لن يملأه لها رجل آخر، لكنها امرأة ينطبق عليها وصف الشاعر الذي قال: هي «وطن لا يجيء . . وأسكن ـ بعدك ـ في لغة ليس فيها جدار»!

يسترجع في هذه الأصداء التي انثالت عليه بعد خروجه من بيتها؛ كل موقف رائع، وكل صورة جميلة توحداً داخلها. . وأيضاً: كل لحظات الشقاق

والتخلي عنه من قبلها. . . كأنه ما زال حتى الآن يبحث عن عينيها الأمان، فتتهاوى خفقة الوجد بين أضلعه، ويثور الجرح.

كانت هذه الأرض العريضة ذات مساء، ذات عمر. . هي حلم وحدتهما، وكان يلملم الأزهار باقة للنظرة الأولى بعينيها.

اليوم. . اختلفت «سارة»، واختلف كل شيء فيها.

صارت اندفاعتها إلى مراوحتها بين مشاغلها وهمومها الدنيوية والمادية: هي حياتها . . . لكن ذلك «المدى» من المشاعر العاطفية فيها: كأنه غاب واختفى وتغرّب بفعلها، وكأنها فرّغته تماماً من النجوى.

أراد في هذا المساء أن يغضبها لتفكر في شيء أودعته إرشيفها النفسي وقفلت عليه، بينما يرى هو في منتصف ليلها: فيضاً من الأشواق لنفسها يختلط بنظرة عينيها.

يفكر أحياناً وهو بعيد عنها، ويتساءل: هل سيصاب حبه لها بنكسة بعد كل هذا العمر، وبعد كل هذا الإصرار من قلبه عليها؟!

وهل هذه النكسة ـ إن حدثت ـ بينهما: عاطفية، أم عقلية؟!

فتح أذنه وجوارحه، منذ التقاها من جديد، على ضياع صوته الذي أخذته أمسياتهما القليلة المتباعدة ما بين الصمت والحصار. . كأنها ألقت بـ«فارس» في اليم الهائج والبحر يغرقه، وقد حولته إلى مجرد ثرثرة مملة في لياليها، أو أوحت إليه بأنه صار شخصاً مملاً لها يطاردها.

ويسأله هذا الصمت والحصار؛ كيف تهون الأيام الأجمل؟!

يبدو حصار الصوت كالموت. . . غريباً هو لديها رغم القرب.

يعرف «فارس» أن «سارة» في يوم ما قررت أنها ستتغير، وقد تغيّرت بالفعل. . . ويعرف إرادتها، وهي موضع تقديره، لذلك. . . قال لنفسه:

ـ من الهباء أن أطرد وراء سراب. . . أو هكذا تصرّ سارة!!

* * *

الفصل الثاني عشر

انفلونزا أمريكية استعمارية!

* المساء من حوله يتنفس رتيباً.. مسترخٍ هو في لغة الكون.

يسترجع «آخر لحظة» من لقاء البارحة، ودّعته فيها وهي تمنحه عناق المسافر المتخلف عن رحلة الهناء إليها.

قرر أن لا يثقل عليها أكثر، بعد أن تطلب السؤال في عينيه وهو يحدق فيها، لكنه يحتاجها حقاً في ما تبقى من عمره، وهي أهم غرسة حب في هذا العمر، وأجمل أنغامه.. هي المرأة التي حملت ذخائرها كلها: أنفاسها، ونبضها، وخفقها.. وقذفت بهم في البحر حتى إشعار آخر!

الآن... لديها أولويات لا بد أن تنهيها، وكان يمازحها قبل ليال عبر الهاتف، فقال لها:

ـ بخ.. بخ لصلابة الإرادة عندك التي استطعت بها «تأجيل» عواطفك، أو ربما إعادة برمجتها وتوجيهها بالريموت لشاطىء آخر... فاخبريني لأكف عن مزيد من سفح عواطفي!

* أجابته: الحب الذي أشعر به هو «إحساس مرة لن تتكرر».. أنا أمنع

نفسي عنه، وعنك. . . الحب هذه الأيام ينزل من قيمة المشاعر التي تحوطه!

ـ قال: ما هو الحب؟!. . كيف يقتنع رجل بعواطف امرأة تقول: إنه ليس الرجل الذي يمكن أن يدخل قلبها لأنها ـ فقط ـ تخاف من الحب؟!. . بقية المشاعر: ما هو اسمها، ما هو تعريفها. . حب أيضاً. . . كيف؟!

* قالت: تفكيري. . أن الحب مقرون بالرغبة!

ـ قال: وإذا كان. . فهل الرغبة جريمة؟!. . الرغبة فسيولوجية وليست نفسية، العاطفة: نفسية. . ممكن لرجل أن يحب امرأة ولا يطلب منها تنفيذ الرغبة، ولكن. . . مجرد أن تقول له: أنت لست الرجل الذي يمكن أن يحتل قلبي، ينتفي الحب.

* قالت: أنا لا أفكر في لحظة يمكن أن يحبني فيها رجل. . . ما أشعر به هو أعمق من الحب، لذلك. . . . أخاف!

هكذا ضرَّجته «سارة» بسيف واقعها، أو . . . . تغيرها، وهو ينزف الشوق لها وهي أمامه، وصدرها بعيد عنه كأنه عطش السنين!

وحدها. . تُشكّل مدّه العاطفي، وتصنع جذره في داخله: حروب ردة على الحب والفرح في نفسه.

عندما تنفيه عنها. . يصرخ داخله فيه: كيف تهربني حبيبتي إلى مدارات المنافقين: وليس في الحب نفاقاً ولا خديعة؟!

لم ينم. . بقي متضامناً مع مناخ «سارة» الكلثومي في الليلة السابقة، يهمس: «سهران لوحدي». . يحاول أن يقرأ تلطمه عبارة من كتاب جديد يقرأه: (هل نحلم إلا بما كان لدينا. . . ثم أضعناه)؟!

يريد أن يحبها أكثر، برغم محاولاتها: نسف العاشق لها في قلبه.. هي المرأة التي لا ينبغي أن يكف الحب عنها.. في حياته تشكل كل الدروب والأصوات في مسيرته، وتصحح كل الأفعال والأسماء.

وهو الرجل.. كرستالها الذي يطلب منها أن تشعله وتطفئه وتكسره.. طاقته الإنسانية من تفاصيل أنوثتها، ومن قاموس فكرها، ومن نهرها.

هما ـ معاً ـ صارا يحلمان بالأمان في عصر يتفجر بالإرهاب، وبالخوف، وبغياب الحكماء والمصلحين، جنباً إلى جنب مع تفجر المعلومة والاتصالات... وفي حلمهما هذا يريد كل منهما أن يطمئن على جيل أتى به من الأبناء والبنات، ولا بد أن لا يدعه يفرّط في قيم رائعة حفظتهما من التعدّي على هذه القيم!

هما ـ معاً ـ تحدثا مراراً عن ضرورة التعامل مع هذا الخوف.. بما يواجهانه ويتفوقان عليه، ولكن.... كيف؟!

تلك كانت أسباب دموعهما التي تتسلل أحياناً عندما يشتعل الحوار بينهما عن واقع هذا الجيل الجديد، وعن ما يواجهانه في هذا الواقع، واندلاع قلقهما.. حتى يكادا أن ينسيا لحظة الحب بينهما!

يقفز إلى الهاتف ويطلبها، مفتتحاً حديثاً جديداً بسؤال:

* ماذا تفعلين.. أو ... ماذا ترتكبين؟!

ـ علت ضحكتها وهي تقول: صدقت.. إنه ارتكاب حقيقي، فأنا أتفرج على التلفاز كما تسميه!

* قال: حسناً... وماذا يرسل؟!

ـ قالت: بل ما الذي صرت أرسله أنا؟!

* قال: نعم. . . خبريني.

ـ قالت: هل تعلم. . أن الناس من إدمانهم على مشاهدة التلفاز: انسطلوا؟! . . . أو أن الفرجة على التلفاز تؤدي إلى «الانسطال». . . هل صحيح التصريف للكلمة؟!

* قال: لا عليك من التصريف. . . نحن في هذا التلفاز نُقعنا.

ـ قالت: قناة من هذا الزحام. . أوردت خيراً عن الانفلونزا الأمريكية. . . . .

* قاطعها: لحظة. . لحظة، حتى الانفلونزا صارت أمريكية، أو هناك انفلونزا صدرتها أميركا «تريد مارك»؟!

ـ قالت: لا تقاطعني. . . انفلونزا أميركية استعمرتني، والليلة سمعت عنها في التلفاز.

* قال: قلتِ استعمرَتْكِ؟!

ـ قالت: نعم يا مثقف. . . صار لي من سنين ما مرضت، والانفلونزا الأميركية: مرض غريب، وحاقد. . وأنا منرفزة، كل جسمي يوجعني!

* قال: طبعاً. . . ما دام أنها انفلونزا من تصدير العم سام. . لا بد أن تكون مرضاً حاقداً، لأنها مصدَّرة للعالم العربي،

ـ قالت: أبعدنا عن السياسة. . تعرف أنك وحشتني؟

* قال: الله . . . وحَشْتِك لزوم العدوى، والا وحشتك بجد؟!

ـ قالت: إيه أخبار النتن ياهو. . باني المستعمرات وهادم البيوتات؟!

* قال: أنت مريضة بأنفلونزا صناعة أميركية.. فأبعدي من فضلك عن اكتئاب: صناعة صهيونية... لا جديد، لا فائدة، لا أمل!

ـ قالت: كم الساعة الآن؟!

* قال: يتوقف الزمن عندما ألتقيك وجهاً أو صوتاً.

* * *

* ركد «فارس» بعد هذه المحادثة الهاتفية مع «سارة».. انبطح أرضاً على وجهه، ورفع ساقيه إلى الخلف كطفل يكتب واجبه المدرسي ويغني: «يا قمرنا يا مليح.. شد حصانك واستريح»!

أمامه كتاب لا يريد أن يكتمل بالقراءة.. استوقفته فيه عبارة زلزالية:

ـ (أنا نتاج مجتمع قمعي، وممارسة الحرية بكل أهوائها تحتاج إلى تقاليد أجيال تنعم بها... تقاليد موروثة)!

طوّح بالكتاب إلى منتصف الغرفة.. وارتفع صوته يدندن: «مش قلتلك»؟!

كأنه الآن يحاول ـ عبثاً ـ استنطاق شيء، حتى ولو كانت (عربة) التاريخ في زمن الصاروخ.

تُرى ... هل هو متأمل الآن، أم متكأكىء.. يرفض أي استنطاق من داخله؟!

فجأة.. قهقه كمجنون في الربع الخالي وحده.

حدق في ظلال ضوء تسلل إلى غرفته من خارجها.. حدّق أكثر حتى

تجسد له وجه «سارة» أمامه. . يريد أن يستبقي هذا الوجه تحت جفنيه. . يستبقي عينيها الرائعتين اللامعتين بكبرياء عمقهما.

توحَّد مع تحديقه، وبالأصداء، ومع نمنمات ظلال الليل. . . حتى فجّره سؤال من داخله:

ـ لماذا لا أبكي. . . لماذا الناس لا يبكون بقدر ما يكظمون الألم؟!

كأنه الآن يقرأ «سارة»، فيعرفها أكثر من معرفتها لنفسها. . لكنه افتقد فيها تلك المرأة الأنثى، الناضجة، المفكرة، الحبيبة القريبة. . . فهي في رضاها النفسي تجعل منه شهرياراً. . وهي في شتاتها تتحول إلى لا مبالية حتى تشعره أنه يركض في اتجاهاتها المتصادمة.

يتجمَّع في استحضارها تخيلاً كأنه يسافر إليها، والخطوة ما بين قرطها وكتفها: عُمْر أنفاسه!

في مائه وظله: ميناء يعاني من ثورة الغناء لها. . وما زال يحبها، وهي تعود إليه هذه المرة: برقاً، وخطى مغتربة، وباباً مزلاجه من الفرار. . وما زال يحبها ويرسل مع همسته إليها قسمه:

ـ أنت لن تكوني منافيَّ. . وأكره أن أستقر في شعورك: سجناً أو سجاناً حتى لظلك. . . أجيء إليك، أفاجئك كالنشيد. . فلا تجعليني قرصاناً من غيم وسحاب!

خطواته التي اندفعت نحوها لمرة واحدة فقط، كانت منذ ربع قرن. . تكاثرت ـ جيئة وذهاباً ـ تواصلاً وفراقاً. . وتكاثراً ـ هما ـ خلالها: أولاداً، وهموماً، ومواقف وتجارب، ونزقاً وتمرداً. . وكان الأهم: أن أحدهما لم يندم على ما مشاه، ولا حتى على ما ارتكبه وقد كان في حينه: رغبة لهما

ومتعة واستقلالاً، ودفئاً عاطفياً شديد الحميمية... وما زالت في جوانحه، لها هتفة حياة تخصها وحدها، وفي صدره: وشم من ملامحها لا يبهت.

شاركها مراحل نضوجها منذ عرفته وهي فتاة ناهدة نحو الحياة تقفز إلى السابعة عشرة.

هدهدها يومها.. احتوى افتراضاتها.. تشاركا معاً في ابتكار لحظات جنون وجدانية عبقرية.

جذبته إليها وفيها ميزة رائعة.. هي: هذا التفرد الملحوظ في شخصيتها الذي يختلف عن أية فتاة كانت في ذلك العمر... حتى اختلط فيها التفرد بالتمرد وهي تكبر بنضوجها ووعيها.

وصبر على ألوان تمردها، واختفائها وظهورها... لكنها أبقته في حياتها مثل: سدوم، وعمورية، وسد مأرب، والسد العالي، وبرج إيفل، وتمثال الحرية... في الغالب: جعلته سداً، وفي بعض الأحيان تعاملت معه كبرج، وتمثال شمع!

أحبها حتى الوله.. لا، بل كان يتنفسها، أو يتنفس بوجودها في حياته.

حاول أن يتمرد على سلطانها وصولجانها، وأحياناً على ديكتاتوريتها عليه... ومرة أسكتها وهي تزأر عليه، وقال لها مبتسماً:

ـ قرأت لك عبارة لكاتب مسرحي عربي هو محمد الماغوط.. اسمعيها: «الحرب لا تبكيني... أغنية صغيرة قد تبكيني»!.. أنت هذه الأغنية الصغيرة، الجميلة، الدافئة الشجية التي تنفيني وتعيدني للوطن.. كأنّ وجودك في وجودي هو معمار حياتي.

حاول أن يقتني همستها ولا يصادرها. . . وكان أمامها لا يقف على قدميه، بل على أطراف قلبه وأضلعه، وأطراف رموشه، ويعترف. . . يعترف: أنه لن يستطيع العودة من عندها إلى مكان آخر حتى لو كان الجنة!

الآن. . . يستعيد هذه الأصداء، ولا يدري: هل يرتاح بها، أم يزداد احتراقاً وعذاباً؟!

هو هذا البحار الذي اكتشفها مرة واحدة، وتمنى أن لا تغرقه في بحارها.

إنها هذه المُطْلَقة في شذا عمره وخصوبته.. بدونها وفي غيابها: يتكسر زمانه، يصير عمره جافاً. . . بلا طفولة، بلا شباب، بلا حلم. . . وتضطره أن يختفي من أمامها ومن سمعها بعض الوقت حتى تفيض الأشواق، وتعلو «ونّة» القلب.

لقد سقط في ليالي معاناة جديدة في مقاطعة صوتها لسمعه.. اختفت من جديد، وكأنه يجلد قلبه بإصراره على مواجهة صمتها بصمته!

* * *

الفصل الثالث عشر

اللحظة التي تبكينا!

* في طول ذلك الزمان الممل بدونها، في رحلتها الطويلة عن سمعه وعينيه، كان «فارس» يعاني من الحصار، و. . . . يشتهي صوتها، فيجسد التفاتات «سارة» في فراغ لياليه منها، فما تلبث الليالي أن تمرع بأصدائها.

كان في حالة رجل مطارد قال: (أشعر أن الصدق تجارة خاسرة). . فركض متموّهاً في سلسلة أكاذيب من العواطف العابرة، ومن اغتصاب اللحظة، ومن تفاهة الوقت.

كأنها أسقطته من حياتها للأبد. . وهي تقسو بالغياب، وهو يحرقه الانتظار المؤمل.

تعب أن يفعل وظيفة «المرايا». . تنعكس على صفحته كل الأشياء، لكنه يطمع أن يكون مرآة «سارة» وحدها. . لا يستقبل على مرآته سوى وجهها وابتسامتها، وصوتها وهمستها.

وها هو ـ وحده الآن ـ يعيش ولا يحيا في هذا العالم الذي يشيخ وهو يمرض بعلله.

فجأة. . . يعصف به الصمت، يُدخله في أصداء من حواراتهما معاً.

كانت تقتحمه بين فترة وأخرى بسؤالها المعاد:

ـ «أنت صحيح بتحبّني»؟!

وفي كل مرة تطرح عليه هذا السؤال. . كان يشعر أنه عاجز عن الإجابة، يريد أن (يصدع) بإجابة دقيقة تصدقها للأبد. . فإن قال لها: «والله أحبك» فإن هذا التأكيد بالقسم يبدو أقل من قيمتها ومساحتها في نفسه، ومن حبه لها.

وفي كل مرة. . يهم بالإجابة، فيقول لها:

ـ والله. . . . .

ـ تقاطعه قائلة: «عارفة ... بتحبني، بس مين قال لك احلف»؟!

تعب أيضاً من التفكير فيها، وفي كل ما مضى وكان ... ومن توقعات القادم الذي يرجوه: أحلى!

هذه المرة. . يشتاق إليها ليس كمثل الأشواق التي سلفت. . . اشتياقه: قلقاً وخوفاً عليها، فهي تلملم أفكاراً وتوجسات من المجهول القادم. . فلا أحد يعرف في تلاحق الأحداث من حولنا، وفي ألاعيب خلط الأوراق: ماذا يحدث غداً. . من يقفز، ومن يسقط .. من يكسب وما الذي يكسبه، ومن يخسر وما حجم خسارته؟!

العالم من حولنا يخضع للعبة الأمم -كما فسر مؤلف ذلك الكتاب الشهير ـ لكنَّ اللعبة اليوم لم تعد بين يدي: فرسان وزعماء بمعنى حصافة القيادة للعالم ومصالحه. . . اللعبة تتفق وقذارة الأطماع الاستعمارية في إطار

ما أطلقوا عليه بعد تقويض الاتحاد السوفيتي السابق: النظام العالمي الجديد.

حدّثته «سارة» ذات ليلة عن مثل هذه المخاوف التي تنال من مصير أبنائنا والجيل الصاعد... وهما يعيشان في صهد هذه المعاناة داخل كرة أرضية تغلي بالمتغيرات التي تأتي أحياناً، وفي جوانب من العالم على شكل: إنكفاء!

فراغ موحش يلف «فارس»... لم تستطع حتى الموسيقى أن تخفف من صفيره في النفس، ولا حتى صوت فيروز الذي يبلسم جراح النفس.

أسئلته الممغنطة بالقلق: تترجل هذه اللحظة، وحيرته تتخذ شكل الحياة والأحياء في طبائعهما... وكان يقول لـ «سارة» وهي تبدي له قلقها ومخاوفها:

ـ دعي قلقنا يكون هو الشذوذ عن القاعدة التي يقف عليها الناس اليوم.. أقصد قاعدة اللامبالاة، والانشغال بالهموم بالذاتية حتى النخاع!

لقد اختفى «الفارس»، و «الجنتلمان»، والقدوة، والمصلح، والقائد الملهم من هذا الزمان... إنه زمن الكلام، أكثر ما يكون حفاوة بقصص و«حواديت» الآخرين، وأقل ما يكون: تتبعاً للمسائل المعاشة والمعاشية الملاصقة للحياة اليومية.. بما في ذلك: أسعار الفواكه والخضار، و....... فوط «أولوز» التي يُعلن عنها في التلفاز والصحف بلا حياء.. وبما في ذلك أيضاً: ارتفاع قيمة استهلاك الكهرباء والماء والبنزين، وقطع غيار السيارات في جنون حوادثها وموت الشباب بها.

أنت، وهو، وهي، ونحن... في حاجة ـ جميعاً ـ إلى شيء مهم جداً في عصر الثرثرة هذا: أن ننصت قليلاً لنسمع الناس.. على الأقل: لنُقنع

أنفسنا أن هناك إنساناً واحداً استطاع أن يصمت بعض الوقت، ولم يعانِ من الإرهاق!

كثُر كلام الناس (اللي ما يودّي ولا يجيب). . . القائم في الغالب على الشائعات المضخّمة في محاولة للتوصل إلى الحقيقة المحددة. . وعلى التوقُّع، أو «التصور». أو الافتراض، ثم. . . . لا نجد ولا جزءاً من الحقيقة في ذلك التوقع، أو التصور، أو الافتراض!

* إنها أحاديث تتناثر كلما ضم مجلس مجموعة من الأصدقاء، أو الزملاء!

* * *

* ما زال «فارس» في الشوق الدافئ لها يبحث عن وجوده في داخلها وهو يرسخه ـ بحبه لها ـ وجودها في داخله.

جعلت منه: رجلاً، هَرِماً، أشيب القلب. . لم يكن يدري أنها جعلت الساعات معه، عداً تنازلياً للشفاء من حبها القديم، لتختار بعد ذلك وجهاً جديداً لقلبها!

هي ـ وحدها ـ التي أخبرت الغربة عن جنون بها، حين صار اشتياقها القديم العاشق، في ساعات خاطفة مزاجية، يذيب ثلوج استرخاءتها معه!

هكذا تفاجئه في أيام تواجدها بمدينتهما. . تطلبه عبر الهاتف لتقول له:

ـ أفرغ وقتك من كل التزام، و. . . . تعال!

تجعل من اللقاء دائماً وفي كل مرة تجدده: فرصة عمره التي تبدو

وكأنها لن تتكرر، وعليه أن يركض إليها، ويقتنص هذه الفرصة.. فربما لن تدعه يراها بعد ذلك!

وفي كل مرة يخرج من ليلتها / الفرصة.. يسأل نفسه:

ـ ولماذا ألبي دعوتها وكأنها «العشاء الأخير».. لماذا لا أعتذر مرة واحدة، أقول لها: لأ... حتى تكتشف هي: أن هناك من هو قادر على مواجهتها بهذه الكلمة: لأ؟!

لكنه لا يقدر... ألم تجعل من كل دعوة تدعوه فيها إلى لقائها: فرصة ذهبية.. بعد أن تُباعد بين زمن اللقاء والذي يليه أو ما قبله؟!

تحرص «سارة» أن يكون هذا الـ «فارس» في أيامها الجديدة هذه: مجرد صدفة، وليس واقعاً راسخاً في حياتها كما كان في أيام خوالي، لم يكونا يفترقان إلاّ تحت قرص الشمس فقط، وتتلألأ همساتهما تحت ضحكات القمر، وفي ظلال الأمسيات الندية بحوارهما الفياض بالشجون!

هكذا وجد نفسه في حياتها اليوم: لقاء الصُّدْفة، والوقت المستقطع في أيامها الرتيبة التي تحفل بتوجهها الذي نمَّتْه في داخلها منذ أكثر من خمس سنوات لتكون «امرأة أعمال»، رئيس مجلس إدارة عدة شركات.. تقابل العملاء، والمندوبين، والوكلاء، والمحامين... وقد بدت مهنتها الجديدة كظاهرة قامت قبل عشر سنوات، ولكنها كانت «ظاهرة» تنتشر على استحياء، وقيل يومها:

ـ مجتمع مبرقع، أو محجَّب.. وصممت المرأة فيه أن تمارس «البزنس»، ولم يكن مدهشاً أن ينجح بعضهن في تجارتهن ويقمن شركات ضخمة.. تكون أكثر تنفساً في الاجتماعات والصفقات خارج حدود الوطن.

لقد اقتحمت «سارة» هذا المجال منذ كشر حظها كزوجة عن أنيابه لها، وفشلت حياتها الزوجية. . ولم تكن راغبة في تكرار التجربة في عبوديتها كزوجة لرجل يتسلط عليها.

إنها امرأة تتمتع بميزتين غنيتين في صفاتها ولا بد أن تستثمرهما: ميزة الذكاء الفطري، أو ربما كان ذكاء مورّثاً. . وميزة الثقافة التي تعبَّأت بها خلال دراستها خارج وطنها، ومن الكتب الزخم التي عكفت على قراءتها بكل ما يتطامن فيها من عشق للمعرفة.

ولعلها شعرت بشيء من المعاناة في بدء اقتحامها لمجالات «البزنس» والعمل التجاري، مما أثَّر على الجانب العاطفي أو الرومانسي في شخصيتها العاشقة للقراءة، وللمعرفة. . . ولكنَّ قدرتها على ارتداء الصرامة أحياناً، أضافت إلى شخصيتها: ذلك التمكن المذهل فيها من الحسم حتى مع عواطفها!

لذلك. . . بادرت «فارس» في أول اللقاء الذي جَّددته في معرفتها له، فقالت له:

ـ أرجوك. . . اعتبرني الآن لا أكثر من ذكرى جميلة في حياتك!

* يومها. . سألها: يعني رجاؤك هذا. . أن أنسحب من حياتك للأبد؟!

ـ قالت كأنها تستدرك ولكن بحذر، لا. . . لم أطالبك بالانسحاب، بل ما رأيك لو نبقى معاً في إطار الصداقة؟!

* سألها: هل تعتقدين ببناء صداقة على أنقاض العشق؟!

ـ أجابته: كانت تجربة بيننا. . . فلْنخُض هذه التجربة الجديدة.

* قال: أنت تتعاملين مع «الحب» في حياتك على أنه مجرد تجربة.. أما في حياتي، فالحب: معاناة، وحياة، وصهر، وقيمة... التجربة في تعاملك معها: لا أكثر من عبور من شاطئ إلى آخر.. أما التجربة في تعاملي معها، فهي: اكتشاف، وحلم، وأشواق، وعطاء.

ذلك هو الفرق بينها وبينه.. منذ تعاملت معه في اطلالتها الجديدة عليه فاعتبرته: مجرد صُدْفة، ووقت مستقطع من وقتها الأصلي والأساسي الذي حظرت عليه دخوله... بينما بقيت قيمتها في نفسه راسخة باقية من ذلك الزمان القديم الأجمل الذي جعل نفسه فيه: صَدَفة لها.. خبّأها في عمقه كالسر، كالأماني الحميمة، كاللؤلؤة... وكلما ضربته أمواج الحياة وهي ثابتة في جوانحه، يجد قلبه بوجودها فيه: قيمة، وضوءاً، وذاكرة للعمر!

معها... كان يشعر بالخوف كله، وبالأمان إلى ما لا نهاية.. وكانت ـ أحياناً ـ تصر أن تفهم منه ما لا يقصده، ويعذرها.. لأنه يحبها، ولأن معاناتهما واحدة!

وتدخله أحياناً في حيرة تعصف به.. فلا يكاد يبين الحب فيها من التسلية، أو الوقت المستقطع.

وتعتاده أصداء من حواراتهما معاً... ويتوقف عند سؤال طرحه عليها في مساء وداعي طلبت منه فيه: أن يخرج من حياتها. فلا وقت لديها للعواطف!

كانت متوترة، وتبدو أكثر إحباطاً.. فسألها:

ـ هل تخشين مني إلى هذه الدرجة؟!

* أجابت: إن كنت أخشاك، فلمن أطمئن؟! سنوات طويلة عشت الأمان

معك. . ملكتك نفسي لأني أعرف صونك لها، وأرجوك من فضلك، لا تقل: إني أستخدم ذكائي معك. . الإنسان يستخدم ذكاءه مع من يتوقع منه الأذى!

ـ قال لها: ما كنت يوماً معك إلا بصدقي.

* قالت: أنت قلت عني قبل أن ترحل بنا الأيام الأولى في الغياب: أنت واثقة إلى حد التصرف. . . نعم وثقت فيك وفي نفسي، ولكني الآن تغيَّرت، لست تلك المرأة التي عرفتها في بدء إطلالة كل منا على الآخر. . . ألا تشعر أحياناً أننا كبرنا، ففيم انتظارك للحب يا صديقي؟!!

قهقه فارس ونظراته تطوف بوجهها . . حتى فاجأته دمعة كانت تترقرق في عينيه، بادر إلى مسحها بسرعة حتى لا تلحظها «سارة»، وكأنّ الدمعة لم تكن ترغب أن تكف. . . وفي صمته ردّد عبارة جذبته أثناء قراءته قبل ليلة، فهمس:

ـ «اللحظة التي نبكي فيها أمام الروعة. . اعتراف بأن كل حياتنا السابقة كانت صحراء.

هكذا يبدأ الجمال بأن يبكينا تأثراً به، وينتهي بأن يبكينا حسرة على راحة بالنا قبل أن نعرفه»!!

* * *

الفصل الرابع عشر

القرفانة!

* من أعماق صوتها الذي افتتح انتباهة سمعه.. أبصر لها ملامح رسمها خياله عن: ذلك السباق المميز في داخلها بين عقلها وعاطفتها... ومن منهما لا ينتصر على الآخر، بل يتواءمان ويتكاملان؟!

هي «امرأة» ـ إذن ـ تصر على تأكيد حق قيمتها كإنسان في شريان مجتمعها الذي علَّم المرأة، وأدخلها الجامعة ليعزلها بعد ذلك في وظائف محددة بأعمال البيت اليومية!

وهذا الإصرار.. دفعها إلى جولات من النداء على رجل يثق في نفسه أولاً، ولا يوظف حماس الكلام وحده لإرضاء مضمونها الذي صمم أن يستحوذ عليه!

مضمونها.. يتشكل من: إنسانة مُتعبة بنضجها، في سطحية الكثير من شرائح مجتمعها المخملي.

وتعبها هذا يطرد خلف أفكارها، وتأملاتها، ورؤيتها، ورؤاها... يجلدهم تارة، ويحثهم تارة أخرى.

* في ثمالة ليل سهَّدها فيه: القرف، والوحدة. . سألت (سارة) نفسها بشجاعة ومباشرة:

ـ تُرى. . . لماذا لم أفكر في «احتياجي» كأنثى لرجل؟!

نعم. . . أرفض أن يطلق عليّ رجل صفة «أنثى» بتحديده الذكوري لمطلبه مني. . . لكني في وحدتي، وحميمية لحظاتي، أحس أن «أنوثتي» تطغى، وتنغل في عمقي كالحمم. . وأصير لحظتها مجرد «أنثى» تفتش عن دفء رجل تحبه حتى الثمالة!

تُرى. . هل رمتني الشيخوخة بدائها في سن مبكرة؟!

تشكيلها الإنساني. . يبلور تجربة عميقة في العمر، لأنثى داخل سياج، كانوا يسمونه في بدء عصرها: «عش» الزوجية. . ولم يجد في جنبات هذا العش: الأمان، ولا الحنان، ولا الفهم. . بل كانت تبحث في ذات مَنْ (عيّنه) أهلها زوجاً لها: عن ذلك التوحد العاطفي، والتكامل الإنساني. . سنوات طويلة، حتى تمردت أخيراً على «العش» الذي تحول إلى قيد، وعلى «التعيين» الذي أثمر للشركة: أولاداً، وبدد الحب والألفة: الأكثر عمقاً في هذه الرابطة الإنسانية!

واليوم. . . تُحس أنها صارت قاسية!

فهل كانت في الوقت الماضي: قاسية بطبيعتها!!

أم أن القسوة جاءت مخاضاً لكل هذه المعايشات لواقع بليد ومرهق، ومحاصر بتهمة العيب دائماً؟!

لم يعد هناك في حياتها اليومية، ولا في حياة من تعرفهم، ومن لا تعرفهم من مجتمعها . . ما هو: جديد، ولا مثير، ولا متطور، ولا

مفرح... لم يعد «الحلم» غفوة بعض يومها، ولا التخيل الماتع للغد بعض ليلها.

حتى أنها فزعت من حقيقة جديدة في حياتها تقول:

ـ لقد انحسر عن حياتها الصديقات.. لم يعد لها إلا صديقة أو على الأكثر: صديقتان!!

صار لها برنامج يومي بليد، وسمج جداً... منذ أن تصحو من نومها قبل منتصف النهار بساعة، أو ذلك الحين.. وحتى منتصف الليل بساعات.

الجديد في حياتها قد انحصر تماماً في «الكتاب».. صارت مدمنة قراءة.

عافت مجتمعها المخملي، وحفلات السهر، واستعراض أحدث الأزياء.. وصرعات الموضة، والنميمة في الأخريات، والغمز بحكايات خاصة عن بعضهن... ولكل امرأة حكاية خاصة قد تقولها لأقرب صديقة إليها، وقد تحبسها في صدرها خوفاً من اللوك، والولغ في تفاصيل من الخيال!

❊ ❊ ❊

❊ ولكن..... يبقى في حياتها حتى الآن: ذلك الرجل الذي دخلت حياته مع انتباهة سمعه لصوتها.

وصوتها كما وصفه هو لها: يوحي بدلالات، وينضج، ويحزن الأسئلة.. متمازجاً هذا الإيحاء مع فيض الصوت الآخر لها، هذا الذي يسكب دفء «أنوثة» محفوظة بحرص في خزانة العمر التي لم تسمح لأحد أن يقترب من رتاجها... وإن كانت قد سمعت طَرْقاً متلاحقاً على بوابة أنوثتها،

وما زالت تسمع. . . وهي تكتفي بالإصغاء لهذا الطَّرْق، وكل غطاء أنوثتها جعلته ينساب من ابتسامتها. . ومَنْ اصطفته: منحته ضحكتها المتماوجة كبحر يستقبل سطحه شروق الشمس!

وتحنُّ إلى صوت هذا الرجل (فارس)، وتهم بالقيام حيث الهاتف لتطلبه، ولتسمع صوته، و. . . . ربما لتدعوه إلى لقاء ينتشلها ـ على الأقل! ـ من هذا القرف، والملل، وفساد الحلم، وابنطاح الحياة في إحساسها!

إنها تبتسم الآن في هذه اللحظة التي تسترجع فيها أصداء صوته، وهو يهمس في أذنها يوم اللقاء الأول بينهما:

ـ أشعر أنك «الخطر» القادم إلى حياتي.

أراك تتسللين إلى عاطفتي ولا تقتحمينها. . «تتخشخشين» حتى في حزني، وتمنحيني ضحكة التفاؤل.

تعاطفت مع «تجربته» التي أرهقه على امتدادها: الالتزام المضني والثابت عليه.

اقتربت من «فكرته» التي تراوده. . مع إيحاءات صوتها إليه بفكرة جديدة.

* وتسأل نفسها الآن في وحدتها، وقرفها. . وفي غياب صوته عن سمعها:

ـ هل أردت أن أستحوذ على العاطفة، والحزن، والتجربة، والفكرة. . بابتسامتي، وبضحكتي/ التفاؤل ـ كما كان يصفها ـ وبإصراري في ندائي على رجل. . أجد في سمعه، وفي احتواء نظرته لعمق عيني: ذلك الفهم المكمِّل لرؤيتي، وذلك الدفء الذي تفتقر إليه حياتي وحياته معاً؟!

تشعر الآن أن همومها لم تعد تنحصر في وجود رجل أو في غيابه!

لقد شكلت حياتها على نمط من استقلال الشخصية.. ولا بأس أن تعاني من الوحدة، ومن الصمت، ومن الصقيع.

لكنَّ «القرف» الذي يغمرها.. لم يكن بسبب افتقادها للرجل.

«القرف» أكبر من ذلك، وأعمق... إنه ينبع من هذا التفريغ لعقول الناس.. ومن هذا التمدد الأفقي والرأسي للغرض، أو حصر الحياة في الغرض، والرغبة، والأنا.. ومن هذا الصمت الذي يسود أرجاء بيتها وحدها... ومن تفاهة الكثير من الممارسات!!

آهٍ «القرف» ... من تشويه معاني الحياة، وارتكاب «الأخلاق» كعقاب!

* * *

* لكنها ـ رغم كل ما تحسه من قرف ـ لم تكن فقيرة من الدفء.

لقد رأت نفسها مرة في ذات «رجل».. جذاب بمعانيه، وبشخصيته القوية.. كأنها سحر لها، وبأفكاره التي يستنهض بها طبيعة تطور الحياة!

فرحت بتقديره لقيمة الإنسان... وقد جرحه ذلك الاستنهاض في مراحل تجارب عمره، دون أن يركع إصراره في داخله.. دون أن يعطي حدبه وسعيه على درب اختطه ليحقق تلك المعادلة الصعبة والرائعة... بين الحياة ولو كانت بالموت، والموت في تفاهة الحياة!!

تلك ملامح «رجل»... سرقتها فجأة من تأملاتها، ووحدتها.. واقتحمت بوابتها بشكيمة الرجولة.

لكنها. . . . ما زالت تشعر بهذا «القرف» يفيض من نفسيتها، ومن حولها.

وكأنها. . . . عادت مجرد «أنثى» تشبه الأخريات. . تفتش عن دفء الرجل من خلال لحظات تفريغ الرغبة، وتفريغ هموم الحياة، ولقسوة الزمان.

وتسمى هذه اللحظات: (الاحتواء) من الرجل لضعفها، ولحنانها الذي يشع من صدرها بلا حدود لمن تحب. . رغم شعورها في هذا (القرف) بأنها صارت: قاسية، وربما عنيفة أحياناً في ردودها. . وربما «باردة» كثيراً في تلقيها للعواطف، وفي منحها للآخرين.

❊ ❊ ❊

❊ حادثها «الرجل». . . هذا الذي تغرقه كثيراً في عمق بحارها المتلاطمة حتى لا يتنفس. . . والذي يطفو أحياناً على حفافي نفسها، كأنه يتحدى بحارها وغرقها!

فوجئت بصوته عبر الهاتف. . يقول لها:

ـ لماذا أنت مثل الدنيا: متقلبة؟!!

ولا ينتظر ردها. . بل يقفل الخط بينهما، وتنهض هي من مقعدها إلى غرفة ملابسها، تتهيأ للخروج. . . وكأن صوته كان مجرد «ورقة» بعثها إليها بتلك العبارة فبادرت إلى تمزيقها لتخلص تماماً!

وهو. . كان يخلد إلى التأمل كثيراً. . لعله يستوضح أعماقه عن بعض ذلك الاندفاع نحوها.

حاول كثيراً أن يبددها في غيوم نفسه.

حاول أن يجعلها: غيمة راحلة إلى البعيد.. هي القادمة من الأبعد.

طعنها يومها في قلبه.. بخوفه عليها ومنها.. فقاطع سمعه صوتها، وغاب بعيداً عن بحثها عنه.

جعلها في عمره: ذاكرة مفقودة.

وطفق يبحث في ذاكرته عن عشرات الملامح، والابتسامات، وسوامق الأنوثة، ودفئها!

لكنَّ الزمان من خارجه.. أعادها إلى سمعه في داخله برغبتها ذات مساء.

ـ أراد أن يقول لها: ماذا تريدين الآن؟!

كانت قد أعلنت صوتها على سمعه عبر الهاتف: مرهقة، وأنانية.. تدلع نفسها على حساب شظف وجدانها الذي سعرت به في تلك اللحظات الحميمية جداً بينها وبين «أنوثتها»!

وفي محادثة عودتها إلى سمعه.. خيل إليه أن صوتها يبترد في سمعه، أو ينسكب بارداً في الوقت الذي كان فيه يحس بكل حرائقها في الداخل.

كان يتملّكه شوق إلى استفزازها، حتى تستقر كلماته في معانيها، وحتى تعود النبرة المخبّاة تلك في صوتها الذي تحرص أن يشيع سمعه مرحاً، وانطلاقاً... نبرة حائرة يتمنى أن تهدأ، وتأمن في أحضان سمعه!

لكنَّ ذلك الابتراد ما لبث أن اشتعل في النظرة الأولى المباشرة بين عينيه وعينيها!

رآها ـ بحياتها ـ تقف على قرص الشمس في رابعة النهار. . . وأرادت منه أن يقف معها ـ في الحياة ـ على قرص الشمس لحظة الغروب!

لقد عبرت له عن احتياجها الآني له. . . وقد كان احتياج رغبة، واحتياج بوح. . . وهو دور مزدوج ومرهق للرجل، خاصة عندما (تفرضه) امرأة!!

ورآها ـ بجمالها ـ المبثوث في ضحكتها، وفي عمق عينيها الواسعتين، وفي سموق قامتها. . كأنها تمرجح عينيه، وتطوح برأسه في النظرة الأولى المباشرة له!

ولم يحسب أنها بتلك النظرة قصدت أن تثير التحدي في داخله، ولا أن تشهر في وجهه تحديها له بالدخول إلى جنون الخفقة المفاجيء!

لعلها أرادت أن تقيم جسراً سريعاً بين تفكيرها وتفكيره. . على الأقل في تلك اللحظة التي شهدت مولد النظرة الأولى المباشرة بعد سنوات الغياب، أو القطيعة، أو التناسي!

* ترى. . . ماذا تريد منه الآن؟!

ـ قالت له: لا أريد منك شيئاً مما تتلمظ عليه عندي، أو تطمح فيه!

أريدك حين أحتاجك فقط. . حين أشعر بعطش للحوار الدافئ مع رجل يبرع في الحوار!

* * *

* وماذا يريد هو منها بعد موجات القطيعة والوصال، والمدّ والجزر منها نحوه؟!

هل أصبحت ـ حقاً ـ كما وصفها أخيراً: مثل الدنيا... متقلبة، وباردة، مقرفة هي الأخرى في أكثر الأحيان؟!

وهل «القرف»... هو الدخول في التقلب؟!

لقد شعرت أن صوتها ـ بالفعل ـ قد ابترد في سمعه.

صرخت بين جدران غرفة نومها:

ـ أوف... قرف، حتى الحب: قرف!

رن جرس هاتفها، وترددت في الإجابة على ندائه.

رفعت السماعة.. وهي تسأل بحدة:

ـ مين يتكلم؟!

ـ قال بصوت مسموع في أذنيها: لا أنا أريد منك، ولا أنت تريدين مني شيئاً... لقد انتهى بيننا ذلك «الاحتياج» الشديد!

* قالت له بسخط: قرف... حتى أنت قرف، مقرف!

ـ قال: لعل العبارة الأدق وأنا أتجاوز شتيمتك... أن في داخل كل منا إرادة متحدة على شيء.. على حلم، على أمنية، على حوار يطول ولا يتقطع، ويتجذر ولا يقتلع.. على رغبة تنتهي بزوال الاحتياج الآني!

* * *

الفصل الخامس عشر

أجراس في حياتها!

* البارحة. . . افتتحت «سارة»/ مرحلة أخرى أعمق في حبه لها.

ربما تشابهت ساعات البارحة، قعدتها، وقتها. . . كتلك الليالي الخاصة جداً والمميزة التي يسميها «فارس»: الليالي «الأصنص» وهو في دفء حفاوتها به منذ بدأ سلامها الجديد معه!

البارحة. . . افتتحها بمزحة أراد أن يضحكها بها وهو يقول:

ـ يا خوفي أن يكون سلامك الجديد هذا مشابهاً لسلام الشرق الأوسط، أو لهذا السلام الذي تريد أميركا فرضه على العرب لعزة إسرائيل!

حدقت في وجهه، ولم ترد على تشبيهه.

ـ سألها: هل أغضبتك؟!. . لا أقصد بالطبع أنني أمثل أهلي العرب، وأنت. . . . . .

* قاطعته بغيط: طبعاً. . . ولا أنا إسرائيل يا فصيح.

ـ قال: نحن نمزح. . . ما الذي أغضبك؟!

* قالت في شبه شرود: لم أغضب منك.. لكنَّ تشبيهك مؤلم، على الأقل أعادني إلى هذا القولون العصبي اليومي الذي «يمغص» معدة العرب وأمنهم والمسمى «إسرائيل»... أتساءل: إلى متى ندور في ساقية هذه المقولة: «يبقى الحال على ما هو عليه»؟!.. وإلى متى نبقى ندور نحن العرب حول أنفسنا، ضعفاء، متخاذلين.. كلمة أميركية تودينا، وكلمة تجيبنا؟!

ـ قال: ظهر عليك الانفعال.. هل لاحظت نفسك أنت تخطبين؟!

ابتسامة باهتة رسمتها على شفتيها، وقالت بصوت واهن:

* يا فارس... تعبنا، وهناك من له مصلحة في هذا التعب، وبالذات من ربعنا العرب.

ـ قال: شيء طبيعي أن يفعل التشرذم بنا أكثر مما نعاني منه... فهل نحن جيل متشرذم؟!

* قالت: المشكلة لم تعد تنحصر في جيل واحد.. منذ الخمسينات، وربما قبلها، والحال يتطور إلى الأسوأ.. فالتشرذم فينا «عصر»، وليس «جيل».

تسللت يداه إلى كفها... اختلس كفَّها من انشغالها بالحوار، واحتوته يداه.

ركَّزت نظرتها في عينيه.. كأنها تسأله: ماذا تفعل؟!

اتحدت ابتسامة طيفية على شفتيهما معاً في لحظة من هذا التوحد الوجداني.

الآن. . . يسترجع أدق ثواني البارحة، وهو يشعر أن افتتاحها له ربما يحوّله إلى رجل نرجسي، يحب نفسه لأنه بعطائها المحدود هذا قد بلورته هي في معنى جميل تعاملت به معه.

هكذا يكتشف «فارس»: أن العلاقة الخاصة الحميمة بين امرأة ورجل، لا يُشترط عمقها دائماً بالتواصل الجنسي، وإن رغب فيه طرف عن طرف. . . بل الأعمق: أن تكون بين الاثنين لغة موَّحدة، وانتماء إلى فكرة أو قضية حتى لو كانت مجرد (نشوة). . أو أن هذا الانتماء يخلق النشوة في الذاتين.

حتى وهو يتأمل وجه «سارة» البارحة. . . كان يحدق أحياناً ويتشهى أن يمدّ كفّيه ويؤطر وجهها بهما ويقربه إلى وجهه أكثر، ليصبح الوجهان واحداً. . . وكان ـ حينذاك ـ يفعل ذلك بواسطة إغفاءة كفَّها بين كفّيه. . . . فقط!

همس لنفسه في هذا الـ «فلاش باك» للبارحة:

ـ نستطيع أن نسمو إذن. . . بالتخيل إذا أردنا، وبالممارسة إذا اشتهينا برغبة الحب.

«آهٍ. . . ما أطيبه بددا»، كما شَعر سعيد عقل، وأطربت فيروز. . . كرر لها هذه اللوحة الشعرية البارحة وهي في حياته لم تكن أبداً الـ «بدد» منذ عرفها، لكنها هي المطر الذي يسقي جفاف نفسه حتى الارتواء. . . بل وحتى تساقط الثمر!

كثيراً ما قدّم لها هذا الصدق منه: ابتسامته ودمعته. . آهته وشهقته للفرح بها. . حزنه وشجنه.

لكنها الآن ـ في إسقاطات حواراتها معه ـ كثيراً ما تشعره بأن الحب

لديها مفقود، أو مرصود. . . أو لعلها حوّلت الحب في حياتها إلى ابن ضال، وأن حياتها صارت تخضع لجرسين: جرس الباب، وجرس الساعة. . . أما جرس الهاتف فإنها تتعامل معه بكثير من الإخماد له، والقليل من منحه حرية النداء. . . وفي حياة الأجراس هذه التي حبست «سارة» نفسها داخلها، قد يصرخ أو ينفجر فجأة فيها: جرس الحب. . أو لعله: جرس (الإنسان) فيها. . . وقد نبهها «فارس» إلى هذه الأجراس في داخلها خلال حواراتهما، وقال لها:

ـ لا تدعي ما في داخلك من مشاعر يوجه لك تهمة اضطهاده على الأقل. . فلا تدرين كيف تكفّرين عن ذنبك نحو الحب، ونحو نفسك وعاطفتك يا. . . . . مريم العذراء!!

❊ ❊ ❊

❊ ضحك «فارس» لخاطرة. . حين كان يقرأ في منتصف الليلة التالية لـ. . . . (البارحة) عبارة لكاتب. . تمنى لو حملها الآن ورشق «سارة» بها كوردة، ويصفها هكذا: (أنتِ نسمة معارة إلى الحقيقة الأبدية). . قالها «عقل العويط»، والتقطها. . . . ومشى بها محاذياً للؤلؤة/ سارة التي ما زالت تمشي في وريده مختلطة بدمائه (كما يمشي القدر)!

الله عز وجل. . خلق هذه الـ «سارَّة» لحياته مرة واحدة ذهبية، وارتفع بها فلم يشأ ـ سبحانه ـ أن يستنسخ منها امرأة تضاهيها، وقد لا تجيد مواكبة بياض الروح والنفس كإجادة «سارة»، والاّ. . . . أين تختبئ مثيلتها، ولو وجدت. . . لماذا اختبأت؟!

لأن المثيلة أو الشبيهة، أو النسخة الأخرى ـ لو وجدت ـ فلن تكون:

طبق الأصل، ولا طبق الروح والنفس، ولا طبق هذا العقل المثقل بذكائه حقاً!

لقد أحب «فارس» هذه المرأة المميزة في حياته، وقاتل من أجلها. . حتى خيَّل إليها أنه المقتول بها أحياناً، القاتل لها . . . . . الشهيدان معاً ـ هي وهو ـ الممتزج بها وهي تحاول أن تخلق اليقين بالعجز، والخلاص بالتوحد الإنساني.

صارت هذه المرأة في حياة «فارس» هي: نظافته ونصاعته، وضوءه ورحمته، وذنبه المغفور، ودعاءه المستجاب، وخفقته لامتداد حياته، وشهقته الأخيرة عند الموت.

أما «سارة» في الجانب الآخر المقابل لعاشقها هذا / فارس. . . فهي تتقصَّد في تعاملها معه: إحباطه أو كبحه عنها، وامتصاص لحظة فرحه بها كاسفنجة. . وأحياناً يشعر أنها ترمي إلى تضئيله!

وتزحمه أصداء حوار «مستقطع» بينهما، تماماً كالوقت المستقطع الذي تمنحه له ليراها:

❊ قال لها: أنت الختام/ ألمِسْك لعشقي.

ـ قالت: هل هذه قناعة عقلك بي. . أم جنون قلبك؟!

❊ قال: أنت المرأة التي وحَّدت اشتغال عقلي وقلبي بك.

ـ قالت: ولكنك أنت «فضيحة». . . ما يلبث الناس أن يعرفوا قصتنا بصراخك كمجنون ليلى.

* قال: تتهميني دائماً أنني أسرّ بنجواي عنك للقمر... والقمر هو «إعلامي» المباشر للناس!

ـ قالت: هذا شعر... لكنك تبقى «فضيحتي»، وصدقني... عجزت أن أخلص حياتي منك.

* قال: في إمكانك أن تعلنيها صريحة لي.. فتقولين: أخرج من حياتي، ولن أزعجك بعدها.

ـ قالت: حاولت... طلبت منك أن نكون أصدقاء، والأصدقاء اليوم لا يلتقون كثيراً ولا دائماً.

* قال: إنَّ ما يغرس في أعماقي لا يمكن أن يُقتلع.. وأنت تُشكّلين في قرارة عشقي وختامه المسك: جذور شجرة عمري الوارفة بالحب.

ـ قالت: أنت تريد مني «الأنثى».. ومعناه: أنك تحبني بعيونك لجمالي، وسأكبر في العمر وينتهي هذا الحب!

* قال: عفوك... هذه نظرة محدودة ضيقة لمشاعر إنسان لازمك وطاردك أحياناً أطول من عمر الشباب... فلا تظلمين نفسك عندي!

صمت قليلاً... ثم استطرد يقول لها:

ـ وأين جسدك مني حتى تربطينني باقتناص الأنوثة فيك.. ولماذا تقهقريني إلى هذه الدرجة؟!

* قالت: هذه طبيعة النفس البشرية.. وزادت عليها طبيعة عصرنا السريع، والمادي، القائم على الرغبة السريعة.

ـ قال: حتى إن تحدثت عن جسدك من خلال تركيزي على أنوثتك،

فيحكمني التبتُّل أمام هذا الجسد وليست الشهوة المجردة من إحساسي بك. . . فهل أسألك: ما هو الجسد؟!

لا تردين. . بل دعيني أجيبك: الجسد. . حب في اللحظة التي تتحد بين (إنسانين). . الجسد: جنون ، تطابق، قانون، اقتحام، توحش، توتر، استثناء، أمطار، قراءة. . الجسد: نص إنساني، لحظة ضوئية، استرخاء.

الجسد ـ يا سيدتي ـ وجع إنساني يتفرغ، وذاكرة، وتشكيل جمالي، وإحساس قبل أن يكون شهوة. . . أي إنسان يرغب أن يشفى من ذاكرته أو من جسده بكل الإحساس، وليس بكامل الممارسة.

هناك فرق. . . فالتجانس بين إنسانين متحدين: قانون، وتوحّد روحي في البدء حتى الانتهاء.

كان من الممكن ـ بعد استطراده هذا ـ أن يخفض رأسه، ويبتلع محاولتها نزع قشرة جرحه القديم معها لتدميه من جديد، ولا يحاورها في ما جعلته هي: احتجاجاً وغضباً. . لكنه لم يرد أن يجمع لها الأوراق المبعثرة في كل مرة، بل أصر هذه المرة أن يرفض محاولتها لتحويل كل ورقة إلى مطفأة لذاكرتها، كمطفأة السجائر!

أراد ـ أيضاً ـ بتفجير هذا الحوار معها، أن يتمرد على بقايا الخيبة التي حاولت أن ترميه في قاعها. . . رغم أنه لم يطالبها بشيء من ممتلكات جسدها، ولا حتى قبلة، ملتزماً باحترام الحدود الجديدة التي أقامتها حولها كلما وقفت أمامه!

الرغبة بين امرأة ورجل: ليست انتهاكاً إلاّ إذا كانت: اغتصاباً، أو . . . شهوة مجردة.

وهكذا صار «فارس» منقوعاً في هذا الوقت «المستقطع» الذي فرضته عليه «سارة»، فلا يراها إلاّ عندما ترغب، أو تسمح له، أو . . . حتى تحنّ عليه.

ولا يتوقف جنونه بها.. ولم يعد لليل منتصفاً ولا آخراً، لليل: أول فقط، وذلك عندما تقول له عبر الهاتف: تعال.... ويتحوّل الليل الأسود، الغامض، الساكن، الموحش.. إلى: قوس قزح وأنهار من لبن وعسل مصفّى.. واللحظة في لقائه بها: تكبر لتصير رقصة.. والكلمة في الحوار المتبادل بينهما: تشمل الزمان والمكان، لتكون قراءة مرتّلة لقرآن قلبه/ هي!

❊ ❊ ❊

❊ في الليلة الثالثة... عاده صوت «سارة» مفاجئاً لخلوته مع نفسه وتخمُّر صمته.

ـ بدأته الكلام قائلة: «أراهن» أنك جالس تفكر... صح؟!

اسمع مني يا فضيحتي التاريخية أنت.. لا تفكر، أوكي؟.. أرجوك، أطلب منك أن ترتاح، وأن تسخر.... هذا علاج مجرّب وعلى الرغم من كل شيء ـ وحتى مني ـ فإن الدنيا حلوة، والناس طيبين، واحنا لازم نصلح أنفسنا علشان نرضى!

استرجعت حوارنا قبل ليلتين، وحسيت إني أعرفك أكثر، إنت وحياتك.. أرجوك تحدث معي، قل لي أكثر، أو .... اكتب لي.

واصلت بدء كلامها ضاحكة تقول له: أرجوك.. لا تقاطعني، خليني أحكي، وانت يبدو ما عندك وقت، أو تريد أن تأخذ وقتاً خاصاً لنفسك،

وعلى فكرة. . . . لا تتردد (خذه) هذا الوقت، ترى الدنيا مثل ما قلت لك بل الآن: تركض!

البارحة ـ في خلوتي مع نفسي والقراءة التي تعرف أني أحبها حين ـ قرأت. . . . ها؟! اسمع:

ـ «إني أحبك حباً . . ليس يبلغه

فهم. . . ولا ينتهي وصف إلى صفته

أقصى نهاية علمي فيه. . . معرفتي

بالعجز منّيَ عن إدراك معرفته»!!

خلاص يا أخ. . . انتهى «كل» كلامي. . هل لديك أقوال أخرى. . . . لي!!

* قال بعد كل هذا الإصغاء: وحشتيني حتى العظم.

ـ قالت ضاحكة: أعرف. . . لازم أوحشك، والآن. . مضطرة أقفل، أكلمك في وقت آخر!!

* * *

الفصل السادس عشر

التأمل جُوَّانياً!

القديم، وأصداء تلويعها الجديد له - تدفعه ليردد أغنية من زمن صوتها القديم لعبد الحليم:

(رميت نفسك في حضن.. سقاك الحضن: حزن.. حتى في أحضان الحبايب: شوك يا قلبي)؟!

هل يحلم بغيرها... هي المرأة الخرافية؟!

هل يحلم: أن لا تحلم به امرأة غيرها؟!

يريدها ـ وحدها ـ في كل هذا الزحام... أحبها هو، لم يستعبدها... استعبدت هي قلبه، لم تحبه!

بقي يحلم، يحلم، يحلم... حتى صار يحلم بالحلم، و...... غرق، حتى استقر في قاع بحرها!

كان أشد حُبّاً لها في قسوتها هذه.. وهي كانت: أشد قسوة عليه في حبه الطاغي لها.

* يقول لها في فواصل حواراتهما القديمة المتجددة:

ـ حين يقسو الحب، يتحول إلى جرح. . وحين ينزف الجرح، تُهدر الأشياء الغالية. . فأكفكف جرحي، أدرأه بحب أعمق حتى لا يواصل نزفه، وحتى تبقى أصداؤك في سرى: صبابة العمر!

وها هو ـ في وحدته وجفائها ـ يشعر أنه يتعلم بعدها: زيف الحديث، ونزيف المشاعر. . . تساوت في العين كل الوجوه، وكل العيون، وكل الضمائر!

مَنْ الذي تبدّل وتغيَّر حتى في تعامله مع الآخر. . هو، أم هي؟!

اتصالاتها بالهاتف صارت قليلة، مختصرة. . نبرة صوتها: افتقد منها الدفء، وفي حواره الذي تبتسره: يحاول أن يجذبها إلى كلماته التي يعبر بها عن حبه لها. . . لكنها صارت تربط مواعيدها وحتى حوارها «بالفُرْصة» لتحادثه. . وقد أبقت على هذا الخيط الرفيع الذي يوصل بينهما!

وما زال هذا «الخيط الرفيع» الممتد من جانب «سارة». . . لا هي تريد أن يتواصل «فارس» بحبه لها، ولا هي ترغب في المبادرة من جانبها نحو هذا العاشق لها لتمنحه صبابة من حبها له. . فأبقته معلقاً بين سمائه وأرضها!!

يتذكَّر صوت «فيروز» بها، وقد ترنما بأغنياتها معاً زمناً طويلاً. . . حتى بلغ إعجاب «سارة» بفيروز: أنها قلَّدت في يوم ما قَصَّة أو تسريحة شعرها في بدء صباها وصبوتها وولعها بأغاني فيروز.

وتبقَّى لـ «فارس» في واقعه اليوم: هذا الليل الذي يتجسد فيه صوت فيروز، في معنى كلمات أغنياتها العتيقة: (رحتوا م الليل. . صار الليل: ليلين). . وهذا هو أرق «فارس» الذي صار ينادي فيه على كل من «راحوا مع

الليل»: الحبيبة، والقيم، والأهداف، والحب، والأمان... وتبقَّت مشاعر الناس جائعة في زمن طوّحوا فيه بالحنان... لأنهم صاروا ينبشون في فواصل الكلمات الزئبقية.. ولأن رؤوسهم ساخنة جداً، لكنَّ صدورهم أضحت باردة في هذا الشوق الغربالي بخرومه التي تتسع مع استغوال الحياة في الماديات!

***

* يتأمل «فارس» الحياة من حوله.. وكيف صار الكثير من الناس: يهرب من نفسه.. كأنه يهرب من الحب والحبيب، ومن المواقف ذات القيمة، ومن المعايير التي ادّعوا تجديدها.

يستغرق «فارس» في هذا التأمل جوانباً لملامح المجتمع الجديدة، أو للمتغيرات التي حدثت لتكوينات هذا المجتمع، والتعريفات التي أضيفت لفئات أطلق عليها المجتمع: المتدينون.. ممن لهم (أشكال) في اللبس القصير، والوجه، واللحية، ويحصرون الحياة في التجرد من الدنيا والاعتكاف على التقرب للآخرة... والبعض منهم يقوم بتوصيل دعوته هذه بأسلوب يتسم بالقسوة، أو بالفرض بعيداً عن الحوار، وتحريم كل شيء ينتمي إلى الدنيا بلا تفريق!

أما الفئة الثانية: فتأتي على النقيض.. تمارس التمرد، وربما تصل بتمردها إلى كسر العُرف، والعبث بالقيم الأساسية، وتذبذب المواقف، وهدم المعايير... وذلك من واقع نظرتها إلى الحياة التي تقوم ركائزها على مضمون بيت شعر الخيام الشهير:

ـ «واغنم من الحاضر لذّاته فليس في طبع الليالي الأمان»!

وتجد هذه الفئة مجالات عديدة لتفريغ ألوان الغوايات، بعد نسف كل قواعد السلوكيات المنضبطة، أو القيم التي تبلور أهدافاً للاستمتاع الهادئ بالحياة ومباهجها.

وتبقى الفئة الثالثة المطحونة في الوسط بين الأولى والثانية. . وهي التي: تحلم ويُفسد الآخرون أحلامها، وتكافح لتصعد بضع درجات وكأنها تدور حول نفسها: لا تصل، ولا تتوقف عن الدوران. . وتسب الحياة، وتلعن الأماني. . ويستمر صراخها حتى لحظة خروج الرمق الأخير!

وهذه الفئات. . لو تلفتت إلى الحياة حولها، فلن تعثر على ما تسمع عنه أو تقرأه، أو حتى تشاهده عبر التلفاز بمسمى: الحضارة، والمتعة، والأمان. . ولكنها تحملق في المشاهد التي تضخم: الإرهاب، وحوادث دهس الضمير، واغتيال الحب، وطعن الطيبة، وتفشي الأمراض الخطيرة المستعصية، وتزايد السجون في العالم، وظاهرة «الانتحار»، والتلوث، والمخدرات، وكساد «دور الإنسان» في استتباب السلام المزعوم!

❊ ❊ ❊

❊ في هجعة هذا الليل. . صرخ «فارس» وهو يفيق من تأملاته. . كأنه كان مرميّاً على قضبان قطار بطيء صدئ العجلات. . يهرس جسمه، وأفكاره، وخفقاته. . فما أسخف أن يضاجع في هذه اللحظة: ابتسامة بلهاء بكلمة فرح تتسرب وهي لا تقوى على النهوض ولا على البقاء فوق شفتيه.

وفي هذا الهجوع. . . صرخ وراء صرخته رنين الهاتف، فقام متثاقلاً كأنه خارج من جولة مصارعة انهزم فيها بالضربة القاضية. . رفع سماعة الهاتف بإرهاق يحسه في عظامه:

ـ آلو . . . أهلاً بتنقيبي!

* ماذا تقصد بتنقيبك؟!

ـ أقصد أنك بئر بترولي الوحيد الذي أنقب عنه دائماً، وكلما اكتشفته . . بادرتِ إلى ردم نفسك في داخلي!

* هل أنت مريض . . حرارتك مرتفعة؟!

ـ نعم . . مريض بالتلفت إلى أصدائك، ولكني أسألك: ألم يحن بعد حديثنا؟!

* أيّ حديث تقصد، أو تتطلبه بيننا؟!

ـ أريد أن أخترق حاجز صمتك.

* لم أعد صامتة . . . صرت أتكلم كثيراً حتى تضايقت من نفسي.

ـ ولكني أريدك أن تسامحيني.

* ولكن . . . على ماذا أسامحك؟!

ـ سامحيني على دخولك إلى قلبي . . . صحيح، أنت لم تعديني بشيء، ولم تنفِّذي إلاّ قرارات قطيعتك لي في كل مرة . . لم تقولي لي: انتظرني . . يوماً، دهراً، لقد انتظرتك بتفاؤلي وبأملي في عودتك من جديد دائماً . . . لم تقولي: أريد زمناً وعنواناً منك لنفرح بخصوصيتهما لنا . . . أنا الذي قلت ذلك كله لك، وطلبته منك.

هل تعلمين يا سارة: لماذا لم أفرح بعودتك الجديدة المشروطة؟!

أنتِ عوَّدْتِني: أن فرحي لا يتم . . . دائماً كنت تمنحينني الأمل مغلفاً بالمستحيل!

* لماذا أنت دائماً تهاجمني؟!

ـ ليس هجوماً عليك. . بل هو الفضح لأحلامي التي فسدت في واقع يحيِّرني معك، فأنت تتقدمين معي خطوة بكلمة دافئة تطلقينها في لحظة رقة مزاجيتك. . وفجأة تتقهقرين بي عشرات الخطوات، لأبقى واقفاً وحدي: أنتظرك من جديد!

وهذا المدّ والجزر من موجك، ومن عمق بحرك إلى شاطئي: يكسر أحلامي ويلقي بها وشلاً وأصدافاً فارغة.

* «أوكي». . . تصبح على خير!

* * *

* أعاد سماعة الهاتف إلى موضعها ببرود.

كجزء من هذا العالم، وبوحدته وفَقْده. . يشعر أنه: يشيخ ويعتل، وكان في فراغ أيامه الأجوف: لم يتمنَّ غيرها -سارة ـ تملأه وتنقذه من كذبة العمر. . . لكنه بهذا المدّ والجزر منها، وبسلبياتها التي تطغى أكثر الأوقات. . تدفعه بعنف ليكون جزءاً بذوب في نفسية هذا العصر، وفي جنون هذا العصر. . والكثير من البشر المعاصرين: لم يعد يعرف ما الذي يريده بالضبط. . هناك مجرد «غوائل» تسرق من الإنسان عمقه، وأحلامه، حتى تصل إلى قدراته!

لقد أطفأته «سارة». . . وقد جعلها في عمره: الحلم الأجمل، والرواسي التي لا تميد أبداً، والمدى الرائع البعيد الذي يتبلور سماءً لوطن قلبه. . . حتى دفعته أن يرفع الآن في وجهها لوحة من كلمات قرأها بهذا النص: (سرّحيني من النفي والانكسار)!

فما أبعد الأرض التي أبعدَتْه «سارة» إليها... وما أقسى هذا الانكسار الذي صار ينغل في وريده: جرحاً!

لا يعتقد أنه أضاعها بمعنى: التفريط فيها.. بل هي التي كانت تواصل دفعه بقوة وإصرار بعيداً عنها إلى أقصى بُعْد الأمكنة والمشاعر، وفجأة.... تندفع نحوه ـ كالشهقة المفاجئة ـ لتغرقه عاطفة وجنوناً، ثم تتلاشى كألعاب الليل الملوَّنة الفلاشية التي تُحدث دوياً في السماء، وتختفي في الظلمة!

ربما أضاعتهما معاً: أشياء من قهر هذا الزمان... ولكنه في قهر الزمان وقهر «سارة» لمشاعره نحوها، كان يخرج من ذلك التأمل الجوّانيّ إلى ما يشبه «الاستفتاء» لنفسه ولعواطفه.

ـ وهمس في أصداء صوتها الليلة: لا بد أن يكون لنا خيار!!

ولكن..... كيف وهما يدلجان في أسئلة مستنفرة من واقع حياتهما الاجتماعي والنفسي.. لا تسبح بهما، بل تجرحهما؟!

لم يبرد حبه لسارة، إنها تبقى في منطقة «الحلم» دائماً في حياته.

لكنَّ قلبها حوّله من ذهب إلى نحاس.. رغم أنهما يشكلان بأفكارهما، وبرؤيتهما الفكرية: نضج مسيرة جيل.. صنع من القلق: حُبّاً، وبلور الحب مرآة لنفس تتوق إلى عواطف غير متربة!

* * *

* في الصباح الفجري، بعد أن مضى ليلته: سُهداً... قفز «فارس» فوق قامته، وركض إلى ورق وقلم... كأنه في لحظة مخاض، ميلاد جديد.. أو كأنه في بهاء لحظة موت ترتفع فيها الصلوات مع شروق شمس يوم جديد!

لقد تكاملت شجاعته في هذه اللحظة المشبَّعة بامتزاج الميلاد والموت. . امتلك قراره الحاسم، فأمسك بالقلم، وكتب:

* يا عمر العمر/ سارة:

في هذا الصبح البكر. . . استيقظَتْ قدرتي، ووجدت كتاباً كنت أحتمي بقراءته البارحة بعد محادثتك الهاتفية، وقد قلبته في نعاسي على الصفحات، واعتسفت النوم حتى حشوت به عينيَّ. . فإذا بعبارة تضج بهذا المعنى (هل تظن أنك أحببت يوماً من يجب أن تحب)؟!!

وفي غبش الصباح. . التحمت مع هذه العبارة: صورة من أغنية لمحمد عبده نحبها، وهي: (ما حد يحب اللي يَبي. . . . أبعتذر)، وكان مكانك في قلبي: عشقاً، وصداقةً، وخفقاً، ودفئاً. . وأنت سري المعلن، ولغة نفسي، ومستقر أمانها.

وحتى لا أستطرد في ما حسبت أنه كان يضايقك طوال إعلان عشقي لك. . . فقد تحزمت صفحة الكتاب الذي كنت أقرأه بعبارة أخرى، سدّدها الكاتب وأغفى بعد أن قال: (هناك من يموت على أمل أن يحظى بعد الموت بمن يشتاق إليه). . . فهل تعتقدين: أني سأحظى بك بعد أن أموت؟!

لقد وُلد حبي لك شعوراً لا ضد فيه، وكبر عشقاً مولهاً بك. . رائع الرمز.

واليوم. . . حتى هذا السؤال : (من يجب أن تحب) لم يعد يعنيني، فلم أعد ذلك العاشق الغريب الذي تسجنينه، ثم تحصدينه!!

ها أنذا ـ يا معذّبتي الرقيقة ـ قد تحررتُ منكِ. . . أخيراً، وإلى الأبد!

تحررت. . . وربما هو: ميلاد جديد لهذا القلب الذي استَعْبَدتِ أزهى سنوات عمره. . . وربما هو: الموت الذي يحملني إلى برزخ. . ينجو فيه القلب من ساديتك معه!!

انتهت

العاشقـــان

وتلتحم كفه بكفها، ويصغي إلى همستها، ويلتصق بدفئها؟!

مساحة معرفته لها، ومعرفتها له: بضْع رسائل... كانت مفتاح الإلتقاء الفكري بينهما، حتى افتتحت في كل منهما: مد شعور متبادل بينهما.

قبل «عالية»... كان الظمأ يوغل بزمانه نحو الجفاف.

كان التلفُّت مضنياً في انتظار أن يسفر كونه عن وجهها.

كان جدار مدينته: بحراً، وعمره: صارية فوق قارب يتقاذفه موج السنين.

قبل «عالية»... كانت عيناه مطفأتين، لأن ضوء وجهها لم يشرق بعد.

تأخُّرها عن الشروق في عمره: صادر الفرح... حينذاك كان قد أخبر النخلة عن أنثى بها، ينتظرها رفيقة، وشفيفة، وشفيقة... فلم تعرف النخلة عنوانها.

كان ظمأه يشعل هذا الانتظار لها بين ضلوعه... لتشرق على حياته من الفجاءة.

في الحلم الممنوح من تخيُّله لها الآن... زرعها فوق شفتيه، وغرسها في حنايا الضلوع.

يعلم أن المواكبة في الحياة... لها قوائم من الألم والمسرّة... من الحزن والفرح.

شيء حميمي يكون بمقدار الإحساس، وبعمق الانجذاب، وبرسوخ الصوت حينما يستطيع أن يعلو، وأن يتلاشى أيضاً.

إعترف بالتعب... والطائرة تدخل المجال الجوي لمدينة باريس...

وهو تَعِبٌ: يدخل في جغرافية المعاناة، والأعصاب، والشوق الذي يختلط بضربات قلبه.

هذا المساء... سيرى «عالية» لأول مرة.

ها هو الآن: يتعرّف على الحب في حالة الخوف... وفي الخوف يتكثّف حبنا لكل الذين أحببناهم ولا نطيق فراقهم، ولكل الذين أحبّونا فأضاءوا حياتنا.

هكذا هو يعترف بالحياة أيضاً... كأنه بتواجد «عالية» في حياته لم يعد يخاف من الخوف... وإن استمر خوفه على الحب في هذا العصر!

هذا العصر: تنتعش فيه محاورات الإنسان لعوامل التبدُّل، والتعرية في النفس، عندما يواجه أمور الحياة بالسياج الشفاف.

أخبروه ذات يوم في سؤاله عن «عالية»: أنها مهرة برية جامحة، قد تقذف بفارسها في عرض الساحات، وتتركه تحت سنابكها وفي غبارها، أو تحت نقعها!

لكنه كالذي يرتقب قدومها إلى حياته من وراء الغد: يداً تمتد إلى يد... خفقة تمتزج بخفقة قلب... نظرة تتّحد برؤيته الشاخصة نحو الأمل والفرح... فكرة عقل تتلاحق بفكرة! الطائرة تهبط على مدرج مطار (شارل ديغول).

كان يناديها في تلك اللحظات... وينتشر نداؤه من بين ضلوعه متوحِّداً بغروب شمس، وهطول مطر، وإضاءة قمر، ووصوصة نجوم... متلوناً كقوس قزح:

ـ (عالية..... أين أنت ـ كلك ـ من عالمي هذا الذي يشهق)؟!

جزء من نداء شاعرٍ فارس أرسله إلى مهرته... فاقتبسه هو، ليهديه إلى عاليته:

ـ «أتركيني أزهر في الخرافة.

أين يدك... لكي يدلّني دفؤها على الطريق؟!

وجهك: هو الزمن البعيد...

وأنا: عام المسافات»؟!

أين يدها الآن... وما الذي سيسري في أوصاله حين يمد يده إلى يدها فتتعانق الكفَّان؟!

* * *

حين بلغ الفندق... كان منهكاً جداً، يهده إرهاق السفر، والتفكير في «عالية»، والانتظار للحظة الضوئية التي لا مثيل لها وهي تشرق بوجهها أمامه.

أخضع جسده لحمام دافىء... واستلقى بكل تعبه.

لا... بل كأنه أخرج مع ملابسه التي كانت في الحقيبة: ألوان تعبه، وعلقها بجانب بذلاته، وقمصانه.

ـ ... تعِبَ من قشور المدنية، من ضجيج الحضارة.

تعِبَ من هذا الرأس المرفوع فوق كتفيه، وهو مشرئب دائماً إلى الأعلى، بينما دموعه تنحدر من هذا العلو: حزينة، فاقدة دائماً.

تعِبَ من هذه الحقيقة التي تهز أضلعه جمرية، فلا تلبث أن تبرد وتترمد في صدمة اكتشاف محاورات الإنسان لعوامل التبدل والتعرية النفسية.

فهل تكون «عالية» مختلفة عن كل الاشراقات التي ومضت بين ضلوعه ثم احترقت مثل الفلاش؟!

تعبت نظرته الشاخصة، ترنو نحو بزوغ وجه «عالية» القادم من الحلم!

كانت «عالية» قد زوَّدته برقم هاتف الفندق الذي سكنته قبل حضوره هو بيومين... ولم يكن متردداً في الاتصال بها ليخبرها بوصوله، ويحددا لحظة اللقيا.

تعبت يده الممدودة إلى فراغ العواطف الهشة.

لكنَّ انتظاره للحظة اللقيا مع «عالية» لم يتعب.

ـ قالت له في الهاتف: متى وصلت؟!

* قال: قبل ساعة فقط... وما زال سفري واقفاً على مشارف مدتك واللحظة الأجمل معك.

ـ قالت: لعلك تريد أن ترتاح قليلاً؟!

* قال: لكني في لظى هذا التعب... يبزغ انتظاري للقائك: راحة لي.

ـ قالت: إذن... سأنتظرك في ردهة فندقي بعد ساعة... ومعي صديقتي.

* قال: وسأوافيكما في الموعد... ومعي صديقي.

* * *

كانت الساعة دهراً. . . وأسئلته تتلاحق، تلهث:

ـ هل وجهها مثل صورتها. . . وضحكتها تشيع بهذا الفرح دائماً؟!

مَنْ الذي سيبزغ بعد قليل. . . هي، أم الرؤية. . . أم أن كليهما سيتموَّجان في الرؤى؟!

هل يده التي ستمتد لتحتضن يدها في إطلالة مساء هامس بالنجوى. . . أم تراها: يد الفرح، العشق، الأمل؟!

كانت رحلة عمره طويلة. . . قبل أن تأتي «عالية»، تناثرت خلالها فوق خارطة العمر: خطوط الزمن، وبحار التجارب، وتضاريس العقل، وأحزان القلب. . . وتبقّت لديه: رغبة الغوص في داخل النفس الصادقة، ونهاية الخط الزمني: تجافي الامتلاك. . . لكنها تحتمي بالبراءة دائماً.

قبل أن تبزغ «عالية» في حياته. . . كان يرى اللحظات: بقعة حبر تمتصه، ولا يقدر أن يمتصها. . . حتى تحول العمر في بهائها إلى نقطة حياة، منحت قلبه قدرته على النبض من جديد بتفاؤل كبير.

هكذا أصبح دخول «عالية» إلى وريده. . . كل صباح، ومساء، بل كل لحظة.

الرسائل التي تبادلاها في البدء. . . حرَّضته على الاندفاع إلى الأمل.

أحب «عالية». . . وكان يقطنه: عنادها الفرحان.

صار إصراره: أن يحافظ على بقائها، فكرة نبيلة تعني له الحياة أجمل!

* * *

التقت نظرة «عالية» / الميلاد... بنظرة «علاء» التي أضنتها غربة الترحال.

توهجت اللحظة بجنونه فيها... وكانت اللحظة الفاصلة ما بين موته الذي كان، وحياته التي بدأت.

إحتضنت يده يدها... فتدفقت حضارة عشقه!

كانت يدها في تلك اللحظة: تضيء.

كانت: شموعاً في حلكة لياليه.

كانت: همسة في صمت وحدته.

كانت: رجاء في نهاية بحثه عن الرجاء!

لم يتمالك دفق مشاعره، فاندفع نحوها... إحتضنها أمام الجالسين والعابرين في ردهة الفندق.

فوجئت «عالية» بهذا الدفق من «علاء»... جفلت قليلاً، ولكنه كان يصرخ: أوه... وجدتك، وجدتك... وجودك يكفي لتعمير ما تبقى من حياتي.

ها هي «عالية» / المهرة البرية الجامحة... تجول في ساحات «علاء»، لتضع أوزار معركته الأخيرة مع: الحزن، والوحدة، والهشاشة.

إنها الأن: تملأه ميلاداً وريّاً... وهو أمامها يواصل نداءه المشتاق عليها... وابتسامتها النصفية. كالجيوكندا. يجنُّ بها وجهه.

ـ همس لها: خذي تعبي... إصهريه في دفء يدك.

خذي عمقي... أسكنيه ولا تبرحيه... حتى بعد موتي!

بقي يتأملها، حين كانت هي تجادل (تكتكة) الساعة حول معصمها... وكأنها لا تحب متابعة خطوات عقربها الذي يأكل الثواني، وبهجة الزمن الخاص.

إنها لا تبدو... بل تتموَّه أمامه... لا يعرف هل هي سعيدة بهذه اللحظة، أم مجرد أنثى تكتشف أعماق وأبعاد رجل يقتحمها.

في صدره هذه اللحظة: امتلأ بالحياة... لا يحب أن يقنع بالنظلرة التي تأتي من الداخل إلى الداخل، و«عالية» أمامه بكل هذا البهاء.

تذكَّر اللوحة التي رسمها صورة شعرية: الشاعر الطبيب العاشق «إبراهيم ناجي»:

ـ (أيّ سر فيك؟!

إني لست أدري كل ما فيك من الأسرار... يغري)!

تمدَّد إصغاء «علاء» في لحظة اشتياقه العظيم إلى بوح «عالية»... وما زالت تُقطِّر الكلمات من بين شفتيها كمطر شحيح.

تبوح... أو لا تبوح؟!

تُعلن عن خفقة القلب، وتصادرها في نفس اللحظة.

تفترُ شفتاها عن إبتسامة حليبية... فتقول كل شيء، ولا تقول أي شيء.

كأنها ـ لحظتها، تفصل المرغوب عن المتألِّق فيها بكل البوح، والنداء، و... الركض المعاكس من علقها فيما يبدو!

هذه الكلمة: (توقّفي أيتها اللحظة... فكم أنت جميلة)... إحتضنها

بأضلعه في أعماق صدره، والتفت إلى من سكنت نفسه «عالية» يسألها:

ـ ترى... كيف سنتذكر هذه اللحظة الجميلة التي جمعتنا معاً... بعد تعاقب السنين، وبعد برودة الأضلع إثر هذا الحريق، ثم اشتعال حتى الدفء؟!

* قالت: لحظة كهذه يصعب أن ننساها.

ـ قال: معك أتعرّف على مقدار المسافة، وأركض إليها بك مندفعاً، وأتوهج وأفيض... لكني أخاف أن لا تكون هذه اللحظة قادرة على البقاء طويلاً؟

* قالت: لا تخف... أنا وأنت لم نكن إثنين... نحن معاً طويلاً.

ـ قال منسكباً في الشجن: تستطعين رؤية مشاعري الآن محتشدة على حفافي عينيّ... يجمعها عند الحدقة وجهك الرغد... المهم أن لا ننسى!

* قالت: الأهم يا صديقي أن لا تفهمني خطأ في لحظة يجنُّ فيها عشقك... فأنا أحمل لك أصدق ما يمكن أن تمنحه امرأة لرجل يشاركها لحظة خروج الليل ودخول الفجر!

ـ قال: أتمنى أن نبقى معاً في دائرة التذكر لهذه العبارة: (توقفي أيتها اللحظة... فكم أنت جميلة)... لأنها: وحدة مشاعرنا، وبها نكتشف دائماً مصدر السعادة وفلسفتها، واللحظات الحميمة لا تتوقف، إنها تتواصل، ولكن... نحن نفني هذه اللحظة الأعمق في تعاقب الأيام دون أن نمتلكها، بل هي التي تمتلكنا.

* * *

ضحك «علاء» وهو يبلور أسئلة غريبة، تمنى لو «أطلقها» على حبيبة قلبه «عـاليـة»، ومن هـذه الأسئلة يـدخل إلى أبعاد فكرتـها عن دور المرأة في مجتمعها وقدراتها:

ـ مَنْ أحرق «جان دارك» عندما كانت شابة وناضجة: ترفض وتؤكد؟!

مَنْ أغرق (ماجدولين) بالماء أو بالدمع الذي روَّى شجرة الزيزفون؟!

مَنْ أفنى بهجة «غادة الكاميليا» في عنفوان الامتلاك للحياة؟!

لكنه وهو يبادلها بالسؤال شعر أنها تبادئه بالإجابة قبل طرح السؤال!

ميلاد حنينه لـ «عالية» حتى وهي أمامه الآن وقد استيقظت في نفسه أبعاد المسافات، والزمن، والرؤية.

ذاب الوجع الذي عاناه قبل أن تبدأ دخولها بين أضلعه: تراجع الآن وذاب في هذا الإبحار الذي منحته له لحظة اكتشافها.

تُذكِّره لحظة التأمل لوجهها الآن، كلما اقترب من عينيها العميقتين كبحر ليلي، بتلك الصورة التي رسمها «كامل الشناوي» كأنه يرسم لوحة بالشعر تتحرك أمامه، وهو حبيس التردد أمام وجهها:

ـ (تباعدت وتدانت كإصبعين بكفي)!

فجأة ضحكت «عالية» حين لاحظت أنه كان يتطلع إلى كفها ووجهها، وإلى إصبعين بكفها: يتباعدن ويدنوان وحين اكتشفت أنها هي الأخرى كانت تتطلع إلى وجهه وكفه!

ـ سألها أمام وجهها الذي أضاء ليله: لماذا كنت أرصد حركة كفك

ووجهك كأنني كنت أترصّدهما وهما يتباعدان ويدنوان من وجهي ويدي!

لم يكونا وحدهما على المائدة في المطعم الذي اقترحته «عالية» لعشاء الليلة الأولى في باريس بل شاركهما متعة جمالها الذي يذوب: صديقتها التي ترافقها في السفر، وصديقه الذي كان وحده الرفيق الأمين في كل أسفاره ورحلته، وكأنه الوصي على سكناته ولفتاته ينبهه إذا تمادى، ويشاركه الفرح أو المعاناة.

كان «علاء» خلف إيماءة حبيبة قلبه «عالية» يُفهم شجنه، ويثقّف عواطفه بنضج بوحها وكأنه يخاطب كل رفض للكلام وهو: ينتشي بهذه الحبيبة المميزة عن كل النساء اللواتي عبرن أو عمّرنها زمناً ويتعمق، يتعمق في أعماق عينيها، وفي اكتحال شعرها بسواد الليل، وفي قدرتها على الهمس الذي يناجيه والصدّ الذي يوقفه عند حد معين كأنها كانت تدفعه إلى مقدرة الصبر على المشي فوق طريق طويل، يحلم أن يجد اللحن في نهايته: مكتملاً !

هنا ـ وهو أمامها ـ دعوة للحياة في صدره.

وهي ـ في استشفافه لمشاعرها ـ يخيل إلينا أنها: ما زالت تبحث عن إجابة على سؤال تأتي على شكل سؤال آخر!!

أمضوا أكثر من ساعتين على مائدة العشاء في المطعم وحين أشرعوا باب الخروج من المطعم: كان صخب السهارى يشيع في حواري وأزقة (الحي اللاتيني) الذي اختاروا زيارته في الليلة الأولى ومع خطواتهم الأولى: بدأ المطر ينسكب رذاذاً، حتى أخذ ينهمر، واحتميا ـ عالية وعلاء ـ أمام بوابة درأت عنهما المطر قبل أن ينتصف الليل وصديقها أمام بوابة أخرى، والنساء

والرجال يركضون تحت المطر قبل أن ينتصف الليل بساعة، ورجل بأسمال بالية يعزف على جيتارة، وامرأة في الأربعين تمد يدها بأوراق اليانصيب لمن يريد أن يجرب بخته ويشتري، وشباب من فتيات وفتيان يتراكضون إثر بعضهم في بهجة ضحكاتهم التي تعلو وتتناثر.

وجد «علاء» نفسه وجهاً لوجه أمام حبيبة قلبه «عالية» لا، بل كان يلتصق بها في زاوية البوابة الضخمة، لعله يمنع عنها المطر والتقت نظراتهما في ما يشبه التوحُّد المفاجىء، قربّها إليه أكثر، ضمّها كأنه يهصرها في جنون الناس، واندلاع الليل وغابا معاً في قبلة، كانت.. القبلة الأولى: خاطفة، ممطرة، توحدية، بكل جنون العشق، والتحليق فوق الواقع وبعيداً عنه!

توقف المطر بعد دقائق إلاّ رذاذه، وجدّد المحتمون من بلل المطر ركضهم وجنونهم، وقد انغمس علاء وعالية وصديقتها وصديقه في هذا الجنون المزدحم، أو الزحام المجنون لا تستقر عيونهم على مشهد، بل تتجول النظرات كألوان قوس قزح في أرجاء ذلك الليل المضيء بفرح الناس أكثر من إضاءات الكهرباء.

قفزوا إلى عربة مقطورة، تطوف بتلك المنطقة ذهاباً وإياباً لمن تعب من المشي، ولمن أراد أن يلمّ بكل هذه الأرجاء.

كان «علاء» يتطلع إلى عينيّ «عالية» تارة، ويخبيء أصابع يده في شعرها الأسود تارة أخرى وقد شهد لها قلبه أنها: القرار، وأن أمان الروح في فيئها.

في هذه اللحظات كأنَّ «علاء» يجمع كل الماضي ويغرقه في بحار «عالية»، ويبيعه للحظة من هذا الليل الحميمي.

كلما أصغى إلى همستها إكتشف: أن لغتها هي رجاؤه الدائم لها.

كلما تأمل وجهها تجمعت خفقاته بين شفتيه لتحضنها وتُقبلّها.

لحظة نقاء تْخرجه من كل ظلال عمره التي اكتنفته زمناً طويلاً.

وشارف الليل على الانتهاء، وهذه الصحبة في طريقها إلى الفندق.

وأمام مدخل الفندق الذي تقيم فيه «عالية» وصديقتها وقف «علاء» وصديقه يودعانهما إلى ما بعد ظهر هذا اليوم الذي أخذ فجره يبزغ كأنّ النهار يسفر عن ابتسامة «عالية»، لتملأ هذه الابتسامة أضلعه: فرحاً، وحلماً، وهناء!

* * *

ـ ٢ ـ

* في انتظار أن تمطر ابتسامتها بعد ظهر هذا اليوم.

وفي انتظار أن تنهل «عالية» من فرحه بها.

بقي «علاء» فوق سريره شاخصاً ببصره في السقف هو هذا الظامىء إليها كلما سقت ابتسامتها عطش روحه.

ـ قال له صديقه حامد: «أهجد وخلينا ننام يا أخي لم أتعوّد على السهر إلى الصباح الله يكافيك بعدين أنا أكبر منك سناً ولا أحتمل كل هذا السهر»!

* ضحك «علاء» وقال لصديقه: «إهيه والحبحبوه طول الليل مع صديقتها / فاتن وقد رأيتك تركض مثل حصان جامح»؟!

ـ قال حامد: «أسكت إنت بلْوَى، أنا كان مالي ومالك، تصبح على خير أنا رايح غرفتي أنام، ومن فضلك لا توقظني وأريد أن أنام إلى الليل»!

* قال علاء: سمعاً وطاعة يا أبيه لكن لو صحيت قبلي، من فضلك، قعَّدني حتى لا أخسر المزيد من الوقت الذي لا أرى فيه «عالية»!

لكنَّ النوم يفرّ من عينيَّ «علاء» وهو يواصل حملقته في سقف الغرفة تارة، وفي ستارة النافذة تارة أخرى، والوقت بليد بطيء في الحركة.

إذن النوم يصلح للآخرين من المتعبين، والقادرين على نفض المعاناة عنهم ولا يصلح له وأمثاله من المتَّقدين بالشوق، والمتوهَّجين بالحلم.

قفز من فوق سريره، وفتح حقيبته التي أودع فيها: بداية عشقه لـ«عالية».

كانت البداية: رسالة منه أراد أن يقتحمها بها، أو يلفت انتباهها إلى متابعته لابداعاتها التي تكتب عنها الصحف والمجلات، وتتوج الكتابة دائماً بصورة لا تتغير: ابتسامتها فيها تفلسف «اللذة في الألم»، وفستانها الأصفر بنقاط سوداء!

أخرج رسالته الأولى إليها وقرأ:

❊ عالية:

أعذري تطفّلي، لكني ـ كما أعتقد ـ قد بادأتك مستأذناً من إبداعك إلى الإنسان فيك من الإنسان في داخلي.

يسرني في البدء أن أقدّم لك: «ناري وشفرة روحي» تسافر بالكلمات إليك في مسافات هذا الزمن المقتول بالشوق، وإلى مساحاتك المصقولة بالجمال والرؤى، وبالحزن المتسع رؤية ووصالاً مع التجربة والشعور.

بعض كلماتي، وبعض الكتب أقدمها إليك: تعارف كلمة بكلمة في انتظار أن تشرعي بوابتك لكلماتي إليك من خلال كلماتك إليّ!

إنه يتذكر تلك اللحظات التي كان يكتب فيها لأول رسالة منه إليها وبقي تمضُّه الساعات والأيام في هواجسه على شكل أسئلة: هل ترد عليه وماذا ستقول، وبأي أسلوب تكتب له؟!

لكنَّ انتظاره لم يدم طويلاً كانت أصابعه ترقص الفالس وهي تفضّ أول

رسالة منها إليه وأنفاسه تعلو، ووجيب قلبه يزداد، كأنه مراهق عاد إلى أول مراحل الشباب وأخذ يلتهم سطور الرسالة القصيرة، ويعيد قراءتها مراراً:

* الصديق العزيز / علاء:

أكتب لك هذه الكلمات بعد ساعات من تسلمي لخطابك الذي حمل معاني أسعدتني عن الأخوة والصداقة الفكرية التي أرجو لها أن تترعرع في درب الإبداع والكلمة الصادقة، البعيدة عن المشاعر المغشوشة، والفكر المستهلك التقليدي ومع ذلك لم أستطع أن أجمع لهفتي بقراءة رسالتك بين إشارة مرور وأخرى، وأنا أقود سيارتي في الشوارع المزدحمة.

وهل هناك صداقة أعمق وأبقى من صداقة الفكر؟!

لقد أتاحت لي المدة الماضية فرصة متابعة قراءتي لبعض الكتب التي أهديتها لي، وسرني أن تتفضل بإرسالها طالما نحن نعيش في عالم عربي، الكتاب محروم فيه من التجوال عبر الحدود، فليس أمامنا غير أن يمدّ بعضنا بعضاً بهذه الإبداعات، حتى لو تم ذلك عن طريق المصادقة!

قرأتك نعم، وأصارحك بحقيقة: أني استمتعت كثيراً بالصور التي ترسمها بكلماتك، وكأنني . وأنا أقرأك . أتجول في معرض للفن التشكيلي أتأمل الألوان والتشكيل، وأسرح في المعنى والأفق المفتوح وراء اللوحة وفي صفحات أخرى أشعر أني في دار للعرض السينمائي، حيث يعيدني الظلام والمقعد الدافىء الحنون إلى لحظات الأمان التي عشتها يوماً في رحم أمي فأرى لقطات من صور تتحرك أمامي، أحياناً تفاجئني الصورة فأتوقف أمامها وأعيد قراءة الشريط.

و. . . . إلى أن تقرأني فتراني، لنتحاور ونتجادل. . . وأتمنى أن لا تبرحك الأفكار المحيَّرة، وأن تسكنك دوماً: الأسئلة!!

ـ ياه. . . كم سقَيْتِ تربة نفسي العطشى. . . يا «عالية»!

همس «علاء» وهو يعيد رسالتها الأولى، ويفرد رسالته الثانية / رده عليها. . . ويقرأ:

* الصديقة الأعز. . . البدعة التي تشحذ البوح/ عالية:

في رسالتيّ المتآخيتين في مظروف واحد، وبقناعة الرؤية الأقرب لـ(الإنسان). . . فيهما ـ يا صديقتي ـ وجدت: كيف تترعرع (التلباثية) بين مبدعة يرويها النهر الخالد / النيل بالمزيد من تفجُّر عطاء الإنسان، وبين كاتب تحفّه روح (الحجاز) بكل ما فيه من قدسية أنبل، ومن (غزلية) أنقى. . . لأن الحجاز هو التربة الغزلية للعرب، كما قال عمر بن أبي ربيعة، وكما وصف الشريف الرضي.

في رسالتيك صدقٌ فَرحتُ به، يجعلني أتشبث بصداقتك التي تأخّر ميلادها ـ كما أحسب ـ وقتاً طويلاً. . . وقد وجدت في كلماتك: تلك اللحظة الغالية. . . حين تتفتح زهرة عن أكمامها في الفجر، لتنشر عبقها. . . ووجدت ذلك الغضب المبرور!!

الآن. . . تنشرين أشرعتك/ الكلمة. . . تُبحرين، ما بين مديٍّ، وأمواجك. . . تأخذين في كلماتك/ صاريتك: قلوب الذين في الموج، وهم يلوّحون للصارية. . . تكتبين (مشاوير) شوق، وأحزان حلم. . . وتُشكّلك الكتابة: لظى، وجمرة، وهوى.

في كل نداء لك، والتفاتة مني إلى بوحك، ووحيك، وعطاء كلمتك. . . صرت أبحث معك عن أشياء تتغير ضدك/ ضدي. . . ضد الإنسان. . . ضد الوعي، والحلم، والمعرفة.

منذ متى وأنت غاضبة بهذا النبل الرائع!!

منذ متى وأنت تصرخين؟!

أشتاق ـ معك ـ أن نبكي بصمت، بعد أن أتعبنا الصراخ، حتى تدقّ دموعنا جبين الأرض.

لتلد التربة ـ بكلمتك القادمة ـ زهرة، لا تخضع لتوقيت الفصول... ولتطلع الزهرة:

غداً جديداً للأرض والزيتون.

ها أنذا أمامك، ومعك... أرى: كل الفصول أتَّحدت، واجتازت بنا غربة الجراح.

كل الزوابع لا بد أن تنهزم... لتبدأ رحلة جديدة إلى الميلاد.

المكان ـ يا سيدتي ـ مساحة مؤقتة ونحن: طعمة ضد هذا الفراغ!

لا بد أن تغنّي للشواطيء التي تحتضن ثورة الموج.

فهل تأذنين أن أغني لك أنت/ الكلمة، والطلوع... في بدايات السِّحر: حنيناً، وشهقة لفرح مرتقب؟!

* هذا الصباح الذي قرأتك فيه... كان بوابتي إلى لحظتك الخاصة.

لقد أتيتك من عشق البحر للسر... من مدارات شموس الصحراء القادمة بأمنياني، وحلمي المكسور!

لا أرغب أن أشقّ صدرك من شجري/ كلماتي... وأنت قد زرعت صدري ببذرة من ورقك!

غالباً... نحن يسوّرنا الخوف، كلما أردنا بدء النقاش... كلما هممنا أن (نقصّ شريط الكلام)... لتكون هناك الزوبعة.

عفوك... لو أبحْتُ لنفسي أن أستحوذ على إصغائك هذه الثواني، لأبوح!

لقد مضى وقت طويل على تلك اللحظة التي فَتَحْتُ فيها على الأمسيات المملّة جراحي وأفرغت تيبُّسي في حُفَر النهارات الصمغية، وشربت أنفاس الناس، لأبقى حيّاً في العراك.

ويبقى السؤال دائماً: ماذا نريد؟!

والإجابة وحدها... تُلغي بطاقة السفر، أو تمنحها رحلة إلى الفضاء وسطح القمر!

أعتز ـ يا عالية ـ بصداقتك، وبتواصلك ووصالك... فالصدق هنا: أثمن كنوزنا الإنسانية.

* * *

وفي أثر صورة رسالته هذه ربط بها إجابة «عالية» عليها، وهو يذوب في لحظاته هذه مع أصدق الكلمات التي كتبتها له «عالية» في ذلك الزمن قبل أن يلتقيا وجهاً لوجه، وقبل أن تحتضن كفه كفها بكل الدفء، و.... قبل ليلة المطر / البارحة، بكل ما كان في غيثها من توحُّد مزجه حتى العظم!

في إجابتها على رسالته الثانية إليه... كتبت له:

(* صديق النبض/ الفكر... والرعد/ الإحساس... والوهج/ الكلمة: علاء.

خطر ببالي وأنا أقرأ رسالتك ذات الأشجار الإستوائية على شواطىء جزر القمر. . . أن «القدر» وقد إرتدى ـ الآن ـ ثوب الفرح والنشوة، يقوم بمحاولة للتطهر من خطاياه وجرائمه ـ عبر التاريخ ـ بأن يهدينا ونحن الحرف، الكلمة ـ جواز مرور لطريق مفتوح، نصله بإبداعاتنا على شاطىء البحر الأحمر!

هل ستكون رسائلنا ـ المبدعة ـ حمامة سلام تطير كالشهب لتنشر أغصان الزيتون فوق المدن المعذبة؟!

هل. . . ؟!

وهل. . . ؟!

هل. . . !!

ما زلت رغم رومانسيتي ـ المطعونة ـ أقود شراع مركبتي تجاه الحلم المفروش بالعشب الأخضر. . . أبحر صوب الفعل الإيجابي (حتى لو كان عليّ معاندة الريح). . . أجنح تلقائياً صوب الجزيرة ذات الأرض الطيبة، التي تحتضن البذور بحب، تشرب الماء بعمق، تختزنه في رحمها الخصب إلى اللحظة التي تعطي فيها ثمارها الناضجة، هناك، فوق قمم حقول النخل!

الأراضي التي تسرب الملح لباطنها، وشقَّق الجفاف سطحها، أهرب منها، ألقي بنفسي، في عمق البحر، أضرب بذراعيَّ سطح الماء إلى اللحظة التي يتأكد لي فيها أن المسافة التي تفصلني عنها، تؤمِّن عدم رجوعي إليها.

هل تتفق معي، في أننا جئنا الحياة كي تخصبنا ونخصبها؟! الأرض ـ كما أرادها الله لنا ـ مرتعاً للبناء، والبناء عطاء، والعطاء حب، والحب صداقة: ثمرتها فكر، وحوار، وتبادل آراء ورؤى.

وصداقتنا الوليدة ـ كما أراها ـ هي بذرة صدق أودعها القدر (الذي

ارتدى الآن ثوب الفرح) في أرض طيِّبة ولاَّدة، لتنجب ـ كما أتمنى لها ـ ثمارها الناضجة فوق قمم النخل!!

أيها الصديق الفنان: أنا هنا ـ في هذا الموضع تحديداً ـ أدين لك بشعور إمتنان خاص، لأنك الطرف الذي أخذ مبادرة تحويل اتجاه الريح صوب رؤوس الجبال الشاهقة، ليهطل المطر غزيراً، وتلون أذرع الشمس حقول القمح بسنابل فضية وذهبية.

* ها أنذا أنتزع بعيداً عن صدر صفحاتي إليك: ستة أيام كاملة!!

غاضبة أنا...

في حالات الغضب، أخاصم كلماتي و... أخاصم نفسي... أتحول إلى جهاز كمبيوتر يستقبل سطح الأشياء، ويرسل قشورها.

يضايقني أن تستأثر تفاهات الحياة اليومية مساحات من أرض أيامي ـ عمري ـ اللحظات التي أصرفها بعيداً عن مدخرات إبداعي، هي تبديد لكنز لا يعوّض.

لن أبكي!

قلتها بتصميم وعناد، وأنا أصارع أذرع أخطبوط التفاهات اليومية.

آخر مرة بكيت فيها، كنت جالسة في حضن مقعد دافىء، وإلى جواري تجلس صديقة من جنوب أفريقيا، وكانت «نيويورك» كلها تحمل تناقضاتها الصارخة، وتبكي أطفال ـ المجازر ـ في مسرحية «سيرافينا».

كان ذلك في الصيف الفائت.

البكاء الصامت لم يعد يرهقني، أبرمنا معاً معاهدة تعايش سلمي، أشتاق ـ معك ومثلك ـ للحظة بكاء صامت، نغسل فيها الحزن عن وجه العالم، نقوم بعدها لنسير في إتجاه طريق إنقاذ الحلم، وفي داخلنا إحساس عميق بأننا تخففنا من ـ كثير ـ من أحزان العمر!!

❊ ❊ ❊

❊ نظر «علاء» إلى ساعته التي شارفت على العاشرة صباحاً، وقد آلمته عيناه. . .

وراودته سِنَة من النوم، لكنَّ قراءته لهذه الرسائل المتبادلة بينه وبين «عالية» قبل لقائهما هنا في باريس. . . كأنه يعيد من خلالها شريط معاناة أشواقه لها، ومحاولاتها لسبر أغواره هو. . . ولكنه أيضاً يسترجع بقراءة هذه الرسائل: أحلى لحظات الانتظار، والجنون.

أخرج رسالته الجوابية الثالثة إليها. . . وقرأ:

(الغالية/ عالية:

ها أنذا أتسلّق وعورة حزني، فأطمئن إليك. . . وأكتب لك.

أنتِ أذنت لي بأن أدع أشواق (الإنسان) في داخلي تبرق وترعد، وتنسكب غيثاً في ليلك. . . ليكون طلوعك عليّ ـ بعد الفهم، وسريرة الصداقة، والأشواق ـ قوس قزح.

أشواقنا ـ يا سيدتي ـ حنونة، رغيدة بالتوحُّد. . . رغم شراسة آلامنا، وقسوة جفوتنا وأغراضنا.

ولكننا ـ بهذا التفوُّق ـ نحن نتخطى عبثية المتعة المؤقتة، ونتجاوز ذلك

السقوط السمج في السأم، والتعوّد.

إن أشواقنا... هي هموم قدَرية.

فهل أقول لك صادقاً: إنني فرحت بهذا الوصال والتواصل بيننا؟!

هل أعترف ـ بعيداً عن الرجال الخائفين!! ـ فأقول لك: إن عَمَار كلماتك لفهمي، ولوجداني، ولفكرتي... يمثل زماناً يقفز بنا معاً فوق الهموم والتجنّي؟!

لا أريد أن أدخل بك في زمن الشوق الماكر... فنحن نحتاج إلى النقاء والصفاء.

إن هذا العالم كله... هو: رأسك، ورأسي، بعمق ما أشعر وأفكر.

إن هذا القلب الذي يخفق بين جوانحنا... كله لا يكون إلاّ إنساناً واحداً... إلاّ قناعة أكيدة... إلاّ قيماً عظيمة، تبدأ بتوأم الروح، وبفلذة الكبد، وبالوطن، و... بالمبدأ الذي مات الكثيرون من أجله!

كنت أنتفض، كطير مذبوح، حين تلوب الفكرة في رأسي عن هذا (الفقد) الذي صار هو سلوكيات عصر، وله عشرات الأسماء والتعاريف!

لماذا يفقد الناس بعضهم؟!

يرعبني هذا السؤال الفولاذي... ونحن نتحول ـ أحياناً ـ إلى توابيت تمشي بحزنها!

أو... هؤلاء الذين أطلق عليهم «سارتر» صفة: موتى بلا قبور!

صارت الأصداء: صدري... ومِنْ رَجْعها اتخذتْ إصغائي، ومراضاة نفسي.

أنا هذا الفارس الذي طارد أنفاس «مهرة» ذات ليلة... ذات عمر... ذات عصر، فاتَّسعت الصحراء... إتّسعت... إتْسعت... إتّسـ...

ها أنذا ـ بعد إرم ذات العماد ـ أجدك، أيتها الصديقة الأصدق والأعز، أجدك في مواجهتي!

لماذا... وكيف؟!

رأيتُكِ هذا الزمان الخاص الذي يشرق فجراً، و«إنساناً».

صامتاً... حدّقت في المساء، والقمر يطلّ ـ فكأنّه يمشي (ثملاً)!

فهل رأيتِ قمراً... خدّرته أنفاس زمن خاص؟!

صدقيني... لا بد أن ينبثق شروق الشمس من حكايات الإنسان الأجمل... وبين الليل والنهار، في الطلوع والغياب، أمزّق سحبي، وأعلن الحرب على الانتظار!

صرتُ الآن أهمس في أذن الكلام..... مشتاقاً!

هل تأذنين لي أن أسألك، بعد هذا الشوق:

إذن... مَنْ أنت؟!!

عفواً... لا أشكِّك في وضوحك، بل أستزيد من التعرّف عليك أكثر وأعمق، إذا رأيتِ أن هذا الحق المكتسب من «الصداقة» ممكنا.

قرأتك بخاصية... حدّست أنني عرفتك، فإذا ما قرأتك سقَطْتُ في الأسئلة والحيرة... مثلك!!

تُرى... هل أنت قارة «البهاء» التي يصعب اكتشافها؟!

هل أنت مليئة بوعورة الحزن. . . مثلي؟!

هل أنت فيّاضة بأنهار الفرح. . . مثل عاشقين يلتقيان بأشواقهما؟!

في نظراتك ـ من صورتك ـ أجد تلك النظرة الواحدة: الكاسرة، المنكسرة.

في نظراتك. . . أجد تلك النظرة المتحدة مع «السؤال» الذي لا يتعب!

كأنَّ وجهك ـ يا سيدتي ـ يبدأ من أشجاني (كإنسان): أمطاراً وبروقاً.

يدخل وجهك في وجهي: إغداقاً من صدق القلب، ونقاء الروح.

يتمازج وجهانا (الإنسانيّان) بصفاء الحلم.

فهل أنا واهم. . . أم صرتُ راهباً؟!

أتحوّل طائر نورس. . . يرحل نحو ذلك الإغضاء من العيون الأجمل. . . تلك التي تُحدِّق، ولا تبوح.

إن قراءاتي لكلماتك، تجعلني أكاد أتلمّس: أن أوجاعك ذهاب ومجيء.

قبل ليلة. . . كنتُ ـ كما قال الشاعر ـ (أرسمْ عِرْيي على جسد الريح). . . وأصل إلى مسافاتك بتلك الأشواق المقطرة، أو التي تقطّرها صداقة العقل، والنفس الغنية بالود.

ولكن. . . ها هو الوقت يسرق منّا الأمل. . . ونحن نموت في المسافة ما بين الرؤية، والرؤى!

ها أنذا أدعوك: أن نركض خلف الأشواق. . . لتمتزج بها آفاقنا، ولهبنا، ومسالكنا. . . ولتمتزج بها الابتكارات في تأملاتنا داخل عصر «السندويتش»، والمتعة، والمحطات. . . وليمتزج بها هذا الحنين في شرودنا.

ها أنذا، وقد أطَلّت عليك كثيراً كثيراً، أعدوا إليك بقلب مفتوح، صادق، . . . أضناه طول النزف.

ها أنذا. . . أحمل إليك دفء روحي، في صقيع الزيف المتراكم في العالم).

* * *

ـ ٣ ـ

* كأنَّ «عالية» ركضت إلى صدره أكثر، وهي تسرع بكتابة ردها على رسالته الثالثة:

* صديق النبض والفكر / علاء:

ها قد طرق ساعي البريد بابي.

تسلمت «الطرد» المرسل بإسمك إلى عنواني.

وكانت المفاجأة!

انطلقت صواريخك الملونة لترسم صوراً مبهجة في سماء شقتي.

مَنْ قال لك عن فرحي الطفولي بالمفاجآت؟!

مَنْ أخبرك عن ارتياحي للون الأخضر المناسب في عروق أحرف الخطابات؟!

مَنْ أفشى إليك بسر «عطري» المفضل؟!

مَنْ وشى أنك تثرثر طويلاً في الرسائل... لا تصدقهم!!

أكتب لي ما تشاء، وقتما تشاء، فلا رقيب عندي إلا الصدق.

كيف استخلصت من قاموس اللغة معانيّ المفضلة: الإنسان، الشوق، الحزن، الصمت، الصدق، الفروسية؟!

مَن أخبرك، وكيف عرفت؟!!

ترفع راية علامة إستفهامك فوق سطح بحري الصاخب التموجات، وتسألني بعقل وروح الفنان والصديق: مَنْ أنت؟!

ها أنا أفصح لك وقد تعاهدنا على الصدق:

ـ أنا الإجابات التي تلد دوائر الأسئلة!!

عفوك أيها الصديق العزيز، ليس في نيتي زرع الألغاز في طريق العشب الأخضر الواصل بين قارتينا، فقط أحاول أن أتحسس الدقة عند الرد على أسئلتك التي أفرح بها.

إخترتك ـ صديقاً ـ من بين فرسان العالم لترسمني كما أنا.

وأرسم تضاريس روحك كما هي.

دعني بدوري أطرح عليك سؤالي (الذي ربما كنت أعرف إجابته) ولكني ـ مع ذلك ـ أحب أن أسمع رده منك:

ـ هل تحب الحب للحب، أم الشخص المحبوب؟!

فضول زرعته في عقلي من خلال برقك لهذا الجنون، ومن سباحتي في بحر حلمك، ومن تتبعي لبصمات كلمتك الواحدة!

وإلى أن نعاود اللقاء على أرض الإفصاح والأسئلة، لك مني أيها الصديق الأثير، كل الود والتحية).

* * *

صارت الرسائل بينهما متلاحقة... تكتب له فيبادر في نفس يوم وصول رسالتها بالرد عليها... يكتب لها، فتقيم حفلة في غرفتها مع رسالته، وترد عليه.

صار يشعر أن بوحه إليها: حديثه إلى النفس، وسطوع الروح فيه يشرق مع كل كلمة تكتبها له، ويكتبها لها.

صار يخاف عليها بين صدره، وفي عقله، ويركض معها في وريده مع دمائه.

كم أسعدته هذه الرسائل... حتى أنه كان يشعر: أن لا فرح يفوق وصول رسالة منها إليه.

وردَّ على رسالتها الجديدة... فكتب لها:

* أنظري... المشهد مريح، وجذل، ورائع.

إنه لم يعد يتكرر كثيراً الآن في زماننا هذا!

إنني أكتب إليك الرسالة الرابعة، قبل أن تصلني رسالتك الخامسة!!

بخ... بخ!!

أنا فَرِح بهذا (الارتواء) الذي يحضُّنا أن نتسامق، وأن ننبت من جديد: شجرة تشابكت أوراقها وأغصانها.

أشعر أنني (أقتحمك) عُنوة... ولدينا مثل شعبي بدوي يقول:

ـ (لا تدلّ البدوي على بابك... يا عذابك)!

يا عذابكِ... الذي آمل أن يكون: (ليس له بَرَد)!

وهناك بيت شعر تأتي في نهايته الجملة السابقة التي بين قوسين:

هل الحب إلا زفرة بعد زفرة؟

وحرّ على الأحشاء ليس له بَرَد؟!

أنا لا أريد هذا التواجد بطريقة (الاقتحام) في حياة الناس، ولكني تمنيت ـ حقاً ـ أن يفرضني تقبُّلك لما أكتب، ولما أبوح... على وقتك، وعلى التفاتتك.

أَصْدِقك... أنني أريد أن (أسرق) اهتمامك، وجزءاً من تذكّرك... لكي أكسب وعيك، وفهمك، ورأيك الناضج، ونقاء مشاعرك.

آه... المشاعر!!

هل قلت لك شيئاً إذاً؟!

يبخل الناس بمشاعرهم... لأنهم صاروا يخافون عليها، ومنها!

يخافون عليها... من التجنّي، والظلم، والاضطهاد لها.

ويخافون منها... أن لا تُحسن الاختيار، وترتطم مهشمة.

أنا معك... هناك عدة (كيَّات) في بعض الضلوع، وحتى في أجزاء من العقل... ممكن أن ينكوي القلب بفجيعة في حب: هذا مؤثر، ورهيب.... وقاتل: أن ينكوي (العقل) بخديعة من رأي، أو سلوك، أو ثقة!

أرجوك... لا تدعي أي واحد منّا يفقد الآخر، فقد وجدتك أخيراً.

أرجوك... لا تدعي هذا الواحد، المتوحّد في داخلك وداخلي، وقد زرع في كل منّا الثقة... أن يضطر إلى هدم الوحدة، لئلا نخسر التوحُّد.

لماذا أفتح لك دماغي، وقلبي... في آنٍ واحد؟!

هل سألتِ نفسك؟!

هل ترغبين أن تطرحي هذا السؤال عليّ؟!

لم يخطر السؤال على بالي... إلاّ في هذه (الثانية)، وأنا أكتب لك.

ربما... لو تمخّض هذا السؤال من قبل... لأعاقني عن الركض إليك.

ملعونة تلك الأسئلة التي تقفل أبواب الفرح.

ملعون «أبوه»... كل سؤال يبعدنا عن الذين تنضج بذرة «خصوصيتهم» في أعماقنا.

عفواً... لست شتَّاماً، ولا أقدر على ذلك.

فقط... متوتر أنا... صقيل أنا، مثل واجهة «الأمبايرستيت»!

ولكن... لماذا «الأمبايرستيت» اللعينة؟!!

لأقُلْ: صقيل جداً... مثل بناء (تاج محل) الشهير في الهند بقصة حب آخر المجانين في الشوق!

فهل كان آخرهم؟!!

خرجنا عن الموضوع... أو لعلني شعّبته، وهذه سِمَة الثرثارين!

ألم أقل لك: أنني متوتر، و... (منفلش) ـ حلوه منفلش؟!!

ها أنذا أفتح دماغك بثرثرتي... ولكني ـ أيضاً، أفتح لك دماغي،

وقلبي. . . وأخاف عليك، ولا أخاف منك!!

كلماتك (مريحة) جداً. . . تزرع الاطمئنان في نفس من يقرأها، ثم مَنْ ينشدُها حين تروق له كنغم. . . ثم من (يتلوها) حين يؤمن بها.

قد يكون هناك قارىء يلعنك. . . ممكن، ولا بأس.

اللاعنون في زماننا: ضعف عدد خفقات القلب!

والملعونون: هم (أوديسّة) الحياة!

أي عصر هذا؟!!

تذكّرت عبارتك في الهاتف، وأنت تقولين:

ـ المسافة بين القاهرة وجدة: ساعة ونصف، الناس «بييجوا ويك إند»!

طبعاً. . . أستطيع!

وطبعاً. . . لا أستطيع!!

و«طبعاً» هذه مرسّمة بأسباب. . . هل تريدين معرفتها؟!

اريد أن آتي. . . لأراك، لأصغي إليك، لأثرثر في سمعك، وأرتاح كثيراً عندما أتأكد أنني لم أكن أضايقك.

وأرتاح (أكثر). . . عندما تثرثرين أيضاً، وعندما تخاطبين (الإنسان) في داخلي، القادم إليك، المنفتح نحوك.

ونشرد بتحديقنا بعيداً، على امتداد النظر إلى النيل، ووراء «أبو الهول». . . . . وقد صرنا: الصوت والضوء!!

صورة تفوق أن نَصِفها بالشاعرية.

إنها (دخول) إلى حميمية النفس، وتوحّد المشاعر.

ولا بد أن تعرفي: أنني لا أفعل هذه «الخصوصية» مع الناس... وأحيانا... ولا حتى مع نفسي!

حقاً... (لماذا أنت مريحة)؟!

❋ ❋ ❋

❋ آلمته عيناه، والنوم ينهمر فيهما كطوفان... لكنَّ رسائلها إليه، ورسائله إليها: تعيده دائماً إلى صدق النفس، ونقاء الوجدان، وشفافية الروح.

لا يستطيع الآن أن يكمل قراءة بقية الرسائل... لا بد أن ينام ليستعد للسهرة.

أقفل حقيبته، وأطفأ ضوء الغرفة، وأسدل الستائر... وأغمض عينيه، وقد تخيّل أن «عالية» تهدهده كطفل شقيّ يرفض النوم!!

❋ ❋ ❋

❋ سمع قرعاً على الباب، تململ في فراشه... واستمرت تلك اليد تخبط على الباب.

تطلّع إلى ساعة يده... وهبَّ جالساً فوق سريره، يقول:

ـ ولْ... الساعة الرابعة عصراً؟!

وجد صديقه «حامد» خلف الباب... يحضُّه على الاستعداد للخروج:

❋ خروج إيه.... تعرف نمت الساعة كم؟!

ـ إن شاء الله نمت قبل ساعة. . . عالية وفادية في طريقهما إلى هنا، حضرتك رافع سماعة التليفون لئلا يزعجك أحد!

* حالاً، حالاً. . . واحد «بِشْبش» / استحمام، وأحلق الذقن. . . وتجدني «على سُنْجة عشرة»!

ـ يا أخي إنت إنسان مُتْعِب. . . فوضوي، «لا تتشيَّك» كثيراً، لو عندك شورت أحسن.

* شورت في الشانزليزيه. . . يا فضيحتاه؟!

ـ سأهبط لشراء الصحف. . . شرط أن أعود فأجدك جاهزاً.

* متى وعدْتك فاتنتك بالحضور؟!

ـ بعد نصف ساعة.

* أوهوووه. . . أعطيهما ساعة، هذه مواعيد الجنس اللطيف يا عبد اللطيف.

ـ يا أخي إنت غلباوي. . . تسمح تخرج من الحمام؟!

ها هي الأرض تمشي به إلى السفر. . . وها هو السفر ـ هذه المرة فقط ـ يقدم له أجمل وأزكى باقة زهر لم تُضمَّخ عمره مثلها من قبل هذا الأريج الفوّاح.

كان «علاء» يتقافز في غرفته كطفل سعيد، وهو يرتدي ملابسه يغني أغنيته المفضّلة من عبد الحليم «أهواك» وهو يؤديها جزلاً: «أهْ . . . واك»

ترى هل يهوى «عالية» حقاً وإلى أي مدى؟!

عاد «حامد» بالصحف و«علاء» يسأله مع فَتْح الباب له، هل أهواها وا أي مدى؟!

ـ قال له حامد: إسأل قلبك أسأل روحك، يا ولدي إتْقل، والله خايف عليك من رومانسيتك المتهورة!!

قال علاء: إسمع يا آبيه الحياة مَرَّة واحدة، وأنا حساس إني راح أموت بدري يا عمي: «فاغنم من الحاضر لذاته فليس في طبع الليالي الأمان» كما قال عمَّك الخيام!

ـ الباب الباب، مَنْ الهاتف الداعي؟!

* أنا ليلى، وهذه عفراء!

ـ قال لهما علاء: صباح الليل في العصر ما هذا النوم؟!

* قالت عالية: جئنا لثلاث: النوم، والإجازة في السياحة، ونسيان الساعة؟!

ـ قال علاء: بخ بخ، إذن بعد النوم الصعلكة، فإلى أين؟!

* قال حامد: ماذا تقول أميرتي الصامتة، الهيفاء، اليعبسة، فاتن؟!

ـ صعد صوت فاتن أخيراً، وقالت كأنها تهمس: أي مكان يجمعنا معاً يصبح جميلاً.

* صرخ علاء: الله بيننا شاعرة رومانسية.

ـ قالت عالية: طبعاً أليست صديقتي، برغم أنها مشغولة بعملها ولا تجد الوقت حتى للقراءة؟

* قال علاء: ما رأيكن في صياعة عبر الشانزليزيه/ مروراً بالمقهى الشهير، «الفوكت»؟!

ـ قال حامد: إنت أخرج من الغرفة أولاً، وتأكد أن أقدامنا ستأخذنا حسب ما تديرها عقولنا ورغباتنا المهم تخرج يا غلباوي.

❊ ❊ ❊

❊ في باريس فاجأهم الطقس الحار، كان الحر ـ فيما يلوح ـ موجة تلطم وجه باريس، في ذلك الصيف سكان المدينة فرحون بسطوع الشمس، بعكس القادمين إليهم الذين يتشوقون لقطرات المطر، وللسعة البرد التي تجعلهم يفلسفون معنى الدفء بعد ذلك.

ـ باريس ـ أيضاً ـ لا تختلف، سواء في الصيف أو في الشتاء في الحر أو البرد فهي مدينة الصدور المفتوحة، والعقول المفتوحة، والثقافة، والدراسة، وصراع المثقفين ومنفاهم، وتعبهم وراحتهم.

وفي باريس: عشرات الوجوه من مثقفي وفناني العالم العربي، وصحافييه، مقيمين وعابرين يحدثونك عن الحرية، والديمقراطية، وفلسطين وأيام الحجارة، والوحدة العربية يرحمها الله، والحداثة والغلاسة، ولا يشعرون المستمع لهم بالتناقض فيما يقولونه!

وانطلق الصحب إلى «الشانزليزيه»، هابطين من ذلك الشارع المتفرع منه: شارع بلزاك، حيث يقيم علاء وحامد دائماً كلما قدما إلى باريس في فندق «بلزاك».

❊ قالت فاتن: صحيح لماذا اختياركما لفندق بلزاك دائماً؟!

ـ ضحك حامد وأجابها: حتى لا ينسى صديقي علاء «الأدب»!

❊ قال علاء: أحياناً قلة الأدب تأتي إضطراراً، وليتني أستطيع أن أكتب

مثل تلك الرسائل التي كتبها بلزاك عام ١٦٢٤، وأثَّرت في تهذيب النثر الفرنسي.

ـ قالت عالية: لا أحب «الفوكيت»، ولكن تعالوا «نُشيِّك» عليه.

* قالت فاتن: بلاش سيكون مزدحماً بالعرب!

إتخذوا طريقهم إلى عمق «الشانزليزيه» مروراً بالمقاهي، والمطاعم، والفنادق، والمعارض الجذابة، والوجوه من كل السحنات، والسيقان التي تمشـي، وتركض، وتتسع: عارية، وشبه مدثَّرة والزحام في هذا الشارع لا يكف عن الحضور وكأنّ جادة «الشانزليزيه»، ومعارضه، والمعروضات فيه من كل صنف ولون بشري: كلها ترتقب الهجمة السياحية الصيفية العربية.

لم تكن تلك الجولة للشراء، خاصة لهاتين السيدتين المليحتين، بل فضلوا جميعهم في هذه الجولة الأولى: الاستعراض، والإلمام، والاكتشاف، ودائماً العرب يتبضّعون قبل سفرهم بيوم.

ـ قال حامد: تعبنا تعالوا إلى «الفوكيت»، وأبشركم: عدد العرب قليل برغم أن كراسي هذا المقهى العتيق ـ كما قالوا ـ من التراث العشريني.. العربي!!

* قلت فاتن: إذن لا مندوحة من الفوكيت، كما تقولون في خطابكم الأدبي؟!

واختلطوا بجُلاّس «الفوكيت» في تلك «العصرية» الباريسية الكل يتفرج على الكل وهذه «الفرجة» صاحبها موجوداً بمزاجه وليس غائباً كصاحب المولد.

ـ قـال عـلاء: هـل قـرأتـم الـخبـر الـذي نُـشر قبـل يـومـين مـزاجه يـنعـي «الفوكيت» مقدماً؟!

* قالت عالية: أدباء وفنانون وحتى صعاليك فرنسا، ورواد الشانزليزيه: غاضبون جداً من احتمال إقفال هذا المقهى الذي شهد حقباً تاريخية، وألواناً من البشر.

* قال حامد: ما أسباب هذا القرار؟!

ـ قال علاء: أصحاب المِلْك/ شركة عالمية تملك المصالح الكويتية حصة كبرى فيها فكّروا في استملاك المبنى، وربما هدمه، وإنشاء مبنى حديث.

* قالت عالية: المقاهي القديمة في العواصم الكبرى تحفل بالذكريات وبالتاريخ، ولدينا في مصر ـ كما تعرفون ـ بعض المقاهي الشهيرة التي ارتبطت بالتاريخ، وأسماء كبيرة من الكتّاب، والفنانين، والسياسيين، وغيرهم.

ـ قال حامد: أنتَ يا مثقف ألم تقرأ عن لجنة الإنقاذ التي شكلت، ومن أعضائها مِيشال فيلون الذي وصف الفوكيت بأنه: روح باريس؟!

* قال علاء: لازم تلبَّخ نعم قرأت، ولا بد لأن المطاعم الأميركية السريعة: سعيدة بتقويض مقهى تاريخي شهير لتتسع في ترويج الهامبورغر، أو لأمركة المطاعم.

هكذا تبلورت جلستهم في مقهى «الفوكيت» بشيء من التحسُّر على محاولة هدم هذه الذكريات التي تجمع الفرنسيين وكل السوّاح من كافة جنسيات العالم.

فجأة قال حامد: أنتم مدعوون الليلة للعشاء في مطعم ياباني فخيم!

ـ قال علاء: لكن لا تنس أن أسعار المطاعم اليابانية في باريس: نار.

* قال حامد ساخراً من صديقه: «قدّها وقدود يا ولد»!

ـ قالت عالية: لا تتخانقا المهم أن نتعشّى!

واتجهوا شطر مطعم ياباني شهير وقد تركوا وراؤهم أصداء أصوات كثيرة، من أحلاها: صوت «ميراي ماثيو» الحزين، أو الباكي كما يصفونه!

* * *

ـ ٤ ـ

* أجْمعت هذه الصحبة في «قفلة» سهرة البارحة، بعد خروجهم من المطعم الياباني على تنفيذ اقتراح «عالية» وهي تقول لهم:

ـ ما رأيكم في الغد نركب القطار، ونخرج بعيداً عن باريس إلى مدينة أخرى ـ إلى «دوفيل» مثلاً؟!

* قال علاء: أنا موافق طالما أننا سنكون معاً.

ـ قال حامد بخبثه المعهود: طبعاً لازم توافق، فمن الذي اقترح؟! ومن أجل أن تكون مع عالية ما أنت سائل فينا يا أخ؟!

* قالت فاتن: لماذا تهاجمه دائماً والله راجل لطيف، ومؤدب!

تعالت قهقهاتهم حتى بلغوا فندق السيدتين ودّعاهما إلى الصباح.

في الطريق إلى فندقهما وجه «علاء» سؤالاً بعفويته التي قد تبلغ حد السذاجة النابعة من طفولة المشاعر، إلى صديقه حامد:

ـ ما رأيك في «عالية»؟!

* أجابه: أنت لن تقدر على المحافظة عليها؟!

ـ ولماذا يا آبيه الأستاذ؟!

* أنت ضعيف أمامها بحبك أنت يا صاحبي «اندلقت» عليها، واللي كان كان!

ـ أنا أسألك عن شخصيتها ورأيك بها، وليس عن ضعفي و«دلقتي»!

* أنا أجبتك هي من النساء الفاحصات للرجل، تحتاج إلى رجل مثلي وليس إلى رجل مثلك: رومانسي، حالم، واقعي، منطقي، رومانسي ضعيف امام إمرأة!

بلغا فندقهما... وكل واحد منهما ذهب إلى غرفته صامتاً بعد تأكيد على موعد الصباح.

كان مساء «علاء» مرهقاً بانتظار الصباح القادم ليرى «عالية»..

كانت عيناه هما: المرفأ والشراع وخفقه هو الملاّح التائه..

وأبحر بنفسه هذه في رحلة ثمالة المساء صوب الفجر، استقبالاً لشروق عالية.

وقف خلف نافذة غرفته تتشرد نظراته بعيداً، وربما ركضت إلى حيث تقيـم «عالية».

نظراته: غرقى، غرقى... شرفة تطل على كون صامت بعد أن انسحب وجه «عالية» خلف نافذة غرفته وصوتها.

صوت من داخله يهمس لنفسه:

ـ هل تعرفين؟! لقد حلّقت وًشردت ليالٍ طويلة قبل لقائها، مستغرقاً في النداء عليها، متأملاً قدومها إلى واقعي!

وكأنه يخاطب «عالية»، وقد تخيل بإحساسه أنها تجلس بجانبه، ويمسك بيديها فهمس لها:

ـ خيّل إليّ أننا بأعمارنا نشارف على الليلة الواحدة بعد الألف فأصغى معي لغناء «ثومه»:

«يا حبيبي إيه أجمل من الليل

واتنين زيّنا عاشقين

تايهين ما احناش حاسِّين

العمر: ثواني، والاّ سنين

حاسِّين إننا بنحب وبس»!!

ياه «عالية» الأعمق من الألف ليلة بكل ما فيها هي: «هذه ليلتي» فالإنسان يحيا الليلة الواحدة طوال الألف ليلة التي يعيشها بعد ذلك ولو عاش!!

وضع يده على الهاتف متردداً: هل يطلبها، أم لاّ؟! ولماذا هي امتنعت عن الاتصال به؟!

عاد يدندن بأغنية «ثومة»:

* «كم أذلّ الفراق منا: لقاء

كل ليل إذا التقينا: صباح

لن يرى الحب بعدنا مَن حَدَاه

نحن ليل الهوى، ونحن ضحاه»!!

تناول الهاتف تشجع وطلبها، جاءه صوتها ناعساً، كأنها تقول من خلاله: دعني أنام.

إعتذر لها، ومع قفلة سماعة هاتفها كان يحاور في داخله: الجدال في معنى البوح هل هو مجرد سفسطة وهل ما يُميّز أعماق الإنسان ويحتفظ ببصمات وبوشم الأجمل: هو الأكثر التصاقاً، وهو الذي يشعل الجمر الكامن تحت رماد السنين فيما بعد؟!

النبض لا يُختتم وكان نبضه يجنُّ باسمها، ينادي البحار، والكواكب، والمدائن لتردد إسمها معه.

يرتقب وجهها يطل من لحظة الصباح القادم من دروب الغد، ليقول للناس: هذا وجه حبيبتي!

كان يحاول مع النوم لتمضي الساعات المتبقية من الليل فيشرق الصباح بوجهها.

وكان يرغب في الاستمرار مع طيفها، والحديث معها حتى الصباح.

حتى غلبه النوم.

❊ ❊ ❊

❊ وقف أمام وجهها، واستقبل طلوعه في صباحهما الجديد.

أمام وجهها الذي كان متلفِّتاً نحو صديقه «حامد» يتحاوران كان ينفي الكذب عن سريرته، دون أن تلتفت نحوه.

إغترف جراحه القديمة، وباعها للنسيان كأنها في عمره الآن: اسطورة يعبق بخورها في كل العصور.

ها هو يعجز عن حماية تسلُّطها على خفقته، وفكرته، وذاكرته وعشقه لها يزهر كلما أغمض عينيه ليراها أكثر.

كان يصغي إلى حديثها مع صديقه وصديقتهما، وكأنه يحلق بعيداً بعد أن اختطفت روحه منه وكان يمتح من ضلوعه: متعة هذا اللقاء الأول، كأن الأشياء تؤوب من غيبتها وغربتها في صدره.

وصحا على هزة من يد صديقه فوق كتفه وصوته بكلماته التي يُقرّعه دائماً:

ـ «يا أخ اللي آخد بالك، بدَّك تمشي معانا الرحلة، وإلاّ أحسن تجلس ونعود إليك في الغد»؟!

مشى خلفهم دون أن ينبس بكلمة حتى وصلوا إلى محطة القطار.

ـ سألته عالية: ماذا بك أنت لست معنا؟!

* أجابها: صحيح أنا معك أنت وحدك!!

ابتسمت، ولم تجبه تذكَّر الأقوال (الحكيمة!) التي صارحه بها صديقه «حامد» يوم أمس، عندما وصفه بأنه: ضعيف أمامها بحبه، وأنه «اندلق» عليها بينما ما زالت هي تتفحصُّه، وتسبر أغواره.

ـ ترى هل يفشل في المحافظة عليها كما تحداه صاحبه؟!

سرى الدفء في كفه عندما احتوته بكفها، وهي تقول له:

ـ إلى القطار أيها الشاعر.

وقبل أن يختاروا مقاعدهم بادر صاحبه «حامد» يقول لهم:

ـ أنا وفاتن سنجلس في هذين المقعدين أنتِ وعلاء ستجلسان في المقعدين أمامنا بالضبط.

* قالت: ولماذا لا نجلس في مقعدين آخرين؟!

ـ قال ضاحكاً: الأمر لك لكنَّ القطار ملآن، فحاذري!

رمته بابتسامة، وجلست بجانب علاء في المقعدين الأماميَّيْن.

* قالت لعلاء وهي تلصق كتفها بكتفه: ألاحظ أنك دائم الشرود.

ـ قال: فيك ولا أدري كيف انتزعت هذه الخصوصية لك وحدك مني؟!

* قالت: نحن نمتاز بوجدان نقي تنتابنا حالات تمرُّد حتى على أنفسنا، وكأنك الآن في هذه الحالة!

ـ قال ضاحكاً: نعم أتمرد بك عليك، أو أتمرد عليك من خلالك ولكنْ، دعيني أسألك: لماذا أنتِ مريحة؟!

لا تجيبي من فضلك إنه سؤال أدخل به إليك بعد أن مزجتني بالشعور الأصدق الذي منحته لي وحدي من خلال رسائلك!

* قالت: وهل وجدتني غير رسائلي مختلفة عن ما رسمته لك فيها عن شخصيتي وطباعي؟!

ـ قال: لا بما كتبت حروفاً ذهبية، وإنما بكل هذه المعاني التي تبلورت: أنت المعاني، والمعاني أنت فالإنسان إذا اختلف مع معانيه، فما أشد ما يعانيه!

* قالت: أنت إنسان حساس جداً ربما أكثر من اللازم، أو من المعقول!

ـ قال: جلست أتأمل صورتك يوماً كأنني ذلك الطفل الشقي/ العفريت،

نعم صورتك فلا تستغرقك الدهشة في لحظة شجاعتي الجميلة، وتحادثت معك من خلالها في محاولة مني لاختصار بحثي الطويل فيك عن توأم الروح والنفس والفكر.

* قالت: وماذا قلت لصورتي يومها؟!

ـ قال: حينما أكون أنا / أنت، فلا أسأل: لماذا أكون غيري؟! لأنك حينما تكونين أنا، لن تكوني غيري ولأني حينما أكون أنت، لن أكون غيري أيضاً!!

كنت أحتاج إلى هذه القيمة الرائعة من صداقتنا التي وثّقتها معانٍ كثيرة رغم نهدتها، وأحتاج أن أحاور هذه القيمة أمامك، وأن أشكو لها، وأفضفض، وأصغي إلى شجونها وعمقها.

* قالت: مفتاح قيمة الإنسان يتركز في هذه الثوابت: الحرية، والعدل، والحق، والحب، والاستقلال، والمغامرة.

ـ قال: تفاهات الحياة اليومية تستأثر بمساحات من أرض عمرنا، لكننا ـ يا صديقتي ـ في عصر يعتسف أحياناً معرفتنا، ويحتل مساحات بما يفرضه لا بما نريده، ويشنق مسافاتنا بعراقيله.

نقاوم؟ نعم، نرفض؟ لا بد، نغضب؟ رائع، نخاصم كلماتنا وأنفسنا؟ لا!

* قالت: لعلنا نتشابه في أشياء كثيرة / أنت وأنا وجميل أن يمتلك الإنسان حلماً، وأن يكون الحلم له شفتان تبتسمان، وذراعان مفتوحتان للاحتواء بحنان، والفهم بعمق وأحلم بأرض: طينها خصب، وهواؤها لم تلوثه ذرات القنابل وأشعة الكيماويات، لأغرس في باطنها بذرة صدق ساعتها

سوف تنبت البذرة ألف ثمرة عشق وإبداع وفرح وساعتها سوف أكون ـ أنا ـ قد بلغت ما أبتغيه من إشباع وفرح.

ـ قال: تعرفي يا عالية بدونك أو من بعد لقائنا هذا: سأبقى بتلك الألفة الجائعة، وهذه هي اللوعة والله فهل رأيت عشباً على شكل إنسان؟! أنا المشاكس الجامح الذي يعلن عليك إنسانيته، وفهمه، وميميته، وأشواقه لتمنحيني قدرة أخرى معك.

❊ ❊ ❊

❊ سحبت «عالية» كفها من أسرْ كفه طوال رحلة القطار، وهي تقول:

ـ ها قد وصلنا، حمد الله على السلامة.

جاء صوت «حامد» من الخلف: حمد الله على السلامة ما شاء الله، هذا كله كلام، أم همس خاص؟!

ـ قالت له عالية: بل هذا عطاء!

وانطلقوا يركضون في مدينة «دوفيل» إلى شاطىء ازدحم فيه الناس، والمطاعم، والشماسي، والمايوهات.

❊ قال «حامد»: مَنْ يُرِد شراء مايوه يتبعني.

ـ قال علاء: أنا أريد شراء مايوه لكني لن أتبعك.

كانت الشمس مشرقة، والحبور يفيض من وجوه هذه الصحبة.

وتنقلوا من مكان إلى آخر، ومن مطعم إلى مقهى والحوار يشتعل بينهم ويخبو، وقال «علاء» لرفاقه:

ـ يقولون في أوروبا: إن باريس هي نصف حقيقة العالم، باعتبار أنه ليس في الحياة حقيقة كاملة، وباعتبار أن باريس هي عاصمة العالم في الثقافة والفنون.

* سأل حامد صديقه ساخراً منه كعادته: وأين الحقيقة الكاملة يا فصيح، أو ما هي الحقيقة الكاملة للعالم؟!

* أجاب علاء متلائماً: هناك مَنْ يصرُّ على أن أميركا هي الحقيقة الكاملة للعالم.

* قالت فاتن على مسمع من عالية التي تتابع الحوار صامتة أو شاردة: وما هو رأيك أنت؟!

ـ قال علاء: في رأيي.. أن الأسكيمو هي الحقيقة الكاملة، باعتبار طقسها الثلجي.

أخذ النهار يميل إلى الغروب إيذاناً برحيله وكأن هذا الوقت الجميل ـ المستقطع من وقتهم الأصلي ـ قد بلغ الثمالة، ولا بد من عودتهم إلى باريس.

ولكنهم في محطة القطار فوجئوا: أن الرحلات إلى باريس تتوقف مع الغروب أو دخول المساء، ولا تستأنف إلاّ في بكور الصباح التالي.

إذن لا بد لهم من البقاء هذه الليلة في «دوفيل»، والبحث عن فندق.

وفي الفندق أعجبوا بموقعه الذي يشرف على البحر، وبقاعته الجميلة واتفقوا أن يلتقوا بعد ساعتين في القاعة الرئيسية لتناول العشاء والسمر، بعد أن يكون كل واحد قد أخذ قسطاً من الراحة، وخضع لحمام منعش، واسترخى قليلاً لتجديد نشاطه.

وسحب «حامد» صديقه من يده، وهو يقول:

ـ تعال أيها الشيخ نذهب إلى غرفتنا، ودع المليحتين تذهبان إلى غرفتهما.

واسترخى «علاء» على السرير العريض، محدقاً في سقف الغرفة، وصوت صديقه يثرثر:

ـ «سرحان في إيه ما شاء الله، طول الطريق من باريس إلى هنا، ما خلِّيت كلمة على قلبك إلاّ وقلتها لها»؟!

لم يرد على صديقه كأنه كان يحدق في عينيّ «عالية» فما أبعدها في هذه اللحظة، وما أقربها؟

عطاؤها له: أخرجه من زمن رديء تعطَّلت حواسه، وأدخله زمناً يتَّصف بالرؤى القوس قزحية بالحلم الجميل.

ولا بد أن الساعتين ـ في انتظار علاء لانقضائهما ـ تُشكِّل وقتاً مملاً.

* * *

ـ ٥ ـ

* ضمَّهم مطعم الفندق الهادىء على ضوء الشموع... وقد تركوا لصديقهم «حامد» مهمة اختيار أنواع المأكولات لهم، باعتباره «ذويّقاً» يُعزُّ الأكل كثيراً، ويحتفي بالاختيار للأطعمة... فهو يقول:

ـ متعة السفر: رفيقة مليحة، ومطعم فخم يقدم طعاماً فاخراً ولذيذاً، وحرية شخصية تعلمك الالتزام وتطرد عنك الفوضى!

وتعالت ضحكاتهم في مساء دافىء، تصبغه روح العِشْرة والألفة.

بعد العشاء... انتقلوا إلى صالة للشاي تطل على البحر... و«علاء» يتطلع إلى عينيّ صديقه وقد كانتا تومضان!!

ـ قال حامد: أستأذنكم بعض الوقت، وسيكون قصيراً... أريد أن أتحدث مع «فاتن» وحدنا... «انتوا مالكم»؟!

قالت عالية: ما رأيك ـ علاء ـ أن نقطع هذا الشارع الذي يفصل الفندق عن البحر، ونتمشى فوق الرمال... نوشوش البحر، ونتلحف الليل، ونومض في ظلاله؟!

لم يكن استفتاءً بل قرارا نفَّذاه فوراً، وغادرا بوابة الفندق الخلفية في

اتجاه البحر، قطعا الشارع، وأخذت خطواتهما تغوص في الرمال... وقد تشابك كفّاهما في وحدة المشاعر.

ـ قال علاء: ما رأيك لو خلعنا الأحذية، وانطلقنا حفاة فوق هذا الرمل النقي الغزير؟!

نفَّذت «عالية» فوراً، وصار كل واحد منهم يحمل في يده حذاءه، هما يغيبان صوب البحر، في حلكة الليل، ووميض أضواء بعيدة، وبياض الثلوج الذي يعلو ثم يتكسر عند قدم الشاطيء.

أمام البحر... تجمَّع جسدا عالية وعلاء فوق الرمال... إحتضن يدها بكفِّيه الجمرتين من توقّد بين أضلعه... وأخذ يحدق في عينيها بعمق سواد الليل واتساعه، ولم يستأذنها.

رأى في عينيها: تحولات البحر، ولحظة عمر ضوئية.

ـ همس في أذنها: صرتِ وطناً لخفقتي، وكلمتي، وصدقي، وفرحتي.

* قالت: ألا تخون هذا الوطن يوماً؟!

ـ قال: كيف أخونك أنت حلمي الذي أنقذني من مؤامرة العمى والصم التي ينفِّذها عصرنا المادي ضد أرواحنا، وأحلامنا؟!

* قالت: دعني أسألك... هل تحب للحب، أم لشخص المحبوب؟!

ـ قال وهو يضمها إلى صدره: أتمازج مع فضولك الذي أرتقب مثله في كل وقت... وحتى لا يصاب سؤالك بالملل، ولا تصاب إجابتي بالصدأ، أقول لك: إن حب الحب... موهبة، وطبيعة أعيشهما وقد فُطرت عليهما... وحتى يكون الحب جميلاً في وجداني فإني أكسو به الحبيبة،

لأني أريد الحب الذي أحبه أن يكون: مثالاً... يتشكّل رمواً يتعمّق في وجداني ولا يصنعه غير حبي!

إستلقت «عالية» على الرمل بعد أن وسَّدت رأسها حِجْر علاء، وضمته بيديها وهي تقول: أكمل... أريد أن أسمعك.

ـ قال: إن الحبيبة هي التي تفسِّر لي حبي للحب... ولو لم أحب الحب، ما كنت أحببت الحبيبة... الغربيون/ الأوروبيون: جعلوا الحب العذري «إنعاظاً» فكرياً، ولكن... لدينا حب الحب أيضاً: التضحية، والإيثار، والتفاني، والوفاء... كما يبدو حب المحبوب عكس ذلك، خاصة في المجتمع الشرقي الساخن، مثل: الغيرة، والخصام، والانفعال، والكراهية أيضاً كعاطفة مضادة!

إن حب الحب هو الذي يوسِّع الأماكن... لأن القلوب تتَّسع بالحب، وأنا كإنسان أحاول الإعلان عن الحب المطلق، لكنَّ الأشياء الجميلة في عصرنا اليوم صارت وحدها هي: التضجية، والألم، والحزن، والحب... بعد الموت!

* همست على صدره: المهم... الحرية تبقى هي قضيتي التي لن أتنازل عنها؟

ـ قال: كيف تُعرِّفين لي الحرية الشخصية؟!

* قالت: «ببساطة... هي تحقيق الذات»!

إرتفعت موجة بيضاء إلى الأعلى... حتى كادت تلمس قدميهما.

إستلقى «علاء» بجانب حُبِّه... واحتضن صدره رأسها، وغطى شعرها الحالك كل وجهه... وعزف لها كلماته قائلاً:

ـ قال تربادور مجنون رائع: من أعلى رأسي يهطل المطر المزمن.

وأنا أقول لك يا آخر النساء وكلهن في عمري: من أعلى الزمن... ها أنذا أستقبل هطول مطرك، فأنت الأعلى قيمة، والأغلى شعوراً... شوقي إليك يتزايد حتى وأنت الآن في عمق حضني... أفتح لك وبك دفاتر عمري على صفحات النطق والبصيرة والخفقة.

إسمعي إحدى ترانيم «السيَّـاب» حينما صوَّر الشوق الذي يحضُّ دمه إليه، فقال:

* «شوق الجنين إذا اشرأبَّ

من الظلام... إلى الولادة

إني لأعجب...

كيف يمكن أن يخون الخائنون»؟!

* قالت: الشوق يا حبيبي... الشوق صار جنوني بك!

إمتزجا بحبات الرمل، وسُمْرة الليل، وبياض الموجة، وضحكة القلب.... صارا إنساناً واحداً بجسدين مذابين في لحظة العمر الضوئية لن تكرر بهذا العمق فيها، وبهذه الروعة في عطائها، وبهذا الصدق في توحُّدهما!

* * *

* أنها «النساء» في امرأة واحدة: غجرية في أنوثتها، مغامرة بعقلها، وصفت نفسها لصديقها «علاء» في طريق عودتهم بالقطار إلى باريس، فقالت:

ـ «أنا أنثى مركَّبة... وعندما ينتابني الإنهاك في فكري، أو في عاطفتي،

أو حتى في مزاجي... فلا بد أن ألوّن نوعيّتي... وربما هربت إلى بيئة بدائية»!

* قال لها علاء: هل تذكرين ألغاز «هل» الثلاث التي كتبتها لي في رسالتك الثانية؟!

ـ قالت: نعم... ولم تفسِّرها لي.

* قال: الأولى التي جاءت في هذا السؤال: هل سيخوض إثنان متمازجان/ التجربة معاً والمعاناة؟!

وإجابتي: أنا لا أراك «تجربة»، بل أنت «قيمة» تهبْتُ حتى احتضنتها واحتصنتني.

والثانية هي: هل سنلتقي لنواصل البكاء الصامت بعد ذلك؟!

وإجابتي: إذا كنت أشعر بك فرحاً... فهناك بكاء واجد لا بديل له هو: بكاء الفرح... نحن أطلنا كثيراً في البكاء الصامت من أجل إنقاذ الحلم.

والثالثة هي: هل سنصل إلى تحقيق الحب... إمتزاجاً بحب الحب!

وإجابتي: أُلح، وأُصرُّ على ذلك... مهما حدث، ها... مهما حدث!

ـ قالت: لا تلُمني على صمتي أحياناً، فليس فيه إهمال لأسئلتك، لكني أدخل في التأمل بسبب ما مضى من حياتي منذ كنت أجلس وحيدة بين جدران غرفتي، مما منحني فرصة الانفراد بنفسي... واتساع مساحة التخيُّل عندي.

* قال: هل تمنحيني الآن خصوصية الانفراد بنفسك كأنك تحاورينها من خلالي؟!

ـ قالت: أنت تعرف قيمتك عندي.

* قال: إذن... هل أتجرّأ و...... أبوح بما في سيريرتي؟!

ـ قالت: لا تخف... فلن أظلمك لأنني قضيت حياتي في البحث عن العدل.

* قال: وأنا قضيت حياتي في البحث عن الاثنين: العدل والحب... فهل أطرح عليك صميم ما أحرص على الاطمئنان عليه عندك؟!

ـ قالت: شوّقتني وأثرتني... إني أسمعك.

* قال: حسنا... بعد تجربتك الحزينة، ولا أقول القاسية، بعد أن خُضْت بحر الزواج، وعدت من أوله دون أن تتعمقي فيه... ما رأيك في الدخول فيه الآن؟!

ـ قالت: ماذا تقصد... أن أتزوج من جديد؟!

* قال: وما الذي يمنع... أنت أنثى مميّزة، وجميلة، ومثقّفة، وناضجة.

ـ قالت: الزواج لم يعد غاية عندي... ربما كان اضطراراً!

* قال: حتى ولو كان إطاراً لحب متبادل؟!

ـ قالت: المرأة لن تكون دمية للرجل بواسطة هذا الزواج، والرجل لا يريدها سوى دمية، حتى تتحول بعد الأولاد إلى تحفة من بين تحف البيت وبراويزه.

* قال: أنت دائمة الهجوم على الرجل بأسلوب ينال من كل الرجال!

ـ قالت: لأن الرجل ما زال يعاني من الانقسام في داخل نفسه إلى درجة الهلع، ويبدو لامرأة مثلي أيضاً: أنه مموّه الرؤية حين يتعامل مع المرأة... بمعنى: أنه أنانيّ جداً.

* قال: عندما تهاجم امرأة رجل في شخصيته وتعامله معها... ألآ يعني ذلك: أنها تريده وتُحبه؟!

ـ قالت بحدة: ومن قال أنني شاذة؟!... أنا لا أرفض الرجل كرجل، لأنه نصفي الآخر... لكني أرفض أنانية الرجل، وعدم وضوحه، وانقسامه في نفسه.

* قال: تعني أنك وحدانية نفس... تتحول إلى بحيرة نيرجس؟!

ـ قالت: لا بد أن تكون لدى الرجل قدرة على التنازل قليلاً لشريكته في تجربة الزواج الإنسانية... أيضاً لا أعتقد أن الرجل يعي ذلك الاختلاف في الفسيولوجية إلاّ أنه اختلاف في قيمة المرأة ودورها.

* قال: خرجنا من الحوار عن الزواج، وحصرنا القضية في مهاجمة الرجل؟!

ـ قالت: صدقني ليس هجوماً على الرجل، بقدر ما هو دفاع عن المرأة... والزواج بعد تلك التجربة التي خابت فيها كل ظنوني، وأفسدت أحلامي.

* قال وهو يشد ذراعها إلى صدره: إنني أبحث لديك وفيك عن العدل والحب... فهل أستحقهما منك؟!

ـ قالت: لست مظلوماً مني لتطلب عدلي. . . . . .

أخلدت للصمت، وهو ينتظرها أن تكمل عبارتها.

❊ قال: والحب؟!

ـ قالت كأنها تتبلور في الدهاء: الحب جميل.

❊ قال: أريد أن أضع النقاط على الحروف. . . فأعرض عليك الآن أن نرتبط، نتزوج!

إلتفتت إليه كأنها أصيبت بحالة ذعر، حتى جمَّعت نفسها قليلاً، فقالت له:

ـ نتزوج. . . كيف؟!

❊ قال: مثل كل الناس. . . مثل أي رجل وامرأة!

ـ قالت: صعب. . . ظروفنا صعبة، أنت في مكان وأنا في مكان آخر. . . فأين هي نقطة الالتقاء هنا؟!

❊ قال ضاحكاً: يا ليتنا نقدر أن «نحيا» ما تبقَّى من العمر الذي كنا في أغلبه: نعيشه ولا نحياه.

ـ قالت: مستحيل. . . هناك انفصام بين قاعدة الزواج وقاعدة الحب. . . ولا بد أنك بعد الزواج ستتحول إلى مجرد رجل كهؤلاء الرجال!

❊ قال: كأنك لا تثقين في نضجي، ورؤيتي العادلة لقيمة المرأة. . . وقبل ذلك وبعده: في حبي لك؟!

ـ قالت: أعرف أنك لست كبقية الرجال / تريد زوجة: تكنس وتطبخ وتصبح وعـاء لتزريب الأطفال. . . لك عنعنات الرجل، ولي ذاتية المرأة ولا أقول أنويِّتها. ؟

* قال: ألا تحبين أن نكون معاً إلى الأبد؟!

ـ قالت: لا تفكر في ذلك أبداً. . . حتى لو أنا حاورت عرضك الرائع هذا في عقلي، وحتى لو وافقتك. . . فكيف سنطبِّقه على الواقع، ونجعله ينسجم مع ظروفك وظروفي؟!

* قال: إذن. . . أنت ترفضين؟!

ـ قالت: إرحمني أرجوك.

* * *

* زفر «علاء» من صدره آهة. . . وهمس: يا خسارة!!

ـ قالت له: لا تهزّني بكلمتك هذه. . . لا تبعثرني، فأنا أحرص على صداقتك وبقائك في حياتي.

أدار وجهه إلى زجاج نافذة القطار، والحقول تعبر مسرعة، والخضرة تغطي الأرض، وهو يتساءل في داخله: كيف تتحول مكاسب حبنا فجأة إلى خسارة؟!

لقد دخلت «عالية» إلى عمره: مكسباً. . . لكنها أصرَّت هي أن تبعده عن الربح والخسارة معاً.

في رفضها منطق، وفي عرضه: حلم. . . أن يجمعهما عش جميل أبد الحياة.

هي لن تكون في حياته حسبة مادية... بل تبقى: الاشتياق الدائم إلى العطاء غير المرهون؟

فجأة... تحوّلت الحقول أمامه، والزرع، والحياة إلى غابة موحشة... وقد تحاشى أن يعيد التفاتة وجهه إلى وجهها حتى لا ترى تلك الدمعة الثمينة تنزلق على وجنتيه!

صار دماً في كل المسافة التي يركضها إلى «عالية».

كان نبضاً في كل الزمن الذي أحياه في بهاء عينيها.

يبقى حزناً ونداءً في كل الخارج من الزمن بعد الآن... ذلك الذي سيبعدها عنه.

كان هو الصهيل الدائم في الجنون بها... في الجنون بها.

شعر بها تهزّه في يده، بعد أن ألقى برأسه على كتف المقعد وأغمض عينيه.

ـ قالت له: ألآ تريد صحبتي؟!

* قال دون أن يشرع عينيه: تعرفين أنك «آخر ما يبقى عصياً» كما قال شاعر!

ـ قالت: «خلاص بقى... بلاش غلاسه».

لم يجبها... بل أبقى رأسه ملقى على كتف المقعد، لم يلتفت إليها.

إنتابته حالة من الوحدة الموحشة، وهو يتصور أن «عالية» تريد رجلاً آخر غيره!

عبرت بخاطره أصداء من سؤال طرحه عليها فوق الرمال أمام البحر في الليلة الأروع / البارحة، ومن جوابها:

ـ سألها: هناك قول مشهور تظرُّفاً، أو تحذيراً، أو تقريعاً هو: «سماعك بالمعيدي خير من أن تراه»... فهل وجدْتِني بعد أن رأيتني ذلك المعيدي؟! أقصد: هل اكتشفتِ مَنْ كتب لك تلك الرسائل من دمه، وخفقه، ونبضه... كان رجلاً آخر لا ينتمي إلى هذا الذي رأيته في هذه الرحلة؟!

* أجابته البارحة: لا تتحدث عن التحوّلات... فمتى وُجِدت التحوّلات: ضاع الحب!

ها هو الآن... ها هي الآن: يحاول كل منهما أن يؤكد إصراره على أن يكون مضاداً لتلك التحوّلات التي تُبدِّل قدرة النبض على الحياة.

لكنَّ «علاء» الآن... يشعر بجنون خفقه في غيمة بلا غبار، يتفاعل الخفق مع أمواج البحر، وتنشق سماؤه عن رعوده وبروق من «عالية»!

كان يريد أن يتوحّد مع نفسه لفترة... وحين التفت إلى جانبه لم يجد «عالية».

ـ ماذا حدث... يسأل صديقه «حامد» بنظرته... فإذا بصديقه يقول له:

ـ ماذا حدث... ماذا فعلت لها يا مجنون؟!

أرخى عنقه، وعاد إلى جلسته يحدق في الحقول والزرع الممتد مسرعاً بانطلاقة القطار.

إنه يرى «عالية» الآن من خلال دمعته، وأصداء رسائلهما قبل اللقاء، وحواراتهما في اللقاء... فكأنهما باللوعة تنافح وتحاور، وتطرح قضيتها

الإنسانية... وكأنها ترتاح إلى هذه اللوعة / الوَلوعة، بأن تكون الجميلة كاملة... لأن هذا الانبهار يلوّعه أيضاً.

كان من الخطأ أن يسألها في أوائل رسائله إليها: مَنْ أنت؟!

عرف الآن خطأه... وهو يسترجع أصداءً من حواراتها، وإجابتها التي ضمنّتها إحدى رسائلها، فقالت له:

ـ أنا الإجابات التي تلد دوائر الأسئلة!!

بينما السؤال الذي كان ينبغي أن يطرحه عليها يومها... يتبلور كهذا:

ـ ما أنت؟!

كان يريد منها ومنه: أن يقف كل واحد أمام الآخر فيرى نفسه في الآخر... هو الذي افتقد وجهه زمناً، حتى وجد «عالية» مرآته وملامح وجهه... بل وملامح نفسه وروحه وعقله!!

ترك مقعده في القطار في طريقه إلى الحمام كسبب، ولكنَّ دافعه البحث عن «عالية» ومعرفة مقعدها، ولكنه لم يرها لأنها اختارت مفعداً في مقصورة أخرى من القطار!

وبعودته إلى مقعده ثانية، تحفُّه نظرات صديقه «حامد»، وصديقتهما «فاتن»... كان يتذكّر قاموس كلماتها التي كانا قد تبادلا كتابتها في رسائلهما... وهي كلمات: الإنسان، الشوق، العدل، الصدق ـ الصمت، الاستقلال ـ الفروسية، و... المغامرة!!

أخبرته عينا «عالية» عن كل ذلك، وعرفه من نبرة صوتها... كأن تلك

الحاسة السادسة / التلباثية... كانت مؤصَّلة، وموثّقة بزمان موحّد، وبخفقة قلب متّحدة، وبشجون على وعد مع توأمها!!

❊ ❊ ❊

❊ توقف القطار في باريس من جديد... حمل كل منهم حقيبته.

ركضت «فاتن» إلى المقصورة الأخرى، وانضمت إلى صديقتها... وهرولتا من باب القطار إلى جوف المحطة، إلى بوابة الخروج، إلى داخل سيارة أجرة انطلقت بهما... كل ذلك في لحظات سريعة كلمح البصر!

وسار «علاء» بجانب صديقه «حامد»: صامتَيْن إلى خارج المحطة، واستقلاّ بدورهما سيارة أجرة إلى فندقهما.

في أذن «علاء» ما زالت أصداء من حوارهما فوق الرمال أمام البجر، وهو يذكّرها بإحدى أسئلتها الثلاثة له، التي كانت قد بدأتها بكلمة «هل»:

ـ هل سنلتقي لنواصل البكاء الصامت بعد ذلك؟!

وأجابها: هناك بكاء واحد لا بديل له بيننا، هو: بكاء الفرح!!

الآن......... تركت له «عالية» خلفها: زكائب البكاء الصامت الذي حسب أنه سيعاشره بقية حياته كلها!!

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني

الاستراحة / التعب

سامحيني يا سيدتي

إذا هربتُ من عباءة العباس بن الأحنف.

وشيزوفرانيا: ديك الجن الحمصي.

وبراغماتية عمر بن أبي ربيعة

وسمّيتك: وردة المنفى!

*** نزار قباني ***

* * *

ـ ١ ـ

* تيتَّم ليل «علاء». . . حين مدّت «عالية» جنونها في طرقات الهجر. . . حين صدَّت طمأنينة قلبه، فاغتالت كل الصدق الذي اندفع به نحوها.

إنطلقت كلمات «عالية»: رصاصات في سمع «علاء» إلى قلبه وكل مشاعره.

أراد أن يسترضيها بعد ذلك الصدام بالآراء وبالرؤية للحياة في حوارهما الذي انقطع في القطار. . . وطلبها بالهاتف ليفاجأ بصديقتها «فاتن» تقول له بكلمات متعثرة في الحرج:

ـ عفواً «علاء». . . إنها لا ترغب الآن في أي حوار معك، تقول لك: لا تقدر!

تحشرجت همسته. . . تحرّجت. . . تحوّل صوت صديقتها «فاتن» إلى سكين.

ـ قال لها: إلى هذه الدرجة بلغت كراهيتها لي من مخاض حوار ساعة إختلفنا فيه بوجهات النظر؟!

* قالت «فاتن»: لا أظنها غضبت من الحوار. . . بل من إهمالك لها وهي بجانبك، وأنت تشيح عنها بوجهك، وتدّعي رغبتك في النوم.

ـ قال: كان تصرفاً عفوياً، لم أقصد فيه إهانتها، ولكني أندهش حقاً: كيف تحوَّلت كل الأشواق التي أحس بها كل واحد نحو الآخر قبل لقاء باريس هذا، إلى رماد يتكثَّف فوق تلك النيران في قلبينا؟!

أيّ دمع يهرقه قلب «علاء» الآن... على الأقل: لأصداء حرارتهما في الهاتف، وكلماتها في رسائلهما المشتعلة بالوجد وبالاشتياق قبل أن يتلاقيا وجهاً لوجه؟!

فلما التقيا ـ بالنظرة الأولى ـ كانت في مشاعره وفرحه بها: ذلك الدخول الملفت في ليلة... تزرع في عينيه بهاء ابتسامتها، وتنشر بين أضلعه: حيرة نظرتها الحبلى بحكاية آهة عمر!

أعاد المحاولة في صباح اليوم التالي... فطلبها هاتفياً، وقال لصديقتها:

ـ أخبريها أنني أطلبها الآن للمرة الأخيرة، ولن أزعجها بعد ذلك.

جاءه صوتها متعالياً:

ـ أهلاً علاء.

* قال يحاول ترقيق جفافها: القمر البارحة... كان شاهداً، لكنه سقط غرقاً في أحزانك بسبب غضبتك.

لم ترد على دعابته... فقال:

ـ هل ترغبين في إنهاء المحادثة؟!

* قالت: إذا لم يكن لديك ما تقوله.

ـ قال: لديَ ما تفجرّ بأشواقي لك لليلة واحدة، حتى جُنَ جرحي

بك... لو رأيت السماء ليلة البارحة لرأيت ـ كما رأيت ـ نجمة شجن تنبثق من العتمة، يسمو ضؤوها بالحزن إلى مشارف قمر باريس الذي لفّه الضباب؟

* قالت: اتصل بنا صديقك «حامد»... ودعانا هذا المساء على العشاء باسمك.

ـ قال: خفت أن أُرْفض لو دعوت أنا... وعلى كل حال، فهو الذي رتّب لهذا العشاء، وحجز لأربعتنا في «مكسيم» الشهير... فأرجو أن تلبي دعوته/ دعوتي.

* * *

* وضع سماعة الهاتف، وفي أعماقه شعور كظيم بالانسحاق، بعد أن تعاملت معه بفوقية... لكنه ـ بأمر الحب ـ أخذ يردد كلمة يذكّره بها دائماً شيخه/ معلمه، على لسان أحد زعماء مصر في الأربعينات: (وعلشان نِعْلى، ونِعْلى، ونِعْلى... لازم نطاطي، نطاطي، نطاطي)!

ومسح دمعة الانسحاق... وأخرج من حقيبته أحدى رسائلها التي كانت تبعثها إليه من بلدها، قبل رؤى «المعيدي» هو... كأنها طبَّقت عليه المثل القائل: (سماعك بالمعيدي خير من أن تراه)... وأخذ يقرأ:

* (علاء: ها أنت «تقتحم» بصاروخك ـ المفاجأة ـ المدار الفضائي لكوكبي البعيد.

ها أنت لا تكف عن إدهاشي، وعن رمي شباكك في بحر تساؤلاتي.

الآن أريدك أن تفصح لي صادقاً: كيف نجحت في العثور على خريطة «كنزي» الذي أخفيته بعناية في جوف دهليز منذ بداية العصور الوسطى؟!

مَنْ أعطاك المفتاح. . . هل خانتني الحيتان التي أودعتها السر، وأطلقتها لتهرب في الأعماق الباردة للمحيطات؟!

هل تخبرني عن الذي وشى لك بالسر؟!!

صديقتي. . . تقول: «أشعر أنني أقتحمك عُنوة»!

وأنا أقول: نعم إقتحمتني، ولكن ليس عُنوة، بل بصدق إحساسك، وعمق فكرك، وجمال عباراتك، وشفافية حزنك.

ها أنذا أعترف لك: لقد «إقتحمت» تلك الأسوار العالية التي شيدتها بتأنّي لأحمي بها قدس الأقداس في معبدي.

نعم. . . لقد نجحت في (سرقة) اهتمامي، وجزءاً ـ غير قليل ـ من تذكّري، وما زالت أسأل: متى وكيف حدث ذلك؟

ولكن دعني ـ علاء ـ أصارحك بلا مداورة: لولا أنك كنت «مقتحماً» في رقة وعذوبة. . . لما جاءتك الحيتان، التي أودعتها السر، ولما وشت لك عن مكان الكنز!!

* قرأت خطابك الرابع ـ الذي وصلني بعد ظهر اليوم ـ أربع مرات!

هل أخبرك أحد قبلي أن (دمك خفيف!!). . . كثيراً ما أضبط نفسي متلبسة «بالضحك» بصوت مسموع عند قراءة فقرات معينة من رسائلك، بعدها أتلفّت حولي لأتأكد أن أحداً لم يلاحظني وأنا متلبسة بالضحك وحدي!

من ناحية أخرى: واضح أنه أصابتك عدوى «الغضب» على ما آل إليه حال الإنسان اليوم عاطفياً، وفكرياً، وسلوكاً. . . فمرحباً بك أيها الفارس

المغوار محارباً في ساحة «الحقيقة» التي «تمنحك الفرح... في اللحظة التي تغرس في أعماقك المعاناة والحزن أيضاً»!!

* ها أنت تحتل ـ بحضورك ـ أماكن متفرقة من شقتي: صورك، كلماتك، كتبك وخطاباتك... كلها تنتشر وتقابلني، وتُقبِّلني أينما إتجهت في بيتي.

حتى «دولاب» ملابسي، بمجرد أن أفتحه تقابلني زجاجات عطرك ـ هديتك ـ وفي راديو سيارتي أشرطة «الكاسيت» التي سجلتها وضمنتها أغانيك المفضلة.

والآن خبرني ـ بالله عليك ـ إلى أين يكون المفر؟!

علاء: أمام ـ غزوك ـ الموحي لفكري ومشاعري، لا أملك سوى أن أفتح لك وأمامك، النوافذ والأبواب، مُرحِّبة!

* ها أنت تضع مشرطك ـ الحقيقة ـ فوق جرحي «المفتوح»، وأنت تفصح قائلاً: من «يبخل الناس بمشاعرهم... لأنهم صاروا يخافون عليها، ومنها»!

ربما آن الآوان يا صديقي الأعز، كي تعرف أن لا شيء في الوجود يخيفني أو يرهبني، فأنا قادرة بصلابة وإيمان على مواجهة الأخطار، شيء واحد فقط يصيبني في «مقتل»... شيء واحد إسمه: الألم!!

وأنا هنا في هذه ـ اللحظة الخاصة ـ من تاريخ تعارفنا، أعدك وعداً صادقاً: أن لا أجعلك تدفع الثمن ـ طعنات ـ غيرك، وأطلب منك ألاّ تحاكمني بسلبيات من سبقتني!

أحلم أن يكون لقاءنا ـ الذي رتّب له القدر تكفيراً عن بعض جرائمه ـ شمعة تضيء لي جوانب روحي وعقلي وتنشر الدفء في أركان نفسي.

أريد أن أكون رعداً يقلقل منام مارد الأفكار المختبىء في الركن البعيد من عقلك.

* وأريد أنأسألك الآن: هل أنت ـ حقاً ـ آخر الرجال الكرماء؟!

منذ زمن يعبد لم أقابل إنساناً بهذا السخاء والعطاء... رسائلك المتدفقة فكراً وصدقاً ومشاعر، تؤكد أنك ربما تكون من آخر عصر فرسان الجزل والعطاء، فهل تعدني أن تبقى على هذا الصفاء الرائع دائماً؟!

لماذا لا تريد أن تخبرني عن أسباب عدم «استطاعتك» الحضور إلى بلدي: «ويك أند»؟

أفضِّل أن يكون أول لقاء بيننا في عاصمة النور ـ باريس ـ التي أعشق كل ما فيها.

وإلى الخطاب المقبل... أتمنى لك المزيد من «التوتر» المبدع).

* * *

* طوى رسالتها مع خبطات يد صديقه «حامد» على الباب.

وفي اللحظة الأولى لدخول صديقه عليه في غرفته... أخذ ـ كعادته ـ يُقرّعه، ويصف تصرفاته بالحماقة.. وواصل «تحليله» لشخصية «علاء» من وجهة نظره، فاستطرد يقول له:

ـ إن هذه السيدة/ الليدي ذات خبرة في رؤيتها للرجال، وفي ما تريده بالتحديد من رجل اختارته رفيقاً لها، وقطعت البراري والبحار من بلدها إلى

باريس لتراه، وتستمتع بحوارهما معاً... وفجأة تكتشف أنك لست الرجل الذي تخيلته، وأقامت له عرشاً في قلبها.

* قال علاء: هل قالت لك هذه «الخلاصة» التي بلغتني بها؟!

ـ قال حامد: لأ... لم تقل شيئاً، ورافضة أن تتحدث حتى معي، برغم أنني حاولت أن أخفف من غلواء غضبها.

* قال علاء: إذن... هو انطباعك أنت، أن «عالية» صدمت حين رأتني وتعاملت معي... بأنني أختلف كثيراً عن ذلك الرجل الرومانسي الحالم الذي كان يكتب لها رسائله بخفقات قلبه.

ـ قال حامد بضحكة ساخرة: خفقات قلب مين يا حمار... هذه امرأة تحتاج إلى رجل حصيف، يلاعبها، ويثيرها، ويملأ عقلها قبل قلبها، أو ليكسب قلبها... أنت طلعت «فافوش»، وجدتك رجلاً انفعالياً، عاطفياً تعيساً إلى درجة الهلامية!

* قال علاء: إنني رجل بسيط، وحالم، ـ صحيح ـ لكني كنت صادقاً معها...

ـ قاطعه حامد: غلط...، مثل هذا النوع من النساء النَّمِرات، يتطلعن إلى رجل ذكي إلى درجة الخبث، حتى لو كذبت عليها... لأنها هي أيضاً تكذب عليك، فكلّهن/ يا صديقي...........!!

قال علاء: لا... أرفض أن أصدق ظنك هذا... هي لم تكذب عليّ، لكنها ـ ربما ـ لم تستوعب طباعي، وشخصيتي... لم تعرف أنني ملّوث بعصري الذين يضطرني أحياناً أن أكون: جارحاً... عندما أتوقع من أحد أن يدميني... لكني أخرج من طقوس العصر ومناخاته هارباً إلى حب

الحب... رابت إليها، لأنها استقرت في أعماقي: رمزاً للحب... وما ظننت أننا كنا بحواراتنا عبر الرسائل والهاتف: نضيّع الوقت... بل كنا نصنعه: نملأه، ونفرغه.

ـ قال حامد: «قُصْره»... أنت ناقص الأهلية في التعامل مع النساء، رغم إدّعاءاتك!... والمهم: لقد دعوتهما للعشاء، فاخلد إلى النوم بعد الظهر، وألبس أنيقاً، و.......... انتَق كلماتك.

* * *

ـ ٢ ـ

* صرخ «علاء» في وجه السؤال المشتعل بين جوانحه والسؤال ذاته يصرخه: وجهاً مذعواً والسؤال منهما يفتش عن «الإنسان» في عمق هذه الأنثى «عالية»:

ـ مَنْ تُخفين تحت جلدك، وفي أغوار ضلوعك؟!

وكيف قدِرْتِ أن تطعنيني في لحظة: ميلاد العشق بعيني لك؟

مَنْ يسرقك/ عالية إلى مغامرة التجربة من جديد؟!

وكيف احتملت تجزيء الخفقة حتى إضرام كل هذا النيران في صدرك؟!

نظر «علاء» إلى ساعته ما زال موعده مع صديقه «حامد» بعيداً، ليذهبا معاً إلى «عالية» وصديقتها، لاصطحابهما إلى مطعم «مكسيم».

كان يشعر ـ لحظتها ـ بالضيم وبالترميد.

وكان يعاني من كراهية التفرد النفسي لتسامح المحبة المطلقة فالحب أعطى «علاء» هذا العمر، وفي هذا المشوار الطويل الذي قطعه من عمره (أربعون عاماً): أحس أنه بذلك العطاء كان يرى أبعد وأشمل، وكان يقدر على كثير مما فشل فيه الآخرون الذين سقطوا في فخاخ التعتيم النفسي.

وكـان يـنـادي بـالـحـب وأمـامـه، وحـولـه: الأشـيـاء، والـنـاس يـرفـضـون، يأخذون، يدوسون ويمضي الناس مع أشيائهم!

ـ (لن يدهشني شيء ـ بعد كل ما قاسيت ـ سوى أن أجد من يفهمني)!!

ردد هذه العبارة التي حفظها من قراءاته وزفر بأنين صدره، وهمس:

ـ حتى صديقي «حامد»: مَنْ حسبته الوحيد الذي يفهمني خذلني فهمه للإنسان بأعماقي ليس عنده سوى التقريع، واللوم، وتذكيري دائماً أنه: أذكى، وأكثر فهماً بل وذوقاً مني!

* هرع إلى حقيبة يده ـ ثانية ـ ليروي عطشه من أصداء «عالية» التي بقيت له ضمن رسائلها إليه وكأنه كان يحدِّس بهذا االعطش الذي سيصيبه في تواجد «عالية» بجانبه وأمامه.

أخرج رسالة جوابية منه على إحدى رسائلها المتدفقة بنفسها وبمشاعرها إليه وقرأ:

* (أيتها المسافرة في دمي:

أكتب لك الآن، وأنت في أحضان ما أتخيّلك فيه: الانتشاء!!

أتخيّلك تهربين بعيداً عن الضوضاء والزحام، وأتوق إلى الركض نحوك وأغـار ـ أيضاً ـ من هذا الذي يحتضنك: الانتشاء!

لكني أغبطك وقد انساب صوتك في أذني من هناك من «العريش»، كأنك نخلة الشبع والارتواء.

تُرى ماذا فَعَلَتْ بك زرقة ماء البحر؟!!

إلى أين انطلقَتْ بخطواتك تلك الرمال الناصعة البياض؟!

إلى أيَ مدى سَقَى تُربة نفسك ذلك الهدوء الجميل؟!

هل.. هل تذكَّرْتِني هناك في خضرة النخيل؟!

آه أنتِ في هذا (التابلوه) المعطّر بالسكون الموحي.

أتخيّلك وأنتَ «تتمشّين» هناك: حافية القدمين، تتراقصين كفراشة زاهية وفي تخيَلي لك، كأنني أركض معك فوق الرمال البيضاء كأنني أخرج من بئر إسفكسيا الحزن، وأمتلك مساحات الفرح، كلما غسل صوتك سمعي!

* على فكرة: فكّرت مرة أن أسألك ـ بمبدأ الصراحة ـ وقد جاءني صوتك للمرة الأولى، ثم الثانية: هل هذا صوتك الحقيقي؟!

تِعْرفي؟! صوتك الحقيقي سمعته ـ رغم بُعْد الصوت ـ حين طَلبْتني من العريش وكأنك تُعايشين قلقي عليك، وقد سكبْتِ الراحة والرضا بعد المحادثة!

حقيقة قلقت عليك. لا لم أقلق، بل أصبت بذعر وخوف.

ياه هل صِرْتِ عندي غالية «يا عالية» إلى هذه الدرجة؟!

لعلني أسأل نفسي في لحظات التأمل نحو: الأبعد/ الأقرب نحوك: ماذا فعَلْتِ بي؟!

من أين انطلق نداؤك الخفيّ، الروحي، التلباثيّ عليّ؟!

كيف حدث هذا أيتها «الآخذة»؟!!

فأنا: إما أكتب لك، وإما أفكر فيك، وإما أنتظر رسالتك أو هاتفك!

صدقّيني إنني متحرر، منطلق، محلّق بك أنت.

أفتح ذراعيّ وصدري لنسمات تأتي منك، وترفعني أكثر إلى الفضاء،

وتحملني إلى جزر فضية، متماوجة كأنها مَهْد من زئبق. . أو كأنها تداخلات ألوان الطيف.

أقول لك شيئاً لا يهمس به الإنسان إلاّ لنفسه؟!

أقول؟!!

ـ (عارف ستصرخي: يا أخي ما تقول)!

بكل شجاعتي (التي لا تعرفينها بعد!) ما زلت خائفاً.

فهل يكفيك هذا الاعتراف؟!

كيف؟!!

صرتُ أخاف من المفاجآت من الارتطامات من الأيام التي تومض بكل إغراءاتها، ثم ـ فجأة ـ تعمّ الحلكة!!

خوفي ينبع من تشبّثي بك، من عثوري عليك، من توحُّدي في روحك، والتحامي بفكرك، وامتزاجي بنفسك يا إنسان فيك.

أنا لا أريد أن افتقدك أنت بالذات!

ربما تقولين: على مهلك أنتَ لم ترني، لم تشاهد لمحة مني، لم تجلس معي، لم تحادثني، لم تُعاشرني إلى آخر الـ (لم) التي نجتهد، حينما نريد، في تكثيفها، وتوظيفها.

حقاً لم يحدث ذلك كله! ولكني شعرت أننا التقينا، وتحادثنا، واستغرقت حدقاتنا في تأمّل أبعاد نظرة كل منا للآخر، وتعاشرنا أيضاً.

شعرت أنني رأيتك قبل ذلك، وعرفتك، وفهمتك ولذلك، لم يكن دخولك إلى أعماقي صعباً، ولم يكن اقتحامي لداخلك عنوة ولا غزواً بل،

كما قلت أنت، كان يقتحمك صدقي، وشفافية حزني، و«تعبيري» الذي أنْطَقْته أنت.

حقيقة ـ ثالثة ـ: هل أحْسَسْتِ بجفاء، أو تردد، أو انكماش، عندما كتبتُ إليك رسالتي الأولى أم كان في داخلك شيء يتعاطف؟!

رسالتك «الأولى» كانت حمينة، وواثقة، وتقف فوق أرضية الثقة.

شدني ذلك أكثر حتى صرتُ أشتاق إليك!

ها أنذا (أرعى) اقتحامي لك حتى لا يجنّ أكثر، أو حتى لا ينحرف، لأنني الآن، وأنت هذا الكنز أحرص على المحافظة عليك: جوهرة فريدة.

لعلك لاحظت (نبض) حديثي معك في الهاتف صرتُ «يا عالية»: عفوياً، طبيعياً أحادثك، فأشعر أنني أمام مرآتي أحاور توأم الروح والنفس!

ماذا فَعَلْتِ بي؟!

حقاً إن الزمن يتقهقر، حتى يعود بي إلى نقطة (الحلم) الأمثل، والأبهى!

حتى شكل ملامح وجهك، وعمق نظراتك كانت في ذلك الحلم!

عفواً أنا لم أعد أعرف الغد: ماذا فيه؟!

لكني أعرفك أنت في الغد لأنك أكَّدت لي أنك صرت كتاباً مفتوحاً أمامي لم تعد بيننا أسرار، ولا تردد أنت: الفرح، والموعد الذي يدفىء القلب)!

* * *

* حلّ موعد المساء، و المطعم!

جاءه «حامد» بمزيد من زراعة الخوف، والإحباط وهو يقول له:

ـ عندي لك خبر عن «عاليتك» لقد قررت هي وصديقتها أن يرحلا صباح الغد في طريقهما إلى إسبانيا ستترك لك باريس/ الجمل وما حمل، و.. ربما ألحق بهما بعد انتهاء أعمالي هنا خلال يومين.

* قال علاء بإبتسامة حزينة على صديقه: وبعد ذلك؟!

ـ قال حامد: هناك خبر آخر لقد حدثت بعد ظهر اليوم تفجيرات مروّعة في وسط باريس، اتهمت فيها السلطات الفرنسية ـ كالعادة ـ العرب الذين تصفهم بالإرهابيين، وستنعكس معاملتهم للعرب إلى الأسوأ فاحمل رفشك وشُدَّ الرحال عن ديار أهل الكتاب الذين صاروا ينظرون إليك كعربي نظرة المتوجس دائماً!

* تمتم علاء: وهل هناك تفجيرات أقوى مما حدث بيني وبين «عالية»، وبيني وبينك؟!

ـ قال حامد: بماذا (تُبرطم) يا أهبل أكمل ارتداء ملابسك، فالجميلتان في انتظارنا!

واختار «حامد» في المطعم لأن يجعل «فاتن» تجلس أمامه، ليمنح صديقه «علاء» فرصة مواجهة الحبيبة «عالية» فلعلهما يكسران الحاجز الذي أقامه خصامهما!

كان «علاء» هو ذلك الرجل المازال باقياً على مفارق «عالية».

أخذ يتأمل إبتسامتها الحزينة في إنعكاسات لون مطعم «مكسيم» الأحمر، وتلك الشمعة الساهرة بينهما فوق الطاولة كأنه باقٍ هنا في انتظار أوْبتها من

الخصام والغضب، ومعها تلك البسمة الرقيقة المتسامحة التي أحبها على شفتيها، لأنها تنغل في شرايينه.

هو يثق في ابتسامتها ـ منذ التقيا ـ وقد حسب أن هذه الابتسامة تُشكّل نداءها الأول عليه.

تطلّع إلى شعرها الأسود الذي يحفُّ وجهها كالليل حول هالة القمر تخيل شعرها طويلاً ـ وهو يحب الشعر الطويل ـ وقد قصَّته.

إبتسم وهو يعرف: أن النساء يقصصن شعرهن لئلا يعقيهن، ثم يضعن باروكة أو «بوستيجاً» لكي يطولّن شعرهن مؤقتاً!

إلتقت نظرتها بنظرته وعلى شفتيها نصف ابتسامة كالموناليزا، مترددة في اطلاق سراحها لتحضنه.

كان يمتلىء بها ويفيض يود أن ينتقل إلى جانبها ويهمس في أذنها بما ينسجه نبضه في حركته الإنسانية.

عندما كانت رسالتها هي وصالها له ظنَّ أن حيتانها هربت إلى أعماق المحيطات الباردة فاكتشف في الخصام والغضب: أن «عالية» لن تطيق العيش مع رجل بعيداً عن حياتها المفترسة!

بينما هرب هو من المحيطات الباردة التي كانت «تقنع» أيام عمره، إلى دفء سرها إلى ألف مفتاح ومفتاح لأبوابها وظن ـ يومها ـ أن كل مفتاح لا يحكي عن خيانة حيتانها لها، بل عن قلق تلك الحيتان من أبوابها الموصدة، واستغراقها في أسرارها!

وظـن ـ يومـهـا أيـضاً ـ أن حيـتانـهـا وشَـت لـه بـسرهـا، لأنـهـا تـحبـهـا، وليقتحمها ويركع متبتلاً «لعاليته» أنشودة الحياة، ويحتضن يدها لتتحد مع يده فيطوِّحان معاً بكـل الأسئلة!

وقام الحوار بينهما ـ بتثاقل ـ بتردد ونبدأ.

كان «علاء» يحلم بهذا اللقاء في باريس، ويثق في الدفء الذي سيشع في أجـواء حواراته مع «عالية» ونظراتهما، وتشابك يديهما، و «عمق» فهم كل واحد منهما للآخر!!

بقي «يحلم» بها: بسمة أروع، وأنقى، وأصفى، وأكثر حميمية لنفسه الصادية إلى الالتئام بتوأمها!

ـ ياه ـ ما أبطأ الوقت. . الآن!

عاودته تلك الابتسامة الساخرة وهو يسترجع أصداء عبارة قالها كل واحد منهما في سمع الآخر عبر الهاتف قبيل سفرهما إلى باريس وموعد لقائهما نفس العبارة، ولكن في معنى أجمل:

ـ ياه ـ ما أبطأ الوقت حتى أراك!!

***

* تأمل «علاء» الشمعة التي تفصل بين وجهها ووجهه على طاولة المطعم وكانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، ومع شعوره الذي أكد لديه الآن ـ بعد انتهاء سهرة المطعم الوداعية ـ أن «عالية» أشعلت هذا الحب الكبير بينهما كهذه الشمعة، وتركتها على الطاولة تذوب، تفني نفسها بلهبها في نهاية سريعة، وانطفاء محدد بوقت مؤقت!!

إنتشله صوت صديقه «حامد» من هذا التمازج مع ذوبان الشمعة وهو يقول:

ـ سهرة سعيدة ونشكركما على منحكما لنا هذا الوقت الجميل، ونتمنى أن نلتقي قريباً وسوف نحضر إليكما في الصباح إلى الفندق لاصطحابكما إلى المطار وتوديعكما.

* قالت «عالية» باستعلاء: لا نريد أن نكلف عليكما، فالمطار بعيد.

ـ قال حامد: يا ليته يصبح أكثر بُعداً.

وأمام مدخل فندق «عالية» وصديقتها امتدت الأيدي «بروفة» لوداع الصباح النهائي القادم.

وعلى سريره في فندقه استلقى «علاء»، يحدق في السقف، كأنه يستعيد شريط الحكاية من بدئها حتى نزفها.

هو لا يعتقد: أن الحكاية انتهت بل يصرُّ أن لا تنتهي، حتى لو أرادت «عالية».

لكنه يدور الآن ـ بأصداء كلماتها في رسائلها إليه، وحواراتهما ـ حول ما شكت له منه: جرحها المفتوح منذ تجربتها الأولى كأنثى مع رجل، ومروراً بعلاقات عابرة بلا ثبات ولا تمدد في تربة النفس، وحتى التجربة الأخيرة التي كثَّفت بعدها أعداد، لا بل (جحافل) حيتانها التي تمنع دخول أي رجل إلى قلبها، والتجوّل مطمئناً مختالاً بين أضلعها!

ويدور ـ أيضاً ـ حول جروحه النازفة التي حكى لها عنها، وأردف يقول بثقة وتفاؤل:

ـ هذه الجروح لا بد أن تشفى وأنت تضمّدينها!

أجابته يومها: تعال هنا أهدهدك على صدري، وستشفى!

ـ قال يحلم في إصغائها عبر الهاتف: هذا وعد منك إذن هذه الشموع تُضاء، والموسيقى تصدح، والزهور تتسامق منتعشة، والجداول تنساب، والعصافير تزقزق عيناك وعيناي يا حبيبتي، هذه هي الحياة معنا ولنا دائماً!

* * *

ـ ٣ ـ

* أمام المدخل الذي يُفضي إلى داخل مطار «شارل ديجول» تعانق «حامد» و«فاتن»، بينما امتدت يد «عالية» تصافح «علاء»، وهي تدفع تلك الابتسامة النصفية الموناليزية قسراً على شفتيها.

ـ قال علاء وهو يضغط على يدها: مع ألف سلامة، وإلى كل خير.

* قالت: «خد بالك من نفسك».

إغرورقت عيناه بالدموع، واندلع إليها يحتضنها وكأنها كانت تتوقع منه هو هذه المبادرة، لكنها قابلتها بنفس الصلف والجمود.

وفي طريق عودة «الصديقين» من المطار إلى الفندق حاول «حامد» أن يواصل معزوفته مع صديقه «علاء» عن: سوء تصرفاته، وقلة حيلته، وفقدانه للكياسة التي يتمتع بها «حامد».

لكنَّ «علاء» لم ينبس بنأمة حتى وقف كل منهما أمام غرفيتهما المتجاورتين.

وسارع «علاء» إلى تجميع ملابسه في حقيبته، استعداداً لعودته إلى «جدة» في منتصف هذه الليلة تاركاً صديقه «حامد» في باريس ـ حسب رغبته التي أبداها له.

وقوله: أنه سينهي بقية أعمال له، ويتوجه إلى جنيف.

لم يعد يعني «علاء» أي شيء الآن: أن يتوجه صديقه إلى جنيف، أو حتى أن يلحق بعالية وصديقتها إلى إسبانيا وقد توقع ذلك من حصافة وكياسة صديقه الذي يُحبه!

وحتى يحين منتصف الليل/ موعد رحلته عاد إلى حقيبة يده، وأخرج منها رسائلها ورسائله وتوقف أمام هذه الرسالة منها التي بعثت بها إليه قبل حضورهما إلى باريس بشهر واحد فقط:

* عزيزي/ علاء:

هل أخبرك صوتي ـ بالأمس ـ عن مدى فرحتي بالتكامل الواصل بين لغتينا؟!

هل أخبرك صوتي ـ في المرات الثلاث ـ عن عمق احتواء نفسي لحميمة الحوار الذي جرى بيننا؟!

لا تقل لي: شهراً، ولا أكثر فهذه الثقة والألفة المتبادلة لا يقل عمرها عن المائة عام!

وهذه عكس المائة من عزلة «ماركيز» التي كنت أعيش مثله فيها قبل الآن.

صدقني أنا لا أجاملك، وأنا أعترف أن اقتحامك المفاجيء لحياتي ـ في رقة وعذوبة ـ قد تنجح في تبديد بعض غربتي، بعد أن أشعل الحرائق في غابات خيالي وروى أعشاب الطمأنينة العطشى في براري نفسي.

أتلهف على لقياك.

أترقب موعدنا بشغف.

أسأل نفسي ألف مرة ومرة: كيف سيكون طعم حوارنا ونحن متواجهين هل سيكون بحلاوة كلماتنا المكتوبة بأحرف النور والبوح والإحساس المتجرد من كل غاية وقتية؟!

لا اخيفك ـ يا صديقي الأثير ـ أني أخاف على هذا «الكنز» الذي اكتشفناه معاً، والذي أخفاه القدر ليكون هديته لنا من بطش العجزة، المحيطين، والحاقدين.

سامحني أيها الفارس الذي يقود حصان «طروادة» داخل مدن الظلام والتخلف، لست ممن يخيفهم، ولا ممن يخرسهم هتاف الردة عن العقل فقط أنا «متوجعة» من طعنة خنجر أصابتني هذا الصباح في الظهر!

ها أنا لا أشعر بحرج وأنا أنزف أمامك بصوت مسموع.

ها أنا أنحي قوة كبريائي جانباً، لأعري ـ أمامك ـ جزءاً من جرحي الطريّ، لا لأشكو، ولكن لأدع لنزفي صوتاً مسموعاً أنت الذي شجعتني على ذلك، بأن أبرزت وعبرت عن مدى احتياجنا إلى هذه (القيمة) الرائعة من صداقتنا التي وثقتها معاني كثيرة، من أهمها: أن «نفضفض»، وأن نصغي إلى شجون بعضنا البعض.

لا أود الاستطراد في هذا الأمر، فأنا أعلم أنها محنة ستذوب كغيرها كزبد البحر فقط أتألم عندما تأتي سهام الغيرة، والحقد، ودوائر الانتقام، من جانب أكثر من أعطيت من الناس، حباً، وثقة، وإيثاراً؟!

أنت أيضاً مصبوغ الجسد بكل ألوان الجراح! هذا ما باح لي به صوتك وأنا أحدثك هذا الصباح ـ السبت أول يوليو ـ وقد امتزج صوت «نزفيْنا»

ليصنعا معاً هديراً يصد غارات العجزة المنتقمين لضعف بصيرتهم، ولاهترائهم الداخلي.

أشعر الآن ـ بعد سماع صوتك ـ أني أكثر راحة، وأني أتنفس الهواء بعمق أكبر، وبالكلمات التي استعصت على القلم، تلين وتحنو وتبدأ إنسيابها على الورق.

* أشكرك لأنك شجعتني على البكاء، أعني البكاء خارج العين وليس ـ فقط ـ داخلها.

عرفتُ الآن الفرق فالبكاء الصامت، أو المكبوت تكون دموعه كاوية للأعماق، وآثار حروقه لا تنمحي من داخل النفس بسهولة، بل تبقى ليتجدد نزيفها الحارق من حين إلى آخر.

أما البكاء الذي يبلل دمعه الخدين، فهو يغسل الأعماق، حتى تأتي الريح فتقوم بمهمة تجفيف الندى، ليزداد ـ بعدها ـ إشراقاً ونضارة.

نعم، لقد كنت ـ علاء ـ محقاً في دعوتك. ففَكُّ القيد عن حبال دموعنا يجعلنا نثور بحكمة، ونصفو.

أهل أنت بهذه الحكمة دائماً؟

أين توارى الحكماء في عصرنا الخسيس؟!

هل كُتب علينا أن نتعذب بحكمتنا في عصر حرب الكيمياء، وشباب الهيروين، والإيدز العاطفي؟!

أنظر حولي في فزع، وقد عبَّأ داخلي ـ كزجاجة مياه غازية ـ شعور بالإغتراب فلا أرى غير بحيرتك العذبة إلى جوار نبعي الدافق مصدراً للصفاء!

أسعدني بحق أن تُحوِّر سؤالك الأول: من أنتِ؟ إلى «ما» أنت!!

أحببتُ عمق فطنتك، وسرعة بديهتك (واضح أنك حاد الذكاء، إلى جانب رهافة الإحساس ما الذي تنوي أن تفعله بي بالضبط؟!).

هناك فقرة من حوار ما زال محفوراً في قلبي، مأخوذاً من مشهد فيلم: «العاشقة». وهو عن قصة حياة الكاتبة والأديبة السويدية «آجنس كروزنترنا»، وفي هذا الحوار يقول عاشق لكلماتها، وناقدها، وزوجها، لأحد صحفيي عصرها (١٩٢٠):

ـ إن «لأجنس» مجموعتها الشمسية الخاصة بها هي تعيش تحت شمس غير شمسكم، وقمر غير قمركم، ولا علاقة لها بقوانينكم الاجتماعية والسياسية!

كثيراً ما أشعر أني «غيمة» كبيرة تسبح في بحر سماء واسعة فللغيمة ميزة دوام الطواف، خفقة الانتقال والتنقل من قارة إلى أخرى، مقدرة التقاط مجريات الأمور من أعلى، شمولية الرؤية، كونية الرؤى، التسامي فوق تفاهة التفاصيل التي يسجن البشر مصائرهم وراء قضبانها، والأهم من كل ذلك: أن «الغيمة» لا علاقة لها بقوانين الأرض الاجتماعية والسياسية «هي» تضع قانونها الخاص، وقانونها: دوام الترحال بغرض الكشف عن شمولية الرؤية، وهي في رحلتها الطويلة نحو الفهم يخصب رحمها بالمعرفة، وتأتي أشهر الحمل فتنتفخ بطنها: نقطة «فهم» وراء ما «معرفة»، وتظل تسبح من قارة إلى أخرى حتى نلتقي «بمصادفة محسوبة من الطبيعة»، بذلك «الآخر» الذي يتخلل بفهمه وبمعرفته مسامها التي تتفتح فجأة معلنة عن «شوقها» عندئذ تبرق السماء وترعد، تضيء مشاعل الفرح وتعزف سيمفونية الابتهاج، ويهطل المطر غزيراً غزيراً، فترتفع الأرض أعلاماً خضراء ابتهاجاً بموسم الخصوبة والإبداع.

والآن ـ أيها الأعز الأغلى ـ بعد أن أطلعت، وحدك، على سر «ما» أكون، هل ما زلت تعتبر نفسك بعيداً عن الرجال الخائفين وأنت، ترى «ما» أنت؟!

أنتظر بشوق ولهفة معرفة «ما تكون»!!

ها هي رسالتي إليك منقوعة بنسيم هواء الإسكندرية هل رطّبت صدرك بهوائها العليل؟ أرسلتها خصيصاً من حدة هواء «التكييف»! وحشتني)!

* * *

* يغمض عينيه، وهو يركض وراء أصداء ذلك الزمان القريب جداً بعد أن وصلته رسالتها ، وهاتفها فور استلامها لتقول له ضاحكة:

ـ أنت رجل عجيب هل تعرف ما كنت أفعل الآن؟!

جالسة في غرفتي أدرّب أذني على إيقاع الأغاني الخليجية التي وصلتني منك، ولا أخفي عليك: أبذل مجهوداً لأسبح على موجة إيقاعها الجديد على سمعي وربما كان الأمر يحتاج إلى مساعدة منك، وربما كنت أحتاج لوجودك إلى جواري ليتضاعف إحساسي بها لكني سعيدة لأنك فتحت أذنيّ على عالم من الأنغام كنت أجهله (عندما أسمعها أشعر وكأني سافرت إليك).

* قال لها سعيداً: سنوّحد أغنيتنا قريباً في نغم واحد.

ـ قالت: هل أطلعك على سر؟!

لقد واريت زجاجات عطري القديمة داخل علبها، وأصبحت أتعطر بعطورك وحدها، وحدها (!!) هل اخترتها لي بنفسك؟! لا أريد منك أي

شيء لا تختاره «لأجلي» بخصوصية «إبتكارك» أعذرني، أنا إنسانة دائمة البحث عن «الخاص»!

* قال: هذا رغد عظيم منك ولكني أرجوك أن لا تخشي ـ كما قلت لي مرة ـ أن أكون ممن يجيدون «صناعى المحبوب» ليتماثل مع خيالهم الخاص، أو ليتطابق مع «موديلهم، وباترونهم» الخاص عن ما يجب أن يكون عليه شخص المحبوب.

ـ قالت: أثق في «ثقافة عواطفك» فروعه الحب: أن يتحول من علاقة تبادلية أروع ما فيها: الأخذ والعطاء بدلاً من أن ينحصر في علاقة أخذ وسلب حرية المحبوب في أن يكون «نفسه» حقيقته بلا افتعال.

* * *

* مسح دمعة إنزلقت من عينيه، وأبت أن تجف على وجنتيه وارتدى ملابسه، وأبلغ إدارة الفندق بتقفيل حساب غرفته، وبعْث مَنْ يحمل له حقائبه.

ـ قال له صديقه حامد: لا أقدر أن أذهب معك إلى المطار فعندي اجتماع.

* أجابه: لم أطلب منك، ولك الشكر مع السلامة.

وفي طريقه إلى المطار كان يشاهد «باريس» التي عشقها دون مدن العالم كله، إلاّ مدن وطنه فقط باريس التي كان يأتي إليها ليستلقي ويستجم، ويرتاح من الضجيج، والوقر، والهموم كيف ستكون في نظره بعد هذه الرحلة؟!

لا يظن أنه سيعود إليها ببساطة، ولا في زمن قصير بعد أن صارت «جرحه» الذي جدد نزفه.

ـ سأل نفسه: هل «الموت» وحده هو الحب؟!

* كان قد طرح على «عالية» هذا السؤال في إحدى حواراتهما، وهو يبدي لها مخاوفه من فقدانها فقالت له: بل الحياة ـ وحدها ـ هي الحب لأن الحياة فيها: أنت وأنا!

لأن الحب كائن حي ـ يا حبيبي ـ بدليل أنه يولد وينمو حتى ينضج، ثم يهرم ويموت!

* همس لنفسه كأنه يخاطب عالية الآن: لكنّ حبنا مات قبل أن يهرم في اللحظة التي كان فيها ينضج!

ـ قالت له يومها مستطردة: والحب علاقة ديناميكية، فيها كل أشكال الصراع الإنساني: سلباً وإيجاباً فالصراع قوام الحياة من أجل خلق نوع من التوازن الخاص.

* عاد يهمس لنفسه الآنى كأنه يذكّرها بما قالته من قبل: حقاً لقد وُلد الصراع، لكن ما حدث بيننا يا حبيبتي: لم يكن صراعاً إنسانياً بسلبياته، بل كان صراعاً أنوياً ذاتياً بكل إيجابياته التي عادت على شخصك، ومن بعدك الطوفان!

نبَّهه السائق إلى وصوله للمطار، ودلف من بوابته لينغمر في زحام البشر الذين يواصلون السفر على الطائرات، وداخل نفوسهم!!

* * *

ـ ٤ ـ

* في جوف الطائرة أغلق ستارة النافذة، ورمى برأسه على كتف المقعد، وغطى وجهه بوسادة الطائرة محاولاً أن ينام.

وكيف ينام وكل الصور، والمواقف، وأصداء الحوارات مع «عالية» تنهمر، وتنثال؟!

أصداء كلماتها التي كانت تتدفق إلى أذنه من صوتها عبر الهاتف من القاهرة إلى جدة وأصداء عبارات رسائلها: تزحم في رأسه الآن، وتوجع نبضه:

* (أسعدني بحق أن تفتح لي باب الدخول إلى عالمك الزاخر، ليس باعتباري «تجربة» تؤدي دوراً على خشبة أيامك، ولكن باعتباري «قيمة» تفتح لها بوابات الفردوس لتزرع في أرضه شجرة «أبتكارها» الوارفة، لننعم بظلها ـ الموحي ـ معاً.

ومثلك أنا، أفتح لك بوابة الباب العالي لعالم فكري ووجداني ـ بالمناسبة، هذه البوابة لا تفتح إلاّ لندرة من البشر بجد، لتدخله فارساً مظفراً، وكقيمة إنسانية وإبداعية متفردة)!

الله الله، ما أصدقك، عالية ـ في الحالتين: وأنت تتدفقين عاطفة، وأنت تنهمرين غضباً وخصاماً!!

❊ (علاء: خيالي لم يزل متوهجاً بك، وسأكتب لك الآن وحتى بعد مائة سنة!

هل أهمس لأذنك بسر؟!

خذني إلى منابع الطبيعة البكر إلى حيث توجد السهول والجبال الخضراء، البحيرات العذبة، والغابات المليئة بالأسرار خذني إلى قلب المحيطات، وأسكنني جزرها الإستوائية، حيث البراكين الطبيعية نركض نحوها لنلهو بالتدحرج من قمتها لسفحها.

هناك حيث تكون الطبيعة على أشد ما هي عليه من طبيعية، سوف تتلقفك ذراعاً «عالية» أخرى غير التي يعرفها الناس!

أصبحت أحب عنواني، لأن رسائلك تحفظه بقلبها أصبحت أشتاق عودتي إلى بيتي، لأن صوتك يدفىء جدرانه عبر أسلاك الهاتف!!

لماذا كنت حزيناً عندما طلبتني هذا المساء؟!

لن يمكنك ـ مهما حاولت ـ أن تخفي عني حالة طقسك المزاجي صوتك وقلبي: صارا أصدقاء يا ويلك، لن يعود لمطاوعتك أبداً)!

❊ ❊ ❊

❊ ربتت المضيفة على كتفه ليشرع طاولة الأكل، اعتذر لها وطلب منها كوباً من الشاي فقط!

أعاد ظهر المقعد قائماً، وفتح حقيبته، وأخرج منها ورقاً وقلماً وبدأ يكتب رسالته الأولى إلى «عالية» بعد الرحيل:

❊ (هل يمكن أن يتحوّل «الحب» إلى حجر؟!

ألا ما أقسى «الوردة» عندما ترصدها عينا «ميدوزا»، فتتحول إلى حجر لها شكل الورد، وملمسها وعطاؤها صخري متجمّد!

أنت «الوردة» التي رصدتْها عينا «ميدوزا» حتى صيّرتك بتعاملك معي ذلك الحجر الذي يُدمي!

ها هو النهار يختفي من عينيّ «ميدوزا» ـ أخت الجرجون ـ وها هي عينا «ميدوزا» ترصد فرحك وفرحي، وتنتظرني في عينيك وقد تحوَّلتُ فيهما إلى حجر!!

وها هو الزمان يتلاشى.. بعدك.

كل ألوان الطيف تفرقَّت لوناً، لوناً كأنَّها رماح تتجه إلى «بغتة» الإنسان في داخلي، وإلى فرحته وتطعن معهما الحلم!

أنتِ «المرأة» التي أفزعك خاطر واحد عني، وهو: أن أكون ضعفك!

وأنا «الرجل» الذي أرغدني وغذّاني هدف واحد، وهو أن تكوني «قُوّتي»!!

و«المرأة» / أنت عندي، كما قال متأمل: «دمعة وابتسامة دمعة من سماء التفكير، وابتسامة في حقل النفس»!

ولكنك بريحك، وإعصارك جعلت مني رجلاً «مقصوفاً»، مثل مدينة مهدّمة في لبنان اليوم، أو أثناء الحرب العالمية!

أنتِ «دليلة» التي جزّت شَعري من أجل أن تُفقدني قوّتي!

أنتِ التي جزّت فرحي، وتألُّقي، وحلمي في الوقت الذي تبقين فيه ـ مع مشاعري ـ المرأة التي تتشكل من عطائها بذور فرحي، وتألّقي، وحلمي!

وإذ بك تديرين وجهك عن مسكني الحقيقي: عيناك كأنك من ثورة إعصارك لم تعودي تتطلّعين إلى المرآة، لئلا تًرِي عينيك فترينني أسكن فيهما، بل وأناضل للمحافظة على هذا «الوطن» عندك!

أنت «فلوريدا» الأسبانية التي احتارت بين «غرناطة» منبتها وبين السفن التي تُبحر دائماً، وتترك لها الوداع، والذكرى الندية عن صحوة العمر الأجمل!

لقد حملتُ «قلبي» إلى بحارك، ونشرت صاريتي البيضاء على امتداد بحارك، وعلى مرأى من حيتانك ثم سكَنْتُ عمق عينيك، وقد أحرقت سفني، وقلت لقلبي مثلما قال قلب «ابن الوليد»: هنا ينبت عمر جديد، ويُكتب تاريخ حافل هنا في الأندلس في عينيّ «فلورندا»!

ولكن سُرعان ما يهطل زمان آخر!

فهل كل زمان يهطل هو الغبث الذي يبثّ في مسام أرضنا: الارتواء؟!

على مفترق الطرق تشابك وقوفك ووقوفي!

تُرى هل كانت لحظة ميلاد، أم لحظة وفاة؟!

لحظة الوقوف: كنتُ ذلك (الإنسان) بحق، الذي خرج من تحت غيمة، بخلت أن تُفسح درب السماء للغيث فكان أن تبَعْثَرْتُ: خُطى وأنفاساً، ولهاثاً، ودخاناً!

في الركض إلى لقائك: الموّال، والحدري، والعتابا، والميجنا خفقي إلى. . . الهباء، في حلمي معك بالبهاء!

ما أوسع، وأرحب، وأجمل ما حلمت به معك في باريس، وأنت معي:

ـ قوس النصر. الغابة. البوح الحميمي. الصدق. الحوار في دفء شمعة. التدفق. التحليق فوق «مُؤَقَّت» البشر في أشياء كثيرة. التفتح على عالم خاص نفهمه، ونرغد فيه.

لم أستطع أن أكون مهِّرجاً، ولا منافقاً، ولا «مؤقتاً»!

لقد كنتُ ـ بعيب شديد ـ رومانسياً لستُ مؤمناً بضرورة اختصار الزّمان، لأجعله «وقتاً»!!

لقد كنتُ أرفض نداء «الطاحونة» وسلوكها.

كنت أغني مع «نصري شمس الدين»، وفيروز:

ـ «ويُمْرق زمان الحكي

ويوصل زمان البكى

ونروح لقاضي الهوى ع الحب نشكي لُهْ»!!

ها أنتِ صرت البعيدة/ القريبة وقد كنتِ ـ قبل الثالث والعشرين من يوليو/ العيد! ـ: القريبة إلى درجة البعيدة!

وتبقين أنتِ ـ وحدك ـ: قارة البهاء التي يصعبُ اكتشافها، ويَسْهل عليها تبسيط الخفقة إلى درجة الفراق!

من أجلك أنتِ أود أن أنساك!!

ومن أجلي أنا ـ لو نسيتُكِ واستطعت ـ لتحوّلت إلى تابوت يمشي بساقين من خشب!

تبقين ـ يا عالية ـ في كل المناخات والحصيلة: أنت ندائي الذي أرفعه، وأموسقه، وأهتف به كلما جُنَّ شوقي إلى صبابة حب، وإلى جرعة صدق،

وإلى بارقة أمل وإلى «بذرة» أصلية لغرسة الَفرح، والعطاء في نفسي!

لقد قرَّرتِ أن تختاري الطريق الذي يخلو من حُرَّاس الزهور!

إذن إسمحي لدمعة ـ نقية، لامعة، شجاعة جداً ـ أن تنحدر من عيني، وترتفع حتى تبلغ الصمت، الذي أسموه: «سيد الحياة»!

لا أريد أن أكثرت بهذا الانخذال الذي اصطدمنا به، وكأنه نبتة «صبّارة» تُفاجيء أقدامنا في مطلع الطريق!

ولكنني ذاهب ـ بكل ما أمكنني ـ هناك حيث أجدك في كل مكان!

أنتِ (المازلتِ): إضاءة اللحظة الفاصلة في عمري ما بين الهم، واالفرح ما بين الحزن، وشهقة اللقاء الراحل!

قلت لك، ولن أحنث أبداً: إنّ هذا العالم كله.. رأسك!

وإنّ هذا العالم كله قلبي!

بعد ـ يا حبيبتي ـ لم أسقط في التجلّط ولن أتنازل عن حبي لك، إنني سأقاتل «الانطباعات» و«المؤقت» و«الرحيل». لتَبْقي في حياتي للأبد أنت: «القيمة» و«الثابت» و«البقاء»، و«الوجود»!

قسماً بتراثك العظيم، الذي أوْدَعْتِه صدري، وأسراري، وفرحي!

قسماً بزهراتك الثلاث، وصندوقك الفضيّ الصغير، وحيتانك!

أيتها المرأة من نار أيتها العز، والنور، والسلطانة على «قدري»:

كل صباح، كل مساء: سأفتح صندوقك الفضيّ الصغير، وأعود إلى أسرارك الثلاثة، ومفاتيحك الكنز.

أعود إلى «زهراتك» الثلاث وهي تُحسّسني في كل صباح جديد: أن عبقها يزداد أريجاً، وعطراً، وشذى متفوقة على جفاف الوقت!

أعود إلى «حيتانك» التي وَشتْ لي عنك، ثم ابتلعتني في جوفها، وأنا مقطّع إلى آلاف الأجزاء!

أعود إلى صندوق مفاتيحك الحقيقية وتحذيرك من أن أضِّيع المفاتيح!

حقاً صار هذا الكنز، وهو: حصيلتي، وعائداتي، وحصادي، وسقف إنتاجي، وغطائي الذهبي وهو: تركة قلبي المقتول!!

زهراتك، وحيتانك، وصندوق مفاتيحك هم: عالمي الأخير، الذي أدخله ـ وحدي ـ فأجد فيه «عالية» الأصلية، والحبيبة، والمحبوبة وأسترخي فيه من بعد نَصَب شديد!

هم: البديل عن صدرك الذي حلمت أن أضع رأسي عليه، وأسكب تعبي وأنام قريراً (بلا شخير)!!!

كأنكِ ـ يا سيدتي الأعز ـ قد قدّرت مسافة الرحلة التي سأعود بعدها من عندك، لأستقر في (تراثك) هذا الذي تركْتِه لي في معنى الاكتفاء!!!!

سأفتح صندوق مفاتيحك بمجرد عودتي وأُوشوش الزهرات الثلاث المنوحة لاسمك، ولاسمي، وللحيتان التي وَشَت؛ لي عن مكان المفاتيح، ثم تحوّلت إلى مفترسة لفرحي، وحلمي!

أعرف ستقولين: إنَّ الحيتان لا ذنب لها وليست جريرتها!

رأيك، رؤيتك، قرارك!

رأيي، رؤيتي، نضالي!!!

سأمسح على ظهر حيتانك برفق، وأحتفظ بمفاتيحك داخل هذا الصندوق، وأسترجع أصداء ما تختزنه من ذخائر الفكر الذي جمّعنا، ومن نجوى الفؤاد التي تغنّينا بها:

ـ لقد قيل: «الحلم هو أقصر الطريق بين نقطتين»!

وقد عُدت محترقاً بنقطة واحدة عدتُ إلى الحلم منة جديد، متماسكاً، مُصراً على هذا الجسر الذي يُقرِّب المسافة بين نقطتين، وهو: الحلم!

ـ وقد قيل: «البعاد لا يمحو الذكريات، ولا الأحداث»!

والبعاد ـ عندما يكون مادياً أو جسدياً ـ فإنه لن يقدر أن يفرض البعاد الروحي وأنني أثق في قدرة مشاعري على نسف هذا البعاد الأقسى!

ـ وقد قيل: «لكي تصل إلى النغمة الحقيقية في حياتك العاطفية فعليك البحث عن: قلب يفهمك، وعقل يحبك»!

ولقد أحسستُ أنك أنتِ التي فعلت ما أشعرني بحدة شديدة: قلبك ينكرني وبغربّني عن الفهم وأن عقلك يبغضني!

أنا صرت أعرفك جيداً أنت (الإنسانة) التي تتمتع بالصفاء من الداخل، وإن اتَشَحَتْ برداء غير ردائها والتي تتمتع بالنظافة القادرة على إجلاء الأصل والعمق!

لذلك سأستمر أكافح كل شيء يمنعني عن أن أواصل محبّتك.

ولا بد أن أعود ـ بعد ذلك ـ إلى: أقعر الطرق بين نقطتين وهو: الحلم!

أعود إلى «الحلم» من جديد، وأقفز فوق الإحباط.

وهناك كاتبة أنثى أضافت رفضها، فقالت:

ـ «لا ليس صحيحاً أن أقعر الطريق بين نقطتين، هو الخط المستقيم بل هو الحوار»!

وأنت تؤمنين بالحوار، وتقدّسينه، حتى لو بالغت فيه بالعنف اللفظي لكنّك ـ أحياناً ـ تعمدين إلى إِذلال (الحدس)!

والحدس كان صرختي، وندائي عليك، ونجواي، وتبتُّلي.

والحدس كان هو أيضاً: فراقنا، أو بعادنا وأرفض أن يكون: افتراقنا!!

هل تعلمين ـ أيتها العزيزة الأغلى ـ: لقد سقط (حدسي) مضرّجاً بدمائه برصاصة قنّاص ماهر!!

أعرف أنك بعد عودتك من أسبانيا إلى بيتك، ستبادرين إلى إقامة صالون عزاء بين جدران هذا البيت التي قلت لي عنها من قبل: أنها تتدفأ بصوتي عبر أسلاك الهاتف!

الآن عدتِ بعد مراسم تشييع جنازتي داخل صدرك في باريس، ولا بد أن تتخلصي من رسائلي، وأنغامي الخليجية فلا بد أنها ستتحوّل في سمعك إلى نشاز!!

أما أنا حيث أعود الآن: فسوف يجيئني مساء آخر، يختلف تماماً عن مساء (الرمال) الراقصة التي عقدت قران قلبينا وزفتهما فوقها هناك في «دوفيل»!!

لقد وبِحْت في مساء همس الرمل للبحر، ولشَعْرك، ولمشط شعرك، ولشفتي ولقد متُّ أيضاً في ذلك المساء!

ـ قُلت لك: اللحظة ستكون عمري الكامل عندما تكون معك!

وهكذا عشتُ عمري الكامل في اللحظة الضوئية معك. ومتُّ!!

❊ ❊ ❊

ـ ٥ ـ

* لم تكن «عالية» مجرد طيف عابر لزمان عشق «علاء».

بل انتشرت في أيامه وعمره: ضوءاً يُشعل لياليه ووحدته حنيناً وأماني.

كانت أنفاسها: بوحاً يملأ كونه عطراً وأغاني هي الدنيا التي حسب أنها ـ وحدها ـ ستشدو بأحلامه، أحلامهما معاً!

تلقفّ «علاء» هذه الدمعة من قلبه، وهي تنزلق من تحت جفنيه وقد كانت «عالية» تغسل دموعه دائماً بضحكتها، وتفتتح معه: زماناً جديداً يغنيان فيه للحب!

وفي استلقاءته على ظهر كرسي الطائرة، بعد كتابة رسالة الإياب إليها أغمض عينيه، وكان يناديها من أعماقه: رحيلاً، وسراً مطعوناً يطارد ريحها في فلوات الغضب الحارق، ويمشي رملاً يتكثّف في أرودته:

ـ عالية أيتها المجنونة بالحيرة، بالبرق الخاطف!

وكأن الأصداء تعتاده من البعيد تحمل صوت «عالية» / صهيلها الذي يعدو في البحر بلا مرفأ!

وعادته صورة كشريط السينما من ذلك «اليوم الكامل» الذي اقترحه «علاء» على عالية، وصديقتها، وصديقه ليذهبا إلى «الغابة» في أطراف

باريس، ويمضوا يوماً جميلاً في أحضان الخضرة، ودفء الشمس!

كم يشتاق الآن إليها إلى يدها تعانق يده، مثل عناقهما وهما يمشيان الهوينا في دروب الغابة، وتحت فروع وأوراق أشجارها، واتكاءتها على جذورها.

الغابة تموج بالهاربين إلى دروبها، وشجرها، وحشائشها، وشلالاتها بعيداً عن صخب المدينة الضخمة/ باريس، وحتحتة لهموم النفس وملل الاعتياد اليومي.

ومع أولى خطواتهم داخل الغابة، وهم يلجون بوّابتها قال صديقه «حامد» لهما:

ـ أنت وعاليتك تقدما، إختبآ، ممكن أن تضيعا منّا لمدة ساعة إثنين ولا أكثر، وأنا وفاتنتي نرغب في ذلك أيضاً، وموعدنا هنا ـ على هذه الكراسي ـ قبل بوابة الخروج؟

* قالت عالية: دعنا نسير معاً في هذا البدء ثم نضيع.

وضع «حامد» يده في يد «فاتن»، وانطلق بها يقول ضاحكاً:

ـ لدينا كلام أجمل سنقوله هناك فوق ذلك البساط الأخضر بعيداً عن «حشريتكما».

* قالت عالية وهي تضع كفها في كف علاء: خذني إلى ذلك البائع أريد «آيسكريم».

هذه الأنثى الغجرية لا بد أنها أمنا «حواء» الأصل التي هبطت إلى الأرض، وجعلت هذا الرجل الحالم يلتهم التفاحة حتى بدرها!

تبدو «عاية» بجانبه وكأنها تبعد عنه، وتختفي في تضاعيف الزمان، وتحلق فوق الحدود، وتخترق المسافات!

ـ همس لها وهو يطوح بيدها ويده/ المتشابكتان: «الي آخذ عقلك»؟!

* قالت: / الحرية / صدقني مدن الحرية مجتمعات الحرية نضج الحرية رجل الحرية، قافلة ـ يا صديقي ـ مترابطة، لو انفصلت أحلاماً صارت قديمة وتعتادك دائماً؟!

* قالت: بل هي الحقائق ولا بد أن تصبح «الحرية» بأبعادها وعرباتها: حقيقة.

ـ قال: أحد الفلاسفة شدّنِي يوماً بعبارة جميلة جداً، قال فيها: «مشكلتنا أننا نجد دائماً أن الحقيقة أكثر رمزية من الرمز الذي نريد أن نجعله حقيقة بينما الواقعية التي نريدها في إطار الحرية، هي واقع أصغر فالحقيقة أكثر خيالية من الخيال»!

* قالت: كلام فلاسفة، وإن كان جميلاً وأكثر عناية بالرمز لكنني ـ بجد يا علاء ـ أتوق إلى مساحة الحرية الناضجة في أرجاء وطننا العربي الكبير في أرجاء بيوتنا العربية، وفي مفاهيم ووعي أَسَرِنا / الآباء، والأمهات، والموجِّهين، والمعلمين.

ـ قال علاء ضاحكاً: ألا تعتقدين أنك تتحدثين عن الحقيقة الأكثر رمزية من الرمز في واقعنا العربي أو عن الحقيقة الأكثر خيالية من الخيال، كما قال ذلك الفيلسوف؟!

أعرف ـ يا صديقتي ـ أن الحياة قد تتحول إلى «بطيخة» في ما نرمز به إليها أحياناً، فنقول: حلوة، أو «قرعاء»!!

فنحن هنا نرمز حيناً، وإلى الحقيقة الغامضة بالرمز حيناً آخر هل تكون حلوة، أم؟!

تلك هي النسبة، أو الخليط الرفيع في حياتنا، للاحساس بالفرح، أو بالحزن!

* التفتت إلى وجه «علاء» وقد انفرجت شفتاها قليلاً، وقالت له: «قبلّني»!

فاجأه طلبها فاحتضنها وهي تتكيء بجسدها الفارع الميعسب على جذع شجرة، دون أن يجدا بعد القبلة الطويلة أي كلام مناسب!

غمرت هي كفَّه ـ هذه المرة ـ في كفِّها، وواصلا المشي حتى قالت له:

ـ أردت أن تُقبِّلني قبل أن تفقد شفتاك ذلك الكلام الحلو فنحن معاً نعتقد: أن تناول الناس لحياتهم في إطار مجتمعاتهم، وعاداتهم القديمة وتقاليدهم هو ذلك التناول الذي تحكمه الرمزية في الحقيقة، وبحلم الحرية فالناس ـ بسبب افتقادهم للحرية ـ يتصرَّفون بالرمز، وإن كان فعلهم مباحاً مباشراً أو صدامياً!

* * *

* شعر بيد رقيقة تلامس كتفه وكأنه أفاق، وأشرع جفنيه ليجد المضيفة ـ غير الحسناء ـ تقف وتناوله فنجان القهوة، وهي تهمس كأنها تقول:

ـ «القهوة تفوِّق اقتربنا من أجواء جدة»!

* سبحان الله لماذا تدنى اختيار المضيفات المليحات في طائراتنا؟!

إبتسم لنفسه وقد أيقظته هذه المضيفة من حلم جميل، وانتزعته من تفاصيل شريط ملون بالبسمات لذكرى اليوم الكامل داخل غابة باريس!

في الحب ليست هناك فرصة للاستراحة، ولا للراحة، ولا لاستعادة الأنفاس اللاهثة!

كأنه يلهث في عودته من التذكُّر هو يعالج في رأسه قناعة تقول:

ـ لكي ترى الناس في مناخ الحرية، لا بد أن تعرف حقيقتهم، ولا بد أن يعرفوا أعماقك فالمعرفة للنفس الإنسانية التي صارت أكثر تعقيداً اليوم، هي مفتاح التعايش في الحياة!

وراوده سؤال مع خاطرته هذه:

ـ ترى هل «عالية» تعاني من ذلك الـ «أكثر تعقيداً» في حياتها ولذلك أصبحت أشد حساسية، وأحياناً أكثر مغالاة في «الأنا» الأنثوية لديها؟!

قذف برأسه على ظهر المقعد ثانية فالهبوط يحتاج إلى حوالي ساعة.

عاد إلى هناك في عمق الغابة وصوت «عالية» يقول له:

ـ تعال نركب هذه العبَّارة لتنقلنا إلى الجانب الآخر من الغابة.

واستلقيا على أرض خضراء مبسوطة بالحشائش: «عالية» أراحت ظهرها على العشب، وأطلقت يديها من حول رأسها إلى أعلى، ومدَّت ساقيها في اتجاه الريح و«علاء» اقترب منها، ووسد صدره ذلك العشب، واتكأ على مرفقيه يتأمل سواد عينيها واتساعهما، وأصابع يديه تعبث بشعرها الحالك في ليله.

ـ قالت له مبتسمة: ها إحكي.

* قال: إسألي وأنا أتحول إلى وكالة أنباء.

ـ قالت: حياتك مشوارك همومك.. طموحاتك.

* قال: كتبت لك عنها لكني أنا الذي أحتاج إلى هذه الثقة منك.

ـ قالت: أحكي لك حكاية عن ليلة شعرت فيها أنني: وحيدة وحيدة وحيدة!

(كان الصمت يطبق على المكان الزمان، أنا التي سعيت إلى هذه الرحلة، بل أني خططت لها.

قطعت أسلاك الهاتف. لا لم أقطعه، بل تركته يطلق نداءاته المتكررة، ولم أرد!

تآمرنا ـ وحدتي وأنا ـ على إتباع خطة محكمة للاختلاء بنفسينا.

آه، كم أصبح ذلك العالم ـ الخارجي ـ مُتْعباً.

كم أصبحت ثرثرة الناس مُرْهقة.

تُرى، مَنْ منا الذي تغيَّر وأصبح ثقيلاً لا يطاق يا علاء؟!

كنت أسأل نفسي في تلك الليلة: لماذا أجلس إلى الناس فيصيبني «البُكم» ولا أعود أنطق، ويتحوّل الكلام إلى حجر عثرة في حلقي؟!

لماذا أسمعهم يتحدّثون فتلفح وجهي ريح خماسينية، ولا أعود أدري أين أهرب برأسي قبل أن يطمسه غبار الريح الساخنة؟!

في ذلك الصباح الذي سبق تلك الليلة: اشتريت ثوباً جديداً لن ألبسه!!

قلت ليلتها: لمن أرتديه، وأين؟!

هنا يفتقر الناس لكوز ماء لتغتسل من الرطوبة والأتربة.

هنا يختلط عرق الناس بجوعهم، بعريهم، بتوترهم الجنسي، ويعلو صراخهم من وطأة الكبت والزحام والضجيج وقلة الحيلة!

كل يوم كنت أقود سيارتي المكيفة الهواء، وأقفل زجاجها في وجه الصور المتحركة لمظاهر انتهاك حقوق الإنسان أنا أيضاً لم أنجُ من جرائمهم، حولوني إلى عاجزة!

عند مفترق طريق، انعطفت سيارة «مساجين» تعترضني، توقفت مجبرة كانت السيارة كالتابوت المغلق، نافذتها الوحيدة عبارة عن طاقة صغيرة مدججة بقضبان حديد، وقد تدلّى منها كف ليد صبي صغير.

ذبحني المشهد!

ترددت أصداء صوتي ترد على كف الصبي الذي تدلّى في استسلام عاجز: «لقد ذبحتني»!

بعد مسافة من الطريق، نزلت أجرُّ خطى مترنحة، دخلت إلى مكتب خاص لإنهاء بعض الأعمال، كانت الموظفة ـ التي أعرفها جيداً ـ تستمع إلى شريط كاسيت نزل حديثاً إلى الأسواق استقبلتني بإبتسامة في ركن منها استخفاف، وفي الركن الآخر سخرية، وهي تقول: «هل استمعت إلى أحدث شريط»؟!

ثم استدارات لترده إلى بدايته، وانبعثت الأصوات ما هذا؟؟ لا أفهم!! حقيقة، عجزت أذنيّ عن الفهم!

ما هذه الأصوات؟؟؟

وردت الموظفة على «وجومي» بسلسلة من الضحكات الهستيرية، وأخيراً إلتقطت أنفاسها وهي تقول بسخرية مُرة:

ـ إنه أصدق نفسي!! شريط كاسيت يعلن عنه التلفزيون، وتغطي صوره

أكبر الصحف اليومية، يُغني: هاوهاو!! نعم، نباح كلب على أنغام موسيقى صاخبة راقصة مثيرة!!

علَّقت الموظفة ـ على «الذهول» الذي رسم علاماته فوق خطوط وجهي: سيبيع مليون نسخة!

قالتها وكأنها تغيظني، أو كأنها تُعاير عالم المثقفين الذي أنتمي إليه، كأنها تريد أن تقنعني: أن «هاوْهاو الكلب» يبيع مليون نسخة، بينما أي كتاب لا تتجاوز مبيعات عصارة روحه وفكره العشرة آلاف نسخة؟!

علق موظف آخر بقوله: سأرسل للصحف إقتراحاً بأن يجعلوه نشيدنا القومي!!!

في تلك الليلة ـ وكل ليلة ـ أوصدت بابي في وجه شاشة التلفاز، قطعت تيار الكهرباء عن المذياع، تحسست عناوين الصحف من بعيد، حتى لا تنفجر منها شظية فتفقأ عيني!

وحدها ـ وحدتي ـ صارت تمنحني سكينة النفس والسلام).

* قال لها علاء: ياه ـ تعرفي، هذه «قصة قصيرة» متكاملة البناء، لماذا لا تكتبينها؟!

ـ قالت: إنها وقائع حقيقية لتفاصيل ما عاشته امرأة عربية ليوم واحد.

هكذا ـ يا صديقي ـ أمضي الزمن العسير مع «الليلة» / الكل ليلة أروِّضها، وتروِّضني، حتى صرنا أصدقاء نشترك في نفس الهوايات: القراءة، الكتابة، سماع الموسيقى، وقلة الكلام!!

قبل أن أنام، صعدت إلى حجرة نومي، أخرجت ثوبي الجديد من الدولاب، تأملته بعدم اكتراث، لا أحتاجه ومع ذلك اشتريته، كنت كطفل

يصالح غضب نفسه بشراء «مصاصة»!

إرتديت الثوب الجديد، جلست أنا ـ ووحدتي ـ نحدق في المرآة، سمعتها تهمس لصورتي: جميل يناسبك تماماً.

إرتمست على شفتيّ إبتسامة شاحبة، ما زلت أهرب من مرارة الواقع إلى اللعب بالألوان المبهجة.

ثم ـ كطفل متعب ـ رفضت أن أخلعه، ودخلت بثوبي إلى السرير لأنام!

كان اليوم الذي سبق تلك الليلة / وكل ليلة. . ، يوماً ثقيلاً بلا دفء سماع صوتك الذي كان يأتيني من جِدَّتك إلى قاهرتي مساء كأنه نجمة توصوص في سماء غطتها الغيوم!

تلك الليلة: كنت ممدودة الساقين على أريكة وثيرة في حجرة مكتبي، وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، وكنت ـ أنا ـ مستغرقة في قراءة (شيء) قديم.

❊ ❊ ❊

❊ تسللت كف «علاء» إلى وجه «عالية» مسح بها ذلك الوجه الذي كان الحزن يغمره، وتخللت أصابعه شعرها الأسود المنتشر تحت رأسها فوق العشب ولفهما صمت طويل، أفاقا منه على صوتيّ «حامد وفاتن» يصرخان:

ـ الله، الله نحن نفتش عن قيس وليلى، وهما مسترخيان على العشب يا الله، لقد انتهى وقت الحب، انهضا فالليل يكاد يحل، ولنعد إلى الفندق!

❊ ❊ ❊

ـ ٦ ـ

* «أعلنت المضيفة وصول الرحلة إلى مطار جدة»، وطلبت اعتدال ظهور المقاعد، وربط الأحزمة.

أفاق «علاء» من أحلام اليقظة من أصداء شريط الذكرى لليوم الكامل في غابة باريس.

الدنيا من حوله الآن: لا تجيء، ولا تذهب، لا تقف، لا تجلس يصرخه الجواب:

لغة في قاموس الحيرة.

تلك اللحظة للفراق بينه وبين «عالية» كان الموت يُفاضله، ما بين رحيلها عنه، وبقاؤها، مندلعة في أوردته، متدفقة مع الدم وما بين «السر» يداجيه، والتعب الآن يفيض من الأعماق: ظنوناً، وجنونا كي يقتله!

هبط إلى صالة الجوازات ـ كالآلة ـ وقف في الطابور، مدّ يده بجوازه، واستعاده بعد ختمه، إتجه إلى «سير» الحقائب، وقف مندمساً في زحمة الناس حتى لاحت له حقيبته إلتقطها وأخذها مع نفسه إلى موظف الجمارك، فتح الحقيبة ويده على صدره خوفاً من أن يُصِّرُّ ويبعثر ملابسه سِرَّه في داخل صدره لا يحتمل المزيد من البعثرة، حبذا لو صادره له مأمور الجمارك ليريحه.

دفع عربة الحقيبة إلى خارج صالة المطار الداخلية.

وما زالت في تلافيف رأسه، وبين ضلوعه حزمة من الألف سؤال، ومن تلك الإجابة التي لا تنطق!

ها هو يشعر الآن أنه: حتى الموت لم يقدر أن يمشي بدون «عالية»!

موته: حيت تحوّل عصفور الحب في صدره إلى «بوم» أن يفقد «عالية»!

صدّق هذه الحبيبة آلاف المرات من آلاف الكلمات التي كتبتها له، وهو يُصِدْقها الحب!

يريد أن ينجو الآن من هذا السيل المتدفق من قلبه، ومن ذاكرته ومن كل الأصداء!

* * *

* تلقفه الليل المختلط برطوبة «جدة» ليرميه: وحيداً، مختنقاً باللحظة اليتيمة التي يهبُّ من جراحاته فيها: خوفه على حلمه، وأمانيه البريئة هو هذا العاشق الذي سقط داخل قلبه، وتحوَّل قلبه إلى بئر مهجورة.

خطر بباله في لحظة الرطوبة هذه، بيت شعر يحفظه:

ـ «ما زلت أحيا كل ما عشناه يوماً

رغم أن العمر: أيام قصار»!!

تلك أصداء تبقَّت من حوار في صمته الغارق في زفرات حزن تصاعدت من صدره كأنها: رائحة «شباط» قلبه!

تناثرت نظرات ضياعه من حدقيته، كأنها خطوات الغربة التي لازمت عمره.

يرى خفقات قلبه وقد تحوّلت إلى: ذرّات تراب تتطاير، وقطع حجارة تتدحرج، وأعاصير نفس تهبّ.

لقد ركض إلى «عالية» بكل صدقه، واندفاع عشقه لها ولم يكن الهدف يومها أن يصل إلى: «لؤلؤة في أبعد بحار» لم يكن ـ أيضاً ـ يتطلع إلى الصعود نحو: «نجمة أبعد من الخيال» لكنه كان يبحث عندها عن أمان النفس من شرورر تعصف كالكراهية، وكالضَّيم!

كاد يود أن يمشي معها ما تبقَّى من العمر بلا توقف!

أن يتطلعا معاً إلى البشر بعيون مُعْشِبة، في مواجهة عيونهم المُعْشِية وببصيرة تبحث للناس فيهم عن: الوضوح، وصدق الفعل، وودّ الشعور!

ياه ـ «مُنىً إن تكن، تكن أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا»!

حقاً.. تذكّر هذا البيت من الشعر الذي كان يُردُّده دائماً على مسامعه: شيخه / معلمه وطافت ابتسامة غير مستقرة على شفتيه، وهمس:

ـ نعم لقد كانت «عالية» / أحسن المُنى وكان الحلم معها وعنها: مُنىً.

هذه الأحسن المنى العالية كتبت له قبل «المواجهة» تقول:

(سألتك في خطابي الأخير: ما الذي تنوي أن تفعله بي بالضبط؟!

هل تنوي أن تتشكل لتصير «سائلاً» من الإبداع والحب والفهم، ليسهل دخولك من سن الإبرة إلى وريدي، فتصبح بذلك: المسافر في دمي دمي.. دمي؟!

لو كنت ربطت حقائبك، وحملت رحالك، وعقدت العزم على هذا السفر، أريدك أن تسأل نفسك صادقاً ـ قبل أن تتشكَّل سائلاً شفافاً وتغوص

في الوريد ـ هل تقدر على عناء هذا السفر؟!

أنا لا أشكك في قدراتك، فقط «أنبهك» إلى أن السفر في أنهار دمي قد يكون لا شطآن له، وقد تصبح السباحة مستحيلة في بعض أجزاء منه، والدوامات المتفرقة قد تدوِّخك أما منطقة إندفاع الشلال فتطلب منك مهارة خاصة حتى لا تغرق تحت تأثير قوة إندفاعه.

إسمح لي مرة أخرى أن أنبهك، فهذه فرصتك الأخيرة كي تختار قبل أن تراني، قبل أن أراك، قبل أن تحدثني، قبل أن أسمعك، قبل أن تحتوي كفي الرقيق في حنان يدك، قبل أن أفتح عليك نيران نظراتي وأفكاري وإلهام مشاعري وعفرتة طفولتي.

أنبهك ـ هذا التنبيه الأخير ـ في هذا الخطاب الأخير قبل اللقاء المرتقب، لأني من فرط غلاوتك، ومن عظمة قيمتك عندي، أخاف عليك حتى من نفسي!!

* هل سبق لك أن رأيت امرأة في لحظة سعادتها الخاصة؟!

ـ لو قُدِّر لك أن ترى ذلك ـ لا أبالغ والله ـ ستجد نفسك وقد صرت ذلك الملك المتوّج، والصبي المدلل، والطفل الذي يطير بأرجوحته إلى أعلى الفضاء ليستحم في نور أبهى نجمة.

ستجد نفسك وقد صرت ذلك «الغجري» الذي يطوف البلاد، يرقص «صدقه»، ويغني «وحيه» وإلهامه.

أنا الليلة أشعر بسعادة غامرة تمنيتك أن تكون هنا، معي، إلى جواري لنسعد معاً، لنقتنص من أنياب الزمان هذه اللحظات النادرة.

ترى كم يكون رصيد الإنسان من السعادة ـ لو حسبها ـ عند نهاية حياته؟!

قدر الإنسان العربي ألا تتجاوز سعادته العشرة بالمائة!

أنا أجاهد مخلصة، أحاول، أصرّ، أحارب، أصارع، أتحدّى، أضرِب، أصطدم، أقع، أقف، أُضحِّي، أدفع الثمن من دمي كي أرتفع برصيدي في بنك السعادة إلى: الواحد وخمسين بالمائة!

هل رأيت المعاناة؟!

ولكني على إصراري على نيل السعادة، لي ولك. (قول يا رب!).

❊ اليوم، الأربعاء، إستمعت ـ أربع مرات ـ إلى صوتك. (يا بختي)!

وصلتني رسالتك ـ رقم سبعة ـ وأنا أسبح في أغوار بحار صوتك. (إيه ده!!).

عُدتَ تطلبني لتطمئن بنفسك على حالة «قلبي» الصحية.

بعد قراءتي للرسالة: «إستغثت بك أن تسرع في إرسال أقرب سيارة إسعاف».

ها أنذا أغفر للزمان جحوده وقسوته.

كنت أظن ـ حتى أيام قليلة مضت ـ أني لن أعود للضحك أو الابتسام قط!

أؤمن أن الزمان رحيم رغم كل شيء. «أنا مؤمنة ومتفائلة بطبعي. هل تصدق؟ صدفة غريبة! أنا وانت من برج واحد»!

ها هو الزمان يسعى إليّ لمصالحتي واسترضائي، بأن بعثك قبساً من نور العقل والإحساس لتضيء سمائي ـ في هذا التوقيت على وجه الخصوص ـ وها هو يرد الحاقدين ويعيديهم كالفئران إلى جحورهم وها أنا أعيش الغد المرتقب الموعود بلقائك منذ اليوم وها هي إبتسامتي تسكن وجهي، تضيء مشواري إليك، بألف ومائة قنديل.

صباح الخميس: إنتظرت صوتك كالمعتاد (تصوّر أصبح لنا عادة مشتركة ـ مبروك) جاءني في موعده (مِرْسي)!!

أصبحت أشعر بتوازن «خاص» بعد سماع صوتك وقراءة خطاباتك (خايفة منك!).

لا يزال عندي الكثير لأقوله لك لا يزال عندي: الكثير، الكثير، لأعلق به على خطابيك الأخيرين!!

* * *

* علاء / يا عزيز، يا غالي: «بذمتك دي وِحْشة»!!

«كل ده زعل، غضب، خناق لأني ناديتك: يا عزيز، يا غالي»؟!

والله لم أقلها لعزيز غيرك «يا طمّاع»!

لو تأملت العبارة جيداً لما استهنت بها، وما كتبت لي في غمار غضبك الطفولي قائلاً: «عليّ أن لا أخطو حدود: العزيز الغالي»!

في رأيي أنها عبارة لها معنى أعمق وأشمل من «حبيبي» التي استُهلكت إلى حد الإبتذال!

«العزيز الغالي»، أنظر ـ علاء ـ تأمل العبارة والمعنى جيداً ألا ترى معي أنه مفعم بالحنان، والصداقة، والود، والثقة والألفة الخاصة المخصصة «لنفس» واحدة خاصة ومميزة؟!

علاء: أول مرة أكتشف أني أحب اسم «علاء» أول مرة ألاحظ أن به هذا القدْر من الفروسية أناديك / علاء، فأرى فارساً يمتطي جواده العربي يركض في رمال صحرائه الشاسعة باحثاً عن حبيبة!!

* * *

* سقطت أوراق الرسالة من بين أصابع علاء، وتعلقت نظراته بسقف الغرفة، يحاول مداراة دمعة ساخنة حتى لا تسقط على الورق فتمحي بعض الكلمات التي بادرت «عالية» إلى محوها في رحلة المواجهة!

كل هذه الصفات والمشاعر: فاضت بها نفس «عالية»، وانتشت بها روحها عن «علاء» من خلال رسائله إليها، وملاحقاته الهاتفية لها.

ألم تكن «عالية» صادقة في كل هذه «الحميمية» التي كتبت بها رسائلها إليه؟!

بل كانت في قمة صدقها، ووهج فرحها بإطلالة «فارس» ـ كما وصفته ـ على حياتها.

فما الذي بدّلها إذن؟!

هل كانت: ساعة الخلاف التي خاصمها فيها، وهم عائدون بالقطار من «دوفيل»؟!

أو هناك أسباب أعمق قفلت عليها صدرها، وأخلدت للصمت؟!

يرفع أوراق رسالتها ويواصل القراءة / الأصداء:

* (أحب شجاعتك، وضوحك، تحديدك، إقتحامك، إعلامك، تصريحاتك لما إكتشفته في نفسك من مشاعر صادقة نحوي).

صرختك المدوية زلزلت أعمدة جدران معبدي وأنت تهتف بي: أحبك! وكأنك مُصِرٌ على إفاقتي من ذهولي على أثر سرعة تدفق تيار الشعور الذي هطل «سيلاً» مفاجئاً على تشققات أرضنا العطشى.

كان «بحرك» حكيماً متفهماً عندما همس لك في تلك الليلة المقمرة، واصفاً لك حال حبيبتك بالإضطراب، والدهشة.

نعم ـ علاء ـ أنا مضطربة ومندهشة، والغريب أن الحالة في تزايد مستمر مع كل ورقة تسقط من «نتيجة» أيام شهر «سبعة»، فيلوح موعدنا المرتقب من حلم ضبابي له لون البنفسج ورائحة الورد، إلى حركة وخفقة مميزة وأربعة عيون يلمع مغنطيسها في ظلام الليل الحالك!!

ومع ذلك، دعني أصارحك، دعني أسلك مسلكك ـ الذي هو مسلكي أيضاً ـ في الوضوح والمباشرة!

أنت ـ مهما ادّعيت معرفتي ـ لا تعرفني بعد لن يستطيع خيالك مهما صوّر لك أن يصل بك إلى أعتاب جنوني!!

تصوّر لو فتحت عليك باباً واحداً من سد مأرب ما أنت فاعل في مواجهة هذا السيل الغزير المرعب؟!!

ثم تقول عني: «أليطة وبايخة»!

طيب، والله لأفتح عليك ثلاثة أبواب، وليس باباً واحداً، «لما تشوف مين حيعوم، ومين حيغرق»!

تعالى الآن، هات رأسك المتعب، إسترح على ساقيّ، إغمض عينيك واسترخي الآن سأمشط لك تعبك بأسنان أظافري، الآن ستنام في وداعة طفل يرى الفجر لآول مرة.

تصبح على خير يا حبة عيني.

«هذه قبلة على عينك دي، وكمان واحدة على العين الثانية» حتى تأتيك «حبيبة» فتراقصها على سحابة أحلامك الوردية.

(تصبح على خير، على).

* وجد رسالة ملحقة بهذه، قد وحّدهما في زمن وصولهما وكانت الرسالة التي سبقت موعد سفر «عالية» إلى باريس وقد وصفت فيها إضطرابها وخوفها من اللقاء!

الآن مئات الأسئلة تُفتح أمامه كأنها قاذفات لهب:

ـ لماذا كانت متوجّسة خائفة من اللقاء؟!!

هل كان خوفها من «علاء»: أن تكون شخصيته غير أسلوبه في الكتابة غير هذا المضمون الرائع الدافىء في رسائله؟!

أم أن خوفها ينبع من داخل نفسها خوف التقلُّب النفسي، أو الملل السريع؟!

أم أنه خارج حدود الخوف... مجرد لهفة اكتشاف، ولم تكن لهفة حبّ؟

❊ (ها هي حقيبة السفر فاتحة صدرها أمامي لأصُف داخل أحضانها فرحي وحلمي ولهفة أشواقي.

معقولة... صحيح آن الآوان... هل سمح الزمان ـ بعد أن سامح ـ أن تقترب غيمتي المشبعة بالعطاء من هواء عطاء روحك ووجدانك المندفع حرارة وشوقاً؟!

أتوقع ـ لحظة حدوث لقائنا الأول ـ أن الطبيعة ستشاركنا فرحنا بأن تمطر السماء فجأة فوق أراضي جرداء لم تردها بمائها أبداً، وأن تشرق الشمس ـ على غير توقع ـ فوق صحراء سيبيريا فتذيب بعضاً من جليدها المتحجر... وربما، أيضاً أطلقت السماء «زغاريد» فرحها من حنجرة رعْدها، أما شموع «الزفاف» فستكون هدية البرق لليالينا المقبلة.

«علاء» ما زلت أخفي لك في أعماق جعبتي السحرية الكثير... الكثير... وإذا كنت لم أزل متمسكة «بحذري» ـ كما تقول ـ فلأني أعرف ما يخبئه لك «جِراب الحاوي» في سريرته من مفاجآت، فقط لي موعدي الخاص!

« أصبر شوية يا أخي... ابقى أنا أليطة وبايخة؟!

طيب إستلقّي وعدك وخد عندك»؟!

❊ علاء / أيها الـ... في شراييني: أنا لم أعد قادرة على تجميع أفكاري... نسيت كل شيء... نسيت الناس... لم أعد أرى، ولا أسمع، ولا أتذكّر: غير أن طائرتي موعدها في الغد... وأن موعدي معك في الغد أيضاً... وأن صوتك سيعانق صوتي، ونحن هناك ـ معاً ـ في بلاد النور، والحب، والفن، والحرية... وأني بكل خفقي ونبضي: أنتظر... أنتظر... أنتظر!!

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث

عبث الجمال

❊ لا تصدِّقوا: أن هناك

إمرأة... بلا قلب

وإنما هنا إمرأة...

تعبث بكل قلب!

❊ دورثي طومسون ❊

❊ ❊ ❊

ـ ١ ـ

* ثمة فاصلة وقفت بأشواق «عالية» نحو «علاء» ذات يوم في باريس... كانت هي مُتْعَبة به، وبانفعاله معها في القطار... وكان هو منتشياً بحضورها ليحققا ذلك الحلم الجميل الذي نسجاه في مخليتهما مع دقات قلب كل واحد منهما... حتى حدث الارتطام!

أرادت «عالية» أن تجمع حياتها القلقة... في حضن «علاء» بعد أن رسمت له في مخيلتها صورة: الفارس، القوي أو الأقوى منها!

ربما أرادت فيه الرجل الذي يُقنعها أن تنضوي تحت لوائه دون أن يعتسف فيها هذه الرغبة، أو لحظة ضعف المرأة هذه مع الرجل الذي تحبه، وتتكىء عليه ليحميها.

ومنذ إطلالة «علاء» بنظرتها الأولى: استخدمت في رد الفعل السريع... تلك النظرة الباردة أم المكتشفة، وهو يندفع نحوها بخطوته إليها، ويحتضنها أمام صديقه وصديقتها!

إنها لم تصِفه لحظتها بالمتهور... لكنها رأت في هذا الاندفاع العفوي: عدم اتزان، و«لفافة»، وطفولة غير مرشَّدة!

وهو أراد باندفاعه ذلك: أن يكون «شاعراً» / طفلاً: «لا صوت له. . . وعليه أن يتكلم»، كما قال «بكيت»!

حتى كانت «حادثة» القطار التي جاءت مخاض حوارهما، وقفلة الفرح. . . فرأته في الليلة الأخيرة، على ضوء شموع مطعم «مكسيم»: يبدو منكسراً بكل ما كبحته هي في داخله. . . وفي طفولته التي حاول أن يحميها في داخل «عالية»، أو في هدهدتها لهذه الطفولة!

وفي هذه الليلة الأولى بعد عودة «عالية» من رحلتها الحزينة إلى باريس، وأسبانيا. . . كان لا بد لها أن تتذكر «علاء»، رغم قرارها الذي اتخذته هناك باسقاطه تماماً من وجدانها!

لكنها حين دخلت بيتها. . . قابلتها في جولة نظراتها الأولى: أشياؤه. . . عطره، أشرطة الكاسيت للأغاني الخليجية التي يحبها. . . رسائله إليها، أصداء صوته التي كانت تتناهى إليها عبر أسلاك الهاتف، وقد أحسَّت الآن: أن هذا الصوت يختلف كثيراً عن صوت «علاء» الذي سمعته بجانبها دون وسائط الهاتف!

شعرت بضيق شديد، ليس من أجله. . . بل من أجلها هي، بعد أن أصدرت قرارها الحازم والقاطع نحو «علاء». . . فهي لا تريد أن تمنحه مساحة أكثر مما أعطته قبل أن تلقاه. . . ولا بد لها أن تعود إلى حياتها وواقعها، وإلى همومها وطموحاتها.

وفجأة. . . تحرك في رأسها سؤال كالجنين في بطن امرأة تحمل لأول مرة:

ـ هل يستحق «علاء» الانتقام؟!

* أجابت: لا. . . هو يبقى عاشقاً لي حتى بعد كل الذي فعلته به من إهانات له، واستعلاء عليه!!

ما الدافع لكل ما فعَلَت «عالية»؟!

لعلها «إصطدمت» في عمق علاء: بافتقار هذا العمق للنضج النفسي والعاطفي، برغم أنه يكبرها في السن. . . خاصة وهو يطرح عليها ـ في القطار ـ الطلب الذي اندلعت منه شرارة الخلاف بينهما إلى درجة «فرارها» من عاطفته نحوها.

أساس الخلاف/ المشكلة/ الشرارة: أن «علاء» توجَّه إليها مع اللحظات الأوى لقيام القطار من محطة «دوفيل» برجاء: أن تمنحه انتباهها ليطرح عليها موضوعاً هاماً.

* قالت له مبتسمة: كلي آذان صاغية.

ـ قال: أطلب منك أن. . . نتزوج؟!

شعرت برعشة تمس جسدها كله، وسحبت يدها من يده وهي تلتفت إليه قائلة بدهشة وفجأة:

ـ ماذا قلت. . . نتزوج؟!

* نعم. . . نتزوج على سنة الله ورسوله، فيها حاجة دي؟!

ـ بل فيها حاجات، وحاجات. . . وهذا قرار خطير جداً لو اتفقنا على تنفيذه.

❊ ألا تحبينني... ألا أحبك؟!

ـ أكيد... لكنَّ الزواج غير الحب... التزاماته، وقواعده، ومسؤلياته، وعهوده: تختلف كثيراً عن «الجب»!

❊ وهـل الـحـب أقـلّ درجـات مـن الـزواج... خـاصـة إذا كـان الـزواج بالحب؟!

ـ لا أقصد التقليل من الحب، بالعكس... الحب عاطفة عظيمة تتفتح بها أزكى عطور النفس الإنسانية، ورغم ذلك ـ يا حبيبي ـ فالحب غير الزواج، والزواج غير الحب.

❊ يعني كلامك هذا: أنَّ طلبي مرفوض؟!

إخترقت نظراتها زجاج نافذة القطار المسرع، وكأنها بنظراتها تعدو من «علاء» بعيداً حتى يحاصرها، أو لا «يوقِّعها» في شيء لم تفكر به، لكنها تسعد به.

❊ قال مستطرداً يلمس كفها: ألم تتدفق مشاعرنا نحو بعضنا البعض بالحب، وركضنا لهذا اللقاء لنجتمع؟!

ـ إني أحبك والله ـ ركضت إليك لنجتمع، ولكني لم أفكر أبداً في حلم «التوحُّد» معاً.

❊ ولماذا ترفضين؟!

ـ لا أرفضك أنت... فأنت حبيبي، ولكني أرفض طلبك، فكرتك، جنونك.

* هل لي أن أعرف الأسباب؟!

ـ أحسب أنك تعرفها، وتتهرب منها أو تكابر... أو أن اندفاع الحب لم يجعلك تفكر، وتستفي ظروفك وظروفي.

لا أتوجس منك... بقدر ما أتوجس من نفسي هذه التي صارت أكثر حساسية وشفافية، إلى درجة أنها تتأثر بأبسط الأشياء، ولكن ـ علاء ـ إمسك يدي، ودعنا نسير معاً... في المنعطفات الخطرة من حياتنا: أحتاجك وتحتاجني!

المشكلة أعمق صدقني، أنت وأنا ـ في عمق سنين النضج والتفكير والتأمل ـ لا نقدر أن ننسلخ من حياتنا الماضية، ولا حتى من أصدائها التي ستلاحقنا... وهي مشوار طويل من الطموحات والارتطامات، والنجاحات والفشل.

* قال: لا بد من تقديم بعض التنازلات من أجل الحب.

ـ قالت: لكنَّ الحب أناني يا حبيبي... يستمر دائماً في مطالبنا بالتنازلات له على حساب «القاعدة» الاجتماعية والأسرية التي وقفت عليها السنوات التي مضت من عمرك وعمري.

* قال: لكنَّ توحدُّنا الفكري أولاً... سيضمن لنا وفاق التفكير، ووفاق الانسجام، ونحقق من خلال هذا الوفاق ما تسمِّينها أنت بـ «التوازنات»!

ـ قالت: يؤسفني أن أقول لك عن طلبك... هو لا أكثر من حلم جميل، ولكنه مستحيل.

* قال: ولماذا هو مستحيل... لدينا القدرة الهائلة على التشييد وبناء

قاعدة جديدة لحياة نحيا فيها معاً في كنف حبنا؟!

ـ قالت: استحالة ذلك تعود إلى صعوبة انسلاخي وانسلاخك من هذا الواقع الذي بناه كل واحد منا بعرقه، وبسهره، وبمعاناته... ويكفي ما خسرناه في مراحل ذلك البناء، لا أريد أن أخسر المزيد من الأحلام، ولا تتهدم قصور رسمتها في طموحاتي وسقطت بدوِّي هائل بين جنبات صدري.

إسمع «علاء»... في حياتي «علامات» مما نسميه التجارب في عمر الناس، وتلك العلامات خلّفت في نفسي بعض الطعنات، وبعض النزف الذي لم يلتئم حتى الآن!

قال لها: ألم يقدر حبي على تطبيب جراحك، وإيقاف نزيف وجدانك؟!

ـ قالت: أخاف من نزف جديد... قد لا أحتمله في هذه المرة، وبعد هذا المشوار... ألم تقرأ العبارة القائلة: (كل شيء في الحياة قابل للغفران... إلا العهود المجهضة)؟!

* * *

* إسترجعت «عالية» ذلك المشهد الطويل، بأبعاد حواره وأصدائه، وبكل دقائقه وحركاته، والملامح التي ارتسمت على وجه «علاء»، والتي تجمَّدت على وجهها في ذهولها من إصراره على طلبه.

إنها ترى الآن وجه «علاء» في ليلتها الأولى بعد عودتها إلى بيتها من رحلتها... وهو يُحدّق في أغوار عينيها العسليتين، ويمرر أصابعه على

شعرها الداكن كليل، ويكبح دمعة حائرة تجول في حدقيته، ولا يريد لها أن تنزلق.

حقاً... إنه يبدو كطفل بريء، وشقيٍّ بركضه، وجنون لعبه.

تتطلع إلى وجهه الذي تنضج منه طيبة الواضحين الصرحاء... الذين يفشون سر أرواحهم على ملامح وجوههم... ويهمس لها ـ حتى وهو غاضب متوتر من رفضها ـ فتأتي كلماته لها: جمراً... ولكنه هو الذي يحترق به!!

تحتضن الآن ـ في وحدتها ببيتها ـ وجهه، وطفولته، وجمره وتحتضن حتى اندفاعه وتهوره، لكنها تشعر الآن أنه ينسلخ منها، أو هي التي سلخته لتضعه في مواجهتها تمهيداً لإسقاطه تماماً من حياتها... إنه لم يعد الآن بين ضلوعها، ولا في قلبها.

قد تبدو الآن: امرأة أنانية، تعشق نفسها فقط... أو أنها لم تعشق رجلاً قط، إلاّ من خلال عشقها هي لنفسها.

تعرف «عالية» أن هذا الرجل العاشق لها «علاء»، كان يتطلع إليها ويفتش فوق صدرها عن الأمان بما يحلم به من حنان تمنحه لتعبه.

لعلها ظنت فيه ـ من خلال طلبه الزواج منها ـ أنه يطمح إلى الاستحواذ عليها وامتلاكها.

وهي امرأة صعبة المراس والقيادة رأيها في الرجال تميل به إلى الاتهام الدائم بالخيانة، وبالسطحية، وبالتسلط واعتبار المرأة صيداً سهلاً لهم!

بل إن رأيها في مجتمعها العربي كله: أنه يضطهد حقوق المرأة، ويقف بحقوقها عند حدود: المطبخ، وتدليك قدمي الرجل في الماء الدافىء وتُشكِّك كثيراً في قدرة الرجل على الإيمان بصداقة بينه وبين المرأة، لأنه يعتبر المرأة: الوعاء، والاستشارة.

ولكن هل قامت «صداقة» مطلقة بين رجل وامرأة، ولم تتطور إلى حب، ومحاولة للتوحد؟!

«عالية»: ترفض أن تكون تابعة لرجل، ولكنها ترحب بصداقة تقوم بينها وبينه!

على وجهها: وداعة وهدوء جميل وهذا السطح الذي يراه الناس يخفي وراءه في أعماقها ما لا يقدر الناس أن يروه من تلك البراكين ذات الحمم، والرفض لأشياء كثيرة، وأول تلك الأشياء، ومنتصفها، وآخرها: الرجل بصفات مكروهه لديها كالاستبداد، وفرض السيطرة، والغيرة دون أن تُغيِّر هذه النظرة من رجل لآخر، وكأنَّ الرجل قد تحوَّل في حياتها إلى عقدة!

ولكنَّ من أين نشأت عقدة «عالية»؟!

* تهمس لنفسها في سكون هذا الليل، والنيل يمتد بانعكاسات الأضواء على سطحه أمامها، فتقول:

ـ آهٍ ليست عقدة، بمقدار ما هو الإحساس الكظيم والعظيم بالظلم.

إنني امرأة مظلومة منذ دخلت معترك الحياة برفقة الرجل بدءاً من «أبي» الذي تعرّض لظلم قاسٍ من مجتمعه، فاضطُّهد، وقذفوا به بعد ذلك في الظل المعتم ومروراً بزوجٍ فرح بفتاة جميلة جداً، طفلة ظن أنه يشكِّلها كالصلصال

على هواه، وطباعه، ورغباته فكان فارق السن: أولى العثرات، حتى اكتشف فيها: تمردها، ورفضها للهيمنة وحتى استرخاءتها هذه بجانب أولادها، وهي تمارس عملها وهواياتها بحرية، وباستقلالية مريحة لها!

❊ ❊ ❊

ـ ٢ ـ

* وقت الرماد هو الذي صار يفصله عنها، ويفصلها عنه، ويُغيِّب صوتها حتى يعثر عليها وعلى صوتها هي الأنثى التي غرس في تربة نفسها وصدرها: وروده التي غيَّرت حتى حواسه!

وفي هذا الوقت الذي تحسه «عالية» نحو «علاء» والليل ينتصف بها: رفعت ساقيها على إفريز شقتها المطلة على زحام البشر، وأشعلت سيجارة ربما تستمتع بها في تدخينها النادر وأمسكت بالمغلف وهي تتذكره، وابتسمت تهمس لنفسها:

ـ يبدو أنني لن أخلص منك بسهولة وقرأتْ:

* (أكتب إليكِ من ارتفاع الأرض لا أحصيه دعوت الطائرة أن تحملني من فرنسا إلى «جدة»/ مستقري)!

صباح أمس توقعت أنك عُدت قلت لي في مطار باريس، بعد أن سألتك عن رحلة أسبانيا: أنك ستغيبين خمسة أيام لا أكثر!

إتصلت بهاتف منزلك فلم يُرْو غُلّتي.

أشعر باختناق. لا نوم يهادنني.

إشتقت إليك أكثر مما تظنين / وتفرحين إشتقت إلى: صوتك، وجهك، ابتسامتك، حنان يدك في دفء يدي.

الفراق قاتل، والخصام فيه تعذيب قبل القتل!

وأنا ما زلت أنا لا، بل أحببتك أكثر، أردتك أكثر، امتزجت أكثر بجنونك، واستعلائك، و«قنزحتك» المقصودة معي!!

أستطيع أن أفهمك بوضوح لو أَرَدْتِ، فأنت قد فهمتني بحب، وليس بكراهية.

الآن بعد كل شيء: صرت أرى بوضوح تام حتى اللا وجود!!

لك حُصتّك حتى من أحلامي، وقلقي، وأمنياتي، وموتي!

يصعب على المرء أن يكون «حملاً» يا سيدتي!!

هل مطلوب مني: أن أفعل مثل الرسام المبدع المجنون «فان جوخ» فأقطع لك أذني / لإثبات، أو أبتسر لك شفتي / للعطش وارتوائك، أو أسمل عيني لأن عينيَّ في انفتاحهما، وفي إغماضتهما لن تريا سوى وجهك؟!!

وما زالت أحيا ـ بعد توديعي لك في مطار باريس ـ الحياة في اللا وجود!!

صار ضوء الشمس: أخضر / أزرق!

مثل لوني فرشاتيْ أسناننا في فندق «دوفيل»: لك الأحمر، ولي الأزرق وليس هو التبادل، ولكنه التوحُّد، والامتزاج! (هل ما زلت تذكرين)؟!!

ياه ـ إن الرمال صارت أكثر حناناً، واحتواء الإنسان!

في مساء (أول البارحة) من البعيد جاءني صوت «فيروز» بأغنيتها القديمة التي تجدَّدت، وهي تُفيض بأشجانها وتشدو قائلة:

ـ «اركبوا عربيّات الوقت/ وهربوا بالنسيان»!

غفوت قليلاً يبدو أنني مرهقة جداً!!

بدأ الفجر: نوراً فكيف أجد الفجر؟!

حتى أجده يبقى الصباح مجرّد رغوة بيضاء!!

أكمل لك الحكاية عن: مساء الجمعة، فهل تحبين سماعها؟!:

لذت بصديق بوحْي، ووحدتي!

ـ قلت له: أيها البحر يا صديق وحدتي سأشكوها إليك.

فجأة إرتفعت موجة بيضاء، واندفعت من منتصف البحر، حتى اصطدمت بالحجارة والرمل، وتكسّرت هناك عند قدميّ.

كأنّ البحر ـ بردّ الفعل هذا ـ كان يشجب مجرد فكرة الشكوى منك!!!

إبتسمت، وقلت: حتى البحر معك (وليس حامد/ صديقي فقط)!!

على فكرة: حامد سافر يوم الجمعة من باريس إلى مدريد، ولم يعد حتى الآن!!!

حتى البحر أحبّك من كثرة ما حدثّته عنك في ليالي خوفي، ووعودك، وانتظاري، وأحلامي!

ـ وعدت أقول له: أيها البحر لقد كانت بالغة القسوة في تعبيرها عن احتجاجها على تصرّفي!!

* سألني البحر: وكيف كان تصرّفك؟!

ـ قلت: أعترف لك، وقد اعتذرت لها عنه ورفَضَتْ الاعتذار: أنني فقدت أعصابي، وبحماقة عاشق خاصمتها في القطار، ولكني لم أقصد أن أجرحها.

* قال البحر: هذا تصرّف يخلو من الحب، وأعرف أنك تولّهت بها.

ـ قلت: وكان رد فعلها أيضاً التصرف الذي أنكر الحب وجعله ينزف!

* قال البحر: ولماذا فَعَلْتَ ذلك التصرف؟!

ـ قلت: لعلها عوامل تراكمت في النفس ـ برغم فرحتي المحلقة بها ـ كأنّ القلب كان يختزن / مع شدة حبي لها / شدة غيرتي عليها!

* قال البحر: وكيف ذلك؟!

ـ قلت: رأيت (صديقي!) الذي استأمنْتُه يحوطها بذراعيه أكثر من مرة، ويقربّها إلى صدره، ويلف ذراعه على خصرها، ويتهامسا وأعرف رأيها حينما قالت: «أحب شرقيتي، لكني أحياناً أتمنى لو لم أولد في الشرق»!!

وأنا أحبها وأغار عليها ـ أيها البحر ـ وعانيت، وقد ولدت في الشرق!!

* قال البحر بغضب: ولم تحتج على ما حدث؟!

ـ قلت: يبدو أنك شرقي مثلي (!!) ولكن كيف أحتج؟!

ذلك (صديقي) الذي لا أخوّنه، وأعرف آراءه وقناعاته في مثل هذه اللقاءات، وأخالفه وهي (حبيبتي) التي أثق فيها أكثر من نفسي، وأرتفع وأسمو بها وقد لاحظتها أكثر من مرة تتخلص من حصاره بذراعه، وتلتفت خلفها نحوي، كأنها تحثُّني على التقدم لأسير بجانبها!

قال البحر: أنت لم تكن مثالياً بل كنت ضعيفاً!

ـ قلت: أنا سقطت في الاضطراب، كأنها التجربة الأولى في حياتي والسبب: ضياع أمنيتها وأمنيتي، واتفاقنا معاً: أن نلتقي (وحدنا)، وفوجئت (بصديقي) قبل يومين من السفر يخبرني برحيله معي. وأُسقط في يدي لأنني عاكست أنيتها، وأمنيتي برغم أن معها أيضاً صديقة رائعة بحق!!

* قال البحر: تعتقد أن لقاءكما وحدكما كان سيكون مثمراً، وأروع؟!

ـ قلت: أؤكد ذلك ولكن!!

* قال البحر: اسمع لا تُحمّل صديقك ما كان ينبغي أن لا تخطىء فيه!

ـ قلت: تعرف أنني بكل حبي لها كنت فَرِحاً بها، وطائراً لا أريد أن أكدّر عليها!

* قال البحر: وكتمت ذلك ليتراكم، وكان أولى بك أن تفاتحها بصراحة، وأنت ـ كما صوّرت لي وحكيت ـ قد لمست تقديرها وحبها لك!

ـ قلت: لذلك أخطأت في حقها، حينما ضمنّا القطار لكنني فوجئت أنها أبدلت الحب بالصَّهد، والحنان بالسَّمُوم، والعطاء بالشح، والرقة بالاستعلاء.

* قال البحر: وهل ما زلت تتمسك بحبها؟!

ـ قلت: أرجوك هذا سؤال سخيف، فلم أكن أجرّب معها، بل كنت أنبض، وأخفق بكل صدقي وقد جاءت من البعيد، من قبل أربعة عشر عاماً، لتَجسد ذلك الحلم الذي كنت أريد أن أحكيه لها، فضاعت الذكريات في التوترات إنها ستبقى وحدها هي: (القيمة)!

لقد وجدت فيها ما يكمّلني، ووجدت عندها ما يرغد روحي مجرد

الاطمئنان والراحة حين أمسك يدها، يمنحني الحنان الحقيقي والأمان، ووجه الحياة!

إنها توأم روحي الذي افتقدته، فلما وجدته خفت عليه أن يضيع مني، وبدونها سأعيش بنصف روح!

* قال البحر: إلى هذا الحد أيها المتيمُ، ولا تخاف حين تعرف هي قوة مشاعرك هذه وتدفقها أن تستعلي عليك؟

ـ قلت: ليس في الحب استعلاء، إذا كانت تحب حقاً!

أما إذا حدّدت مشاعرها ـ كما قَرَّرَتْ! ـ في الصداقة، فإنها تبقى (إنسانة) لها قلب يخفق، ولا أتمنى له أن يتعذّب بخفقه كعذابي وقد أحببت أول شيء فيها: إنسانيتها، واحترمت: مبادئها، وحلّقت مع أحلامها، وحاورت أفكارها حتى شعرت ـ يوماً ما ـ أننا (هي وأنا) قد توحدّنا، وصرنا (إنساناً) واحداً في جسدين.

* قال البحر: يرحمك الله، ويسبغ عليك رحمته.

ـ قلت: كان صديقي ـ رفيق الرحلة ـ يقول لي: لا تُظهر ضعفك أمامها، وكنت أرد عليه باقتناع: ليس في صدق الحب ضعفاً يكفي أنه الصدق كله!

أه ـ تعبت من الكتابة، ولكني ما زلت أنزف!

في أعماق البحر رميت الشباك، وتربّعت بين الأصداف أنتظر ضياء القمر/ وجهك، لتتفتح لآلىء عمري!

وفي عيني كانت الشمس القادمة بالنهار الجديد وجدتني مُلْقى على شاطيء البحر، وكان اللحن ينتظم كانت دقات قلبي في كل المدى!

* * *

* بعد عودتي إلى جدة، لم أطق البقاء فيها لا أنت، ولا حتى هاتفك، وكانت عودتك إلى بلدك تريحني!

فكّرت أن أعود إلى «باريس»/ وحدي، وأسكن في الفندق الذي كنتِ فيه، وحبذا لو وجدت الغرفة أيضاً، وأذهب إلى «دوفيل»، وأقذف بجسدي، ورأسي ودموعي فوق الرمال الناعمة على الشاطىء (أحيتنا) ليلة جميلة!

حزّمت حقيبتي من جديد و«طرت» إلى هناك.

نعم إلى فندقك، وغرفتك التي أفرغوها لي في اليوم التالي وإلى «دوفيل»، والرمال والشاطىء، وذلك الفندق هناك جلست أفكر فيك، وغرفتي تُشرف على أضواء «دوفيل».

فهل رأيْتِ ماذا سكبْتِ في صدري؟!!

فكرت طويلاً، مضنياً مضنياً منحت نفسي صبابة من التفاؤل، فقلت:

ـ لعلك لم تكُفِّي عن حبي، لكنك كففت عن (اللهفة) التي كان يرغدني بها صوتك، كلما تحادثنا هاتفياً، ويملأني بالحب.

لعل عقلك قد توسط بين قلبك ولهفتك فحيّد لهفتك، وعزل قلبك عنك!

لعل غضبك إعصار يجني حتى على مشاعرك الحقيقية!

نحن لا نقدر على فرض التغيير في زمان قصير.

لكننا نعاند فنعتقد أن القفز فوق العتاب والشجون، هو الذي يفرض التغيير، وربما التخلص من المشاعر، والشفاء منها!!

يا «عالية»: معك أنت لا أقدر أن أفرض التغيير، بل أفترض الاقتراب الأعمق من النفس، ليكون المزيد من المعرفة، والاكتشاف، والتخلص من المؤثرات الانفعالية، هو: خطوة التغيير.

لا أريدك أن تتغيري أنت.

لا ولا أن تغيّري حتى عطرك المفضل، ولا تسريحة شعرك، ولا تميُّزك في إشاعة ابتسامتك المميزة ذات الدلالات التي توحي لي بالمعنى المطلوب للموقف الذي تتعامل معه ابتسامتك.

لا تغيّري شيئاً من هذه الأساسيات فيك!

وأنت في حياتي، وللأبد: قد أتيت (غرسة) مثمرة، وشامخة وتبقين (نخلة) سامقة.

حتى غضبك. انفعالك حتى خصامك لنفسك.. لي أنا!!

لكنّ شيئاً واحداً لم أكن أتصوّره أن يكون فيك:

أن تكوني (ساديَّة) حبنا.

أن تكوني (ماسوشية) حيناً آخر؟!!

أن تُعذّبي ـ بقسوة ـ من يحبك بصدق، لأنه أخطأ بحبك!!

وأن تُعاقبي نفسك على الحب والفرح؟!!

لماذا أيتها الأثمن؟!!

لقد صار بيننا (موعد) محدد. إتفقنا عليه.

موعدنا مع الفرحة، حين انتظاري لرسالتك، وانتظارك لمفاجآتي!

موعدنا مع الأمل، حين تبدأ خطوة منك، وخطوة مني للفهم غير المتوتر، والمحب وهذا الموعد: من الصعب علينا أن نخلفه، أو أن نخونه لأنه هو نفسه الذي وحّد بين روحينا، وبين قلبينا، ومنحنا ألوان قوس قزح نلوّن بها خفقاتنا، وطفولتنا، وحتى أفكارنا!

لذلك أعتذر إلى (ساديّتك)، وإلى (ماسوشيّتك)، وإلى (استعلائك) إن جئت إليك برسائلي المطولة، وغير المطوّلة ثانية وقد تكوني غير راغبة فيها الآن، ولكنك ستتذكّرينها، لأنها لم تكن رسائل منافقة بل دفاقة بصدق المشاعر، وبأنبل الأحاسيس، وبعفوية (العِشرة)!

لكنّ لي ذلك (الموعد) المحدد الذي لن أخلفه، وقد تمّ بين روحك وروحي في زمن الاقتحام، وفي زفاف (حيتانك) لأمواجي، وأعماق بحاري.

لا بد أن أفي بموعدي لك، وفيك دائماً.

* * *

* عدت إلى «باريس» والتقيت أثناء تسكعي في «الشانزليزيه» بصديق قديم لم أره منذ سنوات فرح بي، وفرحت به، وأخذني بهمومي وبشجوني التي لاحظها.

حملني صديقي فوق (الماء)!

* قال لي والماء من حولنا وتحتنا: أنت شخص آخر ماذا بك؟!

ـ قلت: أردد أبيات شعر لشاعر حديث يقول:

ـ «أموت إشتياقا

أموت احتراقاً

ولكنني لا أقول:

مضى حبنا، وانتهى!

حبنا لا يموت»!!!

* صفّق (صديقي) وقال ضاحكاً: ألا تقول لي؟!

ـ قلت: وكيف أبوح لغيرها؟!

إحترم (صديقي) حميميتي، وأخلد للصمت كأنه يشاركني التأمل.

أصرّ في المساء أن نذهب لنسهر.. كيف أسهر بدونك؟!

ولكن وجدتُ أن صهيلي كان يغور في الركض الدائم نحوك.

أنت «السلطانة» المتعلقة في الشوق الغامض وقد صرتِ ـ يا سيدتي ـ أنتِ (اللقاء) الذي يودّعني!

تُنادين أفراحي بك وتدعينها تتبرّج!

تكسّر الزمان كله في غيابك.

أصبح العمر بلا طفولة بلا شباب حتى بلا شيخوخة!

صرتُ أرى بوضوح تام حتى (اللا وجود)!!!

وها هو صباح الأربعاء مثل صباح الطائرة: مجرد رغوة بيضاء!

ترى ما الذي سيعطيني الزمان، إن لم تكوني أنت: شفتاه، وعيناه، ووعيه؟!

أصبحتُ حارس النجمة، والقمر في أفوله، والبحر يزهو بزبدة المُلقى على ثبجه!

والنداء يكتمل في أشواقي ويتبعثر في المسافات!

والفم يصبح كلمة واحدة: عالية.

كأنما العالم الآن في رؤيتي، ورؤاي: خطوة واحدة، تتجه نحو شجرة ظلالها تفترش نفسي، وأرضي.

لقد كتبت لك قبل (اللقاء): إلياذة ما قبل اللقاء في تسع صفحات!

والآن أحتار بماذا أعنْوِن هذه الرسالة التي ستفوق الإلياذة؟!

تُراها: رسالة الغفران؟!

تُراها: طوق الحمامة. المذبوحة؟!

تُراها (قصة حب) Love story؟!

تُراها: ستستقل، وتكون كما أردنا لها: «عالية، وعلاء»؟!

عفوك يا حبيبتي!!

إنني هذا «الإنسان»: وريث التعب!

أمنح شعوري عفوية العواطف، ولن يلحظني في هذا الزحام سوى قلبي.

أقترب من الناس أسامح، أتعاطف، ثم: أنخذل!!

أمتلىء بشفاه الناس، وأصرّ أن الشفاه لا تَعُض، ولكنها ـ لا بد ـ أن تبتسم!

مَنْ يقدر اليوم على إهداء بسمة صادقة من القلب الآخر؟!

مَنْ يفعل ذلك وعلى شفتيه نهر من الحنان، والود؟!

في (وحدتي) هذه ـ بدونك ـ أمسح الغبار عن بريق العيون.

حضورك يتصوّب إلى خفقي، وحبي للفرح، أسطوري، قديم، موروث.

أدعوك أن تغتالي أحزاني فهل تفعلين؟!

خذيني إلى مدائن الشوق / المرتقب.

أعطيتك قلبي على وجهي، وفوق لساني.

مَنْ سيبادر منا إلى احتضان الآخر / قبل الآخر / من جديد ويكون في صدره نقاء الصباح الحقيقي الذي لا يأتي رغوة؟!!

أخذتني سِنَة من النوم، واسترجعت شطراً من بيت شعر يقول:

ـ سَنَةُ الوَصْل: سِنَةُ الهجر سَنَة!!!

وصحوت فإذا بي أسترجع ذلك المشهد الحبيب إليّ، ولعله كان مفاجئاً لك، ومُغبطاً لي.

تذكّرت ليلة «دوفيل» كنت أنام فيها ساعة أو إثنتين بالكثير، ثم أصحو فإذا صحوت، وضعت مرفقي على الوسادة، وخدي على كتفي وجلست أتأمل وجهك وأنت نائمة فيمنحني وجهك نوراً يجعلني أحسن تأمّله.

وقد (ضَبَطْتِني) أنت في مرة واحدة، أو فوجئتُ بك تفتحين عينيك فإذا أنت مستيقظة!

هذا المشهد صار زادي في سغبي، وارتوائي في عطشي!

أحار في الهروب الآن!

وأنتظرك في عام الصعود إلى (الزهرة / فينوس)!

وأنا أركض، وأنت تركضين لتختفي في كفي، وقلبي!

وأخاف أخاف أن تضيعي مني في ضجرك!!

لا أقدر أن أمثّل، ولا أكذب، ولا أكابر.

وليس في (تصريحي)، ولا في صراحتي: ضعف، ولا ذِلَّة فالحب يَجُبُّ الضعف والذل.

لقد ضحكت حين قرأت في مجلة عربية، هذه العبارة على لسان إمرأة:

❊ (روايات العشّاق تقول: إن الاندفاع في الحب قد يفقد الحبيب)!

فهل هذا صحيح؟!

وهل إندفاعي في حبك، ونحوك، قد يُفقدك مني، أم يؤكد لك (نضالي) على الاحتفاظ بك: رمزاً لحرية روحي وكرامتها؟!!

وتضيع العواصف في صحراء الغياب.

وتعجز المسافات عن الرجوع!!

ولكن مستحيل أن يتوه الطريق إليك!!

ها أنذا ـ أخيراً ـ: أتصاعد إلى رياحك بحثاً عنك.

فأشرب القهر: بلاغة كلام!

وعليك السلام!

❊ ❊ ❊

ـ ٣ ـ

* قال البحر لـ «علاء» وهو يعاقد صخور الشاطيء، ويغرق في تردد أمواجه البيضاء:

ـ حبيبتك هي الأخرى: مضطربة، مندهشة.

حبيبتك نقية في مشاعرها، وإن بادرتك بذلك الغضب القاطع، الذي رمدّ حلمكما لكنها ما زالت تعالج هذه الهزة النفسية العنيفة التي أحدثها اقتحامك لها، وهي تخاطب نفسها الآن في بيتها، بعد كل ما حدث:

ـ كيف أغريت حيتان بحارها ومحيطاتها لكي تفسح لك الطريق إليها؟!

أصغى «علاء» إلى همسات البحر له، في شروده كأنّ البحر قد تجاوز الهمس، وتضامن مع صراخه ونجواه وندائه عليها.

تكاد ملامحها تتجسد الآن أمامه ويحس بأنفاسها بجانبه.

وكأنه يرغب الآن في تقديمها للبحر، يعرّفه على حبيبته التي ما زالت في نبضه لها، وإحساسه بها: مليحة، متألقة شعاعاً من الإبهار إسمه «عالية».

أما هي فقد تعرّفت على هذا البحر في مدينة «علاء»، مروراً وعبوراً من كثرة ما حدثها عنه، وعن خلواته أمامه ليحدثه عنها.

كأنَّ للبحر الآن صوت التعاطف معها، قبل أن يكون معه وللموج صوت يقول له: فلسفة أعمق من فلسفات البشر البحر: يضم، ويحتوي، ولا يلفظ أبداً إلاّ ذلك الخفيف الذي يطفو سريعاً!

عالية عالية عالية!

هي عمق بحاره، ولآلىء دنياه، وجواهره حبه لها لم يأت عبثاً، إنه فوق التجربة، ويجتاز بهما المراحل.

كأنه يلتفت الآن إلى وجهها الذي يستقبل مع وجهه لحظتها: أبعاد البحر، ونسائمه وافتتانه بجلوة وجهها!

أمام وجهها إرتفع صوت عقله، واصطفت أضلعه على شكل: همسة، ونسمة، وقُبْلة.

لم تكن «عالية» في حياته: المفاجأة، وإن كان سيناريو التعارف قد اتخذ شكل المفاجأة لكنها كانت تمثل انتظاره الطويل لكل ما يكمل ذاته، ولكل تكامله.

قبل رحلته إلى باريس للقائها جعل هذا البحر: شاهداً ومأذون قران الحب بينه وبينها أنشد أمامه تراتيل التوأمة بين قلبه وقلبها، وأعلن ـ باسم حب الحب ـ رباطاً يتفوق على كل القوانين التي تحكم البشر، والتي قد (تجرُّ) الحب إلى رابطة تتدجَّن بعد ذلك، حتى تتحول إلى رباط مادي.

ـ قالت له يوماً في حوارات الهاتف: أنت اكتشفت في داخلي ـ كما تقول ـ أنانية المحب الذي يريد أن يمتلك ويستحوذ وأنت: ألاّ يطمع حبك في الاستحواذ على من يحبه؟!

لقد قيل ـ يومها ـ تنبيهها، ولكن ليس بالإقلاع عن الدخول فيها والامتزاج بها، بل بالإصرار على ذلك لتدفئة نيرانها ولا تحرقه!

* (وحشْتًني): تلك الكلمة التي كانت تنخع قلبه من بين ضلوعه، ثم تهدهده من خلال رسائلها إليه ألم تكن حقيقية، ومن أعماق قلبها؟!

كانت تسعده هذه الكلمة: (وحشْتَني) بمذاقها الخاص منها، وبنبرتها الأكثر حميمية حتى تثبت له أجنحة تحمله إلى أسرارها، وجمالها، وروحها.

* كان يقول لها وهو غارق في هذه الأرجوحة التي نصبتها له:

ـ آه ـ يا «عالية» هل تصدقي أنني أؤجل سعادتي، أو حتى «شعوري» بها إلى اليوم الذي ألقاك فيه، واللحظة التي تصافح نظراتي فيها وجهك؟!

هي التي أرغمت الزمان أن يصالحه، ويمنحه ابتسامته بدلاً من عبوسه.

ولكن لحظات السعادة لا تطول ولا تقصر، نحن الذين نطوّلها بالإحساس، وربما بالحزن أحياناً وتقصر في شعورنا في ركض الفرح منا.

الجميع من هؤلاء البشر: ما زال يقف على ابتكار أمانيه، وحول أفكاره التي يحرص على تجسيدها.

يتذكّر تلك الكلمات التي أهدتها له في رسالتها ببطاقة بدء الرحلة، والسفر في دمها هدهدته بها وارتاح داخلها، وفي معانيها وأغفا جزلاً:

* (الزمان: وجهك الرحيم.

عيناك فيهما يقيني

تعبتُ كم أريد أن أنام)!!

ها هو العالم الكبير جداً وقد كان يخاف فيه أن يلحقها أذى المُظْلمين.

* يتذكر ـ أيضاً ـ أنه قال لها:

ـ نحن نعيش هذه المرحلة العصيبة في واقع أهلنا العرب، أو أمتنا لمزيد من التمزق والشتات، وهي مرحلة المشكلة لهذا القاع العربي الذي طمرته الهوامش العربية الرائجة فوق السطح فكيف يهنأ «الإنسان» بالحب؟!

كثيراً ما تُعاني «عالية»، ويحس «علاء» بنفس المعاناة كل منهما في بيته الأبعد داخل قطره العربي، وتتكثف تلك المعاناة في أمسيات الوحدة القاسية، والصمت المطبق على الناس، وعلى الأمكنة، وعلى الزمان فإذا الإرشادات تخاطبهما: إيحاءً ورمزاً!

لقد استرجع في شروده هذا أمام البحر تلك الحكاية التي قصّتها عليه / مكتوبة في إحدى رسائلها عن ذلك المشهد لـ (كف صبي صغير كانت تتدلى من قضبان سيارة سجن عابرة) ولا يدري لماذا هو الآن ـ في شجونه عن عاليته ـ يحاول أن يربط بين قواعد أساسية ثلاث: حب عاشقين يُطعن بالتوتر النفسي، وينزف الخلافات تماماً كواقع المجتمع العربي كله وتلك القضبان المتجوّلة في الشارع العربي جيئة وذهاباً وتلك الكف الصغيرة لطفل حجبت القضبان وجهه!!

ما هذه الروابط التي تشكّلت الآن في تصوّر «علاء» أو ذهنه وهو يجلس أمام البحر ليتهامس مع حبيبته بالنجوى معها من طرفه هو فقط؟!

عبرت ابتسامة عجلى فوق شفتيه حين عادته أصداء بصوت «عالية» يوم قالت له:

ـ غريب حقاً أن ينمو حب بهذا الاشتعال عبر الرسائل والهاتف، وقبل اللقاء المباشر وجهاً لوجه حتى أنني أخاف أحياناً!

* وأجابها يومها: من حقك أن تخافي والخوف هو في هذا الواقع الذي نحياه، ويجعل لكل واحد يخاف من نفسه، ويخاف من الآخر ورغم ذلك فقد أشعت تحت مجهرك أدق تفاصيل «الإنسان» في داخلي، وقد اندلعت إليك أحمل لك: إمضاء القمر، والنجوم، والليالي.

* * *

* جرّ خطواته كأنها أذياله خلفه، وركب سيارته ميمماً نحو بيته.

شعر باشتياق شديد إليها، برغم أنها كانت بجانبه أمام البحر بخياله أو تخيله.

وفي استغراقه مع شريط اليوم الأخير قبل سفره إلى باريس والالتقاء بها أخرج رسالته التي كتبها إليها، ثم سلّمها لها يوم التقائهما في تلك الليلة الأولى لهما في عمق «الحي اللاتيني»، وقالت له: سأقرأها في الفندق أما الآن فمعي الأصل والدفء/ أنت.

* في تلك المناسبة كتب لها يقول:

(سألتقيك غداً!!

غداً هو يوم الشمس التي تشرق على ساحاتي، أركض فيها خيّالاً، فارساً، نحوك أنت السلطانة التي خبّأت في طلوعها إبتدائي في ميلاد الفرح.

سألتقيك غداً!!

غداً تتفتح أكمام الزهر، وتزهر الأرض بالعشب والسنابل، وعطر المطر.

رجفة قوية عاصفة، تهز أركان صدري وضلوعي وأسأل وجودك في داخلي قبل أن ألقاك:

ـ ترى هل هذا هو الخوف؟!

لقد سبقت السؤال حشود هذه الرجفة في قلبي، حين قلتِ لي بالهاتف:

ـ هل أنت خائف من لحظة اللقاء أم تراك هانئاً، مستقراً؟!

وكيف لا أكون خائفاً؟!

لو غاب الخوف من بين ضلوعي فذلك يعني أنني لا أحبك لا أرتقب (الغد) الذي سيوحّدنا!

ـ «يا خوف فؤادي من غدٍ»!!

الخوف ليس من اللقاء بل من أن أحيا عمق اللقاء، ثم يطوّح بي الفقد، أو الغربة، أو التعوُّد، و «يهبدونني» من حالق إلى الأراضين السبع!!

أشعر الآن برجفة تزلزل كياني من الأعماق!

كيف سيكون اللقاء غداً؟!

كيف ستكونين أنت؟!

مثلما تصورتك، وتخيّلتك، وحلمت بك في اليقظة؟!

أتلفّت حولي في كل هذا الفراغ الرهيب الذي أحدثه غياب صوتك كأن الكون من حولي قد حوّل إلى شارع واحد فُرض فيه حظر التجوّل!

كأنَّ عقارب الساعة تمشي على ميناء عمري متباطئة، ثقيلة، باردة.

وأهرع إلى البحر الذي طالما حدثتك عنه عن هروبي إليه كلما انتهى حوار بيننا، فأشكو إليه وحدتي من بعدك، وأشكو إليه اشتياقي الذي يتضاعف فيخلخل أركان نفسي.

وأسترجع أمام تدافع أمواج البحر البيضاء الغامضة: أصداء صوتك، وبعض كلماتك التي صارت وشماً في قلبي وعقلي.

أخاف من اللحظة الأولى من نظرتك الأولى!

أخاف من التحام كفّك بكفي

أخاف من الكلمة الأولى التي قد نقولها معاً!

هل أقول لك: أهلاً؟!

هل أقول لك مباشرة: أحبك؟!

هل أقول لك، وأنا مطرق الرأس في بهاء إشعاعك: أخيراً إلتقينا؟!

هل أقول لك، وعيناي تحدّقان في وجهك / الضوء: «وحشتني حتى العظم»؟!

كلماتي تعجز هذه اللحظة أن تكتبك!

أشجاني أشواقي تتدفق، لا تعجز.

أحلامي ازدهرت من نبرة صوتك في أعماقي.

الماضي الحاضر المستقبل:

إمتزجوا بدفق الشرايين!

❊ ❊ ❊

❊ إنني أصف مشاعر الحب!!

أعرف أن الكثير من سكان كوكبنا في ثمالة القرن العشرين، سيضحك سيقهقه سيسخر قائلاً:

ـ حب إيه؟! أنت شديد الرومانسية، تحيا غريباً في عالمك المدجّج بالواقعية، بالمادية، بالحروب، وبالسلاح، وبالمخدرات، وبالجريمة التي تحدث كل دقيقة!

ألم تسمع عن الأم التي قتلت إبنها، والزوجة التي تآمرت مع عشيقها على زوجها فقتلاه؟!

والابن الذي أدخل والده مستشفى الأمراض العقلية، والذي حجر على أبيه متهماً إياه بالجنون، ليستحوذ على المال كله؟!!

أنا هارب من واقعية عصري، ومن ماديات بشره!

هارب إليك أنت.

تذكّرت الآن: حقيقة نحن لم نتحاور مرة في هذه النقطة بالذات، ولم نتبادل الآراء عنها في رسائلنا!!

نحن لم نتحدث عن: الماديات، والواقعية، بتفاصيل من التجارب، والشرائح، والشواهد!

أليس جميلاً ورائعاً أن يقدر «الحب» على سرقتنا من صفات عصرنا، وبهذا الأخذ إليه؟

هناك من يتمنى أن يسرقه الحب ليخلّصه من الضغينة، والكراهية، ولا بأس أن يغرقه في الشجون والأحزان!

تحدثنا كثيراً عن الحزن والألم كأننا نُجمل التفاصيل في خلاصة مغرقة في الرمزية، والإيحاء، واللماحية.

فهل كنا نخاف من التحدث في الماديات والواقعية أم كنا نهرب من «بشريتنا» حتى لا تصيب مشاعرنا عدوى «الأخذ» الدائم: سمة هذا العصر؟!

لم أسألك ـ على سبيل المثال ـ: ألم تؤثر تجربتك مع الرجل بحصيلة الطلاق على مشاعرك نحو أي رجل إلى درجة كراهيته؟!

أعرف أنك عانيت الكثير من ظلم الأنانية.

وأعرف أن في أعماقك نطفة رومانسية نقية، صافية ما زالت!

إكتشفت ذلك في صوتك الذي كان يفيض حزناً في بدء البدء وكلما تحادثنا يتَّسع الاكتشاف، ثم صار صوتك يتضوع بنبرة فرح أحسب أن له ميلاداً قادماً حين نلتقي!

* * *

* ها هنا على أشرعتي المتعبة من كثرة الترحال: يحط صوتك القادم من الوعد، يتلألأ وجهك المشرق مع الفجر فأفرد قلوعي، وأبحر بصوتك، وبوجهك إلى الغد!

ها هنا عند شاطىء يرتقب طلوعك، مثل ارتقاب طلوع الحرية دائماً:

هنا رأيت حدسك في الريح المثقلة برعود الواقع، والماديات كأن حدسك مثل الشفة المبتلة بالطل!

أسكن معك حدسك، ونرسم معاً انعكاسات المرايا على قسمات هذا الزمن الذي تضاعف فيه ركض الناس، وهم يتقاسمون مع الحياة: الموت!

آهٍ ـ ما أقسى نسيج الانتظار للبشارة.

يوم ألقاكِ ـ غداً ـ تجتازين بي الخوف، وتدخليني إلى ضحكتك، وفي كل مساحات الحرية / الأمل!

صار الخوف يعذبنا بهاجس الفراق كأننا نبحر نحو اتجاه التعب كأننا نسقط في كل شيء قريب؟

لكننا ـ غداً ـ سنتقاسم يا حبيبتي الأفق، وحبة المطر، والنسمة، والخفقة، ونتخطى الخوف إلى الأمل حيث ما زال الحب ينتظرنا!!

أمد يدي إلى يدك لنطلع إلى الزمن الذي يليق بنا لنجرّب القفز فوق حاجز الخوف، وقهر النفس وننطلق نحو الغد!

سأعرفك أكثر: بثقة، وبدون إدّعاء.

سأشرب جنونك، وأتوضّأ بحنانك، وبصدق مشاعرك.

كأنني أتهادى الآن، حين يكاد «صبري» أن ينهزم إنني أنتظر اللحظة التي تجمعنا وتضمنا، وطول المسافة إلى بلوغها دهراً!

بقي من الزمن ساعات!!!

هل تُصدِّقين أنني أرتعش؟!!!

مغامرة لأن أبعث إليك هذه الرسالة في شكل مفاجأة قد تصلك قبلي، أو معي ونقرأها سوياً.

أنا مجنون «عالية»!

❊ ❊ ❊

❊ سقطت صورة الرسالة من بين أصابعه مواكبة لدمعة دافئة انزلقت من تحت جفنيه، وكأن كل شيء فيه قد أصيب بالبكم!

❊ ❊ ❊

ـ ٤ ـ

المشكلة أمام «عالية» على امتداد حياتها: أنها لا تستطيع منع نفسها من السير في الطريق حتى نهايته!

والآن هل هذه نهاية الطريق مع «علاء»؟!

أم تُراها: بداية طريق جديد غامض؟!

أو لعله هو الطريق تواصل الركض فيه بحثاً عن: الأمان، والحب.

إذا صدّها جدار عالٍ، لا تستطيع أن تحمي رأسها من الاصطدام به فلا رأسها يلين، ولا الحائط يتكسّر!

هذا هو أسلوبها في الحياة وقد اصطدمت بالعديد من الجُدُر، وتألمت كثيراً، وبقي رأسها صلباً يقاوم ويعاود الاصطدام، والحائط لم يتهدّم بعد!

لعل الشيء الوحيد الجميل الذي كان ينتشلها من هذا الاصطدام، وضَرْب رأسها العنيد في الجدار الصلب هو (الحلم) وتقول دائماً:

ـ جميل أن يمتلك الإنسان حلماً، أو يكون له حلم بشفتين تبتسمان، وبذارعين مفتوحتان للاحتواء بحنان، والفهم بعمق.

ما زالت ـ وهي في مطالع الأربعينات ـ تحلم بأرض: طينها خصب، وهواؤها لم تلوثه ذرّات القنابل وأشعة الكيماويات لتغرس في باطن

الأرض: بذرة صدق حتى تنبت البذرة ألف ثمرة عشق، وإبداع، وفرح وحتى تكون هي قد بلغت ما أرادته من إشباع، و.. فرح، فرح، فرح.

الآن هي لا ترغب أن تخسر «علاء» للأبد فهو رجل له ميزة العطف، والحنان والنقاء.

ليته يستمر في مراسلتها وتظل المشاعر الإنسانية الرحبة تؤمها، وتتسع، وتزداد شمولاً مع مرور الوقت!

ولكن هل يقبل هو: الرجل، العاشق، الذريح؟!

تحاول «عالية» أن تكتب، ولكن ليس لـ «علاء»، قررت أن لا تكتب له، ولا ترد على رسائله، ولو استمر يكتب لها!

لماذا؟!

لو كتبت إليه فلا بد أن تخالف رسائلها تماماً عن إيقاع، ودفق الرسائل الأولى التي كتبتها له قبل لقاء باريس.

إنها تبلور تركيبة متّسقة تماماً مع تكوينها الشخصي: العقل في مواجهة الوجدان دائماً يتبارزان وتتمنى لو أن عقلها ووجدانها إتّحدا ولو لمرة واحدة لعلها حينذاك ترتاح!

ـ هل أحبك أم لا أحبك؟!: نفس التردد والحيرة في ذاتها في عواطفها، وأحياناً في عقلها الذي تنيبه عن قلبها في عقد قران الحب!

فهل هذا عيب الزمان، أم عيبها هي؟!

أرادت ـ في هذا الفراغ النفسي، وتفريغ نفسها من علاء ـ أن تنشغل بالكتابة به تكتب، قصة، رواية، شعراً، ولكنها تخاف على ما تكتبه كإبداع

تحس به يجرحها وتقدُّه من بين أضلعها: أن يتعرض للتيارات الرجعية التي أخذت تسيطر على ساحة الفكر والنشر وما ستكتبه لن يكون مجرد إبداع أدبي، بل يُشكل ترمومتر إختبار لدرجة حرارة تقلُّبنا أو تقلبنا للأفكار المتطورة!

إنها لا تستطيع كبح مشاعر الشجن (الرومانسي) التي تلفحها كشمس ظهيرة صيف فالكلمات تخرج من سريرة خصوصيتها في قلب صومعتها هذه / شقتها الأنيقة لتصبح مشاعة، تُقلب الأصابع صفحاتها في استهتار ـ أو تتلصص الأعين على خصوصية مشاعرها وأفكارها وتصبح وليمة شهية على طاولة عشاء غيمتهم يملكون ـ كقراء ـ حتى تقطيع كل أجرائها بالسكين، ويغرسون شوكة الطعام «الستنلستيل» مرة في كبدها، ومرة في قلبها، ومرة ثالثة في داخل المخ ثم يقومون ـ بكرم بالغ ـ في دعوة بعضهم البعض لينهلوا من الوليمة ويزيدون منها ما يشاءون!

قرأت مرة ـ للكاتبة جورج صائد ـ تشكو من قسوة قرائها عليها عندما تكتب لهم عن العاطفة و«عالية» لا تريد أن تقف في هذا الصف، ولكنها تعشق هذا اللون من التعبير، أو البوح، أو التصوير بالكلمة وكثيراً ما تتساءل:

ـ ما هي المتعة في أن نقسو على أنفسنا ولماذا نفعل ذلك بأنفسنا، ما دمنا لسنا من تجّار الكلمة؟!

لا بد أن يكون الثمن الذي يدفعه الكتَّاب الشرفاء لتعرية وجه الحقيقة: فادحاً.

فهل ما زلنا في عصر ضحايا الزمن، وقرابين الكفار، إننا ـ حسب تعبير العصر ـ صرنا ممن يشترون «الوهم»، ويدفعون الثمن من نزف عروقهم؟!

هذه الهواجس بشراستها، تهاجم «عالية» أحياناً وأحياناً تحسب أنها تبالغ في السعي نحو الكمال والتكامل.

***

* شعرت في هذه اللحظة ـ من خلال شرودها وخواطرها ـ بشوق إلى رسائل «علاء» خاصة تلك التي كان يحدثها فيها عن الحياة والأحياء، وعن «ملامح» هذا العصر المادي التي أوغلت بجفافها في عواطف الناس.

قامت إلى الدُّرْج الذي تحتفظ فيه برسائله، وحطّت نظراتها ـ في البدء ـ على هذه الرسالة:

* (لا تلومي طعنة الخنجر، وتلك اليد التي لا تعرف سوى الطعن في الظهر!

هذه اليد ليست أكثر من أداة كالخنجر تماماً لا عقل لها ولا عاطفة فيها، إنما هم الذين يحركون اليد، ويغرزون الخنجر الذين يعيشون في ظلام نفوسهم، وأحقادهم، وغيرتهم مَنْ تفوُّق الآخرين!

إنه عصر التوجع والوجع ونحن فيه: النزيف المتواصل.

وهناك «الأهم» مما سأهمس به في أذنك: بوحاً، وتوجعّاً، دون أن أشعر بحرج، وأنت ستفعلين ذلك، ونحن ـ معاً ـ تتوالد كبرياؤنا وتشمخ فقد بتنا هذا (الإنسان) المتّحد في إثنين.

إن ما بيننا ـ أيتها الأغلى ـ تؤصّله (القيمة) وقد بدأت على درب (الصداقة) ذات القيمة، وانجلت، ولمعت، وسطعت (حبّاً) فتعمّقت (القيمة)، حتى أنني في لحظة خلوتي مع نفسي، أتساءل:

ـ كيف أضعْتُك كل تلك السنوات، بينما نحن توأما روح، وفكر، ونفس نداءات روحينا لـم تنقطع فأين كنتِ أنت، وأين كنت أنا؟!!

حتى في ظروفك اليوم، وما يعترضك من محن، أحس أنني أعايش ألمك، وأنني أتلقى معك تلك السهام التي يُسددها (المُظْلمون) إلى أحلامك، وأمانيك أحلامي وأمانيّ في نفس الوقت.

نحن إنسان واحد في النزف، وفي السهام المسددة إليه، وفي التوجّع، وفي الدمعة، وفي الحلم، وفي الأمنية، وفي الابتسامة وحتى في سوء الحظ!

أتصوّر أن لنا ـ معاً ـ عينين فقط، وشفتين، ويدين وقلباً واحداً، وعقلاً موحّداً، وخفقة متحدّة.

أنت لا تتخيّلي حجم سعادتي عندما أسمع صوتك عندما أطلبك، فيرد هاتفك ويجيبني صوتك بـ «آلو» مميّزة لك.

لا أقدر أن أناقش الآن (نظريتك) عن الخوف حتى أعرف: من هم الخائفون؟! ولكني أفلسف الخوف من عدة جوانب، وهناك جانب يتحّد فيه الرجال والنساء على الخوف سواء خوف بعضهم على البعض الآخر، إذا فسد الحب، أو شُوّهت عطاءاته أو خوف أحدهم على الآخر، إذا تعمّق الحب، وتجذّر، : قناعة، وأماناً، وراحة نفسية.

ولا أحسب أن الخوف يصمد محوراً إذا ما ساء الحب بين إثنين، بقدر ما يبقى «الخوف»، من المجهول يُهدد صدق الحب بين إثنين!

ولكنّ (الخوف) الذي يستقطب (الرجال) فأحسبه يتخذ فعل القهر، والعجز، والغمط، والإحباط، والظلم وهذا هو الخوق القاتل!

جنوني يتحدى جنونك، ليتّفقا معاً على أسوار الخوف، والقفز من فوقها.

كلانا يحيا رغد الأمان الذي يمنحه كل واحد منا للآخر.

كلنا يعاني مُرَّ الحياة من الطعنات، والغمط، والظلم لكننا ـ معاً ـ نجتاز المرارة، ونتفوق على الألم، ونضاعف الفرح!

هات يدك/ للأبد حبك: ميراثي الأغنى من ثرواتي الكبرى في الدنيا.

حبك: شمس تشرق في قلبي تنثر هذا الدفء، وتزرعني فرحة.

عيناك: دنياي الضوئية التي أرى بها في حلكة أحقاد (المُظْلمين).

عيناي: بحارك حين هدوء الموج فارحلي ـ حبيبتي ـ من عيني إلى عيني!!

ألاّ تعلمين ـ يا عالية ـ إنك صرت: أنانية حبي، ونرجسية خفقي، وخصوصية عمري، وابتكار فكرتي ورؤيتي.

أسئلتك أشعلت تفكيري، ولكني وجدتك فيها كمن يناضل: غاضبة، ثائرة، وقد يصل غضبك عندي!

حب الحرية، وحب المحبوب لا تعارُض بينهما، منْ قال هذا؟!

الحب: حرية تعبير واضح، ومعلن عن أصدق خفقة، وعن أشرف فكرة إبتداء من حب المحبوب، وتجذّراً وانتماء لحب الوطن.

والمحبوب: يتحوّل من مجرد شخص، إلى: قيمة، وإلى شعور أصدق وأنقى وأطهر وإلى تفكير، وفكرة ارتقائية وإلى حياة لا نطيق عنها بديلاً وإلى

وطن، نشعر بالغربة كلما فارقناه، أو فارقنا!

ولكنّ هذا العصر المادي الذي صبغ مشاعر الناس، وخلخلها، وبعثرها، فرض التناسي، والنسيان، وغياب الوفاء، والجحود فلم يعد الالتفات العاطفي إلى من نحبهم ـ في الغالـب ـ إلاّ بعد موتهم!

صحيح. أن الحب كائن حي، ولكن «الموت» صار هو الذي (يقيِّم) الحياة والأحياء يأتي «الموت» هو «الإنصاف» المتأخر في الحياة!

❊ ❊ ❊

❊ همست عالية مع آخر كلمة في هذه الرسالة من علاء:

ـ ياه ـ «علاء» هل تحبني بكل هذا العمق والتجذُّر؟! إذن لماذا تصرفت يوم القطار بذلك الغضب الأحمق، ودفعتني أن أفعل ـ كرد فعل ـ أقسى مما فعلت؟!

صارت كلمات «علاء» ترويها في جفاف أيامها التي اختارت فيها الوحدة مع نفسها خير من: «جليس السوء»، ومن المجتمع الذي حارب إصرارها على التواجد، والعمل، والإبداع وأراد أن تتقوقع في صومعتها هذه.

عادتها أصداء صوت «علاء»، في غروب شمس ذلك اليوم اليتيم، وهما يتجوّلان في غابة باريس، متشبّثة يدها بيده وهو يردد على مسامعها شعراً حفظه:

ـ «الراحلون على السفينة يجمعون ظلالهم

فيتوه كل الناس في نظراتي!

البحر يبكي كلما عَبَرت بنا

نسمات شوق حائر الزفرات

يا نورس الشطِّ البعيد أحِبَّتي

هجروا حياة لم تكن كحياتي»!

يومها احتدت معه قليلاً، فسألته عاتبة:

ـ لماذا تقول لي شعراً عن الرحيل، والبكاء ونحن نلتقي؟!

* قال: ألام نتحدث عن الخوف؟!

ـ قالت: ولماذا نخاف الآن وممَّ نخاف؟!

* قال: أخاف من سوء فهم عواطفنا لعواطفنا قاتلٌ ـ يا حبيبتي ـ أن يسوء الفهم في عواطفنا، أكثر من سوء فهم العقل!!

* * *

* أعادت «عالية» رسائل «علاء» إلى مغلفها، وكأنها أدخلت معها أصداء صوته حبستها داخل المغلف لئلا تنبعث مجدداً بعد قليل فهي تريد الآن أن تسترخي، وتتأمل وليتها تنام!

وفي إغماضة عينيها لاح لها وجه «علاء»، وكأنه يعاقبها على ما فعلته به في باريس، وعلى إهمالها المتعمد لرسائله إليها بعد السفر وكأن وجهه يخايلها ويرفض الانسحاب من تحت جفنيها، وأصداء صوته:

ـ لقد أردت أن أغادر قلبك بهواك فهل تريدين مغادرة قلبي بهواي؟!

الذي كان «بدءاً» ـ يا حبيبتي ـ من الصعب أن يكون «انتهاءً».

البدء بيننا: كان عقلاً، وإعجاباً بإبداع وهو بدء لن يغادرني أبداً)!

ها هي «عالية» تستسلم لطريق «اللا عودة» مع علاء!!

❊ ❊ ❊

ـ ٥ ـ

* أعلن «علاء» لحبيبته عن «موته» الأخير فكيف ـ إذن يعلن عن: الموت في وجه الحياة؟!

من يمنح الآخرين: الرؤية، والرؤى في زمن فساد الحلم، والأقنعة المزركشة التي تخفي حقيقة الوجوه؟!

لقد تعرّض «علاء» من حبيبته، بدعم وتحريض من «صديقه الحميم» حامد إلى: انقلاب ناجح دمّر القلب، وضخَّم العقل وردّد المقولة الشعرية كأنه يخاطب سلطانته: (وعليك أنت أحاذر)!

ولكن حتى الحذر لم يمنع هذا المذر الآن في عمق نفسه.

وبهذا الحذر أراد «علاء» أن يعلن على «عالية»: التصاعد الآخر فكتب لها يقول:

* (بعد الانقلاب الناجح، وبهذا التصاعد أُعلن عليك رغبتي في الصداقة فهل نتفق؟!

وهل تعتقدين في نجاح «صداقة» تأتي بعد الحب، أو على الأصح: بديلة للحب؟!

ما زلت أؤمن أن الصداقة قد تؤدي إلى حب، والعكس خطأ جسيم وغير منطقي!

ولكننا حللنا في هذا العصر الذي أسميه: عصر تدمير القوى العظمى بالقوى الأخرى!

كانت القوى العظمى للإنسان في عصور خلت، تتشكّل من: الحب، والضمير، والمنطق، والثقافة، أو الوعي، والعدل.

وتحولّت هذه القوى العظمى ـ بعد الانقلابات المتعددة ـ إلى: إدّعاء من قوى أخرى بديلة، هي من أدوات هذا العصر المادي، الحاقد، المصلحي، المباشر في أخذ ما يرغب!

أبوح لك إذن عن: أنثى شكّلت في عمري: أول حرب مستقبل (إن كان لعمري مستقبل)!!

هذه الأنثى: بَدَتْ سعيدة في غبار الحرب.

وقد أصبحتُ طفلها الآخر لأن الحرب تحولّت في صالحها!

لديها القدرة ـ ما زالت ـ على: اعتقال (اللحظة) الهاربة منها برغم أن خيالي صار من أملاكها، وتخيّلها صار من امتلاءاتي وفيضي!!

وما زالت تُعلن على المستقبل في الوقت الذي تطلب فيه هدنة وأقول لها مبتسماً، وكفي يغطي مساحة قلبي:

* هل الحب: حرب أم لا بد أن يكون هو: السلام؟!

* هل نفكر من أجل أن نحارب أم أننا نحارب، لأننا لم نعد نفكر؟!

نحن نطلب (الهدنة) الآن في الحب، وفي الحرب!

هذه الأنثى هي: إنت!

ويجن السؤال حين تُغطّي سحابة عابرة وجه القمر في منتصف ليل.

كأن هذه السحابة تصادر صوتك إليَّ.

كالسيف يتحوّل سؤالي عنك أبداً حتى تذرع الشمس هذا الكون، فأجدك، وأبحث عن نفسي عندك)!!

❊ ❊ ❊

❊ تعب «علاء» من التشرد بحثاً عنها، أو استعادتها.

لقد فقد فرحه الطفولي/ فرح القلب وتضخم ذلك الخوف الذي كان يتوجسه أمامها وفي حواراتهما معاً.

وتحقق خوفه حين ارتطم رأسه، وشُجَّ قلب فرحه!

يرى قلبه الآن مثل: قربة ماء جافة وسط صحراء قاحلة.

هكذا صار يستخدم اصطلاحات البنوك، والفلوس، والماديات: «يُجبِّرها»!

لكن «عالية» ـ بكل ما حدث تبقى قدره/ حبيبته التي اختصرت كل نساء العالم، وكل أشواق القلوب في قلبه، وكل دفء الرفقة في الحياة فيها وحدها!

صار من الصعب أن تقتلع جذور شجرتها من بين أضلعه، ومن تلافيف عقله.

وهو شديد القناعة أن الأيام ستؤكد لها: أن رجلاً قبله لم يحبها كما أحبها هو ولن يكون هناك رجل بعده سيحبها، مثلما هي عنده: طريق إحساسه بالوجود.

لم يتوقع أن يتحول «الحب المضاع» إلى ضرب من: التحدّي.

حاول «علاء» أن يختبر شيئاً في «عالية»، ظن أنه ما زال باقياً، لم يضع مع كل ما أضاعاه لكنه اكتشف: أنه ضاع هو الآخر!

في زمن الحب الحقيقي لم تضطره «عالية» إلى تحدّيها، فقد كانت تمنح بحنان.

وهي تعرف الآن: أن قيمته ليست محددة في تحدي!

* * *

* لم يتعب «علاء» بل واصل نداءاته عليها.

رسائله لم تنقطع عنها وهي مستغرقة في الصمت، لا تردّ عليه بإصراره:

* (هل تذكرين سكوتك المفاجىء الذي كنتِ تمارسينه معي ونحن نتحدث عبر الهاتف وأقول لك: السكوت عندك يتحول إلى سؤال، فتضحكين بعد الصمت وتوافقينني؟!

الآن سكوتك عبر الهاتف، والورق بل إنه صادرً عني: النسمة، والهواء، والشمس، والضوء، والعشب، والمطر.

ورغم كل هذا الصمت، وكل ما حدث بيننا فإني أشعر أن المسافة التي كانت بيني وبينك تطول وتقصر صارت: شبراً!!

صار زمنك هو مساحة نبضي ولست أدري: هل تأتين أنت، أم آتي أنا أم يندفع كل واحد منا نحو الآخر، ليطرد من أحضانه: الغربة، ويسكب بدلاً عنها: الحنان، والأمان، والوطن؟!

ما زال (صوتك) هو مداراتي كلما «تخيّلته». ينبلج فجر جديد.

صوتك: له ضحكة خاصة بي، وله نظرة، وله دمعة.

صوتك: له وجه بحجم الفرح، وله شَعْر بعمق الليل، وله فم بجاذبية البحر والموج، وأسرارهما، وله صفة «الوطن»، حين يسوق الريح أمامه!!

هذه رسائلي تصلك في شكل (الوحدة العربية): مختلفة التاريخ، منفصلة الظروف، موحَّدة الخط والورق!!

ما زال مذاقك يختصر لي مذاق كل نساء العالم.

وما زلتُ: أنا هذا الفارس الذي عفّرته رمال الجزيرة العربية الأشرف، وأنت نخلة تطرح ثمرها في وجداني: غذاء له.

وما زلت «أتمناك»: ممزوجة بخفقة قلبي فقد حلمت طويلاً بأنثى فارسة ناضجة ومثقفة مشاكسة وطفلة دافئة وعميقة!!

لكني لم أعتقد أن في هذه الأنثى ـ بكل صفاتها هذه ـ القاسية، العابثة بمشاعر رجل تحس تماماً أنه يعشقها!!

فهل كنت قد عرفتك حقاً؟!

لا أكذبك وقفت أمام عدة نساء ممن يُزورِّن عواطفهن، ويطْعَنَّ أنوثتهن فكأنني كنت أرقص على اللهب وكنت أريد أن أكون الحريق المقدس في أعماق من تحب الحب في شخصي!

أردتك تلك الأنثى الرقيقة، الرفيقة، المفعمة بالحنان آخذها، وتأخذني تتأبط ذراعي ونركض إلى دروب الدنيا نتسكع في الشوارع، كما فعلنا في الليلة الأولى لنا معاً في باريس/ الحي اللاتيني نكركر الضحكة من القلب ننسى الوقت، ونمتلك الزمان وأدواته نستلقي على العشب، كما تصرفنا على عشب الغابة نتشاقى كطفلين، كعاشقين متّحدين نحب الحياة فينا، ويقول عنّا

الصحاب: إننا نتشاقى، «نتشَيْطن»، كما وصف شاعر لبناني مهجري فقال:

ـ «وطن النجوم أنا هنا حدّق أتعرف من أنا؟

ألمحت في الماضي البعيد فتى غريراً، أرْعنا

يتسلق الأشجار لا ضجراً يُحس، ولا وَنَى

ولكم تشيْطن كي يقول الناس عنه: تشَيْطنا»

ما زالت فكرتك التي طرحتها كاقتراح قبل التقائنا: في ذاكرتي فهل تذكرين؟!

قلت لي مرة بالهاتف، في دفء الرسائل المتبادلة بيننا، وكأنك تستفّزني أو تختبرني:

ـ ما رأيك لو فعلنا مثل «ميْ وجبران» لا نتقابل، لا نلتقي وجهاً لوجه، بل نغذي وننمي هذا الحب بالرسائل الحميمة بيننا؟!

وجلست أفكر في طبيعة زمن «ميْ وجبران»، وأفكر في طبيعة زماننا زمن «عالية وعلاء»!!

ما رأيك في رواية عنوانها: «عالية وعلاء»؟!

ولماذا واو العطف لماذا لا نمزج الإسمين ليكونا واحداً، طالما أنك رفضت هذا المزج بيننا؟!

هل تعرفين ماذا أريد الآن، الآن في هذه اللحظة؟!

«نفسَكْ في إيه»؟! كما يقولون للمحكوم عليه بالإعدام؟!

أتمنى لو أجد الآن كفك في حضن كفّي أقبّل كفَّك بمعنى: الاحترام والتقدير وأقبِّل بطن كفك بمعنى: العشق والوله!

وتجنُّ الأسئلة بصدري حين تغطي سحابة عابرة ضمن الأسئلة عنك: وجه القمر/ وجهك كأنّ هذه السحابة قد صارت صوتك!

صرتُ أعود إلى الليل كل مساء أسأله عنك «أهوجس» حتى الاقتراب من حدود الجنون.

وصار الليل هو أصدائي التي تُردد نداءاتي عليك هو سفري المؤقت إليك.

وفي هذا المساء كنت أغني بصوت خافت موح، مردداً أغنية «محمد عبد الوهاب» القديمة جداً... والذكرى تتقهقر، تتقهقر بي، وتستلقي بين ذراعي:

ـ «رُدّت الروح إلى المُضنى معك

أحسن الأيام: يوم أرجعك»!

❊ ❊ ❊

❊ كأن «علاء» يرتطم في إحساسه بالغربة في حياته، وبرحيل «عالية» عنه.

الأيام تُحركه كأنها الأمواج: تتقاذفه!

بَعُد عنه الشط، وهو واقف في مكانه، ينتظر من يقول له: هذا هو الشط إسبح نحوه، واستقبل أشعة شمس جديدة!

الأيام تتداوله، وهو لم يعد يستطع أن يُحرك الأيام كأَنَّ تطلعاته قد تعطلت، وأفكاره تقلصت بتأثير خطواته المحدودة!

تضاءلت لمحاته الذهنية حتى صارت الرؤية لديه ذات سياج:

رؤية محدودة لا تتخطى ذلك السياج، لا تتمرد عليه!!

عندما صارت تسنح له فرصة للضحك، كان يتنهد بعدها، ويقول: لقد ضحكتُ على الحياة في لحظة غفلة منها عني!

كان يحاول زخرفة «واجهة» حياته لكنه يتساءل: ترى بماذا أزخرفها؟!

ـ بالبسمة الصفراء بالنفاق بالخداع بمزيد من اللامبالاة، والسلبية؟!

والعجز ليس ادّعاء، لكي يستهلكه الإنسان مرحلياً إنه أقصى خَوَر، وضعف يقضي على الإرادة، والقدرة!

إن «الإنسان» قد يدّعي أشياء كثيرة، منها: ادّعاء الفشل لكنّ إعلان العجز، هو: نهاية للطموح، ولتوليد معاني الحياة!

إنه يدلج في دروب العجز: مبتعداً كثيراً ينسى متعة التفكير، ليعود إلى صرخات داخله!

يقظة الإحساس عنده: لا تُنجيه من خطوات العزلة، ولا من معاناة الغربة، وهو بعد في مكانه لا يتحرك وفي ذهنه عبارة «شائطة» بين تلافيف عقله هي: «لا تحذّرني من شيء وإنما قل لي: ما الذي أستطيع أن أفعله»؟!!

الضجيج الذي يلفُّه: طفا على حفافي نفسه، ومن أعماقه، وكأنه يفلسف غربته!

يحاور الرحيل، وجدواه، وضرورته يلح عليه صارخاً: لكي نلحق

بالآخرين، لا بد أن نتغرب لكي نتساوى بالآخرين، لا بد أن نعاني من التجربة، وطول الخطوة!

ـ «الفكرة لم تكن سوى حقيقة والحقيقة هي: الغربة»!

لقد توصَّل إلى اقتناع أكيد: بأن الغربة ضوء يكشف عن الأشياء!

الغربة: مدلولها هذا الحس وأسباب تُكثِّفُ الحس بالانتماء!

* * *

الفصل الرابع

السلطانة المعشوقة؟!

* وصفْتُك لليل: فَرْحاً، وجرحا
وقدًّا ورمحاً ونفحاً، ولفحا
وعينين للسحر: ضخّاختين
وكَفَّين بالدفء نضّاحتين!

*** د/ مصطفى رجب ***

* * *

ـ ١ ـ

صار نداؤه على اسمها: «السلطانة» هو النداء / السؤال الذي يرتقب إجابته التي تأتي ولا تأتي.

سؤال يتلفع بحرارة أنفاسها في صمتها وبوحها لكنها تُجرِّب القفز فوق حاجز الخوف، وتتردد!

أتعبه هذا الجلوس الطويل أمام قلبه يُحدّق في طيف «عالية»، ويسترجع أصداء تلك اللحظات الأجمل عبر هاتفها، وذلك اللقاء اليتيم في باريس.

كان يتأرجح في اندهاش أصدقائه ممن حوله يتابعون معاناته وعزلته التي ارتضاها لنفسه، في جفوة «عالية» له وهو يرسم عينيها، وضحكة الضوء من وجهها/ الزمان.

كان يقرأ في إصغاء وحدته: أشواقه فمن يقدر أن يلمّ أشواقه الآن؟!

هل يخضع لواقع «اللا عودة» إلى عالية؟!

هل يثور على ضعفه، ليتخلص من أصغر ذراتها في نفسه وكيف؟!

كأنّ «عالية» تفكر الآن في التعامل مع «علاء» بأسلوب المراحل:

المرحلة الأولى: كانت الذروة الاشتعال الذي أضاء قلبه ثم دمرّه في

حريق اندلع، ولم يقدر على إطفائه حتى الآن برغم أن الحريق لم يبْقِ على شيء في داخل «علاء».

المرحلة الثانية: كانت الصدمة صدمته بتعسف قراراتها معه، وعنف تلك القرارات التي تعاملت بها معه لتقصيه عنها، أو ربما لتنتقم من صدمة أحلامها وخيالاتها فيه، وهي أحلام رومانسية ارتبطت بأحلى كلام كتبه لها، وكأنها لم تكن تريد الجانب المادي فيه حتى ظنَّ أنها: أنثى مجوّفة الصدر، نزعت قلبها من ومن بعيد، وبقيت بلا قلب، وبلا خفق!

أما المرحلة الثالثة: فهي الضياع، الآن لا يعرف ما يُخبّيء له القدر معها في الغد لا يريد المزيد من الضعف العاطفي أمامها، هذا الذي يؤدي به إلى السقوط في الذل والمهانة وهي أنثى ترفع شعارات مضادة للرجل إلى درجة العداء له وهي أنثى تصرُّ على استقلاليتها التي تصل إلى استمزاج العزلة والوحدة لتتخذ قراراتها وحدها، وتؤكد أن هذه الاستقلالية تُعمِّق من الخوف من المرأة عند الرجل!

وفي هذا الضياع أيضاً: يريد «علاء» الوصول إلى استقلاليته هو عنها، ونَزْعها من بين شغاف قلبه للأبد فيرتاح ويهدأ بالاً!

❊ ❊ ❊

❊ قرر «علاء» أن يكسر هذا الطوق الذي فرضه عليه حبه لـ «عالية»، وأن يحطم القفص الذي حبسته فيه ويحلق بعيداً عن تسلطها على قلبه كطائر النورس الأبيض الحزين منطلقاً إلى كل الدنيا لينسى تجذّرها بين ضلوعه، وشهقة لياليه وشهوة ظلاله يفرُّ من مدينته الساحلية هذه المحمّلة بالطل كنفسه.

فإلى أين يفر، ويُحلّق؟!

لم يكذب عليها عندما صارحها يوماً بأنه: يتوجَّس من سقوطها في عقدة، من خلال ما سمعه منها وهي تلعن الحياة، وتصبُّ جام غضبها على الحب!

يتذكّر الآن تلك العبارة في إحدى رسائل رضاها وحبها إليه فكتبت له:

ـ (أتمنى صادقة أن لا تنقطع المراسلات بيننا)!!

ها هي اليوم مقطوعة كانقطاع الماء، والكهرباء، والنسمة الرقيقة و«عالية» لم تعد تُحس بما ارتكبته ضد «علاء»، لأنها لا تهتم بانقطاع كل هذه الأسباب التي تحييه فلديها: مياه ارتوازية، وكهرباء تضيئها حسب حاجتها، ونسمة «تتخيلها» وهي وحيدة بينها وبين نفسها فقط!

فكَّرت «عالية» ذات يوم أن تهاجر بعيداً عن وطنها / مسقط رأسها، وبعيداً عن وطنها العربي الكبير الذي طالما حلمت بوحدته الكبرى، ولكنه كرّس إحباطات في نفسها وعقلها من تراكم الخلافات فيه بين الأنظمة السياسية وتعدد شعاراتها، واكتشاف عجز تلك الشعارات عن الارتقاء بالإنسان، وتثبيت حقوقه!

فكأنها قررت أن يمضي بها زورق الأيام وهي: تجامل قلب عقلها، وتُهادن عقل قلبها بعيداً هناك حيث الغربة التي اختارتها أو الهجرة، حيث تفكر، وتتأمل وتعمل فلعلها تستطيع أن تُنهي الأيام (الملوثّة) كما سمّتها، وترحل إلى أيام جديدة تبدو ـ في بدنها فقط ـ أشد نقاء من الحلم!

ولكن كيف يمكنها أن تهاجر وتتغرب؟!

وكيف يمكنها أن تعمل خارج وطنها وتتغرب وعمرها أخذ ينزلق بها إلى التعب: بوابة الهـدوء القادمة؟!

يومها قال لها علاء: أنت لن تطيقي مع الهجرة والغربة صبراً سيتكثّف حنينك إلى لغتك وأهلك، وحتى إلى وقوف واقع مجتمعنا الذي نعيشه باستشراء الماديات فيه، وجنون الذات فتجدين نفسك تركضين: آبيه!

ـ فأجابته: ممكن أن يحدث هذا الذي تقوله أو تتوقعه... ولكنَّ التجربة تغريني بالاندفاع إليها، ولديّ القدرة التي تمكّنني من مواجهة التجربة فأنا بعد لم أدخل إلى سن الشيخوخة أو العجز، ما زلت شابة قادرة!

* * *

* وتبقى «عالية» بعد لهفة الحب، وبرودته في نفسها، وانكسار هذا الحب في نفس «علاء»: هي هذه الأنثى الأضعف، وهو الرجل الأقوى لكنَّ الحب ليس اعتسافاً ولا قسراً، فليس هناك قسر في الرضا والحب و«عالية» في رأي «علاء»: مثل الموجة، تندفع بأقصى طاقتها لتحمله إلى أعماق محيطاتها، وأحياناً تتحوّل هذه الموجة إلى دوامة مائية عنيفة تلقيه بين فكيّ حيتان بحرها أو تدفعه نحو حجارة الشاطىء ليرتطم عليها ويتحطم.

الآن بادرت «عالية» إلى إدخال «علاء» في النفق البارد فصارت الأيام تعبر به ولا تريد!

هي الأنثى/ شهرزاد التي ذبحت/ شهريار في الليلة الواحدة اليتيمة بعد الألف ووقفت تصرخ بأعلى صوتها: مطالبة بإنقاذ شهرزاد من سيف شهريار!!

هل هو الموت إذن؟!

لم يقل إنه يخاف من الموت بل أحياناً يفكر فيه بصفاء، لأنه سيمنحه الحب الذي افتقده عند الأحياء في أكثر مراحل حياته!

ولم يعترف أن المرأة هزمته إلى درجة القتل بل هو يتحسس ضلوعه ويحاول أن يُحصي عدد طعنات المرأة لقلبه، ولطيبته المتناهية لكنَّ هذه الطعنات لم تقتله وإنما جعلته يفكر في كبريائه، وفي طبيعة المرأة/ الكريستال يبدو محيط عقلها أحياناً كمحيط خصرها إن كانت نحيلة، او كانت متضخمة!

«علاء».. لم يرفض الحياة، لكنه واصل زراعة بذرتها في محاولات متلاحقة في عمق طينة الحب الذي يتشبَّث به والألم لا يتولد من الحب ولا من الحياة، بل من الذين يدّعون الحب أو يوظفونه، ويقفزون على الحياة!

لا يمكن لـ «علاء» أن يُسقط من حياته تلك التجربة العصبية التي عانى فيها من عزلة فرضت عليه!

أمسك «علاء» بالصحيفة التي أخذ يقلب صفحاتها شارداً عن ما كتب فيها حتى استوقفه خبر عن: جمعية فرنسية أنشئت لحماية الرجل من عنف المرأة والأرقام تقول: إن نصف مليون زوجة يعتدين على أزواجهن جسدياً مرة على الأقل كل أسبوع!!

لقد استطاعت شهرزاد أن تستولي على سيف شهريار وتقطعه إرباً وتضعه في أكياس بلاستيك!

ورمى بالصحيفة وعلى شفتيه ابتسامة حزينة باهتة.

كان سؤال يُدوّي في رأسه، ويتوه ساقطاً في أعماقه:

ـ تُرى مَنْ كان الغبي؟!

هو الذي عشقها حتى الدموع والموت فيها وبها؟!

أم هي التي عبثت بمشاعره بعد أن تأكدت من عشقه لها؟!

هو العاشق لها؟!

أم هي العاشقة لنفسها؟!

* * *

ـ ٢ ـ

* أتعبه هذا الجلوس الطويل وحده يُحدِّق في طيف «عالية»، ويسترجع أصداء تلك اللحظات الأجمل في لقاء التعارف اليتيم.

كان في اندهاش الناس من حالته وعزلته التي سوّر بها نفسه، وفي جفوة «عالية» له: يرسم أبعاد النظرة في عمق عينيها، وضحكة الضوء من وجهها.

كان يقرأ في إصغاء وحدته: أشواقه. فمن يقدر الآن أن يلملم أشواقه؟!

وكان حبيساً ـ ما زال ـ في أصداء صوتها وضحكتها في أصداء كلماتها له:

ـ «أنت يا علاء تُحمِّل المواقف معانٍ مغايرة لها أو أكبر منها وتقول: إنني أظلمك»!!

* هذه العبارة كانت محور محادثة هاتفية قصيرة، فوجىء بها «علاء»!!

ـ معقول (!!) أنت بجلالة قدرك تطلبينني بالهاتف ما هذا التنازل العظيم؟!

* قالت له: لا تسخر أردت أن أطمئن على صحتك، وأعرض عليك اتفاقاً فما رأيك لو بقينا أصدقاء؟!

قهقه «علاء» عبر سلك الهاتف وقال لها:

ـ أولاً: أنا سعيد بإطلالتك هذه وبتعطُّفك، وتلطُّفك، وتكرّمك بالاتصال دون طلب مني ياه، ما هذا الرضا العظيم؟!

* قالت: تجاوز السخرية، وهات ثانياً!

ـ قال: أنتِ بادرت سيدتي إلى جعل الصداقة: جدراناً أربعة، أو قضباناً سميكة لأنك أردت اعتقال «الحب» وسجنه بين هذه القضبان التي وضعت لها تعريف الصداقة حدَّدت إقامة الحب، ووقفت سجّانة!

حسناً سميتك السلطانة، فالسمع والطاعة، ولكن ما هي المدة التي تقدرين فيها أن تصمدي سجّانة للحب، أم تراك عمدْت إلى اعتقال أية لمحة قد تُعبِّر عن بادرة حب منك لي؟! ولكنك لن تعتقلي الحب لو جاءك من رجل يُرضي مزاجك (تفرق كثير) يا عالية!

* قالت: دعنا نختصر حوار السخرية، وأطلب منك أن تحجز مقعداً في الطائرة، وتأتي فلديّ كلام كثير أقوله لك!

ـ قال: حلم أن أراك ولكن هل تضمني لي أن لا أعود مطعوناً كما كانت عودتي من باريس؟!

* أرسلت ضحكة خافتة أو متحفظة، وقالت له: أضمن لك بس تعال يا أخي!

وضع سماعة الهاتف وهو يتذكر ذلك الانطباع عندها الذي سخرت به من الحب ونسفته فهو ـ كإنسان ـ يبدو في نظر مَنْ يعرفه لأول مرة: غير مريح ومرة قال له صديقه «حامد» أمام «عالية» وهو يسعد بارتشاف فنجان قهوة أمام وجهها: صاحبنا هذا ـ علاء ـ غير مقنع!

ربما كان وصف «حامد» لاقى هوى في تلك اللحظة عند «عالية» لكنها لم تُعلِّق، بل رسمت ابتسامتها الموناليزية النصفية الغامضة.

ومضت ساعة على حوارها الهاتفي معه.. حتى فوجىء بهاتف من صديقه «حامد»، وصوته الذي تغرق نبرته في الغموض دائماً وهو يقول له:

ـ تِسْلِّم عليك السلطانة!

* هل حادثتك؟!

ـ شيء لا يعنيك.

* حقاً لكنها كانت تحادثني قبل ساعة.

ـ هل ما زلتما على اتصال؟!

* أنت أدرى وأعتقد أنه شيء لا يعنيك ولا يخصك.

ـ ها «ردّ القازوز» يعني؟! معليش.

* لا عليك لقد تساوت أشياء كثيرة بعد الارتطام.

ـ ولكنها تعزّك جداً، ولا ترضى فيك كلمة خارجة.

* لا بأس يا صديقي لو لم تعزّني لأصرّت على القطيعة النهائية.

ـ وبماذا تشعر بعد محادثتها الهاتفية معك؟

* أشعر أنها أدخلتني نفقاً بارداً فصارت تعبر بي ولا ترد، لأن «عالية» وضعت الحد الذي قررته أو رغبت فيه، وأصدرت «فرمانها» السلطاني

ـ هل اتهمتك بأنك رجل «ماسوشي» ترتضي تعذيبها لك؟!

* كنت ذات مرة ـ واحدة فقط ـ أعذّب نفسي بحب «عالية» لكني في

هذا النفق البارد الذي وضعتني فيه، ووضعت عليه لافتة: الصداقة أشعر بما أُسمِّيه: لذّة الحزن، أو برودة الخوف.

* * *

* وقرر «علاء» أن يكسر هذا الطوق الذي فرضه حبه لـ «عالية» وأن يحطم القضبان الذي طلبت أن تحبسه داخلها وأن يحلق منطلقاً إلى كل الدنيا، لينسى في تجذّرها بين ضلوعه: شهقة لياليه، وشهرة ظلاله.

وفي كل يوم أخذت أسئلته عنها تتدثر بأصداء ضحكاتها.

كانت كل ضحكة تُطلقها في سمعه هي: إضافة إلى دمه.

وما زال اشتياقه لها يتسع أكثر، حتى يختلط بفيضانها المحبوس في صدرها.

صار لا يتّقيها أبداً لكنه يُفاجأ بالشوق لها.

وما زال يحلم بوجهها في سمرة «نهرها» بشعرها المجنون/ شلال الليل.

وتبقى هي هذه الأنثى: المرهَقة بخوف لياليها من الوحدة التي حاصرت نفسها بها، ومن هاجس الشَّعْر الأبيض، وبدء التجاعيد على وجهها هي التي كان دخولها إلى قلب «علاء»: حدثاً، وانتشارها في عمق نفسه: زماناً وقال لها في إحدى همساته في أذنها:

ـ ما أكثر الذين يهتمون بالحدث يا سيدتي لكنهم يخسرون الزمان!

وهُيِّء لـ «علاء» أن حبيبته اهتمت بالحدث في حياتها بأنانية مفرطة، وباستعلاء ملحوظ فخسرت الزمان أخيراً!

وفي هذه الخواطر والمشاعر إشتاق أن يكتب إليها بعد محادثتها الهاتفية المفاجئة فكتب لها:

* (يدفعني للكتابة إليك: هاتفك، أو إخباري بأنك ما زلت تذكرينني!!

لا بأس ـ يا صديقتي الجديدة! ـ كأنني لم أعد أعرف هذا الصادق/ قلبي، بشدة ضرباته مع مفاجأة صوتك إلاّ لك، ومن أجلك، وعنك!

طوبى لأيام اللهفة الجميلة تلك التي كنت ألكز خاصرة الوقت ليركض فتصل رسالتك إليَّ وكنتِ تطلبين مني أن أبعث الرسالة الجديدة بالبريد السريع جداً لأنك لا تحتملين الانتظار لأحلى كلام يدخل شغاف قلبك!

هل ما زلت تذكرين هذا أيضاً، مثل ذكري لك؟!

طوبى للأيام الحلوة تلك التي صارت ذكريات يا سيدتي، وعمرها: أيام قصيرة فقط كقِصَر الفرح!

لا عليك هذه أنّات ناي حزين مجروح، متروك لأصداء الريح.

من زمان لم أكتب لك لكني أحسست أن وراء اتصالك الهاتفي: خبيئاً، أو خبراً خاصة وأنت تطلبين مني القدوم إليك.

وما زالت تُطلعك «قمراً»، ولياليّ تُطلعك شجرة «نيم» فوّاحة، ترتقب الصباح!

تُراكِ هل أنت سارقة عمري، أو فرحي أم أنني المتجنّي على بهائك بعمق تجربتي، وبسريّة تجربتك؟!

يسرني إذن ـ في هذا البدء الأخر معك ـ أن أتجنب الاقتحام لك، وأن أرفض التسلل، وأن أصر على تثبيت المعرفة لك وبك!

الليلة يراودني حنين ظامىء إلى التدفؤ بك لعلك تجدين «فسحة» بين ضلوعك لتستطلعي انتماء خفقك، وتستوحي صدق انتماء خفقي!

لا أتوقع منك رد الفعل السريع أم المباشر على رسالتي هذه لذلك لا أنتظر جوابك، لأني لست مُصرّاً على إرغامك الثاني لي: مغادرة عقلي!

الذي كان بدءاً من الصعب أن يكون انتهاءً، يا صديقتي الجديدة.

فهل يطيق مَنْ كان يعشق حبيبه أن يحوّله إلى «صديق»؟!

البدء بيننا كان: عقلاً، وإعجاباً بإبداع، وهو إعجاب لا يغادرني أبداً.

أيتها العينان السخيّتان كالسماء حين تمطر، البعيدتان كالسماء حين تعلو القريبتان كخفق القلب الحبيبتان كالشروق حين تحمل البشرى.

سوف لن تكون لحظة اللقيا الجديدة: حلماً ذلك أن اللحظة الأولى في باريس كانت هي الحلم وستكون اللحظة القادمة: تعارفاً آخر).

❊ ❊ ❊

❊ حاصرته أسئلة الحيرة: هل يشد الرجال إليها وكيف ستقابله ومَنْ هو الآن بالنسبة لها: الحبيب، أم الصديق، أم «الرجل لعبة المرأة»؟!

لقد قرر أن يسافر إليها والكثير من المشاعر تخترقه، والأكثر من الهواجس عن «عالية» في داخله: كيف أصبحت الآن ومن ستكون بعد هذا اللقاء الثاني؟!

هل سيرتطم قلبه الارتطام الآخر. ليتحطم؟!

هل سيُبصر قلبه مدارج الهوان له عند «عالية»، فيجتازها، ويشفى منها؟!

هل تقوم صداقة حقيقية بعد عشق جنوني؟!

طوى كل هذه الأسئلة، والمشاعر، والهواجس بين ضلوعه لتنفجر بعد ذلك حين لحظة لقياه لـ «عالية»، وحصيلة ذلك اللقاء!

* * *

ـ ٣ ـ

* إستلقى «علاء» على كرسي الطائرة المتجهة به الآن إلى نهر الحب بلد «عالية».

أغمض عينيه عاودته صور جميلة عجز عن تمزيقها في ذاكرته أو حتى إحراقها وهي «ألبوم» كامل ليوم واحد ما زالت أصداؤه، حين اقترح فيه أن يذهبا هو و«عالية» وصديقتها وصديقه إلى الغابة في أطراف باريس كان يوماً دافئاً بالشمس وبالنجوى، حتى نسفته «عالية» في اليوم التالي ومعه نسفت كل اللحظات الحميمة التي كان يظن أنها غرسة لأصدق مشاعر عشق بين إثنين.

ها هو الآن «يطير» إليها، ملبياً دعوتها له بالحضور فكأنه في هذه اللحظات: يحمل قامته نحو الشروق من جديد/ زمنها، وهو يفرّ من الغروب الذي حبسته «عالية» فيه!

يحمل كلماته إلى «عالية» نحو الدروب الطويلة وسيدعوها أن تُغني معه، حين تسمعه هو يُغنيها؟!

يحمل خفقته إلى رحاب فرحها هي «عالية»: الواحدة التي ما زالت إنسانة قلبه الصاخب الآن بطبول الفرح للقائها في هذا الزمان الذي صرنا فيه نفتش عن لياقة ضمائرنا، وعن «تفقيط» قلوبنا!

كأنّ «عالية» أصبحت: حارس ليل «علاء» الذي سرقه من انبعاثه، ورماه في الضباب، وسر البحر وحيتانه!

ولم ينتظر بعد دخوله إلى غرفته المحجوزة له في الفندق أن يسترخي، أو يرتاح قليلاً من وعثاء السفر بل ركض ملهوفاً إلى الهاتف، وطلب «عالية»:

* أفْ مشغول.

بعد نصف ساعة جاءه صوتها كأنه مبلل بالطل:

ـ أنت جيت؟! حمد الله على السلامة.

* حتى الآن لا أعتبر نفسي «جئت» مجيئي، وحضوري هما في لحظة لقائي معك.

ـ أُو أُو أُو خلاص نتعشى الليلة مع بعض.

جميل أنا صاحب الدعوة، وأنت التي تختارين المكان.

* * *

* إختارت «عالية» مطعماً كلاسيكياً يطل على نهر النيل، ويستمتع زوّاره بعشائهم على ضوء الشموع ورشات الموسيقى كالعطر.

ـ قال لها مبتسماً: لماذا اخترت هذا المطعم الرومانسي الذي يصلح لعاشقين ولم تختاري مطعماً آخر يصلح لصديقين أليست رغبتك أن نبقى صديقين؟!

* قالت: لا أدري ربما أردت أن أكتشفك من جديد.

ـ قال: أرجو أن لا يكون «العشاء الأخير»!؟

* قالت بوميض عينيها العميقتين السوداوين: بل اعتبره العشاء الأول فنحن لم نلتق هنا أمام النهر في بلدي، وقد يكون اختيارنا باريس لأول لقاء هو خطأ.

ـ قال: أتفق معك بالإضافة إلى خطأ أساسي ومؤثر، وهو: أننا لم نحتفل بلقائنا الأول وحدنا فقد كان معي صديقي، وكانت معك صديقتك وهذه غلطة، كأنني كنت أتصرف برقابة صديقي وربما بتوجيهه أحياناً، وأنت أيضاً.

* قالت: لكنَّ صديقتي لم تؤثر عليّ ضدك بالعكس، كانت دائماً في صفك وتدافع عنك!

ـ قال: أعلم بعكس صديقي الذي كان يقف في صفك أمامي و.. أمامك!!

* قالت: بالمناسبة ما هي أخباره؟! كان يحادثني هاتفياً، وأصرّ أن نلتقي هنا، ودعاني إلى العشاء واندهشت أنه لم يحاول ذكر اسمك طوال بقائنا معاً!

ـ قال: هذا شخص مولع بالوصاية على الآخرين ولا يقدر أن يبتكر إلاّ ذاته فقط!

* قالت: أما صديقتي فقد افترقنا، ولا تسألني عن السبب.

ـ قال: أشكرك على منحتك هذه اللقاء الجديد، أو الاكتشاف الآخر فطالما حلمت بوجهك وبابتسامتك تحتضنهما عيناي إن وجهك يزداد عمقاً وتجذراً في حدقتيّ عيني وضلوعي لن أنساك ـ عالية ـ مهما أصدرتِ أنت من قرارات أو «فرامانات» فلم تحبك عيناي فقط، ولم يحبك قلبي فقط، ولم يحبك عقلي فقط كلنا أحببناك في داخلي.

كأنه لمح دمعة لمعت في اتساع عينيها، وأدارت وجهها نحو النهر: صامتة.

في خطواتهما من المطعم إلى سيارتها ركضت يده وراء يدها محاولة اللحاق بها، حتى احتضنها وسرت رجفة خفيفة من كفها في حضن كفه حتى استكانت كفُّها.

وأمام باب الفندق مدَّت «عالية» يدها إلى المقعد الخلفي، وتناولت لفافة مغطاة بورق الهدايا المزركش، قدمتها إليه وقالت:

ـ أرجوك إقبل هذه ذكرى، واقرأ معها هذه الورقة المرفقة بها.

أخذ يدها ورفعها إلى شفتيه قبّلها، وقال لها:

ـ غداً أنا مدعوٌّ عندك.

* قالت: إنت مجنون!

* * *

* وسَّع «علاء» في خطواته ليصل إلى المصعد، أو يجري إلى غرفته كأنّ أحداً يلاحقه.

إتّكأ على وسادة السرير، وفتح الورقة ليقرأ بخطها:

ـ «إلى السلطان.. الحائر:

في ذكرى إعادة اكتشافنا لقارَّتيْ أعماقنا، في مدينة القسوة والحنان/ القاهرة مع عميق سعادتي لزيارتك الخاطفة السلطانة»!

تناول هديتها و قبَّلها، وكأنه استغرق في تفاصيل رائعة من الأحلام مع «عالية» عن الغد ومَنْ يدري؟!

حين كان يُبدل ملابسه جاءه رنين الهاتف، وسرى في إصغائه دفء صوت عالية وشجنها المكثف:

ـ شكراً على العشاء الأول وليس الأخير!

* وأنا الذي أشكر السلطانة المغرورة بحبي لها.

ـ تعرف صحيح، كان خطأ أننا لم نجعل لقاءنا الأول هنا، و... أنا وأنت فقط!

* هل سحبت أوراق اعتماد الصديقة، و أعدت تقديم أوراق..

ـ قاطعته: أصمت من فضلك عندما تستيقظ في الصباح، هاتفني، تصبح على خير!

وضع سماعة الهاتف وقد أصابته رعشة خفيفة.

هذه «عالية» إذن ما زالت تجيء شراعاً كالفجر الأبيض.

تباعاً تلاحقت خفقات «علاء» سرب عصافير، تبحث عن عش دافىء في صدر «عالية» / السلطانة.

بعادها عنه. كان زمناً يسقط به في الشقوة.

ولقاؤهما معاً أشرق حلماً، لعله يكبر بالعهد ويشعل أول خطوة.

* * *

* أخرج من حقيبته ورقه الأبيض، وحبره الأخضر وكتب إلى «عالية»:

ـ من السلطان الحائر إلى السلطانة الجائرة:

أما قبل فقد كنتِ حبيبتي، وستبقين حبيبتي حتى يزول الحب من الوجود.

ذات لحظة ضوئية صارت كل العمر تفتّحت ورود حدائقي على صوتك، وعبقت أمسياتي بكلماتك، وتناغمت أغنياتي بصوتك.

طفتُ بك على عيون الناس كلهم هربت بك إلى أسراري، وأحزاني، ووحدتي.

كنت أقتحم قلاعك، وأقفز على حيتانك، و.. أناديك.

وذات لحظة حزينة مفجعة كنتِ تقتلينني في كل نداء عليك، وأنت تعلمين أنك (وحدك) القادرة أن توعدني بالفرح!

أما بعد فقد صرتِ الليلة: حبيبتي للمرة الثانية.

الليلة الأولى: كانت ليلة واحدة على حفافي السين.

الليلة الثانية/ هذه: جاءت عمقاً في ليلة اكتشاف وستصبرين «غفراني» لكل ذنوب الحياة معي.

أطفأ المصباح يستعجل رحيل الليل وقدوم الصباح، و نام.

* * *

ـ ٤ ـ

* هذه السلطانة الحائرة: سرقت من عينيه اللفتة أنجبت بين أضلعه بنفسجة، وقصيدة، وخفقة.

هذه الأنثى: بعينيها أشرعت «علاء»: سيفاً عربياً فقد صولاته وهو يبتغيها، يناجيها، ويطرد خلفها هي ضفاف عمره المائجة بألف لحظة وسنبلة.

إستيقظ في العاشرة صباحاً وهو يعرف أنها تُبكّر في الصحو سمعها ترد بنبرة صوتها المميزة: آلو.

ـ صباح الورد الأبيض كنهارك.

* صح النوم فكّرت أن أتصل بك لأوقظك، إسمع أنتظرك في بيتي الساعة الخامسة بعد الظهر.

مفاجأة لم يكن يتوقعها إضطرب حقاً، وهو يهذي:

وأخذ يلكز الساعات حتى بلغ الخامسة وتأنق وتشذّب، واستقل سيارة أجرة متجهاً إلى بيتها.

قرع جرس الباب فأشرعت أمامه وجهها الضحَّاك الشفاف:

ـ أهلاً تفضل.

إنساب في رحاب حرمها/ بيتها كان يتلفَّت، ويخفف من وقوع خطواته، مخافة أن يجرح ذلك الإصغاء الرائع الذي كان ينبعث من أرجاء عش «عالية» الأنيق وأن يشوش على الأنغام.

وتمنى «علاء» لحظتها أن يبقى هنا داخل هذا العش الذي يحتاج إلى رجل وهي باقية بجواره.

حلم أن تُتوَّج جلسته بجانب «عالية» بسكتة قلبية يموت بها قريراً مع آخر وأجمل أمنيات العمر.

حدّجته «عالية» بنظرة كابحة لئلا يفعل ما كان يفكر فيه، وكأنها تقرأ أفكاره وهي تقترب بجانبه وتهمس في أذنه: يا مجنون.

شعر «علاء» أنه اضطرب ـ حين خروجه ـ وكم تمنى لو بقي ـ هنا ـ بين عالية وبيتها الصغير، وهو قادر على نسف الحواجز والغربة التي بعثرت الناس.

***

* في المساء الثاني كانا معاً في ليل فيّاض بنداوة مشاعرهما وقد تملكه إحساس عجيب.

تخيل «علاء» أن السيارة التي تقودها «عالية» وهو يجلس بجانبها: قد زيَّنوها بالأوراق الملوّنة واللامعة وهي بجانبه تضع الطرحة البيضاء فوق شعرها الغجري وقد تزوجها بطريقة جيل جديهما وجدتّيهما!

والتفت يتأمل وجهها كأنه يراها لأول مرة وكأنه يحبها لأول مرة وكأنه يكتشف أسرار نفسها لأول مرة.

* همس بجانبها: آهٍ ـ ما أضْيع العمر بدداً، حين نبعثره في محاولات الاكتشاف في كل مرة، والعثور، والفقد، والتجاوب ونطعنه بالعناد!

ـ إبتسمت، وهمست: لا تكن خيالياً الواقع أكثر قسوة، وأعتى بوابّة تمنعنا من الدخول إلى مساحات عشقنا الخاصة.

* قال: اختلفت فيك أشياء كثيرة. حتى تسريحة شعرك تغيّرت من الغجري الليلي إلى «السلطاني»!

ـ قالت: إلى الأحلى والأجمل. ما هو كده؟!

* قال: لقد ملأتني حباً في رحلة غفراني هذه لكل ذنوب الحياة معي بعد أن رأيتك.

ما أجمل التوحُّد عندما يُكرِّس الثقة والحنان أريد أن أكون لنفسك هذه الإسفنجية / الفلتر أن لا أحاكمك بسلبيات أي «سالومي»، وتعدينني أن تخرجيني من طقس الرجال السيّافين الشهرياريين.

أخلدت «عالية» إلى الصمت لم ترد على كلمة مما فاضت به مشاعره نحوها.

وفي أصداء صوته التي لم تلق إجابة منها شعر أنه تسرَّع وهو يبثَّها لواعجه وعشقه الذي نفخ الرماد من فوقه فصار جمرة قلبه أو كأنها وهي تحدق في وجهه تسأله: إلى أين المفرّ منك؟!

لكنَّ الحرية ـ كما ردّدت دائماً في سمعه ـ هي: قدرتها على تحقيق ذاتها وذلك بخلْق الفرص أو انتزاعها من مجتمع تشعر المرأة فيه أنها: مواطن درجة ثانية.

ـ قالت له مرة: «قضية المرأة أعتبرها الوجه الآخر من قضية الديمقراطية»!

* سألها: ألا تعتقد سيدتي أنها تبالغ قليلاً؟!

ـ أجابته: دعك من المناصب، والفرص العملية، والكم والكيف لكني كإمرأة عربية أفتش عن مبدأ «التاكافؤ» بين الرجل والمرأة، خاصة وأن الإسلام لم يغمط حقوق المرأة أبداً، بل قدمها في كثير من تشريعاته وأحكامه!

وكأنّ شرودها أغرقه معها في الصمت ومرت لحظات بينهما، كل واحد منهما دخل إلى أعماقه لعله يستفتيها.

لكنَّ «عالية» تبدو قوية بضعفها الأنثوي فما لبث أن أفاقت من شرودها، وابتسمت تقول له:

ـ ها رحت فين، اللي واخد عقلك؟!

* قال: تعرفي؟! كنت أتأملك فأراك إمرأتين، (عاليتين)!

ـ قالت بدهشة: كيف فسِّر تأملك؟!!

* قال: ألست الآن «صديقتي»، كما عرضْتِ وقررت، وألزَمْتني بالصداقة بيننا كأنك قد ثُرْتِ على الحب؟!

ـ قالت: ما تريد من تعريف المهم ليتنا نصبح أصدقاء يا علاء.

* قال: لذلك إليك هذا الـ «بيان خاص إلى صديقة».

ـ قالت: تقصد أن بيانك الخاص هذا موجّه إليّ أنا / الصديقة؟!

قال: بالظبط. و. دعيني أقول لك فيه، آه ـ إسمعي:

يا صديقتي الحبيبة «مفيش فكة، برضه حبيبه!»: أشكو إليك حبيبتي الأجمل، والأعند، والأبعد، وإني أحب من جديد، تاني، وثالث، ومليون وحبيبتي «إمبراطورية حب» هي من أصحاب الخفقات التي تملك القدرة على حبس نفسها في نفسها يمنتهى الصدود عن المحبين لها، أو ربما عني أنا فقط!!

يا صديقتي عالية: أحب، بل أعشق حبيبتي «عالية» وليس في هذا الإعلان / البيان: جديداً عن خفقات قلبي التي امتلكَتْها حبيبتي من وقت طويل، وأرادت مني تحنيطها كجثث أجدادها الفراعنة الجديد: هو في هذا التدفق ـ الآن ـ الذي أرعبتني مني إليها.

يا صديقتي «عالية» الثانية، أشكو إليك حبيبتي «عالية» الأولي.

خوفي الآن: أن أحب (الصديقة) أيضاً وقد وجدتها: الأرق، والأقرب فإذا كان الحب بعد الصداقة، فلا بد أن أخاف إنبعاث «عالية» الأولى لتمنع «عالية» الثانية، أو تقتلنا معاً.

ـ قالت له عالية: ياه دا إنت خيالك خصب جداً، ولكن خبث منك أن تضرب «عالية» الحبيبة بعالية الصديقة!

* قال: لأن الصداقة بعد الحب خرافة في الغالب، إلا في حالة الشعور بالعجز لكن من الممكن أن يأتي الحب بعد الصداقة.

ـ قالت: وأنا ـ الصديقة ـ مَنْ أكون الآن بالنسبة لك؟!

* قال: «بتْونّس بيك» أغنية وردة التي دعَيْتِني لسماعها من كاسيت

سيارتك مساء أمس، وقلتِ لي: هذه الأغنية مهداة مني إليك!

ـ قالت: صحيح أنا بتْوّنس بيك أنت بالنسبة لي هذا الشخص المميز في مشاعري، وفي أمان نفسي معه.

* قال ضاحكاً: إذن «خذني لحنانك خدني»، كما غنت أم كلثوم يحتاج الرجل المرهق المحبط في داخلي إلى حنانك إلى حنان الأنثى التي تنسيه الإرهاق والإحباط تغسله بالحنان، وتفجّر دفء الرجولة فيه نحوها.

ـ قالت: تأخر الليل دعنا نذهب.

* قال: وكما قال شاعر نسيت إسمه:

«متى أُنيخ على الواحات راحلتي

وحدي وإيَّاكِ لا ماضٍ، ولا غادِ»؟!

ـ قالت: الله هذا شعر جميل جداً.

* قال: المعنى فيه، أو الطلب يبدو أكثر جمالاً.

ـ قالت: غداً تُعقد ندوة عن «ظاهرة الإرهاب»، فهل تحضرها معي؟!

* قال: حلو حقاً أتمنى أن أسمع مثل هذا الحوار الهام، الذي يهتم بحدث مزعج جداً أخذ يتفشّى إلى أنحاء الوطن الكبير بعد تفجُّره من الجزائر، ثم مصر وما اتضح عن الدور الغامض لمليشيات «أفغان العرب»، أو العرب الذين كانوا يحاربون بجانب المسلمين الأفغان ضد الروس وحوّلوا «جهادهم» اليوم إلى: حرب عصابات، وتخريب، وقتل الأبرياء.

ـ قالت: إذن موعدنا غداً في السادسة مساءً، سأحضر أمام باب الفندق بسيارتي، ونذهب معاً.

* قال: أحلاماً سعيدة يا سلطانتي يا حبي!

ـ قالت: والله مجنون.

* * *

ـ ٥ ـ

* إحتفل شوق «علاء» المتجدد للحبيبة «عالية» وكأنه لم يصدق عودة هذا الدفء من صوتها إلى رعشة الخفق القديم في صدره!

من مواسم عطشه... جاءه صوتها ووجهها: بوصلة... كأنّ حنانها المفقود يحتضن حنينه المتواصل إليها.

ـ قال لها «علاء» في صباح اليوم الثالث، وهي توقظه: دعينا نفتتح حضارة العشق، ونكون معاً

ـ أنت وأنا ـ هذا السطر الجديد في تاريخ هذه الحضارة!

* قالت: تعرف ـ يا علاء ـ أنني أنثى طاردها عشّاق كُثْر، ولكنّ حياتي كانت تخلو من «رحلات» اللقاء، أو التواجد، أو التَّجمع مع الآخرين... حياتي قامت على: رحلة هروب واحدة... تسببت على امتداد عمري في توسعه الشقة بيني وبين الفرح، أو حتى اللذة المؤقتة.

ـ قال: كأنك تقولين أنك هذه الأنثى التي احترفت التلفُّت في الوقوف / مكانك سِرْ، في المشاعر، وخفقة القلب؟!

قالت: لا تطاردني من فضلك بالأسئلة... إستيقظ الآن، وعش يومك... ولقاؤنا في السادسة مساءً أمام باب الفندق.

أعاد سماعة الهاتف إلى موضعها. . . ورغبة اللهفة تدفعه إلى التمنِّي عليها!

حلمه: أن يأخذ «عالية» إلى صدره. . . يحتضنها. . . يهصرها بعد كل ذلك الظمأ الذي شقَّق أضلعه.

لقد قدم إليها، ملبياً رغبتها، ان دعوتها في لقائهما معاً. . . وهو يعرف أنها بارعة في إفساد حلمه معها ولها. . . كعادتها معه دائماً!

ورغم ذلك. . . ركض إليها، يأمل أن تمنحه «ثانية» يدفىء فيها صدره برأسها، ويضيء بها عينيه بليل شعرها!!

في المساءين الجميلين. . . وفي أحضان همسهما، وحواراتهما: كان يصغي إليها ويتأملها. . . ولا يدري بماذا يسمي كل هذه النبرة المتكسِّرة كأمواج البحر. . . يعلنها صوتها الفيّاض بالشجون وبالمعاناة.

هل قال: «عودة» دفئها؟!

عودة ماذا. . . فقد قالوا: إن الماضي لا يعود؟!

أم تراه الوفاء. . . يرتبط بذلك التوجه الربّاني الحكيم في محكم التنزيل: (ولا تنسَوَا الفضل بينكم)؟!

لا. . . . . لعله الحنين حنينهما معاً ـ إلى ذلك الذي غرساه برسائلهما، وبتواصلهما الهاتفي قبل لقاء باريس اليتيم. . . وسقياه من ماء أحلامهما؟!

* * *

* آثر «علاء» أن لا يبرح غرفته بالفندق، خوفاً من طقس القاهرة الصيفي

وشمسه اللافحة... وطلب من مكتبة الفندق إرسال الصحف اليومية التي يحرص على قراءتها كل صباح... ليتفرغ بعدها لأوراقه وكلماته التي يسجل من خلالها: حركته الإنسانية، ودورته النفسية مع الدموية!

صوت «عالية» ووجهها يؤطرانه في الغرفة... فهي الأنثى التي سكنت في وريده مع دمائه، ويشعر دائماً: أن تعب أمواجه يستريح عند شاطئها، أو حتى يتكسّر ذلك الموج... كأنّ عمره ينتهي مع انسدال جفنيها وهي نائمة.

هي رفضت مشاعر الحب منه، وطالبت بنصوص الصداقة... وفي كلتيهما: يبقي لها، وتبقى أمواجه تتلاحق......... في مكانها!

لقد أعلن عليها: تعبه وانهزامه أمام مراوغات قلبها......... وكأنها في كل مرة: تغادره نحو التناسي، وتطلب منه أن يغادرها إن أمكن!

وفي ذكرياته، وتخيّله الدائم لها... يرى شالها الحريري يتدلى فوق مقعدها هناك في غروب باريس داخل الغابة... وهنا، وهناك في وطنه، وفي أي مكان: لم يبرح «علاء» مكانه بجانبها منذ ذلك المساء الصيفي الباريسي الذي غضبت عليه فيه، ومزقّته في داخلها، وتركته: تمثال رخام بالنسبة لها!

وعندما تكرّس فقْدُه لها... صار الفراغ محيطه... لفَّه الصمت، وهذه الاسترخاءة في العمر الحزين... لا يغيب عنه وجهها والنيل خلف شعرها الأسود المتطاير... وهو يتخيل في عينيها الآن لمعة عمره!

هي ـ وحدها ـ التي عشقها بهذا الجنون، ولمس في أُنمل أصبعها: وردة ميلاده.

جاء إليـهـا ـ هـنا في القـاهـرة ـ ليتشّـرد في سمعـهـا، وفي صحـاري نفسها. . . ويجدها تقبض عليه في داخلها!

* * *

* فرغ من ارتداء ملابسه، وقد شارفت الساعة على السادسة إلاّ ربع.

غادر غرفته. . . وهبط إلى صالة الفندق، يقف خلف زجاج بوابته يترصد وقوف سيارتها ليهرع إليها حتى لا تقف طويلاً.

يعرف أنها دقيقة جداً في مواعيدها. . . بعكس ما يقال عنها هناك: إذا أعطاك أحد موعداً تنتظره فيه، فتوقع حضوره بعد ساعة من الموعد الذي التزم به!

ها هي داخل سيارتها. . . وهو يدلف إلى جانبها:

ـ أحـد الـشـعـراء سـمَّى حـبـيـبـتـه بـاسـم مـذكّـر، فـقـال لـهـا: يـا «هـلال الأرض». . . أحبك!

* قالت مبتسمة: هل ما زلت تراني «هلالاً»؟!

ـ قال: مددت يدي إليك ومعها مددت دروبي: حقل ورود لك.

* قالت: جمّع ورودك لتنثرها لي على مائدة العشاء. . . الآن نحن في طريقنا إلى حضور ندوة عن «الإرهاب» يا صديقي.

ـ قال لها: ألآ تعتقدين أنّ تنامي ظاهرة التطرف الديني، خلقت مكانة إضافية للمرأة؟!

* قالت: مَنْ قال لك ذلك؟!. . . إن الفكر الديني المتطرف: أخذ يأكل

المجتمعات المسلمة من الداخل. . . وكانت المرأة ـ بصفتها الطرف الأضعف ـ هي الأكثر تأثراً بتنامي نفوذ هذا التيار.

لمّا كانت قيادات هذا الفكر تصرُّ على الخلط بين الدين والدولة، فإنهم أعطوا لأنفسهم بهذا الإصرار: الحق أن يُمْلوا على النساء كيف يفكّرن، ويتصرفن، ويلبسن، ويعيشن. . . ونشروا بهذا الحق الخاص بهم: الأفكار التي تدعو لقهر المرأة في المجتمع. . . فقد استخدم المتطرفون المرأة كطرف أضعف وأداة مساومة، كما طوّعوا الدين لخدمة نزواتهم ورغباتهم ومصالحهم الذاتية. . . مهملين تماماً أن المرأة مخلوق متساوٍ في الحقوق حسب تشريع الإسلام، ولكنهم ينتقون ما يرغبون!

ـ قال: المحنة قاسية. . . ولكنَّ مواجهتها لا تتم بالسلاح فقط، بل بتوعية أفراد المجتمع، وبتحسين مستوى المعيشة.

* قالت: هل تصدق أن المتطرفين وراء الحملة التي تقول: إن النساء المصريات خلف المضايقات التي يتعرَّضن لها في الشوارع من الأساس؟!. . . وحتى المرأة التي تتعرض للاغتصاب في مصر يُحمِّلها المتطرفون مسؤولية إغراء الرجل وإخراجه من وعيه، تصور (!!) لأنها لا ترتدي الملابس الإسلامية المناسبة. . . وبالتالي تبقى المرأة في عرف المتطرفين دائماً هي المسؤولة لما يحدث لها. . . وبالطبع فإن هذه الأحاسيس لا تنتشر بين أوساط المتطرفين فقط، بل يرددها غالبية الرجال. . . وكأنَّ الجميع فقدوا الوعي!

ـ قال: ولكن. . . ألا تعتقدين أن المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية ـ السلبية ـ أحد الأسباب الهامة التي أدت إلى هذه الظاهرة؟!

* قالت: أعتقد أننا كمصريين لم نُعدّ مجتمعنا الجديد أو الحالي، ولم نُعدّ أنفسنا للحياة اللائقة بنا وبتاريخنا العريق بمستوى إنتاج العالم فما زلنا نحاول أن نجد مجرد الطعام لأفواهنا

ـ قاطعها ضاحكاً: الطعام لكل فم... عنوان كتاب توفيق الحكيم.

* استطردت جادة: نعم... صدقني ما زال هناك من يشتري سيارة بمليون جنيه ويقول: إنه حر في ماله، ونحن نصدقه... وما زال عندنا مريض بالفشل الكلوي، وعندنا أطفال يعانون من القلب ـ تصور ـ ومن سوء التغذية... وما زال عندنا مناخ صالح لتحويل الأجيال القادمة إلى وقود للعنف... ولا مفر من أن نقول الحقيقة: بأن الأعوام القادمة تعني التقدم بالنسبة لغيرنا فقط... أما نحن فعلى الشباب أن يمتلك ناصية المهارات المتعددة ليجد موقعاً لأنفه من أجل أن يتنفس الهواء في الزمن الصعب!

ـ قال حزيناً: ياه ـ يا عالية أين التفاؤل أين المفهوم البسيط للمصري ابن البلد وهو يقول: «بكرة تتعدل»؟! ثم إن هذا الواقع ينطبق على كثير من الأقطار العربية اليوم، خصوصاً تلك التي اكتوت بنار الانقلابات وحكم العسكر!

* قالت ودمعة تنزلق على وجنتيها: بكرة تتعدل كلمة لا بد أن تُلغى من قاموس المواطن المصري اليومية، فأنا من الذين عاشوا الثلاثين عاماً... وفي كل يوم منذ عامي الثالث عشر لا أتذكر أنني حظيت بشيء يجعلني أتقبل هذا المفهوم البسيط، ولم أصادف إنساناً إنعدل مستقبله دون أن يضع هذا المستقبل على نار الإصرار، والترصد، والمعاناة، والثقة... ودراسة الظروف المحيطة به وبالمجتمع، ومعرفة ما الذي يحتاجه العالم من مواهب، ثم التقدم إلى الأمام بروح التحدي والواثق من نفسه... فالتفاؤل بدون سبب

هو صنعة أبناء الذوات وليس المصري البسيط الغليان، فهؤلاء يولدون وفي أفواههم ملاعق من ألماس، وغالبية عقولهم: فالصو... هم يبحثون عن جواب لسؤال صعب: هل الذين حولي يحبونني لصفاتي الشخصية أم لمالي الوفير؟! وهو السؤال الذي ضغط على أنفاس أشهر تربة في الربع الثالث من القرن العشرين وهي: كريستين أوناسيس، وكان أبوها المعروف لا يدفع للحكومة اليونانية سوى ما يعادل (١٨) قرش صاغ مصري كضرائب كل عام، ولكنه كان قادراً على رشوة كثير من الحكومات في العالم!

ولماذا نسافر إلى اليونان... يكفي أن نتلفت حولنا هنا إلى الذين قفزوا من سنوات الهم إلى مصاف أصحاب الملايين من دم الفقراء، وكانت فضيحة لهم... وقيل أن زعيم أحد أولئك القافزين: أصيب بالعجز الجنسي، وصار يتزوج كل ليلة امرأة، ثم يطلقها بعد دفع المهر والشقة... ويبكي كل ليلة في انتظار إبرة المخدر، حتى مات بجرعة مخدر زائدة... بعد أن اكتشف أنه غير محبوب من أحد، ولا من نفسه!

إذن... فالتفاؤل يأتي بالاعتماد على الصُّدف، أو أن يجمع الإنسان أكبر قدر من المال بأية طريقة تمطر بها السماء بيوتاً أو سيارات له، أو رجالاً لعوانس، أو نساء لمن لم يتزوجوا... هذا النوع من التفاؤل هو: قلة أدب بل هو نوع من احتقار الإنسان لنفسه، ولن ينعدل حال «بكره»، أو يبتسم المستقبل إلاّ لمن يملكون الإصرار، والثقة، والترصد للصعاب فأنت ـ يا إنسان ـ الذي تُغيّر كل شيء، ولا أقصد بالتغيير هنا عن طريق السلاح والمتفجرات... فهذا تغيير لا يخدم وطناً ولا قضية!

وصلنا... دعنا ندخل إلى الندوة فقد تأخرنا.

* * *

* أمضينا أكثر من ساعتين في مناخ الندوة عن الإرهاب، وأسبابه، والتوقعات المستقلية... وهمس «علاء» في أذن «عالية»:

ـ لقد اختفت... دعينا نخرج.

وداخل سيارة «عالية»... قال «علاء» تعقيباً على الندوة:

* لم أستمع إلى حلول، ولا إلى حوار... فالكل متشنِّج، وهؤلاء الإرهابيون يدّعون أن أفعالهم الإجرامية تخدم الإسلام، تزويراً لتعاليم الدين... وأن هذه الأفعال هي الحل الوحيد للقفز فوق القيود، باعتبار أن التشريع الإلهي يتجاوز الأنظمة السياسية، ومن ثم فهو استثمار للأرضية الاجتماعية المسلمة، واستثارة للمشاعر الدينية!

ـ قالت: علاء حبيبي... لنسأل: كيف يخدمون مجموعة الإسلام ـ حسب إدعاءاتهم ـ وهم يقومون بتصفية من يقول ـ «لا إله إلا الله محمد رسول الله»؟!... لقد تبنَّت هذه الجماعات: الإسلام كقناع لتوجّهات سياسية علمانية، وهذا التوجه ليس خياراً ديمقراطياً، بل هو تلاعب بالمشاعر، واختلط الموضوعي بالذاتي، والسياسي بالديني... وانزلقت هذه الجماعات في محاولة فرض نمط اجتماعي تحت شعار الإسلام، لا يوجد حتى في الدول الإسلامية الأولى، وتجاهلت المتغيرات الكثيرة التي يعيشها العالم المعاصر... وكأنها بذلك تريد أن تضع المجتمعات الإسلامية في دائرة مغلقة... كما أنها تُعمِّق مشاعر العداء تجاه الآخرين، أياً كانوا... وهذا يجسد الإخفاق الفكري القائم على فضيلة مصطنعة، دون تقديم أشكال سياسية جديدة، ولا حلول تتناسب ومشكلتي كمصرية... هذه الجماعات لم تقدم لي شيئاً يُذكر، يجعلني أثق بهم!

آسفة... أكلت دماغك، لكنني مثل أي مواطن مصري أعاني... إلى أين تقترح الاتجاه للعشاء في معية عاشقي المجنون؟!

* قال: أظن... أحسن مكان على النيل.

* * *

ـ ٦ ـ

* نفس المكان... نفس الجلسة: «عالية» أعطت نصف ظهرها للنيل والأضواء المنعكسة على سطحه، وشعرها الأسود يختلط بتلك الأضواء.

وعلاء: أعطى ظهره لمدخل المطعم... لتحتويها عيناه من كل جهاتها، وتحتوي من ورائها النيل، والكتل الأسمنتية الشاهقة، والساطعة بأسماء الفنادق.

تصاعد «علاء» أمام عشقه... تصاعد في زمان «عالية» المسروق منها، والسارقة منه... يفتش عن وجهها الضاحك / الحزين.

لحنه منسكب أبداً في مسافاتها.:.. وكلماته التي أخذ يهمس بها: ترحل إلى تدفقها الهاجر!

دائماً يوقظه صوتها من شروده فيها... من ابتعاده الممتزج بها.

ـ قالت: «محدِّش يِسرح... وهُوِّ قاعد معايا»!

* قال متنبّهاً: حتى لو كنتُ سارحاً فيك؟!

ـ قالت: «ما هو أنا هنا... قدَّامك».

* قال: ما زلت أنتظر منك عمقاً واحداً... إمنحيني الثقة، الثقة... وخذي أنقى ما تحمله ضلوعي وأتعس: خذي قلبي!

ـ قالت: لو تعلم أنني ما أعطيت رجلاً بعمق ما أعطيتك... فأنت في حياتي: معنى، أجرّدك من الماديات، واللذة المؤقتة.

* قال: أسألك الآن... هل يُغضبك أن يعرف أحد أنني أحبك... وحدي؟!

لحظة من فضلك أعرف أن هناك من يحبك، ومن يحلم بك، و..... لكن ليس هناك من يحبك، وسيحبك مثلي!

جاءوا بالطعام... «بونو بيتّي».

حوّم صمت قصير مع بدء تناولهما للعشاء... وأراد «علاء» أن يُخرجها من إطار العشق لها الذي حاصرها في داخله، فقال لها:

* ندوة اليوم عن الإرهاب... لا أعتقد أنها ستكون الأخيرة، لو أردتم توعية المجتمع، خاصة البسطاء... ولكني ـ بهذه المناسبة ـ أريد أن أعود إلى كارثة الزلزال التي حلت بمصر قبل أكثر من شهرين، وأسألك: ألآ تعتقدين أن الزلزال كان دعوة لإعادة الوعي، والعودة إلى الحق دون قناع؟!

ـ قالت: حتى هذه جعلوها نكتة ولا أعلم فقد تكون النكتة عند الكارثة تدل على صلابة روحية هائلة، وقد تكون وسيلة للدفاع عن الصحة النفسية للشعوب فبعد ساعة واحدة من الزلزال، كان المصريون في الشارع يتبادلون هذه النكتة: بنى أحدهم عمارة كبيرة، فمالت بزاوية حادة لخطأ في أساساتها... وعندما حدث الزلزال، استقامت في مكانها، وأصبحت صالحة للسكن... فصاح صاحبها مبتهلاً: يا رب زلزال كمان يبيّضها!!

* قال: ألم تكن هناك طريقة علمية للتنبؤ بموعد الزلزال؟!

ـ قالت: الطريقة الوحيدة لمعرفة الحدث... هي ملاحظة سلوك الطيور

وبعض الحيوانات والأسماك، وهناك من يقول: إن واقعة الزلزال أنعشت تجارة طيور وأسماك الزينة... ولا تستغرب إن وجدت المصري يسير في الشارع وهو يحمل في يده قفصاً صغيراً بداخله عدة عصافير، أو يحمل حوض سمك زجاجي أنيق.

* قال: أنت تبالغين... أهي نكتة أخرى؟!

ـ قالت: إطلاقاً... لقد قبضوا على أحد الدجّالين يبيع للناس أحجبة مضادة للزلزال!

* قال ضاحكاً: هذه نكتة ثالثة.

ـ قالت: النكتة الحقيقية... ما قاله الشارع المصري عن سبب إيقاف أغنية «عبد الوهاب» يا دي النعيم اللي إنت فيه يا قلبي!

* قال: وما هي النكتة؟!

ـ قالت: فقد الشاب إبنته وزوجته وأمه، وكسرت ساقه، وظل تحت الأنقاض بصحبة الموت (٤٨) ساعة، وبعد إنقاذه سألته المذيعة في التلفاز: ما هو شعورك بعد أن اكتسب اسمك هذه الشهرة العالمية... هل كنت تتصور ذلك؟!!

ثم وضعت له بعد المقابلة: أغنية عبد الوهاب!!

* قال: ألآ تظنين أن الثقافة الزلزالية انتشرت بين المصرين؟!

ـ قالت: فعلاً... وهل تعلم أن كثيراً من المثقفين صار يردد أو (يؤلف) الكتب أكثر مما يقرأ، ويكتب؟!... لقد أصبح حديث المصري لا يخلو من كلمة (ريختر)، ومن الهزّة الأرضية، ومن الإرهاب... وفي حفل

زفاف: إضطرب المدعوون واستولى الفزع على الفرقة الموسيقية، فغنت المطربة: «إتمختري يا حلوه يا زينه»!

❊ قال: حتى هذه الكارثة تتعاملون معها بالنكتة؟!

ـ قالت: لنصمد، لنلتقط أنفاسنا اللاهثة... لنُهدِّىء هذا الرعب والخوف من عدوّين شرسين

الزلزال، والإرهاب... فالاستعداد للكوارث ليس بحجم الإعلام، والتغيير حدث في نفسية الشعب... فهل ما حدث يؤدي إلى صحوة المواطن، أم إلى مجرد وقفة، أم كشف مواطن الضعف للبحث عن القوة... وهل الجماعات الإرهابية: رد فعل للفساد الإداري؟!

كل هذه الأسئلة والمعاني تتداعى... خلاص، لنغيّر الموضوع!

❊ قال: هل تلبين لي رغبة؟!

ـ قالت: أنت تعرف أن رغباتك معي.........

❊ قاطعها ضاحكاً: غير مجابة... أعرف، ولكني أريد منك أن تأخذيني بعربتك إلى «ميناهاوس»!

ـ قالت مندهشة: ولماذا؟!

❊ قال: أريد أن أكون معك أطول وقت... حتى لو قلت لي: أنك لا تسهرين.

ـ قالت ضاحكة: والله مجنون... عندك قدرة أن تقلب كل شيء.

❊ قال: إلى الأحسن... من فضلك!

❊ ❊ ❊

* إمتدت يده تفتش في أشرطة السيارة.

ـ قالت له عالية: من فضلك... سأخرج لك الشريط الذي تبحث عنه، لحظة.

* قال: وما هو... هل تقرئين أفكاري؟!

ـ قالت: بل أقرأ نبضك وخفقاتك... أليس هذا هو الشريط؟!

ولفهما صمت آخر... يصغيان إلى المقدمة الموسيقية لأغنية وردة: «بتونِّس بيك»... وكأنّ الكلام فد انتهى بينهما، أو أن الكلام يبدو في هذه اللحظات تافهاً، لا يرقى إلى حميمية هذه اللحظة.

ـ وانساب صوتهما نغماً يخالط لحن الأغنية: علاء... أرجوك أن تُبقي على أحلامك، وتتمسك بالأمل لا بد أن تستعيد أحلامك، تحتضنها، تتواءم معها رغم كل إجباطات الواقع ـ حتى إحباطاتي أنا لك! ـ ورغم قبح نفوس البشر من الذين فقدوا القدرة على الحلم، ولا يميزون بين اللون الرمادي وألوان قوس قزح!

قبل شهور... أخبرتك عن رحلتي إلى الدانوب الأزرق، يومها كان إصراري عجيباً على الذهاب إلى قاعة مؤتمر حقوق الإنسان، والاستماع إلى ما يقولونه عن هذه الحقوق... واكتشفت: أن المؤامرة ضد (الأحلام) عالمية ودولية!!

* حدق في عينيها اللتين أضاءت سواد الليل، ووقال: منذ وقت طويل... علقت على لساني عبارة قرأتها وحفظتها عن «البير كامو»، قال فيها: «لا أحد يعيش في ضوء الشمس... بمكنه أن يودي بحياته إلى الفشل»... حقاً المهمة صعبة في هذا الزمان: أن يفكّ الناس إسارهم من

ظلمات تلاحقت، لينطلقوا إلى ضوء الشمس.

* * *

* وعاد الصمت يلفهما... وهي تعود بالعربة إلى القاهرة من جديد.

فجأة قال لها: تعالي هنا... كل شوية تفتحي قضية ألم، أو مأساة، أو معاناة... هل تبعديني بهذا عن حديثي عنك إليك؟!

ـ قالت: بل أنا مثلك أتعطش إلى مثل هذه الحميمية... لكنك لا تريد أن تفهم: أن الظروف معاكسة، ومضادة للحلم، والأمنية، ولجنون العشق... وأخشى أن ما أخشاه عليك: أن تستغرق طويلاً وبعيداً في حالة جلد الذات بدون أسباب موضوعية!

* قال: لست ماسوشياً يا من كنتِ حبيبتي، بالعكس... أنت سادية جداً معي، وماسوشية مع نفسك عني... وحق العاشق أن يهنأ بعشقه، هذا يخصني، أما أنت فما طلبتيه أعطيته لك: الصداقة، واحتفظت بالعشق لك داخل صدري الذي أحلتِه أنت إلى وجار يلتهب بالجمر.

ـ قالت: أستأذنك يا صديقي في السفر إلى لندن بعد أسبوعين.

* قال متحمساً: هل نلتقي هناك؟!... مستعد دائماً للقائك في أي مكان.

ـ قالت: لأ....... ذاهبة لشيء خاص.

* قال: علاقة جديدة؟!... لم أقل: حباً جديداً، فأنت لا تعطيه أبداً.

ـ قالت: أنت لن تتغير.

* قال: وأنت لن تكوني واضحة!

بلغ بهما الليل الواحدة بعد منتصفه، والعربة تقف أمام بوابة الفندق.

مدّت («عالية) يدها إليه قائلة:

ـ إلى اللقاء... نراك على خير، ولا تختفي طويلاً في سُحبك وغيومك... دعنا نراك قريباً هنا؟

قال: باوّدعك ـ ورده برضه! ـ واللقيا نصيب يا صديقتي... أشكرك على اللحظات الجميلة، التي أرغدت نفسي بقربك وبدفئك.

❊ ❊ ❊

الفصل الخامس

طرقات الهجر

* لكل امرأة ثلاث شخصيات:

ـ شخصية حقيقية... تحاول أن تخفيها.

وشخصية تتظاهر بها، وتحرص عليها.

وشخصية تظن أنها لها، وتفاخر بها!

*** حكيم ***

* * *

ـ ١ ـ

* هل كانت رحلة «علاء» ملبياً دعوة «عالية»: رحلة عتاب، وفتح صفحة جديدة؟!

هل كانت رحلة عتاب الحب، أم رحلة قسوة الصداقة بعد الحب؟!

تبقّى الصدى من هذه الرحلة ـ بعد عودته إلى جدة ـ زاداً لخفقات قلبه الموجوعة من العتاب الذي حوّل الحب إلى صداقة!!

لم يعاتب «عالية»... ولم تحاول هي أن تعاتبه، كان كل همها: التركيز على إقامة قاعدة الصداقة بينها وبين «علاء»... كأنها تريد أن تقول له: أريد الاحتفاظ بك!

إعتادته أصداء صوت «فيروز» الذي يعشقه... وهي تغني:

ـ «حاجي تعابني... يِئسْت من العتاب

ومِنْ كِتْر ما حَمَّلتني... هالقلب داب»!

في هذه الرحلة... وضع «علاء» ريشة خضراء في كتاب الحب، وأقفل الكتاب!

لم يعد بداء الشلل في دماغه، أو الانسداد في شرايين قلبه... لكنه

شعر بحاجة ملحة جداً إلى إضاءة شمعة حب جديدة، بعد أن رفضت «عالية» شمعته وإضاءاته لها.

كأنّ قلبه قد ترمّل منذ افتعلت «عالية» قطيعتها الأولى له من باريس.

وكأنه ـ بعد رحلته هذه ـ يودّع الفرحة... وهو يحتضن جميع التذكارات التي منحتها له «عالية» من دفق عطائها الأول، عبر رسائلها إليه قبل اللقاء الأول في باريس... وحتى إبحارها في الغياب، والجفوة.

يحاول الآن أن يملأ صدره بالفجر القادم.

كانت الحكايات في صدره لها: مسافرة إليها دائماً.

وحين دعته للحضور إليها، (لاقناعه) بالصداقة بعد الحب... فقد أحالت حكاياتهما إلى سحابة صيف، رغم أن «عالية» كانت وستبقى: الحكاية الموعد والأجمل في عمره.

حين عشقها: نسي كل مواعيده تحت الأمطار والغيوم... هجر أرصفة الحب المؤقتة، وركض إلى وجهها / الخضّم... فقد كان وجهها: موعده مع الارتواء من شدة الظمأ... وكان دخولها إلى قلبه: تاريخاً وحيداً لبداية فرحه... حتى جعلته هي: تاريخاً حزيناً لبداية غربة مشاعره الجديدة!

* سألها يوم نحرته في وجدانها وقررت انفصال قلبها عن قلبه: لماذا تتحولين بعض الوقت إلى غابة ولماذا رفعت نداء مشاعرك فوق احتراقي؟!

كانت الأسئلة تكبر في أمسياته، بينما إجابتها تسترخي.

وفي رحلته هذه إليها، بدعوة منها: أنهى كل أسئلته، وقال لها أمام الشمعة التي تحترق في المسافة بينهما على طاولة المطعم:

* لا أستطيع أن أجعلك أسطورة فبعد أن بذَرْت بيادري حلماً، أَغارَ عليها جرادُك!!

وكأنه بسؤاله هذا كان يبكي حزناً، والخوف يعصف بلحظات صدقه.

سألها ثانية: لماذا يتحول صدق الإحساس إلى أحزان؟!

حتى في الفرح: كان الحزن يسكن جوارحهما وكانت لحظات الضوء المنبعث من القلب: وجهها الذي يشكّل هلالاً في سمائه حتى غمره الخسوف!

* فقال لها ثالثاً، وهي صامتة تحدق في وجهه وهو يتكلم: أنت أنثى حرة، ومهرة جامحة، لكنك تكرهين أن تضلّي الطريق!!

كان قلبه يتوهج في حضورها أمامه حتى انسابت من هذا القلب الكلمات/ قطرات ناره وحتى تحولت كلماته إليها: في عينيه دموعاً وشعر أنها صرخات الأشواق إليها، حتى وهي تصرُّ أن تنفيه بعيداً عن قلبها، وأسرارها، وعمق بحارها!

* * *

* كأنه الآن يشعر بكل برود النفس البائسة بكل اللا مبالاة بشفاء روحه من أدوائها!!

بكل الهدوء الآن، وهو مسترخ في غرفته الخاصة بمنزله لا يريد أن يفكر فيها لا يرغب أن يشتاق إليها لا يرتقب هاتفها كأيام زمان!

ابتسم في مصارحته هذه مع نفسه، وقال:

ـ متى يأتي اليوم الذي أكتشف فيه أنني نسيت رقم هاتف «عالية»؟!

من هذه الاستراحة التي لها رسوم على الضباب مطبوعة ومن تأمل بواعث الشوق عندما تُغري الوجدان التائه في صحراء النوى أو الصدود: كانت أنفاس «علاء» تتكىء على هذه الأمسيات التي يرحل فيها القمر إلى مدن الانتظار؟!

يضحك «علاء»: ماذا يتنظر القمر الآن وماذا ينتظر هو؟!

لا شيء يدور القمر دورته المعتادة لوظيفة محددة خلقه الله لها ويعود «علاء» إلى القمر وحدة، ليدور دورته المعتادة هو الآخر: ينام، يستيقظ في الصباح، يعمل!

أجود وقفة منحوتة من زمانه هذا: ما كانت على الماء مغروسة ولا تتطوح!

لقد نادى على هذه الاستراحة لقد تعبت منك!

ـ أيتها الاستراحة لقد تعبت منك!

كالسفينة المتعبة كان «علاء» يتابع مع محطة الـ CNN، ويتأمل مكتبته ينظر إليها كالطفل اليتيم أمام ثياب أبيه الراحل!

ويزدرد هذا الحزن ذلك لأن هذه الكتب المكدسة لن يقرأها أحد بعده فأولاده ـ بالتأكيد من جيل الحاسوب أو الكمبيوتر، والقنوات الفضائية، والأغاني التي صارت تُغنَّى بالسيقان!

تخيل هذه المكتبة التي أضاع عمره في تكوينها أنها ستتحول إلى مجرد ديكور عتيق في صدر الصالون، أو في طرف الدار وتصور أنه حتى لو فكر أولاده في التخلص منها، فلن يجدوا من يشتريها منهم، إلا أن يتبرعوا بها لمكتبة الجامعة، إذ لا مكتبة عامة في المدينة!!

لقد خالجه هذا الشعور وهو يشاهد خريطة العالم: تنكمش وتضيق، وتذوب حدود الدول، وتسقط مثل كتل ثلجية داخل هذه الشاشة الفضية التي أصبحت مصدر الفكر، والثقافة، والمعرفة لجيل هذا العصر، الذي يستقي منها الطفل والشاب: ثقافته المرئية والمسموعة بعد أن استطاع هذا الاختراع العجيب أن يُقلص من المساحة الزمنية التي كانت تعطي الفرصة لكل واحد، للقراءة والجلوس إلى الكتاب فجاءت هذه القنوات الفضائية لتأكل كل المساحة، وما يكاد الطفل أو الشاب أو الشابة ينتهي من أداء واجباته المدرسية أو الجامعية حتى يتكوّموا جميعاً أمام هذه الشاشة التي أضحت هي: فكر الجيل الجديد، وثقافته، وفنونه، وتقاليعه!

تمطّى «علاء» وهو يتثاءب وأقفل جهاز التلفاز، بعد أن قام بمسح سريع لكل القنوات الفضائية، وكأنه يحادث نفسه:

ـ كلها تشبه بعضها والأفلام المصرية القديمة في كل قناة، وأحياناً تعرض مرتين!

* * *

* لم يحاول «علاء» طوال هذا الأسبوع الذي انصرم بعد عودته من عند «عالية» أن يفتح لها تليفوناً ويحادثها بل فضَّل أن يجلد عواطفه، ويُدرّب نفسه على برود النفس اليائسة.

لكنَّ «عالية» فاجأته بعد مرور عشرة أيام على وداعها له، برسالة حميمة، وجد «علاء» أنها تختلف تماماً، وتُذكِّره برسائلها القديمة قبل لقاء باريس اليتيم.

فضَّ رسالتها بلهفة وقرأ:

❊ (عزيزي / علاء:

وحشتني بجد، ولو ما صدّقت إنت حر، لأن هذه المرة: صحيح وبجد وحشتني!

أقول لك اعترافْ وإلاّ بعدين يصيبك الغرور؟!

ولو برضه حاقول.

عندما علمت بمرضك قبل أن أطلب منك الحضور إلى القاهرة ـ بعد الشر عليك ـ حسِّيت بخوف شديد إني أفقدك، وحسِّيت كمان إن وجودك في حياتي وفي الدنيا: مهم جداً!

واكتشفت أيضاً: أنك أكرم وأنبل من عرفت وأنه خسارة بصحيح أن أفقدك أو تموت، خصوصاً إنه لم يبق في الدنيا ناس طيبين كثير!

حتسيبني ليه يا علاء؟!

إحذر أن تتركني بعدين أخاصمك.

من أجلي علشان خاطري تأخذ بالك من صحتك أصل الحكاية وما فيها: إني أنا أفهمك جيداً، وأنت تفهمني جيداً.. وأنت وأنا «قاعدين، لما نشوف آخرتها إيه» ويا رب هه السنة يكون فيها ١٩٩٢ وردة حب علشانك)!

❊ ❊ ❊

❊ مرت أربعة أيام وهو يعيد قراءة رسالة «عالية» إليه أكثر من مرة في اليوم حتى تمالك جأشه، وأمسك بالقلم، وكتب لها:

❊ (ياه ـ. . أخيراً يا أغلى «عالية»؟!

هذه الورقة الصغيرة / الكبيرة التي اخترت أن تكتبي لي رسالتك عليها،

وقد رُسم في طرفها منطاد سافر بي إلى قلبك بكلمته التي كُتبت بجانبه: (go for it) هي التي بقيتُ أنتظرها!

حقاً ـ يا أغلى «عالية» أنا أحببتك كالذي لم يُحب إمرأة من قبل، ولن يجد إمرأة في روعتها من بعد بعد أن وجدتك أمامي هذه المرأة / الحلم التي كنت أحيا معها في الخيال والوجدان أحلم بانبثاقها في عمري كالنور والفجر.

أحتاج الآن لمن (يقرصني) علشان أصدّق أنني صاحي، ولا أحلم!!!

حقاً ـ با أغلى عالية ـ أنا الآن (مغرور) جداً لكني لست مغروراً عليك بل مغرور بك، وبخوفك عليّ، وبقيمتي لديك.

الآن أعدك أن آخذ بالي من صحتي / علشانك أنت وحدك.

حتى لو لم يبق في الدنيا ناس كويسين كثير، يكفيني أنك أنت كل الناس: الأصلاء، القيمة، التي أخاف عليها من الهواء الطائر كما يقولون.

لن تكوني وحدك بعد الآن ستجدينني مارد القمقم في الحكاية، أو الأسطورة!!

تصدَّقي؟!! عرفتُ منذ خصامك الضعيف لي: أنه صار من الصعب علينا معاً أن ننفصل، أو أن لا نلتقي، أو أن تتقطَّع بنا الأسباب!

تعرفي ليه؟!

لأن ما ربط بيننا قد شكّل (حياةً) حلُمْنا بها: أمتع، وأعظم، وأعمق من (زوجين) يتشاجران كل لحظة تحت سقف واحد!

كما قلت: ربما كان سبب التشاجر الدائم أن كل واحد فينا قد فهم الآخر من أقصاه إلى أقصاه!!

كنا عندما التقينا نكاد ننطق بكلمة واحدة معاً ونضحك لهذا التوافق الذي عذّبنا كثيراً، وكأنك بمجرد اكتشافك له فينا قررت الركض بعيداً، حتى لا يحدث الالتحام، أو التوحُّد الكبير لهذا التوافق!

هناك في الغيب دلائل أخرى ستكتشف لتشير إلى تأكيد هذا التوافق الذي نُسمّيه الآن أنا فاهمك، وأنتِ فاهماني (وادي إحنا قاعدين)!

سأنتظرك دائماً عند بوّابتنا معاً!

إن نسياني ضعيف في قوة حضورك بداخلي... وقد جعلتُكِ: طفولتي، ونضجي، وأجمل لحظات فرحي.

خفقي يبدأ من أبعاد جنونك من أجلك، لَكَزْت خاصرة الدروب ركضتُ بك مسافات الشوق والحلم شمخت في لفتاتك نحو الوعي وملأت المساحات بغبارك، وبخطواتك أنت مُهرة المستحيل، وسلطانة عمري فما قيمة الحياة عندما تخلو ممن نحب)؟!

* * *

ـ ٢ ـ

* تمنى «علاء» لو أنه فقد ذاكرته ليرتاح من «عالية» والتفكير بها، وهو يغني لثومه عنها: «أتْقَلّب على جمر النار»!

تعتاده الذكريات، ووجه «عالية» يتماوج في خياله يريد أن يتذكر المزيد عنها، ومعها، بل هو ينساب خلف التخيُّل، والرؤى، والحلم الجميل الذي أفسدته «عالية» له، وبقي هو يرسمه في بقظة شجونه، وفي نعاس تعبه!

ولكن ترى من أين يبدأ مع «عالية» من جديد وهي التي أنهت الحب، وطالبت ببدء االصداقة؟!

هل يبدأ معها من خاطره: مراودة فقدان الذاكرة؟!

أم يبدأ معها من صدمة الذاكرة لتحتدَّ انتباهتها، فتنفلش بسبب هذه الصدمة: كل الرؤى، والتخيل، والحلم الجميل؟!

«علاء» الآن ـ في قسوة قرار السلطانة ـ يحاول أن يعبر بالشجون كل تضاريس الحياة الجبلية الوعرة التي رمتْه فيها حتى يصل إلى سهول النفس التي لا بد أن تُعشب وتُزهر حتى لو ذهبت «عالية» للأبد!!

حتى الآن ما حدث في رحلة القاهرة الأخيرة، يبدو مؤرجحاً في فهمه، موغلاً في الضباب، والغموض، والأسئلة:

* لماذا طلبت منه أن يُلحد عشقه لها إلى الأبد، ويزرع الصداقة بدلاً عنه؟!

* لماذا أنهت إليه خبر رحلتها التي سمّتها «قصيرة» إلى لندن، وذلك قبل أن تودِّعه بلحظات؟!

* ما هي خلفية هذه الرحلة، ومن ستكون برفقته؟!

كل الرحلات التي قامت بها، منذ عرفها، كانت «عالية» تحيطها بسرية تامة حتى المكان الذي تذهب إليه تضنُّ على «علاء» بمعرفته!

لكنه كان يحلم ان يترافقا معاً في رحلة إلى بلاد الضباب ـ وحدهما ـ ليتّسع الحوار هناك بجانب حافة تطل على «التايمز». ثم يسقط الكلام مختلطاً بآثار القوارب!

لكنها رفضته رفضت أن يترافقا إلى هناك، كأنها تحرّضه بالفعل على إغراق ذاكرته عنها في مياه نهر النيل / نهرها، أو نهر التايمز!

لقد أعطى «عالية» الكثير من تفاؤل حلمه بها، وقابلته دائماً بإفساد حلمه فيها حتى جعلته ينظر إلى الدنيا بكل ما فيها، وقد صارت هي كل دنياه ولا ينظر إليها بشيء واحد فيها، ولا بالإنسان: مفقود من نفسه!

لذلك فإن النظرة التي خلّفها كلام «عالية» وقرارها في نفسه تبدو نظرة كرنفالية من حيث «واقعيتها!» وتبدو ـ أيضاً ـ منطقية من حيث أن انطلاقها قد جاء من شيء واحد لا يريد أن يعرفه «علاء»!

* * *

* أرهقته الأسئلة، والتفكير في فقدان الذاكرة فأراد أن ينطلق من داخل جدران غرفته الخاصة إلى النسمة الجميلة قبل أن تعتقلها رطوبة «جدة».

ـ إلى أين يذهب؟!

طاف هذا السؤال برأسه مع حيرته. فهناك (مجالس) البلوت، ومجالس الأنس والترفيه، ومجالس (الحش) في خلق الله، ومجالس التنظير في كل القضايا والموضوعات حتى يهجم التثاؤب على المتكلمين، فينتشرون بعد منتصف الليل بساعات، كل إلى سرير نومه مباشرة!!

لا بأس إختار مجلساً من مجالس التنظير في منزل صديقه «عماد» يضم ما يمكن أن يُطلق عليه تعريف: النخبة المثقفة، من كُتّاب، وصحافيين، وأكاديميين، ورجال أعمال.

كان دافعه للخروج في ذلك المساء: أن يُصغي بلا كلام وهو قليل الكلام.

وحين دخوله إلى المجلس كانت أصوات الحضور تعلو بالنقاش، ومحور ما يتكلمون عنه: القنوات الفضائية العربية التي أصبحت كالفرن فهي تريد طعاماً كل لحظة باعتبار بثّها ليلاً ونهاراً، ولذلك لا تهم جودة ما يُعرض والمهم: عدد الساعات.

وطرح أحد المتحاورين هذا السؤال:

* هل القنوات الفضائية لصالح الفن، أم هي ضده؟!

السؤال وجيه، والإجابة عليه تحتاج إلى «وجاهة» أكثر وانبرى لها أو بها عضو آخر في الجلسة، وقال:

ـ في البداية: من الضروري أن يحدث نوع من الهبوط في مستوى الإنتاج، لكنه ـ بالضرورة ـ سوف يرتفع، لأن هذه القنوات لا بد أن تغطي نفقاتها وتحقق ربحاً، وهذا الهدف لن يتحقق إلا من خلال الإعلانات، وصاحب الإعلان لا يعلن إلا في القناة التي تجذب المشاهد أكثر، وبالتالي فإن المشاهد لن يهتم بقناة، ما لم تكن جذّابة، وما لم تقدم له فناً جيداً لهذا لا بد من رفع جودة الإنتاج حتى يظل المشاهد مرتبطاً بهذه القناة.

وتطور الحوار فارتفع صوت شخص ثالث، يقول:

ـ إن شركات إنتاج التلفاز، أقصد شركات تصنيعه سوف تتطور خبرتها حتى تستغني عن «الدش»، ويصبح تلفازك العادي قادراً على جعلك تشاهد العالم كله وساعتها لن يكون لهذا الكلام فائدة، لأننا لن نحتاجه، ولكن إلى أن يصنعوا هذا الجهاز الجديد، أو يسمحون بتصديره، سيرتاح من ليس لديه «دش» من هيصة القنوات الفضائية!

* اعتلى صوت رابع فوق كل الأصوات إلى درجة الطنين وقال:

ـ من فضلكم وقفة نظام، وحَّدوا المجلس، واسمعوني دقائق ألاّ تعتقدون أن الكتاب فقد دوره الآن في تفشي هذه القنوات الفضائية، ومن قبلها: كرة القدم، وكاد أن يختفي من حياة الجيل الحالي، وتراجع دوره؟!

* أجابه صوت آخر: نعم نعم، إلى درجة أن الأجيال القادمة ـ يقال ـ أنها قد لا تحتاج إلى الدواة والمحبرة ليسقوا بها عطش الورق، وأنه لا مكان للكتاب في خزائن هذا الجيل فالثقافة القادمة هي: الرقص الأسباني الذي يستحيل فيه الأصبع إلى فم!!

تعالت الضحكات، وتمايلت الرؤوس، وتقاربت بعضها إلى بعض في همس خفي.

ـ عاد الصوت المحاور يقول: إن الفكر القادم سيكون أكثر الكائنات العصرية قدرة على السفر، والرحيل، والتجول بين القارات وأنا لست ضد هذا الرأي، ولكني متحمّس له أيضاً بل أنا ضد التسرع في إصدار الأحكام العامة، إلاّ أنني لا زلت أتخيل الثقافة المرئية كأفلام رعاة البقر التي لا تتجاوز الإثارة فيها سطح الجلد. ورأيي: أن قرار الزمان في أن يستريح الكتاب هولا قرار ليس عادلاً، وأن تقاعد الكلمة المكتوبة لأنها أصيبت بلين العظام هو تقاعد مبكر للشباب في الثلاثينات.

* عاد الصوت الآخر لمقاطعته. كأنه يُكمل له، فقال: نعم نعم أوافقك، وما أعتقده وأتصوره: ان الكلمة المكتوبة فقدت غريزة المشي، وموقفنا من الكلمة المكتوبة التي تمشي هو موقفنا من الحياة نفسها فجيل الأطعمة المحفوظة والوجبات السريعة اليوم، هو جيل يريد أن يلتهم الكلمة بنفس السرعة التي يلتهم بها الـ «بيك ماك»، والطريقة التي يسمع فيها إلى عمرو دياب!

ـ واصل الصوت المحاور حديثه مستطرداً: لهذا فلا بد أن يُكتب الكتاب بلغة تتناسب وجيل هذا العصر الذي يقرأ، ويستمع للأغاني، ويأكل، ويحب وهو واقف (!!)

* تدخل صاحب المجلس «عماد» في الحوار، وكأنه يحسم القضية، أو ينهي الحوار في هذا الموضوع، فقال:

ـ لقد أثبت تاريخ الفكر الأدبي: أن أروع آثار الفكر التي عرفها الإنسان

هي: الكلمة المكتوبة، وأن الكلمة البسيطة القريبة من القلب والناس هي: الكلمة التي يعيشون بها، والتي تدق أبواب بيوتهم هو الذي يصنع دائماً قوالبه، وليست القوالب هي التي تصنع الإنسان وعلينا أن نسأل الآن: كيف نكتب لهذا الجيل؟! هذا هو الإبداع المنتظر!

وعاد اللجج واختلاط الأصوات، والآذان التي تقترب من الشفاه مواصلة للهمس الخفي وعاد صاحب المجلس «عماد» بصوته العالي يقول:

ـ من فضلكم وحِّدوا المجلس.

وكان يجلس في طرف المجلس رجل عجوز يتكىء على عكّازه رفع صوته أخيراً وهو يهمُّ بالوقوف ليخرج، فقال:

ـ تحدَّثوا عن الكورة/ كرة القدم، أكثر واقعية لواقع هذا الجيل لقد أوصى بعض الموظفين أن تقام مباريات كرة القدم في يوم الخميس، أو يوم الجمعة وليس أول الأسبوع أو منتصفه، لأن المباراة حين تقام في يوم غير الجمعة، تكون فرصة للزوغان من الشغل!

* قهقه «عماد» بصوته العالي، وقال ساخراً: لا فُضَّ فوك يا عم ناصر هذه هي الموضوعات الهامة التي تحتاج منّا إلى نقاش، ورأي!!

ـ قال شاب صحافي: عودة إلى التلفاز، والقنوات الفضائية لو كنت ممن يصنعون خريطة الأفلام السينمائية في سهرة التلفاز، لاخترت الأفلام الغنائية أو المرحة أو الكوميدية، حتى لا ينام الناس وهم في نكد. كانت ملاحظة الأستاذ «حسن» جيدة عن برامج العيد فالناس يضحون في العيد بالخرفان، والتلفاز ضحّى بالمشاهدين في العيد!!

* * *

❊ تسلل «علاء» من المجلس تاركاً وراءه الأصوات العالية، والهمس الخفي، ودخان «الجراك» والسجائر، والبايب وركض إلى عربته، يحلم بسرير نومه بعد هذه السهرة الدسمة!

❊ ❊ ❊

ـ ٣ ـ

* كان «علاء» يتطلع إلى الرسالة التي بعثت بها «عالية» إليه، وعليها رسم المنطاد ويظن أنها تحمل وراء سطورها ملامح ليلة جديدة، يبدأ منها انتظاره لقدوم «عالية» إليه: زمن فرح.

يتمنى الآن لو يمطرها بأسئلة عشقه لها بعد لأن عاد وجهها / مرآته وفجره:

ـ تُرى مَنْ يسكن أعماق قلبك اليوم؟!

أم أنك أقفلت هذا القلب بعد تجربة حبك الأولى التي صارعت فيها وحاربت حتى حصلت على حبيبك، واقترنت به، ثم اختلفتما، وحدث الطلاق بينك وبينه، وبينك وبين الحب؟!

صار قلبك ـ يا عالية ـ موجوعاً بالفراق الدائم.

وكنت ترفعين هذا القالب أبعد من متناول النظرة، والخفية كأنك عشت حياتك بعد تجربة الحب الفاشلة، وتعيشينها الآن: محطات تعتقدين فيها أنك تنتقمين من كل رجل تشعرين بعشقه لك، وأنت ـ في واقعك ـ تنتقمين من نفسك من نقائك من أحلامك من أمان وجدانك!

فهل تسمع «عالية» الأن هذه الأسئلة، وهذه الحصيلة التي خرج بها «علاء» من عشقه لها؟!

لعلها تعرف ما تفعله جيداً، وتصرُّ عليه لكنها أيضاً تحس في قرارة نفسها بشعور الضياع، وتفاهة الأيام التي تعيشها، وسخافة الكلام الذي يلوكه من حولها: أصدقاء وزملاء يُصنّفون من المثقفين!

عاد «علاء» إلى أسئلته هذه المرة عنها وعنه معاً:

ترى لمن تصرخ خفقاتنا المترددة في أصداء الشوق والمتردِّية في الجحود؟!

قام إلى الهاتف يطلبها، ويسأل عن وصول رسالته إليها.

ردَّت عليه الخادمة بخبر سفر «عالية» إلى لندن قبل يومين.

أعاد سماعة الهاتف لتبدأ أسئلة أخرى في رأسه عن خلفيات رحلتها هذه التي أصرّت أن تضرب حولها كل هذه السرية العجيبة.

يحس أن شكوكه أخذت تتراكم في رأسه، وحيرته تفيض من جوانحه.

ـ لمذا يُعذِّب المحبوب مَنْ يحبه يالشك؟

إستبد الشك بنفس «علاء» كأنَّ هذا الشك تحول إلى سكين تمزق كل شيء في داخله وتذكّر الرسام الفرنسي «بول سيزان» الذي كان يعاني من الشك في حبيبته التي خانته، ثم سقط في اليأس وعندما يستبد به الشك واليأس، يبادر إلى لوحاته التي قضى الساعات والأيام الطويلة في رسمها وإبداعها فيمزقها، أو يقذف بها من النافذة!

فماذا يمزّق «علاء»، ويقذف به من النافذة: عشقه لـ «عالية»، أم يقذف بها، أم وفاءه لها منذ عَشِقها؟!

كان الرسام «سيزان» يمضي أياماً متتالية في الحقول يرسم لوحة جميلة، ثم يجمع أدواته عند الغروب وينصرف تاركاً اللوحة التي رسمها وراءه، لأنها لا تستحق أن يتجشم عناء حملها في رحلة العودة!

فهل أصبحت «عالية» في شعور «علاء» نحوها: مجرد لوحة جميلة.. ابتدعها من خياله العاشق لها، وأضاف العشق على ملامحها كل هذه الفنون التي كان يراها في ملامح ومميزات «عالية» بشعور العاشق لها؟!

ولكن ماذا قصدت «عالية» من وراء دعوة «علاء» للحضور إليها في القاهرة بذلك الإلحاح الشديد إليه، حتى ركض إليها؟!

هل أرادت أن تُحيِّد قلبه وعاطفته نحوها، ورصدهما في إطار الصداقة التي يمكن أن تكون بين رجل ورجل، وامرأة وامرأة؟!

كأنها في ذلك اللقاء الأخير أرادت أن تشعره بأنها: غير قادرة على ضم احتياجات كل منهما للآخر عاطفياً وعليهما أن يتواصلا صديقين، وتستمر دانتيلا العلاقة، لتتحول إلى علاقة باقية في العقل!

هكذا أرغمت «عالية» الرجل الذي عشقها حتى الذوب: «علاء» ليرضى بقدره معها، ويبتلع شفرات خيبة الأمل القاتلة، ويتكوّم ـ نتيجة هذا القرار ـ على نفسه، مثل: قط صغير داست على ذيله دبَّابة ثقيلة!

كان قرار «عالية» بالنسبة له يُشكّل: تساقط حروفه من على شجرة الكلام وبذلك حققت «عالية» واقعيتها الجارحة له، وطوى «علاء» خيمة رومانسيته

وألقاها في نهر النيل ويكتشف أن قانون الحياة الذي يلزم الناس بقواعده أصبح مغرقاً في المادية، والمصالح الذاتية المحضة!

❊ ❊ ❊

❊ بعد ظهر اليوم التالي على اتصال «علاء» بمنزل «عالية» في القاهرة جاءه عبر الهاتف صوت «حامد» صديقه مطفأً، أو أن «حامد» قصد أن يصبغ صوته بتلك النبرة:

ـ أهلاً حامد في أي مكان أنت داخل الكرة الأرضية يا ابن بطوطة؟!

❊ أهلاً علاء أحادثك من لندن، ولك عندي خبر إنما تدفع كام في الأول؟!

ـ من فضلك ما هو الخبر؟!

❊ عاليتك هنا في لندن رأيتها البارحة.

ـ أعرف أخبرتني بأسلوب الاستئذان الراقي.

❊ ولكن هل تعرف مَنْ تُصاحب في لندن؟!

ـ ماذا تقصد؟! هيَّا تكلم.

❊ شاهدتهما ليلة البارحة هي، و.. رجل الأعمال المعروف لدينا في بلدنا.

ـ أوه.. لماذا تصمت، مَنْ هو أرجوك؟!

❊ الوجيه «محمد صالح» وهو رجل ما زال وسيماً رغم نضج عمره وكبره، ويجيد الدفاع عن قوة شخصيته، ورجولته أمام «عاليتك».

ـ إسمع هل تمزح هل أنت متأكد؟!

* علمت أنهما يسكنان معاً في فندق (هيلتون / بارك لين) في جناح فخيم يا ولد إنت، يا فقايري!

ـ تظن أنها تحبه؟!!

* أظن أو لا أظن فالرجل الذي دعا «عاليتك» لقضاء أسبوع معه في لندن: لن يكون عاشقاً لها، ولا رومانسياً مهبولاً مثلك لأن رومانسيتك يا أهبل لن تعود عليها بأية فائدة، سوى الكلام المنمق الذي تكتبه لها، و ربما أخرجت لسانها لكلماتك بعد قراءتها!

هذا الرجل «يا علاء»: واقعي يعجبه دفء الأنثى، فأراد أن يمتلكها بعض الوقت بس، لا أكثر!!

ـ تِعرف يا «حامد» ما الذي قالته لي آخر مرة رأيتها فيها بالقاهرة قبل نصف شهر؟! طلبت مني أن نبقى أصدقاء، لأنها اختارت أن تستكين إلى جوار أهلها، ومواصلة بناء طموحاتها وهما الجانبين الوحيدين اللذين لم يخذلا توقعاتها أبداً وهما عكس تجاربها العاطفية!

* لكنها ـ فيما رأيت ـ تنتقي هذه التجارب العاطفية الدسمة!

ـ قالت لي هناك، وصدَّقتها: إنها تبحث عن بلسم الشفاء من طعنات القلب التي سبَّبها لها مَن أحبتهم من رجال كانت أنانيتهم وغروهم، وطفولتهم: سبباً في شقاء قلبها.

* قاطعه «حامد»: إسمع يا عمي أنا باكلمك من لندن، ما هو من الشرفية في جدة، بعدين الفاتورة تتقل!!. المهم: أحسن الله عزاءكم في فقيدة عشقكم، مع السلامة!

❊ مسكين هذا الـ «علاء» إنه في معاناة أليمة لا يحسده عليها حتى الكارهون له!

وضع سماعة الهاتف في حالة فقدان لمشاعره، ولأفكاره الذهول يُغرقه في موجه وأصداء صوت «عالية» من حواراتهما في القاهرة أخيراً، ما زالت تتواصل في سمعه، وهي تقول:

ـ الأيام بتجاربها «يا علاء»، والسنين بخبراتها تجعلنا معاً نصل إلى درجة من النضج النفسي والعاطفي يجمعنا في شكل جديد، ومتسع من الحب، يحوي كل معاني الحنان والفهم، دون استشارة ولا استحواذ!

إذن لن تكون علاقة «عالية» برجل الأعمال «محمد صالح» هذا: ضمن الاستحواذ لا منه عليها، ولا منها عليه فكلاهما: يهدهد رغبته ويدلّعها، و.. بعد أن يكون كل واحد منهما قد أعطى للآخر وأخذ منه، و بعد ذلك: كل في طريق!

❊ ❊ ❊

ـ ٤ ـ

* توهج ألم «علاء» حين برقت دمعة / جمرة في عينيه.

أخذ القلم وبدأ يخط على الورق: بكاءه، ولوعته، وفجيعته.

هذه المرة هو يكتب لنفسه، ولا يكتب لـ «عالية» بل لن يكتب لها بعد الآن!

دموعه تساقطت كلمات على الورق وهو يخاطب عشقه:

* ضُمِّي إلى جحيمك من أحشائيَ: الظمأ
يا زهرة العشق أنثى أنت ما فتئت
تبعث الوهم في أصداء أفراحي
حتى إذا استغرقت في عينيك
كان «الوهم»: يرويني!
ما أنت إلاّ كذبتي انتقلت
عَبْر الصبابات في حزني، وفي وصَبي
وأنا في الريح خلفك:
نورسٌ، جوالٌ مضني، ومغترب!

* ياه كم يصبح وقْعَها مفزعاً، عندما تتهاوى الأشياء «العالية»!

فهل تتحوّل «عالية» في حياة «علاء» إلى: شيء.. مجرد شيء، دخل حياته، وخلَّف فيها الخنادق، والحُفَر، والتشققات؟!

كانت «عالية» بالنسبة له: أغلى من نزيف ضلوعه المسكونة بها فأصبح النزيف الآن: أغلى بكثير من «عالية» لأنه حصاده منها!

كانت «عالية»: خطوة الحلم إلى تجسيد العطاء، وشموسها تمتد نهارات في رجاء عشقه لها فأفسدت «عالية» هذا الحلم، ومنحت «علاء» عطاء أخرس حتى غارت شموس نهاراته من وراء شفق «عالية» القاني، المضرّج بدماء «علاء»!!

يمسح «علاء» دموعه فجأة... ويعتاده الصهيل كفرس أصيل، ملتاع بغربة الدروب، يطوِّف حول الأنهار... حتى أطلقته «عالية» الآن في مسالك الغضب... حتى أوان «اليُتْم» للقلب!

يتصور «عالية» الآن، وهي منتشية في حضن الرجل الذي دعاها إلى لندن في نزوة الأخذ والعطاء المتبادل بينهما.

ها هي «عالية» من جديد... يأخذها السفر إلى كرنفالات ما سمَّته لـ «علاء»: النضج العاطفي والنفسي... وهو لا أكثر من «علاقة» عابرة كمحطة القطار السريع!

كأنه يراها الآن، وهي خارجة مع الرجل / العلاقة: يدها في يده... تطوف عيناها بتلك الوجوه العابرة، ولا تقدر نظرتها أن تتوقف أمام بسمة، أو نظرة دافئة بالحب... يلفها الضباب في وشاحه، وتشعر الرجل الذي تأبّطها بأنها: سعيدة جداً!

و«علاء» الآن: تنغرس خطواته في رمل الصحراء تدقُّه الوحدة، إنتظاراً لشفاء عاجل من «عالية».

في صمته هذا ووحدته ترتد نظراته من الفراغ والأصداء... حتى تغيب بسمته ما بين الشفق، ووحشة الأمسيات!

تحرقه شمس الصحراء اللاهبة... وهو: حصان مسافات!

ـ يهمس كالمجنون الذي يخاطب نفسه: أنت يا «عالية»... هل تعرفين القهر؟!... أنت هذا القهر الذي دفع قلبي الآن للتمرد على إمتلاكك له بعشقه لك!

هل تعرفين السخرية؟!... أنت التي حوّلتِ (العاطفة) النقية إلى: سخرية منك، وفيك.

في سمع «علاء» الآن: بقايا كلمات... انتحرت في بداية مساء مختلطة بصوت صديقه «حامد» والخبر الذي فجّره... مثلما ولدت في بداية مساء أمام صديقه «حامد» في باريس: عشقاً، وولهاً لـ «عالية»!

تتشكل هذه البقايا الآن من التجربة القاسية مع «عالية»... من اكتشاف، ووله... من فراغ، ولهو... من قيمة وبخس!

إنها الآن لا أكثر من «بقايا»... يتعثر فيها صفاء النفس، لكنها ستذوب بعد أيام كأنها العدم... كأنها الحروف التي لا نقاط فوقها... كأنها الكلمات المجموعة من قصاصات جرائد... قذف بها جميعاً في السلة، ولا بد له أن يكتب سطراً جديداً نقياً!

* * *

* عاد «علاء» يهاجس نفسه... مشكّكاً في خبر صديقه «حامد»!

ألآ يكون «حامد» مغرضاً... خاصة وأنه في خبر من وراء ظهر صديقه «علاء» أن يتقرب من «عالية»... وتزأبقت معه حتى يئس منها؟!

صمم أن يتأكد من خبر صديقه حتى لا يظلم حبيبته.

فجأة... قرر السفر إلى لندن في فجر الغد، وحزم حقيبته ليصعد إلى المطار بعد منتصف الليل.

وفي الطائرة... حاول أن ينام، حتى يصل إلى لندن مستريحاً جسدياً ونفسياً.

لكنَّ مقعد الطائرة لا يريح الجسد للنائم فيه أكثر من ست ساعات... ونفسيته محبطة، يشدُّه إحباط فيها إلى هذا المعنى الذي انكسر، لا... بل تحطم لو صحَّت رواية صديقه عن سلطانته.

وبقي في مقعد الطائرة... مغمضاً عينيه، يسترجع شريط المعاناة الطويل في عشقه لـ «عالية»... في عينيه ألف هاجس، وجواب واحد من الرمل.

يطلُّ عليه زمن الصمت الثرثار... وتنحني كل الأشجار تضامناً معه، في أصداء تلك الترنيمة القديمة التي كان ينادي بها على «عالية»: يا سلطانة عمري!

عاجز هو ـ الآن، أن يعطي حتى ما تريده نفسه منه.

إنه لا يحب رؤية «العنقود» ساقطاً... وقد تناثرت حبّاته على الأرض... فهو يحرص على: أن يكون جَنْي سعادة الحياة في لحظة «وقوف» دائماً.

ربما أن ما قتلهما معاً ـ عالية وعلاء ـ هو: الخوف في لحظة «وقوف» دائماً.

إنه لا يطيق أن يطعن جوهر «عالية». . . لكنه يفتش بيأس ظاهر عن ذلك الجوهر الذي خيّل إليه إنه قد اندثر في: غرور «عالية»، وصلفها، وعبثها، و. . . إهانتها لمشاعره!

كأنَّ «عالية» قد مارست بصدودها عنه، وباستعلائها الأحياني: السادية التي قتلت بها النداء ومنها.

يتذكّر ـ في عرض شريط، ذلك الموقف. . . حين خرجا من المطعم والليل يشارف على منتصفه، وكان القمر يتوسط ليل السماء. . . فقال لها:

* إنني معك. . . أقف أمامك وأنت جدول ماء نقي وصافٍ، وليس شرطاً أن انكفىء على الجدول لأرتوي. . . لكني أتوق أن لا يجف هذا الجدول من عطائه لارتوائي.

فهل جفّ جدول الماء. . . وهل بتنا نتأمل الجفاف وحده؟!

ـ قالت: حتى أنا التي تصفني بالجدول. . . قد جفّ نبعي مما لاقيت.

* قال: النبع لا يجف. . . إلاّ من كثرة الاغتراف منه.

ـ قالت: ماذا تقصد؟!

* قال: أقصد مغازلتك بالطبع فالجدول يغري العطاشى أن ينهلو منه.

* * *

* طلبت المضيفة من الركّاب ربط الأحزمة إستعداداً للهبوط في مطار لندن.

ولفحه الهواء البارد مع الخطوة الأولى من بوابة المطار إلى الشارع، ليستقل سيارة الأجرة إلى فندق ينام فيه أولاً بعد تعب الرحلة.

من هاتف غرفته بالفندق، إتصل بصديقه «حامد». . . واستمر رنين الهاتف دون إجابة.

واستيقظ من نومه بعد الظهر، وقد شارفت الساعة على السادسة، وكان جائعاً جداً. . . . طلب غذاءه، وهاتف الفندق الذي قال له «حامد» أن حبيبة قلبه تسكنه مع الرجل الذي اختارته: محطة، أو أرادت أن تتلمس في كنفه شيئاً تطلبه أو ينقصها.

سأل استعلامات الفندق عن اسمها، وعرف رقم غرفتها، وطلبها.

سمع صوتها متكسراً في الهاتف كأنها تصحو من النوم: آلو. . . ألو.

أقفل السماعة. . . وسارع إلى الاستمتاع بحمّام ينعشه. . . وسد صراخ جوعه. . . وارتدى ملابسه، متجهاً إلى الشارع. . . في طريقه إلى الفندق الذي يضم السلطانة، و. . . . امبراطورها.

واستطاع أن يعثر على زاوية استراتيجية في مدخل الفندق، تمركز فيها وغطى وجهه بالصحيفة التي أخذها معه. . . يتمنى الآن أن تقف أمامه لدقائق قصيرة، يحدثها فيها عن: «همَّ» الحكايات التي اغتالت «عالية» بدايتها. . . بينما اكتفت هي باللذة العابرة، ونسفت سهرها في عينيه.

يريد أن يحدثها أيضاً عن: موته في زفرة إصراره على حياتها. . . وموته لا يمكن أن يكون إلاّ: وحشية مجده عندما لا تكون!

❊ ❊ ❊

❊ ها هي. . . . . لا، ها هما.

لم يرها تبتسم معه بهذا الإشراق. . . كأنها فتاة مراهقة في ذراع رجل فتّاك مفتونة به.

طويل، عريض. . . يضع أشياء بين شفتيه ـ سيجاراً ـ عنوان الوجاهة!

وتبدو هي بجانبه: لا شيء.

وخيّل إليه أنه كان يرى كلمة مكتوبة على ظهر «عالية» أثناء خروجهما من بوابة الفندق. . . هي: النهاية!

❊ ❊ ❊

ـ ٥ ـ

* يطلّ الآن زمن الليالي الحزينة من حنايا الضلوع.

يفصله: الهواء... زحام البشر... الطريق الطويل... الطائرة... «الآندرقراوند»... الهاتف.

يفصله: هذا القُرْب البعيد ما بين وريده ودماؤه.

يتطلع إلى السماء في حلكة ليل لندن، وحلكة أضلعه... فيرى النجوم تغادر موكبها، حين أصبحت لحظته الآن: ماء.

يطلّ زمن الغياب في الحضور... في اللحظة التي كانت فيها بين يديه صحبة من القرنفل إختطفها بائع ورود... تركته يتيماً!

ويجيء «علاء»... يجيء... يجيء... حتى يتشكّل «فانتازيا» نوى!

حزم حقيبته من جديد، عائداً إلى «جدة»... بحصيلة عشقه المذبوح.

حبيساً صار في أدراج الليل الصامت وحده... يردد إنشاد «الزيدوني» / قتيلاً:

ـ (أضحى التنائي بديلاً عن تدانينا).

أمام البحر ـ على امتداد شاطىء جدة ـ كان يشعر أنه الطريد في فلوات

الصدمة... ملتاعاً، في عينيه ليل مسهد، وفي صدره أحلام فاسدة مرتدة إلى صدره كالسلاح الفاسد... خطوته الآن إلى العشق: شاغرة!

هذه الزهرة البرية ـ عالية ـ تحوّل وهجها في قلبه إلى رسم.

تحوَّلت الزهرة البرية إلى زهرة بلاستيكية بلا عبق ولا شذا... بلا جذور في أعماقه!

تحوَّلت إلى «فازة»... توضع في ركن من أركان صدره، لتضيف منظراً إلى المكان، وليس لها عطر ولا رائحة!

وبقي «علاء» يترصّد عودة السلطانة إلى القاهرة... ليراها في ملامحها الجديدة التي استقرت في أعماقه.

بعد أسبوع من عودته... عثر عليها في بيتها بالقاهرة:

* حمد الله على السلامة... متى عُدْتِ من رحلتك السرّية؟!

ـ إضطرب صوتها... لكنها قادرة على التماسك، فأجابته: يعني... قبل يومين.

* إن شاء الله إستمتعت بالرحلة؟!

ـ يعني... مش بطّالة.

* يعني ـ مني هذه المرة ـ هل تسمحين لي بالقدوم إلى القاهرة لأراك؟!

ـ صمتت قليلاً ثم أجابته: أهلا بك لكني خلال هذا الأسبوع سأكون مرتبطة بالتزامات مع أهلي.

لا بأس... سيكون موعد حضوري بعد عشرة أيام، تكونين فيها قد جلست مع نفسك، وأجبت الأسئلة الدائرة بين نفسك وبينك، وأنهيت التزاماتك العائلية... إلى اللقاء.

❊ ❊ ❊

❊ تحوّل صوت «علاء» وهو يحادث «عالية» إلى: عاصفة... بنبرة ساخرة لامزة، في المشهد الأخير للمعشوقة «عالية» في عيني عاشقها!

وحيد هو الآن... كأنه عِرْي حقول في ليلة شتائية مرعدة.

وحيد بعد كل غضبه مما صُدم به... مثل رصاصة فارغة، بعد أن أطلقها ضد قلبه للرحمة... تسرقه أمواج الفجيعة: منكسراً يغرق في الصبر... ترميه في لجّة الأصداء من قصة عشقه هذه... والأصداء: ثكالى موحشة... حتى تغيب اللحظة في سدم الشوق: شظايا.

الآن... هو يتواطأ مع فجيعته، وغضبه، وانكساره... فيرى «عالية» في كل أنثى، ومثل أية أنثى!

صارت النهارات: هروبه من الليالي التي يتكثف فيها وجه «عالية» الأخير!

يشعر الآن... كأن «عالية» تهرب من كل الماضي... تنزلق... تنسرب إلى أمواج من جديد.

فجأة... إستغرق في الضحك، كنوبة جنون تلبّسته.

كان ـ لحظتها ـ يُقلِّب في ألبوم صورها... وكانت حريصة في رحلة

باريس، ثم في كل لقاءات القاهرة على تجنيب نفسها من صورة تجمعها مع «علاء»!

هذه صورها وحدها... وصورة من رسالة منه إليها، عثر عليها بين الصور، وتاريخ كتابتها قبل لقائهما في باريس بأسبوع واحد فقط.

تناول أوراق الرسالة، وأخذ يقرأ... ومع القراءة كانت موجة الضحك أو القهقهة تعلو أكثر.

قال: سبحان الله...كنت أكتب هذه الرسالة وأنا في قمة اشتياقي لرؤيتها... لدفئها... للمسة يديها!

الآن ـ يجدها صدفة مع الصور ـ ويعيد قراءتها... فيقهقه!!!

ـ عاد يهمس لنفسه: يا سلام... «جاءت معذبتي...».

نعم... «معذّبته» التي كادت تودي بحياته، ليس شرطاً بالموت، وإنما بالإنكسار، بالحزن، باليُتْم الوجداني... لم يكن يهمها ما يجري له، أو ما يعاني منه... كانت حريصة على حماية نفسها مما كانت تسميه له: «وجع القلب»!

فماذا كتب لها في ذلك الزمان الغابر؟!

* (غالية القلب / عالية:

ـ لأنك هذه الأنثى ـ الزئبقية، الوارفة ـ طلعت من ضوء الصباح: سؤال عشق على شكل نخلة سامقة!

ناديتك... حين ائتلاقك في العمر:

ـ تعالي... دثّريني من صقيع غربتي.

أنا الذي كتبت اسمك... منذ لحظتك الأولى.

مزجت إسمك بأشواقي، وأُلفتي، وحنيني... حين كنت وحيداً: ألاحق طفولتي الهاربة نحو حصاد الصمت.

حين اشتعل السؤال في أوردتي: لهيباً... شظايا جراح عميقة!

حين الطريق بعيدة... وأنت أقصى رحلتي!

أتيتك... أنا هذا الذي يمتد، يمتد... يطوف بأمنيات القلب... يحاصره الرحيل: يوماً... شهوراً.

كم نعدد قفزات السنين؟!

كم نواجه عصف الريح، والأنواء، وتموُّه البدء!؟

وصوت النفس يعلو تارة ويغوص في وجع بليد.

لما أتيتك... افترت ضحكة المستقبل المأمول.

الغد... ذلك الموعد الممنوح من دفء يديك!

لأنك هذه الأنثى ـ المضيئة ـ إنتضيتك من انتظاراتي الطويلة... من اغتصاب الموت لقصائدي العذراء!

كان قدري... أن أزرع العشق سنبلة، وتودعني جذوره!

أختصر العمر في لحظة لا تضيع في خرائط الوقت.

وثْبتي: موجة بحر لا نهائي.

ومرساتي: تصادر نبضة، جعلت مَهْرها: ضلوعك!

وحزني: عندما تسترخي غيرتك عليّ!!

أنا الذي ما زلت أناديك: وأصابعي تجوس في حلكة شعرك الليلي:

ـ هل أتعبك حبي لك؟!

وأنت: انبلاجة صبح الوطن.

أنـا الـذي مـا زلـت أزرعـك فـي حـقـولـي... بـنـفـسـجـة الـروح الـتـي تُعطّرني... أناديك:

ـ إجتثّي من بين ضلوعي الأحزان.

أنت وحدك... تبقين موعدي مع استدارة الضوء، وعنفوان الهناء.

وتصلبين خفقتي... كلما أشرعتِ سيف غضبك، ليقطع توحد هذا الحب!

أنا هذا الفارس الذي لن يتعب من ركض مهرته... صوب اندهاش الأمسيات.

صوب ساحات الليل المترع بهمسك.

صوب أنفاسك التي أشربها... فتروي عطشي إلى الأجمل من الحياة!

أمامك أتضوأ: طفولة قلب... أصغي إلى خفقاته فيك.

أورق قلبي بأسراره... حينما لمسه شعاع منك.

فهل تُمهلين زماني في عينيك؟!

دعي هذا الزمان يطل من شرفاتك على الحلم.

إنه منتهى خفقتي... وشهقتي... واحتضاري!

لأنك هذه الأنثى ـ المهرة...

أبدأ بك الشموس الساطعة على مدني.

أملأ بك ضوء القمر... ومواكب النجوم.

أصعد بك إلى هذا الموت يحييني... من اتساع الحياة لي وحدي... في عينيك)!!

❊ ❊ ❊

❊ ياه........ كل هذا العشق، و«عالية» تواصل قسوتها، وصدودها، وتمارس معه: العقاب على ما صدر منه في باريس؟!

«علاء»... لا يعرف أن الاختلاف في الحوار بينهما، يؤدي إلى ممارسة هذا «التأديب» له منها!

أقفل «ألبوم» الصور، و....... مزّق الرسالة وهو في دهشة من نفسه!!

غداً... موعد السفر إليها، ليكون اللقاء الأهم، والأشق عليه.

❊ ❊ ❊

ـ ٦ ـ

* نقل «علاء» ساقيه فوق أرض مطار القاهرة، كعصفور يهم بالتحليق لأول مرة باتجاه النيل الذي عشقه، كذلك العشق لـ «عالية».

دخل إلى الفندق الذي يسكنه دائماً كلما اشتاق إلى النيل... وكان صامت الملامح، كثير الإطراق، كأنه لا يجيد إلاّ الصمت!

لم يحاول أن يغادر غرفته بالفندق منذ وصوله... لم يتصل بأحد من أصدقائه الذين يفرحون بقدومه إليهم... ولا حتى بـ «عالية».

أمضى شطراً من الليل ما بين «كافتيريا» الفندق، والجلسة أمام النيل... حتى أدركه التثاؤب، وتهيأ للنوم... فإذا برنين الهاتف يفزعه:

ـ صوت عالية: القاهرة نوَّرت... لماذا لم تتصل بي فور وصولك؟!

* أردت أن أكون مع نفسي لليلة واحدة، وأنت داخل نفسي... أو لعلني أستعد للغد!

ـ وماذا في الغد؟!... طبعاً أنا أيضاً.

* أنتِ أيضاً........ ربما.

ـ لماذا تقول: ربما؟!

* لأن هذا العصر لم يعد يقطع بشيء، وبَشر هذه الأيام يخافون من التأكيد حتى ينفكّوا من الالتزام.

ـ حوارك غريب... المهم، سنتغدى معاً غداً.

لو سمحْتِ لي... دعينا نلتقي في الصباح المبكر: أهدأ، وأبرد!

* * *

* في الصباح... إنطلق إلى مقهاه المفضل على النيل.

السحب تركض في الفضاء الرمادي الحزين، ركْضَ الهارب من العاصفة... لكنه يشعر بهذه السحب تتجمع في نفسه استعداداً للقاء.

حبّات المطر تتساقط فوق أوراق الشجر ونوافذ البيوت القاهرية، وليس موعد المطر ولا فصلها... كأنه تخيل المدينة في هذا الصباح ما زالت غافية، والشوارع مزدحمة كعادتها.

جلس إلى أقرب نافذة تطل على النيل، ليتحدث مع هذا الرفيق الأسمر العجوز الذي قذف في عمق الإنسان كل شيء.

نظر إلى السماء... وكأنه يبحث عن شمس ما في هذا الصباح.

ضحكت له السحب الداكنة التي تُطارد وجه الشمس، وهي تغطِّيه حيناً، وتسفر عنه حيناً آخر... وكأنهما عاشقان يتحاوران بالأحضان، حتى خُيِّل له أنه يمكنه أن يجذب قرص الشمس في هذا اليوم بيده ليتدفأ بها!!

حاول أن يركض وراء خصلات السحابات البيض القليلة التي كانت تتدلى من سقف الأفق، وكأنها جدائل شَعر فضية أرسلتها فاتنات من بنات الجن على ظهورهن العارية.

تحت مرمى بصره. . . إنبسط النيل الأسمر العجوز، فسبحت فيه أشعة أفكاره، وامتدت حول النيل. . . تذكّر أول مائدة ضمتهما في القاهرة هنا. . . غمرته هزة عنيفة لم تكن من أثر النسمة الماطرة الباردة، وليست من هذا النيل / جدَّ المصريين الأصيل العريق.

لقد كانت فكرة لقاء «عالية» مرة أخرى في هذا الصباح. . . استهدافاً لهذا المكان بالذات!

تداعت الأفكار أمام عينيه وكأنها أسراب الحروف المهاجرة في كتب الأشعار المسافرة، يقرأها على جبين الفضاء الرحب كأنها زائر غريب. . . يشق الفضاء، ويمتطي صهوة الحزن مخترقاً أحشاء سحب اللا عودة.

كان يقبع على الطاولة كنِسْرٍ هدَّه الزمان. . . يلتفت للنيل لفتة عصفور يبحث في قلبه المشقوق عن فتات الذكريات، ليحاكي بها هذا العجوز الأسمر الذي لا تفارقه نضارته.

تنفَّس خليطاً من الهواء الذي يحمل نبض هذه الأرض، ونسيم وهجير «عالية». . . حس اليوم، وألوف المشاعر، وتعاقب الفصول.

حمل جواز سفر قلبه من جديد، وأخذ يعبر رحلة الاغتراب بفكره ووجدانه داخل اللا شيء. . . كأنَّ سفر الفكر أصبح له زاداً جديد المذاق، يضيفه كطبق جديد من حين لآخر إلى مائدة حياته، كشوق تحوّل إلى قرنفلة في حدائق التجوال، يرطب بها أريج حياته المر الذي لا يحمل إلا قبظ الرحلة، ولهب المشوار الطويل.

كان ينزوي في مقعده ذاك الصباح كمسافر فقد عناوينه، ولكنه لم يضل الطريق.

أحس فجأة بدوار، وكأنَّ ضربة شمس صرعته في وَقْد صيف ريفي. . . برغم برودة الطقس الصباحي.

شرب الشاي وشعر بشيء من التحسن. . . أخذ يفكر في أمره ـ أمر نفسه ـ فماذا رأى في هذه «العالية»؟!

فكرة أنه كان يهيم بها. . . تجعله يحس بالضياع الآن!!

أين هي تلك المرأة الاستثنائية الأسطورية التي عشقها يوماً ما. . . هل كان ذلك خيالاً؟!

وما هي الحقيقة كيف تحول بحر العسل إلى نار من الألم؟!

لماذا أصبحت «عالية» فجأة: فيلماً صامتاً بدون ألوان. . . وكيف استطاع قلبه أن يتحول إلى كتلة جليد وهو معجون بالحنان؟!

هل تحوّلت الرئة البللورية فجأة إلى جهاز لا يدخله الأوكسجين، ولا يزفر إلا بثاني أوكسيد المعاناة والألم والوجع؟!

قد يكون كل ذلك. . . ولكن لماذا يراها، ويتخيلها الآن بهذا الشكل. . . هل هي بوصلة اتجاهات الروح التي لا تتحرك إلا عندما تعرف الحقيقة؟!

وهل هذه الحقيقة هي التي حوّلت «عالية» إلى تمثال امرأة من صلصال: تغمره الشقوق، ويفتقد حتى إلى لمعة الحياة؟!

هل هي نيران التجربة التي أحالت إصابته العاطفية إلى ما يسمى «إصابات العمل» التي يصاب بها الموظف أثناء عمله؟! وإذا كان ذلك صحيحاً: كيف له أن يضمِّد الجروح الغائرة التي اكتوى بها، وهو لا يملك التأمين ضد هذه

الإصابات، ومَنْ سيدفع له التعويض... مَنْ سيدفع له ثمن الحزن والغضب، وموقفه القادم على رصيف الزمان؟!

لقد انتهت القصة المليئة بالدماء، والدموع، والقصص، والحكايات، والقصائد والأسف، والأغاني والرسائل، والمحادثات الهاتفية... أصبحت هذه القصة: لفافة تبغ محروقة، لم يبق منها سوى رماد ضئيل، وفلتر إسفنجي، وعبارة عميقة عن انهيار جسور المودة الإنسانية بين إثنين.

لقد انتهت المشاعر في غياب الفهم، وتضاءل معنى الفهم في غياب المشاعر... وحدثت الجلطة العاطفية التي نتج عنها: سقوط جسر الوصال بينهما تحت وطأة أقدام الخيول المُحمَّلة بالمال... هذه الخيول التي علكت لجام الشفافية والعشق، وأحالته إلى طوق فسفوري يضيء من بعيد كشموس النيون الصناعية في لحظات المطر، ينظر إليها التائه فيعتقد أنها قمر الحياة!!

* * *

* هبطت «عالية» فجأة... رآها... فتخاذلت ساقاه، وأحس بشيء ما يشدُّ عنقه، ويكاد يخنقه... شعر وكأنّ لسانه قد جف في حلقه وكاد يسده، وتعرَّقت راحتاه، ومد أصابعه تحت أذنيه وأخذ يتحسسهما بقلق ظاهر... فقد كان سر اضطرابه: أنه تخيل نفسه ـ فجأة ـ أحمق القرية الذي يتابعه الأطفال بالحجارة والسخرية، وتعرف نواعير المياه وعصافير الحقل قصته!

إندفعت «عالية» في حديث حسبه مجامر صغيرة يتطاير منها الهجير، والسأم، وتثاؤب الأيام... وساده حزن مَنْ لا يسمع إلى أحد.

أخذ يتأملها ولا ينصت إليها... فلم تعد «عالية» تحمل الوجه الفرعوني

الأليف، بل لقد تحوَّلت العيون الناعسة الحالمة إلى دائرة من الزئبق المتحرك في كل اتجاه.

إختفت الجبهة العريضة السمراء التي كانت تنسدل فوقها خصلة الشعر السوداء الجميلة، لتحل محل خصلة هلامية لا روح فيها... وكأن هذه الجبهة أصيبت بفقر الشجاعة!

تحوَّلت الكلمة المدللة الناعمة فجأة إلى لهجة دفينة بأعماق الحارات ونزق رعاة البقر!

وكان عبئاً ثقيلاً على كليهما أن يستمر المكان والزمان والكلام... لقد تحوَّل المكان لثقب إبرة، وتحوّل الزمان إلى ليمونة جافة يحاول كل منهما عصرها بطريقته... والكلام توقف كقطار عتيق في حقل مهجور.

وتحوّلت الطاولة إلى وادٍ سحيق من الجليد وحبات البرد.

وهمس لنفسه وهو يتأمل وجهها:

ـ لكم كان الخيال أجمل وأروع من الواقع!!

* سألته: ما بك تحملق هكذا في وجهي؟! أنت لست «علاء» الذي اعرفه... أنت شخص آخر!!

ـ أجابها: لا أدري... كأنني أفيق من إغماءة طويلة!

هاجس في نفسه، يلح عليه أن يخبرها بما أرى... بسكِّينها التي ذبحته بها.

لا..... سيتركها في هالة السلطانة، أمام نفسها على الأقل!

* قالت: مضطرة أن أذهب لقضاء حاجة في العمل، ونلتقي في المساء على العشاء في أي مكـان تختاره... هاتِفْني أنتَ في البيت بعد المغرب.

وقف يشد على يدها، وكأنه الوداع الأخير... وهو ما زال يحدق في أعماق عينيها اللتين طالما رآهما في حلم يقظته: عميقتان، واسعتان، رائعتا النداء والوميض... ويراهما الآن: بكامل الانطفاء والترمد.

وعندما ينطفىء العشق في داخل القلب... تتحوّل مرئيات العاشق إلى برودة كطقس الشتاء!

وانطلق إلى الشارع يجوس في ربوعه وأعماقه، يندس في الزحام، وكأنه يهرب من شيء ما... يجرُّ ساقيه المتعبتين في استرخاءة الغريب حين يحيل غربته إلى امتلاء، وحين يشم أنفه ريح الأشياء، ويقتفي أثرها بحثاً عن اكتشاف جديد.

سار وحيداً تحت حبّات المطر، سعيداً بها وكأنها قطعة حلوى تتساقط في كف طفل... فجأة لمعت الشموس في لحظات المطر: ابتسامة حقيقية احتوت المقهى والرصيف والطريق.

طائر نورس البحر... كأنه كان ينتظر انتهاء الفصل الأول من رواية حياته، ليباشر الفصل الثاني منها.

لقطه بمنقاره الفضي، ضمَّه تحت جناحيه كأنه يبحث عنه من سنين ليحميه من أسنان البرد وجنون العاصفة!

تبسَّم وهو يحمل جواز سفره مرة أخرى وتأشيره مرور إلى قلب «عالية»: الصالحة لسفرة واحدة.

الآن... أسقط تعبه كله، وهو يهمس لنفسه مؤثراً المشي على قدميه:

ـ الذين يخافون لا يتعبون... إنما هم يركضون باستمرار في دروب التوقُّع الغامض غالباً!

إنهم ـ أيضاً ـ الذين لا يحبون.

لقد انتهى المشوار... لأنه فشل أن يكون (الواجد) لقلب «عالية» وفي قلبها.

حمل همومه، وسيوفه، وأغصانه، وبطاقة قلبه الحزين.

إنه يعود من جديد إلى: اختصار الوقت.

والتفت إلى صديقه الأسمر العجوز ـ النيل ـ ونظر إليه بحنان... وقذف إلى مياهه عملة معدنية قديمة، وأُمْنية!

تبسّم كل منهما للآخر ـ النيل وهو ـ وكأنهما يقولان لبعضهما البعض:

لا غالب....... إلا الحب!

و............ مضى وسط الزحام: يعود إلى التسلية التي تشيخ فيها طفولته!!

انتهت / جدة ١٩٩٦م